مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السّتّون

سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السّتّون

سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القرآنِ الكريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الحَدِيدِ

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نداءٌ يعكسُ حسرةَ المنافقين

لمّا ذَكَرَ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ أنّه ضَرَبَ بسورٍ بين المؤمنين والمنافقين، وبيّن أنّ باطنه فيه الرّحمةُ للمؤمنين، وظاهرَه فيه العذابُ للمنافقين؛ بيّن في هذه الآية ما قاله المنافقون للمؤمنين من وراء ذلك السّورِ، ألم نكن في الدّنيا معكم؟ فأجابهم المؤمنون: بلى، ولكنّكم فتنتُم أنفسَكم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾: (ندي) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ، وقد يدلّ على بَلَلٍ في الشّيء. ونَدَى الصّوت: بُعْدُ مذهبِه. وهو أندى صوتًا منه؛ أيْ: أبعد[1]. والنّداء معناه الصّوت، ومنه المناداة، وهي الدّعوة بأعلى الصّوت وأرفعِه، ويشمل النّداء ما كان دعاء ورُغاء وصياحًا، والصّوت المُندّد المبالِغُ في النّداء، والمعنى المِحوريّ للنّداء: "بُعْدُ مدى ما يبلغُه الشّيء ارتفاعًا أو انفصالًا، كامتداد النّبات، والصّوت، والدّعاء"[2]. ومعنى ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾؛ أيْ: يقولون لهم مع الضّراعة والتّذلل[3].

2) ﴿فَتَنتُمۡ﴾: (فتن) أصلٌ صحيح يدلّ على ابتلاءٍ واختبارٍ. من ذلك: الفتنة. وفتنتُ الذّهب بالنّار، إذا امتحنتَهُ[4]. لينظر جودته

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ندي).
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 388.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).

من رداءته، "وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشّدّة أظهر معنًى، وأكثرُ استعمالًا"[1]، والغالبُ في السّياق القرآنيّ أن تأتيَ الفتنة بمعنى الإضلال أو الإحراق. ومعنى ﴿فَتَنتُمۡ﴾ في الآية: أنّكم اخترتم النّفاقَ سبيلًا، فآثمتُم أنفسَكم به[2].

3) ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾: (ربص) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانتظار. من ذلك التّربّص. يُقال: تربّصتُ به[3]، وتربّص عن الأمر: توقّف، وربصه أمرٌ بمعنى: حبَسَه، وفي المكان بمعنى: لبث، والتّربّص: الانتظار للشّيء خيرًا أو شرًّا، وتربّص بسلعته الغلاء؛ أيْ: أبقاها لوقته، وتربّص أي: احتكر، والمعنى المِحوريّ للتّربّص هو الجُثوم أو الثّبات للشّيء في مكانه مع استغلاظٍ أو حِدّةٍ ما، ويُطلق على اللُّبثِ في المكان، واختزان السّلعة، وسائر ما جاء في القرآن منه فهو بمعنى الثّبات انتظارًا مع حدّةٍ[4]. ومعنى ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ في الآية: "تركتم التَّوبةَ من الكُفرِ والنّفاقِ، ويُقال: انتظرتم موتَ محمَّدٍ ﷺ، وإظهار الكفر"[5].

4) ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: (ريب) أصلٌ يدلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخوفٍ[6]. وهو أيضًا أن تتخوّف من عاقبة شيءٍ، ومن معاني الرَّيْب: التُّهمة، والرّيب أن تتوهَّم حصول شيءٍ، ثمّ ينكشف عنه، وهو قلق النّفس واضطرابها[7]، ومعناه المِحوريّ: أن يُلِمّ بالمَرء المستقرّ ما يسوؤه ويُثيره ويُزعجُه، وينزلَ بالنّفس السّاكنة أمرٌ غيرُ معروفٍ، أحَقٌّ هو أم باطلٌ؟ فيختلط عليه[8]. ومعنى ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في الآية: أطلقتم ظنونكم واتهاماتكم في نُبوَّتِه، وفيما أوعدكم به الرّسولُ ﷺ[9].

5) ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾: (غر) أصلٌ يدلّ على الغفلة ونقصان الفطنة، والغرور ما يغرّ الإنسان

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 1068.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ربص).
(5) الفيروزاباديّ، تنوير المقباس، ص: 457.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ريب).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).
(9) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

كالجاه والمال والشّهوة، وقد فسّر بالشّيطان أيضًا، وبالدّنيا التي تضرّ وتغرّ، ويُقال: غرّته الدّنيا؛ أيّ: خدعته بزُخرفها وزينتها[1]، ومعنى ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ في الآية: خدعتهم الدّنيا، وقالوا لأنفسهم سيغفر الله لنا[2].

6) ﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾: جمع أمنيّة، و(مني) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلّ على تقدير شيءٍ ونفاذ القضاء به. ومنه قولهم: منّى له الماني؛ أيّ: قدّر المُقدّر[3]. والمَنيَّة معناها الموت؛ لأنَّها مُقدّرةٌ على جميع المخلوقات، وأمنية الإنسان ما كان من أملٍ يُقدّره؛ لأنَّ المُتمنّي يُقدّر في نفسه، ويحزر ما يتمنّاه، والأمنيّة هي الصّورة الحاصلة في النّفس من تمنّي الشّيء؛ لأنّ القائل إذا قال ما لا يعلمه فكأنّه يتمنّاه، والأمانيّ على وزن (أفاعيل) جمع (أمنيّة)، والأماني مرادفة في المعنى للأحلام وهي تضليلٌ وإيهامٌ[4]. ومعنى ﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾ في الآية محلّ الشّاهد: هي ما كانوا يرجونه من أقوالهم أن يَهْلِك الرّسولُ ﷺ مع أصحابه كي يرجعوا إلى دينهم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـداءُ الـخُـذلانِ والحسرة

في هذه الآية ينادي المنافقون أهلَ الإيمان بعدما ضُرب السّور بينهم، فافترق الجمع، وانقسم المصير؛ أولئك في نور الجنّة، وهؤلاء في ظلمات العذاب، فنادَوا: ألم نكن معكم؟ ألم نشارككم الصّلاةَ والصّيام ونخالطكم في المعايش؟ فيأتيهم الجواب بما يكشف خفايا القلوب: بلى، كنتم بيننا ظاهرًا، ولكنّكم فتنتم أنفسكم بالنّفاق،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غرّ).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 179.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مني).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مني).
(5) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 351.

وترددتُم في الإيمان، وشكّكتُم في التّوحيد والنّبوة، وخدعتْكُم الأماني الكاذبة، فحال ذلك بينكم وبين الحقّ، حتّى جاء أمرُ اللّه بغتةً، وانقضى الأجل، وأخذتكم الغفلةُ على حين غِرّةٍ، وخدعكم الشّيطانُ، فغرّكم باللّه الغَرور، وأطمعكم في نجاةٍ لا يستحقّها الغافلون[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلها:

تصويرُ مشهدِ نـداءِ الخُسران من المنافقين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنّه استئنافٌ خبريٌّ يُصوِّرُ مشهد نداءِ الحسرة الذي يُطلقه المنافقون في موقف الحشر[2]، بعد أن ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسور الفصل، فكأنّ الخطاب ينبثق من قاع الحَسْرة والخُذْلان، متعلّقًا بأوهى خيوط الانتماء. ويحتمل أن يكون سِرّ فصلِ جملة النّداء عمّا قبلها؛ أنّها استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّ سؤالًا قد تقدَّم في السّياق: فماذا يفعلون إذا ضُرب السّور ورأوا العذاب؟ فجاء الجوابُ يكشف حالتَهم المأساويّة، فقال: ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾[3] في صورة نداءٍ يائسٍ يكشف عن التّعلُّق البائس والخُذلان المبين.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُناداةِ في ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ دونَ القولِ:

الصّوتُ العالي من المنافقين لا يُغيّرُ الحقائقَ

جاء التّعبيرُ بالفعلِ ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ دون فعلِ القولِ؛ لأنّ النّداءَ أخصُّ من القولِ، إذ هو رفعُ الصّوتِ بقوّةٍ بغرضِ الإسماعِ، وهو مُشتقٌّ من النِّداءِ؛ أي: الصّوتِ العالي[4]، للدّلالة على شدّة الحاجة، وانفعالِ المُتكلّم، وطولِ السّور الفاصل بينهم؛ فجاء بهذا التّعبيرِ ليُصوِّرَ حالَ المنافقين وهم يرفعون أصواتَهم بنداء المؤمنين في مشهد الحشر، بعد أن حُجِزَ بينهم بالسّور، فبَقوا في الظّلمة والعذاب، وانفصل

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 184 - 185.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 106، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 199.

عنهم أهلُ الإيمان إلى النّور والرّحمة[1]، بخلاف التّعبير بالقول فلا يُؤدّي معنى رفعِ الصّوت العالي الذي يريده المنافقون في ندائهم للمؤمنين، ولأنّ النّداء يصوّر حالةَ التّحسُّر عندهم بخلاف القول.

دلالةُ استعمالِ فعلِ النّداءِ مُضارعًا:

تصويرُ إلحاحِ المنافقين وتكرارِه

دلَّ استعمالُ الفعلِ المضارع ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ على تصويرِ الحَدَثِ، وكأنّه جارٍ ومُتجدّدٌ، إذ يُظهر حالَ المنافقين والمنافقات وهم يواصِلون النّداءَ بإلحاحٍ، ويرفعون أصواتهم من قلبِ الظُّلمةِ[2] ويُكرِّرونَه في رجاءٍ يائسٍ للمؤمنين أن يلتفتوا إليهم.

سِرُّ اقترانِ الفعلِ ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ بالضّميرِ دونَ الإظهارِ:

تصويرُ الحالةِ النّفسيّةِ للمؤمنين في ندائِهم للمنافقين

اقترن فعلُ النّداء بالضّمير في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ دون أن يُصرّح بلفظ المؤمنين والمؤمنات؛ لما في الإضمار من دلالةٍ على قُرب العهدِ بالذِّكر، ولإظهار أثرِ الموقف النّفسيّ، إذ يوحي هذا الأسلوبُ بشيءٍ من التّرفُّق والرّجاء من المنافقين أثناءَ نداءِ المؤمنين[3]، في لحظةٍ حاسمةٍ تزامنت مع ضَرْب السّور، وكأنّهم يَلوذون بخيطٍ أخيرٍ من العلاقة الخادعة التي جمعتهم في الدّنيا.

دلالةُ التّذكيرِ في فعلِ النّداءِ مع وجودِ المؤمناتِ:

التّغليبُ في الخطابِ الجمعيِّ أسلوبٌ عربيٌّ أصيلٌ

المُنادَى في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ هو الضّميرُ (هم)، وهو عائدٌ على المؤمنين والمؤمنات[4]، غيرَ أنّ التّعبيرَ بالفعل ورَدَ بصيغةِ التّذكيرِ على الرّغم من وجود المؤمنات؛ لأنّه أراده على سبيل تغليب المُذكّر على المؤنّث[5]، وهو أسلوبٌ عربيّ شائعٌ يُراعَى فيه القَصْد إلى الجمع المختلط، فيُعبّر عنهم بصيغة المُذكّر، وهذه الصّيغة لا تُقصي

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 238.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(4) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 866.
(5) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 329.

المؤمنات، بل تندرج فيهم دلالةً، ويُفهم منه أيضًا أنّ الخطاب موجَّهٌ في المقام الأوّلِ لِمَنْ كان ظاهرهم الصّحبة والمشاركة، وهم غالبًا الرّجال ممّن قادوا النّفاق، ومارسوا التّلبيس.

دلالةُ حذفِ القولِ مع جملةِ ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾:

إسقاطُ الحواجزِ بين الفعلِ والمقولِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ منصوبٌ بقولٍ مُقدَّرٍ[1]، وقد حُذِفَ ليفسحَ المجالَ للصّورة السّمعيّة أن تتقدَّم المشهد، لدلالة فعل النّداء على رفع الصّوت وشدّة الانفعال، فالصّوتُ ليس قولًا هادئًا فحسب، بل هو نداءٌ يائسٌ مُتكرّرٌ، يحمل في طيّاته لهفةَ المنافقين وارتباكَهم، فالحذفُ هنا يُسرّع الإيقاعَ، ويُسقطُ الحواجزَ بين الفعل والمقولِ، فيتلاحَمُ النّداءُ بالمضمون مباشرةً دونَ فاصلٍ، لتسمعَ الصّرخة، وتدرك الحُرْقة.

سِرُّ التّعبيرِ بالاستفهامِ في جملةِ ﴿أَلَمۡ نَكُن﴾ دون الخبر:

التّذكيرُ بالماضي والتّودُّدُ في غير أوانِهِ

جاء التّعبيرُ بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن﴾ دون الخبر (كنّا معكم)؛ لأنّه استفهامٌ تقريريٌّ يحمل في طيّاته تذكيرًا وتودُّدًا، فهو تقريرٌ لما كان من صُحبةٍ وعِشرةٍ بينهم في الدّنيا، وتذكيرٌ بروابطَ ظاهريّةٍ جمعتهم بالمؤمنين، وتودُّدٌ فيه رجاءٌ خفيٌّ بأن يُؤخذ ذلك بعين الاعتبار، فيَلْحقوا بركْب المؤمنين، وينجوا كما نجا أولئك، غيرَ أنّ الوقت قد فات، ولاتَ حينَ مناصٍ[2].

دلالةُ الاستفهامِ بالهمزةِ مع دلالةِ دخولِها على ﴿أَلَمۡ﴾:

دهشةُ المفارقةِ ويأسُ المصيرِ

الاستفهام بالهمزة في ﴿أَلَمۡ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، أُدخلت عليه (لم) النّافية، فكان في صورته إنكارٌ ظاهريٌّ، لكنّه في جوهره إقرارٌ خفيٌّ يُذَكّر بما كان من ظاهر صحبتهم للمؤمنين في الدّنيا، وكأنّه كنايةٌ عن التماس اللّحاق بهم، والانضمامِ إلى صفّهم في النّجاة، كما

(1) ابن عادل، اللّباب: 18/ 475.

(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 233.

كانوا معهم في مظاهر الإسلام وأعماله[1]، وإن لم يشاركوا في صدق الإيمان. ويجوز أن يكون الاستفهامُ بالهمزة هنا مُؤذِنًا بالتّعجّب والدّهشة[2]، إذ يُفْصِح عنِ استغراب حالهم وانقطاعِ رجائهم، فهم يتعجّبون من مفارقتهم للمؤمنين في المصير، بعد أن كانوا معهم في الظّاهر، وهو تعجّبٌ ينطوي على يأسٍ دفينٍ وتَمَنٍّ ضائعٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ ﴿نَكُن﴾ مضارعًا:

ادّعاءُ المنافقين كمالَ الاندماجِ مع المؤمنين

دلّ التّعبيرُ بالمضارع ﴿نَكُن﴾ على أنّ المنافقين يُجسِّدون وجودَهم مع المؤمنين، وأنّه لم يكن وجودًا عابرًا، بل كان مُتجدّدًا ومُستمرًّا بحضورهمُ الصّلاةَ معهم ومُشاركتِهم لمشاعر المسلمين، وغرضُهم من ذلك الاستعطافُ. وممّا يُؤكّد ذلك ورودُ التّعبيرِ بضمير الجمع ﴿نَكُن﴾؛ ليُفيدَ الشّمولَ والكُلّيّةَ[3]، وكأنّهم يقولون: ألم نكن جميعًا بأعياننا وجماعتنا وحقيقتنا بينكم، فضميرُ الجَمعِ هنا يُجسِّد ادّعاءَهمُ الكاملَ في الاندماج الظّاهريّ مع المؤمنين.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مَّعَكُمۡۖ﴾ دون (منكم):

معيّةُ ادّعاءٍ لا معيّةُ انتماءٍ

أوثِر التّعبيرُ بقوله: ﴿مَّعَكُمۡۖ﴾ دون (منكم)؛ لأنّ المَعيّة هنا مَعيّةٌ دنيويّةٌ في إظهار الأُخوّة، ودعوى المساندةِ على زعمهم، فنحن نَمُدّ لكم يدَ العَونِ، ونشاركُكُم في ظاهر الأعمال، فقالوا: ﴿مَّعَكُمۡۖ﴾، ولم يقولوا (منكم)؛ لوجود فرقٍ جوهريّ؛ فـ(منكم) تقتضي الاندراج في حقيقة الإيمان والانتماء الصّادق، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنّهم ليسوا من المؤمنين؛ بل اتّخذوا أيمانَهم جُنّةً؛ فصَدّوا عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56][4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 385.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 340.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 275.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 340.

دلالةُ المخاطبةِ في قولِهِ: ﴿مَّعَكُمۡۖ﴾:

كافُ الخطابِ في قوله: ﴿مَّعَكُمۡۖ﴾ دالّةٌ على المخاطبة المباشَرة التي تُبرِز استحقاقًا موهومًا بالمشاركة، فكأنّهم يقولون: كنّا معكم في ما أنتُم فيه من الدّين[1]، فاستحقَقنا بزعمنا ما صرتم إليه من النّجاة، إذ شاركناكم ظاهريًّا في شعائر الدّين. وممّا يُذْكَر في سِرّ مجيء هذا التّعبير بصيغة المخاطبة المباشرة التّأثيرُ في نفوس المؤمنين، فاللّفظُ يحمل في طيّاته إلحاحًا نفسيًّا، يُراد به إثارةُ الشّفقةِ، أو إشاعةُ نوعٍ من الشّكّ في عدالة المُفارقة بين الفريقَين، وهو من تمام بلاغةِ الخطاب؛ إذ نُقِل الحديثُ من الإخبار إلى المخاطبة الحَيّة، ليقوى الأثرُ وتشتدُّ المناشدةُ.

وَهُمْ استحقاقِهم بالمشاركةِ الظّاهرةِ النّجاة من النّارِ

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾:

في قولِ المنافقين للمؤمنين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ تغريرٌ جديدٌ يواصِلون به خِداعَهم للمؤمنين، كما كانوا يفعلون في الدّنيا، إذ لم يفارقهم دَيْدَنُ الكذبِ حتّى في مشهدِ الفصلِ والجزاءِ، فهم يكذبون في الآخرة كما كذبوا في الدّنيا[2]. ويجوز أن يكون قولُهم ذاك واردًا موردَ التّضرّعِ المُؤلِم، والتّرحّم المُستكانِ[3]، يظهر من خلاله حنينُ يائسٍ إلى صحبةٍ ضائعةٍ، ومحاولةٌ أخيرةٌ لاستجداءِ الرّحمةِ والنّجاةِ.

تغريرٌ لا ينتهي، فَكَذِبُهم في الآخرةِ امتدادٌ لكَذِبِ الدُّنيا

سِرُّ التّعبيرِ بالقولِ ﴿قَالُواْ﴾ دونَ المناداةِ:

استعمالُ فعلِ القول ﴿قَالُواْ﴾ من الذين آمنوا[4] دونَ المناداة الدّالّة على رفع الصّوت؛ لبيان أنّ المؤمنين لا حاجةَ لهم في رفع الصّوت الذي هو طريقة المحتاجين أو الملهوفين، والمؤمنون ليسوا كذلك، بل هم على الغاية من الثّبات واليقين والاطمئنان.

فعلُ القولِ دالٌّ على اليقينِ لا على الاستغاثةِ والأنينِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 276.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 522.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 839.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 276.

التّفريقُ بين نداءِ المنافقين المُتردّدِ، وجوابِ المؤمنين الحاسمِ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿قَالُواْ﴾ ماضيًا:

عبّر القرآنُ الكريمُ بالفعلِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾؛ ليثبتَ يقينَ الإجابةِ وقطعَ الشّكِّ؛ لأنّ الماضي في الجوابِ يُعبِّر عن الحَسْمِ والثّقة، وهذا التّباينُ البلاغيُّ يزيد الموقفَ حيويّةً ووضوحًا، ويُبرزُ الفرقَ بين نداء المنافقين المُتردّد الذي عبّر عنه القرآنُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾، وبين الجوابِ القطعيِّ للمؤمنين.

إقرارٌ بالمَعيّة الظّاهرةِ، لا تصديقٌ بالولاءِ الباطنيِّ

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجَرّ ﴿بَلَىٰ﴾:

استعمل التّعبيرُ القرآنيّ حرفَ الجوابِ ﴿بَلَىٰ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنّه يُفيد إبطالَ النّفي الواردِ في سؤالهم[1]، والمعنى: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم في ظاهر أمركم معنا[2]، وليس في هذا إيجابٌ بمعنى التّصديق بدعواهم، بل هو إقرارٌ من المؤمنين بمَعيَّةٍ شكليّةٍ ظاهرةٍ، لا تعني صِدقَ الصّحبةِ، ولا حقيقةَ الإيمانِ[3].

استدراكٌ يكشفُ زيفَ استنكار المنافقين عندما قالوا (ألم نكن معكم)

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الاستدراكِ (لكنّ):

جاء التّعبيرُ بحرف الاستدراك (لكنّ) في قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ ليقطعَ ما قد يُتوهّم من جوابهم السّابق ﴿بَلَىٰ﴾ من الإقرار بالمساواة، أو الاشتراكِ الحقيقيّ، فكان الاستدراكُ رافعًا لهذا الوهم، مُبيِّنًا أنّ الموافقة في الظّاهر لا تَلْحَق بالمؤمنين في المصير، إذ إنّ أعمالهم لم تكن نابعةً من إيمانٍ، بل كانت ستارًا يُخفي باطنًا مُضادًا، ففرّق الجوابُ بين الظّاهر المخادِع والباطنِ الفاسِد[4].

تحميلُ المنافقين المسؤوليّةَ، وتكثيفُ التّقريعِ النّفسيِّ لهم

دلالةُ المُخاطبةِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ﴾:

دلالة المُخاطَبة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ بدلًا

---

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 153.
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 371.
(3) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 385.

من قوله مثلًا: (ولكنّ المنافقين) تُعبّر عن مواجهةٍ مباشرةٍ توبيخيّةٍ، تُحَمِّلهم مسؤوليّةَ ما اقترفوه بلا مواربةٍ، وتفضحُ حالَهم أمامَ المؤمنين، فالمخاطبةُ هنا تشديدٌ في التّأنيب، وتكثيفٌ للتّقريع النّفسيّ.

سِرّ التّعبيرِ بالفتنةِ في قولِهِ: ﴿فَتَنتُمْ﴾:

المُرادُ بها الضّلالُ والانحرافُ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفتنة في قوله: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ دون استعمال لفظِ الابتلاء؛ لأنّ الفتنة في هذا الموضع لا يُراد بها المحنةُ أو الاختبار، بل الضّلالُ والانحراف، كما في مواضع عديدةٍ من القرآن، فهي هنا بمعنى: أضللتُم أنفسَكم، واخترتم طريقَ النّفاقِ بإرادتكم، وهو كفرٌ باطِنٌ سترتم به قلوبَكم[1]، فكانت الفتنةُ منكم لا عليكم.

دلالةُ صوغِ فعلِ الفتنةِ ماضيًا:

نفاقُهم ماضٍ لا يُمْحَى، وأثرُه باقٍ في المصير

جاء فعلُ الفتنة ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّ ما ارتكبوه من ضلالٍ وكفرٍ ونفاقٍ قد وقع وانقضى، فهو ماضٍ لا يُمحَى، وأثرُه باقٍ في المصير، فقد أهلكوا أنفسَهم بمِلءِ إرادتِهم، وانغمسوا في المعاصي والشّهوات، فكانت جميعُها فتنةً مُهْلِكةً[2]، وانحرافًا ومقصودًا اختاروه لأنفسهم.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ دون (نفوسكم):

لفظُهُم قليلٌ، ووزنُهُم ضئيلٌ، لا يُعتدُّ بهم في جمعٍ ولا دليلٍ

أوثر التّعبيرُ بـ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وهي من جموع القِلّة[3] دون (نفوسكم)؛ للدّلالة على حقارة ما فتنوه وأهلكوه، وكأنّهم لم يفتنوا إلّا القليلَ الضّئيل من ذواتهم، ومع ذلك كان كافيًا في هلاكهم، إشارةً إلى أنّ أدنى فسادٍ في النّفس إذا كان عن عمدٍ واختيارٍ، يورد المهالك. وفي التّعبير بقوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ دون (نفوسكم) إشارةٌ بليغةٌ إلى أنّ المنافقين في حقيقتهم قلّةٌ ضئيلةٌ بجانب جمع المؤمنين،

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 866.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.
(3) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 3/ 224.

لا يُعتدّ بهم عددًا، ولا يوزنون وزنًا، فقِلّتُهم في اللّفظ تعكس ضآلتَهم في الحقيقة، مهما بالغوا في إظهار الكثرة والصّحبة.

سِرُّ التّعبيرِ عن اضطرابهم وعدمِ استقرارِهم الإيمانيِّ بالفتنةِ:

انقيادُهم وراءَ شهواتِهم أدَّى إلى اضطرابِهم

عبّر النّظم القرآنيّ عن اضطرابهم وعدمِ استقرارِهم الإيمانيّ بالفتنة في قوله: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأنّهم خالطوا أنفسَهم بخوضٍ مُضطربٍ في أحوالِ الدّينِ، فتنةٍ أمالت فطرتَهم عن الاستقامة، وطلبوا من الإيمانِ ما هو محسوسٌ ليَبرؤوا من الشّكوك، فلم يؤمنوا بالغيب كما أُمروا، فأهلكوا أنفسَهم، وانقادوا وراءَ شهواتٍ زائلةٍ صرفتهم عن صفاء الباطن، ورفعةِ المعاني[1].

دلالةُ إسنادِ الفتنةِ إليهم دون غيرِهم:

فتنتُهم من دواخلِ أنفسِهم، لا من فِعلِ غيرِهم

في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ إسنادٌ مباشرٌ للفتنة إليهم دونَ غيرهم؛ للدّلالة على أنّهم أصحابُ الفعل والإرادة، فهم الذين أضلّوا أنفسَهم باختيارهم، وجاءت إضافةُ الفتنة إلى النّفس خاصّةً، إشارةً إلى أنّ منشأ الانحراف كان من دواخلهم، من ميلها وشهوتها[2]، لا من مؤثّرٍ خارجيٍّ، فكأنّ النّفس هي التي قادتهم إلى المَهلَكة حين استجابت للفتنة، وسلكت دروبَ الضّلال طوعًا.

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

الدّلالةُ على ارتكابِهم لهذه الأفعالِ والآثامِ

في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ عُطفت هذه الجمل بالواو[3]؛ لتدلَّ على تعدُّدِ الأفعالِ والذّنوب التي ارتكبها المنافقون وتراكمِها، وأنّها حدثت منهم جميعًا، ممّا أدّى إلى هلاكهم وضلالهم، فالواو كما هو شأنُها تُفيد الجمعَ المُطلق، والمشاركةَ في الحُكم[4]، أيَ إنَّ هذه الأمور كلَّها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 276.
(2) حقّي، روح البيان: 9/ 362.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 463.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 463.

اجتمعت فيهم، وكانت سببًا في فتنتهم لأنفسهم وغرورهم، فكلّ فعلٍ من هذه الأفعال كان له دورٌ في تكريس ضلالهم وتأخير توبتهم.

سِرُّ تقديم (فتنةِ أنفسِهم) على بقيّةِ أسبابِ الخُسرانِ:

الفتنةُ أصلُ الانحرافِ ومَنبتُ سائرِ الضّلالاتِ

يكمُنُ سرّ البدءِ بتقديمِ قوله: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ على بقية أسباب الخُسران الواردة في الآية؛ فالفتنة هي أصلُ الانحراف وبدايتُه، ومنها تتفرّع سائرُ مظاهرِ الضّلال، فهي التي تُمثّل أوّلَ انكسارٍ داخليٍّ في النّفس، وأوّلَ خضوعٍ لهواها، فبدأ بها البيانُ الإلهيّ؛ لأنّها الجَذْر الذي نبتتْ منه بقيّةُ الآفاتِ.

سِرّ التّعبيرِ بالتّربُّصِ دونَ الانتظارِ:

التّرقّبُ المُريبُ مِن المنافقين لهلاكِ المؤمنين

استعَمَل التّعبيرُ القرآنيّ فعلَ التّربّص في قوله: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ دون الانتظار؛ لأنّ في التّربّص معنى التّرقّب المُريب، والانتظارِ الخبيث، فهو ليس توقّعًا بريئًا، بل تمنّي شرٍّ يحيق بالمؤمنين، والأظهر: أنّ المُراد به هنا تربُّص المنافقين بهم الدّوائر؛ أي: انتظارهم لنوازل الدّهر أن تُهْلِكَ أهلَ الإيمان[1]، وفيه كشفٌ لنواياهم الكامنة، وفضحٌ لمواقفهم العدائيّة المستترة بثوب الصّحبة الظّاهرة. وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بالتّربُّص دون الانتظار: أنّه يدلّ على التّرقّب اللّصيق، والحرصِ الشّديد، فقد استُعير هنا ليُعبّر عن رجاء المنافقين القويّ في أن يُصيبَ المؤمنين شرٌّ أو هزيمةٌ، فهو انتظارٌ مشوبٌ بالشّماتة والتّمنّي، يجمع بين قُرب التّرقّب وشدّةِ التّعلّقِ بوقوع المرغوب[2]، وفيه ما يكشف خُبثَ النّيّةِ، وسوءَ الطّويّةِ.

سِرُّ حذفِ مفعول ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ ومتعلّقه في الآية:

كثرةُ مظاهرِ التّربّصِ من المنافقين

جاء حذفُ مفعولِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ ومتعلّقِه في الآية؛ لإفادة التّوسعةِ والتّكثيرِ في وجوه التّربّص، إذ يحتمل معاني متعددة، منها: تربّص

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 866.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.

المنافقين بالحقّ وأهله، وتربّصهم بالتّوبة وتأخيرها[1]، بل وتربّصهم بهزيمة المسلمين في الغزوات، أو بانقسام صفوفهم، فكلّها وجوهٌ من الأذى والخبث[2]، جمعها الحذفُ ليَعُمّ المعنى، ويُبرزَ سعةَ التّربّص، وكثرةَ مظاهرِه في نفوسهم المريضة.

سِرُّ ذِكرِ التّربّصِ بعد فتنةِ النّفسِ:

الفتنةُ أصلُ الانحرافِ، والتّربّصُ من ثمارِه

ذُكِرَ التّربّصُ بعد فتنةِ النّفس في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾؛ لأنّ الفتنة تُمثّل الانحرافَ الدّاخليّ، واختلالَ البوصلةِ الإيمانيّة من داخل النّفس، فإذا فسدت النّفسُ وانقادت لهواها، كان التّربّص نتيجةً طبيعيّة لذلك الانحراف، فهو سلوكٌ انتظاريّ مُريبٌ، نابعٌ من الشّكّ والرّيبة؛ فالتّرتيبُ ظاهر؛ إذ بدأ بما هو أصل الفساد (الفتنة)، ثمّ ثَنّى بما تفرّع عنه من سلوكٍ منحرفٍ (التّربّص) في تصويرٍ مُتصاعدٍ لانهيار النّفس.

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي:

تأكيدُ وُقوعِ هذه الذّنوبِ وحتميّة نتائجِها

أوثِر استعمالُ الأفعال الماضية في قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ على المضارع، لإثبات وقوع هذه الأفعال في الماضي كحقائق معلومةٍ ومكتملةِ الأثر، وأنّ هذه الصّفات والذّنوب قد تجسّدت فيهم، وحدثت فعلًا، فلا مجالَ لإنكارها أو انتظار حدوثها.

دلالةُ صيغةِ التّفعُّلِ في ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾:

المُراقبةُ المصحوبةُ بالسّؤالِ والتّفتيشِ

جاء فعل التّربّص على صيغة (التّفعّل) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾؛ لأنّ من معاني صيغة (التّفعّل) التّكلّف والمشقّة، وهو المعنى المُراد؛ إذ تدلّ على الانتظار المُرهق، والمراقبة المتأنّية، مصحوبةً بالسّؤال والتّفتيش عن الأخبار والأحداث[3]، فتُجسّد بذلك جهدًا مُتعبًا، وتكلّفًا ملحوظًا.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 476.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 386.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 341.

سِرُّ التّعبيرِ بالارتيابِ دونَ الشَّكِّ:

ارتيابٌ مصحوبٌ بالاتّهامِ والرّيبةِ لا مجرّدُ شكٍّ

جاء التّعبيرُ بـ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ دونَ (شكّكتم)؛ ليُظْهِر نوعًا أعمقَ من التّردد، فهو ارتيابٌ مصحوبٌ بالاتّهام والرّيبة، لا مجرّد شَكٍّ، فهم قدِ ارتابوا في أصولِ دين الله تعالى، وفي حقائق القرآن الكريم، وفي نبوّة محمّدٍ ﷺ، وفي البعث والحساب والآخرة[1]، فكان ارتيابُهم ضربًا من الإنكار والازدراء، لا محضَ تردُّدٍ أو حيرةٍ.

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾:

ارتيابٌ بلا حدودٍ يـعـمُّ أركـانَ الدّينِ

حَذفُ مُتعلّقِ الفعل ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾؛ لدلالته على العموم والشّمول، فيشملُ الشّكّ في وعيد الله، أو في نبوّة محمّد ﷺ، أو في البعث والقيامة[2]، ممّا يعكس عمقَ ارتيابِهم وتشتُّتُ أمرِهم، ويتركُ بابَ التّأويل مفتوحًا على عدّة احتمالات.

دلالةُ ذِكرِ الارتيابِ بعد التّربّصِ:

كَـشْـفُ تَـطـوّرِ سلوكِ المنافقين من تربُّصٍ خَفيٍّ إلى ريبةٍ غامرةٍ

ذكر التّعبيرُ القرآنيّ الارتيابَ بعد التّربّص في قوله: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾؛ لأنّ طولَ التّربُّص والانتظار يُفضي إلى الارتياب[3]، إذ لا يطول التّرقّب في النّفس إلّا ويورثُها الظّنونَ والشّكوك، فكان ترتيبًا يكشف تطوّر حالِ المنافقين من تربّصٍ خفيٍّ إلى ريبةٍ غامرةٍ، تُفْسِد الحقَّ واليقين.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾:

الـغُـرورُ يوحي بانخداعِ النّفسِ طواعيَةً

أوثِر التّعبيرُ بالغُرور دونَ الخداع في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾؛ لأنّ الغُرور يوحي بانخداع النّفس عن طواعية؛ فهو انخداع المَرءِ بنفسه، أو بآمالِه الباطلة بعد أن فَتَنوا هم أنفسَهم حتّى وصلوا إلى الأماني الكاذبة، وقد خدعَتْهم بأوهامٍ زائفةٍ، فقَبلوها وطاوَعوها وتعلَّقوا بها، فكانوا شركاءَ في الغُرور، لا من ضحاياه فحسب.

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 341.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 459.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 341.

الأمـانيُّ الباطلةُ سببٌ في الهلاكِ وتضليلِ العقولِ

بلاغةُ المجازِ العقليّ في إسنادِ الغُرورِ إلى الأمانيّ:

في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ مجازٌ عقليّ؛ بأنْ أسندَ فعلَ الغُرور إلى الأمانيّ، إذْ كانت سببًا في الغُرور ومُلابستِه[1]، فأسند الفعلَ إليها مجازًا على جهة السّببيّة، بأن خدعتْهُم أوهامُهم وما فيه مَطمَعٌ لهم، وهو ليس كذلك[2]، ليُصوّرَ كيف تحوّلت الأوهامُ والطّموحات الباطلة إلى شراكٍ أغوتهم، وكأنّها تملّكت زمامَ عقولِهم، ودفعتهم إلى الهلكة.

تصويرٌ لتعدُّدِ الوَهْمِ وشموله واستيلائِه على النّفوس

سرّ التّعبيرِ بالأمانيّ جمعًا معرّفًا بـ(أل):

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالأمانيّ جمعًا مُعرّفًا بـ (أل)، دونَ التّعبيرِ بالمُفرد المُنكّر؛ لأنّه يحتمل أمورًا كثيرة؛ منها: خِداع الشّيطان والدّنيا وقولهم: (سيغفر لنا)، وقولهم: اليوم وغدًا، وأنّ مُحمّدًا سيهلك وستأخذه الأحزابُ، ومن جملة تلك الأمانيّ الكثيرة: ما كانوا فيه من التّربّص. ومنها: طولُ الأمل، وما كانوا يتمنّونه من ضعف المؤمنين[3].

تصويرُ الأمـانيّ بأنّها قـوّةٌ غالبةٌ على النّفوسِ

سِرُّ عدمِ إضافة الأماني:

لم يَقُلِ السّياقُ القرآنيُّ: (وغرّتكم أمانيكم)؛ بل قال: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾؛ تهويلًا لشأنها وتعظيمًا لما انخدعوا به، حتّى كأنّها أمانيُّ غريبةٌ عنهم، فُرضت عليهم من خارج ذواتهم، لا من داخل نفوسهم، وكأنّها فوقَ أمانيّهم أو مُضافةً إليها[4].

تـرتيـبٌ نفسيٌّ يكشفُ مراحلَ التّضليلِ بين الشّكِّ والأملِ الكاذبِ

دلالةُ ذِكْرِ الغُرورِ بعد الارتيابِ:

ترتيبُ الأفعالِ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ يدلُّ على تسلسلٍ نفسيٍّ، وانزلاقٍ داخليٍّ وقعَ فيه المنافقون؛ فالتّربُّص

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 476، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 263، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 205.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 161.

يزرعُ في النّفس شكًّا وارتيابًا، فالارتيابُ هو نتاجُ التّربّصِ، الذي يُثقل القلبَ بالظّنون والشّكوك، ومع هذه الحالة المُتأزّمة، تأتي الأمانيُّ الباطلة لتَغرَّهم؛ أيْ: لتخدعَهم وتوهمَهم أملًا زائفًا يُبْعِدُهم عن الحقّ المبين.

سِرُّ الاكتفاءِ بهذه الأفعالِ الأربعةِ في جوابِهم:

أسبابُ الخُسرانِ وأصولُ النّفاقِ

اكتفى التّعبيرُ القرآنيُّ بِذِكْر هذه الأفعال الأربعة الواردة في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ﴾ في الرّدّ على قول المنافقين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾؛ لأنّها الأسسُ الجوهريّة التي تُفَسّر أسبابَ الخُسران؛ وهي فتنةُ أنفسِهم، والتّربّصُ بالمؤمنين، والارتيابُ في صدق الرّسول ﷺ، والاغترارُ بالأمانيّ التي تُهيّجها أنفسُهم، إذ تُمثّل هذه الأربعةُ الأصولَ الأساس التي تنبثق منها جملةُ الخصالِ المُتفرّعة عن النِّفاق[1].

سِرُّ استعمالِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دون (إلى):

دلالةُ الدُّخولِ في الغَيِّ والاستمرارِ فيه

استعمل التّعبيرُ القرآنيُّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دونَ (إلى) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، وهما مشتركان في دلالةِ الغايةِ؛ لأنّها تُبيِّن معنى الدّخول في الغاية والاستمراريّة فيها، والمثابرةِ على الحالة الماضية بلا انقطاعٍ، فتؤكِّدُ أنّ المنافقين ظلّوا في غيِّهم وجهلهم على الرّغم من طول أعمارهم وتعاقب السّنين، ولم يكترثوا بالعواقب[2]، أمّا (إلى) فالتّعبير بها يدلّ على الوصول فقط دون إظهار هذا التّتابع المستمرّ، ودونَ الدّخول في الغاية.

دلالةُ التّعبيرِ بالمَجيءِ دونَ الإتيانِ:

فاجأهم الموتُ في غَيِّهم، والقضاءُ صار قَدَرًا غيرَ مردودٍ عنهم

أوثر التّعبيرُ بفعل المَجيء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، دون فعلِ الإتيان؛ لدلالته على حدوث الأمر بسرعة ومباغتة، تحمل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 386.

طيّاتها معنى الفاجعة والقُدوم غيرِ المتوقّع، كما لو أنّ الموت قد فاجأهم، وهم متمسّكون بباطلهم[1]، فلم يكن لهم وقتٌ للتّداركِ أو التّوبة.

سرُّ التّعبيرِ عن المَوتِ بأمرِ اللهِ:

انقطاعُ الأعمالِ وطَيُّ الصُّحفِ

التّعبيرُ عن الموتِ بـ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يشير إلى قضاءِ اللهِ المحتومِ الذي يجتاح حياةَ الإنسانِ[2]، فتتوقّف الأعمال وتُطوى الصّحف، وتجفّ الأقلام، فلا يعود للمُذنب مجالٌ للمراجعة أو التّدارك؛ فهو كنايةٌ بليغةٌ عن الموت الحتميّ[3]، الذي يأتي بغتةً، ويقطعُ كلَّ أملٍ، ويُعلن انتهاءَ الحسابِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالأمرِ مُفردًا ﴿أَمۡرُ﴾:

القضاءُ الإلهيُّ لا مُعقِّبَ عليه

استعمالُ لفظِ الأمرِ مُفردًا في قوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يحملُ في طيّاته دلالةً على وحدة الحَسْم وقوّةِ القضاء الإلهيّ التي لا تقبل التّجزئةَ أو التّأجيل، وأنّ الأمر نهايةٌ لا مناصَ منها، ولحظةٌ فاصلة تُنهي مسارَ الحياةِ، وكلَّ أفعالِ الإنسان دفعةً واحدةً، وتُعبّر عن حتميّة الموت كقضاءٍ واحدٍ شاملٍ يجمع كلّ الأسبابِ والنّتائجِ في لحظةٍ مُقدَّرةٍ لا مهربَ منها.

دلالةُ إضافةِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ الرَّبِّ:

لا خُلْفَ لوعدِهِ ولا مَردّ لما قدَّره في سابقِ الآجالِ

أضاف التّعبيرُ القرآنيّ لفظَ الأمر إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظِ الرّبِّ؛ لما في اسم الجلالة من جلال السّلطان، وكمالِ القَهْر، وشمولِ القدرة، فالإضافةُ هنا تُضفي على الأمر هيبةً مُطلقةً، وتُظْهِر أنّه قضاءُ المَلِك الذي لا كُفْءَ له، ولا مَردَّ لأمره، ولا تأخير لحُكمه، فهو أمرٌ لا يصدر إلّا عن الإله المتّصف بجميع صفات الكمال[4]. وتدلُّ الإضافة على تهويل شأن الموت، وتفخيم

(1) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1290.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 185.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 276.

جهته، وتفظيع موقِعِه[1]، إذ جاء الإسناد إلى الاسم الجامع لصفات الجلال والكمال، فكأنّ الموت ليس مُجرّد نهايةٍ، بل هو أمرٌ صادرٌ عن الإله الأعظم، لا يُردّ ولا يُقاوم، يُسْدَل به السّتارُ على أعمار الخَلْق وأعمالهم.

بلاغةُ اعتراضِ جملةِ المَجيء بين جُملَتَي الاغترارِ:

تحذيرٌ قاطعٌ لِمَنْ يُسَوِّف التّوبة

جاءت جملة الغاية ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ معترضةً بين جُملتَي الاغترار ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ و﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ لتصوير نهاية الطّريق، وتأكيدِ انكشافِ غُرورهم عند حلول الأجل، وكأنّها صوتٌ قاطع يفضح المصير الحتميّ الذي طالما غفلوا عنه، وفي ذلك تحذيرٌ بليغٌ للمؤمن، أن لا يغترّ بالأمانيّ، ولا يماطلَ بالتّوبة، وألّا يركنَ إلى التّسويف بقوله: غدًا غدًا[2]، فإنّ الأمر قد يأتي بغتةً، ولاتَ ساعةَ مَنْدَم.

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الأمرِ:

إيقاظُ القلوبِ وتثبيتُ الرّهبةِ في النّفوسِ

إسناد فعلِ المجيء إلى الأمر في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ من باب المجاز العقليّ، وعلاقته السّببيّة، إذ ليس الأمر هو الذي يَجيء حقيقةً، بل الذي يجيء هو ما يترتّب عليه من الموت وانقضاء الأجل؛ فالمعنى في الحقيقة: حتّى أماتكم اللّه تعالى[3]، لكنّه أسنده له ليَبُثَّ في النّفوس رهبةً أشدّ، وإيقاظًا أبلغ.

بلاغة العطف ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾:

تضاعفُ حسرتِهم عندما انكشفَ الحقُّ لهم

عطف التّعبيرُ القرآنيّ الجملةَ من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ على جملة ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾؛ لتكون تأكيدًا وتحقيرًا لغرورهم وأمانيّهم الزّائفة التي هي من كَيدِ الشّيطان الماكرِ الذي أوهمهم بغيرِ الحقيقة، فازدادت بذلك خسارتُهم وحِرقةُ قلوبهم

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.

حين انكشف لهم الحقّ، فتضاعفت الحسرة والأسى على ما غرّتهم به أنفسُهم، وغرّهم به العدوُّ الخَفيّ[1]. وممّا يُذْكّر في عطف الجملة من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ على جملة ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾؛ أنّها من باب عطف العامّ على الخاصّ[2]، حيثُ جاءت الأمانيّ كسَبَبٍ مُقيِّدٍ لغُرورهم، ثمّ توسّعت في تعميم الغُرور ليشملَ خِداع اللّه لهم، بما يدلّ على اتّساع دائرته وشموله.

سِرُّ تكرار الفعل (غَرَّكُم):

غـــرورٌ يـتـكـرّر وتبكيتٌ يتّسعُ في حصارِ المنافقين بـخـطـايـاهـم الأربع

إعادة الفعل (غَرَّكُم) بعد ذِكْره أوّلًا لتوكيد المعنى وتثبيت صورة الغُرور المُتكرِّر، ولتكثيف أثرِه في النّفوس؛ فإنّ غرورهم لم يكن محصورًا في الأمانيّ، بل تعدّاه إلى ما هو أعظم، وهو الاغترار باللّه حتّى وقعوا فريسةً لخِداع النّفس والشّيطان، فحالُهم في مشهد تبكيتٍ عظيم، اجتمع عليهم فيه أربعُ موبقاتٍ: فتنتُهم لأنفسهم، وتربُّصُهم بالمؤمنين، وارتيابُهم في حقائق الإيمان، وانخداعُهم بالغُرور، فكأنّهم أُحيطوا بخطاياهم من كلّ جانبٍ[3].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تغريرُ الشّيطانِ للمنافقين بعدمِ غضبِ اللهِ عليه

الباء في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ للسّببيّة، أو للآلة المجازيّة، أيَ إنّ الشّيطان جعل شأنَ اللّهِ واسمَه سببًا لغُرورهم، فخَيّل إليهم أنّ التّماديَ في الكُفر لا يُغضِب اللّه، بل هو ممّا يرضاه، وأنّ النّفاق وسيلةٌ لحفظ الدّين والنّفس وكرامةِ القوم، بل واتّخذه بعضُهم ذريعةً لاختراق صفوف المؤمنين، والاطّلاع على أسرار عدوّهم[4]. وممّا يُذكَر في دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ أنّها تدلُّ على تقبيح هذا النّوع من التّغرير، إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 387.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 234.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.

التبس بأعظم الشّؤون، وهو شأن الله ﷻ، فصار الغرور هنا أقبح أنواعه، وأشدَّها فجورًا[1].

دلالةُ تقديمِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ على ﴿ٱلْغَرُورُ﴾:

إثـارةُ الانـتـباهِ وتـعـظـيمُ وقـع التّغريرِ وإبـرازُ قُبْحِه

جاء تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِٱللَّهِ﴾ على الفاعل ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ في قوله: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ لإبراز فظاعة المُتعلَّق؛ أيّ: فظاعةِ أن يكون الغُرور مُتعلّقًا باسم الله ﷻ، فجاء التّقديم لإثارة الانتباه، وتعظيمِ وقع التّغرير، وإبرازِ قُبحه، إذ ليس الغُرورُ مُطلقًا؛ بل هو غرورٌ باسم الله، وفي ذلك تشنيعٌ على المُغترّين، وتوبيخٌ لِمَن سوّلت له نفسُه أن يجعل من صفات الله أو رحمتِه مدخلًا للتّسويف والمعصية.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الحذفُ أبلغُ في التّوبيخِ وأشدُّ في التّنديدِ

في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مجازٌ بالحذف؛ إذ التّقدير: وغرّكم الشّيطانُ بحِلْم اللهِ وإمهالِه[2]، فحُذف المُضافُ، وأُقيم المُضافُ إليه مقامَه على سبيل المجاز، فيكون أبلغَ في التّوبيخ، وأشدَّ في التّنديد، إذْ جعلوا من حِلم الله ورحمته سُلّمًا للتّهاون، فاستحقّوا أن يُؤخذوا بأشنع الوجوه. ويجوز أن يكون التّقديرُ: غرّكم بالله سلامتُكم منه مع الاغترار والخِداع[3]، فجعل الاسمَ الجليل مُقامًا للمُضاف إليه والمُضاف معًا، ليَختصرَ المعنى، ويُشدِّدَ وقعَ الغُرور، ويُبرزَ كيف اتَّخذوا مَنْ ظنّ السّلامة بالله سببًا للانخداع والضّلال.

سِرُّ التّعبير بـ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بالفتح:

المبالغة في وصف المتّصف بالتّغرير

التّعبير بـ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين في قوله: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ دونَ (الغُرور) بضمّ الغين؛ لأنّ التّعبير بمفتوح الغين ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ هو للمبالغة في وصف المُتّصف بالتّغرير، والمُراد به هنا الشّيطان، إذ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 235.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 249.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 459.

يُلْقي في نفوسهم خواطرَ النّفاق مُزوِّرًا إيّاها بألوان الحقّ، ومُرْضيًا لديهم دينَ الكفر، زاعمًا أنّه مرضاةُ اللّه[1]. بينما الضّمُ في (الغُرور) يحمل معنى الأباطيل[2]. ويجوز أن يكون لفظ (الغُرور) بضمّ الغين، وهو كلّ ما يَغترُّ به الإنسان من متاع الدّنيا وشهواتها ومالها وجاهها وأنعامها وحرثها، وحتّى ثناءُ النّاسِ عليه، فهو نوعٌ من الخِداع الذي ينشأ عن غفلةٍ، أو قِلّة تدبّرٍ وتفكيرٍ، وهو متاعٌ زائلٌ غيرُ دائمٍ، مقارنةً بمتاع الآخرة الباقي الذي لا يفنى ولا يزول[3].

دلالة (أل) في ﴿ٱلْغَرُورُ﴾، وسِرُّ مجيئه على صيغةِ (فَعول):

الشّيطانُ رأسُ الغِوايةِ ومصدرُ الإغواءِ

(أل) في لفظ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ للاستغراقِ، لتدلَّ على جنسِ الغارّين، لا مجرّدِ واحدٍ منهم، وهم أئمّة الكفر، وقادةُ النّفاق[4]، وأمّا مجيئُه على صيغة (فَعول)، فهي من صيغ المبالغة؛ للدّلالة على كثرة صدوره عن الغَرور، ومداومته عليه، فهو لا يُغوي مرّةً أو مرّتيْن، بل يُغْري ابنَ آدمَ تكرارًا، ويتسلّل إلى قلبه دهاءً وخِداعًا، وهو الشّيطان رأسُ الغِواية ومنشؤها[5].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ دونَ التّغرير:

تمكّنُ الخِداعِ من النّفسِ واستسلامُها له

جاء التّعبيرُ بـ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ دونَ لفظِ التّغرير؛ لأنّ الغَرورَ أبلغُ في تصوير الحالة، إذ يدلّ على تمكُّنِ الخِداع من النّفس واستسلامِها له، حيثُ ينخدع الإنسانُ ويطمئنُ إلى الباطلِ، ويَظنُّه حقًا، بينما التّغريرُ يُعبِّر عن مُجرّدِ إظهار الضّارّ في صورةِ النّافع بتمويهٍ وسفسَطةٍ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(2) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 239.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 9/ 268.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 405.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ التّغريرِ إلى الشّيطانِ:

هو السّببُ المُزيّنُ للتّغريرِ بكذِبِه وتسويفِه

إسنادُ التّغرير إلى الشّيطان من المجاز العقليّ؛ لأنّ الشّيطان هو السّببُ المُزيِّن للتّغرير[1]، فإنّ من صفاته الكذبَ، وكيف لا يكون كذلك، وهو العدوّ الحسود المشتهرُ بالتّسويف بتأميلكم غفرانَ اللّهِ ورحمتَه وعفوَه، وتهوينِ شأنِ ذنوبكم، فلا يزال كذلك حتّى يوقعَ ابنَ آدم، ثمّ يواصلَ عليه حتّى يتمادَى، ثمّ يؤولَ الأمرُ إلى أن تكون نفسُه هي الباعثُ حينئذٍ، عند ذاك يصبحُ طوعَ أمرِه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّداء والدّعاء:

مناسبةُ رفعِ الصّوتِ لشدّةِ هولِ يومِ القيامةِ

في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾، جاءت الآية بالنّداء، وليس بالدّعاء، لاختلاف معنييْهما؛ فالنّداء رفع الصّوت، والدّعاء يكون برفع الصّوت وخفضه؛ فقد يدعو المرء بعيدًا، وقد يدعو اللّهَ في نفسه[3]، فتقول: دعوتُ فلانًا من بعيدٍ، وتقول: دعوتُ اللّه تعالى في نفسي، ولا يصحّ أن تقول: ناديتُ اللّه في نفسي، والدّعاء قد يكون بعلامةٍ من غير صوتٍ وكلام، ولكن بإشارةٍ تُنبئُ عن معنًى؛ بخلاف النّداء، فلا يكون إلّا برفع الصّوتِ وامتداده؛ لأنّ المقام يقتضي رفعَ الصّوت ليصلَ إلى مَن يُنادَون، إذِ الموقف يوم القيامة عظيمٌ، والبُعد بين الفريقَيْن ظاهرٌ، والحاجز بينهما قائمٌ، فلا يكفي مجرّدُ الدّعاء الخافت أو المناجاة، بل يحتاج إلى نداءٍ يُسمَع من وراء السّورِ والحاجز، فجاء التّعبيرُ بالنّداء للدّلالة على رفع الصّوت وإظهاره ليبلغَ الطّرفَ الآخرَ.

الفتنة والابتلاء:

في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ استعملَ لفظَ الفتنةِ، ولم يُعبّر

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 235.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 19/ 277.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 534.

الفتنةُ تكشفُ بواطنَ النّفسِ بإظهارِ خبيثِها من طَيّبِها

بالابتلاء؛ لأنّ الابتلاء في أصله لا يجاوز معنى التّعرُّض للمشاقّ، وتحمُّل المكاره[1] لاختبار العبد، أمّا الفتنة فهي أبلغ وأشدّ؛ إذ أصلها من عرض الذّهب على النّار ليتبيّنَ خالصُه من زائفه، وفيها معنى الإحراق والتّنقية والتّمييز الشّديد[2]؛ فكان التّعبير بالفتنة هنا أدقَّ في تصوير حالهم، لأنّهم لم يقتصروا على مجرّد ابتلاءٍ عابرٍ، بل أوقعوا أنفسَهم في أتون اختبارٍ مُهلِكٍ أحرق قلوبَهم، وعرّضوا أنفسهم لما يكشف حقيقة إيمانهم، ويُظهِر خبثَ باطنهم، فكأنّهم ألقَوا ذواتَهم في لظى الفتنة حتّى بان فسادُ معادِنِهم.

التّربّص والانتظار:

تـرَبُّـصٌ مـوجٍ بطولِ الانتظارِ الممزوجِ بالتّوجُّسِ والحَذَرِ

عبَّر الحقُّ سبحانه بالتّربُّص في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ ولم يُعبِّر بالانتظار، إذِ الانتظار لفظٌ عامٌّ يشمل القليل والكثير من الزّمان، أمّا التّربّص فهو طول الانتظار[3] مع الترقّب لما يَحِلُّ بالمُتربَّص به من خيرٍ أو شرٍّ[4]، فكأنّ الآية تُصوّرهم وقوفًا ممعنين في إطالة التّرقُّب، يحدوهم رجاءُ الباطلِ أو خوفُ الحقِّ، فدلَّ اختيارُ هذا اللّفظِ على ثِقَل زمنِ الانتظار وامتداده، وعلى ما يكتنفه من توجُّسٍ وحَذَرٍ وشرودٍ عن اليقين.

الارتياب والشّكّ:

الارتياب شكٌّ مصحوبٌ بالتُّهمة، فقلوبُهم مُتردّدةٌ في الحقّ متجاوزةٌ إلى سوءِ الظّنّ

عُبِّر بالارتياب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، ولم يُعبَّر بالشّكّ؛ لأنّ الارتياب أخصُّ من مُطلَق الشّكّ، إذ هو شكٌّ يُلابسُه اتّهامٌ وريبةٌ[5]، فكأنّ قلوبَهم لم تكتفِ بالتّردّد في الحقّ، بل جاوزته إلى إساءة الظّنّ والتّهمة في أمره،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.

فكان اختيارُ لفظِ الارتياب أبلغ في تصوير حالهم، إذ جمع بين ظُلمةِ الشّكِّ، وغشاوةِ التّهمةِ.

الغُرور والخِداع:

إيهامٌ يسوقُ إلى الضَّررِ واستدراجٌ إلى الهلاك

عبَر المولى سبحانه بالغُرور في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، ولم يعبِّر بالخِداع؛ لأنّ الغُرور أبلغُ وأعمقُ دلالةً في تصوير حالهم؛ إذ الغُرور إيهامٌ يحمل الإنسان على فعل ما يَضرُّه وهو غافل عنه، كمَن يظنّ السّرابَ ماءً فيُضَيِّع ماءَه فيَهلكُ عطشًا، أو كآدم ﵇ حين غَرَّه إبليسُ فأقدمَ على الأكل ممّا نُهيَ عنه؛ فوقع في الضَّرر[1]، فالآية تبيّن أنّ أمانيَّهم الكاذبةَ، وخيالاتِهُم الباطلةَ حملتهم على الغفلة والاغترار حتّى جاءهم أمرُ اللّه، وهم على غيّهم.

أمّا الخِداع: فدلالته على السَّتر والإخفاء لوجه الصّواب فحسب[2]، وهو أخصّ وأخفّ من الغُرور؛ فجاء اختيارُه ليصوّرَ شدَّةَ انخداعِهم وانسياقِهم وراءَ الأوهام حتّى استدرجَهم الباطلُ إلى ما فيه الهلاك.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 383 - 384.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 384.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

خطابُ الحِرمانِ بعد نداءِ الحسرةِ والألمِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة نداءَ المنافقين لأهل الإيمان بقولهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾، وهو نداءُ حسرةٍ، جاءهم الجواب: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم بيننا بأجسادكم، لكنّكم فارقتمونا بقلوبكم؛ جاءت هذه الآيةُ حاملةً خطابَ الحِرمان من النّجاة، وأنّهم هالكون لا محالة، ولا سبيلَ إلى الخلاص من النّار، فلا فدية تنفعُهم، ومصيرُهم إلى جهنّمَ وبئس المصير[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِدۡيَةٞ﴾: (فدى) في إحدى دلالتيْه: أن يُجعَل شيءٌ مكان شيءٍ حمًى له[2]. والفدية: "ما يقي به الإنسان نفسَه من مالٍ يبذله في عبادةٍ قَصَّر فيها، يُقال له: فدية، ككفّارة اليمين، وكفّارة الصّوم"، ويُقال: فديته بمالي ونفسي أفديه فداء، كأنَّك تحميه بنفسك، أو بشيءٍ عوضًا منه، وهو فكاك الأسير أيضًا[3]؛ لأنّ الأصل في هذا الفكاك أن يقدَّم قدرُ الأسير؛ أيْ: قيمته، أو ما يكون معادلًا لحجمه الحِسّيِّ أو المعنويّ، ثمّ جرت العادة أن تكون الفدية غُرمًا مقابلًا للمخالفة، وللنّفس من العقوبة، وجميع ما في الكتاب الكريم من الفداء والفدية وما اشتقّ من ذلك هو ما يقدّم لدفع الضّرر كالأسر والذّبح والذّنب المستوجب للعقوبة[4]. ومعنى ﴿فِدۡيَةٞ﴾ في الآية الكريمة: البدل الذي يقي أنفسَكم من العذاب[5].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 456.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فدى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فدى).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 249.

2) ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾: (أوى) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على التّجمع والإشفاق[1]. يُقال: أوى المرء إلى منزله يأوي، ومعناه: التّجمّع والانضمام، ومنه: المأوى، ويشمل كلّ مكانٍ يأوي إليه الإنسانُ أو غيرُه ليلًا أو نهارًا[2]، والأصل في (المأوى) المَيل، وسُمّي منزل الرّجل مأواه؛ لأنّه المكان الذي يميل إليه فيُقيم فيه، ويأتي بمعنى الإنزال، فآويته بمعنى: أنزلته[3]، وزيد على الضّمّ في معناه المِحوريّ: الضَّعفُ، فهو ضمٌّ مع ضعفٍ ما، كالإيواء للنّصرة والحياطة كالأوّي إلى المنزل والمسكن؛ فإنّ فيه ضعفًا لحاجته[4]. والتّعبير به هنا للكافرين على سبيل التّهكّم، فإنّ المأوى هنا واقعٌ لعذابهم وليس لحمايتهم، ومعنى ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ في الآية: مقامُكم ومنزلُكم الذي تصيرون إليه[5].

3) ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على قُربٍ[6]، يُقال: تباعدَ بعد ولْي؛ أيّ: قُرْب، وجلس ممّا يليني؛ أيّ: يقاربني، ويدلُّ على اللّزوم مع شيءٍ من جهة الاشتمال وعدم الانفكاك، وكما هو حال الوَليِّ فإنّه مُلازمٌ لمولاه لا ينفكُّ عنه، ومصدره: الولاء، من "واليتُ بين الشّيئَيْن موالاةً وولاءً..."، والولاية: الإمارة، والوليُّ: خِلافُ العَدوّ"، وتأتي الولاية بمعنى: النّصرة؛ أيّ: ينصر بعضهم بعضًا في الدّنيا، أمّا الحقّ سبحانه فهو الوَليُّ الحقيقُ بهذا الاسم. فمعنى ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ في الآية: "أيّ: وليّكم، وقيل: هي أولى بكم لما أسلفتم من الذّنوب، والمعنى هي التي تلي عليكم؛ لأنّها ملكت أمركم، وأسلمتم إليها؛ فهي أَوْلَى بكم من كلِّ شيءٍ"[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى في هذه الآية: لو أنّ أحدكم أتى بمِلء الأرض ذهبًا، ومثله معه ليفتديَ به من عذاب اللّه تعالى في هذا اليومِ، ما قُبِلَ منه فداءٌ، ومأواكم النّار، فهي مصيركم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (أوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، (أوى).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

فـديةٌ مــردودةٌ ومصيرٌ إلى نارٍ ممدودةٍ

المحتوم، ومنقلبُكم الذي لا محيدَ عنه؛ فذلك المأوى أوْلى بكم من كلِّ منزلٍ، بما حملتم من كفرٍ وريبٍ، وبئس القرارُ والمصيرُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بالفاء في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

عطفُ التّلقين تيئيسًا لهم من الطّمعِ في نيلِ شيءٍ من نـورِ المؤمنين

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دون غيرِها من حروف العطف لتعدُّد معانيها؛ فتحتمل أن يكون المُراد بها السّببيّة لا لمجرّد التّعقيب، إذ يُبْعِد السّياقُ أن يكون الامتناع عن الأخذ مُتأخّرًا عن الغرور زمانًا؛ بل هو مترتّبٌ عليه سببًا؛ لأنّ الغرور هو الذي أفضى إلى هذا الحرمان، لا أنّ الامتناع جاء بعدَه مباشرةً من حيث التّرتيب الزّمنيِّ[2]. ويحتمل أن يكون هذا القول صادرًا من اللّه تعالى خطابًا للمنافقين، على وجه التّلقين المُقترن بالتّأنيب؛ تأييسًا لهم من التّعلّق بوَهْم اقتباس النّور، وتنبيهًا على انقطاع الرّجاء؛ فتكون فاء ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ واقعةً موقع العطفِ؛ لاتّحاد مقام الخطاب[3]، إذ تُعْطَف جملةُ التّلقين الإلهيّ على ما قبلَه من كلامهم؛ لاتّساق الحديث في مشهدٍ واحدٍ يجمع الفريقَيْن. ويجوز أن يكون معناها فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن شرط مُقدَّرٍ دلّ عليه السّياق، تقديره: إذا انكشفت لكم حقائقُ حالكم في الدّنيا، وتبيّن لكم خسرانُكم فيها، وطلبتم أن تعلموا مآلكم في الآخرة، فالجواب: اليومَ لا يُؤخذ منكم فداءٌ ولا شفاعةٌ[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملةِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾:

احتمالُ الخطابِ بــين صـــوتِ المؤمنين وحُكمِ ربِّ العالَمين

يجمع التّعبير بجملة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ بين احتمالَيْن بلاغيَّيْن رفيعيْن؛ فإمّا أن يكون تتمّةً لخطاب المؤمنين

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 180.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 468.

للمنافقين، استكمالًا للتّوبيخ والتّنديم، وقد صار عدم قَبول الفداء معلومًا في المَحشر بما يُسمع من قضاء اللّه تعالى، أو ممّا تقرّر في النّفوس من أخبار الوحي. ويحتمل أن يكون هذا القول صادرًا من اللّه تعالى؛ تلقينًا إلهيًّا يقطع الطّمع، ويؤيّسهم من اقتباس حظٍّ من نور المؤمنين[1].

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ (اليوم)، ودلالةِ تعريفِهِ:

اليومُ المعلومُ الذي يزولُ فيه التّكليفُ

جاء التّعبيرُ بلفظ (اليوم) دون غيره من الأوصاف؛ لأنّه اليوم الفاصل الذي تُطوى فيه صحيفة التّكليف، فلا يُقبل فيه إيمانٌ مُتأخِّرٌ، ولا توبةٌ بعدَ انتهاء الحياة؛ لأنّ زمن الامتحان قدِ انقضى، وانكشف الإلحاد[2]، ووقع الجزاء. وجاء مُعرّفًا بـ (أل) لأنّه اليوم المعلوم المُحَدّد بيوم القيامة[3] الذي يحمل في طيّاته الحَسْم والفصلَ؛ لأنّه يومٌ شديد القسوة فلا عذر للمنافقين؛ فكانت المعرفةُ دالّةً على شدّته وتفرُّده، كما لو قال: في هذا اليوم المبين الذي لا يغفل عن قسوته أحدٌ، ولا يُغتفر فيه تقصيرٌ.

دلالةُ تصديرِ الجملةِ بلفظِ (اليوم):

تقريعُ المنافقين بذِكرى ذلك اليومِ العظيمِ

جاء لفظ (اليَوۡمَ) في صدرِ الجملةِ؛ ليُقرِّعَهم بذِكرى ذلك اليومِ العظيمِ، وليوقظَ فيهم ما كانوا يُضمرونه في الدّنيا من نفاقٍ ورياءٍ، حين كانوا يتعايشون مع المؤمنين تقيّةً وتربّصًا، وفضحهم الحقُّ سبحانه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ [التّوبة: 98][4].

دلالةُ تعلُّقِ الظّرف (اليوم) بانتفاءِ الأخذِ:

نَصبُ الظّرفِ بالفعلِ إيذانٌ بالانتهاءِ وانقطاعِ الرّجاءِ

تعلّقُ الظّرفِ (اليوم) بالفعل المَنْفي ﴿لَا يُؤۡخَذُ﴾ يُفيدُ تخصيصَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.
(2) ابن عادل، اللّباب: 18/ 476.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 405.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.

الامتناعِ بهذا اليوم العظيم، فالفعل هو الذي نصبَ الظّرف[1]، دالًّا على أنّ الأخذ ممتنعٌ وقوعُه في هذا الظّرف البتّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى حسم الجزاء، وانقطاع الرّجاء.

سِرُّ التّعبيرِ بالأخذِ في قولِه: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ دون (لا يقبل):

تصويرُ الفداءِ بالمحسوسِ وإغلاقُ بابِ الفكاكِ الموهومِ

آثَر التّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ نفي الأخذِ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بدلًا من نفي القَبولِ؛ لما في الأخذ من دلالةٍ حسّيّةٍ مباشرةٍ تُصوِّر الفداءَ بمالٍ يُدفَع ليَفتديَ به صاحبُه نفسَه من العذاب، فتنسجمَ الصّيغةُ مع صورة النّجاة المُفترَضة، وتجسّدَ المعنى بوضوح، ولأنّ (الفدية) في أصلها تدور على ما يُبْذَل فداءً عن النّفس، ولا تقتصِر على المال فقط، بل قد تكون صيامًا أو صدقةً أو نُسُكًا، ولو قيل: (لا يُقبل منكم فدية) لانفتح المعنى على كلِّ صور الفدية المشروعِ قَبولُها في الدّنيا[2]. وليس هذا مُرادًا في هذا الوقت؛ لأنّه فات الأوان.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الأخذِ مَنفيًّا في قولِه: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾:

ديمومةُ المَنعِ وتجدّدُ الإذلالِ في زمنٍ لا رجاءَ فيه

جاء التّعبيرُ بفعلِ الأخذ مضارعًا مَنفيًّا في قولِه: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّدِ والاستمرار، فالمضارع هنا يُصوِّر الحَدَث كأنّه جارٍ في لحظته، وكأنّ مشهدَ المنع من الفِداء يتكرّر ويُشاهد؛ فيُضفي على الجملة طابعًا حيًّا مستمرًّا، يُجسّد دوامَ الحِرمان، واستمرارَ انقطاعِ الرّجاء، وفي هذا التّصويرِ إمعانٌ في الإذلال والتّقريع.

أثرُ تعدُّدِ القراءاتِ في قوله: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾:

تكاملُ القراءتين في أداءِ المعنى

في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ قراءتان؛ أولاهما: قراءة ابن عامر وأبي جعفر ويعقوب: بالتّاء: ﴿لَا تُؤْخَذُ﴾[3] مُؤنثةٌ مُفردةٌ، فاعتمدوا بذلك على تأنيثِ الفديةِ، حيثُ تقتضي القاعدةُ النّحويّةُ توافقَ الفعلِ مع المفعول به من حيثُ التّذكيرِ والتّأنيثِ، ثانيتُهما:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 107.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 342.
(3) ابن مهران، المبسوط، ص: 429.

قراءة الباقين ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بالياءِ، ووجه ذلك أنّ المُراد الفِداءُ بوجهٍ عامٍّ[1]، باعتبارِه اسمًا مُذَكّرًا جامعًا لمعاني الفِديةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

سدُّ بابِ الأخذِ مُطلقًا

دلّ التّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ المَنفيّ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ مبنيًّا للمعلوم[2] على الفعلِ نفسِه، وهو الامتناعُ التّامّ عن الأخذِ، لا على فاعلٍ مُعيَّنٍ يأخذ أو يمتنع، فالمَبنيّ للمفعول يُفيدُ سدَّ بابِ الأخذِ مُطلقًا[3] دون تخصيصٍ أو استثناءٍ، ليكون الحَظْرُ شاملًا.

بلاغةُ الكنايةِ: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾:

قطعُ طريقِ الفِداءِ، واستحالةُ النّجاةِ من العذابِ

التّعبير في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ هو من باب الكناية بنفي أخذِ الفدية؛ جريًا على ما هو شائع من أنّ الأسير أو الجاني قد يُفلِتان من العقاب بدَفع فديَةٍ[4]، فهنا جاء النّفي ليؤكّدَ استحالةَ النّجاةِ أو الإفلاتِ.

فائدةُ نفيِ أخذِ الفديةِ منهم ذلك اليوم:

التّذكيرُ بما كان من وحيِ القرآنِ وبلاغِ النّبوّةِ

نفيُ أخذِ الفدية في هذا اليوم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾، يُعدّ توكيدًا لما استقرّ في أعماق نفوسهم، ممّا علموه من وحي القرآن، وبلاغِ النّبيّ ﷺ[5] على أنّ ذلك من تمام خِطاب المؤمنين للمنافقين.

دلالةُ تقديمِ ﴿مِنكُمْ﴾ على ﴿فِدْيَةٌ﴾:

التّأكيدُ على شدّةِ حِرْمانِهم

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ واردٌ لتوكيد التّخصيص والاهتمام بالمُخاطَبين؛ أيْ: أنتم لا غيرُكم لا تُقبل منكم فديَةٌ، ولو قُبِلَت من غيركم،

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 56.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 463.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388 - 389.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388 - 389.

فالمقصودُ حصرُ النّفي فيهم؛ إظهارًا لشِدّة الحِرمان، وإبرازًا لمكانتهم المنكوسة.

سِرُّ التّعبيرِ بكافِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿مِنكُمْ﴾:

المـواجـهـةُ الصّريحةُ وقعُها شديدٌ وأليمٌ

التّعبيرُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ فيه إشارةٌ مباشِرةٌ إلى المنافقين، إذِ الخطاب موجَّهٌ إليهم في هذا السّياق القرآنيّ[1]؛ لتقع المواجهة صريحةً، ويكونَ الوعيدُ أوقعَ وأشدَّ، فيُصوَّرَ حرمانَهم من النّجاة، وكأنّه يُقال لهم بأسمائهم: أنتم لا يُؤخَذ منكم فداءٌ ولا من الذين كفروا، ولا ينفعكم ما كنتم تُخفونه من نفاقٍ أو تظاهرٍ بالإيمان.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿فِدْيَةٌ﴾:

اتّساعُ دلالتِها لشُمولِ كلِّ ما يُفْدَى به

التّعبير بلفظ ﴿فِدْيَةٌ﴾ دون الاقتصار على كلمات مثل: (عدل) أو (مال) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، يكمن في شموليّة المعنى، واتّساع دلالته، إذِ الفدية لا تقتصر على المال فقط، بل تشمل كلَّ ما يُبْذَل فداءً لحفظِ النّفس من الهلاك أو النّجاة من النّار أو فَكِّ الأسر، سواءٌ كان ذلك مالًا، أو صيامًا، أو صدقةً، أو نسكًا[2]، بهذا التّعبير العامّ تُغطّي الفديَةُ كلَّ صورِ التّكاليف التي قد تُقدَّمُ للفِداء. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالفديَة دونَ العَدْل: أنّ الفدية أعظمُ من العَدْل وأوسعُ دائرةً؛ إذِ الفديةُ هي ما يجعل بدلَ الشّيء ليعودَ به إلى حالته الأولى، سواءٌ كان ذلك البدلُ مثلَ المُفْدَى أو أنقصَ منه، أمّا العَدْلُ فهو ما كان مثلًا لما يُفدَى تمامًا، لا يزيد ولا ينقص[3]؛ فجاء التّعبير بالفدية في الآية؛ لأنّ المقام مقامُ نفيٍ عامٍّ يشمل كلَّ ما قد يتوهّمه الإنسانُ يومَئذٍ من فداءٍ، سواءٌ أكان معادلًا

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 342.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 342.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 399.

لما يُفتَدى به أم دونه؛ ليُبيِّن أنَّه لا يقبل منهم أيَّ بدل، ولا أيَّ خلاصٍ، ولا أيَّ مهربٍ، فَسَدّ عليهم بابَ كلِّ فداءٍ مهما كانت صورتُه، وأغلق عنهم أبوابَ النّجاة جميعًا.

دلالةُ تنكيرِ ﴿فِدۡيَةٞ﴾:

جاء لفظُ ﴿فِدۡيَةٞ﴾ مُنكّرًا ولم يأت معرّفًا؛ لأنّ التّنكير يُفيد العمومَ والشّمولَ، ليُبيِّنَ أنّ أيَّ شيءٍ يُظنّ أنّه يَصلُح فداءً، سواءٌ كان مالًا أو توبةً متأخِّرةً أو ادّعاءَ إيمانٍ[1]، كلُّه مردودٌ لا يُقبل، فجاء بها نَكرةً لتتناولَ جميعَ الصّورِ والأنواعِ المُمْكِنة. ولأنّ التّنكير دالٌّ على أيّ نوعٍ من أنواع الفداء، صغيرًا كان أو كبيرًا، مالًا أو عملًا، قليلًا أو كثيرًا، حسنًا أو قبيحًا، إذِ المقصود نفيُ الفكاك مطلقًا، بأيّ بدلٍ يُقدَّم لإنقاذ النّفس؛ فجاء التّنكير ليَعُمّ كلّ ما يُظنّ أنّه يُفتدَى به؛ لأنّ اللّه غنيّ عن الفِداء، ولأنّ زمن العمل قدِ انقضى[2].

شمولُ نفي الفِداءِ لجميعِ صورِهِ وأنواعِهِ

بلاغةُ عطفِ جملةِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾:

تظهر بلاغةُ عطف جملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ على ما سبق، في دلالتها على معانٍ متعدّدة؛ منها: أنّ عطف الكفّار على المنافقين جاء إعمالًا للفصل الدّقيق بين الباطن والظّاهر، فالمنافقُ كافرٌ في جوهره وأصلِه، إلّا أنّ كفرَه مَخفيٌّ في الباطن، بينما كُفرُ الكافرِ ظاهرٌ جليٌّ لا يغيب، فصار الكافرُ غيرَ المنافق بحُكم الفرق في المظهر، وهذا التّمييز الرّفيع يُبَرّر حُسنَ العطف، ودِقّة البيان[3].

ويجوز أن يكون العطف هنا من باب عطف الأعمّ على الأخصّ، إذِ المنافقون هم من الكافرين، لكنْ لشِدّة خطرهم وغِلظتهم كما بيَّنَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء:

جَمعُ الفريقيْن في سياقٍ واحدٍ لما بينهما من الاشتراكِ في الكفرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 459.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

145]، جاء العطفُ مُؤسّسًا على الكفّار، ولا يلزم من نفي قَبول الفديةِ عن المنافقين نفيُها عن الكافرين عمومًا[1]. ويجوز أن يكون عطفُ جملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ على ما سبق في شأن المنافقين؛ من باب دمج الفريقيْن في سياقٍ واحدٍ من التّوبيخ والتّنديم، مُظهِرًا وحدة العقاب، واشتراكهما في حقيقة الكفر[2]، على الرّغم من اختلاف الظّاهر، مؤكِّدًا أنّ الجزاء واحدٌ، لا فرقَ فيه بين مَن أظهر الكفرَ ومَن أبطنَه.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

عطفٌ اعتراضيٌّ يُفيد تعليلَ أن لا محيصَ لهم من عذابِ الكفرِ

جاء موقع جملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ عطفًا مُعترِضًا جَرَّته المناسبةُ، إذ قُصِدَ منها تعليلًا مُحكمًا يُبيّن أنّه لا مهربَ لهم من عذاب الكفر، مثل حال الذين أظهروا كفرهم[3]، مؤكّدًا وحدةَ المصيرِ في العقاب بين المنافقين والكافرين.

دلالةُ إعادةِ (لا) النّافية مع قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

الاستقلالُ في الذّكرِ لدَحْضِ تَوهُّمِ التّخصيصِ للمنافقين

في إعادة (لا) مع قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ تنبيهٌ على الاستقلال في ذِكْرِهم هنا، دفعًا لتوهُّم تخصيصه بالمنافقين؛ لأنّ ما قبلَه مُختصٌّ بهم لتظاهرهم بالإيمانِ[4]، فالإعادةُ هنا فائدتُها التّوكيدُ، واستقلالُ كلِّ حُكمٍ عن الآخر؛ لبيان شناعةِ مُرتكبِ كلِّ فئةٍ.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ الفعل المَنفي ﴿لَا يُؤۡخَذُ﴾ مع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

استبعادُ الكافرين لمجاهَرَتِهم بالكفرِ بخلافِ المنافقين

لَمّا كان نفيُ فعلِ أخذِ الفدية موجّهًا بالأصل إلى المنافقين؛ لكونهم مع المؤمنين ظاهرًا، بخِلاف الكَفَرة المُجاهِرين، فلا مجالَ لهم لالتماس النّور من المؤمنين؛ فلذا خصّ المنافقين بالذّكر مع الفعل ﴿لَا يُؤۡخَذُ﴾، ولم يذكره مع الكافرين[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 453.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 453.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

هم الذين أعلنوا الـكُـفـرَ حتّـى عُرِفوا به

جاء التّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ دون (الكافرين)؛ إيذانًا بأنّ صلة الاسم الموصول هي عِلّةُ استحقاقهم للجزاء المذكور، وهو انتفاء أخذِ الفدية منهم، ثمّ مآلهم عذابُ جهنّمَ، وبئسَ المصير. ويجوز أن يكون التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ دون الكافرين مُتعلّقًا بتحديد القصد وتصويره بدقّة، إذ أراد تعالى الإشارةَ إلى الذين أظهروا الكفرَ بوضوحٍ، وجهروا به، فأصبحوا حالةً معلومةً للنّاس[1]، لا غموضَ فيها ولا لبسَ، فكانت هذه العبارة تبيّن حالَهم بجَلاء.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَفَرُواْۚ﴾:

تـأكـيـدُ ثـبـوتِ الكُفرِ، وحتميّةُ الجزاءِ

الخطاب بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْۚ﴾ دون المضارع (يكفرون) يتمثّل في التّوكيد على ثبوت حالة الكفر، إذ يُشير الفعلُ الماضي إلى واقعٍ ثابتٍ قد تحقّق، وهو أنّهم قد كفروا بالفعل، فلا مجالَ للإنكار أو التّغيير، ممّا يُبيّن استحقاقَهم للعَذاب، وامتناعَ قَبولِ الفدية، أمّا الفعل المضارع فيوحي بالكفر المُستمرّ أو الجاري المُحتمَل للانقطاع، وهو غير كائنٍ بعدَما تقرّر العذاب عليهم حتمًا.

بلاغةُ الاحتراسِ بجملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

مصيرُ المنافقين والـكـافـريـن في عـــدمِ قَـبـولِ الـفـديـةِ منهم واحدٌ

القارئُ للجملة السّابقة لأوّل وهْلةٍ يَظنّ أنّ المنافقين والكافرين الصّرحاءَ واقفون في مقامٍ واحدٍ عند أبواب جهنّم، فيأتي قولُه تعالى: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ احتراسًا بليغًا يمنع توهّم أنّ حُكْمَ عدم قَبولِ الفديةِ خاصٌّ بالمنافقين فحسب، المتعلّقين بأقلّ طمع، فذِكْرُ الكافرين ليس استطرادًا عابرًا[2]؛ بل تأكيدٌ وشمولٌ يجمع الفريقيْن في مصيرٍ واحدٍ، لا يختلفون فيه، ولا يُستثنى أحدٌ منهم من وعيد اللّه تعالى، ولا من الذين كفروا ولا منكما معًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.

سِرُّ تقديمِ المنافقين على الكافرين في انتفاءِ أخذِ الفديةِ:

المنافقون أشدُّ ضررًا على المؤمنين من الكافرين

قدّم التّعبيرُ القرآنيُّ المنافقين على الكافرين؛ لأنّهم أشدُّ ضررًا على المؤمنين من المشركين، إذ إنّ الكافر عدوٌّ ظاهرٌ يمكن الاحترازُ منه، ومجاهدتُه بوضوح، أمّا المنافق فلا يَحْسُن الاحترازُ منه ولا يُجاهَد، بل يُضْمِر الشّرَّ في طيّات الخفاء، فكان شرُّهُ أخطرَ وأكثرَ تأثيرًا، فأوجبَ ذلك أن يقدّم على المشرك في الذّكر والحُكم[1].

وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّقديم: أنّه ﷻ لمّا ذكر الجزاء المُعَدّ لكلّ مَنْ لم يُؤمن، قدّم المنافقين، ثمّ أتبعهم بالكافرين، وهو تقديمٌ غرضُه رفعُ توهُّمِ أنّهم أقلُّ منزلةً من الكافرين في مبلغ العذاب، لما كان منهم من إيمانٍ ظاهرٍ، بل هم كافرون حقيقةً، وإن حَسِبوا في ظاهر أمرهم أنّهم من المؤمنين[2].

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ يقطعُ الرّجاءَ ويُقَرِّر المصيرَ

فصَلَ النّظمُ القرآنيّ جملةَ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ عمّا سبق من الآية؛ لأنّها واردةٌ موردَ الاستئنافِ البيانيّ المُحْكَم، كأنّ القائل بعد أن بيّن جزاءهم قال مستفهِمًا: فأين موقعُكم؟ فأُجيب ببيانٍ صريحٍ: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾؛ أي: مكانكم ومسكنكم الثّابت، ومجمعكم المحتوم هو ﴿ٱلنَّارُۖ﴾[3]؛ ليؤكّدَ بذلك ثباتَ العذابِ ودوامَه لهم بلا ملجأ. وممّا يُذْكَر في سرّ الفصل: أنّه لمّا كان قولُه تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ توكيدًا حاسمًا لقوله: ﴿لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾؛ جاء فصلُ الجملة لإبراز استقلالِ المعنى، وشدّةِ التّقرير، ولم يَحْسُن العطفُ، إذ إنّ الفدية إنّما تُبذل اتّقاءً للنّار، فإذا نُفي قَبولُها، فلا مَفَرَّ ولا مأوى إلّا النّار ذاتها[4]؛ فجاءت الجملةُ فاصلةً كالسّيف تقطع الرّجاءَ، وتعلنُ المصيرَ المحتوم.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 9/ 506.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 763.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 763.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(المأوى):

المأوى يُلْجَأ إليه اضطرارًا

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بـ(المأوى) دون (المسكن) في قوله: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ لأنّه يَحمِل دلالةً أعمقَ وأشدّ وقعًا، فالمأوى: هو المكان الذي يُلجأ إليه، ويُصار إليه اضطرارًا، لا مجرّدَ مكانِ إقامةٍ، ويُكَنَّى به عنِ الاستقرار الدّائم، والخلودِ الذي لا انفكاكَ عنه[1]، وأنّ النّارَ صارت مرجعًا نهائيًّا لهم يُؤوون إليه، ويُحبَسون فيه أبدًا. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبيرِ بالمَأوى دونَ المسكنِ: أنّ الإيواء في أصل معناه هو ضَمُّ الشّيءِ إلى الشّيءِ مع ضعفٍ فيه، كالنُّصرة والرّعاية والحياطة[2]، فجاء استعمالُه هنا على سبيل التّهكّم البليغ؛ إذِ المَأوى في الاستعمال المألوفِ يوحي بالحماية واللّجوء إلى مكانٍ آمنٍ، لكنّه في هذه الآيةِ جاء مقلوبَ الدّلالة، فصار مأواهم النّارُ نفسُها، لا مأوى يحميهم، ولا مكانَ يُؤويهم؛ بل مقامُ عذابٍ دائمٍ لا انفكاكَ عنه. ومعنى ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾؛ أيْ: مَقرُّكم ومنزلُكم الذي تصيرون إليه، وتستقرّون فيه[3]، فكان اختيارُ اللّفظِ أوقعَ في النّفوس، وأشدَّ تهويلًا، إذ يُصَوِّرهم وكأنّهم قد أُجيروا وأُويَ بهم إلى النّار إيواءً لا خلاصَ بعدَه.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾:

إضافةُ التّخصيصِ للتّقريعِ والتّوبيخِ

غالب حال الإضافة عند العرب تكون بمعنى اللّام، وهي لامٌ دالّةٌ على المِلكِ والاختصاص[4]، والوارد منه قوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ كأنّ النّار صارت مِلكًا لهم، ومَقرًّا خاصًّا بهم، لا يفارقونه ولا يُفارقهم، كما تُفيد التّهديد والتّقريع، وكأنّها قد أُعِدّت لهم خصيصًا، فهم أهلها ومُستحِقّوها بلا شريكٍ، وفيه توبيخٌ شديدٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، و(أوى).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.
(4) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 2/ 126.

سِرُّ تقديمِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ على ﴿ٱلنَّارُۖ﴾:

لا مَقرَّ لكم سوى النّار

سِرُّ تقديم ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ على ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ يكمن في التّأكيد على حتميّة الأمر وثباته، إذ لا مَقرَّ لكم غيرُها[1]، وأنّها وحدَها المكانُ الأخير الذي تؤوون إليه، وتُقيمون فيه، وتخلدون خلودًا أبديًّا، فهي ولا غيرها الأوْلى والأحقّ بكم، فلا ملجأ ولا مهرب سوى ذلك المصير المحتوم[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ دونَ الفعليّةِ:

الدّلالةُ على الثّباتِ والاستمرارِ في النّارِ

التّعبيرُ بالاسميّة في قوله: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ دون الفعليّة يحمل دلالةً قويّةً على الثّبات والاستمراريّة، إذ إنّ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلنَّارُۖ﴾ خبرُه، والقاعدة النّحوية تقول: المبتدأ إمّا أن يكون مساويًا للخبر، أو أخصَّ منه، فإذا كان مساويًا، فالمُراد أنّ المأوى هو النّار ذاتُها بلا فرقٍ، ممّا يدلّ على الخلود في العذاب، وإن كان أخصَّ، يعني: وجودَ المأوى يستلزم وجودَ النّار؛ لأنّ وجود الأخصّ يفيدُ وجودَ الأعمّ[3].

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ دون (جهنّم) أو (السّعير):

نارُ الجزاءِ تقابلُ نارَ الجَفاءِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ دون (جهنّم) أو (السّعير)؛ لأنّها تُحيلُ إلى حقيقة الإحراق جزاءً وفاقًا، فهي تحرقهم كما كانوا يُحرقون قلوبَ الأولياء في الدّنيا، بإيثار الشّهوات، وإهدارِ حقوقِ المحتاجين[4]، فكان الجزاءُ من جنس الفعل، نارٌ تقابل نارًا.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلنَّارُۖ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ للعهد، إذِ المُراد بها نارُ جهنّمَ المعلومةُ في أذهانِ المؤمنين والكافرين على السّواء، حتّى غدت عَلَمًا على دار العذاب، ومَقرِّ السّعيرِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(2) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1291.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

المبالغةُ في التّهكُّم بالمنافقين

في قوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ كنايةٌ تهكّميَّةٌ مُفعَمةٌ بالسُّخريَة المُبطّنة، يوحى بها أنّ النّار صارت لهم مأوًى وملاذًا، كأنّها النّاصر والحامي، لا غيرُها، وهو من أبلغ وجوه التّهكّم، إذ يُصوَّر العذابَ مأوًى، واللّعنةَ نصرةً، فكما لا تحيّةَ إلّا الأذى، فلا ناصرَ لهم إلّا النّارُ نفيًا للنّاصر لهم قطعًا، كما نفى الفدية قبلًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالضّمير ﴿هِيَ﴾ عن ﴿ٱلنَّارُۖ﴾:

نارُ الجحيمِ وحدَها تتولّاكم ولايةَ عذابٍ لا رحمةٍ

جاء التّعبير بالضّمير ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ توكيدًا يُفيد الحصر؛ أيْ: هي لا غيرُها[2]، فالنّارُ وحدَها "مولاكم، تتصرَّف فيكم تصرّفَ المولى في عبيده؛ لما أسلفتم من المعاصي"[3]، وفي ذلك تهكُّم مرير، يُصوّرها كأنّها وليٌّ يتولّاهم، لكنّها ولايةُ عذابٍ لا رحمةٍ، وقرابةُ جحيمٍ لا نجاةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ عن مَقرّهم في النّارِ بقوله: ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

مَن كانتِ النّارُ مولاهُ فلا مولى له

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ تعبيرٌ تهكُّميٌّ مريرٌ[4]، يُصوِّرُ النّارَ في مقام الوَليّ، والمُراد: نفيُ الوَليِّ حقيقةً؛ أيْ: لا مولى لكم غيرها، ومَن كانت النّار مولاه فلا مولى له، كما يُقال: ناصرُه الخُذلان، ومُعينُه البكاءُ؛ أيْ: لا ناصرَ له ولا مُعينَ، وهذا المعنى مُؤكَّد بقول الحقّ سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11][5]. ويجوز أن يُفهم من (المولى) أنّه اسمُ مكانٍ من الولاية؛ أيْ: موضع القُرب والدُّنو، فيكون المعنى: هي مَقرُّكم ومَحلُّكم الذي لا فِكاكَ منه[6]، أحاطت بكم إحاطةَ الوَليّ بوَليّه، لكن على وجه السّخط والعذاب.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 211.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 277 - 278.

(3) حقّي، روح البيان: 9/ 363.

(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 308.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 460.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿هِىَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

تصرّفُ النّارِ في المنافقين جزاءٌ مُماثلٌ لما فعلوه في الدّنيا

في قوله تعالى: ﴿هِىَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ استعارةٌ بليغةٌ، شُبّهت النّار بوَليٍّ يتولّى أمرَهم، ويتصرَّف في شؤونهم، والمقصود: أنّها تتصرّف فيهم إحراقًا وتعذيبًا[1]، كما تصرّفوا في الدّنيا في أسبابها ومعاصيها التي أوجبتها، فكان التّصرُّف استعارةً للإحراقِ، والولايةُ استعارةً للتّمكين من العذاب.

سِرُّ اختلافِ التّعبيرِ في وصفِ النّارِ بين المولى والمأوى:

الرّجوعُ إلى النّارِ كرجوعِ المُستنصِر إلى مَن لا يَنصرُ

وُصِفت النّارُ أوّلًا بأنّها مأوى في قوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ أيْ: مقرٌّ وسَكَنٌ، ثمّ خُتِمت بأنّها مولى في قوله: ﴿هِىَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾؛ أيْ: مَن يُفترض فيه النّصرةُ والولاية، وهذا الاختلاف يدلُّ على التّهكُّم المرير، إذ يَرجعون إليها كما يرجع المُستنصر إلى مولاه، لينصرَه أو يفادي عنه، فاستعير المولى للمَقرِّ على طريقة التَّهكُّم[2]، على وجهٍ فيه تقريعٌ وسخريةٌ، يعكس تمامَ الخُذلان وشدّةَ الحَسْرة.

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

بئسَ المولى وبئسَ النّار التي صِرتُم إليها

دلّت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على العطف لمُقدّر يُفهم من السّياقِ، تقديره: فبئس المولى هي، فلمّا استُكمل التّهكُّم بوصفِ النّارِ بالمولى، عطف عليه ما يُتمّ مشهدَ الخُذلان والهلاك، فهذه النّار التي صرتم إليها[3] هي شرُّ مكانٍ يؤول إليه الإنسان.

بلاغةُ التّذييلِ بجملةِ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

تذييلٌ مُحكَمٌ يشملُ جميعَ وجوهِ العذابِ

ذُيّلتِ الآيةُ بقولِه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لما يحمله من إيجازٍ بليغ، يشمل جميعَ وجوهِ العذابِ الذي يصيرون إليه، فتُختَصر مأساةُ الخُسْرانِ والفناءِ في عبارةٍ موجزةٍ، وهي كذلك إشارةٌ ضمنيّةٌ إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.

يقينِ المؤمنين بإجابتهم لأهلِ النّفاقِ، إذْ صاروا إلى دارِ الحقائقِ الثّابتةِ[1]، بينما أوغل أهلُ الكفرِ في غيٍّ الضّلالِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(بِئْسَ) دونَ غيرِها من أفعالِ الذّمِّ:

المبالغةُ في الذّمِّ

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل (بِئْسَ)؛ لأنّه فعلٌ دالٌّ على المبالغة في الذّمّ[2]، وقد اختير الفعلُ في الجملةِ؛ لما فيه من حِدَّة الذَّمِّ، وسرعةِ الإيذاء في اللّفظ وقوّته، فهو أبلغُ من مجرّد وصف العذاب أو المصير بالسّوء؛ إذ يحمل دلالةَ التّقريع الشّديد، والتّوبيخ الحاسم، كما يُشعِر بسخط الرّبّ على أهل الكفر.

سِرُّ التّعبيرِ بالمصيرِ دونَ المرجعِ:

مـآلٌ أخـرويٌّ للإنسانِ مغايرٌ لما كان عليه من قبلُ

آثَر القرآنُ الكريمُ استعمالَ لفظِ المصيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، ولم يستعمل المَرجع؛ لأنّ مُفردةَ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ أدقُّ لفظًا، وأعمقُ دلالةً في سياقِ الآية، فهو يدلّ على انقلابِ الشّيءِ إلى حالٍ مغايرةٍ لما كان عليه، نحو: صيّر الطّين خَزَفًا، ولا يُقال فيه مرجع الطّين؛ لأنّه لم يكن قبلَ ذلك خَزَفًا[3]. أمّا المرجع فيُستعمل لما يرجع إليه الشّيءُ على حالٍ كان عليها من قبلُ، فالآيةُ الكريمة تتحدّث عن مآلٍ أخرويٍّ لم يكن الإنسان عليه من قبلُ، بل هو انقلابٌ من حال الدّنيا التي عاشها إلى حال العذاب المُقيم في الآخرة، ولذلك كان اختيارُ لفظِ المصير أبلغَ وأوفقَ بالسّياق من لفظ المرجع الذي يوحي بالعَودة إلى حالٍ سابقة لا بالانتقال إلى حالٍ جديدةٍ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

مصيرٌ يشملُ كلَّ مَـنِ انحرفَ عن سبيلِ الرّشادِ

(أل) في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ لاستغراقِ الجنسِ، فتدلّ على أنّ المصيرَ المَذكور لا يخصّ نوعًا أو حالةً مُعيّنةً، بل هو شاملٌ لكلّ مصيرٍ سيّءٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(2) ابن الأثير، البديع في علم العربيّة، ص: 91.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 492.

وعقابٍ أليم، فيشمل كلَّ مَنِ انحرف عن جادّة الحقّ والصّواب من المنافقين والكافرين وأضرابهم.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

شموليّةُ المصير الموبِق لكلّ ظالمٍ ومُذْنِبٍ

اختير التّعبيرُ بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دون (بئس مصيركم)؛ ليكون الحُكم عامًّا شاملًا، لا يقتصرُ على المخاطَبين فقط؛ بل يشمل كلّ مَنْ ينال مثلَ هذا المصير الموبِق من المنافقين والكافرين؛ ممّا يزيد وقْعَ الكلام في النّفسِ حِدّةً وشِدّةً في الوعيدِ.

دلالةُ حذفِ المخصوصِ بالذّمِّ:

لدلالةِ السّياقِ عليه، وليَزدادَ الموقفُ هَولًا ورَهبةً

في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثمّة محذوفٌ، إذِ المُراد به في الأصل: بئس المصير النّار، أو جهنّم التي تصيرون إليها، فاستغنى البيان عن ذِكْرها صراحةً لما أتى به السّياق من وضوح وتأكيدٍ[1]؛ فجاء الحذفُ ليُعزِّزَ دلالةَ الوعيد، ويُكثِرَ وقعَ الذّمِّ، فيزدادَ الموقفُ هَوْلًا ورهبةً.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الفديَة والعَدْل:

الفديَة أوسعُ دائرةً من العَدْل

عبَّر المولى سبحانه بلفظِ الفدية في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾، ولم يعبّر بالعَدْل؛ لأنّ الفدية أعظمُ من العَدْل وأوسعُ دائرةً؛ إذِ الفديةُ هي ما يُجْعَل بدلَ الشّيءِ ليعودَ به إلى حالته الأولى، سواءٌ كان ذلك البدلُ مثلَ المُفدى، أو أنقصَ منه. أمّا العَدْل: فهو خصوصُ ما كان من الفداء، مثل المُفدى تمامًا، لا يزيد ولا ينقص[2]؛ فجاء التّعبير بالفدية في الآية؛ لأنّ المقام مقامُ نفيٍ عامٍّ يشمل كلَّ ما قد يتوهَّمُه الإنسانُ يومَئِذٍ من فداءٍ، سواءٌ أكان مُعادِلًا لما يُفتدى به أم دونه؛ ليُبيّن أنّه لا يقبل منهم أيَّ بدلٍ، ولا أيَّ خلاصٍ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 179، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 212.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 399.

ولا أيَّ مهربٍ، فسَدَّ عليهم بابَ كلِّ فداءٍ مهما كانت صورتُه، وأغلق عنهم أبوابَ النّجاة جميعًا.

المأوى، والمكان، والمسكن:

الإيــواءُ أعــمُّ، والمسكنُ أخصُّ

في حديثه عن المنافقين قال الحقّ ﷻ: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ فجاء بلفظ (المأوى)، ولم يأتِ بلفظ (المكان) أو (المسكن)؛ لأنّ الإيواء في أصلِ معناه هو ضمُّ الشّيء إلى الشّيء مع ضعفٍ فيه، كالنُّصرة والرِّعاية والحياطة[1]، فجاء استعمالُه هنا على سبيل التّهكّم البليغ؛ إذِ المَأوى في الاستعمال المألوف يوحي بالحماية واللّجوءِ إلى مكانٍ آمنٍ، لكنّه في هذه الآية جاء مقلوبَ الدّلالة، فصار مأواهم النّارُ نفسُها، لا مأوى يحميهم، ولا مكانَ يُؤويهم، بل مقامُ عذابٍ دائم لا انفكاك عنه. ومعنى ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾: أي: مقرُّكم ومنزلكم الذي تصيرون إليه، وتستقرّون فيه[2]، فكان اختيارُ اللّفظ أوقعَ في النّفوس، وأشدَّ تهويلًا، إذ يُصَوِّرهم وكأنّهم قد أُجيروا وأويَ بهم إلى النّار إيواءً لا خلاصَ بعدَه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، و(أوى).

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.

﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دعوةُ القرآنِ للقلوبِ أن تخشعَ لذِكرِ ربِّها

لمّا كان قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ نذيرًا قاطعًا وموعظةً بالغةً تُزيل الغُرورَ عن النّفوس، وتكشفُ عن الأبصار غشاوتها؛ أتبعها ما يدعو إلى الرّجوع الصّادق، والتّعلّق الوثيق بكلام اللّه المبين؛ لما فيه من آيات الزّجر والتّرهيب لِمَن قست قلوبُهم، وحثَّتْهم بالعودة إليه قبلَ فوات الأوان بقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؟[1].

ومنها: لمّا ذَكر فيما سبق حالَ المؤمنين والمؤمنات، والجزاءَ المُعدَّ لهم، وموقفَ المنافقين والمنافقاتِ من نور أهل الإيمان، وحرمانِهم من هذا النّور في الدّار الآخرة، وكان ذلك ممّا يدعو القلوبَ إلى الخشوع لربّها، لكنّها تباطأت، فعاتبها اللّه على ذلك البُطءِ والتّأخّرِ، بقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡنِ﴾: (أنى) له أصولٌ أربعةٌ: البُطء وما أشبهه من الحلم وغيره، وساعةٌ من الزّمان، وإدراكُ الشّيء، وظرفٌ من الظّروف[2]. والفعل منه: أنى يأني إناء، ويدلّ في عمومه على الوقت، ومنه الشّيء يأني إذا تأخّر عن وقته، ويُقال: "تأنيت الرَّجل؛ أي: انتظرتُه، وتأخّرتُ في أمره، ولم أُعجِّلْ"[3]، وآنيت الشّيءَ أنيًا؛ أيْ: أخّرته عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أن، الآن).

أوانه، وتأنّيت؛ أيِ: تمهّلت وتأخّرت، والأناة: هي التُّؤدّة والرِّفق، ويُقال: هل أني الرّحيلُ والسّفر؟ ومعناه: هل حان وقتُه؟ ومعناه المِحوريّ: هو أن يتهيّأ الشّيءُ كي يصلحَ حالُه لما يُراد له[1]. ومعنى ﴿يَأۡنِ﴾ في الآية: "ألم يَحِن؟"[2].

2) ﴿تَخۡشَعَ﴾: (خشع) أصلٌ واحدٌ، يدلّ على التّطامُن، يُقال: خَشع، إذا تطامن، وطأطأ رأسه[3]، ومصدره: الخشوع، ومعناه: أن ترمي ببصرك نحو الأرض، وتُطأطئ رأسك تواضعًا، والإنسان الخاشع هو المستكين، ويَرِد الخشوعُ بمعنى الخضوع، فهو مرادف له[4]، ويَرِد بمعنى التّذلّل، ويُستعمل غالبًا فيما يظهر على الجوارح، أمّا الضّراعة فغالبًا ما تُستعمل فيما يَكْمُن في القلب[5]. ومعنى ﴿تَخۡشَعَ﴾ في الآية: حثٌّ لطائفةٍ من المؤمنين على أن تلين وتَرِقّ قلوبُهم عند ذِكْرِه تعالى[6].

3) ﴿فَطَالَ﴾: (طول) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على فضلٍ وامتدادٍ في الشّيء من ذلك[7]، وطال الشّيء يطول طولًا؛ فهو طويلٌ وهو معروفٌ، والطّول خِلاف العَرْض، ومعناه: الفضل في شيءٍ، والأطولُ نقيضُ الأقْصَر[8]، ويُستعمل الطّول في الأعيان والأعراض والمعاني، فمِن معانيه: طول الزّمن المُقترِن بالهمّ وامتداده[9]. والمُراد به في الآية: طولُ الزّمن وامتدادُه بينهم وبين أنبيائهم[10].

4) ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾: (أمد) كلمةٌ واحدةٌ لا يُقاس عليها، والأمد: الغاية[11]. والأمد مُنتَهَى الأجل، وهو غاية الشّيء ومداه، والأمد مقارب لمعنى الأبد إلّا في كون هذا الأخير غير مُحددٍ بزمن، وهو الأجل الطّويل الممدود[12]. ومعنى ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ في الآية: هو أمد الحياة؛ أيِ: الزّمن، وأمد انتظار القيامة.

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنو)، (أنى).
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 539.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (خشع).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(6) السّمعاني، تفسير القرآن: 5/ 372.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طول).
(9) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طول).
(10) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 459.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمد).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمد).

5) ﴿فَقَسَتْ﴾: (قسي) أصلٌ يدلّ على شِدّةٍ وصلابةٍ، من ذلك الحجر القاسي. والقسوة: غِلَظ القلب[1]، و"القسوة: الصّلابة في كلّ شيءٍ، وقسا يقسو فهو قاسٍ، وليلةٌ قاسيةٌ: شديدة الظُّلمة، والمقاساةُ: معالجة الأمر ومكابدته"[2]، والأصل في معناه: الدّلالة على الصّلابة والقوّة والشّدّة، كالأحجار القاسية، وقد يُشَبَّه بها القلوبُ القاسية؛ وإذا غَلُظَ القلبُ وُصِفَ بالقلب القاسي، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حولَ الغِلظة والصّلابة والشِّدّة والخُلوّ من الرّحمة واللّين[3]. ومعنى ﴿فَقَسَتْ﴾ في الآية: صلُبَت حتّى لم تَعُد تنفعل للخير، ولا تستجيب للطّاعة[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حضٌّ رقيقٌ وتقريعٌ دقيقٌ لعودةِ القلوبِ إلى ذِكرِ اللهِ

أما آنَ للمؤمنين أن تخشع قلوبُهم لذِكر اللّه، وتلينَ لمواعظه وآياته، وأن يُنيبوا إلى كتابه الذي فيه شفاءُ الصّدور، وجَلاءُ القلوب؟! ألم يأنِ لهم أن يتّعظوا وألّا يُشبهوا مَن سبقهم من أهل الكتاب من اليهود، وقد طال عليهم الأمَد، فَنَسوا ما ذُكِّروا به، وقَسَت قلوبُهم، وكان كثيرٌ منهم فاسقين خارجين عن طاعة اللّه؛ فإنّ طول الأمَد يورِث الغفلةَ، والغفلة تُفضي إلى القسوة، وقسوة القلوب إنّما تنشأ من غَلَبَة الشّهوات، وموتِ الشّعور برقابةِ ربّ الأرض والسّماوات[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

الحثُّ على استنهاضِ القلوبِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَه، على وجه الاستئناف[6]؛ إيذانًا بابتداءِ كلامٍ جديدٍ مُستقلٍّ في بنائِه، عظيمٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).
(2) الخليل، العين: (قسو).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (قسو).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 108.
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 539.
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 264.

في مضمونه، تُفتَح به آفاقُ التّذكيرِ، وتُستَنهَض فيه القلوبُ المؤمنة من رقدتها. وممّا يُذْكَر في سِرِّ الفصلِ أنّه استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في التزام أمور الدّين، وتباطُؤَهم في الإقبال على ذِكر اللّه والانتفاع بالقرآن.

دلالةُ التّعبيرِ بأسلوبِ الاستفهامِ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾:

إيقاظُ الغافلِ واستنهاضُ المتباطِئِ

جاء التّعبير بأسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ بدلًا من صيغة الخبر؛ لما يحمله هذا الأسلوب من قوّة الإغراء وشِدّة الحَثّ[1]، فهو استفهامٌ لا يُطلب به الجواب، بل يُقرَع به الوجدان، ويستنهض به الكسل الإيمانيّ، فيبعث في النّفس حياءَ المُتأخِّر، وخَجَلَ المتباطِئ. وممّا يُذْكَر في دلالة ورود هذا التّعبير على هذه الصّورة الاستفهاميّة دونَ الخبريّة ما يحمله من نبرة الإنكار والوعيد، فهو خطابٌ تهديديٌّ موجَّهٌ إلى أولئك المنافقين الذين عاشوا بين المؤمنين، وظُنّ بهم الإيمانُ ظاهرًا، حتّى انكشفت حقائقُهم في الآخرة، وبان شِركُهُم وكفرُهُم[2]، وهذا المعنى على أنّ الآيةَ مَدنيّةٌ في شأن المنافقين.

سِرُّ الاستفهامِ بالهمزةِ مع دخولِها على أداةِ النّفيِ (لَمْ):

تقريعٌ كاشفٌ عن إبطاءِ القلوبِ عن الخشوعِ

جاء الاستفهام بالهمزة مع دخولها على أداة النّفي (لَمْ) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ليحمل في طيّاته دلالةَ الإبطاء والتّأخّر[3]، لأولئك الذين طال انتظارُ خضوعِ قلوبهم لذِكر اللّه، على ما مَرّ بهم من المواعظ والآيات. وممّا يُذْكَر في دلالة الاستفهام في هذه الآية أنّه يُؤدّي معنى التّقرير؛ إذ يحمل المخاطَبَ على الإقرار والاعتراف بأنّ وقت خشوع القلوب قد آن، فلا يسعُه إلّا أن يُجيب:

(1) ابن فارس، الصّاحبيّ، ص: 140.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 765.
(3) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 4/ 1861.

(بلى قد آن)[1]، اعترافًا بالتّقصير، واستنهاضًا خفيًّا للقلوب بعد طول غفلةٍ.

دلالةُ اجتماعِ الاستفهامِ مع الفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡنِ﴾:

آنَ أوانُ الخشوعِ والخشيةِ، فلِمَ لا تخشعُ القلوبُ؟!.

دخولُ الاستفهامِ المَنفيِّ على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ يُعدّ تركيبًا فريدًا، لم يَرِد في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع، وهو واردٌ لإنكار النّفي وتقريرِ المنفيّ في آن واحد، فهو على معنى: قد جاء وقتُ خشوعِ القلب وخشيتِه لذِكْرِ اللّه؛ فلِمَ لمْ تخشع قلوبُهم، ولم يَخْشَوا من بطشِ ربِّهم[2].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَأۡنِ﴾ دون (يَحِن):

ألم يَحِنْ وينتهِ ويُدرِكْ إلى الغايةِ وقتُ خشوعِ القلوبِ

عبّر ﷻ بالفعل ﴿يَأۡنِ﴾ في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ دون (يَحِن)؛ لأنّه لَمّا كان معنى ﴿يَأۡنِ﴾ يشمل الحَيْنَ والانتهاءَ والوصولَ إلى الغايةِ المُحدّدةِ[3]، وليس مُجرّدَ وقوعِ الزّمن كما في (يَحِن)، عبّر به ليُبيّن تحقّقَ أوانِ الخشوعِ وخضوعِ القلوب.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَأۡنِ﴾:

خطابٌ موجّهٌ لضعفاءِ الإيمانِ في كلِّ زمانٍ لاستنهاضِهم إلى ذِكرِ اللهِ

يدلُّ التّعبيرُ بالمضارعِ في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ على أنّه قد آن أوانُ خشوعِ قلوبِ المؤمنين لذِكْرِ اللّه، وملامسةِ لينِها لما أنزل ﷻ على نبيّه ﷺ من كتاب تتهلَّل له جلودُ المُتّقين، وترتجفُ له مشاعرُهم ونفوسُهم خشيةً ورَهْبَةً من ربّهم الكريم[4]. ويكون هذا الخطابُ موجَّهًا إلى ضعفاءِ الإيمان من المسلمين في العصر الأوّل، وإلى أمثالهم في كلِّ زمانٍ[5].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 869.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 455.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 214.
(5) رضا، تفسير المنار: 5/ 354.

بلاغةُ التّعبيرِ القرآنيِّ على أنّ هذه الآيةَ مكّيّةٌ أو مَدنيّةٌ:

إيقاظُ قلوبِ المُقصّرين من أهلِ الإيمانِ

اختلف العلماء في كون هذه السّورة مدنيّةً أو مكّيّةً اختلافًا قويًّا، فذهب بعضهم إلى أنّ صدرَها مكّيٌّ، ويشهد لهذا القول ما أخرجه مُسلمٌ وغيره[1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: "ما كانَ بَيْنَ إِسْلامِنا وبَيْنَ أنْ عاتَبَنا اللّهُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلّا أرْبَعُ سِنينَ"[2]. وعلى أنّ الآية مَدنيّةٌ يكون الخطاب فيها من باب العتاب لطائفةٍ من المؤمنين، أصابهم بعضُ الفتور أو التّكاسل، فيما أُمروا به من الاجتهاد في طاعة المولى سبحانه بعد أن فتح الله تعالى لهم أقطارَ الأرض، ورزقهم بالكثير من لينِ العيشِ، وخيراتِ الدّنيا[3].

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ دون (أما آن):

عتابٌ وتأنيبٌ لبعضِ المؤمنين على غفلتِهم بعد حلولِ وقتِ الخشوعِ

آثَر القرآنُ الكريمُ استعمالَ صيغة: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بدلًا من (أما آنَ للذين آمنوا)؛ لأنّ ﴿أَلَمۡ﴾ أداةُ استفهامٍ إنكاريٍّ تُفيد التّقريرَ والتّوبيخ والتّحضيض لبعض المؤمنين على استمرار غفلتهم وبُعْدِهم عن الخشوع، فالوقتُ قد حان بالفعل لخشوع قلوبِهم لذِكر الله، ومعنى (أما آن) محضُ استفهامٍ عن حلول الوقت دون تضمينِ معنى التّوبيخ، أو التّقريرِ الشّديدِ.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

تخصيصُ وقتِ الخشوعِ للمؤمنين

اللّام في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دالّةٌ على الاختصاص[4]؛ أيْ: تخصيص وقتِ الخُشوع بفئةٍ معيّنةٍ من المؤمنين، فلا يكون الوقت قد آن إلّا لهم دونَ غيرِهم، فيُبرزُ ذلك خصوصيّةَ هذا النّداء، وحصرَه بمَن يستحقّونَهُ من أهل الإيمان. ويجوز أن تدلَّ اللّامُ في قوله تعالى:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 164.

(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (3027)، ويُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 353.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 213.

(4) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 343.

﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على العِلّة، بمعنى أنّها مبنيّةٌ على سببٍ خاصٍّ؛ أيْ: ألم يَحِن الوقتُ لأجل الذين آمنوا ليَخْشَعوا، أو بمعنًى آخر: ألم يَحِق حضورُ وقتِ الخشوعِ لأجلهم[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون المؤمنين:

الإيـمـانُ ليس مـجـرّدَ لـقـبٍ أو صفةٍ ثابتةٍ، بل سلوكٌ وعملٌ

التّعبير بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يكمن في اعتبار أنّ الإيمان هنا ليس مجرَّدَ لقبٍ، أو صفةٍ ثابتة، بل هو سببٌ ينبغي أن يتحقّق معه فعلُ خشوعِ القلب، فالخبرُ ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ حكمٌ مبنيٌّ على قاعدةٍ إيمانيّةٍ، وهي أنّ إيمانَهم المُفترضَ يقتضي ظهورَ خشوعِ القلبِ، وعلى هذا فالإيمانُ الحقيقيُّ لا يَكتمِلُ إلّا بخشوعِ القلبِ وخضوعِهِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بفعلِ الإيمانِ ماضيًا:

إيـمـانٌ يـشـوبُـهُ النّقصانُ

التّعبيرُ بفعل الإيمان ماضيًا ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ دون المضارع (يؤمنوا)، يدلُّ على عدمِ زيادةِ الإيمانِ في الالتزام بأوامرِ اللّهِ ونواهيه؛ بخلافِ المضارعِ الذي يدلُّ على تجدُّدِ الإيمانِ كلّما جاء أمرٌ أو نهيٌ التزموا، وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ أمّا هذا الصّنف فضَعُفوا وقَسَت قلوبُهم، ومالوا إلى مَلذّات الدّنيا، وأعرضوا عن مواعظ القرآن[2]؛ لذلك كان التّعبير القرآنيّ داعيًا إلى إيقاظهم من غفلتهم.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع أنّه لم يكن في مكّة منافقون:

خطابٌ فيه تنبيهٌ للغافلين وتذكيرٌ للمُقصِّرين

التّعبير بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع خُلوّ البيئة المَكّيّة من النّفاق والمنافقين، يدلّ على أنّ الخطاب موجَّهٌ إلى المؤمنين حقًّا، لا إلى مَنْ يُظهرون الإيمانَ نفاقًا، إذ لم يكن بين المسلمين يومَئذ مَن نافَقَ، ولا اقتضتِ الحالُ وجودَ نفاقٍ، أو داعٍ إليه، فالتّعبيرُ بهذا الوصف لا لإخراج المنافقين، بل لتأكيد أنّ المقصود هم المؤمنون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

الذين صدقوا في إيمانهم، ليُبنى الحُكم على هذا الإيمان، ويُقاس عليه أثرُه في القلوب، وقد بلغ هذا الخطابُ من القوّة والتّأثير أن قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: "لّمّا نزلتْ؛ جعل بعضُنا ينظرُ إلى بعضٍ، ويقول: ما أحدثنا؟"[1]، في إشارةٍ إلى أنّ المؤمنين استشعروا عتابًا لطيفًا على غفلةٍ طرأت، لا نفاقًا ظاهرًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ جاء التّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّل المُنسبك مع ﴿أَن﴾ وصلتِها ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾[2]، دون المصدرِ الصّريحِ (الخشوع)؛ لما فيه من دلالةٍ على الفعل المُتجدِّد والوقوعِ الزّمنيِّ، لا مجرّدِ وصفٍ ساكنٍ، وكأنّ الخطاب يُحفِّز القلوبَ على الدّخول في حالة الخشوع الآن، فاختيارُ الفعل المُؤوَّل يوحي بالفعليّة والحركة.

تحفيزُ القلبِ على خشوعٍ مُتجدّدٍ لا وصفٍ ساكنٍ

دلالةُ توسُّطِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بين عبارةِ الاستفهامِ والخشوعِ:

في توسُّطِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بين عبارةِ الاستفهامِ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ والفعلِ المُؤوَّلِ ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ تشويقٌ بديعٌ، يُمهِّد للغرضِ المقصود، ويُهَيِّئُ النّفسَ لاستقباله بأثرٍ أعمق، فلو قيل: ألم يأنِ أن تخشع قلوب الذين آمنوا، لفاتَ هذا التّرقّب، لكن بتقديم وصفِ الإيمان، وقطعِ السّياق بها، يتولّد في الذّهن سؤالٌ ضمنيٌّ: ماذا يُراد بهؤلاء الذين آمنوا؟ وما المطلوب منهم؟ فيأتي الجواب: أن تخشع قلوبُهم، فيقعَ هذا الجوابُ موقعَ التّأثير والتّحفيز.

تشويقٌ بديعٌ يسبقُ خطابَ العتابِ لتهيئةِ النّفسِ للمقصودِ

سِرُّ التّعبيرِ بالخشوعِ دون الخضوعِ:

جاء التّعبير بالخشوع في قوله: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ دون الخضوع؛ لأنّ الخضوع قد يقتصر على الظّاهر من الجوارح، أمّا الخشوع

الخشوعُ مقامُ القلبِ، والخضوعُ ظاهرُ الجوارحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 390.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 869.

فمَقامُه أرفعُ، إذ هو انكسارُ القلب، وانقيادُه الكاملِ لأوامر اللّه تعالى، وتعلُّقُه بخشيةٍ ورهبةٍ تُثمِر امتثالًا وعملًا واجتنابًا؛ ولذلك أُسنِد إلى القلوب؛ لأنّها مَحلُّ الصّلاح أو الفساد، وبصلاحِها تصلُح سائرُ الأعضاء[1].

تجدّدُ الخشوعِ واستمرارُه في مواطنِ التّذكيرِ والتّأثُّرِ

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَخۡشَعَ﴾:

استعمالُ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ لما فيه من مَزيَّة التّجدُّد والاستمرار، إذ إنّ الخشوعَ ليس حالةً طارئةً تنقضي بحدوثها، بل هو حالٌ يتكرّر في المواطن المختلفة، ويتجدّدُ مع كلّ موقف من مواقف التّذكير والتّأثّر، فـ"ترقّ وتلين قلوبُهم إذا ذُكِر اللّه؛ فإنّ ذِكر اللّهِ سببٌ لخشوع القلوب"[2].

المقامُ تنبيهٌ للغافلين وتذكيرٌ للمُقَصّرين

دلالةُ إسنادِ الخشوعِ إلى القلوبِ دونَ الأصواتِ:

أُسنِد الخشوعُ في قوله تعالى: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ إلى القلوب، دون أن يُسنَد إلى الأصوات، كما في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه: 108]؛ لأنّ المقام هنا مقامُ تذكيرٍ وتنبيهٍ للمؤمنين على وجوبِ التّفاعل القلبيّ العميق مع آياتِ اللّهِ وذِكْرِه، فليس المطلوبُ سكوتَ الأصواتِ الحاصلَ يومَ القيامة.

القلوبُ محلُّ الإيمانِ والتّكليفِ

سِرُّ إسنادِ الخُشوعِ إلى (القلوبِ):

أُسنِد الخشوعُ إلى القلوبِ دونَ الأفئدةِ في قوله تعالى: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ لأنّ القلبَ هو اللّفظُ الأشملُ والأكثرُ تداولًا في التّعبير عن مركز الإيمان والشّعور والانقياد، أمّا الفؤاد فغالبًا ما يُستعمل في سياق الإدراك الشّديد أو الوِجدان المُنفعِل، كقوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]؛ ولَمّا كان الخشوع المطلوب هنا خشوعًا هادئًا مستقرًّا ينبع من الإيمان العميق، لا اضطرابًا وجدانيًّا عابرًا،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 456.

(2) حقّي، روح البيان: 9/ 363.

نُسب إلى القلوب؛ لأنّها موضعُ التّلقّي الهادئ، ومحلُّ الانكسار والإنابةِ الذي يُثْمِر الطّاعةَ والعملَ.

سِرُّ اختلافِ الأسلوبِ القرآنيِّ في تصويرِ أثرِ الذِّكرِ:

الجمعُ بين الأثرِ الباطنيِّ والظّاهريِّ

اختلف الأسلوبُ القرآنيُّ في تصويرِ أثر الذِّكر، فعبّر هنا (في الحديد) بـ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ لإظهار التّأثّر الباطنيّ العميق، وعبّر في (الزُّمر) بـ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزّمر: 23] لبيان الانفعال الظّاهريّ الحِسّيّ، فكلاهما تصويران متكاملان لتأثير الذِّكر في المؤمن ظاهرًا وباطنًا، يُفضيان إلى اللّين والانقياد.

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾:

تعليلٌ لخشوعِ القلوبِ بانفعالِها بذِكْرِ اللهِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لام التّعليل؛ أيْ: لأجل ذِكْر اللّه تعالى، فتخشعُ قلوبُهم بسبب تذكير اللّه لهم، ووحيه الذي بين أيديهم. ويحتمل أن يكون المُراد: خشوعًا يحصل بتأثيرِ تذكير اللّه إيّاهم بأمرِه ونَهْيِه[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالذِّكْرِ دون التّسبيحِ:

إفادةُ العمومِ والشّمولِ لكلِّ أنواعِ الذِّكرِ

جاء التّعبيرُ بالذِّكرِ في قوله: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دون التّسبيح؛ لأنّه أعمُّ وأشملُ، إذ يحتمل أن يُراد به القرآنُ المُنزّل، أو مُطلقُ ذِكْرِ اللّه، أو التّذكيرُ بالمواعظ والعِبَر[2]، والسّياقُ في الآية سياقُ موعظةٍ وتنبيهٍ، لا تسبيحٍ وتنزيهٍ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾:

شمولُ ذِكرِ اسمِه تعالى على جميعِ الوجوهِ

في إضافة الذّكر إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ بيانُ أنّ المُراد مُطلقُ ذِكْرِ اسمه على أيِّ وجهٍ كان[3]، سواءٌ أكان تسبيحًا، أو تهليلًا، أو تلاوةً للقرآن، أو تذكيرًا بمواعظه وأوامره،

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 346.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 318.

فالإضافةُ هنا تُفيد شمولَ كلِّ ما يتّصل بذِكْرِ اللّه. وممّا يُذْكَر في دلالة إضافة الذِّكر إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنّ الذِّكر مُضافٌ إلى المفعول لا الفاعل؛ أيْ: لِذِكرهم هم للّه، والمعنى: ينبغي أن يكون ذِكْرهم للّه ذا أثرٍ في قلوبهم، يورثهم خشوعًا وخشيةً، لا أن يكون ذِكرَ غفلةٍ لا يُحرِّك القلبَ ولا يورِث انقيادًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

لفظُ الجلالةِ جامعٌ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

جاء التّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظِ (الرّبّ)؛ لأنّ الاسمَ الجليلَ هو الاسم الجامع الكامل الذي يستجمع كلَّ الأسماءِ والصّفات الإلهَيّة في ذاته، الشّاملِ لجميع الأوصاف والمقامات، الذي يسقط الحاجةَ إلى أيّ إضافاتٍ أو تخصيصات[2]، وفيه مزيدُ دعوةٍ إلى تربية المهابة في القلوب.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(الذّكر):

الذِّكْرُ أعمُّ من التّذكيرِ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بالذِّكر في قوله: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظ التّذكير، لأنَّ الذِّكر هنا أعمّ وأشمل، فهو يشمل آياتِ اللّهِ ووعدَه ووعيدَه، فضلًا عن عموم الذِّكر والموعظة[3]، فلا يقتصر على مجرّد التّذكير المنطوق، بل يتضمّن كلَّ ما يُحرِّك القلوبَ ويوقظُها من حقائقَ إيمانيّة ومواعظَ تحذيريّة.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾:

تنزيلُ تغايرِ الوَصفيْن منزلةَ تغايُرِ الذّاتِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفًا على ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[4]، وهو من باب عطف أحد الوصفيْن على الآخر، تنزيلًا لمغايرة الوصفيْن، منزلةَ تغايرِ الذّات، إذِ المُرادُ بذِكْرِ اللّه القرآن الكريم[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 460.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 389.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(4) المنتجب، الفريد: 6/ 101.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 456.

سِرُّ التّعبيرِ بـ (ما) دون (الذي):

إفادةُ العمومِ لكلِّ ما أنزلَ اللهُ من آياتٍ قرآنيّةٍ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ دون (الذي)؛ لإفادة العموم لكلّ ما أنزل اللّهُ من آيات القرآن في مواعظه وترهيبه وترغيبه، ويجوز أن يُحمَل على كلّ ما أنزله اللّهُ من الكتب السّماويّة على أنبيائه ورسله. ويحتمل أن يكون المراد نزولَ السّكينةِ عند قراءة القرآن الكريم، والمُرادُ بها الوارداتُ الإلهيّة، يُؤكّد ذلك ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه في قصّة الرّجل الذي كان يقرأ سورةَ الكهف، وإلى جانبه حصانٌ مربوطٌ وتغشّتْه سحابةٌ؛ فجعلت تدنو وتدنو، وجعلَ فرسُه يَنْفُر؛ فلمّا أصبح أتى النّبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ فذكر ذلك له؛ فقال: «تلك السّكينةُ تنزَّلت بالقرآن»[1].

أثرُ تعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿نَزَلَ﴾:

تكامل المعنى في بيان تشريع الأحكام

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ قراءتان؛ الأولَى: قرأ نافع وحفص بتخفيف الزّاي: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾، والثّانية: قراءة باقي القُرّاء بالتّشديد: ﴿وَمَا نَزَّلَ﴾[2]، والفَرْقُ في التّلاوة دقيقٌ، أمّا المعنى: فهو القرآن المُنْزَل، بذِكر الحلال والحرام، وبالتّشديد على معنى التّكثير والمبالغة[3] في هذا المُنزّل، وهو القرآن الكريم. ويجوز على قراءة الجماعة بالتّشديد أنّ اللّه تعالى أنزل القرآن تدريجًا، ليكون تدرُّجًا حكيمًا في بيان الأحكام والشّرائع، بينما على قراءة التّخفيف ما وُجِد إنزالُه على نبيّه صلى الله عليه وسلم[4].

سِرُّ تقديمِ (ذِكر الله) على ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

توكيدُ الخاصِّ بعد العامِّ لبيانِ ثباتِ الحقِّ وتَفرُّدِهِ

تقديم (ذكر اللّه) على ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ من باب ذِكرِ الخاصّ بعد العامِّ للتّوكيد، والاهتمامِ بالقرآن الكريم الذي نَزل مُنجَّمًا أو

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 245، والحديث رواه البخاريُّ ومسلمٌ.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 384.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279.

متتابعًا من الآيات، وهو الذّكر الحكيم، الحقُّ الثّابت الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، وليس هناك مثلُه[1]. ويُحتمل أن يكون سرُّ تقديم (ذكر اللّه) على المُنَزّل من الحقّ من باب تفسير العطف وتغايرِ المفهوم لكل منهما، ويكون المُراد من هذا الأخير القرآنَ الكريمَ، فيَحمِل الذِّكرُ المعطوف عليه كلَّ ما عدا ذلك من الذّكر، سواءٌ كان بلسان ناطق، أو بخطرٍ في القلب، وقيل: المُرادُ بالذِّكر هنا هو القرآن نفسُه، فيكون هذا العطفُ من باب عطف التّفسير، أو نابعًا من تغاير المفهوميْن[2].

ذِكْرُ اللهِ منبعُ الخُشوعِ ومصدرُ الخوفِ الحقيقيِّ

سِرُّ تقديمِ الخشوعِ بالذِّكرِ على الخشوعِ بما نزل من القرآنِ:

قُدِّمَ الخشوعُ عند ذِكر اللّه على الخشوع عند سماع ما نزل من القرآن في قوله: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنّ الخشوع والخوف والخشية لا تنبع إلّا من استحضار جلال اللّه وذِكْره، وأمّا حصولُها عند تلاوة القرآن، فلِما يتضمَّنُه من ذِكْر اللّهِ وأسمائه وآيات عظمتِه، فهو فرعٌ عن الأصل[3].

دلالـةُ العُـلـوِّ والـجـلالِ في التّعبيرِ عن قدسيّةِ الوحي

سِرُّ التّعبيرِ بالإنزالِ دونَ غيرِه:

آثر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بالإنزال في الفعل ﴿نَزَلَ﴾ دون غيره؛ لما فيه من الإشعار بعُلوّ المُنزِل، وعظمةِ المُنَزَل، فهو يدلّ على أنّ القرآن لم يكن أمرًا عاديًّا، أو صادرًا من البشر، بل هو وحيٌ نازلٌ من عَلٍ، محاطٌ بهيبة القَداسة ورفعةِ المصدر، ولأنّ التّعبير بالإنزال يوحي بالسّموّ والعُلوّ والجلال، ويُضفي على النّصِّ منزلةً سامقةً تُشْعِر المُتلقّي بعظمة ما يتلقّاه.

دلالةُ استعمالِ صيغةِ الماضي ﴿نَزَلَ﴾:

استعمال صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ﴾ تُفيد التَّحقُّق

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 207.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

والثّبوتَ، بما يقطع دابرَ كلِّ مُشَكّكٍ، ويَمحو ظَنَّ كلِّ مُرتابٍ، وفيها إشارةٌ إلى أنّ سائر ما يُنسب للوَحي في الكُتب السّابقة قد دخله التّحريفُ والدّخيل، أمّا هذا الذّكرُ الحكيم فقد ثبت نزولُه ثبوتًا لا يعتريه زوالٌ، ولا تنالُه يَدُ التّبديلِ أو التّحوير(1).

دلالـةُ التّحقُّقِ والـثّـبـوتِ تقطعُ دابـرَ كلِّ الشّكوكِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على أنّ المُراد: ما نزل من الوعد والوعيد والوعظ، ونحوِ ذلك، وعلى هذا تكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضيّةً باعتبار أنّ آيات الوعد والوعيد والمواعظِ هي الأسرع في خشوع القلوب وليِّنها(2).

سِرُّ التّعبيرِ بالحقِّ عن القرآنِ:

شـهـودُ الـكـتـبِ الـسّـابـقـةِ بـأنّـه الحقُّ

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ عن القرآنِ يكمن في كونه الحقَّ المعلومَ، والمُقرَّ في كتبهم السّابقة، وهو الذي دعتهم تلك الكتب إلى الإيمان به، كما آمنوا به حين وجدوا صفاتِه منقوشةً في كتبهم(3)، فصار بذلك رابطًا بين الوحيَيْن، وحافزًا للاعتراف به والإيمان به.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

عهديّةٌ تدلّ على أنّـه الـقـرآن، أو جنسيَّةٌ تشملُ الحلالَ والحرامَ

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ تحتمل أن تكون عهديّةً تُفيد التّعيين والإشارةَ إلى القرآن الكريم تحديدًا(4)، كما يمكن أن تكون جنسيّةً تشمل جميع ما يندرج تحت مفهوم الحقّ من الحلال والحرام، ومن البيّنات والهدى(5)، فتصويرُها بهذا الأسلوب يوسّع دائرةَ الدّلالة بين التّخصيص والتّعميم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 447.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 524.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 524.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 478.

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

استمرارُ التّرابطِ بين المَعنَيَيْن في الجملةِ

فعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ في محلّ نصبٍ معطوف على ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾؛ أيْ: وألّا يكونوا، إذ الواو هنا واو عطفٍ لا استئنافٍ، ولا يُفصَل ما بعدَها عمّا قبلها إلّا بدليلٍ صارفٍ[1]، ولا دليل هنا، فدلّ السّياق على استمرارِ التّرابط بين الجُملتيْن.

غرضُ النّفي مع ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

النّهيُ والتّوجيهُ، لا مُجرّدُ الإخبارِ

النّفيُ في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ واردٌ موردَ النّهي للمؤمنين عن مماثلةِ أهلِ الكتابِ في قسوةِ القلوب، بعد أن وُبِّخوا على غفلتهم[2]، فيكون الغرضُ من النّفي هنا هو النّهي والتّوجيه، لا مجرّد الإخبار.

أثرُ تعدّدِ القراءاتِ في قولِه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

اعتناءٌ بالتّحذيرِ من أن يكونوا كالقاسيةِ قلوبُهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ قراءتان؛ قراءة رويس بالتّاء: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، وقراءة الباقين بالياء: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾، ووجه قراءة التّاء أنّها على الخطاب؛ فيجوز أن يكون خطابًا للمؤمنين، ويكون على إضمار القول؛ أيْ: وقُلْ لهم: لا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب، ويجوز أن يكون خطابًا للمنافقين، فيكون محمولًا على ما تقدَّم من الخطاب لهم، والغرض من ذلك التّحذيرُ من الوقوع فيما وقع فيه أهلُ الكتاب. وعلى قراءة الياء يكون قوله: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾، والمعنى: (ألم يَأْنِ لهم أن تخشع قلوبُهم، وألّا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب)[3].

دلالةُ التّحذيرِ بجملةِ ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

تحذيرُ المؤمنين من مآلِ أهلِ الكتابِ

التّحذير مُنصبٌّ على ما وقع فيه أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد في مزاولة دينهم، والمعنى: فلْيَحذر المؤمنون أن يصيروا

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 477.

(3) ابن أبي مريم، المُوضّح: 3/ 1249.

مثلهم، رغم حداثة عهدهم بالدّين؛ فهو تحذيرٌ استباقيٌّ يُفيد خشيةَ الوقوع في القسوة إذا طال الزّمان، كما وقع لأولئك من قبل[1].

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

متعلّق ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ محذوفٌ، ودلالتُه التّوبيخُ والوعظ؛ أيّ: فلا تكونوا مثل اليهود والنّصارى في قسوة القلوب التي ظهرت لديهم قبل بعثة النّبي ﷺ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالكافِ مع الموصولِ دونَ (مثل):

بلاغةُ التّقاربِ في تشبيههم بأهلِ الكتابِ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيُّ كافَ التّشبيهِ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ بدلًا من كلمة (مثل)؛ للدّلالة على وجود تشابهٍ في أمر القسوة، وتصويرُ ذلك بالكاف؛ ليكون التّشبيهُ أقوى وأبلغَ وأشدَّ وقعًا في النّفوس، لتنفيرهم من فعلهم ذاك، بينما (مثل) قد تدلّ على تشبيهٍ أقلّ تأثيرًا، أو أقربَ إلى المَجاز.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ وصلتِهِ ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾:

شمولُ أهلِ الكتابِ في رحلةِ الإيمانِ والابتعادِ

دلالةُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ ترتبط بشمول اليهود والنّصارى، إذ كان الجميع في بداية أمرهم يحول الحقّ بينهم وبين شهواتهم، فإذا سمعوا التّوراةَ والإنجيل خشعوا للّه، ورقّت قلوبهم، لكن مع طول الزّمان غلبَهم الجَفاءُ والقسوة، وزالت عنهم الرّوعةُ التي كانوا يختبرونها عند سماع الكِتابَيْن، فحدث ما حدث من اتّباع الأهواء وتفرُّقِ السُّبُل[3].

سِرُّ التّعبيرِ بفعلِ الإيتاءِ مبنيًّا للمفعولِ:

الإشـعـارُ بجلالةِ العَطيّةِ وعظمتِها

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإيتاءِ في قولِهِ: ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنّه يُستعمل في المعاني العظيمة والأمور الجليلة؛ فقد استعمل القرآن التّعبيرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391 - 392.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.

بالإيتاء في المُلك نحو قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، ومع الحكمة نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: 269]، ومع القرآن نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]؛ لذلك جاء التّعبير بالإيتاء هنا؛ لأنّه يتعلّق بالتّوراة والإنجيل، ولهما من العَظَمة والتّشريف ما لهما. وجاء الفعل مبنيًّا للمفعول إشعارًا بجلالة العَطيَّة وعظَمتِها، وللتّنبيه على أن مَن أوتوا هذا الكتاب، لو عقلوا لكفاهم ذلك حجّةً وهدايةً. وممّا يُذكر في سِرِّ استعمالِ البناءِ للمفعولِ في جملة: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يَقُلْ: (كالذين آتيناهم الكتاب)، أو: (كأهل الكتاب)؛ أنّ هذا التّعبير يُستعمل غالبًا في سياق الذّمّ، لاسيّما عند بنائه للمفعول، للدّلالة على التّقصير في حقِّ ما أُعطوا، وهو يشير إلى اليهودِ والنّصارى عمومًا، أمّا (أهل الكتاب) فيُراد بالكتاب على الخصوص: التّوراة والإنجيل(1).

سِرُّ التّعبيرِ بوصفِ الكتاب: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

التّعريضُ بأهلِ الكتابِ لقَسْوةِ قلوبِهم

التّعبير بوصف الكتاب في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يتضمّن تعريضًا خفيًّا بهم، إذ على الرّغم من أنّ الكتاب بأيديهم وبين ظهرانيهم، فقد كانوا على حالٍ من القسوة والغفلة لا تليق بمَنْ يحمل كلام الله، فجاء الوصفُ توبيخًا مُبطّنًا يُشير إلى عِظَم التّفريط على الرّغم من عِظَم العَطيّة، فهم أوتوا التّوراة والإنجيل(2)، لكنّهم لم ينتفعوا بنورهما، فصاروا موضع تحذير، لا موضعَ اقتداء.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

دلالةُ العهدِ إشارةٌ إلى التّوراةِ والإنجيلِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دالّةٌ على التّعريفِ العهديِّ، فهي تُشير إلى كتابٍ معلوم لدى المُخاطَبين، والمقصود به التّوراةُ والإنجيل؛ أيِ: الكتابان اللّذانِ أُعطيهما اليهودُ والنّصارى.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.

(2) الصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 3/ 308.

بلاغةُ التّعريضِ بأهلِ الكتابِ:

إبــرازُ انـحـرافِ أهلِ الكتابِ عن جادَّةِ الطّاعةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريضٌ بالغٌ بأهل الكتاب، يكشف انحرافَهم عن جادّة الطّاعة، وتنكّبَهم لما أنزله اللّهُ على رسله إليهم[1]، فجاء الأسلوبُ في صيغة النّهي الموجَّه إلى المؤمنين تحذيرًا ضمنيًّا، يُبرِز سوءَ حالِ أولئك الذين أوتوا التّوراة والإنجيل، فلم يَصونوا عهدَهما، ولم يَثْبُتوا على هُداهما، فجعلهمُ اللّهُ عبرةً تُضرَب، لا سيرةً تُقتَدى.

سِرُّ التّعبيرِ بإيتاءِ الكتابِ دونَ (أهلِ الكتاب):

التّشبيهُ مُنصبٌّ على مَن عاصروا موسى، لا على الموجودين في زمنِ الرّسولِ ﷺ

التّعبير بقوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون أن يُقال: (أهل الكتاب)؛ للإشارة إلى بني إسرائيل لا على جهة التّعيين، بل إيحاءٌ بأنّ التّشبيه مُنصبٌّ على مَن عاصروا موسى عليه السلام، ممّن أوتوا التّوراة[2]، لا على أهل الكتاب في زمن النّبيّ ﷺ مباشرةً، وهذا من دقائق التّعبير؛ إذ لم يُشبَّه المعاصرون للنّبيّ ﷺ بأقرانهم من أهل الكتاب، بل بمَن تقدّمهم زمانًا، تنبيهًا على تكرُّر الانحراف عبرَ الأجيال، وتشابهِ المآلات مع تعاقب الأُمم.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرّ في ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

تخصيصُ بعضِ الزّمانِ لا استغراقُه إيماءً إلى اليهودِ والنّصارى

أُدخِل الجارُّ في ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ليُؤذِن بأنّ الاستغراق الزّمنيّ غيرُ مُرادٍ؛ بل المقصود بعضُ ما مضى لا جميعُه. وذلك أنّ إنزال الكتبِ لم يقع في الزّمان الماضي على وجه العموم، بل اختصّ بأقوامٍ مخصوصين، هم بنو إسرائيل[3] من اليهود والنّصارى الذين نزلت عليهم الكتب الإلهيّة قبلَ نزول الحقّ على هذه الأُمّة.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿قَبۡلُ﴾:

في التّعبير بالظّرف ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ دلالةٌ على العهد

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 264.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279 - 280.

ربطُ حالِ المؤمنين بما مضى من عهدِ الرّسالاتِ

الأوّل[1]؛ أيْ: ما سبق من إنزال الكتب على بني إسرائيل، فجاءت الظّرفيّة لربط حالِ المؤمنين بما مضى من عهد الرّسالات الأولى. والتّعبير بالقَبليّة؛ أيْ: من قبل نزول القرآن، فيه تحذيرٌ ضمنيٌّ لأهل الإيمان من لُحوقِ الغفلة التي أصابت أهل الكتاب، فلا يكونوا كاليهود والنّصارى ممّن سكنوا الغفلة، فكان في التّعبير تحذيرٌ من أن يصيبَهم ما أصاب أولئك من قسوةٍ وانطفاءِ خشوعٍ[2].

سِرُّ العطف بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَطَالَ﴾:

تفريعٌ وتحذيرٌ من مآلِ القسوة وسوءِ عاقبةِ الغَفْلةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ جيء بها لتفريع حالِ طول الأمَد على ما سبق من عدم الخشوع وقسوة القلوب، لا على أصل التّشبيه، فهي ليست جزءًا من التّشبيه الوارد في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾[3]، بل جاءت خارجةً عنه، تنبيهًا على مآل مَن سلك مسلكَهم، وتحذيرًا للمؤمنين من أن يلحقَهم ما لَحِقَ أولئك من قسوة وغفلة.

دلالةُ استعمالِ الفعلِ ﴿فَطَالَ﴾ مادّةً وصيغةً:

زمنٌ واقعٌ ممتدٌّ بينهم وبين أنبيائِهم

سرّ التّعبير بالفعل ﴿فَطَالَ﴾ يكمن في دلالتَيْن؛ دلالة الصّيغة، ودلالة المادّة، فأمّا صيغة الماضي، فلِتصويرِ الحَدَث على أنّه واقعٌ مُحقَّق قد استقرّ واستطال، لا مُجرّدُ احتمالٍ؛ إيذانًا بثبات القسوة في قلوبهم نتيجةَ ذلك الأمَد الطّويل، وأمّا مادَّتُه (طال)، فمشحونةٌ بإيحاء الزّمن الممتدّ؛ إشارةً إلى البُعد الزّمنيّ بين هؤلاء وبين أنبيائهم[4].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

قَصْرُ أثرِ طولِ الأمَدِ على بني إسرائيلَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾؛ للتّخصيص والاهتمام بالطَّرَف الذي طال عليه الأمد، وهم

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 14/ 297.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.

بنو إسرائيل في هذا السّياق، ممّا يُبرِز أنَّ طولَ المُدّة كان مُؤثّرًا عليهم بشكلٍ مباشرٍ، وسَبَّبَ قسوةَ قلوبِهم، وانصرافَهم عن ذِكْر اللّه.

سِرُّ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ دونَ غيره:

الـدّلالـةُ على الاسـتـمـرارِ الـطّـويـلِ والامتدادِ الثّقيلِ

اختار النّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾، مُفضِّلًا إيّاه على ألفاظٍ أخرى؛ كالمدّة أو الزّمن أو الوقت، لما يحملُه من دلالةٍ على الاستمرار الطّويل والامتداد الثّقيل؛ لأنّه لّمّا قصد التّعبيرَ عن امتداد الزّمن البعيد[1]، آثر التّعبير به. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالأمد: الدّلالة على الزّمن الممنوح تكريمًا وتمديدًا منذ بداية إنزال الكتاب؛ لأنّ الأمَد يُقصَد به الأجلُ أو المُدّة كلُّها، فكِلاهما يُطْلَق على مجموع المُدّة وعلى نهايتها[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾:

آمـادٌ مُـتـعـدّدةٌ ومتنوّعةٌ

الألف واللّام في ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ تحمل دلالةً استغراقيّة يحتمل معها أكثر من معنًى، فقد يكون أمدَ انتظارِ الفتح، أو أمدَ انتظارِ القيامة، أو أمدَ الحياة الدّنيا[3]، ولذلك اختُلِف في المُراد بطول الأمَد؛ فقيل: المُراد بطول الأمد المُدّةُ التي بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: المَيل إلى الدّنيا والإعراضَ عن الموعظة. وقيل: طول أعمارِهم في الغفلة، فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السّبب. وقيل: الأمل البعيد؛ أيْ: لّمّا طالت آمالُهم لا جرمَ قست قلوبهم. وقيل: تطاولُ أمدِ خروج النّبيّ عليهم. وقيل: طول أمدِ سماعهم التّوراة والإنجيل، فزال تأثيرُهما عليهم فقست قلوبهم[4].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾:

الأمَـــدُ ظـرفُ زمـانٍ، والـطّـولُ ما كان منهم من نسيانٍ وغفلةٍ وخُذلانٍ

قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ من المجاز العقليّ، إذ أُسنِد

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 477.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 280.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 264.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

الطّولُ إلى ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ وهو الزّمن، مع أنّ الطّول في الحقيقة هو من صفات المُدّة أو العهد، لا من خصائص الزّمن ذاته، فعلاقةُ الإسنادِ هنا زمانيّة[1]؛ لأنّ الأمَد ظرفٌ زمنيّ، والطّول وصفٌ لحال النّاس فيه.

طـال الأمـدُ فَقَسَت القلوبُ وغابَ الخشوعُ

نوعُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَقَسَتۡ﴾، ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ سببيّةٌ[2]، لأنّ قسوة القلوب كانت نتيجةً حتميّةً لطول الأمد؛ أيْ: لا تكونوا كالذين إذا طالت عليهم المُدّة، ولم يتجدّد في قلوبهم أثرُ الوحي؛ قَسَت قلوبُهم[3]، وانطفأ فيها نورُ الخشوع، فارتدّوا إلى الغفلة والإعراض.

القلوبُ القاسيةُ يَـقِـلُّ خـيرُها ويكثرُ شَرُّها

سِرُّ التّعبيرِ بفعلِ القسوةِ دونَ الشِّدَّةِ:

التّعبير بقوله: ﴿فَقَسَتۡ﴾ دون ألفاظٍ أخرى كـ(اشتدّت) يدلُّ على صلابة القلب وجموده، لا في شدّته فقط، بل في فقدان خيره، وانطفاءِ قابليّته للانفعال بالطّاعة واللّين للذِّكر، فهي قلوبٌ لم تشتدّ فحسب؛ بل فقدت حيويّتَها، وسكنت إلى المعصية، واستمرأت المخالفة، وفعلت من العصيان ما هو مأثورٌ في سِجِّل بني إسرائيل[4]؛ لذلك كان التّعبير بالقسوة هو المناسب لهذه القلوب؛ لأنّها لا تقبل موعظةً ولا يُجدي معها إصلاحٌ.

قـسـوةٌ ثـابـتـةٌ جعلتِ القلبَ لا يقبلُ الموعظةَ

دلالةُ الماضي في قولِهِ: ﴿فَقَسَتۡ﴾:

استعمل التّعبيرُ القرآنيّ الفعلَ ﴿فَقَسَتۡ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على أنّ القسوة قد وقعت وثبتت، فهي حالةٌ مستقرّة لا رجعةَ فيها، تُشير إلى قلبٍ لم يَلِن، ولم يَعُد قابلًا للموعظة[5]، أو متفاعِلًا مع الهَدي، بل استحكم فيه الجفاءُ، وانطفأ فيه أثرُ الذِّكر.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 344.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 264.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.

سِرُّ إسنادِ القسوةِ إلى (القلوبِ):

القلبُ موضعُ القسوةِ ومحلُّ التّقلُّبِ بين الإيمانِ والجفاءِ

أسنَد التّعبيرُ القرآنيّ القسوةَ إلى القلوب دونَ الأفئدة في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾؛ لأنّ القلوب هي محلّ الإيمان والكفر، واللّين والقسوة، وهي التي تتقلّب وتتأثّر بالفعل أو الإعراض، بخلاف الأفئدة التي تُذْكَر في سياق الانفعالات النّفسيّة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]؛ لذلك كان التّعبير بالقلوب؛ لأنّ القسوة تتناسب معها؛ فهي دالّةٌ هنا على الجمود والجفاء، لا على التّأثُّر أو الخوف.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَقَسَتۡ﴾:

شدّةُ الغفلةِ وبلوغُها حَدَّ التّصلّبِ الذي انعدم معها التّأثّرُ

في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ جاءت القسوةُ إمّا على سبيلِ الاستعارةِ بالكنايةِ، حيثُ شُبِّهت قلوبهم بشيءٍ بدأ رخوًا ثمّ اشتدّ وصَلُب، فحُذِف المُشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بلفظ القسوة، أو هي استعارة تصريحيّة تمّ فيها تشبيهُ غفلةِ قلوبهم عن ذِكْر اللّه بالقسوة والصّلابة، فهي استعارةُ محسوسٍ لمحسوسٍ، ويَكْمنُ سِرُّ البلاغة في هذه الصّورة في شدّةِ الغفلة، وبلوغِها حدَّ التّصلّب، بما يدلّ على انعدام التّفاعل مع الموعظة، والتّجرُّد من التّأثّر بالمؤثّرات الخارجيّة الطّارئة(1).

سِرُّ التّعبيرِ بالقسوةِ عن النّسيانِ:

تمرّدُ القلوبِ على استمراءِ المخالفةِ لشرعِ اللهِ والتّجرّؤُ على أوامِرِه

استعمال القسوة في الآية كنايةٌ عن النّسيان المُتعمَّد لما أوصوا به، إذ خالفوا أحكامَ شرائعهم، ولم يهابوا وعيدَ اللّه، بل انغمسوا في حُطام الدّنيا، وقالوا: سيغفر لنا؛ فنبذوا الوحيَ وراءَ ظهورهم، واستبدلوه بعَرَضٍ زائلٍ، حتّى صار ذلك طبعًا لهم، يتكرَّر شيئًا فشيئًا حتّى ألِفوه، فتمرّدت قلوبُهم على الحقّ، واستساغت تحريفَ أحكام الدّين، فكانت قسوتُها دلالةً على استمراء المخالفة، والتّجرؤ على أمر اللّه تعالى(2).

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392.

دلالةُ الإنصافِ بقولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾:

إنصافٌ إلهيٌّ بعدمِ تعميمِ الحُكمِ عليهم دلالةً على العدالةِ

في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنصافٌ دقيقٌ للمخاطَبين، إذ لم يُعَمِّم الحكُمُ بالفسقِ على جميعهم، بل نبَّه السّياق على أنّ الفسقَ ليس سجيّةً شاملةً لهم، بل يختصّ بكثيرٍ منهم، لا كلِّهم، فمنهم مَنْ آمن واهتدى، ومنهم مَنْ لم تبلغه الدّعوةُ، فبقيَ على ما جاء به نبيُّه[1]، غيرَ معاندٍ ولا جاحدٍ، فكان في التّعبير مراعاةٌ للعَدْل، وتوقيرٌ للحقائق.

سِرُّ التّعبيرِ بالفسقِ دون الكفرِ:

ذِكْرُ الفسقِ في مقابلِ الإيمانِ دليلٌ على أنّه مُرادِفٌ للكُفرِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفِسْق دونَ الكفر في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ لأنّه يدلّ على الكفر في سياقٍ خاصٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة: 59]، فذِكْرُ الفِسْق في مقابل الإيمانِ يدلُّ على أنّه مُرادفٌ للكفرِ[2].

بلاغةُ ختامِ الآيةِ في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

إبرازُ الانحدارِ من التّفريطِ إلى الانحرافِ

في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بلاغةٌ رفيعةٌ تُجسِّد الانحدارَ التّدريجيّ من التّفريط إلى الانحراف، فكأنّما يُشير السّياقُ إلى أنّ عدم الخشوع والاستجابة للذّكر في أوّل الأمر، يُفضي مع التّمادي إلى الفسق في آخره[3]. وممّا يُذكَر في بلاغة ختام الآية: أنّ جملة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ جاءت اعتراضًا في ختام السّياق؛ لتكشفَ أنّ كثيرًا منهم لم يقف عند حَدّ قسوةِ القلوب، بل تجاوزوه إلى نبذ الدّين، وتحريفِ الكتاب، وإفسادِ العقائد، حتّى انتهى بهم الغُلوّ والانحراف إلى دركةِ الكُفر[4].

---

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392 - 393.

دلالةُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

مَرْجِع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ عائدٌ إلى أولئك الذين أوتوا الكتاب، ودلالتُه تُشير إلى أنّ جماعة كبيرة منهم قد فسقوا، لا لجهلهم، بل لإعراضهم المُتعمَّد عن تدبُّر الكتاب، وتركِهِمُ النّظرَ فيه(1).

كثيرٌ من أهلِ الكتابِ فسقوا، وإلى الضّلالِ سَبَقوا

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ جملةٌ اسميّةٌ معطوفةٌ على ما سبقها من الجملة الفعليّة(2)، لِتُؤكِّدَ وتُعمِّق الوصف، فكان التّعبيرُ بها دقيقًا في تصوير عراقة الإقدام على الخروج من دائرة الحقّ التي رسمها لهم الكتابُ(3)، والانغماس في الفِسْق والتَّمرُّد على الضّوابط الإلَهيَّة.

صفةُ الفسقِ ثابتةٌ في بعضِ أهلِ الكتابِ

بلاغةُ الجِناسِ في قولِهِ: ﴿فَقَسَتۡ﴾، ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

تتجلّى في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ بلاغةٌ محكمةٌ تتضح بجمال الجِناس؛ إذ يجمع التّعبير بين نوعَيْن من الجناس في تركيبٍ واحدٍ بديعٍ؛ الأوّل: ما يُعرَف بجناس القلب، حيثُ تتكرّر جذور الحروف في كلمتي ﴿فَقَسَتۡ﴾ و﴿فَٰسِقُونَ﴾. والثّاني: هو الجِناس النّاقص(4)، فقسوةُ القلوبِ تُمهِّد لانحراف كثيرٍ منهم إلى الفسق.

مُحَسِّنُ الجناسِ بين القسوةِ والفِسْقِ

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الخشوع والخضوع:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.

(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/ 198.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 280.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.

الخشوعُ للقلوبِ، والخضوعُ للجوارحِ

اختيرَ لفظُ الخشوع دون الخضوع؛ لأنّ الخضوع يختصّ غالبًا بما يظهر على الجسد من الانكسار والإقرار بالاستخذاء، أمّا الخشوع فيَمتدّ أثرُه إلى الباطن والظّاهر معًا، فهو يكون في الصّوت والبصر وفي هيئة القلب[1]، دالًّا على تذلُّلٍ عميقٍ وخضوعٍ باطنيٍّ يفيض أثرُه على الجوارح؛ فجاء الخشوعُ هنا ليَدُلّ على انكسار القلوب وانقيادِها لذِكْر اللّه تعالى، لا على مجرّد خضوعٍ حسّيٍّ للجوارح.

الأمَد والزّمن والوقت:

الزّمنُ أوقاتٌ متواليةٌ لا يُقيّد بغايةٍ، بخلافِ الأمَدِ

عبّر المولى سبحانه بلفظِ الأمَد في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾، ولم يعبّر بالزّمن أو الوقت؛ لأنّ الوقت مِقدارٌ من الزّمان يُفرَض لأمرٍ مُعيّن[2]. والزّمان أوقاتٌ متواليةٌ لا تُقيَّد بغايةٍ[3]. أمّا الأمَدُ فيَدُلّ على الغاية المُمتدّة التي يُنظر إليها من جهة طولها وانتهاء أجلها، فكأنّه زمنٌ له طرفٌ مقصودٌ بالانتهاء، فاختيارُ الأمَد هنا أبلغُ؛ لأنّ المقصودَ بيانُ طولِ الغاية التي طالت عليهم، إمّا لطول أعمارهم وآمالهم، أو لطول ما بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبُعْدِ العهد بالوحي، وقيل: لطول أمدِ انتظارهم للقيامة والجزاء، أو انتظارهم للفتح والنّصر، وعلى أيٍّ من الأقوال؛ فالأمَدُ يُفيدُ امتدادَ الغاية، واستطالةَ الأجل حتّى أثمرَ ذلك قسوةَ القلوب[4].

القسوة والشِّدَّة:

تصويرُ القلوبِ القاسيةِ التي لا تقبلُ الإصلاحَ

في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ وصفُ القلوب بالقساوة، ولم يُعبّر بالشّدّة؛ ذلك أنّ "القسوة تُستعمل فيما لا يقبل العلاج، ولهذا يوصَف بها القلبُ، وإن لم يكن صلبًا"[5]، وقلوب هؤلاء لا تقبل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 268.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109.

العلاج، أمّا الشّدّة: فهي "التزاق الأجزاء بعضِها ببعض، سواءٌ كان الموصوف بها مُلتئمًا أو مُتحلّلًا، والشّدّة مبالغةٌ في وصف الشّيء"[1]، فلم يُعبِّر القرآن بالشّدّة هنا؛ لأنّ الشّدّة في أصل معناها تدلّ على القوّة والصّلابة والالتحام، وقد تُستعمل في مواضع المَدح أحيانًا، كقوله تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ [طه: 31]؛ أيّ: قوِّ به ظهري، أمّا القسوة فهي تُستعمل فيما لا يقبل اللّين، ولا العلاج، وفيما ينبو عن الرّحمة والرّفق، ولا يصلح للإصلاح، فالآية تتحدّث عن قلوبٍ مُغلقةٍ لا تَلين ولا تتأثّر، لا عن قلوبٍ مُتماسكةٍ أو قويّةٍ، لذلك كان التّعبير بالقسوة أبلغ في بيان حالها، إذ هي قلوب لا تقبل الموعظة، ولا يدخلها الإصلاحُ، بخلاف الشّدّة التي قد تُفهم على أنّها قوّةٌ تحتمل ذلك.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 108.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القلوبُ القاسيةُ يُحييها الذِّكْرُ كما يُحيي اللهُ الأرضَ بعد موتِها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ تحذيرَ المؤمنين من الوقوع في غفلة الأمم السّابقة من أهل الكتاب، الذين طال عليهم الأمد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، وبيّنت أنّ قسوة القلوب ليست محضَ تبلُّدٍ في المشاعر، بل كانت بابًا لإنكار الحقائق الكبرى، وفي مقدِّمتها إنكارُ البعث؛ جاءت هذه الآيةُ بالتّذكير الإلهيّ بمبدأ الإحياء بصورةٍ بديعةٍ ومقنعةٍ بقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾[1] لإثبات البعث.

ومنها: لمّا نهى اللهُ المؤمنين في الآية السّابقة أن يكونوا عند سماع القرآن غيرَ مُتدبِّرين لمواعظه كاليهود والنّصارى الذين قست قلوبُهم لمّا طال العهدُ بينَهم وبين أنبيائهم؛ جاءت هذه الآية بضَرْبِ المَثَل لتأثير المَواعظ وتلاوةِ القرآن في القلوب بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡيِ﴾: (حيّ) أصلان؛ أحدهما: خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي هو ضِدّ الوقاحة[3]. يدلّ اللّفظ على إيجاد الرّوح في الكائن الحيّ، فكلُّ كائنٍ حيٍّ ينطبق عليه هذا الوصف، وهو أيضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 460.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيّ).

"قوةٌ ساريةٌ تتمثّل في الحِسّ والنّمو، وهو حركةٌ واتّصالٌ وامتدادٌ مع الطّراءة"[1]، ويَرِد هذا اللّفظُ للقوّة النّامية المتوافرة في النّبات والحيوانِ؛ فيوصفُ النّبات بالحيّ[2]. ومعنى ﴿يُحۡيِ﴾ في الآية: أنّه سبحانه يُصلح الأرض بعد يبسها[3].

2) ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾: (موت) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على ذهاب القوّة من الشّيء، ومنه الموت: خلاف الحياة[4]. والموت يدلّ على ما ليس فيه روح، وهو مفارقة الرّوح للجسد[5]، والتّعبير عن الموت في القرآن الكريم جاء محدودًا في سياقاتٍ واضحةٍ، كموت الأحياء من البشر، وموتِ البلاد والقرى، وموتِ الأرض[6]. ومعنى ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾: إخراجُ النّبات والشّجر منها بعد أن باتت يابسةً مُجْدِبةً[7].

3) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: (عقل) أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مُطَّردٌ، يدلّ عِظَمُه على حُبْسَةٍ في الشّيء أو ما يُقارب الحُبْسة؛ من ذلك العقل، وهو الحابِسُ عن ذميم القول والفعل[8]. و"العقل: نقيض الجهل...، والمعقول: ما تعقله في فؤادك، ويُقال: هو ما يُفهَم من العقل"[9]، وكلّ ألفاظِ العقل تدور في فَلَك الحَبْسِ والمَنْعِ، فالعقل يحبس الإنسان، ويمنعه من ارتكاب المحظورات، والعقل يُطلَق على القوّة المُستعدَّة لموافقة العِلْم وتقبّله[10]. ومعنى ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ في الآية: كي يكتمل عقلُكم[11] بالنّظر في الآيات، فتبلغوا الرّشد، وتستبينوا سبيلَ الهدى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اعلموا عِلْمَ يقينٍ وإيمانٍ أنّ اللّه سبحانه يُحيي الأرضَ بعد أن يبست وانقطعت عنها أسبابُ الحياة، فيَنْثر فيها نبضَ النّباتِ من جديدٍ، فترتدي حُلّةَ البهاءِ بعدَ جَدْبٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(2) الخليل، العين: (حيو)، والرّاغب، المُفردات: (حيي).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات: (موت).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (موت).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 235.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(9) الخليل، العين: (عقل).
(10) الرّاغب، المُفردات: (عقل).
(11) العليميّ، فتح الرّحمن: 6/ 539.

القادرُ على إحياءِ الأرضِ بعد موتِها قادرٌ على إحياءِ الأجسامِ بعد فنائِهِ

وسكونٍ؛ فكما أحياها بعد موتها، فهو ﷻ قادرٌ على إحياء الأموات بعد فنائهم، وقد ضرب لكم هذا المَثَلَ، وبيّن لكم الآياتِ الباهرات الدّالّةَ على وحدانيّتِه وعظيمِ قدرتِه، عسى أن توقِنوا بعقولٍ تتأمَّل، وقُلوبٍ تتدبّر[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

تعليلٌ مُتضمِّنٌ التّحريضَ على الخشوعِ لذِكرِ الله تعالى

فُصِل قولُه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه بمنزلة التّعليل لما تضمّنَته الآياتُ السّابقة من لَدُن قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾... ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ من التّحريض على الخشوع، ولينِ القلب[2].

بلاغةُ تصديرِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

تنبيهٌ واستيقاظٌ يُرادُ به ترسيخُ اليقينِ في القلوبِ

تصدير الآيةِ بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يدلُّ على التّنبيه وإيقاظِ القلوب من غفلتها، وفيه ترسيخُ اليقين، فكما تُؤمنون بإحياءِ الأرضِ بعد موتها، فآمنوا بقدرة اللّه تعالى على بعث القلوب والأجساد[3]. وفيه إشارةٌ بأنّ ما سيُلقَى بعدَه من القول أمرٌ جليلُ الخطرِ، عظيمُ الأثرِ، يقتضي استحضارَ القلبِ، وتوجُّهَ الذّهنِ بكُلّيَّته، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: 235]، إذ أُريد به تمثيلُ حالِ احتياجِ القلوب المؤمنةِ إلى ذِكر اللّه، بحال الأرض المَيّتَة في حاجتها إلى المطر، وحالِ الذِّكر في تزكية النّفوس واستنارتها، بحال الغيث في إحياء الأرض المُجْدِبة[4]. وممّا يُذكر في دلالة الأمر الوارد على حقيقته؛ لأنّه من الأعلى - وهو اللّه تعالى - إلى الأدنى -

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393 - 394.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.

وهُم البشر - لتذكيرهم بأنّ هذه الحياةَ زائلةٌ وأنّ الإنسان سيموت؛ فعليه أن يعملَ لدار القرار؛ لأنّ اللّه يُحييه للحساب، كما يُحيي الأرض بعد موتها.

سِرُّ التّعبيرِ بالعلمِ بقولِهِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ مع إحياءِ الأرضِ:

في الإحياءِ تمثيلٌ خفيٌّ على بَعْثِ القلوبِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالعِلم، مع أنّ إحياء الأرض بعد موتها أمرٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه، إذ يشهده النّاسُ في كلّ وقتٍ بما ينزل من المطر، ومع هذا جاء التّعبيرُ عنه بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾، لا لمُجَرّد الإخبار، بل لما يتضمّنُه من دلالةٍ تمثيليّةٍ غيرِ مألوفة، يُراد بها إيقاظُ القلبِ إلى نظيرٍ أعظم، وهو إحياءُ القلوبِ وبعثُ الأجساد(1)، كما جاء في قول النّبيّ ﷺ لأبي مسعود: «اعْلَمْ، أبا مَسْعودٍ! للّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عليه»(2).

دلالةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

تنبيهٌ إلى أهمّيّةِ ما سيُلقَى في الكلامِ

الخطاب بفعل الأمر ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ موجَّهٌ إلى المؤمنين على سبيل الالتفات، إقبالًا عليهم، وتكريمًا لهم، وتنبيهًا إلى أهمّيّة ما سيُلقَى في سياق الكلام(3)، والخطاب بهذا الفعل فيه إشارةٌ إلى دعوتهم إلى التّرقّي في السّلوك الإيمانيّ، ليَجتمعَ لهم خشوعُ الباطنِ وخضوعُ الظّاهر.

دلالةُ التّأكيدِ بـ﴿أَنَّ﴾:

الاعتناءُ بشأنِ الخبرِ وتأكيدُه في نفسِ السّامعِ

في التّوكيد بـ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دلالةٌ على الاعتناء بشأن الخبر وتأكيدِه في نفس السّامع، إذ ليس الغرضُ مجرّدَ الإخبار، بل ترسيخَ اليقينِ بحقيقةٍ عظيمةٍ قد تَذْهَل عنها القلوب، وهي قدرة اللّه على الإحياء بعد الموت، ممّا يُمهِّد للحديث عن إحياء القلوب القاسية، كما أحيا الأرض بعد موتها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.

(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (1659).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

المَلِكُ الأعظمُ لا يُعْجِزهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماءِ

أوثِر التّعبيرُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ دونَ غيرِه من أسمائه الحسنى؛ لأنّه الاسم الجامع لصفات الكمال والجلال، ولأنّه المَلِكُ الأعظم الذي لا يُعجِزه شيءٌ[1]، فكان ذِكْره في مقام الإحياء إيذانًا بأنّ هذا الفعلَ العظيم لا يكون إلّا لِمَن له القُدرة المُطلقة والإرادة النّافذة.

دلالةُ استعمالِ الفعلِ ﴿يُحْيِ﴾ دونَ (ينبت):

بلاغةُ الإحياءِ في موضعِ الإنباتِ استعارةٌ توقِظُ المعنى وتُجَسِّد القدرةَ

آثَر التّعبيرُ القرآنيّ استعمالَ الفعل ﴿يُحْيِ﴾ دون أن يقول: (يُنبت)؛ لأنّ التّعبير بالإحياء أبلغُ، وهو من باب الاستعارة، إذ شُبّه إنباتُ النّباتِ في الأرض بإحياء الميّت، وشُبّهت الأرضُ القاحلة بالمَيِّتة[2]، فكان الإحياء كنايةً عن إنزال الحياة في الأرض بعد جَدْبها.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعليّةِ ﴿يُحْيِ﴾ دون الاسميّةِ (محيي):

إحياؤهُ للمَواتِ مُتجدِّدٌ لا ينقطعُ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيّ صيغةَ الإحياءِ المُضارعيّة ﴿يُحْيِ﴾ بدلًا من الاسميّة (المحيي)؛ لما في الفعليّة من دلالة على التّجدُّد والاستمرار، فهي تُشير إلى أنّ إحياءَ اللّهِ للأرض ليس أمرًا وقعَ وانقضى؛ بل هو فعلٌ مُتكرّرٌ مشهودٌ[3]، يتجدّد في كلّ حينٍ، فتراه الأعين وتشهده القلوب، وهذا دليلٌ على قيوميّتِه سبحانه على مُلْكه. وممّا يُذْكَر في سِرِّ استعمال صيغة الفعل المضارع ﴿يُحْيِ﴾ بدلًا من الاسم (المُحْيِي)؛ ما في الفعل من استحضارٍ لصورة الإحياء العجيبة الجارية أمامَ العيون؛ لأنّ المضارع يُجَسِّد الفعلَ، ويجعلُه حيًّا نابضًا بالحركة، دالًّا على تجدُّدِ القدرة الإلَهيّة واستمرارِها، ممّا يُعظِّم وقعَ الآيةِ في النّفس، ويُؤكّد استحقاقَ اللّهِ وحدَه للتّعظيم والإفرادِ بالعبادة[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.

دلالةُ التّعبيرِ بإحياءِ الأرضِ:

إحياءُ الأرضِ شاهدٌ على توحيدِ اللهِ الباقي

في تخصيص إحياء الأرض من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دلالةٌ بليغةٌ، إذ إنّ إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ على وحدانيّة اللّه وقدرتِه، وهو من الآيات الدّالّة على توحيده، التي تُبيِّن عظمةَ خالقِه وقدرته على البعث والنّشور[1]، ولأنّ القادر على إحياء التّراب بالمطر قادرٌ على إحياء القلوب بالذِّكْر، وإصلاحِها بعد قساوتها حتّى تلين، كما أحيا الأرض بعد موتها بالمطر، وأعاد إليها الحياة والنّضارة[2].

دلالةُ ارتباطِ إحياءِ الأرضِ بذِكرِ اللهِ في الآيةِ السّابقةِ:

تمثيلٌ لقدرةِ اللهِ على بعثِ القلوبِ وإزالةِ قسوتِها بذِكرِ اللهِ

ارتباطُ إحياء الأرض بعد موتها بذِكرِ اللّهِ في الآية السّابقة يعود إلى أنّ الموجبَ الأعظم لقسوة القلوب هو إنكارُ البعث، وقد كان العرب أشدَّ تماديًا في ذلك من أهل الكتاب، فصار عملهم بما يَدلّ على القسوة كعمل مَن يُنكر الإحياء أصلًا؛ فجاء ذِكْر إحياءِ الأرض تهديدًا لِمَن قسا قلبُه، وتقريرًا لما فُتِحت به السّورة من إثبات القدرة على الإحياء، مُشيرًا بذلك إلى قدرة اللّه على إحياء القلوب، ومُمثِّلًا إزالةَ قسوتِها بما يورثُه الذِّكرُ والتّلاوة من لينٍ وصفاءٍ، ترغيبًا في دوام الإقبال على الوحي ومواعظه[3]. وفي اقتران ذِكر إحياء الأرض بعد موتها بذِكر اللّه دلالةٌ بليغةٌ، إذ جاء ذلك تمثيلًا لأثر الذِّكر في القلوب، وأنّه يُحييها كما يُحيي الغيثُ الأرضَ المَيْتة[4]، فالمعنى: أنّ القلوب التي ماتت بسبب القَسْوة، تعود إليها حياةُ الخشوع بالمداومة على الذِّكر، كما تعود الحياة إلى الأرض الجُرُز إذا نزل عليها الغيث[5]. وممّا يُذْكَر في دلالة ارتباط إحياء الأرض بعد موتها

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 126.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

بِذِكْر الله؛ أنّ الله كما يُحيي الأرضَ فيُخرج منها النّباتَ بعد أن تفتّت وصارت ترابًا، فكذلك يُحيي الأجسادَ بجمعها وإفاضةِ الأرواح فيها، كما فعل بالنّبات، وكما خلق الأجسامَ أوّل مرّةٍ؛ ولا فرق بين الأمريْن، بل الابتداء في العادة أصعبُ؛ فاحذروا سطوتَه، واخشَوا غضبَه، وارجوا رحمتَه في إحياء القلوب، فإنّه كما أحيا الأرض بروح الماء، فهو قادرٌ على إحياء القلوب بروح الوحي، لتلين بعد قسوتِها، كما ربَتِ الأرضُ بالمطر بعد يُبْسِها وموتِها[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

المُراد بها الأرض التي يعيشون عليها

(أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ للعهدِ، فهي الأرضُ المُحدَّدة والمعروفة التي يعيش عليها النّاس. ويجوز في الألف واللّام في كلمة ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أن تكون للجِنْس التي تفيد العمومَ والاستغراق، حيثُ تشمل جميع أجزاء الأرض وجنسها، وفي هذا بيانٌ لقدرته تعالى على إحيائه للأرض بكاملها، ولا تعارضَ بين المَعنييْن؛ لأنّ المُراد بها الأرضُ التي نعيش عليه.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

بيانُ القدرة الإلَهيّةِ في إحياءِ الأرضِ بعد الموتِ والجُمودِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ دونَ (الأرض الميتة)؛ للإشارة إلى أنّها كان بها حياةٌ من الزّروع والثّمار، كما أنّ الإنسان كانت له حياةٌ قبلَ موته، فأحيا اللهُ الأرضَ بعد أن كانت مُجدبةً لا زرعَ فيها ولا حَبَّ، سواءٌ كان بعد مدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ من الزّمن؛ فأحياها بالزّرع، والشّجر، وإخراجِ الثّمر[2]، بخِلاف التّعبير بالأرض المَيْتة؛ فإنّه يُشير إلى عدم وجود حياةٍ لها بالنّبات والزّروع قبلَ ذلك.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ (مِن) هنا، مع ذِكْرِها في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، دونَ ذِكر حرفِ الجَرّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281 - 282.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 6/ 181.

(مِن)، بخلاف ما ورد في مواضع أُخرى كقوله في العنكبوت: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ [العنكبوت: 63]؛ لأنّ المقام في سورة الحديد يدلُّ على ثبوت الإحياء، من حيثُ هو فعلٌ دائمٌ مستمرٌّ، مُتحقّقٌ بالفعل وبالقوّة، لا موضعَ لتقييده أو تخصيصه، فكان حَذْفُ (من) أنسبَ لدلالة العموم والشّمول[1].

ثبوتُ الإحياءِ بالفعلِ والقوّةِ اقتضى عدمَ الذِّكرِ

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ في ﴿مَوۡتِهَآ﴾ دونَ الفعليّةِ:

في استعمالِ صيغةِ الاسم ﴿مَوۡتِهَآ﴾ دون الفعلِ تجسيدٌ لصورة جَدْبِ الأرضِ في حالتِها القاحلةِ، إذ جعل الموتَ لها صفةً مستمرّةً ودائمةً، مُعتبرًا إحياءه لها بعدَ هذا الموت قوّةً وإرادةً مستمرّةً، فجاء هذا التّعبير ليبيّن بوضوح موت الأرض وجدبها[2].

تجسيدُ ثباتِ صفةِ الجَدْبِ، ودلالةُ دوامِ القَحْطِ قبلَ الإحياءِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مُصرّحةٌ، تنطوي على استعارةٍ مَكنيّةٍ، لما فيها من تشبيه حالِ ذِكْر الله والقرآن في إحياء القلوب وتزكيتها، بحال المطر في إنبات الأرض بعد جَدْبِها، وقد طويَ ذِكْر الحالةِ المُشَبَّه بها، ورُمِز إليها بلازمها، وهو إسناد الإحياء إلى الله، إذ هو الذي يُحيي الأرضَ بالمطر، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [النّحل: 65]، والمقصودُ من هذا التّمثيل الإرشادُ إلى وسيلة الإنابة، والحَثُّ على تعهُّدِ النّفس بالموعظة، والتّذكير بضرورة الإقبال على القرآن وتدبُّره، وكلام النّبيّ ﷺ وتعليمه؛ فإنّ في الالتجاء إلى كتاب الله وسُنّة رسولِه النّجاةَ، وفي الاعتصام بهما العصمة[3].

تمثيلٌ بلاغيٌّ لهدايةِ القُلوب بالوحي والذِّكرِ والقرآنِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 63.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.

بلاغةُ الطّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ تتجلّى بلاغةُ الطّباقِ بين الإحياءِ والإماتةِ، حيثُ يُقصَدُ بالإحياءِ إخراجُ ما تحويه الأرضُ من حياةٍ، كالكَلأ والشّجر والنّبات، وهو ضِدّ الموت[1] الذي يدلّ على الجَدْب والقَحْط وغيابِ الحياة.

تجسيدُ الإحياءِ ضـدَّ الإمـاتـةِ، وتجديدُ الحياةِ بعد الجَدْبِ

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ﴾:

فُصِلت جملةُ ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ لجملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾؛ إذ إنّ السّامع حين يُؤمر بالعِلم بهذا الخبر، قد يتساءل عن وجه الغرض منه، فجاء قوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جوابًا عن ذلك التّطلّب الذّهنيّ؛ أيْ: أعلمناكم بذلك على وجه التّبيين والبُرهان، لا لمجرّد الإخبار[2].

بيانُ وجهِ التّبيُّنِ والــبرهــانِ لا مجرّدِ الإخبارِ

دلالةُ دخولِ ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي ﴿بَيَّنَّا﴾:

يدلّ دخول ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي ﴿بَيَّنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ على أنّه حرفُ تحقيقٍ وتأكيد[3]، يُشدِّدُ على ثبوتِ بيان الله تعالى للآياتِ الواضحة؛ لتثبيت الحُجّةِ عليهم، وإظهارِ وضوحِ الدّليلِ؛ فيُقْطَع إنكارُهم وجهلُهم.

تـأكـيـدُ الـبـيـانِ وتثبيتُ الحُجّةِ والبُرهانِ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَيَّنَّا﴾ مادّةً وصيغةً:

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿بَيَّنَّا﴾ مادّةً وصيغةً تُفيد الإيضاح التّامَّ، والتّفصيلَ البيّنَ، إذ إنّ البيان يتحقّقُ بفصاحة الكلام وبلاغته، وغزارة معانيه، وحُسنِ عَرْضه، وكلُّ ذلك متحقّقٌ في هذه الآيات كما سلف بيانه، ومن أبلغ صور البيان وأوضحِها التّنظيرُ بأحوال مَن شابهوا المخاطَبين في المقام، سواء كان ذلك في سياق التّحذير أو التّحضيض[4].

من أبـلـغِ صـورِ البيانِ التّنظيرُ بـأحـوالِ مَـن شابَه المخاطَبين في المقامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.

دلالةُ نونِ العَظَمةِ في قولِه: ﴿بَيَّنَّا﴾:

عظمةُ البيانِ لصُدورِه عن صاحبِ العَظَمَةِ والكبرياءِ

استعمالُ النّونِ الدّالّة عليه سبحانه في الفعل ﴿بَيَّنَّا﴾ مؤذنٌ بعظَمة الفاعل وجلالِه[1]، فإنّ النّون هنا تُشير إلى مقام الكبرياء والعظَمة الإلهيّة، وأنّ هذا البيان صادرٌ عمّن له الكمالُ المُطلق، والعلمُ التّامُّ، والقدرةُ الشّاملةُ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمُ﴾:

خصوصيّةُ العربِ في فهمِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ وإدراكِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول؛ لأنّه لَمّا كان العرب يتميّزون بفهمٍ خاصٍّ من لسانهم، فقد أدركوا من إعجاز القرآن كثرةَ فوائدِه، وجلالةَ مقاصدِه، ودقّةَ مسالكِه، وعظمةَ مداركِه، وجزالةَ تراكيبِه، ومتانةَ أساليبِه، وغيرَها من خصائصه وأنواعِه وفنونِه، ممّا يجعلهم مُمَيّزين بهذا البيان الذي لم يبلغه غيرُهم، فتحقّق لديهم أنّه كلام اللّه[2].

وممّا يُذكر في دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ إفادةُ الاختصاص؛ لأنّ العرب يُنكرون البعث، ويقولون: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون: 37]؛ فكان التّقديمُ بمثابةِ الرّدّ عليهم في إنكارِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جمعًا:

الآياتُ أعمُّ من المعجزاتِ

أوثِر التّعبيرُ بـ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دون (المعجزات) أو (العلامات) لعموم هذا اللّفظ؛ فهو يشمل الدّلائلَ العقليّة والكونيّة والتّشريعيّة، ولا يقتصر على الخوارق، ولأنّ السّياق سياقُ موعظةٍ وتذكيرٍ، لا مقامُ تَحدٍّ، فناسبَ أن تُذْكَر ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التي تدعو إلى التّفكُّر والعقل، لا مجرّد ما يُدهش الأبصار.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

استغراقيّةٌ مؤذِنةٌ بشُمول الدّلالةِ وكمالِ البيانِ

(أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تُفيد الاستغراقَ، إذْ هي لتعريف الجنس، وهو شأن الجمع المُعرَّف بـ(أل)[1]، فتعمُّ جميعَ الآيات الموضِحَة للحَقّ، الدّالّة على قدرةِ اللّه ووحدانيَّته؛ تنبيهًا إلى وفرةِ الأدلّة والبراهين.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

بيانُ الآياتِ لتَعْقِلوا أمرَ البعثِ والنّشورِ

أوثِر التّعبيرُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾؛ لأنّها تفيد معنى التّرجّي؛ أيْ: رجاءَ أن تستجيب عقولُكم للآيات، وتتفتّحَ أفهامُكم لمعانيها، إذا أنصفتُم النّظرَ، وتأمّلتم أنّها من عند اللّه تعالى. ويحتمل أن يكون التّرجّي راجعًا إلى فئةٍ مخصوصةٍ من النّاس، مِمَّن علم اللّهُ أنّهم يعقلون ويفقهون، فيكون الحرفُ قد خرج عن حقيقته إلى معنى الإلزام والوجوب في حقّهم، إذ هم أهل الاستجابة والإيمان بما بيّنه اللّهُ من آياته[2]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبير بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أنّها تُفيد معنى التّعليل[3]؛ أيْ: إنّ بيانَ الآياتِ وتوضيحَها جُعِلَ لكي تَعْقِلوا أمرَ البعثِ والحقائقِ المرتبطة به[4]، فكما أنّ اللّه يحيي الأرضَ بعد موتها، فإنّكم أنتُم أيضًا تُبعثون بعد الموت للحساب.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

دورُ العقلِ المُتجدّد في فهمِ أصولِ الدّينِ وحقيقةِ البعثِ

التّعبير بـ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بدلًا من (تتفكّرون) يدلُّ على أهمّيّةِ العقلِ كأداةٍ كافيةٍ لفهم حقيقة البعث، فإنّه من أصول الدّين الأساس، والعقل هنا ليس محضَ تفكيرٍ عابرٍ، بل هو إدراكٌ متواصِلٌ ومُتجدِّدٌ، يساعد المؤمن على إدراك الحقائق الكبرى التي تُؤدّي إلى النّجاة. واستعمالُ الفعلِ المضارع يدلُّ على أنّ الفهم والتّعقُّل عمليَّةٌ مستمرّةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 458.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.

ومُتجدّدة، تُبقي الإنسانَ في حالةٍ من التّأمُّل الدّائم، والتّواصُل الرّوحي مع الحقّ[1].

سِرُّ ختامِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

رجاءٌ وتعليلٌ لعقولٍ تميلُ إلى التّأمُّلِ والتّفصيلِ

خُتِمَت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنّه يتضمّن معنى الرّجاء والتّعليل؛ أيْ: بيّنا لكم الآياتِ رجاءَ أن تعقِلوا؛ لأنّ حالَكم حالُ مَنْ يُرَجَّى فهمُه، فجاء البيانُ ليكونَ عِلّةً لإدراك المعنى، وتدبُّرِ الموعظة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّعقّل والتّفكُّر:

التّفكُّرُ تصرُّف القلبِ بالنّظرِ في الدّليلِ، والتّعقّلُ عملٌ للعقلِ الرّاسخِ

التّفكّر: تصرُّف القلبِ بالنّظر في الدّليل[3]، ولا يُشترط في التّفكُّر إدامةُ النّظر.

أمّا التّعقّل: فهو من إعمال العَقْل، ولذلك عبّر بهذا الفعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنّ العقل أعمُّ وأعمقُ من مُجرّد التّفكُّر؛ فالتّفكّرُ قد يمرّ مرورًا عابرًا لا يُثْمِر يقينًا ولا التزامًا، أمّا التّعقُّل فهو من أعمال العقل الرّاسخة، وفيه معنى الرّبط والإحكام والمنع؛ إذ يعقل المرءُ ما أدركه، فيمنعُه من الانحراف، ويقيّدُه بحُكْمٍ ثابتٍ بعد نظرٍ وتأمُّلٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨﴾ [الحديد: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الماءُ يُحيي الأرضَ، والصّدقةُ تُحيي القلوبَ

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة ما يتعلّق بإحياء الأرض ونمائها بعد موتها في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ جاءت هذه الآيةُ بذِكر الحديث عن الصّدقة والمتصدّقين؛ لأنّ الصّدقة كالبَذر الذي يحييه المولى سبحانه، ويجعلُه أضعافًا كثيرةً بحسب زَكاء الأرض، وأنّ من أعظم دلائل الخشوع للّه تعالى، والبُعد عن حال الكتابيّين في القسوة، هو إقراض اللّه تعالى القرضَ الحَسَن، والصّدقةُ بالإنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1].

ومنها: لمّا حثتِ الآيةُ السّابقة المؤمنين على أن يروضوا أنفسَهم على خشية اللّه تعالى، وحذَّرَتْهم من نهج أهل الكتاب في قسوة القلوب؛ جاءت هذه الآية بذِكر سببٍ من أسباب الخشية، وهو التّصدّق والإقراض للّه تعالى؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾: (صدق) أصلٌ يدلّ على قوّة في الشّيء قولًا وغيره. من ذلك الصّدق: خِلاف الكذب، سُمّي لقوّته في نفسه، ولأنّ الكذب لا قوّة له، هو باطلٌ. والصّدقة: ما يَتصدّق به المَرءُ عن نفسه وماله[2]. ومصداق الأمر بمعنى الحقيقة، والمُصَدِّق: الذي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282 - 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).

يُصدّقك في حديثك، والذي يأخذ صدقات الغنم"[1]، وتصدّق "على المساكين: أعطاهم الصّدقة، وهي العَطيّة التي بها يبتغي المثوبةَ من اللّه تعالى"[2]، وأكثر اشتقاقات هذه المادّة في القرآن الكريم واردةٌ من الصّدق المقابل للكذب، وكذلك تأتي لمعنى ما يُعطَى للفقير من المعونة التي يتقوَّى بها ويتصلّب، أو هي دليلٌ على صدق إيمان المُتصدّق[3]. ومعنى ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ في الآية: الذين أنفقوا في سبيل اللّه، وابتغاء مرضاته وفيما ندبهم إليه[4].

2) ﴿وَأَقْرَضُواْ﴾: (قرض) أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلّ على القطع. يُقال: قرضتُ الشيء بالمقراض. والقَرْض: ما تُعطيه الإنسانَ من مالك لتُقضاه، وكأنّه شيءٌ قد قطعتَه من مالك[5]، والفعل منه ما كان قطعًا بالنّاب، والاسم منه يقع على كلّ "ما يُلتَمس عليه الجزاءُ من صدقةٍ أو عملٍ صالحٍ"[6]، والقرض نوعٌ من القطع، فإذا قطعت مكانًا وتجاوزته فقد قرضته، وإذا دفعتَ مالًا لإنسانٍ بشرط ردّ بدلِه سُمّي قرضًا[7]. والقرض في القرآن العظيم يُراد به الصّدقة، سواء أكانت من باب الواجب أم المندوب، وسُمّي قرضًا من باب المجاز؛ إكرامًا للمتصدّقين به، وإلاّ فهو صدقةٌ يعود إليهم مقابلُه وبَدَلُه؛ أي: ثوابه[8]، ومعنى ﴿وَأَقْرَضُواْ﴾ في الآية الكريمة؛ أيّ: ينفق في سبيل اللّه محتسبًا نفقته[9].

3) ﴿يُضَٰعَفُ﴾: (ضعف) أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على خِلاف القوّة، ويدلّ الآخرُ على أن يُزاد الشّيء مثله. فالأوّل: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، وهو خِلاف القوّة. يُقال: ضَعُفَ يَضْعُفُ، وأمّا الأصل الآخر: فقال الخليل: أضعفت الشّيء إضعافًا، وضعّفتُه تضعيفًا، وضاعفته مضاعفةً، وهو أن يُزاد على أصل الشّيء فيجعلَ مثلَيْن أو أكثر. قال غيره: المَضْعوف: الشّيء المُضاعَف[10]. والضِّعف عند العرب المِثْلُ إلى ما زاد، وليس

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (صدق).
(2) المطرّزيّ، المُغرب، ص: 264.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(4) مكّي القيسيّ، الهداية: 11/ 7322.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قرض).
(7) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (قرض).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قرض).
(9) مكّي القيسيّ، الهداية: 11/ 7312.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضعف).

مقصورًا على المِثلَيْن، وضِعفُ الشّيء مثلُه، وضِعفاه: مثلاه، وأضعافُه أمثالُه[1]، ومعنى فعل المضاعفة ﴿يُضَٰعَفُ﴾ في الآية: هو أن يزيدهم المولى سبحانه على ما أنفقوا مثلَه، أو أكثرَ من ذلك[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

بذلُ الصّدقاتِ دليلُ صدقِ الإيمانِ

إنّ المُصدِّقين من الرّجال، والمُصدِّقاتِ من النّساء الذين آمنوا وصَدَقوا في إيمانهم، وبذلوا أموالَهم طيّبةً بها نفوسُهم، فأقرضوا اللّهَ قرضًا حسنًا خالصًا من شوائب الرّياء، يُضاعِفُ اللّهُ لهم ذلك العطاء أضعافًا كثيرة، يرفعُه من سبعٍ إلى سبعين، ثمّ إلى سبعمائة، بل إلى ما يشاء اللّه من الفضل والزّيادة، ولهم فوق ذلك أجرٌ كريمٌ، وثوابٌ حَسَنٌ في الجنّة، جزاءَ صدقِهم وسلامةِ نيّاتهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ عمّا قبله:

بيانُ جزاءِ المُتصدّقين والمتصدّقات

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ عن الآيات السّابقة؛ لأنّه جملة استئنافيّة[4]، جاءت لتُبيِّن جزاءَ المُتصدّقين والمُتصدّقات، في انتقالٍ مقصودٍ لبيان أثر العمل الصّالح في ميزان المولى سبحانه، ولتُؤدّيَ وظيفةً بيانيّةً مستقلّةً. ويجوز أن يكون سِرّ فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ عن الآيات السّابقة؛ أنّه بمثابة نتيجةٍ لما تَقدَّم، فإنّه لَمّا شُبّهت الصّدَقة بالبَذر الذي يُحييهِ اللّهُ تعالى، ويضاعفُه بحسب زكاء الأرض[5]، كان الفصل لإبراز الجزاء، والتّأكيدِ عليه بعد بيانِ أصل العمل وصورته.

علاقةُ هذه الآيةِ بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾:

تجدُّد دعوة المتأخّرين للّحوق بِركْبِ المُنفقين الصّادقين

علاقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بقوله: ﴿مَّن ذَا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ضعف).
(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 14/ 293.
(3) الفيروزاباديّ، تنوير المقباس، ص: 458.
(4) صافي، الجدول: 14/ 151.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.

﴿ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ علاقةٌ قويّةٌ وظاهرةٌ؛ لأنّها بمثابة تجديد الدّعوة للإقراض والإنفاق لأولئك الذين تخلّفوا عن ركب المؤمنين الصّادقين، وتفتح لهم بابَ الإنفاق الذي دخله إخوانُهم طواعيَةً، ففازوا بالجزاءِ المُضاعَف والأجر الكريم، وليس في الأسلوب تكرارٌ مَحضٌ، بل هو إشارةٌ بليغةٌ إلى أنّ الكرمَ الإلهيَّ لا يزال ممدودًا، وأنّ من صَدَق الإنابةَ، وسلكَ سبيلَ الإيمانِ الحقّ، فأنفق في سبيل الله، أدركَ ما أدركَهُ السّابقون من الرِّضوان والأجر[1]. وممّا يُذْكَر في علاقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، تقاربُ الألفاظِ للتّأكيد على التّرغيب والتّحريض، وتجديدِ الدّعوة إلى الإنفاق.

دلالةُ التّأكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

تعزيزُ اليقين في ثوابِ المُتصدِّقين، ودفعُ شُبَهِ المُتردِّدين

صُدِّرتِ الآيةُ بأداة التّوكيد ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾؛ تعزيزًا لليقين بالثّواب الموعود على الصّدقات، ودفعًا لشُبهة المُتردّدين في وقوع البعث، ممّن لا يوقنون ببركة الصّدقة إلّا إذا رَأَوْها رأيَ العين، فكان التّوكيدُ ردًّا على إنكارهم بِرَّها العاجلَ أو الآجل، لانحصارهم في دائرة المحسوسات[2].

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ دون (المتصدّقين):

تناسبُ إدغامِ الصّيغةِ، إشارةٌ إلى خفاءِ الصَّدقةِ

الأصل في ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ (المتصدّقين)، فقُلِبَت التّاءُ صادًا وأُدغمت[3]، فجاء اللّفظ مُشبعًا في صيغته، كما هو مُشبعٌ في معناه؛ وفي هذا اللّفظ المُدغَم إشارةٌ بليغةٌ إلى أنّ ما خفيَ من إكثار الصّدقة لا يلبث أن يظهر، إذ تتجلّى بَرَكَتُها ويشيعُ أثرُها، فيغدو

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 769.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 458.

الخفاء بذاته سبيلًا إلى الظّهور[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ صدقة السّرِّ أفضلُ من صدقة العَلَن، وهذا مناسبٌ مع التّعبير بالاسميّة الذي يُدلِّل على أنّ التّصدُّق صفةٌ ثابتةٌ فيه.

دلالةُ اختيارِ وصف التّصدُّق دونَ غيره:

اللّفظُ جامعٌ بين التّصدُّقِ والتّصديقِ

آثَر القرآنُ الكريم اختيارَ وصف التّصدُّقِ دون غيره؛ لأنّه يحمل في طيّاته معنييْن ساميَيْن؛ فهم المتصدّقون بأموالهم عن طيب نفسٍ، وإخلاصِ نيّةٍ، وإصابةِ مستحِقٍّ، وهم كذلك المُصَّدِّقون للّه ورسوله الذين استقرّت في قلوبهم حقيقةُ الإيمان، فجمع اللّفظُ بين التّصدُّق والتّصديق[2]. وممّا يُذْكَر في سِرّ اختيار وصف التّصدُّق إشارتُه إلى المبالغة في تقديم الصّدقات، والحرص على الإكثار منها، فالمُصَّدِّقون هم الذين يُفيضون بالعطاء، شاملين الزّكاة، وصدقات التّطوّع، والإنفاق في سبيل اللّه، دعمًا للفقراء والمساكين، ورفعًا لكلمة اللّه ودينه، فتتجلّى فيهم روحُ السّخاء، والامتثال الكامل لأوامر اللّه سبحانه[3].

سِرُّ التّعبير بـ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ دون (المنفقين):

المُتصدّقون أخصُّ من المُنفقين

سرُّ التّعبير بـ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ دون (المنفقين) يكمُنُ في أنّ العطاء هنا ليس مُجرّدَ بذلِ مالٍ، بل هو دليلُ صدقِ الإيمان وإخلاصِ القَلْب، إذ إنّ ما يُعطى لا يُرتجَى منه نفعٌ دنيويٌّ[4]، بل هو إنفاقٌ خالصٌ لوجه اللّه تعالى، وعلى هذا فالمُتصدِّقون أخصّ من المنفقين؛ لأنّهم هم الذين تصدّقوا بأموالهم على الفقراء؛ ابتغاءَ وجهِ اللّه تعالى، وفي وجوه البرّ والإحسان، فكان تصدُّقُهم طيّبًا من أنفسهم[5]، صادقًا في قصدهم، جامعًا بين الجود والإخلاص.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.
(2) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1296.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 345.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.
(5) الصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 3/ 308.

دلالةُ اللّامِ في لفظِ ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾:

تخصيص المُصَّدِّقين بلام العهدِ إشادةٌ ببذلِهم القرضَ الحَسَنَ

دلالة اللّام في لفظ ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ للمعهود، كأنّها تُشير إلى جماعةٍ مخصوصةٍ بهذا الوصف، فقبَلَ أن يُذكر الخبرُ أورد اللّهُ وصفَهم بأنّهم أتَوا بأحسن أنواعِ الصّدقة، وهو الإتيان بالقرض الحَسَن، ثمّ بعد ذلك بيّن الخبرَ المُتعلّق بهم بقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾[1]، فتظهر اللّامُ هنا كحاملٍ للخصوصيّة والتّعيين.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ دون الفعليّةِ:

العَراقةُ في وصفِ التّصدُّقِ رجالًا ونساءً

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالاسميّة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ دون التّعبير بالفعلية (تصدّقوا)؛ لأنّ الاسميّة تدلُّ على الاستمرار والثّبوت؛ فهي حثٌّ على مُلازمة هذا الفعل، وتحبيبُ النّفسِ إليه حتّى يصيرَ خُلُقًا راسخًا في النّفوس، خفيفًا عليهم، فيُبيِّن بذلك أنّ هؤلاء هم العريقون في هذا الوصف، رجالًا ونساءً[2]، الذين اتّخذوا التّصدُّق صفةً مُلازمةً تُميِّزُهم في الخُلُق والعملِ.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قوله: ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾:

تمكّنُ الصّفةِ في الموصوفين

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ مجازٌ بالحَذْف، إذ التّقديرُ: إنّ النّاس المُصَّدِّقين والمُصّدّقات وأقرضوا[3]، فجُزِئَ بالوصف المُذكّر والمُؤنّث ليُغنيَ عن ذِكر الموصوف، وهو حذفٌ يجعل اللّفظَ مختصرًا جامعًا. وفيه إشارةٌ إلى تمكّن هذه الصّفة فيهم، تمكُّنًا أنسى الموصوفَ وأبقى الصّفةَ علامةً يُعْرَفون بها.

سِرُّ التّعبيرِ بالواوِ في ﴿وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾:

مشاركةُ النّساءِ للرّجالِ في العملِ والثّوابِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ دونَ غيرِها من حروف العطف؛ لما تحمله من دلالاتٍ معنويّةٍ ولفظيّةٍ لا توجد في غيرها؛ فهي ليست للعطف المعتاد كما زعم كثيرٌ من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 462.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 247.

المُعربين، بل هي بمعنى (مع)، إذ لا يجوز عطفُ الصّلةِ على الصّلة، فلا يصحُّ أن يكون التّقدير: (الذين تصدّقوا مع المُتصدّقات)، باعتبار أنّ المُتصدّقات تُمثّل إتمامَ الصّلة الثّانية ﴿وَأَقْرَضُواْ﴾[1]. ويجوز أن تكون الواو هنا من باب (كلّ رجل وضيعته)؛ أي: إنّ المُصدِّقين مقرونون بالمصدّقات في الثّواب والمنزلة، أو يقدّر في الخبر، فيكون المعنى: إنّ المُصدِّقين والمُصدِّقات يفلحون[2]، فتجمع الواو شمول الفضل والإحسان لكِلا الفريقَيْن دونَ تفريقٍ. وممّا يُذْكَر في سِرِّ العطف بالواو؛ التنويهُ بشأن النّساء في هذا المقام، والتّنبيهُ على فضل مَن غلبت شحَّ نفسَها وتصدّقت، إذِ الشّحُّ في المال أغلَبُ على طبع النّساء، كما تشهد بذلك أشعار العرب[3].

سِرُّ ذِكرِ (المُصَدِّقاتِ) وعدم الاكتفاء بـ ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾:

تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ؛ لحاجتِهنّ الشّديدةِ إلى الحَثِّ والإنفاقِ

ذكر القرآنُ الكريم (المُصَدِّقاتِ) مع أنّ ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ يتناول الجنسيْن تغليبًا من باب الاختصاص، ولبيان أنّ لهُنّ مزيدَ استحقاقٍ في الأجر، بل لما فيهنّ من شدّة الحاجة إلى الحثّ على الإنفاق والتّصدّق[4]، كما جاء في الحديث الشّريف: «يا معشرَ النّساءِ تَصَدَّقنَ، فإنّي أُريتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النّارِ»[5].

أثرُ اختلافِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾:

تكاملُ المعنى بين الإيمانِ والصَّدَقةِ

قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتخفيف الصّاد على قراءة ابن كثير، ورواية شعبة عن عاصم: ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَٰتِ﴾، وبالتّشديد عند باقي القُرّاء: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾[6]. فعلى قراءة التّخفيف يكون معنى المُصَدِّق: المُؤمن، فيكون المقصودون هم

(1) المنتجب، الفريد: 6/ 102.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 209.
(5) البخاريّ، الجامع الصحيح، حديث رقم 298.
(6) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 384.

الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، إذ إنّ إقراض الله من جملة الأعمال الصّالحة[1]، أمّا على قراءة التّشديد، فالمعنى راجعٌ إلى الصّدقة، وهو أنسب بسياق قوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾، لما بين اللّفظيْن من تناغمٍ، والقراءتان مُتكاملتان، حيثُ جَمعَتا بين التّصديقِ القلبيّ، والعمل الماليّ في نسقٍ واحدٍ.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾:

الإقراضُ توكيدٌ للصّدقةِ وتنويهٌ بشأنها

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالواو دون غيرِها في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾؛ لأنّها تحتمل معنى العطفِ في هذا السّياق، ويكون هذا العطفُ من باب عطف المُرادف في المعنى، فالفعلُ بعدَها جاء مُفسِّرًا ومؤكِّدًا لما قبلَه؛ لما في هذا التّعبير من تشبيهٍ بديعٍ لإنفاقهم بالقرض لله، تنويهًا بشأن الصّدقات[2]، وتعظيمًا لأثرها. ويجوز في الواو أن تُحمَل على الاستئناف في بعض الأوجه، ويكون قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ إمّا صفة لـ﴿قَرۡضًا﴾، أو جملةً مستأنفة، وكأنّ استقامة المعنى والإعرابِ هنا تقوم على اعتبار حذف موصولٍ، بتقدير: (والذين أقرضوا)، على ما جوّزه الكوفيّون[3].

سِرُّ ذِكرِ القَرْضِ بوصفِهِ بعد التّصدُّق:

تشبيهُ التّصدّقِ بالقَرْض تصويرٌ شرعيٌّ يضمن الأجرَ ويُؤكّد الجزاءَ

ذِكرُ القرضِ بوصفه بعد التّصدُّق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ تمثيلٌ بديعٌ لحال المُتصدّقين، يُصوّر التّصدُّقَ في سبيل الله بصورة القرض، ليُجسِّد الثّوابَ الموعود في هيئة العوض المؤكّد، كما يجب على المُستقرض رَدّ ما اقترضه إلى مالكه، وفي هذا التّعبير إشارةٌ إلى اعتداد الشّرع بالتّصدُّق في إثمارِ الأجر[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 396.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 247، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 259.

سِرُّ الاكتفاءِ بفعلِ الإقراضِ ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾ دون (أقرضْنَ):

تغليبُ التّذكيرِ في الإقراضِ إشارةٌ إلى الغالبِ، ومظهرُ قوّةِ التّصديقِ بالفعلِ

اكتفى التّعبيرُ القرآنيّ بذِكر فعل الإقراض بصيغة التّذكير في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾، ولم يذكر الفعلَ (أقرضْنَ) المناسبَ للمُصَّدِّقات من بابِ تغليبِ التّذكيرِ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ عند العرب، ولأنّهم المقصود الأصيل؛ فجاء التّذكيرُ باعتبار الغالبِ، وللدّلالة على القوّةِ والمبادرةِ في تصديقِ الإيمانِ بالتّصدُّقِ[1].

سِرُّ عطفِ جملةِ ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾ على ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ المُفرد:

عَطْفُ الجملةِ على المُفردِ تغليبٌ مُعتبَرٌ، وسياقٌ لا يُفسِدُه الفَصْلُ

عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾، وهو جملةٌ فعليّةٌ على لفظ ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾، وهو اسمٌ مُفردٌ؛ لأنّ المُفرد هنا في حُكم الجملة، إذ إنّ اللّام فيه للمعهود، وهي في معنى الموصول، فكأنّ تركيبَ الكلام في قوّة القول: (إنّ الذين تصدّقوا واللّائي تصدّقْنَ وأقرضوا)، فجيء بالعطف تغليبًا، ولا يُعدّ الفصلُ بينهما أجنبيًّا يقطع السّياق، إذ لم يُفْسِد المعنى[2]، والفَصْل في مثل هذا جائزٌ متى سَلِم التّركيبُ من الخَلَل.

دلالةُ إسنادِ الإقراضِ إلى اللهِ تعالى:

تشريفٌ للتّصدّقِ، وبيانُ إخلاصِ نيّةِ صاحبِهِ

إسناد الإقراض إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ يحمل دلالةَ تشريفٍ وتعظيمٍ للإقراض؛ لأنّه عن طيب نفسٍ، وخلوصِ نيّةٍ، خالٍ من المَنّ والأذى، فصار التّصدُّق بذلك إحسانًا يرفع إلى مقامَ المعاملةِ مع الله، وكأنّ الإنسان بإحسانه إلى المحتاجين قد أقرض ربَّه قرضًا يستحقّ عليه الوفاء[3].

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الإقراضِ ماضيًا:

تأكيدُ تحقُّقِ العطاءِ

استعمل القرآن الكريم فعلَ الإقراضِ بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾، بعد إيراد الوصف ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ الذي يوحي بالثّبات

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 396.

(3) الصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 3/ 308.

والاستمرار؛ للإشارة إلى تحقُّق الإقراض، ووقوعِه فعلًا[1]، وفيه توكيدٌ على أنّ أولئك لم يقتصروا على نيّة العطاء، أو وصف الكرم، بل باشروا الإقراضَ فعلًا، فاستحقّوا الوعدَ بالجزاء.

دلالةُ موقعِ جملةِ الإقراضِ:

اعــتراضٌ بيانيٌّ يـقــومُ مـقـامَ الصّفةِ ويُجَلّي أثرَ الصّدقةِ

جملة ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ اعتراضيّةٌ بين الخبر والمُخْبَر عنه[2]، والاعتراضُ هنا يقوم مقامَ الصّفةِ، فهي صفةٌ أشدُّ ملازمةً للصّدقة من التّصديق[3]، ما يجعلها أكثرَ وضوحًا في بيان الأثر والجزاء الموعود.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ (الرَّبِّ):

تربيةُ المهابةِ في قـلـبِ الْـمُـقْـرِضِ ووثـوقُـه بعِظَمِ الجزاءِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ دون (الرّبّ)؛ لما يحملُه من صفات الكمال والجلال والجمال المناسبِ لسياق الإقراض؛ ففيه طمأنةٌ للمُقْرِض بأنّ اللّه يُعطيه الجزاءَ على قدر إخلاصِه وهيبتِه للّه ربّ العالَمين.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿قَرۡضًا﴾:

تـعـمّـيـقُ دلالـةِ الفعلِ، وإعلاءُ شأنِ الجزاءِ

لمّا ذَكَر القرآن الكريم فعلَ الإقراض بقوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾ أكّدَه بالمصدر أو المفعول المُطلق ﴿قَرۡضًا﴾[4]؛ ليزيدَ البيانَ قوّةً، فيجعلَ الفعلَ أكثرَ وضوحًا وإحكامًا، وتظهرَ عَظَمةُ هذا العملِ وثوابُه الكريم.

سِرُّ وصفِ القَرضِ بالحَسَنِ:

عـطـاءٌ طـيّـبٌ يُـجَـسِّـدُ كـمالَ الإخلاصِ والكرمِ

وَصْفُ القَرْضِ بالحَسَن يجمع أسمى الخصالِ الحميدة، فهو من المال الحلال الطّاهر، الذي يمنحه المُتصدِّق عن طيب نّفسٍ، لا يُتْبِعُه منًّا ولا أذًى، ويختار أجودَ مالِه لا الرّديءَ، ويبتغي به وجهَ اللّهِ لا رياءَ الخَلْق، فيُخرجُ الأحبَّ إلى اللّه تعالى، ويتصدّقُ وهو صحيحٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 283.
(2) العُكبريّ، التّبيان: 2/ 1209.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 462.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.

يأملُ في الرّزق ويخشى الفقر، لا يُفرِّطُ فيما بَذلَ، ولا يستكثرُ عطاءَه، بل يسكب الكثير من سخائه، فصار القَرْضُ الحَسَنُ رمزًا لتجسيد الإحسانِ الكامل[1]. وممّا يُذْكَر في وصفِ القَرْض: الإشارةُ إلى الإخلاص في التّصدُّق[2]، فتكونُ النّفوسُ طيّبةً، والنّيّاتُ صافيةً، فيُميّز هذا العطاءُ من غيره من الأعمال.

دلالةُ التّنكيرِ في قولِهِ: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾:

شمولُه لكلّ أنواعِ القروضِ الحَسَنةِ

دلالة التّنكير في قوله تعالى: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ ترمز إلى العموم والشّمول، فتشملُ كلَّ القروضِ الحَسَنة التي وردت في القرآن الكريم، وهي مرادفةٌ للتّطوّع في الإنفاق[3]، إذ لا يُقصَد قرضٌ بعينه، بل أيُّ بذلٍ بطيب النّفسِ وطيبِ المال، يشمل كلّ أنواع الصّدقات التّطوعيّة المباركة.

دلالةُ تعدُّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

مبالغةٌ في الجزاءِ، وتنافسٌ في العطاءِ

في قولِه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بغير ألفٍ وبعَينٍ مُشدَّدةٍ، وقرأها الباقون بالألف: ﴿يُضَٰعَفُ﴾[4]، تحمل دلالةً على المبالغة في التّكثير، إذ ثَقَّل في اللّفظ ليُبرزَ عِظَم الثّواب وكثرته، وقد عبّر بالمُفاعلة في قراءة الجماعة، ليُفْهَم من ذلك أنّ الكثرة المضاعفة ليست محضَ زيادة عاديّة، بل هي كثرةُ تنافسٍ، وتبارٍ بين الخَيِّرين، يغالب فيها كلٌّ الآخرَ في الإحسان والزّيادة[5].

التّعبيرُ بين ﴿يُضَٰعَفُ﴾ و﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾:

بين سرعةِ الجزاءِ وسببِ ثباتِه ودوامِه

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ تركيزٌ على السّببيّةِ الفوريّةِ،

(1) السّمعاني، تفسير القرآن: 5/ 373، والنّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 389.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 459.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 243.
(4) الواسطيّ، الكنز: 2/ 426.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.

والمباشرةُ للمضاعفة نتيجةٌ للإقراض، أمّا ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ففيها توكيدُ الاستمراريّة والثّبات في حصول المضاعفة كجزاءٍ كريمٍ لِمَن يُقرض اللّه. وممّا يُذْكَر في دلالة قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ مبنيًّا للمعلوم بيانُ أنّ اللّه هو الفاعل الذي يُضاعِف الجزاءَ، ممّا يُناسِب سياقَ التّحفيز والاستفهام الحاثّ على الإنفاق، أمّا ﴿يُضَٰعَفُ﴾ فجاء الفعل مبنيًّا للمفعول؛ ليُركِّز على عَظَمة الجزاءِ دونَ ذِكْر الفاعل، ممّا يناسبُ سياقَ الإخبار عن المؤمنين الذين سبقوا بالإيمان والإنفاق.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُضاعفةِ دونَ الزّيادةِ:

المضاعفةُ تشملُ الزّيادةَ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالمضاعفة في قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ دونَ الزّيادة؛ لأنّ المضاعفة هنا تعني أنَّ الحسنة بعشرةِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ[1]، ولا تفي الزّيادةُ وحدَها بهذه الدّلالةِ، فتكون المضاعفةُ تعبيرًا عن عظَمةِ الجزاء، وامتدادِ بركةِ العملِ الصّالحِ.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَهُمۡ﴾:

خصوصيّةُ المُتصدِّقين والمُقرِضين بهذا الجزاءِ دون غيرهم

اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ تدلّ على التّخصيص، فهي تختصّ بأولئك المُتصدّقين والمُقرضين[2]، فلا يشمل غيرَهم، فتكون اللّامُ دالّةً على الحَصْر والخصوصيّة، مؤكّدةً ارتباطَ الجزاءِ بهؤلاء دونَ غيرِهم من النّاس.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

الإضمارُ يحملُ في طيّاتِه ما هو أبلغُ من الذِّكرِ الصّريحِ

دلالة الإضمار في لفظة ﴿لَهُمۡ﴾ عن المُصَّدّقين والمُقرِضين تُشير إلى القائم مقامَ الفاعل المُضمَر، وهو يعود على ضمير المُصَّدِّقين والمُقرضين، مع وجوب حذف المُضاف تقديرًا لثواب التّصدُّق[3]، فتَحْمِل اللّفظةُ في طيّاتها معنًى شاملًا يتجاوز الذِّكر الصّريح.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 208.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 480.

(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.

سِرُّ العدولِ عن الجَمْعِ بين المُصَّدِّقين والمُقْرِضين بالاسميّةِ:

تجسيدٌ عميقٌ للتّصدّقِ والتّصديقِ، وتمثيلُ أسمى بالإقراضِ للهِ تعالى

عدلَ التّعبيرُ القرآنيّ عن الجمعِ بين ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ و(المقرضين)؛ فلم يَقُلْ مثلًا: (إنّ المُصَّدِّقين والمُقرضين)، بل قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ﴾؛ لأنّ العدول يُصوِّر المعنى العميقَ للتّصدُّق والتَّصديق، ويزيدُ في تقرير التّمثيل بالبَذْل كقرضٍ للّه تعالى[1]، فيُبرزُ بذلك عظَمة العملِ وسُموَّ نيله، مُعَزِّزًا الفهمَ بأنّ الإقراض للّه هو أسمى مراتبِ التّصدُّق. وممّا يُذْكَر في سرّ العدول: أنّه لَمّا كان الإقراضُ لا يخرج عن كونه نوعًا من التّصدّق، قيل: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾؛ أيْ: بذلك التّصدّق تحقيقًا لكينونته، وتمثيلًا لهم عند اللّه تعالى بمعاملة أجودِ الأجودين برضاه، فلو قيل: (والمُقرضين)، لفاتت هذه النُّكْتَة الرّفيعة[2].

غرضُ تقديمِ الصّدقةِ على الإقراضِ:

عمومُ التّصدّقِ وخصوصُ الإقراضِ الحَسَنِ

قُدِّمَ شأنُ المُصَّدِّقين والمُصَّدِّقات على الإقراض في قوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّه المُقدّم في الأصل، ولعمومه؛ فهو الجامع لكلّ أنواع الإنفاق، بينما المُؤَخّر ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدُّقٌ مُقيّدٌ[3]، يحمل معنًى خاصًّا في إخلاص النّيّة، وخصوصيّة القَرْض الحَسَن.

دلالةُ تقديمِ الخبرِ في قولِه: ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾:

إبرازُ خصوصيّةِ المُنْعَمِ عليهم، وتوكيدُ استحقاقِهم للأجرِ الكريم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور (لهم) على المبتدأ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾؛ وذلك لأنّ هذا التّقديمَ يومِئ إلى التّركيز على أهل الحقّ والمُستحقّين له، فتَسبيقُ ذِكْر الجزاءِ لبيان خصوصيّة المُنعَمِ عليهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالأجرِ دونَ الجزاءِ:

استعمال القرآن الكريم (الأجر) دون (الجزاء)، فيه إشارةٌ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 247، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 458.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 182.
(3) حقّي، روح البيان: 9/ 367.

إلى الجانب الإيجابيّ المُشرقِ للثّواب، إذِ الأجرُ يُرَكِّز على الجزاء المحمود، والفضلِ العظيم، وهو ما يُرتَجَى ويُنتظَر، بينما الجزاءُ يحمل معنى الشّمول، وقد يشمل الثّوابَ والعقاب، فجاء اختيارُ الأجرِ لإظهار المحبّة والثّناءِ الإلهيّ، والكرم الخاصّ بالمؤمنين المُتصدِّقين.

التّعبيرُ بالأجرِ يحملُ الثّوابَ المحمودَ، بخلافِ الجزاءِ فهو أعمُّ

دلالةُ وصفِ الأجرِ بالكريم دونَ العظيمِ أو الكبيرِ:

وَصْفُ الأجرِ بـ(الكريم) يدلُّ على صفاء الثّواب ونقائه، فهو أجرٌ لا يشوبُه كَدَرٌ بانقطاعٍ أو نقصٍ، ولا يَعْقبُه نقصانٌ أو زيادةٌ تُزَعْزِعُ ثباته[1]؛ بل هو أجرٌ ثابتٌ متكاملٌ، يفيض بالفضل والسّخاء من عند اللّه بلا حسابٍ. وممّا يُذْكَر في سرّ وصفِ الأجر بـ(الكريم) دون (العظيم) أو (الكبير)؛ الإشارةُ إلى أنّه أجرٌ كريمٌ في ذاته، ثمينٌ في جَوْهره، جديرٌ بأن يتنافسَ فيه المتنافسون لذاته لا لِمقداره[2]، فهو ثوابٌ ذو قيمةٍ روحيّةٍ ساميةٍ، تتجاوز الكمَّ والحجم. ولأنّ هذا الوصف يدلُّ على سِرٍّ خفيٍّ في الثّواب، فهو أجرٌ لا يُدْرِك مقدارَهُ إلّا اللّهُ ﷻ[3]، يتجاوز كلَّ حسابٍ، وقياسٍ بشريٍّ.

عطاءٌ إلهيٌّ يتجاوزُ الإدراكَ والحسابَ البشريَّ

دلالةُ التّنكيرِ في قولِه: ﴿أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾:

التّنكيرُ في وصفِ الأجر يدلُّ على تعظيمِ هذا الثّواب وسُموِّه، فهو ثوابٌ عظيمٌ من اللّه تعالى، يُعطَى للمُصَدِّقين بإخلاصهم، وقروضهم له بإحسان، والتّنكيرُ يجعل الأجرَ شاملًا وعامًّا، دالًّا على عظَمة الجزاءِ وجمالِه، وهو الجنّة التي أعدّها اللّه لهم[4]. وهو تنكيرٌ يومِىءُ إلى سرٍّ عظيمٍ في هذا الثّواب، فهو أجرٌ لا يُدْرِكُ كُنْهَهُ أحدٌ من المخلوقين[5]، ولا يحيطُ بعلمه إلّا اللّهُ ﷻ.

لا يُدْرِكُ كُنْهَهُ أحدٌ، ولا يُحيطُ به عِلْمُ مخلوقٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.
(2) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1296.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 217.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 190.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 7/ 486.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾:

ثبوتُ الأجرِ الكريمِ ودوامُه بلا نقصٍ ولا زوالٍ

عُبّرَ بالجملة الاسميّة في قوله: ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾؛ لأنّها دالّةٌ على الثّبوت والاستقرار[1]، لما تحمله من إشارةٍ على ثبوت الأجر وجلالته وعظَمته، فهو أجرٌ كريمٌ عظيمٌ ثابتٌ، لا يشوبُه شكٌّ أو نقصانٌ، ولا يتغيَّر ولا يَزول.

بلاغةُ تعلُّقِ فاصلةِ الآيةِ بصدرِها:

تمهيدٌ للخبرِ، وإظهارٌ لثمارِ العملِ الصّالحِ

الفاصلة في الآية الكريمة بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ لها تعلّقٌ بلاغيٌّ يُبرِزُ أهمّيّةَ المعنى وتكامله، إذ تأتي الفاصلة لتُمهّدَ للخبر التّالي: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، فتُبرز ثمارَ العملِ الصّالح بوضوحٍ، وتُشَدِّد على جزاء اللّه العظيم للمُصَّدِّقين والمُصَّدِّقات، مبيّنةً العلاقةَ الوثيقة بين العمل والجزاء.

بلاغةُ ختمِ الآيةِ باستحقاقِ الأجرِ الكريمِ:

عطيّةٌ سامقةٌ، وفضلٌ كبيرٌ، يتجاوز حدودَ الجزاءِ، ويدلُّ على سعةِ فضلِ اللهِ

خُتِمَت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾؛ ليكونَ مِسكُ الختامِ وعدًا زائدًا على ما سبق من التّضعيف المُترتّب على القرض الحَسَن[2]، فالأجر الكريم ليس محضَ مقابلةٍ للقَرْض الحَسَن، بل هو عطيّةٌ سامقةٌ، وفضلٌ كبيرٌ، يتجاوز حدودَ معادلةِ الجزاء، دالًّا على سعة فضلِ اللّه وجودِه على المتَصدِّقين.

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 133، والعينيّ، المقاصد النّحويّة: 1/ 512، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 51.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 104.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ [الحديد: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نور الصَّدقة وثمرة الإيمان بين وعد الأجر ووعيد الجحيم

لمّا ذكر اللّهُ تعالى في الآية السّابقة قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾؛ مبيِّنًا سُبحانه أنَّ الصَّدقة كالبذر الذي هو من أعظم وجوه الرِّبح وأبهجها؛ إذ يُثْمِر أضعافًا مضاعفة؛ أتبع ذلك ببيان الباعث الأعظم على الإنفاق ترغيبًا فيه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[1]، فجمع بين التَّرغيب بوعد الأجر، والنّور لأهل الصِّدق والإيمان، والتَّرهيب بذكر مصير أهل الكفر والتَّكذيب إلى الجحيم؛ ليقوى باعث المؤمن على البذل، ويزداد شوقه إلى ما أعدَّ اللّه تَعالى للصّادقين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾: جمع سلامة، مفرده: (صِدّيق) على زنة (فِعّيل)، وهو من صيَغِ المبالغة، وجذره اللُّغويُّ (صدق)، ومنه: الصِّدق، وهو نقيض الكذب، ومصداق الأمر، بمعنى: حقيقتِه، ويوصف بمثل هذا الوصف مَن صدَّقك في حديثك، والأصل في الصّاد والدّال والقاف هو القوَّة في الأقوال وغير الأقوال[2]، ومنه: صيغة (صِدّيق)، وهي صيغة تدلُّ على عمق الإيمان ورسوخه، فهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

إيمان متين صَلْب لا تزعزعه الفتن، ولا تُضْعفه الشَّدائد، ومعنى ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: الذين بالغوا في الصِّدق[1]، وهو تصديق الرُّسل.

2) ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾: جمعٌ مكسَّر، مفرده: (شَهيد)، وجذره اللُّغويُّ (شهد)، ومنه: الشَّهادة، وهي الخبر القاطِعُ والمُعاينَة، يقال: شهِدَ يشهَدُ شهادةً، والمشهَدُ: هو محضر النّاس، وشهِدَ الشَّيءَ؛ إذا حضرَهُ، وعايَنَهُ، والشَّهيد: هو من يُقْتَل في سبيل اللّٰه تعالى، قال قوم: سُمّي بذلك؛ لأنَّ ملائكة الرَّحمة تشهدهُ، أي: تَحْضُرُه، والأصل في الشّين والهاء والدّال أنْ يكون دالًّا على الحُضور والعلم والإعلام[2]، ومعنى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ في الآية: هم الذين يُقرّون بالإيمان باللّٰهِ ﷻ على أنْفُسِهم، وهم أيضًا النَّبيّونَ الذين يَشْهَدون على أُمَمِهم[3].

3) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: الأصحاب: جمعٌ مكسَّرٌ، مفرده: (صاحِب)، وجذره اللُّغويُّ من (صحب)، والأصل في الصّاد والحاء والباء يدلُّ على المقارنة والمقاربَة، وكلُّ شيءٍ يلائِمُ غيرَه؛ فقد استَصْحَبَه[4]، والصّاحب: ما يتَّصف بصفةِ المُلازَمَة إنسانًا كان أو حيوانًا، أو غير ذلك، وقد تكون المصاحبةُ بالبدَنِ - وهي الأصل - أو بالعناية والهمَّة، والصُّحبة أصلها: الاجتماع، طال زمَنُها أو قَصُر، ولا يُقال في العُرف إلّا لِمَن كَثُرَت مُلازَمَتُه، ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ﴾ في الآية: هم الذين كفروا، وكذَّبوا بآيات اللّٰهِ تَعالى ورُسُلِه عنادًا، الملازمون للجحيم المقيمون فيها بلا مَخْرَجٍ ولا مَهْرَبٍ[5].

4) ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: اسمٌ مِن أسماء النّار، والجذر اللُّغويُّ منه: (جحم)، ومعنى الجحيم: النّار المتأجِّجة الشَّديدة اللهب، والأصل في معناها: أنَّها العظيمةُ الحرارةِ الشَّديدةُ، فإنَّ الجاحِمَ ما كان شديدَ الحرِّ، ومعناهُ المحوريُّ للمادَّةِ: "بُؤرَةٌ متوقِّدةُ الأثناءِ ... معَ غِلَظِه في نَفْسِه... ومنه: الجحيم: كلُّ نارٍ عظيمةٍ في مهواة"[6]، و"الجحيم: شدَّةُ توقُّدِ النّار

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 1069.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (شهد).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 192.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1297.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جحم).

وإضْرامِها، وجَحَمْتُ النّارَ: أضرَمْتُها، وزدتُ في توقُّدها... أعاذنا اللّهُ منها"[1]، ومَعنى الجحيم في الآية: النّار[2]، وهو كذلك معناها في جميعِ القرآن الكريم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـصِّـدّيـقـون والـشُّـهـداء في الأجـر والـنّـور والـكـافـرون في ظلمات الجحيم والشُّرور

يَذْكُر اللّهُ تَعالى الصِّدّيقين، وهم الذين صدَّقوا اللّهَ تَعالى ورسلَهُ ﷺ إيمانًا راسخًا وتصديقًا جازمًا، ويذكر الشُّهداء، وهم الرُّسُل الذين يَشهَدون على أُمَمِهم بالتَّصديق والتَّكذيب، ويشهدون على أنفُسِهم بما قدَّموا من طاعةٍ أو مَعْصيَةٍ، أو هم المؤمنون الذين يَشْهَدون لأنبيائهم بتبليغِ الرِّسالَة، وأداء الأمانةِ، أو هُم الشُّهداء المَقْتولونَ في سبيل اللّه، الذين اصطَفاهم اللّهُ تَعالى بعلوِّ المنزلة، وكرامة المثوبَةِ؛ لَهُم أجرهم عند ربِّهم، فإنَّ ثوابَ أعمالِهم يكون مضاعفًا، ولهم نورُهُم الذي يَسْعى بين أيديهم على الصِّراط، جزاءَ إيمانِهم الصّادق في الحياةِ الدُّنيا[3]، أمّا الذين كَفَروا، وكذَّبوا بآياتِ اللّهِ تَعالى؛ فلَيْسَ لَهُم مِن مآل إلّا الجحيم، ولا عاقبَةَ لَهُم سِوى العذابِ المُقيم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ظِلالُ التَّمكين ورسائلُ الإرجاءِ وبشائرُ الارتقاء إلى مقام الصِّدّيقين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للعطف، والجملة معطوفة على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ من الآية السّابقة، فإذا كان الإنفاق في سبيل اللّه ممّا يُرَدُّ على المنفِق أضعافًا مضاعفة، وأجرًا كريمًا، فإنَّ هذا الإنفاق لا يزكو، ولا يطيبُ، ولا ينال ذلك الأجرَ الكريم إلّا إذا صدر عن إيمانٍ راسخٍ باللّه تعالى

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جحم).
(2) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 292.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 479.

وبرسوله[1]، وفيه إرجاء رفيق، وإطماع بديع لكلِّ مؤمن أن يلحق برتبة الصِّدّيقين[2]؛ إنْ هو تمسَّك بهذه المعاني، واجتمعت فيه حقائقُها.

دلالةُ التَّعبير بالموصولِ وصلتِهِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنون):

الإيمانُ المؤصوفُ بالفعل علَّةٌ لرتبة الصِّدّيقيَّة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالموصولِ وصلَتِهِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾، بدلًا من التَّعبير بالوصفِ (المؤمنون)؛ للدَّلالة على أنَّ الصِّلة هي العلَّةُ والسَّبب في الحُكْمِ الذي صاروا إليه، فها هم الذين تحقَّق منهم الإيمانُ باللّه تَعالى ورسله عليهم السلام، استحقّوا أن يوصفوا بأنَّهم الصِّدّيقون[3]، ولو قيل: (والمؤمنون)؛ لكان محضَ وصفٍ ذاتيٍّ لهم من غير تعرُّض للسَّببِ الذي نالوا به هذه الرُّتبة، فلا يُشْعِر بالفعل الذي أدَّوهُ حتّى صاروا به في هذه المنزلَةِ الرَّفيعَة.

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول (الَّذينَ) دونَ (مَن):

تعظيمٌ لِشأن صَحابَتِه المَعهودين، وارتقاؤُهم إلى مقامِ الصِّدّيقين

التَّعبير بالاسم الموصول (الَّذينَ) بدلًا مِن (مَن) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ اعتناءً بشأنِهم، وإشعارًا بأنَّهم مَعْلومونَ مَعْهودونَ في سياق الخطاب، وكأنَّ الآية تشير إلى أولئكَ الصَّفوة الذين عاصَروا النُّبوَّة، وتشرَّفوا بصحبة الرَّسول ﷺ[4]، فاستقرَّ الإيمانُ باللّه تَعالى ورسله في أعماقهم، فارتقوا إلى مقامِ الصِّدّيقين.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

ثباتُ الإيمانِ وكمالُه فيهم

الفِعْلُ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ يَشي بثباتِ المَعْنى ورُسوخه، لا على مجرَّدِ وقوعِه فحسبُ، بل على كماله وتمامه، فهُم الذين لَم يُساوِرهُم شكٌّ حين بلَّغهم الرُّسلُ رِسالاتِهم، ولم يَتَلَعْثَموا في يَقينِهم لحظةً واحدة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 164.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 191.
(4) المظهري، تفسير القرآن: 9/ 199.

بل كانوا سبّاقين إلى الإيمان، ومثالًا للمُبادِرين إلى الحقِّ بلا تردُّد، حتّى خَتَموا حياتَهُم بالشَّهادة في سبيلِ اللّهِ تَعالى[1].

دلالةُ تعديةِ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالباءِ:

تَـصـديـقٌ يملأُ القلوبَ يقينًا

عُدّيَ فعلُ الإيمانِ بباءِ التَّعدية في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ المطلوبَ ليسَ مجرَّد قبولٍ ذهنيٍّ فاترٍ، بل هوَ تصديقٌ جازِمٌ راسِخٌ، يملأ أرجاءَ القَلبِ يقينًا وطمأنينَةً، تصديقًا وإيمانًا شامخًا لا يتَزَعْزَع، واستحضارًا لعظمَتِه وجلالِه وربوبيَّته، وتصديقًا برسولِه لا يُداخله شكٌّ، ولا يعتريهِ ارتيابٌ في صِدْقِ ما يبلِّغ عن ربِّه، إيمانًا يُرَفْرِفُ في الأرواحِ عُلوًّا، ويقودُ العَبْدَ في مدارجِ السُّموِّ والخضوعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) دون لفظ (الرَّبِّ):

تعظيمٌ يَـمْـلَأُ القلوبَ مهابةً، ويَـسْـتَـجْـمِـعُ معانيَ الخُشوعِ والخضوعِ

لم يأتِ النَّظمُ القرآنيُّ: (آمنوا بربِّهم)، بل اختيرَ الاسم الأحسَنُ (اللّه)، فقال سُبحانَهُ: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ للإشارَةِ إلى المَقامِ الأعلى، وتعظيمًا للمعبودِ الحقِّ الذي له الملكُ كلُّه، والجلالُ كلُّه، والإكرامُ كلُّه[2]؛ ليَمْلَأَ القُلوب مهابَةً، ويَستَجمِعَ في النُّفوسِ معانيَ التَّعظيمِ والخشوعِ والخُضوعِ.

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾:

لا إيـمـانَ بالله تـعـالى إلّا بالإيمانِ بالرُّسُلِ عليهم السلام جميعًا

الواو في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ عاطفَةٌ الرُّسُلَ على الاسمِ الأحسَنِ (اللّه)[3]، وفي ذلكَ بيانُ أنَّ الإيمانَ الحقَّ لا يقتصر على الإقرارِ باللّهِ تَعالى وحدَه، بل لا يكتمِلُ إلّا بالإيمان برسلهِ جميعًا؛ لأنَّهم وسائطُ هدايَتِه ومُبَلِّغو شرعِه، وفي هذا العطفِ أيضًا إبرازٌ لمَقامِهِم ورفعَةِ شأنِهم، وتأكيدٌ لوحدَةِ الرِّسالاتِ وتَكامُلِها.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.

سِرُّ التَّعبير بالرُّسلِ دونَ الأنبياءِ:

النَّبيُّ أعمُّ مِنَ الرَّسول وأشمَلُ

اختير لفظُ الرُّسُل دون الأنبياء في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، فيه إشارةٌ إلى جانبِ التَّبليغ والدَّعوة؛ إذِ الرَّسول مَن أوحيَ إليه بشَرْعٍ، وأُمِرَ بتبليغه، والإيمانُ بالرُّسل يتضمَّن تصديق ما جاؤوا به من شرائعَ مُبلَّغة، ممّا يجعل إيمانَ المؤمنين إيمانًا شاملًا لجميع الرُّسل مِن غير تفريق، ولأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ التَّصديق المقرونِ بالاتِّباع والانقيادِ، وهو إنَّما يتحقَّق بقبول التَّبليغ والانقيادِ للشَّرعِ المنزَّل، وهذا لا يكونُ إلّا مع الرُّسُلِ الذين بُعِثوا بالتَّبليغ، ولذا ناسبَ المقامُ أن يُخَصّوا بالذِّكر.

دلالَةُ الجَمْعِ في قولِه: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾:

الإيمانُ بمحمَّدٍ ﷺ يَقتضي الإيمانَ بجميعِ الرُّسُل

جيءَ بلفظ الرُّسُل جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الإيمان بمحمَّد ﷺ يستلزم الإيمانَ بكلِّ مَن سبقَهُ مِنَ الرُّسل[1]، إيمانًا واحدًا تتكامل فيه رسالاتُ الأنبياءِ عليهم السلام، ولا ينفصل بعضُها عن بعضٍ، ولذا كان مَنْ أنكر رسالةَ واحدٍ منهم كَمَن أنكر رسالةَ جميعِهم، ويدلُّ لذلك قولُ اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، فجعلهم اللّهُ تَعالى مكذِّبينَ لجميع الرُّسلِ مع أنَّه لم يكُن يوجد رسولٌ غيرُهُ حينَ كذَّبوهُ[2]، والتَّعبير بالرُّسل جمعًا فيه أيضًا دلالةٌ على الإيمانِ بهِم جميعًا من أوَّلهم إلى خاتمهم[3].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾:

شرفُ النِّسبَةِ الإلهيَّةِ تفيض جلالَةً ورفعةً وعلوَّ مقامٍ

في إضافةِ لَفْظِ الرُّسل إلى الضَّمير العائد إلى اللّهِ سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ إشعارٌ بجلالَةِ النِّسبَةِ وعُلوِّ المَقام[4]، فهُم رُسُلُه الذين اصطفاهم، واختارهم، وحمَّلهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 265.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 97.
(3) القنوجي، فتح البيان: 13/ 414.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.

أمانةَ وحيه، وبهم أشرقَ نورُ هدايته في الآفاق، فالإضافةُ هنا ليسَت مجرَّد صلةٍ لغويَّة، بل هي رابطةُ تَشْريف؛ إذ هُم مَنْسوبونَ إليهِ تعالى، مُشرَّفون برسالَته، مكرَّمون بحَمْلِ كَلِمَته.

سرُّ الاكتفاءِ في متعلِّق الإيمانِ بذِكْرِ الله تَعالى ورسلهِ دون بقيَّة أركان الإيمانِ:

لُـبُّ الإيـمـانِ الـجـامـع هـو الإيـمـانُ المطلق بـالـلـهِ تَـعـالى ورسلهِ عليهم السلام

اكتُفيَ في متعلِّق الإيمان بذِكْرِ اللّه تَعالى ورسله عليهم السلام دون سائر أركان الإيمانِ؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبراز لبِّ الإيمان، وأصله الجامع، فمَن آمن باللّهِ تَعالى إيمانًا مطلقًا، وآمن برسُلِه جميعًا تصديقًا شاملًا لا يَعْتَريهِ شكٌّ ولا نَقْصٌ، فقد استحقَّ بذلك وسام الصِّدّيقين[1]، ولأنَّ مَن آمَن باللّه تعالى ورسلهِ عليهم السلام، فإنَّه يُؤمن بجميع ما جاءَ عنهم، ومِن ذلك: الإيمانُ بكتب اللّه المُنَزَّلةِ والملائكة واليوم الآخرِ والقدَرِ خيرهِ وشرِّه، فكان ذكر الإيمان باللّه ورسلِه مستلزِمًا الإيمانَ ببقيَّةِ أركان الإيمانِ.

سرُّ فصلِ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ عمّا قبلَها:

بـيـانُ ارتـبـاطِ الـصِّـدّيـقـين بـالـمـؤمـنـينَ الخالصينَ؛ إذِ التَّصديقُ ثمرَةُ الإيمانِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾، عن قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ لِما بين الجملتينِ من كمال الاتِّصال، وآية ذلك أنَّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ (الَّذين)[2]، فكأنَّ الثّانيةَ شرحٌ وبيانٌ لجَوْهَرِ الأولى، فهي في قوَّة الوصف الكاشفِ لحقيقتهم، تُبْرِزُ أنَّ الإيمان الخالِصَ باللّهِ ورسلهِ يُثْمِرُ مرتبةً عُلْيا هي مرتبة الصِّدّيقين، وكأنَّ الآيةَ تُعْلِنُ في سياقٍ مُتَّصِلٍ أنَّ الشُّهداء والصِّدّيقين هم المُؤْمنون حقًّا[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعْدِ:

بُـعْـدُ مرتبَتِهم وعُـلُـوُّ مقامِهم وتمامُ جَزائِهم وكمال إكْرامِهم

جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعْدِ[4]، في

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 321.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 182.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 253.
(4) الأزهري، شرح التصريح على التوضيح: 1/ 146.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾: للإيذانِ بعلوِّ المقام، وسموِّ المنزلةِ، والتَّنبيه إلى بُعْدِ منزلتهم في الفَضْلِ، وكمال جَزائِهم[1]، فكأنَّهم لرِفْعَتِهم عن مداركِ الأبصار أبعَدُ مِن أن يُشار إليهم بالقرب، وإنَّما يُشار إليهم بلَفْظٍ يُجِلُّهم، ويعظِّم شأنَهُم.

بلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾:

قصر الصِّدّيقيَّة على أهل الإيمان ونفيها عن أهل الانحراف والبهتان

في قول اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريق تعريفِ جُزْأيِ الجملةِ، أي: هم الصِّدّيقون لا غيرهم، لا يُشارِكُهُم في هذا المقامِ أحدٌ سِواهم، فهُم المخصوصون بوسام الصِّدّيقيَّة، المنفردون بشرف هذا اللَّقب الرَّفيع[2]، لا أولئك الذين كذَّبوا بعضَ الرُّسل، وانحرفوا عن سواء السَّبيل، وفي ذلك إبطالٌ لأنْ يُعَدَّ أهلُ الكتاب من زُمْرَة الصِّدّيقين؛ إذ لا يُغْنيهم تصديقُهم رُسُلَهُم؛ ما داموا قد أعرضوا عن رسالةِ محمَّد ﷺ[3].

سرُّ التَّعبير بوصفِ الصِّدّيقيَّة:

في الصِّدّيق توحُّد السَّريرة والعلانيَّة وترك الرُّخص والتَّأويلات

اختير وصفُ الصِّدّيقيَّة؛ لأنَّها ذروةُ مراتبِ الإيمان، وغايةُ درجات الإيقان؛ إذ الصِّدّيق مَن استوى ظاهره وباطنُه، وصدَقَ في سريرته، كما صدَقَ في علانيَّته، لا يُساوِمُ على الحقِّ، ولا يلتفت إلى رُخَصٍ تُدَنّي، ولا تأويلاتٍ تُلَيِّن، بل يَحْمِلُ أمْرَ ربِّه على الأشدِّ والأكمل[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾:

الإشارةُ إلى جمعٍ مِن ذَوي الصِّدق الثّابت السّابقين في الإسلامِ

(أل) في لفظة ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ عهديَّةٌ مشيرةٌ إلى جَمْعٍ مِن ذوي الصِّدق الكثير، والتَّصديق الثّابت، ويجوز أن تكون (أل) دالَّةً على الكمالِ، والمقصود بها بيانُ أنَّهم مِن هذا الجنسِ الكاملِ في بابه، أي: مِن جنس مَن عُرِفوا بالمبالغة في الصِّدق، وتحقَّقوا به أعظم

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 618.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17397.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 540.

تحقُّق، فهُم المبالغون في الصِّدق قولًا واعتقادًا وعملًا لا تشبيهًا[1]، فهُمُ الكاملونَ في الاتِّصافِ بالصِّدّيقيَّةِ؛ لأنَّهم صدقوا في أنفُسِهم، وصدقوا مَعَ غيرِهم، وصدَّقوا ما قامَتِ البيِّنَةُ على صِدْقِه.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ دون (الصّادقون):

المؤمن المصدِّق باللهِ ورسلِه بالغُ الصِّدْقِ في القولِ والعَمَلِ جميعًا

جاءَ التَّعبير بـ ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ دون (الصّادقون)؛ والصِّدّيقون جمعُ: صدّيق، وهوَ على وزنِ (فعّيل)؛ وهو وزنٌ للمُبالغَةِ في الفعل، فيقال: رجلٌ صِدّيق، أي: كثيرُ التَّصديقِ، ورَجُلٌ سِكّيت، أي: كثير السُّكوت، فاشتقَّ الاسم؛ ليجسِّد الغايةَ في الصِّدق، ويعبِّر عن المؤمن الذي لا يقف عند حدِّ التَّصديق المعتاد[2]؛ إذِ الصّادِقُ: مَن تَخَلَّص من شوائب النَّفس، بخلاف الصِّدّيق، فهو أخصُّ؛ إذ هوَ الذي تخلَّص من شوائب النَّفْسِ ومِن شوائب الغَيْرِيَّة، فكلُّ (صدّيق) صادقٌ ومُخْلِصٌ، وليس كلُّ صادقٍ يبلُغُ منزلةَ الصِّدّيق[3].

بلاغَةُ التَّعْبير بالجملة الاسميَّة ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾:

وصفٌ راسخٌ ووسامٌ خالِدٌ لا يعتريه انقطاعٌ، ولا يَمَسُّه زوالٌ

اختار البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ دون الفعليَّة؛ إيذانًا بثبوت وصف الصِّدّيقيَّة لَهُم رسوخًا لا يزول، ودوامِها دوامًا لا يحولُ، فكأنَّ هذا الوسامَ العليَّ قد صار لهم وصفًا ذاتيًّا لا يطرأ عليه تبديل، ومَنْقَبَةٌ خالدَةٌ لا يَعْتَريها زوالٌ.

سِرُّ التَّعبير بالواوِ في قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

استئنافٌ يُبيِّن مقام الشُّهداء عند ربِّهم

وُصِلَ قول الله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بما قبلها؛ لأنَّها سيقت كلامًا مُستأنفًا[4]، فالواوُ للاستئنافِ، ولا ارتباطَ للجملةِ بما قبلَها لفظًا - إذ هيَ جملة من المبتدأ والخبر - وإن كانت في المعنى

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 461.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 191.

متعلِّقةً بما قبلَها من جهة المقام[1]، وكأنَّ الآية تَبْتَدِئُ تقريرًا جديدًا يخصُّ الشُّهداء ومكانتَهُم، وتُظْهِرُ علوَّ شأنهِم ورفعةَ منزلتهم عند ربِّهم سُبحانَهُ.

الرُّسلُ شهداءُ على الأمَمِ، وأجرُهُم عند ربِّهِم عظيمٌ

والواو الاستئنافيَّةُ هنا تفتح معنًى جديدًا، فمن قطعها عمّا قبلها، قال: إنَّ المراد بالشُّهداء هم الرُّسل؛ استنادًا إلى قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: 41]، ثمَّ أعقب ذلك ببيانِ ما أعدَّ لهم من أجر عظيم[2]، ويَحْتَمِل أن يكونَ قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عطفًا بديعَ النَّسق على ما قبله، فيغدو المعنى: أولئك هُم الصِّدّيقون، وأولئك هُم الشُّهداء عند ربِّهم، فيجتَمِعُ لهم شرف الصِّدّيقيَّة ورفعةُ الشَّهادة، ويتجلّى وعد الحقِّ سبحانه في قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ جزاءً جامعًا للصِّدّيقين والشُّهداء[3].

دلالَةُ تقديم ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ على ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

تصدُّر الصِّدّيقين وتوالي مراتِبِ الكِرام في سُلَّم الفَضْل:

الصِّدّيقون أعلى منزلةً مِن الشُّهداء؛ ولذلك قُدِّموا هنا في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾، وآية ذلك: أنَّ اللّه تعالى قال في موضع آخر: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: 69]، فكان الصِّدّيقون هُم الذين يَلونَ الأنبياءَ في المنزلة، والشُّهداء يَلونَ الصِّدّيقين، والصّالحون يلون الشُّهداء، فجاء التَّقديم مُراعًى فيه ترتيبُ الفَضْلِ، وعلوِّ المقام[4].

سرُّ التَّعبيرِ بوصفِ الشُّهداء دون الشُّهود أو الأشهادِ:

اصطفاءٌ لِمَن بذَلَ روحَهُ في سبيل اللهِ سُبْحانَهُ

جاءَ التَّعبير بوَصْفِ الشُّهداء دون الشُّهود أو الأشهاد؛ لأنَّهُ لفظٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 526.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126 - 127.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 253.

مُشْرِق بالدَّم الطّاهر والرّوح الباذلة؛ إيذانًا بأنَّهم الذين استُشهِدوا في سبيلِ اللّهِ تَعالى[1]، فصاروا أحياءً عندَ ربِّهم يُرْزَقون، لا مجرَّد شهودٍ يؤدّون شهادةً عابرة، ولا أشهاد يُستَدعون لموقفٍ عارضٍ.

ولفظ (الشُّهداء) جامعٌ بينَ مَن رُفِعَت شهادَتُهم بدِمائِهم الطّاهرة، فصاروا رمزَ الفداءِ والوفاء، ومَن يَشْهَدُ لنفسِه عند ربِّه بالإيمان[2]، فلا تَقْتَصِر الدَّلالة على القَتْلِ في سبيلِ اللّهِ تَعالى، بل تتَّسع لتشْمَلَ مَن حاز شهادةَ الحقِّ بحياته وعقيدته.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ دون الموصولِ وصِلَتِهِ:

آثَرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، دون أن يَرِدَ التَّعبير بنحو: (والذين استشهدوا)، كما في قوله تعالى قبلُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الاسمَ هنا يُشْعِرُ بإضْمار المعنى وتمكينه، فالصِّدّيق لا يكتَسِبُ عرق الصِّدّيقيَّة إلّا بالتَّأهيل لمرتبة الشَّهادة[3].

لا ينال عِرقَ الصدّيقيَّة إلّا مَن تأهَّل لذروة الشَّهادة

معنى (أل) في لفظ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

(أل) في لفظ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ للعَهْد، والمعنى: أنَّهم الشُّهداء المَعْروفونَ، وهُم الذين استُشهدوا في سبيلِ اللّه تعالى، أو هُم الأنبياءُ، أو هُم جميعُ المُؤمنين[4].

استغراقيَّةٌ بين الشُّهداء والأنبياءِ وعمومِ المؤمنينَ

بلاغةُ المَجازِ بالحَذْفِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مجاز بالحذفِ، والتَّقدير: هُم عندَ اللّهِ تَعالى بمنزلة الصِّدّيقين والشُّهداء[5]؛ ليبيِّن أنَّ المؤمنين الحقيقيّين هُم عندَ اللّه سُبحانَهُ في مقام الصِّدّيقين

المؤمنونَ الكاملونَ عند اللّه تعالى في ذُرا الصِّدّيقين وفي عُلا الشُّهداء المُكَرَّمين

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 540.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 374.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.

الذين صَدَقوا، وصدَّقوا، وربّوا إيمانَهُم، وفي مقامِ الشُّهداء الذين بَذَلوا أنفُسَهُم في سبيلِ اللّهِ ﷻ.

بيانُ شرفِ المقامِ ورفعةِ المنْزلَةِ

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّةِ ﴿عِندَ﴾:

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرفٌ للشُّهداء[1]، يحملُ في طيّاته دلالةً عميقة على التَّمكُّن والثُّبوت في مقامٍ رفيعٍ ومهيب، وهو ظَرْفٌ وارد ليزيدَ الأمرَ تعظيمًا وإجلالًا[2]، فالظَّرف هنا مجازٌ مستعمَلٌ في معاني العنايَةِ والحَظوة والخُصوصيَّة[3]، وفيه بيانُ عظمةِ المرتبة التي يحلُّ بها الشُّهداء، ويُظْهِرُ قربَهُم الدّائمَ مِنَ اللّه جلّت قُدْرَتُه.

إحسانُ اللّه تعالى إليهم برُتْبَةِ الشَّهادَةِ العاليَةِ وعظيمِ القُربى السّاميَةِ

سرُّ التَّعبير بلفظ الرَّبِّ دون الاسم الأحسَنِ (اللّه):

استعمالُ اسم الرَّبِّ دون الاسم الأحسَن (اللّه)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فيهِ إظهارُ القُرْبِ والخُصوصيَّة، فهو ربُّهم الذي أحسَنَ إليهم، وأكْرَمَهُم بمنزلةِ الشَّهادة، وأفاض عليهم برحمَتِه ورعايتِه الخاصَّة[4].

تشريفٌ لَهُم ورفعَةٌ لمنْزلَتِهم

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

أضيفَ اسمُ الرَّبِّ إلى ضميرِ أهل الإيمان في قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ تشريفًا للمؤمنين، وإبرازًا لعلوِّ مَنْزِلَتهم وقُرْبِهم من اللّه سُبحانَهُ، فتكون الإضافةُ وسيلةً لتكريمهم، وإظهارِ رفيعِ قَدْرِهِم عندَ المَوْلى الكريم.

إظهارُ ثمراتِ نعوتِ الكمالِ وبهاءِ الأجرِ والنّورِ العزيزِ المنالِ

بلاغةُ تعدُّد الموقع الإعرابيِّ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾:

في تعدُّد الموقع الإعرابيِّ لقولهِ تَعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ بيانٌ بليغٌ؛ إذ تُقرأ جملة من مبتدأٍ وخبرٍ في محلِّ رفع، وتكون خبرًا ثانيًا للموصول، أو أنَّ الخبرَ هو الظَّرف ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1209.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.

وما بعده يُرفعُ على الفاعليَّة، ويَتَعَلَّق الضَّمير الأوَّل بالموصول على الوجهِ الأوَّلِ، أمّا الأخيران؛ فمتعلِّقانِ بالصِّدّيقين والشُّهداء، وتأتي عبارة: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ متعلِّقة بالصِّدّيقين والشُّهداء، وقد وقعَتْ موقِعَ الحال[1]؛ لتُبيِّن حالَ السُّموِّ والرِّفعة التي يتَمَتَّعون بها في حَضرَةِ اللّٰه تعالى، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأً، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ خبرًا عنهُ، ويكون العطفُ عطفَ جملٍ، فيوقف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾، فيكون انتقالًا من وصف مزيَّة الإيمانِ باللّٰه تعالى ورسله عليهم السلام إلى وصْفِ مزيَّة فريقٍ منهم استأثر بفضيلةِ الشَّهادة في سبيل اللّٰهِ تَعالى، وهذا التَّعدُّدُ في الإعراب يُبرزُ ثمراتِ نعوتِ الكمالِ التي وُصِفوا بها، كالأجر والنّور المَعْروفَيْنِ بغايةِ الكمالِ وعزَّةِ المنالِ[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

توكيدُ العَطيَّةِ الإلهيَّةِ

في التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ توكيدٌ أنَّ هذه النِّعم من الأجر والنّور مختصَّةٌ بِهم من عند ربِّهم، وهو المُعْطي الكريم الذي جعلَها لَهُم تفضُّلًا مِنهُ وتكرُّمًا عليهِم[3].

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

في العدولِ إلى الضَّمير إيجازٌ واختِصارٌ

عُبِّر بالإضمار في ﴿لَهُمۡ﴾ مِنْ قول اللّٰه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾، دون التَّصريح بأسمائهم، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (للصِّدّيقين والشُّهداءِ أجرُهُم ونورُهم)؛ إيجازًا واختصارًا، وتجنُّبًا للتَّكرار؛ إذ العَهْدُ بذِكْرِهم قريبٌ، كما أنَّ في الإضمارِ إيماءً إلى أوصافِهم التي ذُكِروا بها قبلُ جَعَلَتْ حقائِقَهُم مستقرَّةً في أذهان

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 772.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 210.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 210.

النّاسِ، فيكفي الضَّميرُ للإشارةِ إليهم من غير حاجةٍ إلى إعادةِ التَّصريح بأسمائِهم.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾:

قَصْرُ النِّعمة بتقديم متعلّق الخبرِ، فالأجرُ والنّور لَهُم لا لِغَيْرِهم

قُدِّم متعلِّق الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾؛ تأكيدًا على تميُّز النِّعم وثبوتها لَهُم دونَ سِواهُم، فجاء تقديمُ الخبَرِ؛ ليبيِّن أنَّ الأجر والنّور خاصّان بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم، فتصبح النِّعمةُ مفردةً معلومة، جامعةً لكمالِ الجزاء، الذي يُشْعِرُ بالقَصْرِ والخُصوصيَّة[1].

دلالَةُ الإفرادِ في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

تجسيد وحدة الأجـرِ وكـمال الـجـزاءِ ومَجْدِ التَّفخيم الإلهيِّ

أُفرِدَ لفظُ الأجْرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على عظمَةِ الأَجْرِ وكمالِه ووحدَته، فهو ليس أجورًا متفرِّقة بل أجرٌ واحد جامعٌ وكامِل يليق بمقامِ الشُّهداء عند اللّه تعالى، يجمع كلَّ الجزاءاتِ والثَّواب في عطاءٍ إلهيٍّ واحد متماسكٍ، وذلك مُشْعِرٌ بالكمال والتَّفخيم.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

تجلّي التَّكريم الإلهيِّ في إضافةِ الأجرِ وانتسابه للمَمْدوحينَ

أُضيفَ الأجرُ إليهِم في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ تعبيرًا عن تعظيم وتخصيص، وفيه إشارةٌ إلى انتسابِ الجزاءِ لهُم وحدَهُم، وقد وردَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، واكتفى هنا بالإضافة دون الوَصْفِ[2]؛ لتكون الإشارةُ ذاتَ أثَرٍ بالغٍ في التَّشريف والتَّكريم.

سِرُّ العطف بالواوِ في قوله: ﴿وَنُورُهُمْۖ﴾:

تـلازمُ الأجـرِ والـنّور في مقام الإنعامِ

عُطِف النّورُ على الأجر بالواو؛ للدَّلالة على الوحدةِ والاتِّصال، ولبيانِ أنَّ النّورَ هو الزّيادة التي زادَهُم اللّهُ تعالى إيّاها مِن فَضْلِه ورَحْمَتِه، خلافًا للأجر الذي هو استحقاقُ العَمَل، فتصيرُ النِّعمتانِ

(1) الإيجي، جامع البيان: 4/ 265.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 164.

مُتَلازِمَتَيْنِ لا يَفْتَرِقان، ويؤكِّد العطفُ ارْتِباطَهُما الوثيقَ في تكوينِ مَقام أصحابِ النَّعيم المُقيم[1].

مـجـازٌ عَـن الهُدى والكرامة والـبـشـرى والسَّلامةِ

كما أنَّ التَّعبير بالنّورِ مجازٌ بديعٌ يراد به الهُدى والكرامة والبُشرى التي نالها المؤمنون[2]، ويشمل الضّياء الرّوحيَّ والهداية الرَّبّانيَّة التي أشرق بها قلبُ المؤمنين.

سرُّ الإفراد في قوله: ﴿وَنُورُهُمۡۖ﴾، مع دلالةِ الإضافةِ:

هُـدًى جامعٌ معرَّفٌ، وتميّزٌ يفيضُ عَلى أهلِ الإيمان

إفرادُ النّور يعودُ إلى أنَّ النّور واحدٌ متجرِّد، وهو الهُدى الذي يجمَع ألوانَ الخير والرَّشاد، فـ (نورُهُم) واحدٌ، وإضافتُه تعظِّم هذا النّورَ بكونِه خاصًّا بهم ومعرِّفًا بهم[3]؛ إيماءً إلى تميُّزهم بهذا الهُدى الجامع لكلِّ نورٍ، فلا يُعدُّ جمعًا متفرِّقًا، بل هوَ نورٌ واحدٌ مستفيضٌ يضيء قلوبَهم، ويهديهم إلى الحقِّ.

دلالَةُ الجَمْعِ بين الأجر والنّور في قوله: ﴿أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾:

امـتـزاجُ الـجـزاءِ بالمنَّةِ

في الجَمْعِ بينَ الأجر والنّور في قول اللّه تعالى: ﴿أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ توضيحٌ لحكمة إلهيَّةٍ، فالأجر هو المكافأة المستحقَّة المكتسبَةُ بأعمال العبد، أمّا النّور؛ فهو الهِبَةُ الإلهيَّة التي تزيد على الاستحقاقِ، فهو فضْلٌ ورحماتٌ توهَبُ بلا كسْبٍ، فالآية الكريمةُ تَجْمَعُ بين استحقاقِ العمَل، وبين الكرم الإلهيِّ، فتكون المنَّة والفضلُ ملازِمَتَيْنِ للعَبْدِ، ولا سيَّما في النَّوافل التي يُجْزى عليها بأجْرٍ ونورٍ معًا[4].

سرُّ تقديم الأجرِ على النّورِ:

كـسـبُ الـعـبـدِ المستحقُّ ثمَّ المنَّةُ والفضلُ مِن ربِّ العالمينَ

قُدِّمَ الأجرُ على النّور في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الأجر هو استحقاقٌ مكتسَب؛ نتيجةَ أعمالِ العَبْدِ مع تفضُّلِ اللّهِ تعالى في توفيقِهِ للعملِ وقبولِه مِنهُ، بخلاف النّور؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.

فإنَّه محضُ هبةٍ إلهيَّة خارجَةٍ عَن نطاقِ الكَسْب، فالأجرُ يعبِّرُ عن مقابل العمل والطّاعة التي بذلها العبد، أمّا النّور؛ فهو فضلٌ ورحمة مضافَةٌ له، ويُقَدَّم الأجرُ؛ لبيانِ حقِّ الاستحقاق أوَّلًا، ثمَّ يُضاف إليه النّور رمزًا للمنَّة الإلهيَّة التي تلازم العبدَ حيثما كان، فتكون النِّعمةُ كاملةً متكاملةً بينَ استحقاقِ العبد وكرَمِ اللّه تعالى[1].

دلالَةُ التَّعبير بالجُمْلَةِ الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾:

دوامُ الفضلِ الإلهيِّ في دار الجزاءِ

عُبِّر بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾؛ لإظهار الثُّبوت والدَّوام؛ وذلك يقتضي أنَّ الأجرَ والنّورَ مَمْلوكانِ لَهُم، ثابتانِ لا يَزولانِ، مُسْتَمِرّان في دار الجزاء، في "أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم"[2]، ممّا يعكِسُ دوامَ فضلِ اللّهِ تَعالى عليهم ورسوخَ مكانَتِهِم عندَهُ، فلا يَنْقَطِعان، أو يتغيّران مع الزَّمانِ.

بلاغَةُ المجازِ بالحَذْفِ في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾:

أجرهم ونورهم لا يُشاركهم فيه سِواهُم

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ مجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ حُذِفَت لفظةُ (أنفسهم)؛ تيسيرًا للعبارة، ممّا يُفهم أنَّ الأجر والنّور مختصّان بهم، وليس لغيرهم، أي: إنَّ لهم أجرَ أنفُسِهم ونورَ أنفُسِهم.[3]

بلاغَةُ المَعْنى في عَوْدِ الضَّمير إلى أقربِ مذكورٍ (الشُّهَداءُ):

خصوصيَّة النِّعمة وارتباطُ الضَّميرِ بالمقامِ

الضَّميرُ في ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ يعودُ في الأصلِ إلى الصِّدّيقين والشُّهداء معًا، أو إلى الشُّهداء وحدهُم، وفقًا لاختلاف التَّأويلين السّابقين في العطف[4]، فهما في كلا الحالَيْنِ مُعَرَّفان ومخصَّصانِ لَهم، ممّا يُؤكِّد خصوصيَّة النِّعمة وتميُّزَ أصحابِها، ويُبرز الارتباط الوثيق بينَهم وبين جزائِهِم الموعودِ.

والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ عائدٌ على

---

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 175.
(3) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7323.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.

الشُّهداء[1]، وهو يُفيد تخصيصَ الجزاء والنّور بهم دون غيرهم، ممّا يُبْرِزُ شرَفَ منزِلَتِهم وعلوَّ مقامِهم في ميزان الوعد الإلهيِّ؛ إذ إنَّ الأجر والنّور جاءا جزاءينِ على مواقفهم الإيمانيَّة وتضحياتهم في سبيل اللّهِ تَعالى.

خصوصيَّة الأجر والنّور في ميزان الوعد الإلهيّ

بلاغَةُ التَّشبيهِ البليغِ في الآية:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ تشبيهٌ، والتَّقدير: لهم مِثْلُ أجرِهِم ونورهم المعروفَيْنِ بغايةِ الكمال وعزَّة المنال، وقد حُذِفَت أداة التَّشبيه؛ للتَّنبيه على شدَّة المماثلة وكمالِها، حتّى بلغَت حَدَّ الاتِّحاد[2].

بيانُ شدَّة المماثلةِ وكمالِها

دلالة التَّعبير بالواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الواو في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافيَّة[3]، فالسّياق كان في بيانِ حال المؤمنين ومراتبهم ونعيمهم، فلمّا انتهى الغرض من ذلك؛ جاء الاستئنافُ ليَفْتَتِحَ به كلامًا مستقلًّا عن حال الكافرين، فيكونَ تمييزًا بين الطّائفتين في الذِّكر، كما تَمايَزا في المصير، وهذه الواوُ تفيد الانتقالَ مِن مقامٍ إلى مقامٍ.

الانتقال من حالِ المؤمنين إلى الكافرين يجسِّد تبايُنَ المَصيرَيْنِ

ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، والجملة بعدها معطوفة على ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾، ويكون الوصل بين الجملتينِ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ وذلك لاتِّحادهما خبرًا، ولِما بينَهما من التَّناسُبِ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فلاشتراكهما في الاسميَّةِ، وتصديرِهِما بالاسم الموصولِ، وكونِ صلَتِهما فعلًا ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ، وأمّا في المعنى؛ فلما بينَهُما من التَّضادِّ في بيانِ مآلِ الفريقَيْنِ.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 217.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 210.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 516.

سِرُّ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ (الَّذينَ كَفَروا) دون (الكافرون):

جاءَ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بدلًا من (والكافرون) لإظهار السَّبب والعلّيَّة؛ إذ إنَّ الموصولَ وصِلَتَهُ يُبيِّن أنَّ هؤلاء هُم الذين جَمَعوا بين الكُفْر وتكذيبِ الآيات، فيربط الصِّفاتِ بعضَها ببعضٍ، ويوَضِّح طبيعةَ حالِهم بتَمامِها، كما أنَّ الموصولَ يُهَيِّئ للجملة التّاليةِ التي تُبَيِّن جزاءَهُم، وهو كونُهُم أصحابَ الجحيم بما كان مِن اتِّصافهم بالكُفْرِ والتَّكْذيب[1].

كـفـرُهُـم وتَكْذيبُهُم علّةٌ في استحقاقِ المصير وصُحبَةِ الجحيمِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالكُفْرِ دونَ الإشراك:

استُعمِل الكُفْرُ دونَ الإشراكِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾؛ لشُموليَّة معناهُ وعمومه، فالكفرُ يشمَلُ الجُحودَ والنَّفيَ والإنكارَ لكلِّ ما أنزل اللّهُ ﷻ، كما يشمَلُ الكُفْرَ بالنِّفاقِ والكُفْرَ بالشِّرْكِ، بخلاف الشِّرك؛ فإنَّهُ خاصٌّ بإشراك غير اللّهِ تَعالى فيما هو من خصائصِ اللّه تعالى، فيكونُ التَّعبير بـ ﴿كَفَرُواْ﴾ دون (أشركوا)؛ ليَعُمَّ جميعَ أهل الكُفْرِ، سواءٌ أكان كفرُهُم جحودًا واستكبارًا، أم نفاقًا، ونحو ذلك.

الكُفْرُ أعمُّ مِنَ الشِّرْكِ وأشمَلُ

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ متعلِّق الكُفْرِ، كَما ذُكِر معَ التَّكذيب:

لَم يُذْكَر متعلِّق الكُفْرِ على خلاف ما ذُكِر مع التَّكذيبِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لكونِ الكفرِ أوسَعَ دائرةً، وأعمقَ دلالةً، فهو جحودٌ مُطْلَقٌ يشمَلُ إنكارَ الوحدانيَّة، وسائرَ ما يجبُ الإيمانُ به[2]، فلا يُقيَّد بمفعولٍ معيَّن؛ ليبقى شاملًا كلَّ ما يُكفر به، أمّا التَّكذيب؛ فمقصودٌ بهِ هنا خصوصُ الآيات، فذُكِرَ متعلِّقه؛ لبيان أنَّهم جحدوا جميعَ الآياتِ على اختلافِ أنواعِها؛ إشارةً إلى كُفْرِهم بالرُّسل كافَّةً وما جاؤوا بهِ[3].

الإيماءُ إلى الجُحودِ المُطْلَقِ والتَّكذيبِ بالآياتِ جَميعِها

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 208.
(2) السمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 407.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 184.

دلالة التَّعبير بفِعْلَي الكُفْرِ والتَّكْذيب ماضيَيْن:

استُعمِلت صيغةُ المُضيِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لأنَّ الكفر والتَّكذيب قد صدر منهم وتحقَّق بالفعلِ، لا على وجهِ الاحتمال، بل على وجه الثُّبوت والاستقرارِ؛ إيذانًا بأنَّهم تمكَّنوا من هاتينِ الصِّفتين، ورسخَت فيهم.

تحقُّق الكفر واستقرارُ التَّكذيب وثبوتُهما

سِرُّ تقْديمِ الكُفْر على التَّكذيبِ:

قُدِّمَ الكُفْر على التَّكذيب في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لأنَّ الكفر أصلُ كلِّ انحراف، فهو الجحودُ الكلّيُّ للّه تعالى ووحدانيَّته، ثمَّ يترتَّب عليه التَّكذيب بآياته وحُجَجه وبَراهينه[1]، فجيء بالكفر أوَّلًا؛ لأنَّه الأعمُّ والأصل، ولأنَّ مَن لَم يَرْسَخ في قلبه الإيمانُ باللّهِ تَعالى ابتداءً؛ كان تكذيبه بآياتهِ نتيجةً حتميَّة لذلكَ الجحودِ.

الكُفْرُ أصلٌ والتَّكذيبُ فرعٌ، والمقدَّم أساسٌ في كلِّ انحرافٍ عن الإيمانِ

دلالة الجمعِ بينَ الكُفْرِ والتَّكذيب في قولِه: ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾:

جُمِعَ بين الكفر والتَّكذيبِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾؛ ليُجْمَعَ لهُم بينَ أصلِ الجُحود وأقبحِ مظاهرِه، فاجتَمَعَ فيهم الوصفانِ القَبيحان، وهُما الكُفْرُ بذاتِ اللّهِ تَعالى ووحدانيَّته، والتَّكذيبُ بآياته وصفاته الكُبْرى وحُجَجِه الباهرة، فصار كُفْرُهم كفرًا صريحًا بيِّنًا يملأ ظاهرَهم وباطِنَهم، قلبًا وسرًّا وروحًا، فاستَحقّوا بذلك أن يكونوا أصحابَ جحيمِ البُعد والطَّرد واللَّعن[2].

كُفْرٌ مُضاعَفٌ وعذابٌ مستحَقٌّ؛ من إنكارٍ للوحدانيَّة إلى تكذيبِ البراهين الرَّبّانيَّة

دلالَةُ التَّعبيرِ بالتَّكذيبِ عَلى صيغَةِ التَّفْعيلِ:

استُعمِلت صيغَةُ التَّفعيلِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في الفِعْلِ والتَّوغُّل فيه، وفيه كَشْفٌ عن حالٍ بلغَ فيهِ التَّكذيبُ مبلَغَ الإصرار والعناد، وقد أُضيفَت

تكذيبٌ مستحكِمٌ وكُفْرٌ مستغرِقٌ حينَ يبلغُ العِنادُ ذروتَه

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 175.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 369.

الآياتُ بصيغَةِ الجَمْعِ المعرَّف، وهي صيغةٌ تفيدُ العمومَ والاستغراقَ؛ فتَشْمَلُ جميعَ آياتِ اللهِ تَعالى المتنوِّعة في مظاهِرها، فهذا المكذِّب بها قَد جاوز الحدَّ، فصارَ إفراطُهُ في التَّكذيب عنوانًا على تَغَلغُلِ الكُفْرِ في نَفْسِه[1].

سِرُّ تعديَةِ فعلِ التَّكذيبِ بالباءِ:

إيغالٌ في الإنكارِ والتَّكذيبِ بالرُّسلِ والبيِّناتِ

عُدّيَ فعل التَّكذيب بالباءِ معَ أنَّ فعلَ التَّكذيبِ قد يُعَدّى بنَفْسِه: أنَّ الباءَ ههنا تفيدُ التَّوكيدَ واللُّزوم؛ لِتَدُلَّ على تَشَبُّثِهم بالتَّكذيب، وتَغَلْغُلِه في نُفوسِهم، لا مجرَّد إنكار عارض، وقد أُريد بالكُفْرِ هنا الكفرُ باللهِ تَعالى، في مقابلةِ الإيمان به، وأمّا تكذيبُ الآياتِ؛ فالمقصودُ به تكذيبُ ما جاءَت به الرُّسل مِن الآياتِ الإلهيَّة، وتكذيبها هو في حقيقَتِه تكذيبٌ للرُّسل أنفُسِهم، فهو إذًا في مقابلةِ التَّصديق بهِم، وبِما جاؤوا به مِنَ الحَقِّ المُبين[2].

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

شدَّةُ مُلازَمَتِهم للتَّكذيبِ

الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، وفي ذلك دلالةٌ على لزومِهم هذا التَّكذيبَ وشدَّة ملابسَتِهم لَهُ، فلم يكُن تكذيبًا عارضًا، بل كان ديدَنًا لَهُم وعادةً.

سِرُّ التَّعبير بالآياتِ جَمْعًا:

لفظٌ جامعٌ مستغرقٌ دلائلَ القدرة والوحدانية

اختيرَ لفظُ الآياتِ جمعًا مضافًا في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لإفادَةِ العموم والاستغراق، أي: كذَّبوا بجميع آيات اللهِ تَعالى على اختلاف أنواعها[3]، وانتقى البيانُ القرآنيُّ لفظ الآياتِ دون البيِّنات مثلًا؛ لأنَّ الآياتِ لفظٌ أوسَعُ

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 462.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 369.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 249.

دلالَةً، وأعمُّ شمولًا؛ إذِ الآيَةُ تُطلَقُ على كلِّ ما يدلُّ عَلى قدرةِ اللّهِ تَعالى ووحدانيَّته، من معجزاتٍ حسّيَّة، وبراهينَ عقليَّةٍ، وشرائعَ هاديَةٍ.

دلالَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمَةِ:

الإيمــاءُ إلى عظمةِ الآياتِ

أُضيفَت الآياتِ إلى ضمير العظمة (نا) في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، مِنْ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ وذلك تعظيمًا لشأنِ تلك الآيات، وتشريفًا لها؛ إذْ نُسِبَت مباشرة إلى المتكلِّم المعظِّم نفسَهُ ، فازدادت مهابةً وجلالة، وكأنَّ كلَّ آية منها تحملُ خَتْمَ الرُّبوبيَّة وعلامةَ القُدْرةِ الإلهيَّة، فتكذيبُها تكذيبٌ لصاحِبها سبحانَهُ، سواءٌ أكان ذلك في السِّرِّ أم في العلن، أو كان بتعامُلٍ معَ الآيات تعامُلَ المكذِّب المستخفِّ بها[1].

دلالَةُ التَّعبير باسمِ الإشارةِ:

إشارةٌ إلى البُعْد والـطَّـرد من رحمةِ الرَّحيمِ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على بُعْدِهم عَن كلِّ خيرٍ[2]، وتخصيصُهُم بالبُعْد عَن الرَّحمة والزُّلفى، فكأنَّهم أُشيرَ إليهم مِن مكانٍ سَحيقٍ لبُعْدِ دَرَجَتِهم، وامتيازِهم بسوءِ المَصير، فهُم مَخصوصونَ بالخِذلان والطَّرد عَن مقاماتِ الإيمان والنَّجاة.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ دون (أهل):

في لفظِ الصُّحْبَةِ مَعْنى الملازَمَةِ وطولِ الملابَسَةِ

عُبِّر بالأصحاب دون الأهلِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مادَّةُ الصُّحبة من معنى الملازمَة، فأصحابُ الجحيم هُنا هم المُلازِمونَ لها على وجهِ الخلود، فلا يخرجونَ مِنها أبدَ الآبدينَ، بخلاف لفظِ الأهلِ فإنَّها تدلُّ على انتسابٍ لأمرٍ، من غير أن يقتضيَ ذلك لزومًا وطولَ ملابسَةٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

تصويرُ دَوامِ العَذابِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ دون الفِعلِ (صحبوا)، من قولِ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أنَّ الاسم يدلُّ على صفةٍ دائمَةٍ ومُستَقِرَّةٍ، وهي الملازمة والخلودُ في الجحيم[1]، بخلافِ الفِعلِ (صحبوا) فإنَّهُ يُفيدُ حَدَثًا ماضيًا أو مُؤقَّتًا دونَ تأكيدِ الدَّوام، فالأصحابُ هُنا: همُ الملازمون للجَحيم بلا انقِطاعٍ، بخلافِ غَيرِهِم ممَّن قد يَدخُلونَ النّار، ولكن لا على وجهِ الخلودِ.

سِرُّ التَّعبير بأصحابِ الجَحيمِ دونَ أصحابِ السَّعير:

في لَفْظِ الجَحيم إشارةٌ إلى عظمَةِ النّار وتأجُّجها، وفي لفظِ السَّعير دلالَةٌ على شِدَّةِ اشتِعالِها

اختيرَ لفظُ الجحيم دون السَّعير في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ المذكورَ قبلُ لم يُقتصَرْ فيه على ذِكرِ الكُفْرِ، بل ضُمَّ إليه التَّكذيبُ، ولذا كان الأنسب التَّعبير بلفظٍ يدلُّ على عِظَمِ النّار وتأجُّجِها، وهو الجَحيمُ، بخلافِ السَّعيرِ فإنَّها تدلُّ على شدَّةِ الاشتعالِ والاتِّقادِ، وهذا أقربُ لوصفِ الحركةِ والهيَجانِ.

بلاغَةُ القَصْرِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تخصيصُ الخُلودِ وقَصْرُه بِمَن استحقَّ الجحيمَ دون سواهُم

في تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ[2]، في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وفيه تخصيصُ الخلودِ في النّار بالكفّار وحدَهُم، فالتَّركيبُ يُبيِّن حَصْرَ هذه الصِّفة[3] - وهي الصُّحْبَة الدّائمةُ للجَحيم - واختصاصُها بهم دونَ غيرهم، ممّا يدلُّ على أنَّهم مخصوصون بالعذاب الأبديِّ، وغيرُهم من أهل المعاصي دونَ الكُفْرِ متوَعَّدونَ بالنّار، ولو دخلوها لم يكن دخولهم إيّاها على وجه الخلودِ.

بلاغَةُ المُقابلَةِ في الآيةِ:

بين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 400.

(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 462.

(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 210.

بين الإيمان والتّكذيب مقابلَةٌ تكشِفُ استحقاقَ الجنَّةِ واستحقاقَ النّارِ

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[1] مقابلة؛ إذ بعدَ ذِكْرِ حالِ المؤمنين وأهلِ الفَضْلِ والكرامة؛ انتُقِلَ إلى ذكر الكافرين المكذِّبين؛ ليُبَيِّن الفرقَ الجليَّ بينَهُم، فخصَّ الكافرين بأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: سكانُ النّار، ومستحقو العذابِ[2].

بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيَةِ:

تَلْميحٌ بالنَّعيم بذِكْرِ الجحيم، وإشارةٌ إلى الكرامةِ بذِكْرِ أضدادِها

في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ احتباكٌ، وهو المسمّى الحذفَ المقابَليَّ أو حذفَ التَّقابُلِ، ووجه ذلك: أنَّ ذِكْرَ الصِّديقيَّة أوَّلًا دليلٌ على حذفِ أضدادِها ثانيًا، وذكرَ الجحيم ثانيًا دليلٌ على النَّعيم أوَّلًا[3]، ويكون المعنى: والذين آمنوا باللّه ورسله أولئك هم الصِّدّيقون والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم، وأولئك أصحاب النَّعيم، والذين كفروا، وكذَّبوا بآياتنا أولئك هم الكذَبَةُ والفُجّارُ، عليهم وِزْرُهم، ويُحَجَب عنهم النّورُ، وأولئك أصحاب الجحيم، وسرُّ هذا الحذفِ المقابَليِّ أنَّ الأوَّلَ أدخَلُ في الكرامة، والآخَر أبلغُ في الإهانة[4].

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأجْرِ والثَّواب والجزاء:

الأجــرُ أخـصُّ مـن الـثَّـواب والـجـزاءِ من جهة اختِصاصِه بالخَير

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعنَيَين: الكِراء على العمل، وجَبْرُ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[5].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 249.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 266.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإنسان من جَزاء عملِه[1].

وأمّا الجزاءُ؛ فأصلُه: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[2].

والفَرْقُ بينَها[3]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمَل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلَةُ على الخَيرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمَل إلّا في النَّفع دون الضَّرِّ، ويتضمَّن مَعْنى المعاوضةِ.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصهِ بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمَل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخرويَّة.

النّور والضَّوء:

ذهبَ بعضُ أهْلِ العِلمِ بالعربيَّة إلى أنَّ النّور والضّياء بمَعْنًى واحِدٍ[4]، وقد فسَّر الخَليلُ بن أحمدَ النّورَ بالضّياء أيضًا[5]، ويحتمِلُ ذلك منهُ أنَّه يَرى تَرادُفَهُما، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أصْحابِ المُعجماتِ في ذلكَ.

والتَّحقيقُ أنَّ بينَهُما فرقًا، وذلك أنَّ أصلَ النّورِ هو ضوْءُ كلِّ شيءٍ، وهو ضِدُّ الظُّلْمَةِ، بخلاف الضّياء فَهو إفراطُ الإنارةِ، ولذا اختير الضّياء في التَّعبير عنِ الشَّمس، في نحوِ قولِ الله تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[6] [يونس: 5]، فيكونُ الضياءُ على هذا أعظمَ وأبلغَ، ومعلومٌ أنَّ الشَّمْسَ أعظمُ نورًا مِنَ القَمَرِ[7]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نورِها.

---

(1) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).

(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

(4) ابن السِّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 98، وابن أبي الحديد، الفلك الدائر على المثل السائر، مطبوع بآخر المثل السائر لابن الأثير: 4/ 233.

(5) الخليل بن أحمد، العين: (نور).

(6) الزمخشري، الكشاف: 1/ 73.

(7) ابن الملقّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.

الضّياءُ: ضَوْءٌ وحَرارَةٌ، والنّورُ: ضَوْءٌ بِلا حَرارَةٍ

وثمَّة فرقٌ آخرُ بينَهما، وهو أنَّ الضّياءَ: ما كان مِن ذاتِ الشَّيء المُضيء، بخلاف النّورِ: ما كانَ مُستَفادًا مِن غيرِه[1]، وهذا الفرقُ هو بالنَّظر إلى خُصوصِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على النَّحوِ الوارِدِ في الآيَةِ المُتَقَدِّمِ ذكرُها.

وأصحُّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُما: أنَّ الضّياء ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، والنّورَ ضوءٌ بِلا حرارَةٍ، كَنورِ القَمَرِ[2]، وهذا الذي تَنتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ.

أمّا قوَّةُ أحدهما في مقابِل الآخَرِ؛ فالغالِبُ في الاستِعمالِ أن يَكونَ الضّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بِلازِمٍ مُطَّرِدٍ.

الصُّحبة والرِّفقة:

لازموا الجحيمَ حتّى صارت كأنَّها صاحِبَتُهُم وقَرينَتُهم التي لا تُفارقهُم أبدًا

لفظ الصّاحبِ في أصلِه يدلُّ على الملازمة والاقتران الذي لا ينفكُّ، سواءٌ أكان ذلك بالبدنِ أم بالعنايةِ والهمَّة[3]، واختير هذا اللَّفظُ في قولِه تَعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ للإيماء إلى هؤلاءِ كأنَّهم قد لَزموا الجحيمَ حتّى صارت مقرًّا دائمًا لهم لا يفارقونه أبدًا، ثمَّ غدت الجَحيم كأنَّها صاحَبَتْهُم، وهُم أصحابُها، ولم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الرِّفقة؛ لأنَّها مشتقَّة من الرِّفق، وأصل الرِّفق في اللُّغة النَّفع واللِّين، ورفيق الرَّجل في السَّفر سُمّي رفيقًا لانتفاعه بصحبته، ولمرافقته في السَّير إلى جانبه بحيث يَلي مرافقه[4]، وهذا المعنى الإيجابيُّ غير مرادٍ في سياق الآية التي تُظْهِر شدَّة الملازمة للعذابِ لا لِرِفْقٍ أو نَفْعٍ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 104093.
(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 24 - 25.
(3) الراغب، المفردات: (صحب).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 259.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيانُ مآلِ الفَريقَينِ في الآخرة، وتزهيدٌ بليغٌ في الدُّنيا وكشفٌ لحقيقتها الزّائلةِ

لَمّا صوَّر اللهُ سبحانه مآلَ الفريقين في الآخرةِ، فخلَّد ذِكْرَ أهلِ الإيمان، وما أعدَّ لَهُم مِنَ الأجر والنّور، وفَضَحَ حالَ الكافرين، وما أعدَّ لَهُم مِنَ الجحيم والنَّكال؛ أَعْقَبَ ذلك بتَزْهيدٍ بليغٍ في الدُّنيا، فكشف حقيقَتَها، وحقَّر شأنَها[1]، فقال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، فبيَّن بعبارةٍ جامعة أنَّها متاعٌ زائل، وسرابٌ خادِع؛ ليَصْرِفَ القلوبَ عَنِ الاغترارِ بها، ويحثَّها على طلَبِ الباقيات الصّالحاتِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعِبٞ﴾: مصدر للفعل (لعبَ يلعبُ)، وجذره اللُّغويُّ: (لعب)، واللَّعبُ ما كان نقيض الجدِّ، وكذلك ما كانَ مِنَ الهَزْل، فكلُّ هازلٍ هو لاعب[2]، ورجل تلعابَة: كثيرُ اللَّعب، والملعَبُ: موضِع اللَّعب، واللُّعبة بالضَّمِّ: لعبة الشَّطرنج والنَّرد، وكلُّ ملعوب به فهو لُعْبَة؛ لأنَّه اسمٌ، ومنه قولُهُم: اقعدْ حتّى أفرغَ من هذه اللُّعبة[3]، والأصل في اللّام والعين والباء: اللَّعب المعروف، واللِّعاب أيضًا، ومَن فعل فعلًا، وهو

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 210.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (لعب).
(3) الجوهري، الصحاح: (لعب).

غَيْرُ قاصِدٍ به الصَّحيحَ؛ فقد لعِب، وكذا ما كان الفعلُ الصّادر مِنَ الإنسان الذي لا يُجْدي نفعًا فهو لعبٌ[1]، وإذا كان الفعل دالًّا على اضْطِرابٍ وتسيُّبٍ في ما يَصْدُر عن الشَّيء نتيجة تجمُّع حيويَّته، أو نشاطِه، أو عدم استِقامة، أو عدم قصد في الاتِّجاه والتَّصرُّف؛ فهو اللَّعب[2]، ومعنى ﴿لَعِبٌ﴾ في الآية محلِّ الشّاهد يَحْتَمِل اللَّعبَ المعروفَ، ويَحْتَمِل الأكلَ، ويَحْتَمِل ما كان ترغيبًا في الدُّنيا، ويحتمل الاقتناء[3].

2) ﴿وَلَهْوٌ﴾: مصدر للفعل (لها يلهو)، وجذره اللُّغويُّ (لهو)، وهو ما لَهَوْتَ به، وشَغَلَك من هوى وطرَبٍ، ومن معانيه: الإعراضُ والصُّدوف عن الشَّيءِ، وتقول: لهيتُ عن الشَّيء، ولهيتُ منه، وآلَه عن هذا الأمر، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: 17]، وقيل: اللّهو هو الطَّبل، وقيل: هو كلُّ ما يُلْهى به[4]، ويُقال: لهيتُ عن الشَّيء؛ إذا تركتَهُ لغيرِه، ويقولون: إذا استأثر اللّهُ تعالى بشيءٍ؛ فالهَ عنه، أي: اتركْهُ، ولا تشتَغل به[5]، وكلُّ ما يشغَلُ الإنسانَ عمّا يهمُّه، ويَعْنيه؛ فَهو من اللّهو، وكذلك اللَّعب والتَّشاغل بالشَّيء، والغفلة عن غيره، والانغماس في أمرٍ مع عدم جدواه، فهو لَهوٌ[6]، ومعنى ﴿وَلَهْوٌ﴾ في الآية الكريمة: "كلُّ ما أُريدَ بِه غيرُ اللّه، أو كلُّ ما شَغَل عن الدّين"[7].

3) ﴿وَزِينَةٌ﴾: اسمٌ مؤنَّث من الجذر اللُّغويِّ (زين)، والزَّين: نقيض الشَّين، وهو اسم جامعٌ لكلِّ ما يُتَجَمَّل به، ومعناه: زيادةٌ محبَّبة تتعلَّقُ بظاهِر الشَّيء، حاصلَة عمّا يَزْخَر به باطنه، ومن ذلك الأصلِ جاءَ المعنى الشّائعُ للتَّزيُّن، وهو التَّحلّي بحِلْيَةٍ مُكْتَسَبَة؛ تقليدًا لِما ينشأُ مِنَ البدَنِ، كالتَّجمُّل بالأصباغ ونحوها، فالزَّين يدلُّ على حُسْنِ الشَّيء، يقال: زيَّنت الشَّيءَ تزيينًا، وازَّيَّنت الأرض، وازدانت؛ إذا حسَّنها عُشْبُها، والزّينة هي الحِليَة الظّاهرة، أمّا الزّينة الحقيقيَّة؛ فهي ما لا يَشينُ الإنسان في أيّ حال من أحواله، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، والتَّزيين هو التَّحسين لِما يُدْرَك بالحسّ دون ما يُدْرَك بالعقل؛ ولهذا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعب).
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 480.
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (لهو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(6) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لهو).
(7) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 374.

استُعمِلَ في أوصاف الدُّنيا دون أوصافِ الآخرة[1]، ومعنى ﴿وَزِينَةٌ﴾ في الآية الكريمة: ما كان من المَناظِر التي يَتَزَيَّنون بها[2].

4) ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾: مصدرٌ على زنةِ (تَفاعُل)، وجذره اللُّغويُّ: (فخر)، ولم يَرِد من هذا الجذر إلّا هذه اللَّفظةُ في جميع القرآن الكريم، والفَخْرُ: أن تَنْشُرَ مناقبَ الرَّجلِ وكرمَه، وإذا عَدَّ المرءُ قديمَهُ؛ فقد افتخر، والتَّفاخرُ هو التَّكبُّر والتَّعاظم بما عندَك[3]، والأصل في الفاء والخاء والرّاء: أن يدلَّ على العِظَم والقِدَم، والفخرُ على الشَّيء: تفضيلهُ عليه، والفاخر من الأشياء: جيِّدُها، ويُقال: نخلةٌ فخورٌ؛ إذا كانت عظيمةَ الجِذْعِ غليظَةَ السَّعَف، والفخر: "المُباهاةُ في الأشياء الخارجة عنِ الإنسانِ، كالمالِ والجاه"[4]، ومعنى ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾ في الآية الكريمة: التَّباهي الذي يتداوَلونَهُ في أحسابِهِم وأنسابِهِم[5]، يَتَباهى كلٌّ منهُم على الآخر بمَجْدٍ موروثٍ لا مُكْتَسَبٍ.

5) ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾: مصدرٌ على زِنَةِ (تَفاعُل)، وجذره اللُّغويُّ: (كثر)، ولم يَرِد على هذه الصّيغة والجِذْرِ معًا في جميع القرآن الكريم إلّا موضعانِ، هذا الموضع من سورة الحديد، والآخَرُ: في سورة التَّكاثر، والفعل منه: كَثُر يَكْثُر، وأصل معنى الكثرة في لغة العربِ: خلافُ القلَّة، واستَكثَرتُ منَ الشَّيء، أي: أكثرتُ منهُ، والأصل في الكاف والثّاء والرّاء يدلُّ على الكثرة[6]، ومعناه المحوريُّ: أن يزيدَ عددُ أفرادِ الشَّيء بالنِّسبة لِما هو معتادٌ أو متوقَّع، وسائر ما ورَدَ في الكتاب الكريم من الكَثْرَة هو نقيضُ القلَّة[7]، ومعنى ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ في الآية محلِّ الشّاهد: المباهاةُ بِما عندَهُم مِن زيادةٍ في الأموالِ والأولادِ[8].

6) ﴿غَيْثٍ﴾: اسم ثلاثيٌّ مجرَّد، وجذر اللُّغويِّ: (غيث)، ومعنى الغيثِ: المطَرُ، ويعبِّر عن الكلأ النّابت بفعل المَطَر أيضًا، و"الغين والياء والثّاء: أصل صحيح، وهو الحَيا النّازل

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (زين).

(2) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 39.

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (فخر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (فخر).

(5) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 458.

(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كثر).

(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كثر).

(8) الثعلبي، الكشف والبيان: 26/ 78.

من السَّماء"، ويجوز أن يكون الغيثُ مصدرًا للفعل: غاثَ يغيثُ، ويجوز أن يكون الغيثُ هو المطَرَ المختصَّ بالخير، ويكون كثيرًا نافعًا[1]، والمعنى المحوريُّ للغيث هو الماءُ المُنْتَشِر مطرًا، أو المتتابع من شدَّةِ كَثْرَتِه؛ فهو كالماءِ الموصوف الذي يَسْقي الأرض، فتَخْضَرُّ، وتُزْهِر، ومِن هنا أُطلِق الغيثُ أحيانًا على السَّحاب والنَّباتِ نفسِه؛ إذِ الغيث في الأصل: الكلأ النّابتُ من ماءِ السَّماء[2]، ومعنى ﴿غَيْثٍ﴾ في الآية: المطر المحيي الَّذي يأتي حين يَيْأسُ النّاسُ مِنَ الغيثِ، ويَقْنَطونَ[3].

7) ﴿أَعْجَبَ﴾: فعل ماضٍ، وجذره اللُّغويُّ: (عجب)، والعجبُ: قرين الدَّهشة، وهو معروف، والعجَبُ أن يُنْكِرَ الإنسان ما يَرى من شيءٍ يقلُّ وقوعُه، وقد يحصل التَّعجُّب من حُسْنِ الشَّيء، والعينُ والجيمُ والباءُ أصلٌ صحيح في اللُّغة يدلُّ على الكِبَرِ والتَّعاظم والاستكبار، والعجَبُ أن يتكبَّر المرءُ في نفسِه، ويستعظمَها، فيُقال: فلانٌ معجَبٌ بنفسِه[4]، والعجَبُ والتَّعجُّب حالٌ تطرأُ على الإنسانِ عندَ خفاءِ السَّبب عنه، وجهله بكُنْهِ الشَّيء؛ ولذا قال بعضُ الحُكَماء: العجَبُ ما لا يُعْرَفُ سببُه، وإذا كان الشَّيء غريبًا؛ حُقَّ العجبُ منه[5]، ومعنى ﴿أَعْجَبَ﴾ في الآية: راقهم ما أنبتَ مِن خُضْرة وزينةٍ بعدَ يُبْسٍ وقَحْطٍ[6].

8) ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾: جمعٌ مكسَّر، مفرده: كافر، وجذره اللُّغويُّ: (كفر)، ومن معاني الكفر: التَّغطية، فكلُّ ما غطَّى شيئًا، وسترَهُ؛ فقد كفرَهُ في لسان العرب، فالثَّوب: كافرٌ الدَّرعَ لسترِهِ لها، والكافرُ هو اللَّيل والبحر ومغيبُ الشَّمس، والأصل في الكاف والفاء والرّاء: دلالتها على التَّغطية[7]، والكفر: "ستر الشَّيء، ووُصِفَ اللَّيل بالكافر؛ لسَتْرِه الأشخاصَ"[8]، ويُسمّى الزّارع كافرًا؛ إذْ يُلْقي الحبَّ في بطن الأرض، ثمَّ يُغَطّيه بترابها، فكأنَّه كفرَهُ عَن الأنظار؛ ولهذا جاء جَمْعُه على: كُفّار[9]، ويُسمّى غيرُ المؤمن كافرًا؛ لأنَّه غطّى بِعَماه ما

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (غيث).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غيث).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 185.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(5) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجب).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 185.
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(8) الراغب، المفردات: (كفر).
(9) الصحاري، الإبانة في اللغة العربية: 4/ 105.

يَرى مِن شواهد عظمةِ الحقِّ سبحانه، وأدلَّته الظّاهرة والباطنة[1]، ومعنى ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: الزُّرّاع، واحدهم: كافر؛ وسُمّي الزّارع كافرًا؛ لأنَّه إذا ألقى البذرَ في الأرض؛ غطّاه بالتُّراب، وكلُّ شيء غطَّيتَهُ؛ فقد كَفَرْتَه[2].

9) ﴿يَهِيجُ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، والجذر اللُّغويُّ منه: (هيج)، ومنه: هاج البقلُ؛ إذا طال، وصار مصفرًّا، ومنه: الهيجان، بمعنى الثّوران، وثورانُ الشَّيء للمشقَّة والضَّرر يدخُل في هذا المعنى، وأهاجَت الرّيحُ النَّبتَ، فأيبَسَتْهُ، والهيَجان: الفورةُ والغضَب[3]، و"الهاء والياء والجيم: أصلان صحيحان، أحدهما: يدلُّ على ثوران شيءٍ، والآخر: على يُبْسِ نباتٍ"[4]، ومعنى ﴿يَهِيجُ﴾ في الآية: يشرع النَّبات في الذُّبول والجفاف، فتَبْتَدِئ فيه الصُّفرة[5]، وتظهر عليه أماراتُ اليُبْس بعد خُضْرَتِه ونضارَته.

10) ﴿مُصْفَرًّا﴾: صفةٌ دالَّة على اللَّون، والجذر اللُّغويُّ منه: (صفر)، ومنه: الصُّفرةُ، وهو اللَّون المعروفُ، ومنه: الصَّفار، وهو صفرةٌ تَعْلو اللَّونَ أو البشرة؛ بسبَب علَّة أو داء يطرأُ على الجسَد، والصّاد والفاء والرّاء أصولٌ عدَّةٌ، أوَّلها: اللَّون المعروفُ، ويُعْرَف الرّوم بأنَّهم بنو الأصفر؛ لأنَّ أباهُم الأوَّل كان على هذا اللَّون[6]، وقد اقترنَت الصُّفرةُ بِذُبول النَّبات، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ عيانًا؛ إذ تَرى العودَ الأخضرَ، إذا أخَذَ في الجفاف؛ تَبَدَّت فيه الصُّفرة، والقصبةُ إذا قُطِعَت رطبَةً، فأخَذَت تَيْبَس؛ رأيتَ فيها طرائقَ قَد اصْفَرَّت[7]، ولا يَبْعُد معنى ﴿مُصْفَرًّا﴾ عن هذا، فإنَّ الزَّرعَ يكونُ على هذا اللَّون، وهو الأصفر بعدَما كان خَضِرًا نَضِرًا[8].

11) ﴿حُطَٰمًا﴾: اسمٌ على وزن (فُعال)، وجذرُهُ اللُّغويُّ: (حطم)، والحَطْمُ: أن تَكْسِر الشَّيءَ اليابسَ، كالعَظْمِ وأمثاله، فإذا كسرتَهُ؛ سُمّي ذلك المتكسِّر حُطامًا، كقِشْرِ البيض،

(1) وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر).
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 52.
(3) الخليل، العين، والقالي، البارع في اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (هيج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هيج).
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 127.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (صفر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفر).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 185.

والأصل في الحاء والطّاء والميم: التَّكسير، ويقال للسَّنة الشَّديدة: الحُطَمَة؛ لأنَّها تَحطِم كلَّ شيء، ويُستَعمَلُ الحَطْمُ والتَّحطيم لكلِّ كَسْرٍ متناهٍ بالغِ القوَّة[1]، واشتُقَّ من اللَّفظةِ اسمٌ للنّار، وهي الحُطَمَة؛ لأنَّه يَشي بتَصْويرٍ بالغ في تحطيمِ ما يُلْقى فيها[2]، ومعنى ﴿حُطَٰمٗاۖ﴾ في الآية: يُحيلُهُ بعدَ خُضْرَتِه ونضارتِه إلى ما تَحطَّم، وتكسَّر، كالرُّفات والفُتات الذي تَذْروهُ الرِّياح[3].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

التَّنبيهُ إلى زوالِ الدُّنيا وخداعِ لهوها، والتَّذكيرُ بأحوالِ الآخرة مِنَ العذابِ والمغفرة والرِّضوانِ

اعلموا أيُّها النّاسُ أنَّ متاع الحياة الدُّنيا الذي عُجِّل لكم، ليس إلّا لعبًا تلهو به النُّفوس، ولهوًا تتفكَّه به القلوبُ، وزينةً تتباهَونَ بها، ومجالًا يُفاخِر فيهِ بعضُكم بعضًا بما أوتي من زَخارِفِها ورياشِها، وتكاثرًا بالأموالِ والأولاد، كمَثَلِ غيثٍ أنبَتَ نباتًا أبهَجَ الكُفّارَ نضارُه وخضرتُه، حتّى إذا أشرقَ، وازدانَ، وأدهَشَ الأبصار، لَم يلبَث أن يَيْبَس، ويصفرَّ بعد اخضرارِه، ثُمَّ يَغْدو حُطامًا تَذروهُ الرِّياح، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ للكافرين، ومغفرةٌ من اللّه تَعالى ورضوانٌ للمؤمنين به وبِرُسُلِه، فما هذه الزّينةُ العاجلة إلّا متاعُ الغرور، يَلْهو بها الغافلونَ، ويَزْهَد فيها العارِفونَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

مِن بيان الآخرة إلى تحذيرٍ مِنَ الاغترارِ بالدُّنْيا

فُصِلت هذه الآية عمّا قبلها؛ لأنَّ السّابقةَ سبَبٌ لهذه، فإنَّه لَمّا ذكر سبحانهُ في الآية السّابقة حالَ الفريقين: الأشقياءِ والسُّعداء، وتقرَّر بذلكَ أمرُ الآخرة، إمّا بإكرامٍ أو هوان، وكان سببُ الهوان

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حطم).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حطم).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 672.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 416 - 417.

فيها هو الإقبالَ على الدُّنيا لقُرْبِها وحُضورها، ونسيانَ الآخرةِ لغَيْبَتِها وتأخُّرها؛ أعقب ذلك باستِنتاجٍ ممّا سلف، مبيِّنًا به حقيقةَ ما يَرْغَب فيه المكلَّف، بِما رُكِّب فيه مِن شهوةٍ تَدعوهُ إلى العاجلة[1].

دلالَةُ تَصْديرِ الآية بصيغَةِ الأمْرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

إيقاظُ البَصائِر لحَقارةِ الدُّنْيا وخداعِ مَظْهَرِها

في تصدير الآية بالفعل ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تنبيهٌ بليغ يوقِظ القلوب والعقول؛ إيذانًا بأنَّ ما سيُلقى بعدها ليس كلامًا عابرًا، بل هو مِنَ الأهمّيَّة بمكانٍ، ويَستَوجِب توجُّه الذِّهن بكلِّ شُعَبِه وجوارحِه إليه[2]، وهو بيانُ حقارة الدُّنيا، وسَفْساف أمرِها؛ إذ لا تعدو كونَها لهوًا عابرًا، ولَعِبًا زائلًا، وزينة خدّاعة، تُلهي عن الآخرة، وتَفْتِن العقولَ عن المَصير الحقِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعِلْمِ دون غيره في قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

وعظٌ يُبَيِّنُ زيفَ الدُّنيا وضعْفَ منزِلَتِها

عُبِّرَ بفعل العلم في قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ دون غيره من أساليب التَّنبيه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ وعظٍ وتَبْصيرٍ لوضاعَةِ أمْرِ الدُّنيا، وهوانِ شأنها[3]، يحتاج إلى إيقاظِ العقول لا مجرَّد السَّمع؛ لِما يتضمَّنه من دعوة إلى التَّحقق والتَّيقُّن، لا الاكتفاء بالظَّنِّ أو الانفعالِ.

دلالَةُ ضمير الجمع في قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

خطابٌ ربّانيٌّ يعمُّ أهلَ الإيمان وأربابَ الكفرِ وساكني دركِ النِّفاق والهوانِ

ضمير الجَمْعِ - الواو - في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ دالٌّ على الاستغراق والشُّمول، فهو جامع لكلِّ مَن يتوجَّه إليه الخطاب دونَ استثناءٍ، فمؤمنُهُم يزدادُ بصيرةً، ومنافِقُهم يُكشَفُ له زيفُ تعلُّقه بالدُّنيا، وكافرُهُم يُقرَّع بما اغترَّ به، فهو خطابٌ يُحيط بالجميعِ[4].

بلاغَةُ القَصْرِ في مستهلِّ الآيةِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ أسلوبُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286 - 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 266.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 773.

قصرٍ، دلَّت عليه (إنَّما)، وهذا القصرُ يكمُنُ في حصر الحياة الدُّنيا في هذه الأوصاف الدَّنيئة، وهو قصر ادِّعائيٌّ يراد به التَّهوين والتَّقليل، لا نفيُ سائر الأحوال؛ لأنَّ الحياةَ تشتَمِلُ على أنواع شتّى مِنَ الأفعال، فكان القصرُ توبيخًا للغافِلين، وبيانًا لخَسارة مَن شَغَلَ عُمْرَهُ باللّهو الخادع عَن الغاية الباقِيَة[1].

زخـارفُ تَـغُـرُّ، ومآلٌ يَمُرُّ، فما هـيَ إلّا لـعِـبٌ ولَـهْـوٌ وتفاخُرٌ وكدَرٌ

دلالةُ الجُمْلَةِ الاسميَّة: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾:

الجملةُ الاسميَّةُ في قوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ فيها تشبيهُ الحياةِ باللَّعب، يفرح بها الإنسانُ كما يفرَحُ الطِّفلُ بلُعَبِه، ثُمَّ لا تلبث أن تزولَ، كما تَزولُ لُعَبُه وزينَتُه، وكلُّ ما يُفاخر به النّاسُ، ويُباهونَ من مالٍ وولد[2]، فهي بهجةٌ وقتيَّة تَغُرُّ، وتَخْدَع، ثمَّ تَنْقَضي، وتُنْسى.

حقيقةُ الدُّنيا: بهجَةٌ خادِعَةٌ ومَظاهِرُ زائِلَةٌ

دلالَةُ وصفِ الحياةِ بالدُّنيا في الآيةِ:

وصْفُ الحياةِ بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، يحمِلُ دلالةً بلاغيَّةً عميقةً؛ إذِ اختيرَ لها هذا الوصفُ لا لتَمْييزِها زمانًا فحسبُ بِكَوْنِها في هذه الدّار[3]، بل لبيانِ دناءَتِها وحقارَتِها، فهي سُفلى في المرتبَةِ، وضيعَةٌ في القيمة، لا تَزِنُ عندَ اللّهِ تَعالى جناحَ بعوضَةٍ[4]، وكلُّ ما فيها من زينَةٍ ولَهْوٍ ومَتاعٍ، إنَّما هو عَرَض زائلٌ.

دنـاءة الـدُّنـيا فـي لـفـظها ومعناها، فهو وصـف يكشف حقارتها وزيف متاعها

ويَحْتَمِلُ في وصف الحياة بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّها من الدُّنوِّ، أي: القُرْب؛ لكونِها أقربَ إلى الإنسان ما دام حيًّا؛ إذ هي الحاضرةُ المَشْهودَة، في متناول يدِهِ وبَصَرِه[5]، بخلاف الآخرة التي هي غيبٌ مؤجَّل.

الدُّنيا الدّانيةُ قُـرْبٌ في الـيَـدِ وخسرانٌ في المآلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 193 - 194.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 241.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 252.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 516.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 517.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، أي: الحياة المعهودة التي يَحْياها كلُّ أحد، والمعلومة عند النّاسِ، الموصوفة بالدُّنيا، أي: القريبةُ والأولى، وقد أُطْلِقَ عليها كذلكَ إمّا على أحوالها وتقلُّباتها، وإمّا على مُدَّتِها وأزمانِها المحدودة[1].

الحياة المعهودَةُ التي يَحْياها الجميعُ والمعروفَةُ لدى كُلِّ قريبٍ وبعيدٍ

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ دون الاكتفاء بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ الاقتِصار على ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في بَعضِ الآيات؛ لأنَّها تدُلُّ على استمرارِ الوُجود، وتجدُّد الأحوال، فَهيَ وصْفٌ يشمَلُ الحاضِرَ بكلِّ أحوالِهِ المُتَقَلِّبة[2].

وَصْفُ الحاضر المتقلِّبِ لا الزَّمان المجرَّد

ويجوز أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مدَّةَ الحياة التي يَقْضيها الإنسانُ في هذه الدّار الفانيَة، فهي حياةٌ تُمْدَحُ، أو تُذَمُّ بحسب ما يُستَثْمَر فيها، فمَن صَرَفها في طاعةِ اللّهِ تَعالى؛ كانت حياتُهُ خيرًا وبركة، ومَن قضاها في الغَفْلَةِ واللّهو؛ فقد أضاعَها فيما لا ينفَعُ، فاستَحَقَّت الذَّمَّ والتَّحقيرَ[3].

مدَّةُ الحياةِ بينَ الطّاعَةِ التي تَرْفَعُ، واللّهوِ الذي يَضَعُ

بلاغَةُ المجازِ بالحَذْفِ في قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾:

في قول اللّهِ تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ قدَّر فيهِ ما يدُلُّ عليه السّياق، كأنَّه قيل: اعلَموا أنَّ مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا وزينَتِها وتفاخُرِها وتكاثُرِها ولَعِبِها ولَهْوِها، أي: يتزيَّن النّاسُ بها، ويتفاخرون بالأموال والأولاد، ويتلهَّون بها، ويَلعَبون[4]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذه الأمورَ صارت كأنَّها هي الحياةُ نَفْسُها، من فَرْطِ استغراقِ النّاس فيها.

ويَجوز أن يكونَ قولهُ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مجازًا مرسلًا عن أمور الدُّنيا وشؤونِها بعلاقَةِ اللُّزوم[5].

مثل الحياة الدُّنيا في حقيقتها تزيُّن ولعب وتباهٍ زائل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 193.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 287.
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 250.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 527.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 369.

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ اللَّعب مُنَكَّرًا:

اللَّعِبُ في مَعناهُ الـواسِـعِ كـثيرٌ ومتنوِّعٌ في حياةِ الإنسانِ

استُعمِلَ لفظُ ﴿لَعِبٞ﴾ نكرةً؛ للدَّلالة على الكثرة والتَّنوُّع والعموم، فاللَّعب هو كلُّ قولٍ أو فِعْلٍ يُراد به المزاح والهزْل لتَمْضيَةِ الوقتِ، أو إزالة وحشةِ الوحدَة، أو دفع السُّكون، ويشمل اللَّعبُ إعمالَ الأعضاءِ وتحريكَها لسَدِّ وحشَةِ السُّكون، والهذيان المقصود لدَفْعِ وحشة السُّكوتِ، ويتضمَّن العبثَ والمزاح، كالتَّودُّد إلى المرأة، أو التَّلطُّف مع الطِّفل[1].

سِرُّ التَّعبير بالاسم ﴿لَعِبٞ﴾ دون الفعلِ:

بـيـانُ حـقـارة الدُّنيا وقِصرها مقارنةً بالآخرةِ

عُبِّر بالاسمِ في قوله: ﴿لَعِبٞ﴾ دون الفعلِ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثَّبات والاستمرارِ، فجَمعَ بين دلالة الثَّبات في الصّياغةِ، وبينَ التَّحقير في المَضمون؛ للدَّلالة على مُبالغَةٍ في وصف تفاهةِ الدُّنيا، وقِصَر مدَّتها؛ إذا ما قورنَت بالأخرى الباقيَةِ[2].

دلالَةُ عَطْفِ اللّهو على اللَّعِب:

اللَّعب ترغيبٌ في الدُّنيا، واللّهوُ تـشـتـيـتٌ عـن الآخرة

عُطِفَ اللهْو على اللَّعب في قول اللّه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلًّا منهما يصوِّر جانبًا من غرور الدُّنيا، فاللَّعب ما يرغِّب النَّفسَ فيها بما فيها مِن مُتْعَة وزينة ولذَّة عابرةٍ، وأمّا اللّهوُ؛ فهو ما يُشْغِلُ القلبَ، ويَصْرِفُه عن الآخرة وواجباتِها[3].

سِرُّ تقديمِ اللَّعِبِ على اللّهو هنا، وتأخيرِه في بعضِ المواطن:

تـصويرٌ لـتَـدَرُّج الـغـافـلـينَ في لهوِ الدُّنيا، مِنَ العَبَثِ الظّاهِرِ إلـى الافـتـتـانِ الباطنِ

لَمّا كان السّياقُ سياقَ خسارةٍ وندامة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾؛ بُدِئَ باللَّعِب، وقُدِّمَ في الذِّكر؛ إذْ هو أكثر ما يورِثُ الخَسارةَ؛ لِما فيهِ مِن إشْباعٍ للهَوى، وإرضاءٍ للنَّفس على وجهِ غيرِ مشروع، ثُمَّ ذُكِرَ اللّهو متأخِّرًا، وهو ما يُعْجِبَ النَّفسَ، ويَفْتِنُها

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 401.

(2) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 7/ 307.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 480.

من زخرف القولِ والغناء والزّينة، فهو سببٌ للغَفْلَة وصَرْفٍ عن الطّاعة، فجاء تأخيرهُ دلالةً على أنَّ الجهّال كلّما كلَّت نفوسُهم من اللَّعب؛ بعَثوا الشَّهواتِ بالمَلاهي[1].

اللَّعب أوّلُ الفتنةِ، واللّهو آخرُ الغفلةِ في ترتيب المعنى بين البدء إلى المُنْتَهى

وقُدِّم اللَّعبُ على اللّهو في هذا الموضِع أيضًا؛ لأنَّ اللّعِبَ يُعَبِّر عن لهوِ الطُّفولة المبكِّر، واللّهوَ عن شهواتِ الشَّباب اللّاحقة، فكان التَّرتيبُ تَبعًا لتَسَلسُلِ مراحل العمر، بينَما في سورتَي الأعرافِ والعنكبوتِ قُدِّم اللّهو؛ لأنَّه أظهَرُ أثرًا، وأشدُّ فتنةً في سياق زوال الدُّنيا، أو مشهد الآخرة، فجاء التَّرتيب باعتبارِ المآلِ لا الابتداءِ[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَلَهۡوٞ﴾ مُنَكَّرًا:

تعدُّد وجوهِ الصَّرف عَن الحقِّ بتنوُّع المُلهيات

جاء لفظ ﴿وَلَهۡوٞ﴾ نكرَةً لتَوْسيعِ الدَّلالة، واستيعابِ ضُروبِ اللّهو، وتنوُّعِ مَظاهِره، فهو يَشْمَلُ كلَّ ما يَشْغَل عنِ الحقِّ، ويُلْهي عن الغايَةِ، وكلَّ ما أُريدَ به غيرُ وجهِ اللّه تعالى، واللّهو يشمَلُ الأكل والشُّرب، وقيل: اللّهو هو النِّساء[3]، وكلُّ ذلك من مظاهر الانصراف عن الجدِّ، والانغماسِ في زينةٍ زائلَةٍ لا تُثْمِرُ صلاحًا ولا تَقرُّبًا.

سِرُّ عَطْفِ الزّينة على اللهوِ في قولِه: ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾:

حين يُجَمِّلُ الفَتى فُتوَّته، وتُجاهِدُ المرأةُ انطِفاءَ أنوثَتِها

عُطِفَت الزّينةُ على اللهوِ[4]؛ لأنَّ التَّزيُّن يكثر في طَوْرِ الفُتوَّة، حين يبدأ الشّابُّ يَستَشعِر أُفولَ نَضارةِ الصِّبا، فتراه يتعلَّق بمظاهر التَّجمُّل؛ ليُطيل وهجَ الشَّباب، وتزداد المرأةُ التي كانت غانيَةً حِرْصًا على الزّينة، لا لأنَّها تتعرَّض بها للرِّجال، كما يتوهَّمهُ الرِّجال فيهنَّ غرورًا بأنفُسِهم، بل لتَبْدوَ في عيونِ النّاس - رجالًا ونساءً - بهيَّةً في الحُسن، كاملةَ المَظْهَر، وكأنَّها تُقاوِمُ بطَيْفِ الزّينة غروبَ الأنوثة[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 92 - 93.
(2) النيسابوري، غرائب التفسير: 1/ 365 - 366.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 374.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 774.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 402.

دلالَةُ استِعمالِ لَفظِ ﴿وَزِينَةٌ﴾ نكرَةً، وإيثارِها على لفظِ (زخرف):

استُعمِلَ لفظُ ﴿وَزِينَةٌ﴾ نكرةً لدلالَتِها على أشياءَ كثيرةٍ، "مِن الملابسِ والمراكِبِ والمَنازِل الحسنَةِ"[1]، واستعمال هذا اللَّفظِ بعَيْنِه دونَ غيرِه مِن مثلِ (الزُّخرف)؛ لأنَّ الزّينة أوسعُ دلالةً؛ إذ تشمَلُ ما هو مادّيٌّ ومعنويٌّ، ذاتيٌّ وظاهريٌّ، بخلافِ الزُّخرف الَّذي يختصُّ بالمظهَرِ الخادِع، لا الجوهر النّافع، فالزّينةُ قد تكون في اللِّباسِ أو المَسْكَن أو الهَيْئَة، وقَد تكونُ في المَعْنى والسُّلوك، كما في مكارمِ الأخلاق، وما يُعرَف في أصولِ الفِقْهِ بالتَّحسينيّات[2].

جمعٌ بين الحسّيِّ والمعنويِّ، والنّافع والتَّحسينيِّ، في مقابل زُخرفٍ يُبْهِر، ولا يُثْري

سِرُّ التَّعبير بالتَّفاخُرِ دونَ (الإعجاب) في قوله: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالتَّفاخُرِ دون الإعجابِ، في قول اللّه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ لِما في التَّفاخُرِ مِن دلالةٍ على التَّباهي وادِّعاءِ الفضْلِ وإظهارِ المزيَّةِ، بخلافِ الإعجابِ فلا يكونُ مذمومًا في جميعِ صوَرِه، ثُمَّ إنَّ الإعجابَ عَمَلٌ قلبيٌّ قاصِرٌ على صاحبِه، بخلاف التَّفاخُرِ فإنَّه يظهَرُ على المُفاخِرِ، فيتعدّى أثرُهُ إلى غيرِه.

الإعجابُ عمَلٌ قلبيٌّ، والتَّفاخُر مظهَرٌ خارجيٌّ

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَتَفَاخُرٌۢ﴾ دون (فَخْر):

جاء التَّعبير بصيغة التَّفاعلِ في قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ﴾ بدلًا من (فخر)؛ لأنَّ في صيغة التَّفاعل إيحاءً بالمشاركة والتَّبادلِ بينَ طرَفَيْنِ أو أكثرَ[3]، وهي مِن خصائص هذه الصّيغةِ في لِسانِ العرَبِ، فالتَّفاخُرُ لا يكونُ مِن طرَفٍ واحِدٍ، بل هو تباهٍ متبادَلٌ، ومجالسة يتصاعَدُ فيها ذِكْرُ المحاسن والمآثر على سبيلِ المُنافسَة أو المُباهاة، أمّا الفَخْرُ؛ فَهو مجرَّدُ إخبارِ الذّات بمحاسنِها، حقًّا كانَتْ أو باطلًا[4].

التَّفاخر تَباهٍ في ادِّعاء الفَضْلِ، لا مجرَّد الإخبارِ بالمَنَاقِبِ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 402.
(3) الزّمخشريّ، المفصل، ص: 371.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 402.

دلالَةُ إتْباعِ التَّفاخر بعدَ ذِكْرِ الزّينةِ:

التَّفاخر ثمرة الزّينة؛ إذا فُقِد المقصدُ، وتعلَّق القلبُ بالمظْهَر

أُتْبِعَت الزّينةُ بالتَّفاخر في قول الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ لبيان ثَمَرَتها[1]؛ إذْ كثيرًا ما تُفْضي الزّينة إلى التَّباهي، فالتَّفاخر نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لتعلُّق القلب بمظاهرِ التَّجمُّل، وطلبِ العلوِّ بها على الآخرينَ.

دلالَةُ ذِكْرِ التَّفاخر بعدَ ذِكْرِ اللَّعب واللّهو:

غَلَبَةُ التَّفاخُر في طَوْرِ الكهولة، فهو زَهْوُ الأشُدِّ وسَعْيُ المَجْدِ الظّاهر

ذُكِر التَّفاخُر بعدَ اللَّعب واللّهو؛ لأنَّ التَّفاخرَ يَغْلِب في طَوْرِ الكُهولة واكتمالِ الأشدِّ، فهو زمنُ الإقبال على الأفعالِ التي يُراد بها تحصيلُ المَجْدِ والفَخْرِ وادِّعاءِ المكانَة[2]، بعد أنْ كان الطّورُ السّابقُ مَشْغولًا باللهْوِ واللَّعب، فكأنَّ الآية تَرْسُم تدرُّجَ الإنسانِ في أطوارِ عُمُرِه.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِقَوْلِه: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾:

حَصْرُ التَّفاخر في دائرة الشَّهوات والمباهين

استُعمِلَ لفظُ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، مع أنَّ التَّفاخر صيغةٌ تَقْتَضي وقوعَ الفعل بين طَرَفَيْن أو أكثر؛ ليُفيدَ خُصوصيَّةَ هَذا التَّفاخر، وانحصارَهُ في دائرةِ أهلِ الدُّنيا وأربابِ الشَّهواتِ[3].

دلالَةُ استِعمالِ التَّكاثر دونَ الكثْرَة:

المُبالغةُ في الاستِكثارِ مِنَ الأموالِ والأولادِ والحِرْصِ عَلَيهما

اختيرت صيغَةُ التَّكاثُرِ دونَ الكثرة؛ للدَّلالةِ على المُبالغَة والمُغالَبَة؛ إذ صيغَةُ (التَّفاعل) تُفيد أنَّ كلَّ طرف لا يرضى أن يكونَ الأقلَّ، بل يُسابِق غيرَه؛ ليَغْلِبَهُ في وفرة المالِ وكثرة الأولاد[4]، فليس المقصودُ مجرَّدَ حصول الكثرة، بل التَّفاخر بها، والتَّنافس عليها، حتّى تُصبح الكثرةُ نفسُها ميدانَ صراعٍ ومفاخرة، يُلهي عنِ الغاية، ويحبِسُ النَّفسَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 403.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 287.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 403.

في دائرة التَّسابُقِ على الدُّنْيا الفانيَةِ، وفي هذه الصّيغة تصويرُ حالٍ أشدَّ إيغالًا في التَّعلُّق بالدُّنيا، فهو ليسَ مجرَّدَ كثرةٍ تُذْكَرُ، ولا مباهاةٍ تُرى، بل تكالُبٌ مَحْمومٌ، واستزادَةٌ لا تُشْبِع، فالمعنى: أنَّ بعضكم يُفاخر بعضًا بكثرة ما يملك من الأموال والأولاد(1).

سرُّ مجيءِ اللَّعِبِ واللهْوِ والزِّينة على غيرِ صيغة (تفاعُلٍ)، بخلاف التَّفاخر والتَّكاثر:

اللَّعب وأضرابهُ قد يكون عملًا فرديًّا، والتَّفاخر والتَّكاثر يَقْتَضيانِ المُشاركة

جاء التَّعبير عن اللَّعب واللّهو والزّينة بصيغ خاليَةٍ مِنَ إفادةِ المشاركَة؛ لأنَّها أفعالٌ يُمْكِنُ أن تقعَ مِن الفَرْدِ وحدهُ، يَتَفكَّه بها، ويَستَمتِع، ويُغْرِقُ في زخارِفِها دونَ حاجة إلى طرَفٍ آخرَ، أمّا التَّفاخرُ والتَّكاثُر؛ فجاءا بصيغةِ التَّفاعل؛ لأنَّهما لا يتحقَّقان إلّا بين اثنين أو أكثر، يتباهى كلُّ طرفٍ على الآخر، ويتنافَسُ معَهُ في المالِ والولَدِ والمكانَة.

بلاغَةُ البَدْءِ باللَّعِبِ والانتهاءِ بالتَّكاثر في الأموالِ والأولادِ:

مِن عبَثِ الطُّفولة إلى تكاثُرِ النِّهايَةِ وفناء الغايَة

بُدِئَ بذِكْرِ اللَّعب، وخُتِمَ بالتَّكاثُرِ في الأموال والأولاد في ترتيبٍ مُحْكَم يُجاري أطوارَ الإنسان في حياته؛ فتبدأُ باللَّعِب، وتَنتَهي بالتَّكاثُرِ في مسارٍ يرسُم حياة الإنسانِ مِنَ المَهْدِ إلى الأربعين؛ إذ تتوالى أحوالُه في دوراتٍ مِن ثماني سِنين، فاللَّعِبُ زينَةُ الطُّفولَة، واللّهو لهفَةُ الفُتوَّة، والزّينة عنوانُ مرحلَةِ التَّجمُّل والاعتداد، والتَّفاخر سمَةُ عُنْفوان الشَّبابِ وشَراراتُ الأنانيَّةِ، ثُمَّ يأتي التَّكاثُر ذروة التَّعلُّق بالدُّنيا، والانغماس في مغانِمِها ومَفاتِنها، فإن تَنبَّه المرءُ عند الأربعين - إذ يَكْتَمِل نُضْجُه العقليُّ، ويتفكَّر في المصير - كان ذلك بدايةَ فلاحِه، وزمن تزوُّده لمعادِه، وإلّا خَسِر خسرانًا لا يُجْبَر، وضلَّ عن الغايةِ ضلالًا لا يُردُّ(2).

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 193.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 303.

سرُّ تخصيصِ المذكوراتِ الخمسةِ بالذِّكْرِ:

خُصَّت المذكورات الخمس دون غيرها في قوله تعالى: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾؛ لأنَّها تمثِّل خلاصة ما تنشغل به النُّفوس في دُنْياها، وهي أصولُ الانصراف عَنِ المقاصِد العاليَة، والتَّلبُّس بما يُلْهي، ويُغْوي، وهذا التَّرتيبُ لمفاتنِ الدُّنيا من اللَّعب وسواهُ يَكْشِف عَن تفاوُتِ هذه المَظاهِر في أثَرِها، ويفضَحُ مراتِبَ الغَفْلَة، فبدأ باللَّعب؛ لأنَّه أشدُّها ضررًا؛ إذ يستهلِكُ الجَسَدَ والعقلَ فيما لا طائلَ تحتَهُ، ثُمَّ اللّهو، وهو أهونُ منه، لكنَّه يُلْهي القلبَ والوجدان، ثمَّ الزِّينة، وهي وسطٌ بين اللّهو والتَّفاخر[1]؛ لأنَّها تشغل الظّاهر دونَ الباطِنِ، فجاءَ التَّدرُّج من اللّهو الفرديِّ إلى العِلَلِ الجماعيَّة.

مِنَ اللَّعب إلى التَّكاثر كَشْفٌ لِوَهْمِ الحياةِ

بلاغةُ التَّعْبير بالظَّرفيَّة ﴿فِى﴾ معَ الأموالِ والأولادِ:

جاء التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾؛ تصويرًا بديعًا لحالِ الإنسان مع مظاهر الثّراء والنَّسل، فهي ليست أشياءَ يتكاثَرُ بها، بل هي الأوعيةُ التي غاصَ فيها، والمجالات التي انغمَسَ في طَلَبِها، حتّى غدا كَمَن يَنْزِعُ في بئر لا يَخرج منها، بَل يغورُ فيها، فكانت ظرفيَّةً مجازيَّة تُجسِّد التَّعلُّق والانغماس، أو تعليليَّة تُفصح عن باعِثِ التَّكاثُر ودافِعِه[2]، فكأنَّ الأموالَ والأولادَ أصبحَت وعاءً يُغْتَرَف منهُ بلا ارتواءٍ، فليست المسألَةُ مجرَّدَ زيادَةٍ، بل هي غوصٌ في بحر لا ساحلَ له.

ظرفيَّةُ التَّكاثُر والانغماسِ أمْ علَّة الالتحامِ ودافِعُ التَّفاخُر

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ محلِّ التَّفاخر كما ذُكِرَ مَعَ التَّكاثر:

لَم يُذْكَر محلُّ التَّفاخُر، كما ذُكِرَ معَ التَّكاثر؛ لأنَّ التَّفاخُر أوسَعُ مجالًا من التَّكاثُر، فقد يقَعُ التَّفاخر بينَ مَن لَهُ مالٌ وولَدٌ مَع مَن لا مالَ لَهُ ولا ولد، فيَتَباهى عليهِ بِما عندَه، فهو لا يَقْتَصِر على المال

المفاخرةُ أوسَعُ ميدانًا، فتقَعُ بين مَن يملِكُ ومَن لا يملك، والتَّكاثر لا يكون إلّا بين الأندادِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 775.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 403.

والولد، بل يشمَلُ الصِّفاتِ الفانيَةَ الزّائلة، كتفاخُرٍ باللَّقَب والنَّسب، أو تفاخر بالقوَّة والقُدرَة والصّورة، أمّا التَّكاثر؛ فلا يكون إلّا بين مَن يَملِك المالَ والولدَ مَعَ مَن يملِكُ مثله[1]، فيُسابِقُهُ طلبًا للغلبةِ في العدَد.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالأمْوالِ جَمْعًا:

نافذَةٌ على شهوةِ التَّكاثر وزَيْف الغِنى

استُعمِل لفظُ ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ بصيغة الجَمْع؛ لتصويرِ غلَبَةِ التَّكاثُر والازديادِ في ما يَمْلِكُه الإنسانُ من أموالٍ، فتَتَعَدَّدُ الأموالُ، وتتنوَّعُ ولا تقِفُ عند مقدارٍ محدودٍ، بل هي في اتِّساعٍ دائمٍ لا ينضَب، دالَّةٌ على شهوةِ التَّكاثر، والتَّمسُّك بالمادّيّاتِ التي تأسِر القلوبَ، وتُلْهي الأفهامَ.

دلالةُ التَّعريف بـ (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ دون الإضافة (أموالكم):

أمـوالٌ ملوَّثةٌ مكتسبَةٌ مِنْ غير حلٍّ؛ مباهاةً وتطاولًا على أولياء اللهِ تَعالى

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ بـ (أل) دون التَّعريفِ بالإضافة (أموالكم)؛ لتُبيِّن أنَّ هذه الأموال ليست أموالَهُم التي اكتَسَبوها بالحلال، بل هيَ أموالُ مباهاةٍ ملوَّثة بجَمْعِ ما لا يحلُّ لَهم، فيَتطاوَلُ بِها مع الخدمِ والذُّرّيَّةِ على أولياء اللّه تعالى وأهل طاعته[2].

سِرُّ عطفِ (الأولاد) على ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾، ودلالَةُ الجَمْعِ بينَهما:

موروثُ التَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ الجاهليِّ بينَ المالِ والولَدِ

عُطِفَ (الأولادُ) على ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، معَ الجمعِ بينَهُما؛ لأنَّهُ تصويرٌ بليغٌ لموروثِ الجاهليَّة، حينَ كانَت العزَّةُ تُقاسُ بكثرةِ المالِ، ووفرة البنين[3]، فكأنَّه يَعْرِضُ مرآة النَّفس الدُّنيويَّة التي لا تَرى الفَخْرَ إلّا في عَدَدٍ وعُدَّة، لا في تَقْوًى ولا فضيلةٍ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ جَمْعًا:

الأولادُ يَشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ

جاء التَّعبيرُ بالأولادِ جَمْعًا في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ ليناسِبَ مَعْنى التَّكاثُرِ؛ إذ لا يتحقَّقُ التَّكاثُرُ إلّا بزيادةِ العدَد.

---

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 374.

(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 250.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 255.

دلالَةُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ عَلى (الأولادِ):

قُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ عَلى (الأولاد)؛ لأنَّ الأموالَ أعَمُّ وأشمَلُ، فهي حاضرةٌ في يَدِ كلِّ أحد، قلَّت الأموالُ، أو كَثُرَت، أمّا الأَوْلاد؛ فكثيرٌ مِنَ النّاس، لا يُرْزقونَ بهم[1]، فجاء التَّقديمُ مُراعيًا لواقِعِ الغلَبَةِ في الوُجود، ومجسِّدًا لطبيعةِ التَّكاثر في المادَّةِ قبلَ النَّسْلِ.

مُراعاةُ عُمومِها وشُمولِها لكُلِّ فَرْدٍ بِخلافِ الأولادِ

سِرُّ اختِصاصِ سورةِ الحَديد بهذه المذكوراتِ الخَمْسَةِ:

اختَصَّت سورة الحديدِ بذِكْرِ هذه المذكوراتِ الخَمْسَة، على خلافِ مواضِعَ أُخَرَ التي اقْتُصِر فيها على ذِكْرِ اللهْوِ واللَّعِب؛ لأنَّها تمثِّل أبعادَ الفِتْنَة الدُّنيويَّة بكُلِّ وُجوهِها، وتُجسِّد مدارجَ الاغترارِ بحُطامِها، فهي دوائرُ المِحْنَةِ التي يدور فيها أهلُ الغَفْلَة، ومهاوي الدّاء لمن أُشرِب قلبُه حبَّ الدُّنيا، وصرعَتْهُ زينَتُها، وقد انتظمت في هذه الآية على نحو متدرِّج من اللَّعب الباطنِ، إلى اللّهو المجلوب، ثمَّ الزّينة الظّاهرة، فالتَّفاخر المبنيُّ على المظاهر، ثمَّ التَّكاثر بالأموال والأولاد الذي يُفضي إلى التَّنافس المَحْموم[2].

دوائِرُ الفِتْنَةِ الخَمْسِ في الدُّنيا هي مدارِجُ الاغتِرارِ ومَهاوي السُّقوطِ

سِرُّ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَ قول اللّهِ تَعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ الجملة مستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، فمَثَلُ الحياةِ كمثَلِ ذلكَ الغَيْثِ الذي يُعْجِبُ الكفّارَ نباتُه[3]، وفيها تجسيدٌ لحالِ الاغترارِ الزّائفِ ببَهْرَجِ الحياةِ وزينَتِها الخادِعَة.

استئنافٌ دالٌّ على تَمْثيلِ بَهْرَجِ الحياةِ بِغَيْثٍ يُعْجِب الكفّارَ نباتُه

سِرُّ التَّعبيرِ بالكافِ دونَ الاكتفاءِ بالمثَلِ في قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾:

جاء التَّعبير بالكاف في قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾، دونَ الاكتفاءِ بلفظ (مَثَل)؛ لتُضْفي الكافُ على صورةِ المثَلِ طابعًا تصويريًّا حيًّا،

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 348.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 775.
(3) الإيجي، جامع البيان: 4/ 266.

تصويرُ مظاهِرِ الدُّنيا في صورةٍ حسّيَّةٍ ماثلةٍ أمامَ العَيْنِ

وكأنَّها تفتتح مشهدًا محسوسًا أمام البَصَر، فالكافُ هنا في موضع رفْع مِن وجهَين؛ إمّا على أنَّها صفَةٌ لخَبَرٍ محذوفٍ، أي: إنَّ الحياةَ الدُّنيا وما فيها من لَعِبٍ ولَهْوٍ وزينةٍ وتَفاخُرٍ هي في حقيقتِها كالغَيْث، أو على أنَّها خبَرٌ بَعْدَ خبَرٍ؛ تكريرًا لتأكيد وجه الشَّبه، فالحياةُ الدُّنيا مثلُ غيثٍ أنبتَ نباتًا أعجب الكفّارَ حُسْنُه وزَهْوُه[1]، ثُمَّ لا يلبَثُ أن يَذْبُل، ويصيرَ حطامًا، كما تَذْبُلُ بهارِجُ الدُّنيا، وتَضْمَحِلُّ مع الأجلِ.

سِرُّ التَّعبير بالمثَلِ دون الشَّبَهِ:

تَجْسيدُ صورةِ الحياةِ بكلِّ تقلُّباتِها وتَفاصيلها

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ (مثل) دون (شبه)؛ لأنَّ التَّمثيل هُنا هو النَّبات[2]، وهو أدقُّ إذْ لا يَقْتَصِرُ على وجهٍ واحدٍ مِنَ المُشابهَةِ بخلافِ لفظِ التَّشبيه، فلفظُ التَّمْثيلِ يُجسِّد الصّورة بجميع تفاصيلها وتحوُّلاتها، وكأنَّك تراها رأيَ العَين، وقد جاءَ المَثَلُ؛ ليُصَوِّر تقلُّبَ الدُّنيا، وزوالَ بَهْرَجِها تصويرًا واقعيًّا حيًّا، لا يبلغُهُ التَّشبيهُ المُجَرَّدُ.

بلاغَةُ القرآن الكريم في تشبيه هيئة أهل الدُّنيا:

نباتُ الغرورِ ومآلُ الحُطامِ في تَصْوير قرآنيٍّ لزيْفِ الدُّنيا وعاقبَةِ الجُحود

صَوَّر القرآنُ الكريم هيئةَ أهلِ الدُّنيا ومآلَهُم في مشهدٍ بديعٍ، فقد شبَّهَهُم بِنَباتٍ أنْبَتَهُ الغيثُ، فاخضرَّ، وأُعْجِبَ الكفّارُ الجاحدين بنضارتِه، فركنوا إليه اغترارًا ببهرجِه، فجاءت العاهَةُ مِن حيث لا يَحْتَسِبون، فهاج، واصفرَّ، وتحوَّل حطامًا، في مشهد ينطِقُ بتقلُّبِ الدُّنيا، وسرعة فنائِها، وقلَّة جَدْواها، وجُعِلَ ذلك عبرةً لِمَن غفَلَ عن شُكر النِّعمة، كما صُنِعَ بأصحاب الجنَّةِ وصاحِبِ الجنَّتَين[3]، حين أعْرَضوا عن شُكر المُنْعِم، فجُعِلَ نعيمُهُم هباءً مَنْثورًا.

بلاغةُ بَدْءِ المُشبَّه به بالغيثِ:

الغَيْثُ مشهَدُ النَّشأة وموطِنُ الاغترارِ ومَصْدَرَ البهاءِ

افتُتِحَ التَّمثيلُ بالغَيْث دونَ غيرِه مِن مكوِّنات الصّورة؛ لأنَّ الغَيْثَ مبدَأُ الحياةِ ومصدَرُ النَّماءِ، وفي البدءِ بِهِ استحضارٌ لمَشْهَدٍ يَنبض

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 404.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478 - 479.

بالبَهْجَة، تُبْصَرُ فيهِ الأرضُ المَواتُ، وقَد انبَعَثَتْ، والنَّبات وقَد اهتزَّ، ورَبا، فابتِداؤهُ بالغَيث رَسَمَ الهَيئَةَ مِن مَبدَئِها، وأبرزَ مواقِعَ الحُسْنِ في أطْوارِها؛ ليُكْسِب المُشبَّهَ بهاءً وحُسْنًا يُغْري[1]، ويُهَيِّئَ الذِّهْنَ لانخداعٍ مقصودٍ بزُخْرُفِها قبلَ انكِشافِ زَيْفِها.

سِرُّ التَّعبير بالغَيْثِ منكَّرًا:

غيثٌ ذو نفعٍ عظيمٍ للنّاس يُحْيي الأرضَ ومَن عَلَيها

جاءَ التَّعبيرُ بالغَيْثِ نكرَةً؛ لما في التَّنكيرِ مِن دلالةٍ عَلى عِظَم شأنِه، وكثرتِهِ وبَرَكَتِه؛ إذِ المرادُ كونُه غيثًا عظيمًا يُغيث النّاس بعد شدَّةٍ حلَّتْ بِهِم، ويُحْيي الأرضَ بعدَ مَوْتِها، كما يُغيث الكلأُ الماشيةَ[2]، فجاء التَّنكيرُ مُفْعَمًا بالإيحاء بالكثرةِ والنَّفع والفرَجِ.

سِرُّ التَّعبير بالإعجابِ مادَّةً وصيغَةً:

تمام الحُسن وخصوصيَّة إسنادِهِ إلى الكفّار؛ لفرط افتِتانِهم بزينةِ الدُّنيا

اختيرَ لفظُ الإعجابِ في قوله تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لما في مادَّتِه وصيغَتِه من دلالةٍ عَلى بُلوغِ الغايَةِ في الحُسْنِ؛ إذِ الإعجابُ لا يكونُ إلّا بِما استَوْفى شُروطَ الحُسن في العَينِ والقَلْبِ معًا، وكان صدورهُ في الآية من الزُّرّاع الذين هُم أربابُ الخبرة والفِطْنَة دالًّا على أنَّ هذا النَّبات قَد بلَغَ مِن الإتقانِ مَبْلَغًا لا يُخْطِئُه البصَرُ الخبير، فهُم مَهْووسونَ بعاجِلِ الزُّخرف، مأخوذون ببَريقهِ الخادع، فجاء الإعجابُ من جِهَتِهم هم، لا لفَضْلٍ في النَّبات وحدَهُ، بل لفراغ نُفوسِهِم عنِ الاعتبار، وامتلائِها بتَعْظيمِ الدُّنيا، وتقديسِ ظاهِرِها[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بوَصْفِ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ للزُّرّاع:

توريَةٌ بينَ الزُّرّاع والكافرين، وبيانُ انبهارهِم بزينة الدُّنيا

استُعمِلَ وصفُ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾؛ لما تدلُّ عليه أصلُ المادَّةِ مِنَ السَّتْرِ، فالكفّار، جمع: كافر، وهو الذي يكفر الزَّريعة بتراب الأرض، والكفرُ هُنا بمعنى السَّتر، أي: ستر الزَّريعة عن الظُّهور، وقد أوثر هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 404.
(2) محمد الخطيب، أوضح التفاسير: 1/ 668.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 256.

اللَّفظ؛ لِما يَحْمِلُه مِن تورية تجمَعُ بين الكفّار الذين هم كافرونَ باللّه تَعالى، والزُّرّاع الذين يَسترون بذورهم في الأرض، ويأتي قوله تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ متوافقًا مع هذا المعنى؛ إذ إنَّ الإعجاب هنا صادِرٌ من الكفّار، وهُم أشدُّ النّاس تعلُّقًا بزخرف الدُّنيا، فلا أملَ لَهُم في شيءٍ بعدَها[1].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾:

إعْـجـابُـهُـم جميعًا بحُسْنِ الأرضِ وجَمالِها

﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ في الآية يجوزُ أن يُرادَ به الزُّرّاع - على الأصل اللُّغويِّ - إذ الكافر هو مَن يَكْفُر البذرة، أي: يغطّيها بالتُّراب، ويجوز أن يُراد به الكافرون بأعيانِهم؛ لِما في سياق المَثَلِ من إشعار بأنَّ الدُّنيا أشدُّ ما تُعْجِب الكافرين؛ إذْ لا يؤمنون بالبَعْث[2]، ولا يَرْجون ما وراءَها، فكان تعلُّقُهُم بزُخْرُفِها أعمقَ، وإعجابُهم بها أرسخَ، و(أل) في ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ يُرادُ به استغراقُ الجنسِ، وذلك لشدَّة حسنِ الأرضِ وجمالها؛ بحيث لم يبقَ أحدٌ مِنَ الزُّرّاعِ - أو الكافرينَ المنغمسين في التَّعلُّق بالدُّنيا - إلّا وقد أُعْجِبَ بها.

سِرُّ التَّعبير بالكفّار دونَ الكافرينَ:

تـعـدُّد الـدَّلالـة بـيـن الـــزَّرع والجحودِ باللهِ تَعالى في سياق الـتَّـحـذيـر مِـنَ الافتتانِ بالدُّنيا

عُبِّرَ بلَفْظِ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ دون (الكافرين)؛ لأنَّ الأوَّل يحتمل مَعنَيَين، أحدهما: الزُّرّاع على الأصل اللُّغويِّ؛ إذ الكافر مَن يَكْفُر الحبَّ، أي: يغطّيه بالتُّراب، والآخر: الكافرون باللّه تَعالى، الذين يُعَظِّمون الدُّنيا، ويُفْتَنون بزُخْرُفها[3]، بخلاف لفظِ (الكافرين)؛ فإنَّه لا يحتمل إلّا الجاحدين باللّهِ تَعالى وحده، دون الإشارة إلى الزَّرْعِ وأهلِه.

دلالَةُ تقديم المفعولِ على الفاعلِ في قوله: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾:

﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ مفعولٌ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 404.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 241.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 110.

بيانُ خصوصِ إعجابهم بالنَّبات وافتِتانِهم بزينَةِ الدُّنيا

و﴿نَبَاتُهُۥ﴾ مرفوعٌ على الفاعليَّةِ(1)، وقد قُدِّم المفعولُ على الفاعل على خلافِ الأصل؛ لإفادةِ التَّخْصيص والاهتمام، فليس كلُّ أحد يُعجَبُ بهذا النَّبات، بل الذين أَعْجَبَهُم حقيقةً هُم الكفّار؛ لِما في نفوسهم من تعظيمٍ للدُّنيا، وافتتان بزخرفها، بخلاف المؤمن الذي لا يقف عند حدودِ الإعجاب الظّاهريِّ، بل يتجاوزه إلى الاعتبارِ والتَّذكُّر.

سِرُّ تَخْصيصِ الإعجاب بالكفّار:

الكافِرُ يُعْجَبُ بالظّاهر، والمؤمِن يتأمَّل قدرة الخالِق سُبحانَهُ

في تخصيص الإعجابِ بالكفّار دون المؤمنينَ نكتَةٌ، فالمُؤْمِنُ إذا أبصر ما يُعجب النَّظر لم يقِفْ عند حُسنه الظّاهر، بل يرتقي بفكره إلى قُدْرَةِ خالقه، فيُعجَب بالصُّنعة لا بالصّورة، وينتَقِلُ قلبُه إلى ما أعدَّ اللّه لأهل طاعته في الآخرة؛ إذ مَطْمَحُ نظرهِ معقودٌ على محاسن الدّار الآخرة، فلا تَمتَدُّ عينُه إلى زهرة الحياة الدُّنيا إلّا اعتبارًا، بخلاف الكافر الذي يقف عند الظّاهر، ويُؤْخَذُ ببريق الدُّنيا، فلا يَرى وراءَها غايةً(2).

وعلى حَمْلِ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ على مَعنى الزُّرّاع؛ فإنَّ تخصيصَهُم بالذِّكرِ؛ لكونِهم أعرفَ النّاس بدقائِقِه، وأشدَّهم ولَعًا بحُسْنِهِ ونمائِه.

سِرُّ التَّعبير بالنَّبات عن الزَّرع النّابت:

بينَ دلالَةِ الكَثْرَةِ والمبالغةِ وتأثيرِ الانتِشار

عُبِّرَ بالنَّبات عن الزَّرع النّابت في قول اللّه تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لأنَّ النَّباتَ اسمُ مصدَرٍ من نَبَتَ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، وأُطْلِقَ هنا على النّابتِ بصيغَةِ المَصْدَرِ التي تُطلَق أحيانًا على الفاعل؛ للدَّلالة على الكثرة أو المبالغة، مع احتمالِ أن يُستَعمَل هذا اللَّفظ للمبالغة، فيَكْثر انتشارًا، فيزول معهُ قصْدُ المبالغة(3).

(1) ابن الأحنف اليمني، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 341.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 405.

دلالَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿نَبَاتُهُۥ﴾:

إعجابُ الكافِرِ الجاحِدِ ببَسْطِ الدُّنيا استدراجٌ إلهيٌّ

أُضيفَ النَّباتُ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، تُشير إلى نباتِ ذلك الغَيْثِ تحديدًا، فالإضافَةُ تبيِّن التَّبعيَّةَ والامتِلاك، وتوضِّح أنَّ الإعجابَ مُتَعَلِّق بما أنتَجَتْهُ تلكَ الأمطارُ، أمّا الإعجابُ الذي يُبْدِيهِ الكافر؛ فهو غالبًا مصحوبٌ ببَسْطِ الدُّنيا له، باعتبارِهِ نوعًا مِن الاستدراجِ الإلهيِّ[1].

بلاغَةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في الآيةِ:

تصويرُ الحياة الدُّنيا بزَوالِها وغرورِ افتتانِ أهْلِها بِزُخْرُفِها

في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ استعارة تَمْثيليَّة بليغَةٌ، تُصَوِّرُ بها الحياة الدُّنيا في عَجَلَتِها الزّائِلَة، وضَعْفَ أثَرِها الذي لا يَدومُ، كما هو شأنُ النَّبات الذي أنْبَتَهُ الغَيْثُ؛ إذْ سُرْعانَ ما يَستَوي، ويُعجَب به الزُّرّاع أو الكفّار، غيرَ أنَّ كلا الفَريقَيْنِ يتَّفِقُ على شدَّة افتِتانِهِم بزُخْرُفِ الحياة الدُّنيا، وانبهارِهِم الزّائف بجَمالِها الزّائل[2].

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دونَ الفاءِ في قوله: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾:

اصفِرارُ النَّباتِ نذيرُ الفَواتِ، ودليلُ الزُّهدِ في المُتَعِ واللَّذّاتِ

جاء العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ لا بالفاء؛ لِما فيهِ مِنَ التَّرتيبِ مع التَّراخي[3]، وهو مع التَّراخي الزَّمنيِّ تراخٍ رُتبيٌّ أيضًا؛ إذِ ارتَقَت دلالةُ الاصفِرارِ من مجرَّد تحوُّل في الهَيْئَةِ إلى علامَةٍ صارخَةٍ عَلى دنوِّ الفناءِ والزَّوال، فتراخَت الرُّتْبَة؛ لتَبْرزَ شدَّة الزُّهد في زُخْرُف الدُّنيا ومَتاعِها[4].

دلالَةُ التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿يَهِيجُ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

هياجُ الزَّرعِ اضطرابٌ وثورانٌ، ودليلُ الغِلَظِ وقُرْبِ الذُّبولِ والهَوانِ

استُعمِل الفعلُ ﴿يَهِيجُ﴾؛ لما يَدلُّ عليه مِن سُرْعَةِ التَّحوُّل، وابتداءِ الجَفاف واليُبْس؛ إيذانًا بقُرْب الحَصاد[5]، فالهَياجُ في أصلِ مادَّته

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 289.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 470.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 469.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 405.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 289.

يُشير إلى الاضطرابِ والثَّوَران، ومنهُ: هياجُ البحرِ والثّائر، والزَّرعُ إذا اشتدَّ، وغلُظ؛ أَحدَثَ لحَرَكَتِه صوتًا كأنَّه ثائرٌ مُضْطَرِبٌ، فكان استعمالُ هذا الفِعْلِ في وصْفِه تعبيرًا بديعًا عن لحظةِ تحوُّلِه مِن النَّضارة إلى الانطفاءِ، ومن الخضرة إلى الذُّبول الصّاخب قبل الفناء[1]، وفي التَّعبيرِ بالفعلِ مضارعًا استحضارٌ للحالِ في ذهنِ المتلقّي كأنَّها حاصلةٌ وقتَ الخطابِ.

دلالَةُ التَّعْبير بالفاءِ في قوله: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

هياجٌ فاضْفِرارٌ، ثُمَّ انهيارٌ

جاء التَّعبيرُ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ دون (ثمَّ)؛ لتَدُلَّ على التَّسَبُّب وتوالي الأثَرِ، فكأنَّ الهياج العنيفَ بما فيه مِن اضطرابٍ وثَوران بعدَ اكتِمالِ النُّمو وتمام الخُضْرَة، لا يلبث أن يُفضيَ مباشرةً إلى الاصفِرار والانحِسار، فيتحوَّل بهاؤُه نُحولًا، وزهرتُه ذُبولًا[2].

نضارةٌ لَم تَدُم واصفِرارٌ اقترن بالجفافِ والعدَمِ

ويجوز أن تكون الفاءُ مُؤْذنةً بسُرعة التَّبدُّل، وتلاحق الأحوالِ الذي يُسَمّيه النَّحويون بالتَّعقيب[3]؛ إذ لم يَعُدْ بين نضارتهِ وذُبولِه فاصِلٌ يُذْكَرُ، فتراهُ مصفرًّا بَعْدَ أن كُنْتَ تَراهُ ناضِرًا مونِعًا؛ دلالةً على أنَّ الاصفِرار مقارِنٌ للجَفاف[4].

دلالَةُ التَّعبير بالرُّؤية في قولِه: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

في الرُّؤيةِ تحقُّقٌ ويقينٌ، والنَّظَرُ دونَ ذلك

عُبِّر بفعل الرُّؤية في ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ دون النَّظر؛ لِما يُشْعِرُ به فعلُ الرُّؤية مِنَ اليقينِ والتَّحقُّق مِن حالِ النَّباتِ بعد اصفرارِه، بخلافِ النَّظَر فإنَّه يدلُّ على توجيه العَيْنِ ولا يلزَمُ مِنهُ حصولُ اليقينِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 405.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 484.

(3) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 3/ 84.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 322.

(5) محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 133 - 136.

دلالَةُ الخِطاب في قوله: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

تعظيمُ المَشْهَدِ برؤية النَّبيِّ ﷺ

زاد السّياقَ جمالًا ووقعًا في النُّفوس إسنادُ الرُّؤية إلى النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾، فكان الخطابُ له تَشْريفًا، وفي الوقْتِ نفسِه تعظيمًا لمعنى المَشْهَد[1]، كأنَّ المعنى: تأمَّلْهُ أنتَ يا رسولَ اللّه، وأدرِكْ عِظَم التَّحوُّل وانهيار البَهاء؛ وذلك لِحَمْلِ السّامع على التَّدبُّر والتَّفكُّر، فهو خطابٌ يفيض مهابةً، ويستنهِضُ البصيرة، في تصويرٍ بليغٍ لتقلُّب الدُّنيا واضمحلالِ زينَتِها.

ويجوزُ أن يكون الخطابُ قد خرجَ عن أصلِهِ مِن إرادَةِ المشاهَدِ المعيَّن؛ قصدًا إلى إرادَةِ العموم، أي: فتراهُ أيُّها المخاطَبُ؛ وذلك لظهورِ هذا الذُّبولِ والاصفِرارِ بحيث لا يخفى على أيِّ راءٍ رأى ذلكَ.

دلالَةُ الإضمارِ في قولِهِ: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

تحقيرُ الحالِ التي آلَ إليها النَّباتُ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالإضْمارِ في قوله: ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ دون الإظهارِ، فلم يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (فترى النَّباتِ مصفرًّا)؛ وذلك لتقدُّم ذكرِهِ في قوله: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾، فالإشارةُ إليه بالضَّميرِ كافيةٌ ليُدْرِكَ المخاطَبُ معناهُ، كما أنَّ في الإضمارِ إيماءً إلى حقارةِ ما آلَ إليه شأنُ النَّباتِ، حتّى كأنَّه لم يعُدْ خَليقًا بإظهارِ اسمِهِ الصَّريح بَعْدَ أن فقَدَ بهاءَهُ ونضارتَهُ.

دلالَةُ التَّعْبير بقوله: ﴿مُصۡفَرّٗا﴾:

دلالَـةُ المُـضيِّ في مشهَدِ الذُّبول والاضمِحلالِ

استُعمِلَ لفظُ ﴿مُصۡفَرّٗا﴾ بدلًا من (أصفر)؛ لِما في الصّيغة من إيحاءٍ بالحالِ النّاتج عن فِعْلٍ سابِقٍ، فَهو لا يَصِفُ مجرَّدَ لونٍ، بل يُشير إلى تحوُّلٍ طرَأ، وزوالٍ بدأ، فكأنَّ الزَّرع قد مرَّ بدَوْرَةِ الجمال والبهاء، ثمَّ آلَ أمرُه إلى الاصفِرار؛ إيذانًا بالجفافِ والانتِهاء[2]، وفي هذا التَّعبيرِ تنبيهٌ خفيٌّ عَلى ماضَويَّة الحالِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 484.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 484.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 464.

سِرُّ اختيارِ لونِ الاصفِرارِ:

اختيرَ اللَّوْنُ الأصفر دون غيرِهِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾؛ لكونِ الصُّفرةِ اللَّوْنَ الأظْهَرَ في إفادةِ الذُّبول واليُبْسِ، فيكون فيه إيماءٌ إلى انطفاءِ الحياةِ بعْدَ إشراقِها.

سِرُّ التَّعبيرِ عَن الاصفرارِ بالاسمِ:

إثبـاتُ الـحـالِ واختِصارُ المآلِ

جاء التَّعبيرُ بالاسم في وصفِ الاصفرار دونَ الفعلِ، كأن يُقال: (فيَصْفَرُّ)؛ إيذانًا بثَباتِ الحالِ واستِقرارها لا مجرَّد حُدوثِها، فالصّيغةُ الاسميَّة توحي بأنَّ الزَّرع قد بلَغَ حالَ الاصفرارِ بالفِعل، لا أنَّه في طريقِهِ إليْها، وكأنَّ الجفافَ لَم يَعُد متوقَّعًا بل واقعًا مشهودًا، والمترتِّبُ عليهِ ليسَ مجرَّد التَّحوُّل، بل رؤيتُه على تلك الهيئةِ الموحيَةِ بالذُّبول والانطفاءِ[1].

دلالَةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الفاءِ:

تصويرُ مَشْهَدٍ مُتَدَرِّجٍ لانكِسارِ الحَياةِ

جاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ دون الفاءِ؛ إيذانًا بتراخٍ زمَنيٍّ يوحي بأنَّ ما بعدَ الجفاف ليسَ فورًا، بل يمرُّ بمرحلَةٍ مِن التَّيبُّس والجُمود والاضمحلال الصّامت، حتّى ينتهيَ إلى الحُطام، فتُصَوِّرُ ﴿ثُمَّ﴾ مشهدًا متدرِّجًا لانكسارِ الحياةِ، وتَناهي الذُّبول، وابيضاضِ الزَّرع، حتّى يصيرَ فُتاتًا هشًّا تذروهُ الرّياحُ[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَكُونُ﴾:

حُـطـامٌ يـتـكـرَّرُ وزوالٌ لا يتأخَّر

اختيرَ الفعلُ المُضارع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ بدلًا من الفِعْلِ الماضي؛ إشارةً إلى التَّجدُّد والاستمرار والتَّكرار، فالمَشْهَدُ ليس حدثًا مَضى، وانقَضى، بل يتكرَّر في كلِّ زَرْعٍ يَزْدَهِر، ثُمَّ يذبل، وفي كلِّ حياةٍ تَزْهو، ثُمَّ تَذْوي، فهو كَونٌ كأنَّهُ مَطْبوعٌ فيهِ ذلكَ[3]

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 210.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 289.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 289.

باعتبارِهِ مصيرًا دائِمًا يتجدَّدُ؛ ليُعمِّق في النَّفس معنى الزَّوال، ويُرسِّخ في الوجدانِ حقيقةَ الفناءِ.

سِرُّ إسنادِ فِعْلِ الكون للنَّباتِ وفعلُ الجَعْلِ في آيةٍ أُخْرى للهِ تَعالى:

يكونُ النَّباتُ حُطامًا بضَعْفِهِ، ويَجْعَلُهُ اللهُ تُعالى حُطامًا بقُدْرَتِه

فعلُ الكَوْنِ في قولِه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ﴾ مسنَدٌ إلى النَّبات؛ إذ هو الذي يتحوَّلُ، ويَنْتَهي إلى الحُطام بضَعْفِه، وأمّا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ [الزمر: 21]، فالفِعْلُ مُسْنَدٌ إلى اللهِ سُبْحانَه[1]؛ لما في السّياق من إظهار القُدْرَةِ الإلهيَّة التّامَّة في التَّصريف والتَّدبير، فحينَ يكون المقامُ مقامَ بيانِ قوانينِ التَّحوُّل الطَّبيعيَّة؛ كان التَّعبيرُ بالكَوْنِ المُسْنَد إلى المخلوق، أمّا حينَ يُراد إبرازُ سُلْطانِ اللّهِ تعالى على المَوْجوداتِ؛ فإنَّهُ اختيرَ الفعلُ ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾ [الزمر: 21] المسنَدُ إلى الرَّبِّ ﷻ؛ للدَّلالة على أنَّ ما يبدو طبيعيًّا إنَّما هو بِمَحْضِ إرادته وتقديره، فيتحوَّل الزَّرعُ بأَمْرِه إلى حُطام مُفَتِّت بالٍ، لا بفِعْلِ الزَّمَنِ وحدَهُ[2].

دلالَةُ التَّعْبير بالحُطامِ هُنا وبالهَشيمِ في سورة الكَهْف:

تَصْويرُ الفناءِ بقوَّة التَّحطيم لا مجرَّد الجَفافِ

اختير التَّعبيرُ بـ ﴿حُطَٰمًاۖ﴾ عَلى خِلافِ ﴿هَشِيمًا﴾ في سورةِ الكَهْفِ؛ لِما في لَفْظِ الحُطام من قوَّةٍ في الدَّلالة، وبلاغةٍ في التَّصوير؛ إذْ هو بناءُ مُبالَغَةٍ[3]، يدلُّ على ما تحطَّم، وتكسَّر، وانتهى إلى فُتات لا يُنْتَفع به، وهو أبلَغُ مِن الهَشيمِ الَّذي يُفيد الجفافَ دونَ الإشارة الصَّريحة إلى التَّحطُّم.

بلاغَةُ التَّمثيل في هذهِ الآيَة:

من غَيْثِ الحياةِ إلى حُطامِ الفناءِ في تمثيل قرآنيٍّ يُصوِّرُ تقلُّبَ الدُّنيا وزوالَ بَهْجَتِها

تتجلّى بلاغةُ التَّمْثيل في تصويرِ الحياةِ الدُّنْيا بأطوارِ الزَّرْعِ، في مشهَدٍ مُفْعَم بالحَيَويَّة في أوَّله، ثُمَّ لا يلبث أن يَنْقَلِب إلى ذُبولٍ واضمحلال، فالتَّشبيهُ هنا تشبيهُ هيئةٍ مُرَكَّبة بهيئة مثلها، ويُقْصَد به بيان تقلُّب أحوالِ الدُّنيا على نحوٍ محسوسٍ مَلْموسٍ، قابلٌ للمُشاهدة

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 349.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 484.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 267.

والتَّدبُّر، فأطوارُ الحياةِ مِنَ اللَّعب واللّهو والزّينة والتَّفاخر والتَّكاثر تُقابل أطوارَ الزَّرع من النَّبات عَقِبَ الغيثِ إلى الهيجانِ والنُّمو، ثمَّ الاصفِرار والتَّحطُّم، فاللَّعبُ واللّهو يقابلان أوّلَ الشَّبابِ وبدايات الاندِفاع، والزّينةُ والتَّفاخر تقابلانِ طَوْرَ النُّضج والقوَّة والازدهار، والتَّكاثرُ يُقابل ذروَةَ الإنتاجِ والثَّمر، ثمَّ يكونُ الانهيارُ: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾، كما في الكهولَةِ والشَّيْخوخَة والفناء، وهذا التَّمثيلُ البديعُ لا يَخْلو مِن دقَّة في التَّفصيلِ ومُقابلَةِ الأجزاءِ، ممّا يمنَحُ القارئَ صورةً متكاملةً لحَقيقَةِ الدُّنيا وتقلُّبها، حتّى ليكاد يُشاهد نفسَهُ في أطوارِ الزَّرع، ويتَبَيَّن خداع المتاعِ، وسُرْعَة الزَّوال[1].

دلالَةُ الواوِ في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

التَّحوُّلُ مِن الزّينَةِ الزّائلَة إلى العاقبةِ الخالِدَة

لَمّا فرغَ السّياقُ من تصويرِ حالِ الدُّنيا في زينَتِها الخادِعَةِ وسُرْعَة زوالِها؛ أعْقبَهُ بذِكْرِ مآلِها الحقِّ وآثارِها الباقيَة، فجاءتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عاطِفَةً على مقدَّر مفهومٍ مِنَ السّياق، كأنَّه يقول: هذا حالُ الدُّنيا في تقلُّبها وفنائِها واضمِحلالِها[2]، وفي الآخرة حيثُ المصيرُ الحقُّ جزاءً لِما اقترَنَ بها من عمَلٍ.

دلالَةُ التَّعبير بالآخرَةِ دونَ الدّارِ الآخرة:

طَيُّ ما دلَّ السّياقُ عليهِ إيجازًا واختِصارًا

جاءَ التَّعبيرُ بالآخِرةِ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ دون (الدّار الآخرةِ)؛ إيجازًا واختصارًا؛ إذ (أل) في الآخرة للعَهْدِ العلميِّ، فإطلاق الوصفِ يُفْهِمُ المقصودَ مِن غير حاجةٍ إلى التَّنصيص على الموصوفِ.

بَلاغَةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على المُبْتَدَأِ:

بيانُ شدَّةِ المَصير ودَوامِه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ - وهو متعلِّق الخَبَر - على المبتدأِ[3]، في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 406.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 290.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 250.

تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ تحقيقًا لأسلوبِ القَصْر؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ الشَّديدَ لا يُتصوَّر في الدُّنيا وإن اشتدَّ، بل هو في الآخرةِ وحدَها؛ إذ يَبْلُغُ الغايَة في الشِّدَّة والدَّوام، فكان هذا التَّقديمُ إيذانًا بتفرُّد الآخرةِ بِهَذا المَصير؛ تنبيهًا على خُطورَتِه، واستِحقاقه للتأمُّل والاعتبارِ.

غَرَضُ الخبَرِ في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾:

تقابلُ العذابِ والمغفرةِ بينَ التَّحذيرِ والتَّحريضِ في مصيرِ الآخِرَةِ

الخبَرُ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾، مستعمَلٌ في مقام التَّحذيرِ مِن أحَدِ المآلَيْن، والتَّحريض على الآخَر، وذلك بقرينَةِ سياقِ الآيَةِ الذي أبْرَزَ زَيْفَ الدُّنيا وسرعَةَ زَوالِها، فكانَ المقصودُ التَّوجيهَ لا الإخبارَ المَحْض، ولهذا لم يُبيِّن صراحةً أصحاب العذابِ، وأصحاب المغفرةِ والرِّضوان[1]؛ لاكتِفائه بِظُهورِهِم في السّياق؛ اعتمادًا على ما تقرَّر من أدلَّةِ العَمَل والجزاءِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَذَابٞ﴾ مُنكَّرًا:

تهويلُ العذابِ وفظاعَةُ المآلِ وعَجْزُ العقولِ عَن تَصَوُّرِه

اختير التَّعبير بـ ﴿عَذَابٞ﴾ نكرةً؛ للدَّلالة على فَظاعَةِ ما يُنْتَظَرُ في الآخرة، فالتَّنكيرُ هُنا يُفيد التَّهويلَ والتَّعظيم؛ إذْ يُطلَقُ المَعْنى بلا حدٍّ ولا قَيْدٍ؛ لِتَحارَ العقولُ في تَصَوُّره، ويَعْجِزَ الوصفُ عَن إدراك كُنْهِه، فهو عذابٌ لا يُشْبِهُه عذاب، ولا يُقاس عليه عِقابٌ، وهو أبلَغُ في التَّخويفِ والرَّدْعِ من كلِّ تعيين.

سِرُّ وصْفِ العذابِ بالشَّديد دونَ العَظيمِ:

بلوغُ العذابِ أقصى درجاتِ القَسْوَةِ والشِّدَّةِ

اختير وصفُ العذابِ بـ ﴿شَدِيدٞ﴾ دون (عظيم)؛ لما في الشِّدَّةِ من دلالةٍ على قوَّة الأثر وقسوة الإحساسِ، فهي تَصِفُ ما يلاقيه الكافرُ من ألمٍ وعذابٍ حسّيٍّ ونفسيٍّ بالغٍ لا يُحتمَل جزاءً وِفاقًا[2]، بخلاف (عظيم) فإنَّهُ قَد يُفهَم منهُ مجرَّدُ الكِبَر أو الهَوْلِ، دون الدَّلالةِ على شدَّةِ المُعاناة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 406.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1300.

سِرُّ عَدَمِ ذِكْرِ (من الله) معَ العذابِ، كما ذُكِرَ معَ المَغْفِرَة:

الإيماءُ إلى أنَّ الخيرَ هوَ المقصودُ أوَّلًا

جاءَ التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ مقرونًا بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون أن يُذْكَرَ مثلُ ذلكَ معَ قوله: ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾؛ تنزيهًا للمقامِ عَن نسبَةِ العذابِ صراحَةً إلى اللّهِ تَعالى في موضعِ بيان الرَّحمةِ والمَغْفِرَة، وإيماءً إلى أنَّ الخيرَ هوَ المقصودُ بالخِطاب ابتداءً، والرَّحمة هي الغالبَةُ في مشيئتهِ ﷻ[1].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾:

الآخرةُ بينَ عذابٍ سببُهُ الكفرُ، ومغفرة موجِبُها الإيمانُ

الواوُ في ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ تدلُّ على التَّقابل بينَ الأمرينِ في مقام الجزاءِ، ويرى بعضُ أهلِ العربيَّة أنَّ الواو في هذا الموضع تَحْمِلُ معنى (أو) بمعنى الاختيارِ والتَّفصيل، فالآخرة إمّا أن تكونَ دارَ عذابٍ شديدٍ لِمَنْ كفرَ، وجَحَد، وإمّا دارَ مغفرَةٍ ورضوانٍ لِمَنْ آمن، وعَمِلَ صالِحًا[2].

بلاغَةُ الكِنايَةِ في ذِكْرِ المَغفِرَة والرِّضوانِ:

المغفرة والرِّضوانُ هما جوهَرُ النَّعيم الرّوحانيّ

كُنّيَ عن النَّعيم بالمغفرة والرِّضوان؛ لأنَّ النَّعيم نوعان: مادّي وروحانيٌّ، فالمغفرة والرِّضوان هما أصل النَّعيم الرّوحانيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]، وهما يَقْتَرِنانِ بالنَّعيم المادّيِّ؛ إذ إنَّ أهلَ الجنَّة بعدما جَمَعَت ذواتُهم بين الأجسادِ والأرواح؛ كان هذان النَّعيمانِ مُناسِبَين لهُم تكثيرًا للَّذّات، وإشباعًا للطَّبيعة البَشريَّة؛ إذ إنَّ لذَّة الأجسام لا تستقيم إلّا بمُدْرَكاتِ الأرواح، والرِّضوانُ مِنَ اللّه تَعالى هو ما يُعطيهم أقصى ما بهِ تَلَذُّذُهُم، والمغفرةُ تَقْتَضي الصَّفحَ عَمّا قد يُعيق بلوغَ تلك اللَّذّاتِ[3].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 185.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 194.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 406.

دلالَةُ التَّنْكيرِ في قولِهِ: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾:

مغفرَةٌ تُنيرُ القُلوبَ، وتَفتَحُ أبوابَ النَّعيمِ في حَضْرَةِ الرَّحمنِ

نكِّر لفظُ ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾؛ ليزدادَ المَعْنى تعظيمًا[1]؛ إذْ ينقُلُ القلوبَ مِن مجرَّدِ الجَزاءِ إلى عظيمِ الرَّحمةِ والرِّضا الإلهيِّ، فتُشرِق الأنوارُ على أرواحِ المُؤْمنين، وتَتَلَألَأُ ظِلالُ الرَّحْمَةِ في جَنَباتِ قُلوبِهم؛ ليكونَ النَّعيمُ أكملَ وأسْمى في حَضْرَةِ الرَّحمنِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَغْفِرَةِ دونَ العَفْوِ:

المغفرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ، والعَفْوُ: تجاوُزٌ عنهُ، وقَد يَقْتَرِنُ بِهِ لَوْمٌ

جاء البيانُ القرآنيُّ بلفظِ المغفرةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ دون العَفْوِ؛ وذلك لأنَّ العَفْوَ قد يصحبهُ شيءٌ مِنَ اللَّوْمِ والمؤاخذةِ، بخلاف المغفرةِ فهي سترُ الذَّنب وتركُ إشاعتِهِ[2]، فكانت المغفرةُ أنسبَ لَمقامِ الرِّضوانِ الذي هو أعْلى درجاتِ القَبولِ.

دلالَةُ تقديمِ العَذابِ عَلى المَغْفِرَةِ:

في المقدَّمِ تنبيهٌ وتحذيرٌ، وفي المُؤَخَّرِ تمهيدٌ لفَتْحِ بابِ الأمَلِ

جاءتِ الحقيقةُ ماثلةً في تَقابُلِ الجزاءِ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾، فبُدِئَ بِذِكْرِ العذابِ الشَّديدِ تَهْييبًا وتنبيهًا؛ إذِ الأصلُ في الإنسانِ أن يُنذَر أوَّلًا؛ ليَكونَ حذِرًا متأهِّبًا، ثُمَّ تُفتَح له أبوابُ الأمَلِ بعدَ أن يتَحَرَّر من أسباب الخوف، فرتَّب اللّهُ تعالى في الآيةِ ما يُخشى قبلَ ما يُرجى، فكانَ التَّقديمُ للعَذاب مِن حكمةِ التَّذكير بالخَطَر، ثُمّ أردفَهُ بالمغفرة والرِّضوان؛ إشعارًا بأنَّ الرَّحمة مرصودةٌ لَمن استَجاب[3].

العذابُ ثمرةُ الاغترارِ بالدُّنيا وجزاءُ الانهماكِ في لَهْوِها وزينَتِها

وقُدِّمَ ذِكْرُ العذابِ في الآخرةِ؛ لكونِهِ ثمرَةَ الانهماكِ في لَهْوِ الحياةِ الدُّنيا وزُخْرُفِها[4]، وعاقبةَ مَن آثَرَ الفناءَ على البقاءِ، وقُدِّمَ العذابُ على المغفرةِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تحذيرٍ وتبكيتٍ لِمَن انخَدَعوا

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 210.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 318 - 319.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 267.

(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 371.

بزُخْرُف الدُّنيا، وأهْدَروا أعمارَهُم في لَذّاتها الفانيَة، ثُمّ خُتِم بالرِّضوان؛ إذْ هو الغايَةُ العُظْمى والنِّعمة الكُبْرى التي لا تُنال إلّا بعدَ دخولِ الجنَّة، ولا تكونُ إلّا من اللهِ تَعالى وحدَهُ(1).

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

تقييدُ المَغْفِرَة منهُ تعالى لغلَبَةِ الرَّحْمَة وسعَةِ الفَضْلِ

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ كريمةٌ إلى غلبَةِ الرَّحْمَة، وسعةِ الفَضْلِ، ويزيدُ ذلك وضوحًا أنَّ العذابَ وُصِفَ بالشِّدَّة، وأُطْلِق، بينَما قُيِّدت المغفرةُ والرِّضوان بأنَّهما ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في دلالة بليغةٍ على أنَّ رحمةَ اللهِ تَعالى أسبَقُ من غضَبِه، وأعظمُ أثرًا من نِقْمَتِه(2).

سِرُّ التَّعبير بالاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الرَّبِّ:

هيبةُ الجلالِ وسُلْطانِ المَلِك الأعظَمِ

عُبِّرَ بالاسْمِ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ دون اسم (الرَّبِّ)؛ لأنَّ المقام مقامُ هيبةٍ وجلال، وبيانُ مُلكٍ مطلقٍ وسُلطانٍ قاهر؛ فناسب أن يُذكَر الاسمُ الجامعُ لأوصاف العظمةِ والكبرياء؛ إذ المغفرةُ والرِّضوان إنَّما يُرجَيان مِنَ الملك الأعظمِ، لا مِن سِواه(3).

دلالَةُ الفَصْلِ بينَ المغفرَةِ والرِّضْوان بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

تفخيمٌ للمَغْفِرَة، وتدرُّجٌ في النِّعمةِ مِنَ القَبولِ إلى الرِّضوانِ

في الفصْلِ بينَ المغفرةِ والرِّضوان بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾، تفخيمٌ لشأن المغفرةِ، وتأكيدٌ على مَصْدَرِها الأقدس، فهي مغفرَةٌ صادرَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى وحدَه؛ إيذانًا بِعِظَم الفضل وسعة الرَّحمة، وفيه إيحاءٌ بأنَّ المغفرة هي مفتاحُ القَبول، ومقدِّمة العطاء، فيُرْجى بها الدُّخول، ثُمَّ يَتَرقّى المؤمنُ في مقام القُرْبِ حتّى ينالَ الرِّضوان، فالفَصْلُ هنا تعبيرٌ بلاغيٌّ بارعٌ يصوِّرُ تدرُّجَ النِّعمة، ويفيض طمأنينةً في القلب، بأنَّ أوَّل الفيض مِنَ الغفور الرَّحيم، وآخرَهُ رضاهُ الذي لا يُعادله جزاءٌ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 349.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1300.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 211.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَرِضۡوَٰنٌۚ﴾:

سناءُ الرِّضا الإلهيِّ في أبهى صوَرِه

في التَّعبير بـ ﴿وَرِضۡوَٰنٌۚ﴾ دون (رِضا) إيذانٌ بالمبالغةِ في الرِّضا وتعظيمٌ لقَدْرِه، فهو ليس رضًا عارِضًا أو يسيرًا، بل هوَ رضًا شاملٌ عظيمٌ، وهذه الصّيغةُ تَدُلُّ على فَرْطِ الرِّضا ودوامِه وكمالِه وكَثْرَتِه[1]، فهو ذروةُ ما يُمنَح للمؤمنين من ربِّهم سُبحانَهُ، وهو تاج النِّعَم وخاتمةُ الإكرام؛ رضًا يبلغ الغايةَ في السُّموِّ.

دلالَةُ تنكير ﴿وَرِضۡوَٰنٌۚ﴾:

بيانُ شمولِ الرَّحمة وسعَةِ الفضلِ لأهلِ الدَّرجات العُلْيا

نُكِّرَ لفظُ ﴿وَرِضۡوَٰنٌۚ﴾؛ للدَّلالةِ على اتِّساعٍ عظيمٍ لا يُقادَر قدرُه[2]، وشمولِ رحمةِ اللّهِ تَعالى ورِضاهُ، فلا يختَصُّ برِضًا محدودٍ أو يسيرٍ، بل هو رضًا جامعٌ عظيمٌ، يليق بأهل الدَّرجات العليا الذين أقبلوا على ربِّهم بقُلوب خاشعةٍ وشُكْرٍ صادقٍ[3]، فكان جزاؤُهم رضوانًا عظيمًا.

دلالَةُ الجَمْعِ بين المغفرةِ والرِّضوان:

كمالُ النِّعمة الإلهيَّةِ برفْعِ الموانِعِ، وبلوغِ ذروةِ القبولِ والإكرامِ بالرِّضا

في الجمعِ بينَ المغفرة والرِّضوان في قوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٌۚ﴾ تعبيرٌ عن تمامِ النِّعمة وكمال العطاء، فالمغفرةُ تمهِّد الطَّريق برَفْعِ الموانع، وغفرانِ الذُّنوبِ التي قد تحجبُ العبدَ عن تمامِ النَّعيم، أمّا الرِّضوان؛ فهو الغايةُ الأسمى؛ إذ يَقْتَضي أن يُعطى العبدُ مِن ربِّه مُنْتَهى ما تلتذُّ به روحُه، وتقرُّ به عينُه، فهو رضًا لا يحدُّهُ حدٌّ، ولا يَعْلوهُ مَطْلَبٌ، وبهِ يبلُغُ المؤمنون ذروة الكرامَةِ، بعدَ أن أُزيلت عَنْهُم آثارُ التَّقْصير بمغفرةٍ واسعَةٍ، فتكمَّل لهم القبول، وتمَّ لهم الإكرامُ[4].

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ الجارّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع الرِّضوان:

إذا كانت المغفرةُ فضلًا إلهيًّا؛ فإنَّ الرِّضوان لا يكونُ إلّا للحقِّ سُبْحانَهُ

في حذف الجارِّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 349.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 211.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 290.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 406.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ مع الرِّضوانِ، وثبوتِه مع المغفرةِ؛ لأنَّ الغفرانَ هو المدخَلُ إلى الجنَّة، ولا يتمُّ إلّا بتفضُّل اللّهِ تَعالى وعفوه، فذُكِرَت نسبَتُها توكيدًا لفضل المنَّة، أمّا الرِّضوان؛ فجاء مطلقًا غيرَ مقيَّد؛ لأنَّه لا يُتصوَّر إلّا من اللّهِ تَعالى وحدَه(1).

سِرُّ عدَمِ وصفِ الرِّضوان بالأكبريَّةِ، كما في قولِه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾:

دِقَّـــةُ الـبَـيـانِ القرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائمَةِ لسياقاتِها

قال اللّهُ تعالى هنا: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾، وقال في سورة التَّوبة: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]، فوُصِفَ الرِّضوان بالأكبريَّةِ في التَّوبة دون الحديدِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّه لمّا كان السّياق قائمًا على إبْراز المُفارقَة بينَ متاعِ الحياة الدُّنيا وما عندَ اللّهِ تَعالى؛ ناسبَهُ مُطْلَقُ الجَمْعِ بينَ كلِّ ما عندَ اللّهِ تَعالى بقطْعِ النَّظر إلى الفَرْقِ بينَ نعيمٍ وآخَرَ، فَلَمْ يوصَفِ الرِّضوان بكونِه أكبرَ.

بخلافِ آية التَّوبة، فقد صُدِّرَت بقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]، فلمّا كان أقلُّ القليل مِن رضوان اللّه تعالى أكبرَ مِن كلِّ النَّعيم الذي تقدَّمه؛ ناسبَهُ عدَمُ عَطْفِ الرِّضْوان على ما قبله، ورُفِعَ على الابتداء، فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72](2).

بَلاغَةُ المُقابلَةِ بينَ العَذاب الشَّديد والمغفرَةِ والرِّضْوان:

تـصـويـرُ جـزاءِ الـغـافـلـيـنَ عن الآخـرةِ اللّاهـيـنَ بالدُّنيا، وبيانُ مآلِ مَن اتَّخذها طريقًا للنَّجاةِ

بين العذابِ والمغفرةِ والرِّضوان في الآية مقابلَةٌ، ولَم يُقابَل العذابُ الشَّديدُ بضدٍّ واحدٍ في الآية، بَل بِضِدَّيْن عظيمَيْن، وهُما المغفرةُ التي تَمْحو الذُّنوب، والرِّضوان الذي يرفَعُ مراتِبَ القُرْب والنَّعيم، فكانَ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 349.

(2) سعد محمد، الآيات المتشابهات، ص: 295.

في هذا رحمةٌ مضاعفَةٌ تقابِلُ شدَّة العذابِ[1]، ومفارقة بلاغيَّة تَشي بعُمْقِ اللُّطف الإلهيِّ مِن باب (لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين)[2].

بلاغَةُ العَطْفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾:

ربط مصير الغافلين بزيف المتاع وتأكيد زوال اللّهو والغرور

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ عاطفَةٌ الجملة بعدها على ما قبلَها[3]؛ إذ يأتي العطفُ ليؤكِّد على أنَّ الحياة الدُّنيا ما هي إلّا متاعٌ زائِلٌ، وبهلوانٌ عابِر، يُلهي بزينَتِه الفانية، ويُضِلُّ صاحبَهُ في غمرةٍ مِنَ الغرور الخادع، وأنَّ هذا المتاعَ لا يلبث أن يَبوء بالفناء، وأنَّ التَّعلُّق به سببٌ في الانغماس في لَهْوٍ يَضُرُّ أكثر ممّا ينفَعُ[4].

مقابلَةٌ بليغَةٌ بينَ حالِ الدُّنيا وحالِ الآخرة؛ لتَعْميقِ التَّرغيب والتَّنفيرِ

والعطْفُ واقِعٌ للمُقابلَةِ بينَ الحالَين، فقد ذُكِرَت حالُ الآخرةِ بِما فيها مِن عذاب أو رحمةٍ، ثُمَّ عُطِف عليها حالُ الدُّنيا؛ للتَّحذير من الاغترارِ بها، فكانَ في هذا العطف تعميقٌ للتَّنفير من متاعِها الزّائل، وزيادةٌ في التَّرغيب بما عندَ اللّهِ تَعالى مِنَ الجزاء الدّائم[5]؛ تحقيقًا للموازنَةِ بينَ الفاني والباقي، والخادِعِ والصّادِقِ.

بلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في قولِه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾:

تصويرٌ لغالِبِ أحوالِ الدُّنيا في نظرِ طالبيها، وبيانُ خِداعِ متاعِها الزّائل

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ بديعٌ، يُحصَر فيه شأنُ الدُّنيا في وصفٍ واحِدٍ هو ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وهو قصر موصوف على صفة، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ يُراد به التَّنبيهُ لا إلى الحقيقة المُطْلَقَة، بل إلى الغالبِ مِن حالِها، وغالبِ مَن يُقْبِل عليها؛ إذ تُلْهي بزُخْرُفها، وتخدع بزَيْفِها، فتغدو متاعًا زائلًا لِمَن اتَّخذها غاية، لا وسيلة، فجاء الحصرُ؛ ليصوِّر

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 250 - 251.

(2) رواه الإمام مالك في موطّئه برقم: (964) موقوفًا على عمر رضي الله عنه، وفيه انقطاعٌ، وصحَّ من كلام ابن مسعودٍ رضي الله عنه، كما أفادهُ ابن حجر في فتح الباري: 8/ 712، ويُروى هذا مرفوعًا ولا يصحُّ، يُنظر: الألباني، ضعيف الجامع الصغير برقم: (4784).

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 507.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 291.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.

الحياة الدُّنيا مجرَّدةً من كلِّ قيمةٍ عُلْيا، ما لم تُجعَل سبيلًا إلى الفَوْزِ بالآخِرَةِ[1].

دناءَةُ الدُّنيا وحَقارَتُها

سِرُّ وصْفِ الحياةِ بالدُّنيا في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾:

وُصِفَت الحياةُ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾؛ للإيماء إلى دناءَتِها وحقارَتِها، فهي سُفلى في المرتبَةِ، وضيعَةٌ في القيمة، لا تَزِنُ عندَ اللّهِ تَعالى جناحَ بعوضَةٍ.

ذمُّ الحياة لا لذاتِها بل لزُخْرُفِها وخداعِها

دلالَةُ تقدير المُضاف في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ مضافٌ محذوفٌ، والتَّقدير: وما أحوالُ الحياة الدُّنيا، أي: ما شؤونها وتقلُّباتها ومظاهرها الزّائلة إلّا متاع الغرور[2]، فالمحذوفُ أُشير إليه بلطيفِ العبارة لتوجيهِ النَّظر إلى أنَّ الذَّمَّ ليس للحياة من حيثُ هي، بل لِما يَعْتَريها من أحوال خدّاعة، وزينة فانيةٍ تُغري مَن طلبها لذاتها، دون أن يجعلَها سلَّمًا للآخرة.

بريقُ التَّنعُّم وزخرفُ الاقتناءِ الذي يخدعُ النُّفوس، ويتماهى مع ظاهرةِ الغُرور

سِرُّ التَّعبير بالمتاعِ دونَ المَنْفَعَة:

في اختيار لفظ ﴿مَتَٰعُ﴾ بدلًا من (منفعة) سرٌّ بيانيٌّ دقيق؛ إذ إنَّ المتاعَ لفظٌ ينبض بحسِّ الرَّغبة والتَّعلُّق، ويشملُ كلَّ ما يُتمتَّع به من طيِّبات الحياة وزينتِها، سواءٌ أكان قليلًا أم كثيرًا، طعامًا أم مالًا، أثاثًا أم أدوات[3]، فهو أوسعُ دلالة من (المنفعة) التي تُشير إلى الجدِّ والفائدة فحسبُ، فجاء المتاعُ؛ ليُلامس ظاهر التَّنعُّم، وزخرفَ الاقتناء، ويوحي ببريقِ خادعٍ يَستَهوي النُّفوسَ.

دلالَةُ التَّعبير بالمتاعِ مُفْردًا منكَّرًا:

جاء التَّعبير بلفظ ﴿مَتَٰعُ﴾ مفردًا منكَّرًا؛ للدَّلالة على قلَّته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 2/ 323.

وحقارته، فهو متاع يسيرٌ لا يلبَثُ أن يزول، فلا يليق أن يُتَّخذ غايةً، بَلْ هو في حقيقتِه وسيلَةٌ محدودَةٌ للمؤمن يُبَلِّغه إلى الجنَّة، ووُصِفَ عمَلُ الحياة الدُّنيا بأنَّه متاعُ الغرور؛ تزهيدًا في الاشتغال بها لذاتها، وتنفيرًا من التَّعلُّق بثمراتها، وترغيبًا في العمل للآخرة[1].

بيانُ قلَّة الدُّنيا وحَقارَتِها، والتَّزهيدُ في العمَل لها والتَّرغيب في الآخرة

سرُّ التَّعبيرِ بالغُرورِ دونَ الخِداع:

اختير لفظ ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ بدلًا من (الخداع)؛ لما فيه من دقَّة المعنى وعُمْقِ الدَّلالة؛ فالغرورُ ليس محضَ خداعٍ عارضٍ، بل هو إظهارُ الضّارِّ في صورةِ النّافع، والتَّلبيس على العاقِل بما يرغب فيه مع كونهِ مُهلكًا في حقيقته[2]، فالغرور يُزيِّن الباطلَ بِثوب الحقِّ، ويقدِّم الفانيَ في هيئةِ الباقي، فيُفْتَن به القلبُ، ويُغفَل عن العاقبةِ.

الغرورُ إظهارُ الضَّرر في صورة النَّفع، وتزيينُ الهلَكَةِ بثَوْبِ الطَّمَعِ

سرُّ التَّعبير بالغُرور بالضَّمِّ دون الغَرور بالفتح:

في التَّعبير بـ ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ بالضَّمِّ دون (الغَرور) بالفتح: سرٌّ دقيق من أسرار البيانِ، فالمضمومُ هو ما يُغترُّ به من زُخْرُف الدُّنيا، ومتاعِها الخادع[3]، وهو عينُ المراد في الآية؛ إذ تَفْتِنُ الدُّنيا النّاظرَ إليها بِبَريقِها، فتُلبس الزّائل ثوبَ الخُلود، والمضرُّ حلَّة النَّفع، أمّا المفتوحُ الغينِ؛ فهو اسمُ فاعلٍ، يُطلَق على الشَّيطان، لكونه أصلَ التَّغرير، فيزيِّن المعاصيَ، ويُمَنّي الإنسانَ بالمَغْفِرَة، فيُغْويه عَنِ التَّوبة والعمَلِ الصّالح[4].

الغُرورُ: دالٌّ على فتنة متاع الدُّنيا، والغَرور: صفَةٌ لِلشَّيطانِ

دلالَةُ التَّعريف بـ (أل) مع لفظ ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ يدلُّ على الاستغراقِ والعُموم، فهو شاملٌ لكلِّ أشكالِ الخِداع والزَّيف الملازمة للحياة الدُّنيا، فلا يختَصُّ بغُرور معيَّنٍ أو حادِثٍ عابرٍ، بَل يُشيرُ إلى طبيعةِ الحَياة الدُّنيا ذاتِها،

شمولُ كلِّ صوَرِ الخِداع الملازم للحياةِ الدُّنيا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 469.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 240.

التي بِطَبْعِها تُزَخْرِف، وتزيّن، وتَخْدَعُ، فلا ينفكُّ الإنسانُ عنها إلّا بعد إدراكِ حقيقَتِها وخَطَرِها.

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿مَتَٰعُ﴾ إلى ﴿ٱلْغُرُورِ﴾:

أضيفَ المتاعُ إلى ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ في قوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، فلم يُجْعَل الغرورُ وصفًا عارضًا له، بل صُيِّرَ عينَ المتاع، وهذه الإضافةُ تُبرز أنَّ التَّمتُّع بالدُّنيا لا ينفكُّ عن الاغترار بها لِمَن ركَنَ إليها، واتَّخَذَها غايَةً، وعَمِلَ لها، وتَرَكَ الآخرة[1].

الـغــرورُ عـينُ المتـاعِ، فالدُّنيا بـزخارفِها لـذَّةٌ موهومَةٌ وزينَةٌ خادعَةٌ

والإضافةُ هنا جاءَت على معنى لامِ العاقبة؛ إذ تُصوِّر هذا المتاعَ في مآلهِ الأخير لا في حقيقتِه الظّاهرة، فهو متاعٌ يَنْتَهي أمرُه إلى الغُرور، ويؤول شأنُهُ إلى أن يُغري النّاظرين ببريقِهِ الخادِع، فيَسْحَر أبصارَهُم، ويَستَدرِج عُقولَهُم، فيُسْرِعون إلى التَّعلُّق به، والرُّكون إليه، حتّى إذا استحكَم في قُلوبِهِم تكشَّفَ لَهُم عَن سرابٍ زائِلٍ ووَهْمٍ خادِعٍ[2].

سِرُّ ختام الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾:

خُتِمَت الآيةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وهوَ تقرير بليغ لحقيقة الدُّنيا في ذاتها[3]، وتنبيهٌ إلى خطأ مَن غفَلَ عن مقصدها الأسمى، فالدُّنيا في أصلها نِعمةٌ مخلوقَةٌ بحِكْمَةٍ، وجُعِلت متاعًا يُنتفَع به، وزادًا يُتزوَّد منه للآخرة، فمن أحبَّها على هذا الوجه، واتَّخذها جسرًا يُعْبَرُ بهِ إلى دار الخلود؛ لَم تَكُن له غرورًا، بل كانت سرورًا وبهجة، وأمّا مَن ركن إليها لذاتِها، واستَغرَقَ في زخارِفِها، وطلَبَها لغَيْرِ ما شُرِعت له؛ صارت لعبًا ولهوًا وخداعًا[4].

الحياة الدُّنيا بين سرور الحقِّ وغرور الباطل، فـهـو تـمـيـيـز الـحـكـمـة من اللّهو واللّعب

(1) القنوجي، فتح البيان: 13/ 417.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.
(3) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 210.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 529.

دلالَـةُ التَّعـبير بفعـل الكَونِ ﴿يَكُونُ﴾ دون الجَـعْلِ، كما في سورة الزُّمر ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾:

بـيـانُ فاعـلـيَّة الـقـدرة الإلهـيَّة في سورةِ الزُّمر، وتصويرُ التَّحوُّلِ الـذَّاتيِّ في سورة الحديد

استُعمِل فعلُ الجَعْلِ في سورة الزُّمر: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ [الزمر: 21]، وهو استعمالٌ دقيق في موضعهِ بليغٌ في أدائه، فقد جاء السّياقُ فيها مسندًا الأفعالَ المتتابعة إلى اللّه تعالى: (أنزَلَ)، و(سَلَكَ) و(يُخْرِجُ) و(يَجْعَلُ)، فاقتضى النَّسقُ أن يُعْطَفَ فعلُ الجَعْلِ عليها؛ إذ هو فعلٌ مِن أفعالِ القُدْرَةِ والتَّصرُّف الإلهيِّ، أمّا في سورة الحديدِ؛ فَلَم يُسْنَدِ الفعل السّابق إلى اللّه تعالى، بل جاء السّياق مصوِّرًا حال الغيث في ذاته: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾[1]، فجاء بفعل الكَوْنِ موافقًا لبناء التَّصوير؛ إذ المرادُ إبرازُ تدرُّج النَّبات في تحوُّله الذّاتيِّ من حياةٍ إلى فَناء، دون نِسْبَةِ الفعل المُباشِرِ إلى اللّهِ تَعالى كما في موضع سورةِ الزُّمَر، وبهذا يَظْهَرُ سرُّ التَّفرقة؛ فالتَّعبير بفِعلِ الجَعلِ في الزُّمَر مشهَدٌ لفاعليَّة القُدرة، والتَّعبير بفعلِ الكَوْنِ في الحديدِ تصويرٌ لتحوُّل الشَّيء بنفسِه إلى ما هو صائرٌ إليه.

فالآيتان الكريمتان من سورَتي الزُّمر والحديدِ جاءتا في سياقَيْنِ مختلفين، فاقتضى ذلكَ اختلافَ التَّعبير، ففي سورة الزُّمر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ [الزمر: 21]، جاء في معرِض التَّنبيه على الاعتبارِ والتَّفكُّر في تقلُّب أحوال النَّبات مِن خُروجه إلى نهايتِه، ولأنَّ المقصودَ هناك إسنادُ جميع الأطوار إلى اللّهِ تَعالى مُباشَرَةً؛ أَسْنَدَ سُبْحانَهُ الفعلَ إلى ذاتِه العليَّة، فقال: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ﴾ [الزمر: 21]؛ تنبيهًا على أنَّ هذه المراحلَ مِن الإحياء إلى الفناء لا يَمْلِكُها غيره، فهو وحدَهُ المتصرِّف، ثمَّ ختم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: 21].

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1255.

أمّا في سورة الحديد؛ فقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾، سيقَ على سبيل التَّمثيلِ للحياة الدُّنيا، وما فيها من غُرور وزينةٍ سريعةِ الزَّوال، ولم يكُن الغرضُ إسنادَ الأفعالِ صراحَةً إلى اللهِ تعالى، بل الإشارةُ إلى سُرعة تحوُّلِ الدُّنيا من نضرةٍ إلى اضمحلالٍ، فاكتُفي بفعلِ الكَوْنِ ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ الذي يوافِق طبيعةَ ضَرْبِ المَثَل(1).

بلاغَةُ الاتِّفاق والاختلافِ معَ سورَتَي الأنْعامِ والعَنْكبوتِ:

بلاغة التَّرتيب بين اللَّعب واللّهو في وصف الحياة الدُّنيا في السّياق القرآنيِّ

في السّياق القرآنيِّ الكريم تَتَنَوَّعُ أوصاف الحياة الدُّنيا بين: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ و﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ و﴿لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العنكبوت: 64]، وكلُّ وصفٍ يَحْمِلُ دلالةً بلاغيَّةً عميقَةً تتناسَبُ مع سياق الآيةِ والموقف الذي تُعالجه؛ إذ يُقدَّم (اللّعب) على (اللّهو) في سورتي الأنعام والحديدِ؛ ليكون الاهتمامُ بِالعبَثِ المُباشر بالدّين، والاستهزاءِ بآياتِ اللهِ تعالى، كما في حالِ الكفّار الذين يَسْتَهْزئون بالحقِّ، ثُمَّ يَنْشَغلونَ بزُخْرُف الدُّنيا، بينما يُقدَّم (اللّهو) على (اللَّعب) في سورتَي الأعرافِ والعنكبوتِ؛ ليَعْكِسَ الانشغالَ الأكبرَ بالملذّات الدُّنيويَّة والشَّهوات قبل الانحدار إلى العبث بالدّين؛ إذْ إنَّ (اللّهو) هو الأصل الذي يُؤَدّي إلى (اللَّعب) باعتبارِهِ مرحلةً تاليَةً، كما أنَّ تقديمَ (اللّهو) في سورة العَنْكبوت يَعْكِسُ قِصَرَ أمَدِ الدُّنْيا مقارنةً بالآخرة؛ لأنَّ زمَنَ اللّهو هو الأكثرُ شُيوعًا، والأقصَرُ إحساسًا، بينما يُستَعمَلُ وصف ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾؛ لبَيان زوال الدُّنيا وخِداعها، ممّا يجعَلُ هذه الأوصاف متكاملَةً في تصوير حقيقةِ الحياة الدُّنيا، وترهيبِ الغافلين عنها؛ إذ يُظهر التَّقديمُ والتَّأخيرُ في الألفاظِ دقَّة بلاغيَّة عالية تناسب كلَّ موقف، وتُبرز مراحل الضَّلال والغفلة بترتيبها المنطقيِّ والنَّفسيِّ(2).

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 426.

(2) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 516 - 525.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

اللّعِب واللّهو:

بين اللّعب واللّهو عمومٌ وخصوصٌ وجْهيٌّ

اللهْوُ واللَّعِبُ متقاربانِ، حتَّى فسَّر بعضُ أهلِ العربيَّة أحدَ اللَّفظين بالآخَرِ، كما فعلَ ابنُ الأثير؛ إذ قالَ: "اللهْوُ: اللَّعِبُ، يُقالُ: لَهَوْتُ بِالشَّيءِ أَلْهو لَهوًا، وتَلَهَّيْتُ بِهِ: إذا لَعِبْتَ بِهِ، وتَشاغَلْتَ، وغَفَلْتَ بِهِ عَن غَيرِهِ"[1]، وقد يَكونُ قصْدُهُ التَّقريبَ، كما هو طريقةُ كثيرٍ من أصْحابِ المُعْجَماتِ في جُملةٍ مِنَ الألفاظِ الذينَ يُريدونَ بيانَ حقيقَتِها.

والتَّحقيقُ أنَّ بينَهُما فَرْقًا، وقدِ اختلَفَ أهلُ العِلْمِ في محلِّ الفَرْقِ بينَهما؛ فاختار أبو السُّعود أنَّ اللهْوَ صرفُ الهمِّ إلى ما لا يَحْسُن أن يُصرفَ إليه، بخلاف اللَّعِبِ؛ فإنَّهُ طلبُ الفرحِ بما لا يَحْسُنُ أن يُطلَبَ[2].

والأصحُّ أنَّ بينَهُما عمومًا وخصوصًا وجهيًّا؛ وذلك أنَّ حقيقةَ اللَّعِبِ: عملٌ أو قولٌ ليسَتْ لَهُ غايةٌ مفيدَةٌ، وإنَّما غايتُهُ إراحَةُ البالِ، وتقصيرُ الوقْتِ، واستجلابُ العقولِ في حالِ ضعفِها، كَما هوَ أكثَرُ عملِ الصِّبيانِ، بخلاف اللهْوِ؛ فإنَّه ما يشتَغِلُ به الإنسانُ ممّا تميلُ إليه النَّفسُ، وترتاحُ، ولا يتعَبُ عَقْلُهُ في الاشتغالِ بِهِ، فلا يُطْلَقُ اللهْوُ إلّا على ما فيه لذَّةٌ واستِمتاعٌ وملاءَمَةٌ للشَّهوَةِ.

فيجتَمِعُ اللهْوُ واللَّعِبُ في العمَلِ الذي فيه مُلاءَمةٌ، وينفرِدُ اللَّعِبُ في نحوِ لعبِ الصِّبيانِ، وينفردُ اللّهْوُ في نَحوِ المَيسرِ والصَّيدِ[3].

الأولاد والأبناء:

الولَدُ أعمُّ مِنَ الابنِ عمومًا مُطْلقًا

بينَ الأولادِ والأبناءِ فرقٌ، وهو أنَّ (الابن) يقع على الذَّكر خاصَّةً، أمّا الولدُ؛ فيقع على الذَّكر والأنثى جميعًا[4]، وقد استُعمِل لفظ

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (لها).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 231.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 193.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 13.

﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ جمع (ولد)، ولم يُستعمَل لفظ (الأبناء) في قوله تعالى: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ لأنَّ الآيةَ في مقامِ بيان مظاهر الافتتان بزينة الدُّنيا، والتَّفاخر بمظاهر الكثرة العدديَّة والماليَّة، فناسب أن يُؤتى باللَّفظِ الأعمِّ الذي يُحيط بجميع ما يَتفاخَرُ به النّاسُ مِن ذُرّيَّة، ذكورًا وإناثًا، ثمَّ إنَّ لفظ ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ يوحي بالامتدادِ والارتباطِ العاطفيِّ والنِّسبي الذي يلتذُّ به الآباء، ويأنَسونَ بكَثْرَته، بخلافِ (الأبناء)، فهو أدلُّ على جِهَةِ النَّسَب والانتساب لا على مُطْلَقِ الكثرة والتَّفاخُر، فجاء التَّعبير بـ ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ ليكونَ أبلَغَ في تصويرِ حِرْصِ الإنسانِ عَلى ما يَمْلِكُه مِن ذُرّيَّة كما يَحْرِص على المال، فيدخُل في ذلك كلُّ ما يُتكاثَر بِهِ مِن نَسْلِه، مِن غيرِ تقييدٍ بجِنْسٍ أو صِفَةٍ.

الغَيث والمَطر:

غـيـثٌ يـبـهـجُ الأبصارَ، ويوهم بـالـدَّوام، ثـمَّ يذوي كما تَذْوي الدُّنيا

الفرق بينَهُما في الفائدةِ والاستِعمالِ لا الماهيَّة، فالغيثُ هو "المطر الذي يُغيث من الجَدْبِ، وكان نافعًا في وقته، والمطرُ قد يكون نافعًا، وقد يكون ضارًّا في وقته وفي غير وقته"(1)، واستُعمِل لفظُ الغيث في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لأنَّ الغيثَ في لِسان العرب يُطلق على المطَرِ النّافع المفرِّج للكُروب، المُنْزَلِ في أوانه بالخير والبركة، فيكون محبوبًا للنُّفوس ومبشِّرًا بالحياة والنَّماء، أمّا المطر؛ فيُستعمَل في الخير والشَّرِّ، لكنَّه يَردُ في القرآن غالبًا في سياق العذاب والعقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ [الشعراء: 173]، والسّياق في آيةِ الحَديدِ قائمٌ على تصويرِ بهجَةِ النّاس بزينةِ الدُّنيا وزُخْرُفِها حين تخضَرُّ الأرض، وتَزْدَهِر بالنَّبات الذي يُبْهِج الأنظار، فناسَب أن يُذكَر الغَيْثُ؛ لأنَّه يُثير في النَّفس السُّرورَ والرَّجاء، ويوهم بالدَّوام

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 391.

والرَّخاء؛ ليكون أوقعَ في تصوير خِداع الدُّنيا حينَما يزول جمالُها سريعًا بعد نضرَتِها.

الكفّار والزُّرّاع:

كُفّارُ الزّرعِ وكفّارُ القَلْبِ حينَ تُغطّي الزّينةُ نورَ الإيمانِ

جاء التَّعبير بوَصْفِ الزَّرّاع بـ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ في هذا الموضع؛ لِما في السّياق مِن تقريعٍ للدُّنيا، والتَّحذير مِن الاغترارِ بزُخْرُفِها، فناسب أن يُؤتى باللَّفظ الدّالِّ على الجُحود والتَّغطية؛ ليُشير إلى أنَّ الإعجابَ بالنَّبات لا يبلُغُ حدَّ الإلهاءِ عَنِ اللّهِ تَعالى إلّا في حالِ الكُفْرِ به سُبْحانَه، فالكافرُ الذي هو الزّارِع في ظاهِر المثل يَسْتُرُ البَذرَةَ في الأرض، كما يَسْتُرُ الإيمان في قَلْبِه بِجُحودِه وطُغْيانِه، فلا يثمر له ذلك إلّا انبهارًا زائفًا بزينَةِ الدُّنيا، أمّا المؤمِنُ وإن أعجبَهُ حُسْنُ النَّبات؛ فإنَّ بَصَرَهُ يتعدّى الظّاهر إلى قدرة اللّهِ تَعالى الباهرة، فيَسْتَدِلُّ بها على الآخرة، ويَحْمِله ذلك على مزيدٍ مِنَ الإيمانِ والطّاعة[1]، والكفّار بمعناهُمُ الإيمانيِّ هُم أشدُّ النّاس افتتانًا بزينة الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤْمِنون بالبَعْثِ، ولا يرَون وراءَ الحياة الدُّنيا مآلًا، فجاء التَّعبيرُ بِصِفَةِ الكُفْرِ؛ ليَجْمَعَ في طيِّه دلالة الحِسِّ ودلالة العقيدةِ، وليُشير إلى أنَّ الإعجاب بالدُّنيا لا يشتدُّ، ولا يستغرق إلّا في نفوسِ مَنِ انقَطَعَت آمالُهُم عنِ الآخِرَةِ.

الغُرور والخِداع:

زينَـةٌ تـخـدَعُ ومتاعٌ يغُرُّ حين يُـزيَّـنُ الـهـلاكُ بثوبِ المَسَرَّةِ

التَّعبير بـ ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ دون الخِداع أدقُّ وأبلغ في سياق، قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾؛ لأنَّ الغرور يتضمَّن معنى الإيهام الباعِث على الاغترار، أي: أنْ يَرى المرءُ الشَّيء في صورة تسُرُّ، فيُقبل عليه، والحقيقةُ على خلاف ذلك، فينتهي به إلى الضَّرر والهلاك، كما يُخْدَعُ العطشانُ بسرابٍ، فيحسَبُه ماءً، فيهلك عطشًا[2]، والأصل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 288 - 289.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 383.

في الغُرور: "أن يتراءى الشَّيءُ في ظاهره حسنًا مموَّهًا، يغترُّ بهِ كلُّ ناظر إليه ظاهرًا، فإذا نَظَر في باطنهِ؛ وجدهُ قاتلًا مُهْلِكًا"[1]، فالدُّنيا تعرِض للإنسان متاعَها وزينتها في صورة لذَّة وسرور، فيغترُّ بها، ويَطْمَئِنُّ إليها، مع أنَّ حقيقتَها زائلةٌ ووبالَها عظيمٌ، أمّا الخداع؛ فغايَتُه سَتْرُ وجهِ الحقِّ، وإخفاء الصَّواب، وهو أعمُّ مِن أن يكون في صورةِ مَسَرَّة أو مضرَّة؛ إذْ قد يُستَعمَل في إيقاعِ المرء في المكروه بالتَّورية أو الإخفاء، لا بالإيهام باللَّذَّة[2]، ومِن هنا كان لفظ الغرور أليقَ بالمعنى؛ لأنَّه يُطابِق طبيعةَ الدُّنيا التي تُغري بزخرفها، وتوهم بدَوامِها، فتوقع المغرورَ في الغفلة والضَّرر، وهو يظُنُّ أنَّه في نعيم وسرورٍ، وهذا أبلَغُ في التَّحذيرِ والتَّنفيرِ.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 2/ 553.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 384.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ بيانِ حقارَةِ الدُّنيا وسُموِّ الآخرةِ؛ دعاهُم إلى المغفرةِ والنَّعيمِ السَّرمديِّ

لَمّا بيَّنَ اللّهُ سبحانه ما يدلُّ على حقارة الدُّنيا، وخداع زخارِفها الزّائلة، وكشف عن قلَّة نفعِها، وسرعة فنائها بقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾؛ أتبَعَهُ ببيانِ كمال حال الآخرة، وما فيها من تمام الفائدَةِ ودوام البقاء، فلا ريبَ أنَّ الأبقى والأدوم أكرَمُ وأشرفُ مِن العاجِل المُضْمَحِلِّ، فحرَّك القلوبَ، وحثَّ العزائم إلى ما يوصِل إلى مغفِرَتِه ورِضْوانه، وما يورِثُ الفَوْزَ بالنَّعيم السَّرمديِّ، فقال جلَّ شأنه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَابِقُوٓاْ﴾: فعل أمر، والجذر اللُّغويُّ منه: (سبق)، ومنه: السَّبق، وهو التَّقدُّم في السَّير، ويُستعمَل للدَّلالة على التَّقدُّم في الجرْيِ وسائر الأمور، ويدور معناه المحوريُّ على تقدُّم الشَّيء عمّا حولَهُ بقوَّة وجدٍّ، بحيث يَنْفَرِدُ بالمُبادرَة، ويَصِل إلى المطلوب قبلَ غيره، فيقال: سابَقْتُه، فسَبَقْتُه، ومنه قولُهُم: له سابقَةٌ في هذا الأمرِ، أي: سَبَقَ النّاس إليه، ويقال: أَسْبَقَ القومُ إلى الأمر، وتَسابقوا، أي: بادَروا إليه، ففي السَّبقِ معنى المبادرةِ إلى التَّقدُّم(2).

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 320.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبق).

ومعنى ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ في الآية: سارعوا مسارعةَ المُتَسابقينَ لأقرانِهم في ميدان السِّباق[1] بجدٍّ واجتهادٍ، كلُّ واحدٍ منهم يريد أن يسبِقَ صاحبَهُ.

2) ﴿عَرۡضُهَا﴾: العرْضُ: خلاف الطّول، وعَرض النَّهر، بمعنى: ناحيته، والعين والرّاء والضّاد بناءٌ تتشعَّب فروعُه في الاستعمالات اللُّغويَّة، ومع كَثْرَتِها فإنَّها تعود إلى أصلٍ واحد جامع، وهو العَرْض الذي يقابِل الطّول، ولّما كان كذلك؛ فالأصل أن يكون متعلِّقًا بالأجسامِ، لكنَّه قد يخرُجُ إلى غيرِ ذلك[2]، و"المعنى المحوريُّ: اتِّساع ما يواجه النّاظر من الشَّيء الكثيفِ، كالأشياء المذكورة، وهو ما يُخالِف الطّول"[3]، والمقصودُ من ذِكْرِ العَرضِ في الآيَةِ هوَ التَّرغيب في سَعَتِها، فاقتُصِر على ذِكْرِ العَرْضِ دون الطّول؛ ولأنَّ من أساليب العرب وعاداتهم في التَّعبير أن يعبِّروا عن سعةِ الشَّيء بعَرْضِه لا بِطولِه[4].

3) ﴿أُعِدَّتۡ﴾: فعلٌ مبنيٌّ للمفعولِ، وجذره اللُّغويُّ: (عدد)، وهو لا يَخْرُجُ عن أصلَيْنِ اثنين، فإمّا أن يكونَ مِنَ العدِّ الذي هو الإحصاءُ والتَّعداد، وإمّا من الإعداد الذي هو تهيئةُ الشَّيء وتجهيزه، وإلى هذين الأصلينِ تَرْجِعُ جميع فروع معاني هذا الجذر، فكلُّ ما ورد في القرآنِ مِن الفعل (أُعِدَّ) أو (أَعَدَّ) مسندًا إلى الفاعل أو المفعول، وكلمة (عُدَّة)، فهو من الإعداد بمعنى الإحضار والتَّهيئة، وجعل الشَّيءِ مُعدًّا ومتيسِّرًا، وما عدا ذلك من مفردات هذا التَّركيب القرآنيِّ؛ فهو راجع إلى معنى العَدِّ الذي هو بيانُ مقدارِ الشَّيء، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة: 2][5]، ومعنى ﴿أُعِدَّتۡ﴾ في الآية: أُنْشِئَت، وهُيِّئَت إعدادًا كاملًا[6].

4) ﴿فَضۡلُ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرَّد، والجذر اللُّغويُّ منه: (فضل)، والفَضْلُ: معروفٌ، والتَّفضُّل: التَّطوُّل على الآخرين، ويأتي الفضلُ مرادًا به نقيضُ النَّقْص، ومنهُ: الفضائِلُ، أي: المحاسن، ومنه: الفضيلة، أي: الدَّرجة الرَّفيعة[7]، و"الفاء والضّاد واللّام أصل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 479.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرض).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 481.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(6) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 458.
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (فضل).

صحيح يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزّيادة والخير، والإفضال الإحسان"(1)، والفضلُ وإن كان بمعنى الزّيادةِ عمومًا إلّا أنَّ استعمالَهُ في المحمودِ أكثرُ وأشيع، ثُمَّ إنَّ الفضل يَردُ للأمور الحسّيَّة والمعنويَّة(2)، ومعنى ﴿فَضۡلُ﴾ في الآية: هو ما بَسَطَ اللّهُ تَعالى لهم من الرِّزق في الدُّنيا، ووَهَبَ لَهُم مِنَ النِّعم، وعرَّفهم موضِعَ الشُّكر، ثمَّ جَزاهُم في الآخرة على الطّاعةِ(3).

❁ المَعنى الإجْماليّ:

البِــدارُ إلى تحصيلِ مغفرة اللـه تَـعالى وجنَّته الواسعة

سارعوا أيُّها المؤمنون سعي المُتَسابِقين في ميدانِ الفلاح، وامضوا بخُطا العزائمِ إلى مغفرة من ربِّكم، وبادروا إلى موجِباتِها مِن طاعةٍ وإخلاصٍ، وارتَقوا إلى جنَّةٍ عَرْضُها كعرْضِ السَّماء والأرض، فكيفَ بِطولِها، وهيَ بساطٌ لا يحدُّ؟ وقد أُعِدَّت لِمَن آمَنَ باللّه ورسلهِ، فإيمانٌ صادِقٌ يَكْفي لاستِحقاقِها، وذلك فضلٌ مَحْضٌ مِنَ اللّهِ تعالى، لا بعَمَلٍ يوجِبُهُ، ولا باستِحقاقٍ يَفرِضُه، بل منَّة يفيضُها على مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو ﷻ ذو الفَضْلِ العظيم الذي لا تُدْرَكُ نِهاياتُه، ولا تُحْصى عطاياهُ(4).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآيةِ عَمّا قبلَها:

التَّشويق إلى دار البقاءِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ عمّا قَبْلَه؛ لأنَّه لَمّا كشَف السّياقُ أنَّ الدُّنيا ظلٌّ زائل وخيال مُضْمَحِلٌّ، لا حَظَّ لها مِن الثَّبات؛ صُرِف أولوا البَصائِر عنها؛ لِما فيها من دناءةٍ وحَقارَةٍ، وأبرز في المقابل أنَّ الآخرة هي دارُ البقاء والكمال، فيها تمام النَّعيمِ وخلودُ العطاء، فكان من تمام البيانِ أن يُساق نداءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(2) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 418.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 189.

التَّشمير إلى ميادين السّباق، حيثُ المغفرةُ والجنَّة؛ ليُشْعِل في القلوبِ نارَ الشّوق، ويهيِّج في النُّفوس رغبة السّاعين، حتّى يتنافَسوا في عُلوِّ مراتبها، ويتسابقوا إلى شَرَفِها وجَلالها[1].

فلَم تُعْطَف؛ لتُحْكِمَ استقلالَ مَقْصَدها، واقْتُصِرَ فيها على جانِب التَّرغيب؛ إذْ هو المقصودُ الأعظَمُ من المَقام، دون إطنابٍ في جانبِ التَّحذيرِ[2].

سِرُّ التَّعبير بالمُسابقَةِ دونَ المُسارعة كما في سورة آل عمران:

المُسارعَةُ إلى الشَّيء مُتقدِّمَةٌ على مُسابقَتِهِ

إنَّ سِرَّ التَّعبير في هذه الآية الكريمة بلفظِ المسابقة دون المسارعَة، كما ورد في سورة آل عمران: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]، أنَّ المُسابقَةَ تَقْتَضي وجودَ قرينٍ يُبادره العبدُ، فيَجْتَهِد غايةَ الاجتهادِ؛ ليتقدَّم عليه، وقد يتخفَّف إن كان خَصْمُه بطيئًا، فهي أعمُّ من المُسارعة، وأمّا المسارعة؛ فلا تكون إلّا ببذل الجُهْد من الطَّرفين مع اقترانها بسُرْعَةٍ ظاهرة في العُرْف، فهي أخصُّ وأشدُّ مبالغَةً، ومِن ثمَّ جاءت آية آل عمران بلفظ المسارعة؛ لأنَّها مسوقة للحثِّ على التَّجرُّد التّامِّ عن النَّفس والمال، وسائر الحظوظِ من أصلها[3].

وآثر البيانُ القرآنيُّ لفظ المسارعَة في سورة آل عمران؛ لأنَّ المسارعة إلى الشَّيء تكون قبل مُسابقَتِه، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61]، فاستُعمِلَ اللَّفظ المقدَّم - وهو المسارعَةُ - في السّورة المتقدِّمة، وهي سورة آل عمران، واللَّفْظُ المؤخَّر - وهو المسابقَةُ - في السّورة المتأخِّرة، وهي سورة الحديد، ويؤيِّد كونَ المُسارعَةِ أسبَقَ أنَّ المسارِعَ إلى الشَّيء قد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 407.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 292.

يحصُلُ له ما سارعَ إليه، وقد لا يحصُلُ له ذلك، ولا يُقال غالبًا: سَبَقَ، إلّا فيمَن تَحَصَّل له مرادُهُ(1).

دلالَةُ الأمر في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾:

الأمرُ بالسَّبق وإفادة الفور ونداء الملحِّ إلى المبادرة العاجلة وعدم التَّراخي

الأمر في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ واردٌ على أصلِه من إفادةِ الوجوبِ واللُّزوم، وهو ناطِقٌ بالدَّلالَةِ على الفَوْرِ في مادَّته وصيغَتِه، فالأمر هنا لا يحتَمِلُ التَّأجيل، ولا يقبلُ التَّراخيَ، بل هو نداءٌ ملحٌّ إلى المبادرَةِ العاجِلَة، ومطالبة جازمَة بالانبعاثِ الفوريِّ نحوَ مغفرةِ اللّهِ تَعالى وجنَّته، ومِن ثمَّ قال أهل العلم: إنَّ هذه الآية دلَّت على وجوبِ المُسارعَةِ، فكان التَّراخي مَحْظورًا(2).

دلالة المحذوفِ مِن جُملَةِ المُسابقَةِ:

بأعمالِكُم تَسْبِقونَ آجالَكُم، فتَنالونَ مغفرةَ ربِّكُم

في قول اللّه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ محذوفٌ، والمعنى: "تسبقون آجالَكُم بأعمالكم التي توجب لكم المغفرة"(3)، فالسَّبْقُ ليس بالزَّمان فحسبُ، بل بالعمل الصّالح الذي يَسْبِقُ صاحبُه إلى مغفرة اللّهِ تَعالى ورضوانه.

دلالَةُ صيغَةِ المُفاعلة في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾:

سارِعوا مسارعَةَ المُسابِقين لأقرانِهم في الميدانِ

الفعلُ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ وارد على صورةِ المُفاعلَة(4)، وهي صيغَةٌ لا تكونُ إلّا بين اثنَين كما تقول: سابقَ زيدٌ عمرًا، وهذا السَّبْقُ إلى المَغْفِرَة يكونُ بأن يُسارِعَ العبد مسارعَةَ السّبّاقين لأقرانِهم في الميدان، فالمُسابق لا يَكْتَفي ببعضِ الجُهْدِ، بل يَجْتَهِدُ الاجتهادَ كُلَّهُ، ويُؤَيِّد هذا المعنى مَجيئُهُ بلَفْظِ المُسارعَةِ في سورة آل عمرانَ(5).

وفي صيغَةِ المُفاعلَةِ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ مَعْنى المبالَغَةِ أيضًا؛ إذِ الأمر

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 90.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 465.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 530.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 2/ 209.
(5) الرازي، أنموذج جليل، ص: 508.

الإسْراعُ في طريقِ الحقِّ لِبُلوغِ الدَّرَجات، دون تقصيرٍ يورثُ النَّدَمَ أو تَكاسُلٍ يُطْفِئ الهِمَمَ

بمبالغة الإسراع يأتي مراعاةً لِقِصَر عُمُرِ الدُّنيا، فينبغي الإسراعُ في طريق الحقِّ؛ لئلّا يفوتَ الوصولُ إلى الدَّرجات العاليةِ؛ بسبب الإهمال أو التَّكاسُلِ(1).

دلالَةُ تعديَةِ الفِعْلِ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

السِّباق إلى المغفرة في اتِّجاهِ الحقِّ، والتَّنافس في ميادينِ الطّاعة

عُدّيَ فعل المسابقةِ في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ التي تفيدُ انتهاء الغاية(2)؛ لبيانِ الاتِّجاه الحقِّ الذي ينبغي أن يسلُكَهُ النّاسُ، ويتنافَسوا فيه، وهو العمَل للدّار الآخرة، وابتغاء مرضاة اللّه تَعالى، والفوز بمَغْفِرَتِه، ونعيم جنّاته، فمَن أراد التَّفاخر أو الاستكثارَ، فليكُن ذلك في هذا السَّبيلِ بالعمَلِ الصّالحِ الطَّيِّب، في ظلِّ الإيمانِ واتِّقاء المحارِم؛ إذ يُحْمَدُ التَّنافسُ، ويطيب السِّباقُ، ويُثْمِرُ الاجتهادُ في ميادين الطّاعة والبرِّ(3).

وفي تعديَةِ الفعل بـ ﴿إِلَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم في ميدانِ سِباقٍ يَجْرونَ إلى غايةٍ مُسابِقينَ إليها، والمعنى المراد: سابِقوا إلى سببِ المَغفِرة، فالمُسابَقةُ هنا ليسَت حركَةً مجرَّدةً، بَل هي اجتهادٌ متَّصل نحوَ الغايةِ المَنشودَة(4).

دلالَةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾:

تعظيمُ المغفرة، واستقلالُ الجُمْلَةِ في بيانِ السَّعْيِ إلَيها

نُكِّر لفظُ المغفرةِ لإفادةِ التَّعظيم، ولتكون الجملةُ مستقلَّةً بذاتِها؛ إذْ سبَقَ ذِكْرُها في قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فمُقْتَضى الظّاهر أن يُقال: سابقوا إلى المغفرة، أي: أكثروا من أسبابها ووسائلها، واجتَهِدوا في سُلوكِ ما يُقَرِّبكُم منها(5).

سِرُّ التَّعبير بالمغفرةِ دونَ التَّوبةِ:

عُبِّرَ بلفظ المغفرةِ دون التَّوبة؛ لكونِ المقامِ عظيمًا، والإنسانُ وإن

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 373.
(2) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 236.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 780.
(4) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 309.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 408.

اجتَهَد في الطّاعة ضعيفٌ، لا يسعَهُ نيلُ الكمالِ إلّا بالعَفْوِ الإلهيِّ ومغفرتِهِ، سواءٌ أكان سابِقًا أم لاحقًا مِن الأبرارِ والمُقَرَّبين، وقد نبَّه القرآنُ الكريمُ على ذلك بقولهِ في السّابقين: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾، أي: سترًا لذنوبكم عَيْنًا وأثرًا، جامعًا بين الغفران الكلّيِّ، والرَّحمة الشّاملة[1].

لا يَبْلُغُ العَبْدُ الكمالَ إلّا بعَفْوِ اللهِ تَعالى ومَغْفِرَته

بَلاغَةُ المَجاز في المُسابقَةِ إلى المَغْفِرَة:

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ وارد موردَ المَجاز، فالمُسابقَةُ تتجلّى في أنَّها دعوةٌ عامَّة للنّاس إلى عمَلٍ يوجِبُ لَهُم المغفرة[2]، وهو الاجتهادُ في الإيمانِ، والعمَلِ الصّالح، وقيامِ الطّاعات[3]، فالمسابقَةُ هنا مجازٌ عَن التَّنافس في بلوغِ رضوان اللّه تَعالى ورِضاهُ.

سابقوا إلى الغفران بالإيمان والإحسان، وارتقوا في الطّاعات دون كسل أو نقصان

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الابتداء[4]، فتُؤْذِنُ بالكَمال؛ إذ إنَّ المغفرةَ صادرَةٌ مِنَ اللّهِ ﷻ، جامعًا بين العطاء المُطْلَق، والسَّببِ الحقِّ لنَيْلِ الرِّضا والفَضْل.

ابتداءُ المَغْفِرَة مِن الرَّبِّ إيذانٌ بالكمالِ والفضلِ

سِرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿رَّبِّكُمۡ﴾:

استُعمِل لفظ الرُّبوبيَّة ﴿رَّبِّكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى إحسانِه إليكُم، فهو الذي ربّاكم، وأنعم عليكم وأحسن إليكم بعدَ الإيجادِ بأنواعِ الأسباب، فتشمَلُ ربوبيَّتُه الهدايةَ والتَّربيةَ والرِّعايةَ، وهو الذي يوفِّر لكم أسبابَ الخير والبركةِ حينَما تَقومونَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتناب زواجره[5].

مَن أحسَنَ إليكُم بالإيجادِ والإنعامِ، فأحْسِنوا إليه بالانقيادِ والطّاعة

فمعنى الرُّبوبيَّةِ في ﴿رَّبِّكُمۡ﴾: أنَّه الذي ربّاكم على فِطرَة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 292.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 194.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 110.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 221.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 292.

الهِداية والتَّوحيد، ووفَّر لكُم وسائِلَ دخولِ جنَّةٍ واسعةٍ فسيحَةٍ[1]، فكانَ جامعًا بين الخَلْقِ والإيجادِ، وبينَ التَّربيةِ والإرشادِ.

دلالَةُ الإضافةِ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

أُضيفَ اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَبين في قوله تَعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لإظهارِ مزيدِ اللُّطْفِ بهم[2]، ولاستِشعارِ أثَرِ الرِّعايَةِ الإلهيَّة القَريبَة، فتَزْداد النُّفوس حَماسًا واجتهادًا في السَّبْقِ إلى الطّاعاتِ.

بلطفٍ من ربِّهم الرَّحمن تسابَقَ العـابـدونَ إلى الرِّضوان

بلاغَةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

قول اللّهِ تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وارد على سبيلِ المجازِ؛ إمّا المرسَلُ أو الاستعارة، فأمّا المجازُ؛ فمِن إطلاقِ الملزومِ وإرادَةِ لازمِه؛ إذ استُعمِلَ اللَّفظُ في لازم معناه؛ فالمرادُ ليسَ حقيقةَ السَّبْقِ الذي يَقْتَضي التَّقدُّمَ على الأقران، بل لازِمُه، وهو المُبادرَةُ إلى ما يكون سببًا للمغفرة، ودخولِ الجنَّة، فلا يُتَوَهَّم أنَّ العِبرةَ بمُجرَّد التَّقدُّم على الآخرين، بل بحقيقةِ الاندفاع إلى أسبابِ القَبولِ، والفوزِ بالجنَّة[3].

مَن رامَ المغفرة؛ فليُبادِر بالسَّعي إلى أسبابِها

ويجوزُ أن يكونَ من بابِ الاستعارَةِ التَّبعيَّة؛ إذ جُعِلَ العمل الصّالح في ميدانٍ يُشْبِهُ ميدانَ السِّباق؛ تنبيهًا على المبالغة في تحصيل المَبَرّات، واستِحثاثًا على سُرْعَة المبادرةِ إلى الطّاعات في أوائلِ أوقاتِها، فجاء التَّعبيرُ أبلَغَ من قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [آل عمران: 133]، وأشدَّ وقعًا من قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [آل عمران: 133][4]؛ لِما فيه مِن تصويرٍ بديعٍ يُلْهِبُ الهِمَم، ويُشْعِلُ في القَلْبِ جذوةَ التَّنافس في ميادينِ القُرُباتِ، حتّى كأنَّ الفَضْلَ الإلهيَّ غايَةٌ يَتَسابَقُ إليها المُتَسابِقونَ.

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 390.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 85.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 185.

(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 465.

دلالَةُ التَّعبير بالواوِ في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ﴾:

كمالُ العطاءِ بين رفْعِ العُقوبَةِ وإسباغِ النِّعْمَةِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ﴾ جاءَتْ عاطِفَةً الجنَّةَ على المغفرة[1]، فالآية جمَعَت بينَ رفْعِ العُقوبَةِ وآثارِها، وبينَ إسباغِ النِّعمةِ؛ ليَكْتَمِلَ بذلِكَ كمالُ العطاءِ الإلهيِّ.

استِعمالُ لفظِ (جَنَّةٍ) مفردًا منكَّرًا:

جنَّة عظيمة لكلِّ من أطاعه من عباده المؤمنين

أُفْرِدَ لفظُ (جَنَّةٍ) في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، أي: إنَّها جنَّة واحدةٌ من جنّات النَّعيم[2] لكلِّ مؤمنٍ مطيعٍ، موفورةُ النَّعيم، كأنَّها وُهبت لَهُ وحدَهُ، فلا يُشارِكُهُ فيها غيرُه[3]، وإيرادُها نكرةً إيماءٌ إلى عِظَمِ تلك الجنَّة، وجلالِ قَدْرِها[4].

سِرُّ تقييدِ المغْفِرَةِ بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دون (الجنَّة):

المغفرةُ عطاء ربّاني لا يُشترى، والجنَّة جزاءٌ إلهيٌّ يُرتجى

في تقييد المغفرة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دون الجنَّة؛ لكونِ المغفرَةِ أثَرًا مباشرًا من آثارِ رحمَةِ اللّه تعالى ولُطفِه، فهي عطاءٌ مَحْضٌ صادِرٌ مِنَ الرَّبِّ الغفور، لا مدخلَ فيهِ لعمَلِ العَبْدِ إلّا من جهَةِ التَّعرُّض لأسبابها؛ فناسب أن تُقيَّد بالرُّبوبيَّة الدّالَّة على التَّربية والرَّحمة والسَّتر، أمّا الجنَّة؛ فهي دار الجزاء، ينالُها المؤمنون بفضْلِ اللّه تعالى أوَّلًا، ثُمَّ بما قدَّموا من عملٍ صالحٍ ثانيًا.

دلالَةُ تقديم المغْفِرَةِ على الجنَّةِ:

المَغْفِرَةُ تطهيرٌ قبلَ الجزاءِ، والجنَّةُ ثمرَةُ القُلوبِ المُنقّاة

قُدِّمَت المغفرَةُ على الجنَّةِ في الآيةِ؛ لأنَّ المغفرةَ هيَ الأصلُ والشَّرْطُ، والجنَّة ثمرةٌ ونتيجَةٌ[5]، فمَن غَمَرَتْهُ رحمَةُ اللّهِ تَعالى، وكَساهُ سِتْرُهُ؛ كان جديرًا بأن يُفْتَحَ له بابُ الفِرْدَوس، فالمغفرةُ تمهيدٌ يُطَهِّر الصَّحائفَ، ويُنَقّي القلوبَ من أدْرانِ الذُّنوب، والجنَّةُ جزاءٌ

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 471.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 244.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 465.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 72.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 420.

يتَجلّى بعد التَّطهير، وفي تقديمِ المَغْفِرَةِ على الجنَّة في الآية الكريمَةِ: تقديمٌ لِلتَّخْلِيَةِ عَلى التَّحْلِيَةِ[1].

سِرُّ جَمْعِ المُسارعَةِ بينَ المغفرة والجنَّة:

بين السَّتر والإكرامِ حين يَجتَمِعُ دفْعُ العقوبة وجلْبُ النَّعيم

السِّرُّ في جمع المسارعَةِ بينَ المغفرة والجنَّة أنَّ المقصودَ وعْدٌ جامِعٌ يضُمُّ طَرَفَي الكرامَة الإلهيَّة؛ إذِ المغفرَةُ رفْعٌ للضُّرِّ ودفْعٌ للعُقوبَة، والجنَّة جَلْبٌ للنَّفع، واستِجْلابٌ للنَّعيم، فلو اقتصر الوعدُ على المغفرةِ؛ لكان فيه سَتْرٌ بلا إكرام، ولو قُصِرَ على الجنَّة؛ لَما استقامَ الدُّخول إليها مع بقاءِ الأوزار.

سِرُّ تَقْييدِ الجنَّة بوَصْفِها بالعَرْضِ:

تقريبٌ لِعَظَمَةٍ لا تُدْرَك، وإيحاءٌ بِسَعَةٍ لا تُحَدُّ

ذُكِرَ العَرْضُ في قول اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ تنبيهًا على عِظَم السَّعة؛ إذ العَرْضُ لا يُذْكَرُ إلّا حيث يُراد الإيحاءُ بالامْتِدادِ البالغ، والفُسْحَةِ العظيمة، فجَعَلَ اللّٰهُ سُبْحانَهُ عَرْضَها كعرضِ السَّماء والأرض، لا على سبيل الحَصْرِ الدَّقيق، والتَّقدير المحسوب، ولكن لِيُقَرِّب إلى أذهانِ الخَلْقِ عظمَةَ شأنِها؛ إذْ لا يُتصوَّر في مدارك البَشَر شيءٌ أوسَعُ مِنَ السَّماوات والأرض[2].

سِرُّ تخصيصِ ذِكْرِ العَرْضِ دون الطّولِ:

ذِكْرُ عرضِ الجنَّة تمثيلٌ لشدَّةِ السَّعَةِ

في ذِكْرِ العرضِ دون الطّولِ جريٌ على طريقة العرَبِ في تقديرها سعةَ الأشياءِ بِعَرْضِها؛ إذ هو الأقربُ إلى تصوُّرهم ومِقْياسِهم في المَحْسوسات، فذِكْرُ العَرْضِ هنا تمثيلٌ بِما يَأْلَفونَه في حياتِهم ومُعاملاتِهم؛ إذ يعبِّرون بالعَرْضِ عن السَّعَة، ثُمَّ إنَّ أعظمَ ما يستقرُّ في أذهانِ الخَلْقِ مِنَ الاتِّساعِ إنَّما هو امتدادُ السَّماوات والأرض[3].

بيانُ شدَّةِ السَّعةِ والامتِداد في وصْفِ الجنَّة

وجرت العادةُ أنَّ كلَّ ما له طولٌ وعرضٌ، فإنَّ عرضَهُ يكون أقلَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 211.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 530.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 128.

من طوله، فإذا وُصِفَ العرضُ - وهو في الغالِبِ أضيَقُ الجانِبَيْن - بهذا البَسْطِ العظيم والامتدادِ الواسع؛ كان ذلك دالًّا بطريق الأَوْلى على أنَّ الطّول أبسَطُ مَدًى، وأعظَمُ سعَةً[1].

مَعْنى الكافِ ودلالتُها في قوله: ﴿كَعَرۡضِ﴾:

الكافُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّشبيهِ، وهو تشبيهٌ بالإطلاقِ بلا تَقْييدٍ أو حَصْرٍ، فجاء الذِّكْرُ بهذهِ الصّياغة؛ ليُشيرَ إلى أنَّ عرضَ الجنَّة أوسعُ وأعظمُ مِن امتدادِ السَّماوات والأرض، بما يتناسب مع إدراكِ العَبْدِ لِسَعَتِها، فلو كان عرضُها بهذا الاتِّساع؛ فما ظنُّك بطولِها الذي لم يُحدَّ، ولا يُقدَّر؟ فيُفهم مِنهُ أنَّ الجنَّة غيرُ متَناهيَةٍ، ولا تحدُّها حدودٌ[2].

فـضـاءُ الـجـنَّـةِ المُطْلَقُ سَعَةٌ لا تحدُّ، وعظمَةٌ لا تُحاط

سِرُّ إعادَةِ لَفْظِ (عرض) معَ سَبْقِ قولِه: ﴿عَرۡضُهَا﴾:

أُعيدَ لفظُ العَرْضِ في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، مع سبق ذِكْرِه في سياق الحديثِ عَنِ الجنَّة؛ لإفادة التَّأكيد، والتَّنبيه على المَعْنى، ولفْتِ الانتباه إلى عِظَمِ السَّعة وامتدادها، فهي سَعَةٌ عظيمَةٌ جدًّا، فيستحقُّ الإشعارُ بها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

سَعَةٌ لا تُحَدُّ، وفَضْلٌ لا يُعَدُّ

دلالَةُ تَشْبيهِ عَرْضِ الجنَّةِ بمَجْموعِ عَرْضَي السَّماء والأرضِ:

تشبيهُ عَرْضِ الجنَّة بمجموعِ عَرْضَيِ السَّماوات والأرض واردٌ على جِهَةِ المبالغَةِ، فالجنَّة من حيثُ الامتدادُ والانْفِساحُ في غاية العظمةِ والاتِّساع، فحَسُنَ التَّعبير عنها بمثالٍ يفوقُ كُلَّ تَصَوُّر، كما تقولُ للعابِرِ عَن بحرٍ مُترامي الأطراف: هذا بَحْرٌ، أو لمَنْظَرِ جبَلٍ شاهقٍ: هذا جبلٌ، فالآية لَم تَقْصِد تحديدَ العرْضِ، بل المرادُ أن تُصَوِّرَ للإنسانِ أعظمَ ما رآهُ في إدراكِهِ وحيِّز نَظَرِهِ[3].

تصويرٌ بما وسِع البصَر، وامتدَّ في النَّظَرِ؛ ليُدْرِكَ الـعـبـدُ عِـظَـمَ الـقَـدْرِ وسَـعَـةَ الأثَرِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 479.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 350.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 205.

سِرُّ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ دون جَمْعِها:

أُفْرِد لفظُ السَّماء في قوله: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ المرادَ به جنسُ السَّماواتِ كلِّها لا مفرَدُها، كما يَظْهَرُ مِنَ الجَمْعِ في سورة آلِ عمران[1]، فالإفرادُ يدلُّ على الكلّيَّة والعموم معَ وُضوحِ اللَّفظ.

إفرادٌ في اللَّفظ وعمومٌ في المَعْنى

فالمرادُ هو الإشارة إلى جنس السَّماوات كلِّها باعتبارها كلِّيَّة موحَّدة في الاتِّساعِ والعظمَةِ، لا التَّفصيل إلى تعدُّدها كما في سورةِ آلِ عِمْرانَ، ولذا عُبِّرَ بالإفراد[2]؛ ليُبرزَ العمومَ والكلّيَّة بإيجازٍ بليغ، ويُبقي الصّورةَ حاضرَةً في الذِّهن دونَ تَشْتيتٍ أو حَصْرٍ.

دلالَةُ ذِكْرِ الأرضِ معَ السَّماءِ مَع أنَّ السَّماءَ أكبَرُ:

في الجمع بين المألوف والعظيم: تقريبٌ لِعَظَمَةِ الجنَّة بما يفوقُ تصوُّرَهُم وحدودَ خيالِهِم

اقترانُ الأرض المحدودةِ مع السَّماء الواسعَةِ تمثيلٌ بما يعيه النّاسُ، ويعهدونَهُ، ويستقرُّ في نفوسِهم وأفكارهم[3]؛ إذْ أكثَرُ ما يقَعُ في تَصوُّرِهم، ويُدْرِكونَهُ هو امتدادُ الأرضِ والسَّماء معًا، والسَّماءُ هنا تشمل كلَّ ما علاك، أي: جميع السَّماوات السَّبع وما فوقها[4].

دلالةُ اللّامِ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

استغراقٌ لِيَشْمَلَ كلَّ شيءٍ مِنَ المادَّةِ والامتدادِ

دلالةُ (أل) في لَفْظَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستِغراق[5]، فيُراد بهِما كلُّ ما يَشْمَلُه هذان الجِنسانِ من المادّيات والامتداداتِ، فلا يُستَثنى شيءٌ من السَّماوات السَّبع وما عليها، ولا شيءٌ من الأرض وما عليها.

سِرُّ فَصلِ جُمْلَةِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ عمّا قبلها:

سِباقُ القُلوبِ إلى الجنَّةِ، وجوابُ الفَضْلِ لأهلِ المِنَّة

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فالأمْرُ بالمُسابقةِ إلى المغفرة والجنَّة يثير

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 348.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 292.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 465.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 350.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 374.

في نُفوس السّامعين أن يَتَعَرَّفوا مَنِ الذين أُعدَّت لَهُمْ، فجاءَ الجوابُ بأنّها أُعِدَّت للذين آمنوا باللّه تعالى ورُسلِهِ ﷺ؛ لأنَّهم أهلُها فَضْلًا مِنَ اللّهِ تعالى.

دلالَةُ التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿أُعِدَّتْ﴾:

جنَّةٌ أُعِدَّت، فأُكْمِلَت، وأُحْكِمَت، وبأيْسَرِ أمْرٍ قُضيَت

عُبِّر بفِعْلِ الإعدادِ في قولهِ تَعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ لبيانِ تمام الإعدادِ وكَمال التَّهْيئَة، فاللّهُ تَعالى قد أعدَّ هذه الجنَّةَ المَوْعودةَ لِعِبادِه المُؤْمنين، وفرَغ مِنْ أمْرِها بأيْسَرِ الأمْرِ[1].

واستِعمالُ الفِعلِ ﴿أُعِدَّتْ﴾ يقتَضي الحَصرَ والتَّخصيص، فالإعدادُ هُنا يَقتَصِر على المُطيعين[2].

دلالَةُ التَّعْبير بفِعْلِ الإعْدادِ ماضيًا مبنيًّا للمَفْعول:

الجنَّةُ مخلوقةٌ وموجودةٌ الآنَ

الفِعْلُ ﴿أُعِدَّتْ﴾ واردٌ بِصيغَةِ المُضيِّ[3]؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجنَّةَ قد خُلِقَت، وأُعِدَّت، وهي الآن موجودةٌ؛ لأنَّ الأصلَ في الفعلِ الماضي دلالتُهُ على وقوعِ الفِعْلِ وتحقُّقِه، وقد دلَّت نصوصٌ كثيرةٌ جدًّا من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ الآنَ، وهي عقيدةُ أهل السُّنَّةِ والجماعَةِ.

سِرُّ تَخْصيصِ الجنَّةِ بالذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه، وفي سورة آل عمرانَ بالمتَّقينَ:

دِقَّةُ النَّظم القُرآنيّ في اختيار الألفاظِ المُناسِبَةِ لِمَقاماتِها

خُصَّت الجنَّةُ هنا بالذينَ آمَنوا باللّهِ تَعالى ورُسُلِه، بينَما خَصَّها النَّظم القرآنيُّ في سورةِ آلِ عِمْرانَ بالمُتَّقين؛ لأنَّ الفارق في السّياق والمقام، فآية آل عمران جاءت في الأمْرِ بالمُسارعة، وهو أخصُّ مِنَ المُسابقَةِ؛ إذ الهدفُ هوَ الحثُّ على التَّجرُّدِ الكامل عنِ النَّفسِ والمال وجميع الحُظوظ؛ لذا كانت الجنَّةُ هناك للمُتَّقين الموصوفين بهذا التَّجرُّد التّامِّ، أمّا آية الحديدِ؛ فواقِعَةٌ في سياق التَّصديقِ والإيمانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 293.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 409.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.

الصّادِق، الذي يُعَدُّ تجرُّدًا عن فُضولِ الأموال دونَ غيرِه؛ فلذلك كانَت الجنَّةُ مُخَصَّصة بالّذين آمَنوا[1].

دلالَةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

اختِصاصُ الجنَّة بأهْلِ الإيمانِ

دلالةُ اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ الاختِصاصِ والاستِحقاقِ[2]، أي: إنَّ الإيمانَ وحدَهُ يَكْفي لانتفاعِ المؤمنين بهذه الجنَّة، دون أن يَشْتَرِكَ معهُم فيها غيرُهم، فيُفهَم مِن ذلك أنَّ صفةَ الإيمانِ شَرْطٌ للانتماء إلى أهْلِ الجنَّة[3]، وأنَّها جزاءٌ مخصوصٌ لأصحابِ الإيمانِ، وثمرةٌ مباشِرَةٌ لتَصْديقِهم باللّهِ تَعالى ورسلهِ عليهم السلام.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ (للمؤمنين):

بالإيمانِ نالوا الغفرانَ، وأُعِدَّت لهم الجنانُ في أوسَعِ مكانٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ المَوصولِ وصلِته ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (للمؤمنين)؛ للدَّلالة على أنَّ جملةَ الصِّلة علَّةٌ لاستِحقاقِهم الجزاءَ المَذكورَ، فالإيمانُ باللّهِ تَعالى ورسُلِه عليهم السلام علَّةٌ لاستِحقاقِهم المغفرةَ والجنَّة التي عَرْضُها كعرضِ السَّماوات والأرض التي أُعِدَّت لهم.

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الإيمانِ ماضيًا:

في استعمالِ فِعْلِ الإيمان ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا دلالةٌ على أنَّهم أوْقَعوا هذه الحقيقَةَ في قُلوبِهم وأعمالِهم، وهيَ الإيمان، ورسَخَت فيهم، فتحقَّقوا بها غايةَ التَّحقُّق.

دلالَةُ تَعْدِيَةِ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالباء:

بيانُ شِدَّةِ ارتِباطِهم بما آمَنوا بِهِ

عُدّي فعلُ الإيمان بالباءِ في قول اللّه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على لزومِهم هذا الإيمانَ، وثباتِ الإيمان فيهم ورسوخِه في قلوبِهم، وذلك لأنَّ الباءَ تدلُّ في الأصلِ على الملاصقةِ، فتعديةُ فِعْلِ الإيمانِ بالباءِ إيماءٌ إلى شدَّةِ ارتباطِهم بما آمنوا بِهِ ارتباطًا وثيقًا أكيدًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 292.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 350.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 211.

دلالَةُ التَّعْبير بالاسمِ الأحسَنِ (اللهِ):

الاسمُ الأحسنُ (الله) جامعٌ لمَعاني العظمَةِ والكَمال

المقصود من التَّعبير بالاسم الأحسَنِ (اللّهِ) الإيماءُ إلى أنَّه الذي له جميعُ العظمَةِ والكمال لأجل ذاتهِ، لا لِشَريكٍ لَهُ، ويكونُ لَهُ الإيمانُ[1] خالصًا من كلِّ غرَضٍ دُنْيَويٍّ أو اعتباريٍّ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالرُّسُلِ جَمْعًا:

وجوب الإيمانِ برسُلِ اللهِ تَعالى جميعًا

في جَمْعِ الرُّسل إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان بجميع رسل اللّه تعالى هو الإيمان الحقُّ؛ إذْ كانوا جميعًا على دينٍ واحدٍ هو الإسلام، كما بيَّن سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وهذا الإيمان الشّامل يُفْضي إلى نيلِ فَضْلِ اللّهِ العظيم، كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

وفي جَمْعِ الرُّسُل أيضًا إيماءٌ إلى شمولِ كلِّ أمَّةٍ آمنَت باللّه تَعالى وبرُسُلِها الذين أرْسَلَهُم اللّهُ سُبحانَهُ إليهم، دون أن يُلْزَمَ المؤمنونَ في أمَّةٍ ما اتِّباعُ رسولٍ أُرْسِلَ إلى أمَّة أخرى، ولم يُبعَث إليهم[3]، مع وجوبِ الإقرارِ بأنَّ جميعَ الرُّسل جاؤوا على صِراطٍ واحِدٍ، هو صراطُ الإيمانِ والتَّوحيد.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الأنبياءِ مع دلالَةِ الإضافَةِ:

الرَّسولُ أخصُّ مِنَ النَّبيِّ

جاءَ التَّعبير بالرُّسل دون الأنبياء؛ لأنَّ الإيمانَ بالرُّسلِ يكمُل بالإيمان بما في أيديهم من الكتب الإلهيَّة والعمل بما فيها[4]، فلا يكتفي الاعتقاد بصفات النُّبوَّة فحسبُ، وفي اختيارِ لفظِ الرُّسُل دون الأنبياء في قول اللّه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾، إشارةٌ إلى جانبِ التَّبليغ والدَّعوة؛ إذِ الرَّسول مَن أوحيَ إليه بشَرْعٍ، وأُمِرَ بتبليغهِ، والإيمانُ بالرُّسل يتضمَّن تصديق ما جاؤوا به من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 293.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 781.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 409.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 374.

شرائعَ مُبلَّغة، ممّا يجعل إيمانَ المؤمنين إيمانًا شاملًا لجميع الرُّسل مِن غير تفريق.

وفي إضافةِ لَفْظِ الرُّسل إلى الضَّمير العائد إلى اللّٰهِ سبحانه في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، إشعارٌ بجلالَةِ النِّسْبَةِ وعُلوِّ المَقام، فهم رُسُلُه الذين اصطفاهم واختارهم، وحمَّلهم أمانةَ وحيه، وبهم أشرقَ نورُ هدايته في الآفاق، فالإضافةُ هنا ليسَت مجرَّد صلةٍ لغويَّة، بل هي رابطةُ تَشْريف؛ إذ هُم مَنْسوبونَ إليهِ تعالى، مُشرَّفون برسالَتِه، مكرَّمون بحَمْلِ كَلِمَته.

سِرُّ الاقتصارِ على الإيمانِ باللهِ تَعالى ورُسُلِهِ عليهم السلام دونَ بقيَّة الأركانِ:

لُـبُّ الإيمـانِ الجـامـع هو الإيمـانُ المطلق بـاللـهِ تـعـالى ورسلهِ عليهم السلام

اكتُفيَ في متعلِّق الإيمان بذِكْرِ اللّٰه تَعالى ورسله عليهم السلام دون سائر أركان الإيمانِ؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبراز لبِّ الإيمان، وأصلهِ الجامع، فمَن آمن باللّٰهِ تَعالى إيمانًا مطلقًا، وآمن برسُله جميعًا تصديقًا شاملًا لا يَعْتَريهِ شكٌّ ولا نَقْصٌ؛ فقد استحقَّ دخولَ الجنَّة، ولأنَّ مَن آمَن باللّٰه تعالى ورسله عليهم السلام؛ فإنَّه يُؤمن بجميع ما جاءَ عنهم، ومِن ذلك: الإيمانُ بكتب اللّٰه المُنَزَّلةِ والملائكة واليوم الآخرِ والقدَرِ خيرهِ وشرِّهِ، فكان ذِكرُ الإيمان باللّٰه ورسلِه مستلزِمًا الإيمانَ ببقيَّةِ أركان الإيمانِ.

فائدَةُ عطفِ الرُّسُلِ على الاسمِ الأحسَنِ (اللّٰه):

لا يعتدُّ بالإيمانِ بـاللـهِ تـعـالى؛ إن جُحِدَتْ فيه رسالاتُهُ

الواو في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ عاطفَةٌ الرُّسُلَ على الاسم الأحسَنِ (اللّٰه)[1]، وفي ذلكَ بيانُ أنَّ الإيمانَ الحقَّ لا يقتصر على الإقرار باللّٰهِ تَعالى وحدَه، بل لا يكتمِلُ إلّا بالإيمان برسلِه جميعًا؛ لأنَّهم وسائطُ هدايَتِه ومُبَلِّغو شرعِه، وفي هذا العطفِ أيضًا إبرازٌ لَمقامِهم ورفعَة شأنِهم، وتأكيدٌ لوحدَةِ الرِّسالات وتَكامُلِها.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ﵟعِـظَـمُ فَـضـلِ اللّه تعالى على أهْلِ الإيمانِ مِن عِبادِهِﵞ

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ اسمُ إشارةٍ دالٌّ على البُعْد[1]؛ وذلك للإشارة إلى عِظَم فضلِ اللّه تعالى عليهم، ورفيعِ منزلَتِهِ[2]، ولازِمُ ذلك تعظيمُ أهل الفضْلِ، وهم أهل الإيمان الذين آمنوا باللّه تعالى ورسله عليهم السلام.

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

اخـتـصـاصٌ في العَطاء وتعظيمٌ في النِّسبَةِ ودوامٌ لا يَعْتَرِيهِ انقِطاعٌ

أضيفَ الفضْلُ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾؛ للإيذانِ بالاختصاصِ والتَّعظيم والدَّوام، فكأنَّ هذا الفَضْلَ صفَةٌ ملازمَةٌ للّهِ تَعالى، وعطاءٌ موصول صادِرٌ عنه بلا انقطاعٍ، ولو قيل: (فضلٌ مِن اللّه)؛ لأوهَمَ أنَّ العطاء جزءٌ من فيضٍ واسعٍ أو أمرٌ عارِضٌ، وهوَ غيرُ مرادٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعظيمٌ للذّاتِ وإبـرازٌ للفَضْلِ الذي لا يُقاسُ، ولا يُضاهى

عُبِّر بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دون (الرَّبِّ)، في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لإظْهارِ الكَمال والعظَمَةِ المُطْلَقَة لأَجْلِ ذاته، فالفضلُ منهُ لا يُقاسُ، ولا يُضاهى، فهو على مَعْنى الملكِ الذي لا كفْءَ لَهُ[3]، وهو الاسمُ الجامِعُ لمعاني الكمال والجَمال والجلالِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡتِيهِ﴾:

فضلٌ متجدِّدٌ، وعطاء لا يتبدَّدُ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُؤۡتِيهِ﴾؛ للإشارة إلى استمرارِ الفَضْلِ ودوامِهِ، وأنَّه لا انقطاعَ لهُ، فهم في الجنَّة خالدونَ، ونعيمُهم فيها غيرُ مَقطوعٍ ولا مَمْنون.

دلالَةُ الإضْمارِ في فِعْلِ الإيتاءِ:

بـلاغـةُ الإيـجـازِ وسُرْعَـةُ الإيتاءِ في المِنَّةِ الإلهيَّةِ

الإضمار في قوله: ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ جاءَ لقصد الإيجازِ، والدَّلالةِ على

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 351.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 293.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 293.

سُرعة الإيتاء في المنَّة الإلهيَّة، فالمقصودُ أنَّ اللّه يعطي الفَضْلَ، مع التَّأكيد أنَّ الفضلَ يُصْرَفُ لَمن يشاء دون الحاجة إلى تفصيلٍ أطولَ، كما أنَّ الإضمارَ جارٍ على مقتضى الظّاهرِ لتقدُّم مرجعِ الضَّمير قريبًا في قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾.

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الموْصولِ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

شمولُ الفَضْلِ الإلهيِّ للطّائع ابتداءً، وللعاصي بعدَ العقابِ

التَّعبير بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ مؤذِنٌ بأنَّ الفضلَ يُعْطى مَن يشاء من عبادِهِ مِن أهل الإيمان، سواءٌ أكانوا من المتَّقين الطّائعين، أم كانوا مِنَ عصاةِ الموحَّدينَ؛ إذ عصاةُ الموحَّدينَ يُقْطَعُ لهم بدخول الجنَّة في المآلِ، وقد يدخلُ بعضُهم الجنَّة ابتداءً؛ إذا عفا اللّهُ تَعالى عَنْهُ.

دلالَةُ التَّعبير بالمَشيئَةِ:

الإيماءُ إلى العِنايَةِ الرَّبّانيَّة والإحسانِ الإلهيِّ

جاءَ التَّعبير بفعل المشيئةِ؛ تأكيدًا على أنَّ إدخالَ الجنَّة محضُ فضلٍ مِنَ اللّه تعالى، وليس أمرًا واجبًا على اللّه تَعالى[1]، فكلُّ فضلٍ ومنَّةٍ منه صادرٌ بتفضُّلٍ وتكرُّمٍ، فيَظْهَرُ بذلك كمالُ القُدرة والعظمةِ الإلهيَّةِ.

وفي التَّعبيرِ بفِعْلِ المشيئةِ إشارةٌ إلى العناية والإحسانِ الإلهيِّ النّاشئِ مِن مَحْضِ الإرادة، كيف لا؟ واللّهُ غنيٌّ بذاته، مستقلٌّ عن عبادةِ المخلوقاتِ، ومستغنٍ مطلقًا عن مظاهرِها[2].

دلالَةُ حذفِ مفعول ﴿يَشَآءُۚ﴾:

بيانُ سَعَةِ التَّصرُّف الإلهيِّ

حُذف مفعول المشيئةِ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، والمعنى: من يشاء أن يؤتيَهُ اللّهُ إيّاهُ[3]؛ للدَّلالة على سَعَةِ التَّصرُّف الإلهيِّ؛ إذْ يَصْرِفُ فضلَهُ لِمَن يشاءُ مِن عِبادهِ بِلا حدودٍ أو قُيودٍ.

(1) الإيجي، جامع البيان: 4/ 267.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 390.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 211.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

رَبْطُ المِنَحِ الرَّبّانيَّةِ بكمالِ الذّاتِ الإلهيَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾ حرفٌ دالٌّ على العَطْفِ[1]، فهي تربِطُ بينَ ما سبق ذِكْرُه من فضل اللّهِ تَعالى، وبينَ ثبوتِ صِفَةِ الفضلِ للّهِ تَعالى؛ لتأكيد أنَّ كلَّ ما أُشير إليه مِنَ المنح والكرامة متَّصلٌ بجلالِهِ وكمالِهِ، وهو انتقالٌ من فضلٍ خاصٍّ إلى فضلٍ عامٍّ.

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الأحسَنِ (الله) دونَ إضْمارِهِ:

دلالَةُ الاسمِ الأحسَنِ (الله) عَلى صِفاتِ الكَمالِ والجَلال

أُظْهِرَ الاسمُ الأحسَنُ (الله) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دون إضمارِهِ، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (وهو ذو الفضل العظيم)؛ لأنَّ في الإظهارِ بيانَ أنَّ الملكَ الأعظمَ سُبحانَهُ مختصٌّ بجميعِ صِفات الكمال والجلالِ، وأنَّ له الأمرَ كلَّهُ بلا شريك[2].

دلالَةُ مجيء الفَضْلِ مُعَرَّفًا:

بيانُ كَمالِ الفَضْلِ الإلهيِّ

جيءَ بلفظِ الفَضْلِ مُعَرَّفًا في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لإفادَةِ معنى الكمالِ، أي: الفضل الذي لا مُبْتَغى وراءَهُ[3]، فهو فَضْلٌ كاملٌ مُطلقٌ، صادِرٌ عن اللّه تعالى، وفيه إظهارُ عظمَةِ المِنَّةِ الإلهيَّة وكمالها في العَطاءِ والجَزاءِ.

سِرُّ وصفِ الفَضْلِ بالعَظيم دونَ الكبير:

فضلٌ ممتَدٌّ ورِزْقٌ في الدُّنيا، وهدايَةٌ للشُّكْرِ وجزاءٌ في الآخرةِ

اختير وصفُ الفَضْلِ بالعَظَمة دونَ الكِبَرِ؛ للدَّلالةِ على شُموليَّة الفَضْل، وعلوِّ قَدْرِه وسُموِّه، فلا يَقْتَصِر على كِبَرِ المِقْدار، بَل يشمَلُ السَّعة في الرِّزق، وتنوُّع النِّعم، وبيانَ موضِع الشُّكر، والجزاءَ الأخرويَّ المعدَّ لَهُم على الطّاعةِ[4]، وفي هذا الوصفِ تنبيهٌ على عَظَمَةِ حالِ الجنَّة وسموِّها.

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 523.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 211.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 195.

دلالَةُ إيرادِ وصفِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ معرَّفًا بـ(أل):

إطلاقُ الفَضْلِ وعُمومُهُ

التَّعبير بوصفِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ معرَّفًا، فيه إشارةٌ إلى الإطلاق والعموم والسُّموِّ المطلق للفضلِ الإلهيِّ، فهو فضلٌ مُطْلَقٌ يمنحُهُ اللهُ تَعالى مَن يشاء مِن عباده، لا يَقْتَصِر على نوعٍ أو مِقْدارٍ، وأعظمُ صوَرِ هذا الفضل تتجلّى في النُّبوَّة والتَّقوى والعلمِ والخير بجميعِ صورِه[1].

بلاغَةُ التَّذْييلِ بِقَوْلِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

خِتامُ الفَضْلِ تأكيدٌ لِسَعَةِ العَطاء الإلهيِّ وتَمامِ النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، واردٌ لتأكيدِ التَّفضُّلِ الإلهيِّ على مَن يشاءُ مِن عبادِه، فمَعَ عظمَةِ قَدْرِ الفَضلِ وعِظَمِ شأنِه، لا يَبعُدُ أن يَمْنَحَهُ اللهُ تَعالى لِعبادِه، وموقع الجملةِ هنا تذييلٌ يَخْتَتِمُ ما سبَق مِن بيانِ النِّعمِ والفضل الإلهيِّ[2]، مؤكِّدًا سعةَ العَطاءِ الرَّبّانيِّ وشمولَهُ.

سِرُّ اختِلافِ خِتامِ الآيَةِ معَ ختامِ آيَةِ آل عمرانَ:

في وصفِ العظيمِ في ختامِ الآيةِ يتجلّى سموُّ الفَضلِ وعلوُّ الذّاتِ

خُتِمَت هذهِ الآيةُ بغَيْرِ ما خُتِمَت بِه آيةُ سورةِ آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]، فالوصفُ بالعظيم جاء هنا؛ لِيُبْرِز علوَّ القَدْر، وسُموَّ الفضل الإلهيِّ[3].

بلاغَةُ الاتِّفاقِ والاختلافِ بينَ آيَةِ الحديدِ وآية آل عمرانَ:

قال اللهُ تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133]، وقال سُبحانَهُ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

جاء التَّعبيرُ في آية آل عمران بالمسارعَةِ في قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ﴾

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 351.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 466.

آيـةُ آلِ عمران آمِـرَةٌ المتَّقينَ بِـالمُـسـارِعَـةِ، وآيـةُ الحديدِ آمـرةٌ المؤمنينَ بالمُسابقَةِ

[آل عمران: 133]؛ إذ المسارعَةُ مقدَّمة في الرُّتبة على المسابقَةِ، وهي أن يُبادِرَ المرءُ قبلَ غيره، فجاءت مناسبةً لَمقام الحثِّ على التَّقوى والطّاعة بعد ذِكْرِ الأمر بهما، وجاء الوصف بـ ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133] من غير كافِ التَّشبيه؛ إيغالًا في المبالغَة، حتّى كأنَّ السَّماواتِ والأرضَ أنْفُسَهما صارَتا عَرْضًا للجنَّة، ثُمَّ خُصَّ الخطابُ بالمتَّقين؛ وهم صفوةُ المؤمنينَ.

أمّا في آيةِ الحديدِ؛ فجاء الأمر بالمسابقَةِ في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾؛ إذِ المُسابقَةُ مبنيَّة على المسارعةِ، وتَقْتَضي التَّزاحمَ والتَّنافُس، وهو أنسَبُ لِلمقام بَعْدَ ذِكْرِ لهو الدُّنيا وزينَتِها، فخوطِبَ بها عمومُ المؤمنين باللّهِ تَعالى ورسُلِه عليهم السلام، وجاء الوصف بـ ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، مع كاف التَّشبيه التي تُفْصِحُ عن معنى المِثْلِيَّة دون الإيغال في المبالغة؛ لأنَّ المقام هنا مقامُ بيانِ السَّعة لا مقامُ التَّهويل والتَّعظيم، ثُمَّ أُتبِع بذِكْرِ أنَّ ذلك فضلٌ مِنَ اللّه تعالى يُؤْتيه مَن يَشاءُ[1].

آيـةُ آل عمرانَ أخـصُّ مخاطَبة وأدقُّ في الحثِّ، وآيـةُ الحديد أوسـعُ دائـرةً وأشمَلُ مَعْنًى

وجاءت آيةُ آل عمران في سياقِ مخاطبةِ أهلِ التَّقْوى بعدَ أن أُمِروا بالتَّقوى والطّاعة، فناسب أن يُقال لهم: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ﴾ [آل عمران: 133]، بالواوِ التي تقتضي العطفَ على ما قبلها؛ إذِ المقام مقامُ استدعاءٍ للجدِّ في الطّاعة ومتابعة الأوامر، فجاءت الجنَّةُ الموعودةُ لَهم بلفظ: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]، وهي إشارة إلى سعة عظيمة تليق بخصوصيَّة المتَّقين، وإن قلَّ عددُهم؛ لأنَّ الجزاءَ على قدرِ العمل والإخلاص.

أمّا آية الحديدِ؛ فقد وردت في معرض التَّنفير من زخارف الدُّنيا ولعبها وزينَتِها، فجاء الخطاب موجَّهًا إلى عموم المؤمنين باللّه ورسله، وهم أكثر عددًا، وأوسع دائرةً من المتَّقين، فناسب أن يُقال لهم: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ لا محض المسارعة؛ إذ المقام مقام منافسة وتزاحم

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 90 - 92.

في طلب الفَضْلِ، وجاء وصف الجنَّة هنا بقوله: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فجُعِلَ عرضُها بامتدادِ السَّماء التي هي أوسَعُ مِنَ السَّماوات؛ إشارةً إلى رحابَةٍ أعظَمَ؛ لِتَسَعَ هذا الجمعَ الغفير[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُسابقَة والمُسارعَة:

الجنَّة لا تُنال بالسُّرعة وحدَها، بل بالسَّبْقِ في الطّاعَةِ

التَّعبير بـ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ بدل (سارِعوا)، في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ يحمل سرًّا بلاغيًّا عميقًا.

المسارعَةُ: تدلُّ على مُطْلَقِ الإسراع في الشَّيء المَحمودِ[2]، ولو كان الإنسانُ منفردًا، فهي تعني المبادرةَ والجِدَّ في العمل، وقد يُستعمَلُ في الشَّيءِ المذموم، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [آل عمران: 176].

أمّا المسابَقَةُ؛ فتتضمَّنُ مَعْنى المُنافسَةِ بينَ أكثر من واحدٍ، فهي لا تتحقَّق إلّا مع وجودِ آخرَ يُبادِرُ معَهُ المُتَسابِق، وفيها عنصرُ التَّقدُّم على الآخرين، والفوز بالمرتبةِ السّابِقة[3].

ومن هنا جاء اختيار ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ في الآية الكريمة: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾؛ لأنَّ طريق الجنَّة ليس طريقًا فرديًّا منعزلًا، بل هو ميدانٌ يَتسابَقُ فيه المؤمنون إلى الطّاعات، كلٌّ يريد أن يَسْبِقَ غيرَهُ إلى مرضاةِ اللّهِ تَعالى، فعلى كلِّ مؤمن أن يعدَّ نفسَه، ويجتهد؛ ليكونَ في المقدِّمة، بخلاف فعلِ المُسارعَةِ الذي يَقْتَصِرُ على معنى المبادرة بالسُّرعة دون هذا الإيحاءِ التَّنافسيِّ، فجمع التَّعبير بين معنى السُّرعة ومعنى المنافسة؛ ليكون أوقعَ في تحريكِ النُّفوس نحوَ المغفرة والجنَّة.

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 2/ 237.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 276.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 1/ 276.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ والإعطاءُ مَعناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أصحابِ المُعْجَماتِ[1].

وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[2]:

أحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعْلِه، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني شيئًا، فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضْعفُ في إثباتِ مَفْعولِه مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ منهُ بعد قضاء الأرَبِ منهُ.

ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّك بخلاف الإيتاءِ.

وأمّا في خصوصِ الاستعمالِ القُرآنيِّ لِلفظَتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[3]:

إحْداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَل إلّا لِلشَّيءِ الكَثيرِ والعظيم الشَّأنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ.

الأُخْرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ؛ يكون عَن طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعطاءِ فَهوَ مُطْلَقٌ.

واستِعمالُ الإيتاء في قولِ اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، جريٌ على طريقة القرآنِ الكريم في استعمالِ الإيتاءِ في عَظائمِ الأشياءِ.

الإيتاءُ في الاستِعمالِ القُرآنيِّ يَرِدُ لِلشَّيءِ الكَثيرِ والأمرِ العَظيمِ

(1) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

ذو وصاحب:

الفَضْلُ كلُّه مِلْكٌ للهِ تَعالى

﴿ذُو﴾ تدلُّ على الملكيَّة الملازمة والاختصاص الذّاتيِّ، حتّى كأنَّ الفضلَ جزءٌ من جوهر الموصوف وحقيقتهِ[1]، بخلاف (صاحب) التي تفيد مجرَّد الصُّحبة، أو الملابسة العارضة، وغالبًا ما تُستَعمَل في شؤون البشَر؛ إذ يتبادل الصّاحبانِ النَّفع والانتفاع[2]، جاء التَّعبير بلفظ ﴿ذُو﴾ دون (صاحب) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ لما تُشْعِرُ به ﴿ذُو﴾ مِنْ أنَّ الفضل العظيم مِمّا يُفيضُهُ اللّهُ تعالى على العبادِ على وجهِ الدَّوام والاستمرار، فكان اختيارُها أبلغَ في بيان أنَّ الفضلَ كلَّهُ ملكٌ للّه تعالى، صادرٌ عنه بلا حدٍّ ولا نفادٍ، على وجه يليق بكبريائهِ وعظمتهِ.

الغالِبُ إضافَةُ (ذو) إلى التّابع، وإضافةُ (صاحب) إلى المَتبوعِ:

كما أنَّ استعمالَ لفظ ﴿ذُو﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أبلغ وأشرف من لفظ (صاحب)؛ إذ إنَّ (ذو) تُستعمَل للإضافة إلى التّابع، أمّا (صاحب)؛ فتُضاف إلى المتبوع، والتّابع أشرفُ مِنَ المتبوع[3]؛ لأنَّ فيه معنى التَّكميل والتَّزيين للموصوف، بخلاف المتبوع الذي يوحي بالتَّعلُّق والاحتياج، ومِن ثَمَّ جاء التَّعبير بـ﴿ذُو﴾؛ ليُضفي على المقام رفعَةً وسُموًّا؛ إذْ جُعِلَ اقترانُ اسْمِ اللّهِ تَعالى بالفَضْلِ العظيم اقترانَ تكميلٍ وعلوٍّ، لا اقترانَ مرافقَةٍ أو مصاحبة.

(1) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص: 44.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 308.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 17/ 87، و: 24/ 47.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [الحديد: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بـيـنَ زخــارِف الدُّنيا وابتِلاءاتِها تسليةُ القُلوب بالإيمانِ بقَضاء اللـه تـعـالى وقدرِه

الدُّنيا بما فيها من لذَّةٍ ومُتْعَةٍ حجابٌ يحولُ بينَ القُلوب وبين الآخرةِ، وهي معَ كونِها دارَ بلاءٍ وامتحانٍ، هي دارُ رخاءٍ واطمئنان، وقد اقتُصِرَ فيما تقدَّم على ذِكْرِ الرَّخاء بقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذْ كانَ المقامُ مقامَ ترغيبٍ في الإنفاقِ، والتَّشمير لمعالي الأخلاقِ، والمسابقة إلى السَّعادةِ، فيَرِدُ سُؤالٌ عن الموانع التي تَصْرِفُ عن الخير من شدائدِ البلاء وصُروفِ القَضاء، فجاء الجوابُ مسلّيًا ومُطمئِنًا للقلوبِ بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما يَعْتَرِضُ العبدَ مِن خير أو شرٍّ قد سبَقَ به القضاءُ، وجرَت بِهِ المقاديرُ في الأزلِ، فلا جزعَ يَضُرُّ، ولا حُزْنٌ يردُّ، بل الصَّبر والرِّضا هما السَّبيل إلى بلوغ السَّعادة والظَّفر برضوانِ ذي العزَّة والجلالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَابَ﴾: فعلٌ يدلُّ على المُضيِّ، وأصلهُ مأخوذٌ مِن الجذرين اللُّغويَّين: (صيب) و(صوب)، وهما يدوران على معنى القصد والإصابة، ويقال: صابَ السَّهمُ الرَّميةَ؛ إذا توجَّه إليها عن قَصْدٍ، فأصابها، ومن هذا البابِ اشتقَّت المعاني الأخرى، فالصّاد والواو والباء: أصل يدلُّ على النُّزول والاستقرار والثُّبوت، فيقال: أصابه الشَّيءُ؛ إذا نزلَ به، وأدركه، سواءٌ أكان ذلك ممّا يفرح، ويسرُّ به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294.

أم ممّا يُحزِن، ويُبتلى به، ومِن ثَمَّ صار اللَّفظ يُطلَقُ على كلِّ حادثةٍ تنزلُ بالإنسان، وتقَعُ عليه، خيرًا كانت أم شرًّا[1]؛ لِما في أصلهِ مِن معنى القصد والإصابة والنُّزول، ومعنى ﴿أَصَابَ﴾ في الآية: ما نزلَ من مصيبة إلّا وهي بقدرٍ مِنَ اللّه تعالى.

2) ﴿كِتَٰبٍ﴾: اسمٌ على وزْن: فِعال، وجذره اللُّغويُّ: (كتب)، والكتابَةُ معروفَةٌ، وهي النَّسخ أيضًا، ومنه: ضَمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء، فالأصلُ في الكاف والتّاء والباء: دلالةُ الجَمْعِ والضَّمِّ، والكتابةُ: هي ضمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعض بالخَطِّ، فالأصلُ في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، ثمَّ استُعير أحدُهُما للآخر، ويُطلَقُ لفظُ الكِتاب على المكتوبِ مِن باب إطلاق المصدر وإرادة اسمِ المفعول، كقولهم: الفِراش، ويُراد به: المفروش، فالكتابُ هو الصَّحيفة التي كُتِب فيها، والمعنى المحوريُّ للمادَّةِ: هو الإلصاقُ بقوَّة ودقَّة؛ إذْ يكون فعل الكتابةِ بإلصاقِ الكلام، وتثبيتِ حُروفِهِ في وجْهِ الحجَر أو الجلد أو غيرهما تثبيتًا يصعُبُ إزالَتُه[2]، والمقصودُ مِن ﴿كِتَٰبٍ﴾ في الآية الكريمة: في مكتوبٍ عندَ اللّه تعالى قبل وقوعِها، وهو اللَّوح المحفوظُ الذي أُثبِت فيه كلُّ ما كانَ وما يكونُ[3].

3) ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحال والاستقبال، وليس في القرآن الكريم - صيغةً ومادَّةً معًا - إلّا هذه اللَّفظة، والجذر اللُّغويُّ منها: (برأ)، والبرءُ معناه: الخلق، فإنَّه تعالى بارئُ النّاسِ، أي: خالِقُهم، ومنه: البريَّة، أي: الخلق، وهذا هو الأصل في الباء والرّاء والهمزة، والبارئُ بِمَعْنى: الخالقِ، فهو وصفٌ مخصوصٌ بالحقِّ سبحانهُ[4]، والبريئَةُ، بمعنى: الخلق، يجوز أن تكون مهموزةً، ويجوز أن تكون مِن غيرِ هَمْزٍ، أي: البريَّة، مأخوذة من البَرى، أي: التُّراب[5]، وممّا يتميَّز البرءُ مِن سِواه: أنَّه الخلقُ على غيرِ مثالٍ، كما برأ اللّه تعالى آدمَ مِنَ الطّين، ولم يكُن ثمَّةَ غيره[6]، ومعنى ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ في الآية الكريمة: نَخْلُقها[7].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب - صيب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كتب).
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 244.
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(5) الصحاري، الإبانة في اللغة العربية: 2/ 226.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(7) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 254.

4) ﴿يَسِيرٌ﴾: اسمٌ على زِنَةِ (فَعيل)، وجذره اللُّغويُّ: (يسر)، واليُسْرُ: ما كان خفيفًا ليِّنَ الانقياد سريعَ المتابعة، وهو أيضًا ما كان نقيضَ العُسْر[1]، و"الياء والسّين والرّاء أصلان يدلُّ أحدُهُما على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّته"، ويَرِدُ اليُسْرُ بمعنى التَّهيُّؤ والسُّهولة[2]، ويَرِدُ اليُسر بمعنى اللّيونة والسُّهولة، ومن معاني اليُسْر: أن تجري الأمورُ بسهولة من غير عوائقَ[3]، ومعنى ﴿يَسِيرٌ﴾ في الآية: "إنَّ إثباتها في اللَّوح سهلٌ على قُدْرَته، كلحظة، وكما كُتِبَت المَصائِب؛ كُتِبَت المَسرّات والمواهِب"[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

المصائب مقدَّرة في الكتابِ المَسْطورِ

ما مِن مُصيبة تقَعُ في أرجاء الأرض مِن جدْبٍ في الأمطار، أو غلاءٍ في الأسعار، أو قلَّة في النَّبات، أو نقص في الثِّمار، ولا في أنفُسِكُم مِن أسقام موجِعَة، أو بلايا نازلة، إلّا وهي مكتوبَةٌ مثبَتَةٌ في كتاب محفوظٍ، مقدَّرةٌ في اللَّوح المحفوظِ قبل أن نوجِدَ النُّفوسَ، ونَخْلُقَ الأجساد؛ إذْ سبَقَ بها العلمُ، وجرَتْ بِها المقاديرُ، وإنَّ ذلك على اللّهِ جَلَّ شأنُهُ هيِّنٌ يسيرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

جوابٌ سماويٌّ لخلجات النَّفس الأرضيَّة؛ ببيان جريانِ المَصائِب على القَضاء الأزليّ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبله؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقد جاء جوابًا عمّا قد يَخْتَلِجُ في النَّفس بعدَ دعوةِ الآية السّابقة إلى المسابقَةِ إلى مغفرة اللّهِ تَعالى وجنَّته، فإنَّ النَّفس إذا نوديَت إلى ميادينِ الخير، قد تتساءَلُ عَمّا يَصُدُّها عنه

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (يسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (يسر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يسر).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 325.
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 408 - 409.

من شدائدِ البلاء وضُروبِ المِحَن، فجاءَ الخِطاب مسلّيًا للنَّفس، مُطْفِئًا حرارةَ الهمِّ، ويجوزُ أن يكون فصلُ هذه الآيةِ عمّا قبلها؛ لكونها استئنافًا نحويًّا؛ وذلك لأنَّهُ لمّا أمَرَهُم فيما مَضى بالمُسابقَةِ إلى مَغْفِرَتِه وجنَّته التي أعدَّها لِمَن آمَن بهِ وبِرُسُلِه؛ استأنف هنا الحديث[1]، مبيِّنًا أنَّ ما يُصيبهم في الأرض، أو في أنفسهم مكتوبٌ مقضيٌّ من قبل أن يقَع بِهِم.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ﴾:

نـفـيٌ يُـفـيـد الاسـتـغـراقَ، فَـكُـلُّ مصيبَةٍ تحتَ عينِ القدَرِ

﴿مَآ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، جاءت للنَّفي المهِّدِ لإفادَةِ العُموم[2]، وهو تعبيرٌ يفيد شمول قضائهِ وقدَره، واستغراقه جميعَ ما يَنْزِلُ بالخلق من المصائب[3]، صغيرِها وكبيرِها، ظاهِرِها وباطِنِها.

بلاغَةُ القَصْرِ في الآية:

إثـبـاتُ الـقـدَرِ السّابِق، والـرَّدُّ عـلـى مـزاعِـمِ الـمُـشْـركـيـنَ والمُنافِقينَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾... ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريق النَّفي والاستثناء، وهو من باب قصرِ الموصوفِ على الصِّفة، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، والمعنى: لا تكون المصيبةُ إلّا في حالِ كونِها مثبتةً في كتابٍ سابق، لا في حالِ انتِفاء تقديرِها في علم اللّه تَعالى، وفي ذلك ردٌّ صريحٌ على مزاعم المُشْرِكين والمنافقين الذين زعموا أنَّ ما يقع من موتٍ أو قَتْلٍ إنَّما هو عارِضٌ لا سَبْقَ لَهُ في التَّقدير، كما حكاهُ سُبْحانَهُ عنهُم في قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 156]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 168][4].

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.
(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 9/ 375.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

دلالَةُ التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿أَصَابَ﴾ مذكَّرًا دون (حلَّ) أو (نزل):

حين يعبِّر الفعلُ عَنِ الهَوْلِ، فالتَّذكيرُ مُؤْذِنٌ بالقوَّة والشِّدَّة

عُبِّر بالفعل ﴿أَصَابَ﴾ مذكَّرًا في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، مع جواز التَّذكير والتَّأنيث[1] في مثل هذا الموضع؛ إيماءً إلى عِظَمِ وقْعِ الشَّرِّ، وثِقَلِ أثَرِه[2]؛ إذِ التَّذكير أدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّة.

دلالَةُ إيرادِ الفِعْلِ ﴿أَصَابَ﴾ ماضيًا:

ما يقعُ مِنَ المَصائِبِ قَدْ قُضِيَ، وفُرِغَ منهُ

جاءَ التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَصَابَ﴾ دون المضارع؛ للإشارَةِ إلى تحقُّق وقوع الأمْرِ وثُبوتِه؛ إذْ قَد جَرى به القلَمُ في الأزَلِ، وثَبَتَ في الكِتاب قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ[3]، فجيء بالماضي؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ ما يقعُ مِنَ المَصائِب قَد قُضيَ، وفُرِغَ منهُ سَلفًا.

سِرُّ حَذْفِ مفعولِ ﴿أَصَابَ﴾:

كلُّ مصيبَةٍ في الأرضِ داخلَةٌ في الكِتابِ السّابقِ

حُذِفَ مفعول ﴿أَصَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، والتَّقدير: ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في الأرض[4]، فجاءَ الحذفُ دالًّا على العموم والشُّيوع؛ لأنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعموم، والمعنى: ما وقَعَ مِن حادِثٍ في الأرضِ، أو ما نزَلَ بإنْسانٍ مِنَ النّاس[5]، فإنَّه داخِلٌ في حُكْمِ هذا القضاء المحتوم، والتَّقديرِ السّابق.

وفِعْلُ ﴿أَصَابَ﴾ مطلَقٌ لَم يُقيَّد بمُصابٍ معيَّن مكانًا أو شخصًا؛ إذ لَم يَرِد خطابٌ مُباشِرٌ للمُخاطَبين، فدلَّ على العُموم المُطْلَق[6].

بَلاغَةُ المَجازِ في فِعْلِ الإصابَةِ:

إبرازُ المعنويّاتِ في صورةِ المَحْسوساتِ أعلَقُ بالذِّهنِ وأقربُ إلى الفَهْمِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مجازٌ بالاستعارةِ، وذلك لأنَّه قد شُبِّهت المصيبةُ بالسَّهْمِ الذي يُرْمى به،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 257.
(4) الحداد، تفسير الحداد: 6/ 212.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 782.
(6) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 278.

يصيبُ ما وُجِّه إليه من غير غلطٍ، فحُذِف المشبَّه به، ورُمز له بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو فعل الإصابة، على طريقة الاستعارة المكنيَّةِ، وفي هذه الاستعارةِ إخراجُ الأمر المعنويِّ في قالَبِ المحسوسِ؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنَ، وأرسخَ في النَّفْسِ وأقربَ إلى الفَهْم.

دلالَةُ استِعمالِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾:

لا مصيبةَ خارجَةٌ عَن مشيئَةِ اللهِ تَعالى

﴿مِن﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها التَّأكيد[1]، فهيَ تُعَمِّق أثرَ النَّفي، وتشدِّد المعنى، وتؤكِّد نفيَ المَصائبِ عَن وقوعها عبثًا أو دون تقديرٍ؛ لدلالَةِ شُمولِ القَضاء على جميع المَصائِب، أي: نفي وقوعِ أيِّ نوعٍ مِنها خارجَ مَشيئَةِ اللّهِ تَعالى؛ قَصْدًا للعُموم والاستغراقِ في كلِّ جِنْسِ المَصائِب[2].

سِرُّ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ نكرَةً:

النَّكِرَةُ فِي سياقِ النَّفيِ دالَّةٌ على العُمومِ

وردَ لَفْظُ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ منكَّرًا؛ لإفادة التَّعميم على معنى: (أيُّ مصيبة)[3]، سواءٌ ما وقع في الأرض مِن جدْبٍ أو نَقْصٍ، وكذلك ما وقع في النُّفوس من مَرَضٍ ومَوْتٍ، أو خُسران في تجارة، أو كسْبِ خيرٍ أو كسْبِ شرٍّ[4]، فجاءت النَّكرة؛ لتشمَل جميعَ المصائب دونَ تقييد أو حصْرٍ؛ لوقوعِها في سياقِ النَّفي ﴿مَآ﴾.

سِرُّ تَخْصيصِ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ بالذِّكر، مع أنَّ الإصابةَ ترد خيرًا وشرًّا:

المصائبُ أوجَعُ فِي النَّفس وأثقَلُ فِي الأثَرِ

خُصَّت المصيبةُ بالذِّكر مع أنَّ الفعل ﴿أَصَابَ﴾ بمعنى الحدوث يَردُ للخَيْرِ وللشَّرِّ؛ لأنَّ المصائب أعظم أثرًا على النُّفوس البشرية[5]، وأشدُّ وقعًا في القلوبِ، أمّا مواقع النِّعم والإحسان؛ فقلَّ أن يلتَفتَ النّاسُ إليها، وإن التَفَتوا إليها؛ أضافوها إلى أنْفُسِهم، وجعَلوها مِن كَسْبِ أيديهِم[6].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 111.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 128.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 268، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 348.
(6) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 782.

دلالَةُ التَّعْبير بحَرْفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿فِي﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الظَّرفيَّة[1]، وفي التَّعبيرِ به دلالةٌ على عموم السّاكن والمتحرِّك في الأرض، أي: مِن مَنابِتِها ومياهِها ونحوِ ذلكَ[2].

سِرُّ ذِكْرِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّ المصيبةَ لا تقَعُ إلّا فيها:

الانـتـقـالُ مِـنَ الـعـامِّ إلى الخاصِّ

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس تقييدًا مكانيًّا محضًا، بل المرادُ به شمولُ المصيبة لكلِّ ما في هذا العالَم السُّفليِّ، وليكون ذِكْرُها تَدَرُّجًا في ذِكْرِ المصائب من العامِّ إلى الخاصِّ؛ إذْ مصائِبُ العباد في أنفُسِهم مِن جملةِ المصائب الأرضيَّة.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اسـتِـغـراقٌ لا يُبْقي موضعًا خارجَ القَدَرِ

(أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للاستغراقِ، فهي تَعُمُّ جميعَ أقطارِ الأرض وبِقاعها، فلا تخرج بقعةٌ ولا ناحيةٌ عَن سُلْطان اللّهِ تَعالى وتقديره، فكلُّ مصيبةٍ تقَعُ في أيِّ مكانٍ مِنَ الأرض إنَّما هي بقدَرٍ سابِقٍ مكتوبٍ.

دلالَةُ الواو في قولِه: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

عـطـفٌ يُـفْـصِـح عَـنْ شُـمـولِ البَلاء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على ما سَبقها[3]، فهي تربط بين نَوعَينِ من المصائب: المصائبِ الخارِجيَّة التي تقع في عالَم الخارجِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، مثل الجدْبِ، والخَسْفِ، والزَّلازل، والنَّوازلِ، والمصائب الدّاخليَّة التي تقع في عالَم الذّات ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، مِن أمراضٍ، وأسقامٍ، وأحزانٍ، وآلامٍ.

سِرُّ تَكْرار حَرْفِ النَّفي في قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

المَصائِبُ الذّاتيَّةُ أشَدُّ حُضورًا في النَّفْسِ

كُرِّرَ حرفُ النَّفْيِ في المعطوفِ على المنفيِّ في قوله تعالى:

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 223.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294 - 295.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لإظْهارِ الاهتمام بالمذكور اهتمامًا خاصًّا؛ إذ إنَّ المصائبَ الذّاتيَّة أشدُّ وقعًا على الإنسان، فالمَصائبُ العامَّةُ إذا أصابَت أحدًا؛ فإنَّ تأثيرَها يكونُ غالبًا تأثُّرًا بالعَقْلِ لا بالحسِّ المباشر، فلا تُبْقي في وعيِ النَّفْس حُضورًا دائمًا[1].

سِرُّ ذِكْرِ ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المصائبُ في النَّفسِ أخصُّ وأدَقُّ، ولا يخرج شيءٌ مِنْها عن عِلْمِ الله تعالى

نُصَّ على الأنفُسِ في قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معَ كونِ الأنفُسِ داخلَةً تَحْتَ عمومِها؛ وذلك لِلتَّمييز بينَ نَوعَينِ مِنَ المَصائب: المُصيبَةِ العامَّةِ التي تشمَلُ الجميعَ في فضاءِ الأرضِ الواسِع، والمصيبةِ الخاصَّة التي تَمَسُّ الفَرْدَ في كيانه المادّيِّ والمعنويِّ، وهذا التَّمييز يُبْرِزُ شُمولَ القدرةِ الإلهيَّة لكلِّ مقدَّرات الخَلْق، ويرفع أيَّ وهْم بأنَّ بعض الأحداثِ الصُّغْرى قد تَخْرُج عَن إحاطةِ عِلْم اللّٰهِ تَعالى وقُدْرَتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأنفُس دونَ الأبدانِ:

النَّفس مبدأُ الألَمِ ومحَلُّ الحُزْنِ؛ فالمصيبَةُ فيها أشدُّ وقْعًا

عُبِّر بالأنفُسِ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ دون (أبدانكم)؛ لأنَّ المُصيبَةَ إذا أصابَتِ النَّفسَ؛ فقد شَمِلَت الجوانبَ كلَّها، وهي: الرّوحَ والبدَنَ معًا؛ إذ النَّفس مبدأُ الإحساسِ بالألَم ومحلُّ الوجدانِ، فما يَطْرَأُ عليها مِن مرَضٍ أو فَقْدٍ أو حُزْنٍ أو هَمٍّ؛ فإنَّهُ أعمَقُ وأشَدُّ مِن مُجَرَّد إصابَةِ الجَسَدِ.

دلالَةُ التَّعْبير بالجَمْع (أنفُس) دون (نفوس):

الإشارةُ إلى محدوديَّةِ المَصائب الذّاتيَّة أمامَ اتِّساعِ البلاءِ العامِّ

جاءَ التَّعبيرُ في قول اللّٰهِ تعالى: ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، بصيغة الجَمْعِ على وزن أفْعُل، وهو دالٌّ على القِلَّة[2]؛ للتَّعْبيرِ عَن مَحْدوديَّة المصائب التي تصيب النَّفس مقارنَةً بالمَصائب التي تقَعُ في غيرِها كالأرض، مثل الجَدْبِ والفاقَةِ وغيرهما مِنَ المَصائب الواسِعَة الشُّمولِ، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 224.

ما يقع في النَّفس؛ فهو أقلُّ وقْعًا على المدى العامِّ، ويشمَل الأمراضَ والفاقَة والهُموم ونحوَها[1].

والتَّعبير بـ (الأنفُس) إشارَةٌ إلى المَصائب الخاصَّة بذَوات النّاس، وهي أقلُّ مِنَ المَصائب العامَّة، كالقحط وفيضانِ السّيولِ وموتِ الأنعامِ وتلَفِ الأموالِ[2].

سِرُّ ذِكْرِ المصيبَةِ معَ أهلِ الأرضِ دونَ ذِكْرِها مع أهلِ السَّماوات:

أهـلُ الأرضِ في موضِعِ البلاءِ؛ لتعلُّقِ التَّكليفِ والاختبارِ بِهِم

ذُكِرَت المصيبةُ مَعَ أهلِ الأرض دونَ أهل السَّماوات لعدَمِ تعلُّقِ الغرَضِ بذلك، ولأنَّ ما يصيب أهلَ السَّماوات مِن مصائب قليلٌ جدًا، فلا يكادونَ يتعرَّضون إلّا لمصيبةِ المَوْتِ فحسبُ[3].

دلالَةُ تقديم مُصيبَةِ الأرض على مُصيبَةِ الأنْفُس:

المصائِبُ العامَّةُ تُـمَهِّدُ للمِحَنِ الخاصَّةِ

قُدِّمَ قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنَّ ما يقع في الأرض مِن كوارثَ عامَّة أشدُّ شمولًا من المصائبِ الخاصَّة بالأنفُس، ولأنَّ المصائب غالبًا ما تُصيبُ الأرضَ أوَّلًا، ثُمَّ تَنْعَكِسُ آثارُها على الأنفُس ثانيًا[4]، فيظهَرُ بذلكَ التَّرتيبُ الطَّبيعيُّ للأحداثِ، وتَعاقُبُ المصائب بينَ البَعيد والقريب.

بلاغَةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

لا تَـخْـرُجِ أيُّ مـصـيـبـةٍ عَـن الكِتابِ السّابقِ

﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ جاءَت بِمَعْنَى الاستثناءِ[5]، والاستثناءُ هُنا متعلِّق بما نفاهُ اللّٰهُ سُبْحانَهُ بلفظ ﴿مَآ﴾، والتَّقديرُ: ما أصاب من مصيبةٍ في الأرضِ كائنةٍ في حالٍ ما إلّا في حالِ كونِها مكتوبةً في كتابٍ، أي: مثبَّتةً في اللَّوح المحفوظ قبلَ وقوعِها[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(5) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2401.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

دلالَةُ التَّعبير بحَرْفِ الظَّرْفيَّة ﴿فِي﴾:

ظرفيَّةٌ تُثْبِتُ سَبْقَ القضاءِ

﴿فِي﴾ مِن قول اللّهِ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهو مفيدٌ ههنا أنَّ المصيبةَ مكتوبَةٌ في اللَّوح المحفوظِ قبل خَلْقِها[1].

والتَّعبير بـ ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ جاء محمَّلًا بظرفيَّة ﴿فِي﴾ المُشعِرة بالإحاطَةِ والتَّمَكُّن والثَّبات، فكأنَّ كلَّ مصيبَةٍ مكتوبَةٌ مُحاطَةٌ بحُدود الكتابِ الإلهيِّ لا تتجاوَزُها، فهي ثابتَةٌ فيهِ قبلَ أن تطَأ عالَمَ الشَّهادَةِ، فالظَّرفيَّة هُنا تتجاوَزُ كونَها ظَرْفًا مكانيًّا؛ لتدلَّ على الرُّسوخ والتَّقرير.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

اسميَّةُ تصوِّرُ ثباتَ القدَرِ وأزليَّةَ العلمِ الإلهيِّ بِهِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿كِتَٰبٍ﴾ بالاسمِ دون الفعلِ، فلم يَرِد البيانُ القرآنيُّ: (إلّا كَتَبَها)، وذلك لإبراز ثباتِ الأمْرِ وإيغالِهِ في القِدَم[2]، فالاسم هنا يرمز إلى الوجود الدّائم للقدَر في عِلْمِ اللّهَ تَعالى، فهو مقدَّر مُسْبَقًا.

دلالَةُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تعظيمُ اللَّوْحِ المحفوظِ وتفخيمُ شأنِهِ

إنَّ تنكير كلمة ﴿كِتَٰبٍ﴾ عند الإشارة إلى اللَّوح المحفوظِ لا تُفيدُ الجَهالَةَ، بَل هي أسلوبٌ بلاغيٌّ قرآنيٌّ عميقٌ يُقْصَدُ به التَّعظيم والتَّفخيم والتَّهويل[3]، فهو كتابٌ عظيمٌ لا يحيط به وصفٌ، ولا يُدْرِكُ كُنْهَهُ إلّا مَن أنزلَهُ.

بَلاغَةُ إيجازِ الحذفِ في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾:

تَنَوُّعُ الاحتمالاتِ القُرآنيَّةِ فيهِ ثراءُ المَعاني وتَكْثيفٌ لَها

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ إيجازٌ، والتَّقدير: إلّا هو في كتابٍ[4]، أي: إنَّ ما جَرى مِن أفعالٍ، أو ما حدث مِن قدَرٍ ليسَ عبثًا، بل هو مُثْبَتٌ معلومٌ عندَ اللّهِ تَعالى، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 351.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 408.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 536.

ويجوز أن يكون تقدير الحَذْفِ: إلّا في أمِّ الكتاب[1]، أي: اللَّوح المحفوظ الذي فيهِ عِلْمُ اللهِ الأزليُّ، وتقديره المحكم لكلِّ ما كان ويكون، فجاء التَّعبير بالكتاب مرادًا به الثَّباتُ والضَّبْطُ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾:

سَبْقُ الذّات الإلهيَّة لكلِّ شيءٍ، وكتابَةُ مقاديرِ الخلائقِ قبل كونِها

جاءَ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾؛ لإبراز أنَّ الكتابةَ حدثَت بعد أن كانَ هو سبحانه وحدَهُ لا شيءَ معَهُ[2]، فهو سابِقُ الوجودَ مطلقًا، كما أنَّ في إدخال حرفِ الجرِّ تأكيدًا وتقويةً للمَعْنى، كما هو شأن (مِنْ)؛ إذا دخلَت على (قبل) و(بعد).

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿قَبۡلِ﴾:

تقدُّم كتابةِ مقادير الخلائِقِ

في التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿قَبۡلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ إشارةٌ إلى زمَنٍ غير معيَّن[3]، ليس مرتبطًا بحدودٍ زمانيَّة مخصوصةٍ، فهو ظرفٌ يدُلُّ على التَّقدُّم الزَّمنيِّ المطلق، وقد جاءَ بيانُهُ في الأحاديث، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «كَتَبَ اللّهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أن يَخْلُقَ السَّماواتِ والأرْضَ بِخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ»[4].

دلالَةُ استِعمالِ المَصدَرِ المؤوَّل ﴿أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ دون المصدَرِ الصَّريح:

استحضارٌ حيٌّ لتجَدُّدِ الخَلْقِ واستمرارِ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ

الفِعْلُ ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ فعلٌ مضارِعٌ منصوبٌ بـ ﴿أَن﴾، والفاعلُ مستتر تقديره: (نحن)، و(ها) مفعولٌ به، ويأتي ﴿أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ في تأويل مصدرٍ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ ﴿مِّن قَبۡلِ﴾ إليه[5]، وقد اختير التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ المؤوَّل ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾، بدَلَ المَصْدَرِ الصَّريح (من قبل بُرْئِها)؛ لأنَّ المصدر المؤوَّل أبلغُ في استحضار الحدَث حيًّا متجدِّدًا، وهوَ يُشيرُ إلى استمرارِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وتجدُّد فِعْلِ الخَلْقِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 195.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.

(4) رواه مسلم في صحيحه برقم: (2653).

(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.

آنًا بعد آنٍ، واختير التَّعبير بالمصدر المؤوَّل: ﴿أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أيضًا توكيدًا، ولإفادةِ التَّعليلِ[1].

دلالةُ الإضمارِ في قولِهِ: ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾:

شمولُ القُدرَةِ الإلهيَّةِ مِن المصيبةِ في الأرضِ إلى الأنْفُسِ

أُضمِرَ المفعولُ في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ ولم يُظهَر؛ إيذانًا بإحاطة المعنى وشموليَّته؛ إذْ إنَّ إضمارَهُ يَحتَمِلُ أن يعودَ على المصيبةِ قبل خلقها، أو على الأرض، أو الأنفس[2]، وكلُّ هذه المعاني المحتمَلَة حقٌّ، ولو أُظهِرَ؛ لانحصَرَ المَعْنى، ولم يَتَّسِعْ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بنونِ الجمْعِ في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾:

تعظيمُ البَرْءِ وترسيخُ هيبَةِ الخالِقِ في فِعْلِ الخَلْقِ

النّون في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ حرفُ مضارعةٍ دالٌّ على الجمعِ المرادِ بِهِ التَّعظيمُ وعظمَةُ البَرْءِ[3]؛ إذ يُستعمَلُ الجمعُ هُنا للتَّفخيمِ والإشعارِ بعظمَةِ الفِعْلِ الإلهيِّ، وكمالِ قُدْرَتِه.

سِرُّ فَصْلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبلَهُ:

مِن السُّؤالِ الخفيِّ إلى الجوابِ الجَليِّ بلاغَةٌ في طَمْأنَةِ النُّفوس

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبله؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا[4]، وذلك لورودِهِ ردًّا على سُؤالٍ مستَتِرٍ في النَّفسِ، حاصِلُهُ: كيفَ يُمْكِنُ أن يقعَ كلُّ ما يُصيب الإنسانَ في نَفْسِه أو في الأرضِ بعد أن كان مكتوبًا قبلَ الخَلْقِ؟ فجاءَ الجواب البليغ: إنَّ ذلك يسيرٌ على اللّهِ تعالى غيرُ عسيرٍ؛ ليُطمئن القلوبَ إلى قدرة اللّهِ تَعالى وسُهولة تدبيرِهِ لكلِّ حادِثٍ، ويجوزُ أن يكون الفصلُ للاستئنافِ النَّحويِّ، والجملةُ مستقلَّةٌ[5]، يُرادُ بها توكيدُ المعنى وإبرازُه، ويجوز أن تكون الجملةُ فُصِلت لكمال الاتِّصال لكونِها دالَّةً على التَّعْليل[6].

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 719.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 155.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 508.

دلالَةُ التَّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

لَمّا كان إيقاعُ المُصيبَةِ في الكتابِ قبلَ أن تتحقَّقَ في الواقع متعذِّرًا على المخلوقِ إدراكُه، فهو أشدُّ الأمورِ كراهية بالنِّسبة له لوُقوفه مَع الوهم؛ أُكِّدَ هذا المعنى، فقال سبحانَه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1].

حين يعجز العقلُ عن إدراكِ سَبْقِ المُصيبَةِ، يَأتي الجوابُ الإلهيُّ مؤكَّدًا

وجملةُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ جاءت ردًّا حاسمًا على أهل الضَّلال مِنَ المُشْرِكين وطوائفَ مِن أهل الكتابِ الذين أنْكَروا شمولَ عِلْمِ اللّهِ تعالى، وأجازوا عليه البَداء، ولشدَّة المقام وقَصْدِ تَفْنيد باطِلِهم أُكِّدَ الخبرُ بـ ﴿إِنَّ﴾[2]؛ لتَثْبيتِ المعنى في النُّفوس، وإبطالِ أوهامِ المُنْكِرين بثبوتٍ يقينيٍّ لا مَدْخَلَ فيه للرَّيْبِ.

توكيدٌ في مقامِ الجَدَلِ لتَفْنيدِ شبهاتِ أهلِ الضَّلالِ

سِرُّ التَّعْبير باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لما تقدَّمَ مِنْ علم اللّهِ تَعالى بالشَّيء وكتابته له على تفاصيلِه قبلَ كونِه، ثمَّ سوقُه النُّفوسَ والأسبابَ إلى إخراجه بعد التَّكوين وفق ما سبَق بِهِ عِلْمُه، وكَتَبَهُ[3]، وفي هذه الإشارة دلالةٌ على ثبات قُدْرَتِه وعِلْمِه، وإحاطته بكلِّ ما يقع في الوجودِ، مع تيسير إدراكِ المعنى للقلوبِ.

جلالةُ العِلْمِ السّابقِ والقُدْرَةِ المحيطةِ

وفي اختيار اسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيماءٌ إلى عظَمَةِ المذكور وجلالِهِ في نفسِهِ، وهو مع عَظَمَتِهِ وجلالِهِ يسيرٌ على اللّهِ سُبحانَهُ.

دلالَةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهو يُشير إلى ما لَهُ سُبحانَهُ مِن الإحاطةِ بالقُدْرَةِ والكمالِ[4].

ربٌّ أحاطَ بكلِّ حالٍ، وأجرى القضاءَ بكمالٍ وجلالٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.

سِرُّ تقديمِ قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على خبرِ ﴿إِنَّ﴾:

تفرُّدٌ في التَّقدير وتميُّزٌ في التَّدبيرِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾، في قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإفادَةِ الحَصْرِ[1]؛ ففيهِ بيانُ أنَّ هذا التَّيسيرَ خاصٌّ باللّٰهِ تَعالى وحدَهُ دون سِواه مُبرزًا علوَّ قُدْرَتِه، وكمالَ حِكْمَتِه في تدبيرِ كلِّ شَيْءٍ، ومطابقة القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ للعِلْمِ الإلهيِّ.

جمالُ الفاصِلَةِ توقِظُ السّامعَ، وتشدُّ ذِهْنَهُ

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ رعايةٌ لتناسُبِ فواصلِ الآيِ[2]، فتَبْرُزُ العبارةُ بوجهٍ أقْوى، ويُشَدُّ الانتباهُ مع وضوح المعنى وسلاسَتِه، مع تعزيزِ وقْعِ التَّوْكيدِ والطُّمأنينةِ في قَلْبِ السّامِعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَسِيرٌ﴾:

الكمالُ المُطْلَقُ الإلهيُّ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿يَسِيرٌ﴾ دون (هيّن) أو (سهل)؛ لأنَّ كثرةَ ما يُصيبُ الخَلْقَ في أنفُسِهم وأموالِهم يسيرٌ على اللّٰهِ تَعالى غير عسيرٍ عليه، لا كما يكونُ عندَ مُلوكِ الأرض، فإنَّ ما يُصيبُ حَشَمَهُم وخَدَمَهُم مِنَ المَصائب يشتَدُّ عليهم؛ بسبَبِ تَعَلُّقِهم بِهِم، والمنفعة والضَّرر المُتَرَتِّبين على ذلك، أمّا اللّٰهُ تعالى؛ فليس له في بقاءِ الخَلْقِ منفعَةٌ، ولا في ذهابهم وفنائِهِم مضرَّة، فكانَ ذلك يسيرًا عليهِ[3]، والتَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ واردٌ للتَّقريب إلى عقولِ البَشَرِ؛ إذ إنَّ اللّٰه ﷻ ليس عنده صعبٌ أو هيِّن.

بَلاغَةُ خِتامِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

أمرٌ عظيم تذهَلُ عِنْدَهُ الألبابُ

خُتِمَت الآيةُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وهيَ تُعْلِنُ عن أمْرٍ عظيمٍ لا تُحيط به العقولُ، بَل تَذْهَل عنده أفئدَةُ أولي الألباب، ومعَ ذلك فهو يَسيرٌ عَلى اللّٰهِ سبحانه[4].

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 467.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 531.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.

وفيها تأكيدٌ أنَّ تَدْبيرَ اللّهِ تَعالى لِكُلِّ شيءٍ يَسيرٌ عليه، لا يُعْجِزُه شيء، وأنَّ قُدْرَتَه وعِلْمَه شامِلان لكلِّ الأحداثِ.

بلاغَةُ الاتِّفاقِ والاختلافِ بينَ آيةِ الحديد وآيةِ التَّغابن:

في سورةِ الحديدِ تفصيلٌ يُجَلِّي الحكمةَ، وفي سورةِ التَّغابن إيجازٌ يُرَسِّخ الفِطْنَةَ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وقال في سورة التَّغابُن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، وهاتانِ السّورتانِ تَلْتَقيانِ في عددٍ مِنَ المَقاصد العظيمَةِ والجَليلة، منها ذِكْرُ خَلْقِ السَّماوات والأرض، والتَّنبيهُ على إحاطةِ عِلْمِ اللّه سُبْحانَه بكلِّ شيء، وإبراز ما يترتَّب على ذلك من الجزاء الأخرويِّ، وبيان خطورة فتنةِ الأموال والأولاد، وتحقيق التَّفريق بينَ ما هو باقٍ في الدُّنيا، وما هو آتٍ في الآخرة، وحقارة ما في مَتاع الحياة الزّائل، مع الإشارة إلى تفصيلِ أحوال الخلقِ ووجوب مراعاتِها في الجزاءِ.

كما احتَوَتِ السّورتان على ذِكْرِ مجموعَةٍ مِن أسماء اللّه الحُسْنى، إلّا أنَّ ما وردَ فيهما مِن ذلكَ لَم يُجارِه غيرُهما مِن المُسَبِّحات الخَمْسِ المشابهة، وإن كانت سورةُ الحَشْرِ شاركت منه جانبًا، لكنَّها لَم تَلْتَقِ بالحديد والتَّغابن في مُطابقَةِ التَّفاصيل أو تعيينِها كما جاءَت فيهما.

وجاءَت سورةُ الحَديد أوْفَى في تفصيلِ المعاني وأعمقَ في البَيان، فجاء فيها التَّعبيرُ القُرآنيُّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، بما يوافق أسلوبَها التَّفصيليَّ وإظهار الحكمة الإلهيَّة في حدوث المصائب، ويُبَيِّن شمولَ القضاءِ وقُدْرَة اللّه تعالى على كلِّ شيء، بينما جاءَت سورةُ التَّغابُن على جِهَةِ الإيجاز مقتصرةً عَلى القول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾، محقِّقةً بذلك الغرضَ نفسَه بطريقةٍ موجزة، دون

تفصيلِ المصائب أو توزيعها على الأرضِ والنَّفس[1]، فالتَّفصيلُ في سورةِ الحديد يُظْهِرُ عمقَ المعنى واتِّساعَ الحكمة، والإيجاز في التَّغابن يُحَقِّق تلاؤمًا مع أسلوبها ومقاصِدِها، فيجمَعُ بينَ الإيجاز والتَّفصيلِ بحسَبِ مُقْتَضى السّياق، مع مراعاةِ الغَرَضِ مِن كلِّ سورةٍ وطبيعة خطابِها للمُؤْمنين؛ ليَبْقى كلٌّ منهما متوافقًا مع مقصدٍ عالٍ في البيانِ والإرشاد.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(نبرأها) و(نخلقها):

التَّمييزُ والدِّقَّة في تقديرِ المَصائِب في الكتابِ الإلهيِّ

البَرْءُ في أصلِ اللُّغَةِ يدلُّ على التَّمييز والإبانَةِ والقَطْع، ومنه قولُهم: برأ اللهُ الخَلْقَ، أي: أبان صوَرَهُم، وفَصَّلَ هيئاتِهم، ومنه أيضًا: بَرِئْتُ مِنَ المَرَض؛ لانقطاع أسبابِه، وبرأ اللَّحمُ من العظم، أي: انفَصَل[2]، فالبَرْءُ إذًا أخصُّ مِنَ الخَلْق؛ لأنَّه لا يَقْتَصِرُ على الإيجادِ من العدَم، بَل يُشير إلى مرحلَةِ تَمْييزِ المَخْلوقِ وفَصْله بِصورَةٍ مخصوصةٍ وهيئةٍ محدَّدة.

واختيرَ فِعْلُ البَرْءِ دونَ الخَلْقِ في قولِه تَعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾؛ لأنَّ السّياقَ هنا في بيانِ أنَّ كلَّ مصيبَةٍ مقدَّرةٌ مكتوبة قبلَ أن تُفْصَل، وتُميَّز صورتُها في عالَم الوجود، فجاء بـ ﴿نَّبْرَأَهَآۚ﴾؛ ليُطابِق المَعْنى؛ إذ المقصود الإشارةُ إلى لحظةِ الإبراز والتَّمييز بعدَ التَّقدير والكتابة، لا إلى مَحْضِ الإيجاد، فكان التَّعبيرُ بالبَرْءِ أبلغَ في الدَّلالة على دقَّةِ التَّقدير، وأنَّ المَصائِب لَم تَطْرَأ اعْتِباطًا، بل جاءت بعد تقديرٍ مُحْكَمٍ وتمييزٍ مخصوصٍ في عِلْمِ اللهِ تَعالى.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 468 - 469.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 95.

(يسيرٌ) و(هيّن):

تصويرُ السُّهولةِ المُطْلَقَةِ وتنزيهُ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ

استُعمِل لفظُ ﴿يَسِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ دون (هيّن)؛ لأنَّ لفظَ ﴿يَسِيرٌ﴾ أدلُّ عَلى السُّهولَةِ المُطْلَقَة التي تَجْري بغير معالجَةٍ ولا كُلْفَة، فيوحي بانقيادِ الأمورِ كُلِّها لقُدْرَةِ اللّهِ تعالى؛ إذْ هو القادر على كلِّ شيءٍ بلا عَجْزٍ، فجاءت الكلمة منسجمةً مع مقام العظمَةِ والقُدْرَةِ المطلقة، أمّا لفظُ (هيِّن)؛ فمأخوذٌ مِنَ الهَوْن، وهو ما دلَّ على الحقارَةِ والضَّعة، فيقال: هانَ الشَّيءُ، أي: صارَ حقيرًا ذليلًا، والهيِّنُ: ما لا كرامَةَ لَه[1]، ومن ثَمَّ كان اختيارُ لفظ ﴿يَسِيرٌ﴾ أبلغَ وأدقَّ؛ إذْ جَمَعَ بين معنى السُّهولة المطلقة ونفي أيِّ معالجة أو عَجْزٍ، معَ تَمامِ التَّنزيه عَن كلِّ ما لا يليقُ بكبرياءِ اللّهِ سُبحانَهُ.

(1) الخليل، العين: (هون).

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بين تقدير القَضاء وزوالِ متاعِ الدُّنيا تسليمٌ لأمرِ اللهِ تَعالى يَسْكُب السَّكينَةَ عَلى القُلوبِ

بَعْدَ أن بيَّنَ اللهُ سبحانه في الآية السّابقة أنَّ ما يصيب الإنسانَ من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس، قد كُتِب عليه في سابقِ القَضاءِ بقولِهِ تَعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ الآية؛ أَتْبَعَ ذلك بِبَيانٍ بديع يُهَوِّن به وقْعَ النَّوازل على قلوبِ المُؤْمنين بقوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾؛ ليكونَ ذلك مَنْبَعَ سعادَتِها، وسكينةَ أفئِدَتِها؛ إذ تُدْرِكُ أنَّ كلَّ ما جرى مقدَّرٌ بِحِكْمَةِ العَليم الخبيرِ، فلا تَأْسَ على ما فاتَ، ولا تغترَّ، وتَفرح بما أُعْطيَت مِن مَتاعٍ زائلٍ، ولذَّة فانيَةٍ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡسَوۡاْ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، وهو لفظٌ فريدٌ في جميع القرآن الكريم من جهةِ المادَّة والصّيغة، والجذر اللُّغويُّ منه: (أسي) أو (أسا) أو (أسو)، ومعنى أسيَ: حزنَ(2)، ومنهُ: آسَيْتُ الرَّجلَ، وواسيتُه مواساة، "والإسوة والأُسوة - بالكسر والضَّم -: لغتان، وهي ما يَأْتَسي به الحزينُ، يَتَعزَّى به"(3)، والأصل اللُّغويُّ - للهمزة والسّين والياء - دالٌّ على الحُزْن(4)، وحقيقتُه:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 477.
(2) الخليل، العين: (أسي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (أسا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).

إتّباعُ الفائتِ بالغَمِّ، يُقال: أَسَيْتُ عليه، وأسَيْتُ له[1]، ومعنى ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ في الآية الكريمة: لئلّا يغلبَكُم الحزنُ[2]، أو يشتدَّ عليكم الأسى على ما ضاعَ مِنْكُم، أو لَم تُدْرِكوهُ.

2) ﴿فَاتَكُمْ﴾: فعلٌ يدلُّ على المُضيِّ، وجذره اللُّغويُّ: (فوت)، والفَوْتُ بِمَعْنى السَّبْق، ومنه: أن يفوت الإنسانَ الشَّيءُ، والأصل في الفاء والحرف المعتلِّ والتّاء: دلالتُه على عدَم إدراك الشَّيء والوصولِ إليه، وبُعْد الإنسانِ عمّا يريد الوصولَ إليه[3]، يقال: فات الأمْرُ، ومعناه في الأصل: فات وقتُ فِعْلِه[4]، ومعنى ﴿فَاتَكُمْ﴾ في الآية محلِّ الشّاهد: ما لَم تُدرِكْهُ مِن نِعَمِ الدُّنيا[5].

3) ﴿تَفْرَحُواْ﴾: فِعْلٌ يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وجذره اللُّغويُّ: (فرح)، والفرحُ: كلُّ ما يسرُّك، ومن معانيه الأخرى: البَطَر، والفاء والرّاء والحاء: أصل يدلُّ على ما يُقابِل الحُزْنَ، وإذا انشرح الصَّدرُ بلذَّة عاجلةٍ؛ سُمّي ذلك فرحًا، ويغلب أن يكون في اللَّذّات الدُّنيويَّة، ولا سيَّما اللَّذّات البدنيَّة، وقد يُستَعمَلُ الفرَحُ في القرآنِ الكريم لِمَعانٍ متعدِّدَةٍ كالأشَرِ والرِّضا والسُّرور، والفرِحُ: مَن يَجِدُ في قَلْبه خفَّة؛ إذِ الفَرَحُ: إخراجٌ للغَلَظِ والثِّقل من الفُؤاد، فيغدو الصَّدرُ منشرحًا بتخلُّصِه ممّا يُثْقِلُه، ويُهمُّه[6]، والفرح: "انفتاحُ القلب بما يلتذُّ، وقيل: هو لذَّة في القلب أعظمُ مِن ملاذِّ الحواسِّ"[7]، ومعنى ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ في الآية: لئلّا تُسَرّوا سرورًا مُبطِرًا بما أنعَمَ اللّهُ تَعالى بِهِ عَلَيكُم، وأعطاكُم[8].

4) ﴿مُخْتَالٍ﴾: اسمُ فاعلٍ على وزن (مُفْتَعل)، حصلَ فيهِ إعلالٌ، وقد ورد هذا الوصفُ في مَوضِعَينِ آخَرينِ مِن الكتاب العظيم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ [لقمان: 18]، والجذر اللُّغويُّ منه:

---

(1) الراغب، المفردات: (أسا).
(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 136.
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فوت).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (فوت).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 197.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرح).
(7) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 383.
(8) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 306.

(خول) أو (خيل)، فالمختالُ: ما كان شديدَ الخُيَلاء[1]، والمُخْتالُ: مِن خالَ الرَّجلُ، فهو خائِلٌ ومُخْتالٌ، وأصل خيل: يدلُّ على حركةٍ في تَلَوُّن؛ لأنَّ المختالَ في مِشْيَتِه يتلوَّنُ في حَرَكَتِه ألوانًا[2]، وذو الخيلاءِ: ذو الكِبْرِ والمَزْهوُّ المعجَبُ بنَفْسِه[3]، فالخيلاءُ معناه: الكِبْرُ والعُجْب[4]، والمعنى هنا: المتكبِّر الذي يَستَنكِفُ عن أقاربه وجيرانه وأصحابه[5]، وقيل: المختال هوَ الصَّلف التّيّاه الجهولُ، وإذا تعاظَم المَرْءُ بما عندَهُ، سواءٌ أكان على وجهِ الحقيقة أم الادِّعاءِ، فإنَّه يُسمّى: مختالًا[6]، ومعنى ﴿مُخْتَالٍ﴾ في الآية الكريمة: متكبِّرٌ معجَبٌ بنَفْسِه، يتباهى بما أوتيه مِن متاعِ الدُّنيا وزينَتِها[7].

5) ﴿فَخُورٍ﴾: صيغَةُ مبالغَةٍ على زِنَة (فَعول)، وجذره اللُّغويُّ: (فخر)، والفَخْرُ: هو إظهارُ مَناقِبِ الرَّجُلِ ومحاسِنِه، وما عُرِفَ عنهُ مِن كرَم وشَهامَةٍ، فإذا ذَكَرَ المَرْءُ مآثرَ آبائِه، أو مفاخرَ نفسِه القَديمة؛ فَقَدِ افْتَخَر، والفخور: المُتَكَبِّر والمُتَعاظِم بما يَمْلِكُه، أو يختصُّ به من خِصال، وعدَّ القَديم من الفِعال[8]، والأصل في الفاء والخاءِ والرّاء: يدلُّ على العِظَم والقِدَم، ومِن معاني الفخر أيضًا: تفضيلُ الشَّيء على غيرِه، والفخر في أصل معناه: المباهاة بما هو خارِجٌ عَن ذاتِ الإنسانِ مِن مالٍ أو جاهٍ أو مكانةٍ دنيويَّة[9]، ومعنى ﴿فَخُورٍ﴾ في الآية: متباهٍ بما أوتيَهُ، يُظْهِرُ ذلك افتخارًا وتعاظمًا، وقيل: الفخور هو الذي يَنْظُر إلى النّاسِ بِعَيْنِ الاحتِقارِ والازدِراء[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لكيلا تَحْزَنوا حُزْنَ الجزَعِ، والأسى على ما فاتَكُم مِن حُظوظِ الدُّنيا وزينَتِها، ولا تَبْطَروا بما أُعطيتُم مِن نعيمها وعوارضها، فما من أحدٍ إلّا وهو يَفْرَحُ، ويحزن، ولكن

(1) الخليل، العين، (خول).
(2) والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خيل).
(3) ابن سيده، المخصص: 3/ 400.
(4) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 2/ 93.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 885.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خيل).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 258.
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (فخر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (فخر).
(10) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 496.

اجْعَلوا فَرَحَكُم شكرًا يورِثُ مزيدَ النِّعم، وحُزْنَكُم صبرًا يجلِبُ عظيمَ الأجر، ثُمَّ خَتَمَ جَلَّ شأنه بالتَّحذير مِنْ أنَّه تعالى لا يُحِبُّ مَن تكبَّر بما أوتي من الدُّنيا، متعاظمًا بما في يدِهِ مِن مالٍ أو جاهٍ، مُفْتَخِرًا على العبادِ بما هو زائِلٌ لا بَقاءَ لَهُ[1].

لا حُـــزْنَ على فائِتٍ، ولا بطَر بِعاجِلٍ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلها:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لمجيئِه بيانًا لعلَّة مترتِّبةٍ عَلى ما سَبَقَ؛ إذْ إنَّ لامَ التَّعليلِ تُفيدُ جَعْلَ أوَّلِ الكلام سببًا لآخره، كما يُقال: قُمْتُ لأَضْرِبَك، أي: كان القيامُ سببًا للضَّرْب، وهنا كذلك؛ فإنَّ اللّهَ سبحانه لمّا بيَّن أنَّ كلَّ ما في الكون جارٍ بالقَضاء والقدَر، مسطَّر في كتابٍ لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل؛ رتَّب على ذلكَ أثرًا نفسيًّا بديعًا، وهو ألّا يشتدَّ فرحُ المَرْءِ بما أوتي، ولا يشتدَّ حُزْنُه بِما فاتَه؛ لأنَّ كِلا الأمرَينِ مكتوبٌ مقضيٌّ لا مَرَدَّ لَهُ[2].

التَّسليمُ بالقَدَرِ يُطفِئُ لهيبَ الأسى، ويهذِّب نشوةَ الفَرَحِ

دلالَةُ التَّعبيرِ باللّامِ في قوله: ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

مِن خَصائصِ اللّام في لِسانِ العرَبِ دلالَتُها على التَّعليل[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾، فهي هنا جاءت لبيانِ علَّة ما قبلها؛ إذ المَعْنى: أنَّكم إذا أيقَنْتُم أنَّ كلَّ شيءٍ جارٍ بمقادير اللّهِ تَعالى مثبَتٌ في كتابِهِ لا يتغيَّر؛ خفَّ أَسَفُكُم على ما فاتَ، وزالَ فَرَحُكُم المُفْرِطُ بِما أوتيتُم؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ ما في يدِهِ لا بُدَّ أن يزول يومًا؛ لم يشتدَّ جزعُهُ عند فَقْدِهِ؛ إذْ قَد هيَّأَ نفسَهُ على احتمالِهِ، ومَن عَلِمَ أنَّ ما قُدِّر له مِنَ الخَيْرِ سَيَصِلُهُ لا محالةَ؛ لم يَعْظُم اغتباطُه عندَ نَيْلِه[4].

لامُ التَّعليلِ بينَ حِكْمَةِ القضاءِ واعتدالِ المَشاعِرِ

(1) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 40.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 467.
(3) أبو حيان، التذييل والتكميل: 11/ 173.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 479.

فائِدَةُ استِعمالِ (كي) في قولِهِ: ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

حــين يُـثـمـر الإيـمـانُ اتِّـزانًـا أمـــامَ الـفـقْـدِ والعَطاء

(كي) في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾ جاءت في موضع العلّة والسَّببيَّة؛ إذِ المَعْنى: لأجلِ ألّا تَحْزَنوا حُزْنًا شديدًا زائدًا عنِ الحدِّ[1]، فَهي هُنا ربَطت بينَ تقريرٍ سابقِ التَّقديرِ في عِلْم اللهِ تَعالى، وبينَ الثَّمرة المَنشودَةِ منه، وهي تهذيبُ مَشاعِرِ المُؤْمِن حتّى لا يَطْغى عليهِ الأسى عندَ الفقْد.

شَرَفُ المَبْنى وقوَّةُ المَـعْـنـى، حين يجتمِعُ التَّعليلُ والـتَّـوكـيـدُ في حرفٍ واحدٍ

ويجوز في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا﴾ ألّا تكون للعلَّةِ المَحَضَة، بل هي وارِدَةٌ على سَبيلِ التَّأكيد[2]؛ تنزيلًا لموقِعِها مَنْزِلَة ما يُرَسِّخ المعنى، ويقوّيه، لا لمجرَّد بيان السَّبب وحده، وإنَّما تمحَّضت هنا في الاستعمال حرفًا ناصبًا؛ إذ لا يَسوغُ أن يدخُلَ حرفُ الجرِّ على مثل هذا التَّركيب[3]، وبذلك اجتمعَ في هذا الموضع شرفُ التَّعليل وقوَّة التَّوكيد؛ ليَجيءَ النَّهيُ عَن شدَّة الأسى والفَرَحِ أرسَخَ وأبْلَغ.

وَيَجوزُ أن تكون (كي) باقيَةً عَلى مَعْنى التَّعليلِ مُطْلَقًا، سواءٌ أُفردت، أَمْ سُبِقَت باللّام؛ إذ لَم يُستَعمَل هَذا الحرفُ في لسان العرَبِ إلّا في مَقامِ التَّعليل؛ إذ قَد يجتمع في التَّركيب لفظانِ مُتَوافِقان في الدَّلالة توكيدًا وتقويةً للمَعْنى[4].

سِرُّ رَسْمِ كلمة ﴿لِّكَيۡلَا﴾ موصولَةً:

طمأنينةُ المُؤْمِن بينَ قدَرٍ مكتوبٍ وشُعورٍ منضبِطٍ

رُسِمت كلمة (كي) موصولَةً باللّام في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا﴾، فجاءت على صورةِ حرفٍ واحد، بخلاف مواضعَ أُخْرى، كقوله سبحانه: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ﴾ [الحشر: 7]؛ إذ رُسِمت على حرفَيْن[5]، وهذا الرَّسم الموصولُ سيق؛ ليَدُلَّ على اتِّصال الغاية بكَمالِها؛ إذْ إنَّ دخولَ النَّفْي على المَعْنى الكلّيِّ يُفيد شمولَ النَّفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 1/ 443.

(3) ابن الخشاب، المرتجل، ص: 203.

(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 352.

(5) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 1/ 342.

لجميعِ الأجزاء بلا استثناءٍ[1]، فليس المرادُ نفيَ الحُزْنِ عَن واقعةٍ مخصوصة، أو الفرح بعطاء بعَيْنِه، بل نفيُ الهيئة الكلّيَّة لِما يَعْتَري القلبَ، فلا يطغى الأسى عند الفَقْدِ، ولا يستولي الفرحُ عندَ العطاءِ.

دلالَةُ اقْتِرانِ (لا) بـ ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

لا يطغى الحزنُ، ولا يستبدُّ الفرحُ، فالمكتوبُ لا يُخْطِئُكُم

(لا) في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾ هي النّافيَة[2]، والمعنى: لكيلا يُحْزِنَكم الفائتُ حزنًا طاغيًا يجاوز حدَّ الصَّبر، ولا يبطركُم الفرحُ بِما أوتيتم بعد أن عَلِمْتُم أنَّ ما ينالُكُم مِن خير أو شرٍّ مكتوب مقدَّر لا يُخْطِئُكم، ولا يتخلَّف عَنْكُم[3].

بَلاغَةُ إيجاز الحذفِ في قوله: ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

الإيمانُ بالقَدَرِ يُعَلِّم النَّفسَ الصَّبرَ، ويُهَذِّبُ الشُّعور

في قولهِ تَعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ الجملة متعلِّقة بمقدَّر دلَّ عليه السّياقُ، والتَّقديرُ: أعْلَمْناكُم بذلك لكي لا تأسوا... أي: إنَّ هذا الإخبارَ الحكيمَ إنَّما سيقَ لفائِدَةِ تهذيب المداركِ وتَقْويم العقول، حتّى لا يَجْزَعَ المرءُ عندَ المَصائب؛ لأنَّ مَن أيقَنَ أنَّ ما في يدهِ مِن نِعْمَةٍ دنيويَّة زائِلٌ لا محالة؛ هان عليهِ فَقْدُه، ووطَّن نفسَه على احتمالِه[4]، فلم يَتَفاقَم حُزْنُه عندَ فواته.

سِرُّ التَّعبير بقوله: (لا تَأْسَوْا) دون (لا تحزنوا):

اختِصاصُ الأسى بالجَزَعِ والذُّهولِ والاستِنكارِ

اختير التَّعبير بـ (لا تَأْسَوْا) دون (لا تَحْزَنوا)؛ لأنَّ الأسى فيه مَعْنى الجَزَعِ والذُّهول والاستنكارِ[5]، ولكونِ الأسى يخصُّ الشُّعور بالحُزْنِ على ما فات من الأمور[6]، فيدلُّ على أثر الفُقدان، بخلاف الحُزْنِ فإنَّه يكون للماضي والحالِ[7].

(1) شعير، الإعجاز القرآني في الرسم العثماني، ص: 144.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.
(3) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 1070.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.
(5) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 60.
(6) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 783.
(7) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 57.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاء، وهوَ استعلاءٌ مجازيٌّ، وهذا أحَدُ معانيهِ في كلامِ العرَب[1]؛ إذ صوَّر الأسَى كأنَّهُ شَيْءٌ يَعْلو القلبَ، ويَستَولي على النَّفس، فكأنَّه يصوِّرُ الأسى، وهو جاثِمٌ فوقَ الرّوحِ مُثْقِلٌ لكاهِلِها.

شعورٌ جاثِمٌ يُثْقِلُ الرّوحَ، ويَستَولي على النَّفسِ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ دونَ (الذي):

استُعمِلَ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه موصولٌ عامٌّ يُفيد الإبهامَ والشُّمول[2]، فيشمل كلَّ ما يُمكِن أن يفوتَ مِن حُظوظ الدُّنيا وصوَرِها، صغيرًا كان أو كبيرًا، جليلًا أو حقيرًا، أمّا (الذي)؛ فهو أدلُّ على التَّعيين والتَّخصيصِ، ولو استُعمِلَ (الذي) هنا؛ لأَوْهَمَ أنَّ الأسَى منهيٌّ عنهُ في شأن مخصوصٍ معلوم.

نَفْي الأسى عن الفائِت بجَميع صوَرِه

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

التَّعبير بقولِه: ﴿فَاتَكُمْ﴾ ماضيًا دالٌّ على تحقُّقِ الفَوْتِ، ومادَّتُه تُشْعِرُ بأنَّ ما فاتهم كان قابلًا للتَّحصيل، وأنَّ الفائت قد سَعى له صاحِبُه، فَلَم يُفلِح في نيلهِ وتحصيلِه؛ إذْ غلبَهُ خروجُه عَن مُكْنَتِه[3].

الفائِتُ بينَ السَّعي إليهِ والعَجزِ في تحصيلِهِ

مَعْنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟﴾:

الواوُ في قولِه: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟﴾ جامعة بين النَّفيَيْن، فالواوُ هنا عاطفةٌ فِعْلَ الفَرَحِ على فِعْل الأسى[4]؛ لتَدُلَّ على التَّوازُنِ النَّفسيِّ المطلوب، فلا يَفْرَح الإنسانُ عندَ النِّعمة فرحًا يُخْرِجُه عَن طاعةِ اللّٰه تَعالى أو يَحْجبُه عَن حُقوقِها، بل إذا أدركَ أنَّ كلَّ ما أصابه، أو فاته؛ مقدَّرٌ بقَضاءِ اللّٰهِ تَعالى وقدرِه، وأنَّ ما أخْطَأه؛ لَم يَكُن ليُصيبَهُ، وما

تَوازُنُ النَّفْسِ بينَ الأسى والفَرَحِ في ظِلِّ التَّسليم لحِكْمَةِ الله تَعالى

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 48.

(2) الموصولُ الاسميّ نوعانِ، منهُ: ما يدلُّ على النصِّ والتعيينِ، وهوَ الذي والتي ونحوهما، ومنهُ: ما يدلُّ على العمومِ والاشتراكِ، وهوَ ما ومنْ ونحوهما، و(ما) في الآيةِ مِنَ الضّربِ الثاني، يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.

أصابهُ؛ لَم يَكُن ليُخْطِئَه؛ صار قلبُه متَّزنًا، وهانَ عليهِ ما فاتَ، ولَم يَفْرَح بِما أصابَ[1].

سِرُّ التَّعبير بالفَرَحِ في قوله: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ﴾:

ضَبطُ الفرَحِ حمايَةٌ للنَّفْسِ مِن الطُّغْيانِ والعدوانِ

جاءَ الفرحُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ﴾، بصيغة النَّهي الدّالِّ على ما يُستَقبَلُ مِن الزَّمان؛ ليكونَ قائمًا في كلِّ حينٍ، أي: لا تَستَكثِروا مِنَ الفرح والسُّرور بحيثُ يَجُرُّكم إلى الطُّغيان والعدوان[2]، بل يكون الفرحُ مقرونًا بالاعتدال والتَّسليم بقضاء اللّهِ تَعالى وقَدَرِه.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِمَآ﴾:

زوالُ النِّعَمِ يَقتَضي ضَبطَ الفَرَحِ لا استِكثارَهُ

مِن معاني الباء في لسانِ العرَبِ السَّببيَّةُ[3]، وهي هنا دالَّةٌ على العلَّة والسَّبب، ومعنى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾: لا تفرحوا بسبب أن أعطاكم مِنَ النِّعم، فإنَّ هذه النِّعم زائلَةٌ قريبًا، وكلُّ زائل لا يستحقُّ أن يكون محلَّ فَرَحٍ مبالَغٍ فيه[4].

سِرُّ التَّعْبير بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ مع الصِّلةِ:

لا حُزنَ يُثْقِلُ القلبَ، ولا فرَحَ يَطْغى على الطّاعةِ

جملةُ الصِّلَةِ في قولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ مُشْعِرَةٌ بأنَّها نِعْمَةٌ نافِعَةٌ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ مقام المُؤْمِن مِنَ الأدب بعدَ حُلول المصيبة، وعند انهيالِ الخَيْرات هو ضبطُ النَّفس، فلا يحزن على ما فات، ولا يبطر بما ناله مِن خيرات، وليس المقصود مِن ذلك تركَ السَّعي لنوال الخيرِ أو اجتنابِ الشَّرِّ[5]، والتَّعبير بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، فيها إبهامٌ يعطيها عُمومًا وشمولًا، بحيث تتناول كلَّ ما يُعطاهُ الإنسانُ في الدُّنيا مِن متاع وزينةٍ.

---

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 377.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 532.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 39.
(4) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 211.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾:

جلالةُ العطاءِ الرَّبّانيِّ

جاءَ التَّعبيرُ بفعل الإيتاءِ في قوله: ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ دون (أعطاكم)؛ لدلالتها على مَعْنى المَنْحِ والمِلْك والخَول[1]، أي: إنَّ ما أُعْطيتُموه أصبحَ تحتَ تصرُّفكم ومِلْكِكم، كما أنَّ في التَّعبير بالإيتاءِ تعظيمًا للمُؤْتى؛ إذ الإيتاءُ في الاستعمالِ القرآنيِّ خاصٌّ بالأشياءِ العظيمةِ الجليلة.

ومادَّة الإتيانِ في أصْلِها تفيدُ مَعْنى الإحضارِ والإيصال، فهي أوسَعُ دلالةً مِن الإعطاء الذي يَقْتَصِرُ على تمليك الشَّيء ونقلِه فحسب؛ فجاء لفظ ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾؛ ليشير إلى أنَّ ما وصل إلى العباد مِن متاع الدُّنيا، لم يكُنْ مِن مَحْضِ كَسْبِهم، ولا بِجُهْدِهم المجرَّد، بَل أُحضِر إليهم، وأوصِل بقدَرِ اللّهِ تَعالى، حتّى صار حُضورُهُ لديهم كأنَّه لازِمٌ لَهُم.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْل ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ ماضيًا:

تحقُّقُ وُقوعِ العَطاءِ والفراغِ مِنْهُ

استُعْمِل الفعلُ ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ بصيغة المُضيِّ دون المُضارِعِ؛ لدلالته على التَّحقُّقِ في الثُّبوت؛ إذْ إنَّ صيغة الماضي تُفيد وقوعَ العطاء وانتهاءَهُ بالفِعْلِ[2]، بخلافِ الفِعْلِ المضارع فإنَّها تدلُّ على الاستمرارِ أو الحُدوث المستقبليِّ.

بلاغة التَّتميم بجملة ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾:

أدبُ المؤمِنِ بينَ يقينِ المصيبةِ وهُدوءِ المَسَرَّةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ تتميمٌ لقَوْلِه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾؛ إذ المقصودُ من الكلامِ أنَّ المُؤْمنَ لا يَيْأس عندَ حُلول المصائب؛ لأنَّهُ يَعْلَم أنَّ كلَّ ما أصابه من مصيبَةٍ مَسْطورٌ في الكتاب، وكذلك المسرّات تُنال بطريق الاكتفاء، فالمَسرّات التي تحصُلُ للمَرْءِ دونَ ترقُّب أشدُّ أثرًا في تأكيدِ أدَبِهِ واستِقامَته بطريق المُقابلَةِ[3].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 197.

(2) الشنقيطي، العذب النمير: 5/ 562.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.

دلالَةُ تكرار حرف النَّفيِ (لا):

كُرِّرت (لا) النّافيةِ مع فعل الفرَح بعدَ ذِكْرِها مع فعل الأسى؛ لإفادَةِ توكيد النَّفي، وفَصْلِ كلٍّ منهما على حدة، أو هوَ توكيدٌ لعدَمِ وُقوعِ الاثنين معًا[1].

أثَرُ تَعَدُّد القراءاتِ في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾:

الإعطاء التّامُّ في قراءة المدِّ، والمقابلة المعنويَّة في قراءة القَصْرِ

قرأ جمهورُ العشرةِ ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ بالمدِّ، وقرأ أبو عمرٍو بالقصر ﴿أَتَىٰكُمۡۗ﴾[2]، والحجَّة لمن مدَّ - وهو الأكثر - أنَّه أراد به مَعْنى الإعطاءِ التّامِّ، والحجَّة لمن قصَر أنَّه لمّا تقدَّم قبلَه قولُه: ﴿مَا فَاتَكُمۡ﴾؛ جاء الرَّدُّ عليه بـ (ولا تفرحوا بما جاءكم)، فالقصر مناسِبٌ لفِعْلِ الفواتِ، وملائم لسياق التَّوازن بين الحُزْنِ والفرَح[3].

في قراءة المدِّ إدماجُ المنَّة مَعَ الموعظةِ، وفي قراءَةِ القَصْرِ مقابلَةٌ لِفِعْلِ الفَوْتِ

وعلى هذه القراءةِ - قراءةِ المدِّ - يكون عائدُ الموصول محذوفًا؛ لأنَّه ضميرٌ متَّصل منصوبٌ بالفِعْلِ، والتَّقدير: (بما آتاكموه)، وفيه إدماجُ المنَّة مع الموعظة؛ تذكيرًا بأنَّ الخيراتِ من فضل الله تَعالى، وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة واحدةٍ على أنَّه من الفِعْلِ (أتى)، ويكون عائدُ الموصولِ الضَّميرَ المُسْتَتِرَ المرفوعَ بالفعل (أتى)، وفي هذه القراءة يُقابل ﴿أَتَىٰكُمۡۗ﴾ بـ﴿فَاتَكُمۡ﴾، وهو محسِّنُ الطِّباقِ، فلِكِلْتا القراءتين محسِّنٌ بليغٌ[4].

بلاغَةُ الطِّباق بينَ الأسى والفَرَح:

المؤمنُ لا تستخفُّه صدماتُ النُّقصانِ ولا تَسْتَعبِدُهُ لَذّاتُ العطاءِ

بين الأسى والفرح في قوله سبحانه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، طباقُ إيجابٍ على غاية من التَّساوي والموازنَة[5]؛ إذ جُمِعَ بينَ حالَيْن متضادَّين، وهما الحُزْنُ على الفائت،

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 353.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 626، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 384.
(3) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 343.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 413.
(5) العسكري، الصناعتين، ص: 308.

والبهجَةُ بِما هو آتٍ، فجاء الطِّباقُ هنا في غاية التَّوازن والموازنة؛ ليكون المعنى في أكمل صورة؛ إذِ المقصودُ تربيَةُ القَلْبِ على الاعتدال والاتِّزان، فلا يَغرقُ في مرارة الفَقْدِ.

دقَّـــةُ الـبـيـانِ القُرآنيِّ في انتقاء الألفاظِ الملائِمَة لسياقاتِها

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بين آية الحديدِ وآيَةِ آلِ عِمْرانَ:

قال اللّهُ سُبحانَه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، وقال في سورة آل عمران: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 153]، فاختير لفظُ الحزنِ ههنا، ولفظُ الأسى في سورة الحديدِ، وخُصَّت سورة الحديد بذكر نفي الفَرَحِ، ولم يُذكَر ذلك في آل عمرانَ.

ووجهُ المغايرة بينَهما أنَّ آية آل عمرانِ تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ [آل عمران: 153]، فلمّا كان ذلك ممّا يُحزِن، ولا تعلُّق له بما يُفرِح، وكان السّياق متعلِّقًا بغَزْوَةِ أُحُدٍ التي فات المسلمين فيها النَّصْرُ بعدَ أن ظهَرَت بوادِرُه، وأصابَهُم القَتْلُ والجِراح، وكان ذلك ممّا يُحْزِن؛ ناسبَهُ قولُه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 153]، ولم يُذْكَر (ولا تفرحوا).

وأمّا آيةُ الحديدِ؛ فَقَد تَقَدَّمها قولُهُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، فلمّا كانت المُصيبَةُ هي ما يُصيب العبدَ مِن الخَيْر والشَّرِّ، وكان التَّكاثُر في الأموال والأولاد ممّا حَظيَ بِهِ كثيرٌ من أهْلِ الكُفْر دون المؤمنين، وكان ذلكَ مِمّا يَزيدُ شدَّةَ حُزْنِ أهلِ الإيمان على ما فاتَهُم؛ ناسَبَهُ قولُه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾، ولمّا كان ما آتاهُ اللّهُ تَعالى المؤمنينَ مِنَ الخير قَد يُفرِحُهُم، فيَجْعلهم يَغْفلون عن شُكْرِ اللّه سُبحانه؛ ناسبه قولهُ: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[1].

(1) سعد محمد، بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 340.

معنى الواو في جملة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾:

استمرارُ النّهي عن الغلوِّ في الحُزْنِ والفَرَحِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةٍ مقدَّرة[1]: (لئلّا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، فإنَّ اللّه لا يحُبُّ كُلَّ آسٍ فَرِحٍ)، (فَإنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ يَؤوسٍ كَفورٍ)، فيؤكِّد استمرارَ النَّهي عن الصِّفات المذمومة، ويُظْهِرُ ارتباطَها بسُلوك القلبِ والنَّفس، ممّا يَضْبِطُ اعتدالَ المُؤْمِن بين الحُزن والفرَح.

الفَرَحُ الذي يَخرج عن الطّاعة، ويُظهر الفخرَ مذمومٌ شَرْعًا

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾، دالَّة على الحالِ[2]، فدلَّ بذلك على أنَّ اللّهَ تَعالى ذمَّ الفرَحَ الذي يَجْعَلُ حالَ صاحبِه مُخْتالًا فخورًا بَطِرًا[3]، مُحَذِّرًا مِن أثَر الغُرور الذي يتَرَتَّب على الانغِماسِ في لذّات الدُّنْيا.

استئنافٌ لإفادة استقلالِ النَّهي عن الاختيال عَن سياق الشُّعور

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في الجملةِ استئنافيَّة[4]، فتكون الجملةُ مستقلَّةً بذاتِها، مُؤْذِنَةً بأهمّيَّتها، ودالَّة على عدم ارتباطِها بما قبلَها لفظًا، ليكون النَّهيُ[5] عن الاختيال والفخر على نحو خاصٍّ ومستقلٍّ عن سياقِ الحُزْنِ والفرح.

بلاغَةُ التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾:

المبالغةُ في الفرَحِ بالدُّنيا بريدٌ إلى الفَخْرِ والخُيلاءِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ تذييلٌ لِما سبَق؛ إذ إنَّ مَن يَفْرَحُ بحظٍّ مِنَ الدُّنيا، ويَعْظُم في نفسِه؛ يُصْبِحُ مختالًا، ويفتَخِرُ بما أُعطي، ويتكبَّر على النّاسِ[6]، وهذا تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلالِه بنفسِه، وعدم افتقارِه إلى ما قبلَهُ في الكشْفِ عَن تمام معناهُ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 297.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 201.
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 354.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 155.
(5) وجهُ النَّهي ههنا عن الاختيال والفخر في التَّعبير بأنَّ اللهَ تعالى لا يُحبُّ أصحابَهما، وهو من صيغَ النَّهي شرعًا، يُنظر: نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشرع، ص: 65.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.

دلالَةُ التَّعبير بالاسْمِ الأحسَنِ (اللهُ):

عُبِّرَ بالاسم الأحسَنِ (اللّهُ)؛ للإشارةِ إلى أنَّه سبحانه المتَّصف بالكمالِ المطلقِ[1]، الذي له الصِّفات العليا كافَّةً، فلا يليق بخلقِه ما يُخالِفُ عدلَهُ وحِكْمَتَهُ، كاختيالِ الإنسانِ وفَخْرِه بما أُعْطِيَهُ مِن نِعَمٍ.

الكَمالُ الإلهيُّ يقتضي تهذيبَ النَّفسِ عَن الفَخْرِ والاختيالِ

دلالَةُ تقديمِ المُسْنَدِ إليهِ (اللهُ) وتأخيرُ المسنَدِ الفِعْليِّ:

قُدِّم الاسم الأحسَن (اللّه) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ على اللّهِ تَعالى وحدهُ، فيُزيل الوهمَ عَن ذِهْنِ المُخاطَب[2] بأنَّ الموقِفَ مَتْروكٌ لغيرِه، مؤكِّدًا أنَّ الحُكْمَ في هذا النَّهي مرجِعُهُ إلى اللّهِ وحْدَهُ.

المرجعيَّةُ المُطْلَقَةُ للهِ تَعالى في النَّهْيِ عَن الكِبرِ والغُرورِ

وفي تَأْخيرِ المسنَدِ الفعليِّ تأكيدٌ للمعنى وتقويَةٌ لَهُ، ووجه ذلك أنَّ فيه تكرارًا للنِّسبةِ، فقد نُسِبَ الحُبُّ المنفيُّ إلى الاسمِ الأحسن (اللّه)، ثُمَّ أُسنِدَ إلى ضميرِهِ المستترِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾:

الاسمُ الأحسَنُ (اللّهُ) مبتدأٌ، وجملةُ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ خبرٌ له[3]، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة تحذيرٌ مِنَ الفرح المبالَغ فيه، في سياق بيانِ أنَّ كلَّ ما ينالُهُ المَرْءُ ثابِتٌ في الكتاب، مؤكِّدًا أنَّ المراد من الفَرَح هو ذلك الذي يَغْلِب صاحبَه على نفسه، فيبلغُ بِهِ حدَّ الاختيال والفخر[4]؛ ليذكِّر بضرورةِ الاعتدالِ، وضَبْطِ المَشاعِر، فجاء هذا التَّركيب؛ ليَدُلَّ على أنَّ بُغْضَ اللّهِ تَعالى للمُخْتالِ الفَخور أمرٌ راسِخٌ ثابتٌ لا يتغيَّر، لا يختصُّ بزمانٍ دونَ زمان، ولا بحالٍ دونَ حال، بل هو حُكْمٌ مطَّرِد دائمٌ باقٍ ما بَقِيَت هذه الصِّفاتُ المَذْمومَةُ.

تحذيرٌ مِنَ الفرَحِ الَّذي يُنسي صاحبَهُ الكتابَ، ويُخرِجُه عن الاتِّزانِ

---

(1) الشّربيني، السراج المنير: 4/ 213.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 353.

(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

سِرُّ العُدولِ عَن (يُبْغِضُ) إلى ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

نفيُ المحبَّةِ أبلَغُ مِن إثباتِ البُغْضِ

لَمّا كانَ حُبُّ اللّهِ سُبْحانَهُ الذي يَلْزَمُهُ حُبُّ النّاسِ مَحْبوبًا إلى النُّفوس، وكانَ فَواتُ المَحْبوبِ أشَقَّ على النُّفوسِ مِنْ وُقوعِ المَحْذورِ، وكانَ حَرْفُ النَّفي ﴿لَا﴾ مُخْتَصًّا بالدُّخول على المُضارِعِ المُستَقْبَلِ؛ قال اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، ولو ورَدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (واللّه يُبْغِض)؛ لاحْتَمَل تقييدَهُ بالحالِ، فكانَ التَّعبيرُ بِنَفْيِ المَحَبَّة أوقعَ في النُّفوس وأزْجَرَ، وأدَلَّ عَلى الدَّوام والاستِمْرارِ.

دلالَةُ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿كُلَّ﴾:

نفيُ المحبَّةِ عَن كُلِّ مختالٍ

قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ لا يُفهَم أنَّه لا يُحِبُّ بعضًا دون بعضٍ، بَل المراد: كلُّ فرد من هؤلاء المختالين، ويُرَدُّ بذلكَ على قولِ عبد القاهرِ مِن أنَّ إدخال ﴿كُلَّ﴾ في حيِّز النَّفي لا يصلح إلّا إذا وُجِدَ بعضُه دون بعضٍ، وما ذكره عبد القاهر حكمٌ أكثريٌّ، لا كليٌّ[1].

دلالَةُ إضافَةِ ﴿كُلَّ﴾ إلى ﴿مُخۡتَالٖ﴾:

نَفْيُ المحبَّةِ يَتَعَرَّض للجُمْلَةِ ويَستَغرِق الأفرادَ

أضيفَ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ إلى ﴿مُخۡتَالٖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يُحِبُّ أحدًا مِنَ الكافِرين الآثمين؛ لأنَّ ﴿كُلَّ﴾ مِن صيَغِ العموم، وهي موضوعَةٌ لاستغراقِ جميع أفرادِ ما تُضاف إليهِ، وليسَت للدَّلالة على مجموعَةٍ مُجْتَمِعَة؛ لذلك يُقال: إنَّها للكلِّ الجَميعيِّ، وأمّا الكلُّ المجموعيُّ؛ فلا تُستَعمل فيه ﴿كُلَّ﴾ إلّا مجازًا، فإذا أُضيفَت ﴿كُلَّ﴾ إلى اسم استَغْرَقَت جميعَ أفرادِه، سواءٌ أكان ذلك في الإثباتِ أو النَّفْي، وإذا دخل النَّفيُ على ﴿كُلَّ﴾؛ كان المعنى عمومَ النَّفي لسائِرِ الأفراد؛ لأنَّ النَّفي يتعرَّض للجُمْلَة، ويظلُّ مدلولُها قائمًا، إلّا أنَّه يتكيَّف بالسَّلب عوضًا عن الإيجاب، فإذا قلت: (كلَّ الدّيار ما

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 187.

دَخَلْتُه)، أو (لَم أدخل كلَّ دار)، أو (كلَّ دار لم أدخل)، أفاد ذلك نفيَ دخولِك أيَّ دارٍ مِنَ الدّيار(1).

سِرُّ التَّعبير بلَفْظِ ﴿مُخْتَالٍ﴾:

المَشْيُ المُتعاظم تُرْجمان البَطَر والافتخار بالنِّعَم

لفظُ ﴿مُخْتَالٍ﴾ في الآيةِ يُرادُ به المختالُ في مِشْيَتِه تكبُّرًا وتعظُّمًا، وفي التَّعبير به بيانٌ لِلبَطَر والغُرور المذموم، وأمّا المؤمِنُ؛ فيَنْبغي أن يتواضَع للّهِ ﷻ، ويَشْكُرَه، ويُثْنيَ عليه(2)، محافظًا على الاعتدالِ والانقيادِ لأوامرِه.

سِرُّ استعمالِ وصفِ ﴿مُخْتَالٍ﴾ دون (متكبِّر):

المُختالُ أشدُّ مبالغةً في بيانِ التَّعالي على الخَلْقِ مِن لفظِ المتَكَبِّر

اختارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿مُخْتَالٍ﴾ دون (مُتَكَبِّر)؛ لأنَّ لفظَ ﴿مُخْتَالٍ﴾ أبلَغُ في المعنى، فهو يدلُّ على المبالغة في الاختيالِ والتَّكبُّر على الخَلْقِ بسُلوكِه وتصرُّفِه، وقال بعضُ أهل العلم: إنَّه يُطْلَقُ على مَن وجَدَ لنفسِه مزيَّةً عندَ النّاس(3)، فاستَغَلَّها في التَّفاخر والتَّعاظُم الذّاتيِّ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿فَخُورٍ﴾:

وصفٌ يكشِفُ التَّفاخُرَ بالنِّعَمِ الظّاهرة

عَدَل البيانُ القرآنيُّ عن وصف (مُتَفاخِر) إلى ﴿فَخُورٍ﴾؛ لأنَّ الفَخور هو الذي يَفْتَخِر بما أنعمَ اللّهُ تعالى عليهِ بينَ النّاس، فيكون غرورُه مبنيًّا على النِّعم الظّاهرة، بينَما يُحِبُّ اللّه سُبحانَهُ مَن يَشْكُرُه عليها بالتَّوسُّع في إحْسانِه إلى عِبادِه(4)، فتكون الفضائلُ مَصْدَرَ تقديرٍ للنِّعْمَةِ لا وسيلة للكِبْر.

شدَّةُ الفخرِ والمبالغة في التَّعاظُم الذّاتيِّ تُفسِدُ أدبَ العبوديَّة

وعُبِّر بوَصْفِ ﴿فَخُورٍ﴾ أيضًا؛ لأنَّ معناه شدَّةُ الفَخْرِ على النّاس(5)، أي: إنَّ صاحِبَها يبالِغُ في إظهارِ العظمَةِ والتَّعظيم الذّاتيِّ أمامَ الآخرين، محذِّرًا من أثَرِ الغُرور على النَّفس، وسلوكها تجاهَ النّاس.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 91 - 92.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 243.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 9/ 21.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 533.
(5) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 348.

سِرُّ تَقْديمِ ﴿مُخۡتَالٖ﴾ على ﴿فَخُورٍ﴾:

قُدِّمَ ﴿مُخۡتَالٖ﴾ على ﴿فَخُورٍ﴾؛ لأَنَّ الاختيالَ مِن علاماتِ بَقاءِ النَّفْسِ ورُؤْيَتها، بينَما الفخرُ ناتجٌ عَن إدراكِ ما يَمْتَلِكُه الشَّخص، ويَستَدعي التَّفاخر[1]، فالتَّقديم يوضِّح أَنَّ الغرور يَظْهَرُ أَوَّلًا في التَّصرُّف والسُّلوك قبلَ أن يَتَجَسَّد في الشُّعور بالفَخْر.

الاختيالُ مِن بقايا رُؤْيَةِ النَّفْسِ، والفخرُ ثمرةُ إدراكِ النِّعمة والاستعلاءِ بها

ومِن مَعاني هذا التَّقديمِ أَنَّ المُخْتالَ أخصُّ مِنَ الفخورِ؛ إذ يخصُّ الفعْلَ والسُّلوك الظّاهر، بينَما الفخورُ يشمَلُ العَقْلَ وغيرَه مِنَ المَشاعر الدّاخليَّة[2]، فالتَّقديمُ يُبْرِزُ أثَرَ الغُرور في المَظْهَر العَمَليِّ قبل أن يَظْهَرَ في القَلْبِ أو الفِكْر.

المختالُ أخصُّ مِنَ الفَخور، فالاختيالُ فِعْلٌ ظاهِرٌ، والفَخْرُ شُعورٌ باطِنٌ

دلالَةُ الجَمْعِ بينَ الوَصفَيْنِ مِن غيرِ عَطْفٍ:

في قوله تعالى: ﴿مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ وصْفانِ مَجْموعانِ مِن غيرِ عطفٍ، وهما دالّانِ عَلى أنَّ كلَّ وصفٍ يُضيف معنًى خاصًّا، ويجوز أن يكون هذا كلُّه وصفًا للكفّار، كأنَّه يقول: لا يحبُّ كلَّ كافرٍ[3]؛ ليشمل النَّهيُ عَن كلِّ مَن يَجْمَعُ بينَ الاختيال والفَخْر، فتَظْهَر شدَّة المذمَّة في هذه الصِّفات.

اجتماعُ الصِّفاتِ المَذْمومَةِ في الكافِر، والتَّحذيرِ مِن الغُرورِ المركَّب

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ في قولِه: ﴿مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾:

عُبِّر بالاسم في قوله: ﴿مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ دون الفعلِ؛ لأَنَّ المقصودَ أَنَّ اللّهَ تعالى لا يُحِبُّ من اتَّصف بهاتين الصِّفتين - وهُما الاختيال والافتخار[4] - على وجه الدَّوام والثُّبوت؛ لأَنَّ الإنسان قد تعرضُ له أحوالٌ تظهر فيه هاتانِ الصِّفتانِ على وجهِ التَّأقيتِ لا الدَّوام، ثُمَّ سُرعانَ ما يعدِلُ عمّا عرضَ له من الصِّفاتِ الخسيسَة.

أشدُّ ما يكونُ ذمُّ الاختيالِ والفَخْرِ؛ إذا كانا وصفَيْنِ ثابتَين

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 544.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 252.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 533.
(4) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 211.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظَي ﴿مُخۡتَالٖ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾:

نُكِّر لفظا ﴿مُخۡتَالٖ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾، من قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾؛ ليكونَ أوْعَب وأشمَلَ لِكُلِّ مَنِ اتَّصف بِوَصْفِ الاختيالِ أوِ الفَخْر؛ لِوُقوعِ اللَّفظَين في سياق النَّفْي.

شُمولُ الحُكْمِ كُلَّ مُخْتالٍ وكُلَّ فخورٍ

سِرُّ اختلافِ الفاصلةِ مع فاصلةِ سورةِ لُقْمانَ:

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، وقال في سورة لُقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]، نجد أنَّ الفرق يرجِعُ إلى زيادةِ ﴿إِنَّ﴾ في آية لقمان؛ [لقمان: 18] إذ تدلُّ (إنَّ) على التَّوكيد، ويعود ذلك إلى ذكر صفاتٍ عدَّةٍ تدعو إلى الفَخْرِ والاختيال أكثرَ ممّا هو في آية الحديدِ، مثل رفعِ الصَّوت، والمشي مرحًا في الأرض، والمشي بسُرْعَة، فكان مناسبًا زيادةُ أداةِ التَّوكيدِ؛ لتقويةِ النَّهي والتَّحذير[1].

زيادة (إنَّ) في آية لقمان توكيدٌ يُناسِبُ كثرة مظاهِر الفَخْرِ والاختيالِ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأسى والأسَف والحُزْن:

في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ ورود لفظ الأسى دون الحزن أو الأسف دقيقٌ في الدَّلالة.

الأسى يدلُّ على الحزن المصاحِب للغمِّ على الفائت، وهو إحساسٌ نفسيٌّ يلازم القلب بلا تثاقُلٍ أو غلظة[2]، وفيه مَعْنى الجَزَعِ والذُّهولِ والاستنكارِ، يقال: أسيتُ عليه، أي: تلقَّيتُ الفَقْدَ بغَمٍّ ووَجَعٍ نفسيٍّ، وهو ما يراد من توجيه آيةِ سورة الحديدِ في تذكير الإنسانِ بعدم ملازمةِ الهمِّ على ما فات.

تهذيبُ النَّفسِ عندَ الفَقْدِ، وتلطيفُ الغمِّ دونَ ثِقَلٍ أو غضبٍ، بما يوافِقُ مقامَ الرِّضا والتَّسليم

أمّا الحزنُ؛ فمفهومُه أعمق وأغلظ، فهو تكاثفُ الغمِّ وغِلَظُه؛

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 354.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).

تشبيهًا لَهُ بثِقَلِ الأرض وصلابَتِها[1]، وقد يعيق النَّشاطَ العقليَّ والنَّفسيَّ، فلا يليق بالمعنى المراد من النَّصِّ القرآنيِّ في سورة الحديدِ القائمِ على التَّوجيه والتَّطمين.

والأسف يتضمَّن غالبًا شعورًا بالغضب أو الغيظ على الفائت، كما في قول الآسِف الغضبان المتلهِّف على الشَّيء[2]، وهو لا يناسب مقام التَّوجيه الرَّبانيِّ اللَّطيف الذي ينهى عن انقيادِ النَّفس للفقد، ويحثُّ على الرِّضا والتَّسليم.

ومن هنا جاء اختيار لفظِ الأسى؛ ليكون أبلغَ في تصوير الغمِّ على ما فاتَ، بعيدًا عن الثِّقَلِ أو الغضب، موافقًا لطبيعةِ التَّوجيه القرآني الرَّحيمِ.

الفرَح والبَطَر:

نهيٌ عن الغَفْلَةِ لا عَنِ السُّرور، وتوجيه إلى الرِّضا دون اعتدادٍ أو سوءِ استِعمالٍ

الفَرَحُ يَشْمَلُ السُّرور النَّفسيَّ العارِضَ، وقد يكون بما لا نَفْعَ فيهِ ولا لذَّة دائمة، كما في فرح الصَّبي بالرَّقص أو العَدْوِ أو السِّباحة، وهي متعة عابرة قد تُتْعِبُه أو تؤذيه، لكنَّها تُسمّى فرحًا؛ لأنَّها إحساسٌ بالسُّرور والبَهْجَة[3]، أمّا البطَرُ؛ فمَعْناهُ: سوءُ استِعمال النِّعمة، ويدلُّ على الغلوِّ فيها وتعظيمِها بوجْهٍ يخرُج عن الاعتدال، فهو يَحْمِلُ معنى الجحود والاعتدادِ المذموم، كما في قول أهل اللُّغة: البطر شقُّ الشَّيء، واستعماله سوءًا[4].

فالفرق الجوهريُّ إذًا: أنَّ الفرَحَ إحساسٌ مجرَّدٌ بالبهجة والسُّرور، لا يُحَكَّمُ على استحقاقها أو سوءِ استِخْدامِها، بخلافِ البَطَرِ فإنَّ فيه نوعًا من التَّكبُّر والاعتدادِ بالنِّعمة، وهوَ يمسُّ البُعْدَ الأخلاقيَّ والتَّوجيهيَّ للنَّفس، ومن هنا جاء التَّعبير بـ ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾؛

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 186.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 277.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102 - 103.

ليهذِّب النُّفوس عن الاعتمادِ على النِّعمِ الزّائلة، ويقيها من الغَفْلَةِ والاعتداد، دون تحميلِ مَعْنى الذَّمِّ المباشر الذي في البطَرِ.

الاختيال والتَّكبُّر والفَخْر:

نهيٌ عن التَّكبُّر فِعْلًا وقولًا، وتوجيهٌ إلى التَّواضع الذي يليقُ بضَعْفِ الإنسانِ أمامَ جلالِ الخالِق

الاختيالُ: هو التَّكبُّر الحركيُّ، أي: مشيةُ البَطَر والزُّهو بالهيئة، كما يظهر في حركَةِ الخَيْلِ التي سُمّيت خيلًا لاختيالها، وعندما يركَبُ الفارِس يُبْرِزُ تَبَخْتُرَهُ في حركةٍ مرئيَّة واضحة.

وأمّا الفَخْرُ؛ فهو التَّكبُّر القوليُّ، أي: التَّفاخر بالمناقِبِ والمُجادلة بما يَرْفَعُ مِن شَأْنِ المَرْءِ على السّامع[1]، في حركَةٍ مَسْموعَةٍ تَظْهَرُ في الكلام المبالغ فيه عنِ الفِعْلِ والإنجاز. فالمختالُ متكبِّر بالفِعْلِ فقط، والفخور متكبِّر بالقول، أو بالقول والفعل معًا، وهما وصفان نَفْسيّان مذمومان[2]، واختلافهما عن التَّكبُّر في اللُّغة: أنَّ الكِبْرَ يدلُّ على إظهار عظمة الشَّأن، ففي حقِّ اللّٰه تعالى مدحٌ؛ لأنَّ شأنه عظيم، أمّا في حقِّ البشَر؛ فهو ذمٌّ؛ لأنَّ شأن الإنسانِ صغيرٌ، ولا يليق به التَّفاخر، وليس له بأهل[3]، ومن هنا جاءت الآية لتجمع بين الذَّمِّ النَّفسيِّ الحركيِّ والذِّهنيِّ، محذِّرة من كلِّ صوَرِ التَّعالي الظّاهريَّة والباطنيَّة. فالاختيالُ والفَخْرُ صِفَتانِ نفسيَّتان مذمومتانِ تُؤثِّران في سُلوكِ الإنسانِ وعلاقَتِه بالآخرينَ.

(1) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 32.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/ 207.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 444.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾ [الحديد: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذمُّ البخلِ والأمْرِ بِهِ

لَمّا خُتِمَت الآيةُ السّابقةُ بذَمِّ المُخْتال الفخور، وكانَ مِن أوصافِ هذا المكاثِر بالمالِ البُخْلُ، وقد سبَقَ التَّرغيبُ في الإنفاق، وكانَ باعِثُ البخلِ في الغالب لذَّةَ الفَخار، والاختيالَ بما أوصل إليه المال، وخوف الإقتار الموجب عندَ أهل الدُّنيا للمهانة والصَّغار؛ جاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾؛ إذ أرادوا أن يتَّخذوا لَهُم أعوانًا على أفْعالِهم الخَبيثَة، فَيُحامون عَنْهُم، أو لأنَّ ما جَنَوْهُ مِن تكبُّرٍ وبَطَرٍ بِما جَمَعوا مِنَ الأموال التي حَصَّلوها بِبُخْلِهم كان سببًا في استدراجِ غيرِهِم إلى البُخل، فيبخل؛ ليكثُرَ مالُه، ويَعْظُم، فصاروا آمِرينَ بالبُخْل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡخَلُونَ﴾: فعلٌ مضارع مسنَدٌ إلى جماعة الذُّكور، دالٌّ على الحال والاستقبال، وجذره اللُّغويُّ: (بخل)، ومِنْهُ البخلُ، وهو معروفٌ، ورجل بخيلٌ وبخّال؛ إذا وُصِف بالبخل، وحقيقةُ البخل: "إمساك المُقْتَنيات عمّا لا يحقُّ حَبْسُها عنه، ويقابله: الجود"[2]، والبخل قد يكون تارةً بما يملِكُه الإنسانُ نفسُه، وهو مذمومٌ، وقد يكون بما يَمْلِكُه غيره، وهو أشدُّ ذمًّا، وأشدُّ من ذلك كلِّه مَن يَجْمَعُ بين الأمرين، فيبخَلُ بماله ومال غيرِه معًا، والبخلُ: ما كان نقيضَ الكرَمِ بأن يُمْسِكَ المَرْءُ ما يتطلَّب، ويُمْكِنُ إخراجُه، فلا يُرْسِلُه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 297 - 298.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بخل).

وليس في القرآن العظيم من معاني البُخْلِ إلّا هذا المعنى[1]، ومعنى ﴿يَبۡخَلُونَ﴾ في الآية أنَّهم أمْسَكوا "ما أنعم اللّهُ عليهم من الأموال، أو ما بيَّن لَهُم من صفات الرَّسول عليه أفضل الصَّلوات، أو ما أُمِروا به من العباداتِ"[2].

2) ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحال والاستقبال، وهو على زنة (يَتَفَعَّل)، وجذره اللُّغويُّ: (ولي)، ومنهُ: المَوْلى، وهو الحليفُ، وإذا ولّى الرَّجلُ؛ فقَدْ أدْبَر، ومنه: التَّوليةُ، وهي الانصرافُ عَن الأمرِ، "وتولَّى عنه، أي: أعرض، وولّى هاربًا، أي: أدبرَ"[3]، والأصل في الواو واللّام والألف: دِلالَتُه على القُرْب، وقد يكون بمعنى الإعراضِ والصُّدوف، وترك القُرْب، وقد يكون بالجِسْم، أو بالمعنى بتَرْكِ الائتمار والإصغاء، وتولّى بمعنى: ذهَبَ، ونَأى عنه[4]، ومعنى ﴿يَتَوَلَّ﴾ في الآية: يُعْرِض، ويتنكَّب عن الإنفاق في سبيلِ اللّه تعالى، أو يُعْرِض عن الإيمان، وما أمَرَ به مِن الطّاعة[5].

3) ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: صيغَةُ مبالغَةٍ على زنة (فَعيل) حَصَل فيها إعلالٌ، والجذر اللُّغويُّ منها: (غنى)، والغِنى مِن صِفاتِ اللّهِ سبحانه، والغِنى يدلُّ على الكفاية، والغِنى في المالِ يُقال فيه: غَنيَ يَغنَى غِنًى، والغَناء - بفتح الغَيْن - مع المدِّ هو الاستغناءُ والكفايَةُ، فيقال: لا يُغني فلانٌ غَناء فلان، أي: لا يَكْفي كِفايتَهُ، ويُقال: غَنيَ القومُ في دارهم، أي: أقاموا فيها كأنَّهم قدِ استَغنَوا بها، و"المعنى المحوريُّ: وجود الكفايةِ ممّا يَعْمُر الحيّز بطيبِه، ويُقيم أمرَه، كالمالِ في الحوزَةِ"[6]، ومعنى ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في الآية الكريمة: المُستَغني بذاتِهِ عَنهُم[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذمٌّ للبُخلاءِ بأموالِهم، المُمْسكين عن الإنفاقِ في وُجوهِ البرِّ، المضيِّقين في أعْمالِهم الصّالحة مِن إيمانٍ، وسائر الطّاعات، ثُمَّ يزيدون على بُخْلِهم أن يحثّوا النّاسَ على ما

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخل).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 3/ 182.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ولى - ولي).
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 409.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غنى).
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 152.

هُم عليه مِن شحٍّ وقَسْوَة، فيصدّون عن الخَيْرِ بِقولهم وفِعْلِهم؛ وذلك غايةُ المَذَمَّة، وأقصى النَّقص، ومَن يقصر عَن أداء ما أوجب اللّه عليه، ويُعرض عن طاعته وتقواه، فإنَّ اللّه تَعالى مُستَغنٍ بذاته عن خَلْقِه أجمعين، الحميد المحمود بِصفاتهِ وأفعالِه[1].

ذمُّ البخلِ والدَّعوةِ إليه، وغِنى اللهِ تعالى الحميدِ عَن طاعةِ خَلْقِهِ وبَذْلِهم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلها:

فُصِلَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ عمّا قبله؛ لوروده بيانًا وتفصيلًا لقوله تَعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾[2]، فكشَفَ عَن صورةٍ مِن صوَرِ الاختيال والفخر، وهيَ البُخْلُ المزوجُ بتزيينِه للنّاس.

بيانُ البُخلِ والأمرِ بِهِ تفصيلًا لذمِّ المختالِ الفخور

ويجوزُ أن يكونَ قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾، بدلًا من قَوْلِه تَعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، فيكون قد فُصِل؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ تَعالى لا يحبُّ المختالَ، ولا يحبُّ البخلاءَ الذين أطْغاهُم الفرحُ بمالِ الدُّنيا، فَبَخِلوا به، وأمَروا غيرَهُم بالبُخْل، فجاءت الآيةُ كاشفةً عَن ثمرَةِ ذلكَ الفَرَحِ المَذموم[3].

فَرَحٌ بالدُّنيا أطْغى، فبُخْلٌ واختيالٌ أغْوَى

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾:

عُبِّرَ بالمَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَعَ جُمْلَةِ الصِّلة ﴿يَبۡخَلُونَ﴾[4]، دون الاقتصارِ عَلى الاسمِ الجامِد: (البخلاء)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الصِّلَةَ هي علَّةُ الحُكْمِ ومناطُ الذَّمِّ، فكأنَّ صفةَ البُخْلِ جرَّت عليهم مقتَ الرَّبِّ، فصاروا مَبْغوضينَ معذَّبين بسَبَبِها.

بُخْلٌ جرَّ المَقْتَ، فأورثَ البُغْضَ والعذابَ والسَّخَطَ

دلالَةُ استِعمالِ الاسمِ المَوْصولِ جَمْعًا:

جيءَ بالاسمِ المَوْصولِ جَمْعًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾

تفصيلُ العُمومِ وإبرازُ صورَةِ البُخَلاءِ؛ لتتَّضِحَ شناعَةُ البُخْلِ

(1) العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 6/ 544.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 533.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 469.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 157.

بعد إفراده في ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ لكونِ ذاك مندرجًا تحتَ العمومِ بدُخولِ ﴿كُلَّ﴾ عليه[1]، فناسَب أن يُفصِّل بذِكْرِ جماعَةٍ مخصوصَةٍ تُمَثِّل صورةً مِن صوَرِ ذلكَ العُمومِ.

سِرُّ التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ دونَ يَضِنّون:

البُخْلُ أبلَغُ في الذَّمِّ

استُعمِل فِعْلُ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ دون (يضِنّون)؛ لأنَّ البُخْلَ أعمُّ وأشدُّ في الذَّمِّ؛ إذ يشمَلُ مَنْعَ المالِ والحقِّ والمعروفِ صغيرِهِ وكبيرِهِ، واجبِه ومندوبِه، بينَما الضَّنُّ أخَصُّ وأخفُّ دلالة، فهو مجرَّدُ حِرْصِ المَرْءِ على ما يَرى فيه نفعًا خاصًّا له؛ ولهذا تقولُ: هو ضَنينٌ بعِلْمِه، ولا يقال: بخيلٌ بعِلْمِه؛ لأنَّ العلمَ أشبَهُ بالعاريَّة[2] منهُ بالهِبَة، فالواهِبُ إذا وهَبَ شيئًا؛ خرَجَ مِن ملكِه، أمّا إذا أعارَ شيئًا؛ فإنَّه يظَلُّ ملكًا لَهُ، والتَّعبيرُ بالبُخْلِ هُنا مناسِبٌ لَمقامِ التَّقريع؛ إذْ إنَّ هؤلاء لا يكتَفون بمَنْعِ أنفُسِهم، بل يَتَعَدَّوْن إلى أمْرِ النّاسِ بالبُخْل، فيَكتُمونَ صفةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَه[3].

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ المضارع ﴿يَبْخَلُونَ﴾:

بُخْلٌ متجدِّدٌ لا يَفْتُرُ

اختيرَت صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿يَبْخَلُونَ﴾؛ للإيماء إلى الاستمرار والتَّجدُّد[4]، فكأنَّ البُخْلَ سجيَّةٌ متكرِّرة فيهم لا تفارقهم أبدًا.

دلالةُ حَذْفِ متعلِّق الفِعْلِ ﴿يَبْخَلُونَ﴾:

تعدُّدُ مَظاهِرِ بُخْلِهم وامتدادُ أثرِه إلى كثيرٍ من أنواعِ الشُّحِّ

حُذِفَ متعلِّقُ فعلِ البُخْلِ؛ ليعمَّ كلَّ ما يُمكِنُ أن يَبْخَلوا بِهِ، مِن رزقٍ حسّيٍّ أو معنويٍّ[5]، فقد يكون بخلُهُم بالعِلْم، أو بكتمانِ صفة النَّبيِّ ﷺ في التَّوراة، أو بحقِّ اللّه تَعالى في المال، أو بالصَّدقات، أو بما في يديه، أو بغير ذلك من ضُروبِ البُخْلِ والشُّحِّ[6].

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 306.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 409.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 328.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 482.

دلالَةُ العَطْفِ في قولِه: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾:

خطورةُ البُخْلِ وخطورةُ الدَّعوة إليهِ

عُطِفَ قولهُ: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ على قوله: ﴿يَبۡخَلُونَ﴾[1]؛ لأنَّ البخيلَ سُرْعانَ ما يتحوَّل إلى داعيةٍ إلى بُخْلِه، يَطْلُب أنصارًا يُسانِدونَهُ، كما يأنَسُ أهلُ الضَّلال برفقةِ أمثالِهم، فصاروا في إفسادِهم كإبليسَ؛ إذْ غوى، فَصار مُغْوِيًا[2].

سِرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿وَيَأۡمُرُونَ﴾ دون (يدعون) مادَّةً وصيغَةً:

إلـزامٌ في المنعِ ومـبـالـغـةٌ في القُبْحِ

اختيرَ لفظ الأمر في ﴿وَيَأۡمُرُونَ﴾ دون (يَدعون)؛ لأنَّ الأمْرَ ههنا أبلَغُ في بيانِ قُبْحِ صنيعِهم؛ لأنَّ الأمر يحمِلُ مَعْنَى الإلزام والاستعلاءِ، بخلاف الدَّعوة التي تدلُّ على مطلقِ الطَّلبِ، ولو لم يكُن فيه إلزامٌ[3]، وفي اختيار الفِعْلِ المضارعِ إشارةٌ إلى استمرارِهم على الخُلُقِ القبيحِ، وهو حَمْلُهم النّاسَ على تركِ الجودِ وسلوكِ طريقِ البُخْلِ والشُّحِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّاسِ دونَ البشَرِ:

إبرازُ شُمولِ ذمِّ البُخْلِ وتأثيرِه الاجتماعيِّ

انتقى البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾؛ لأنَّ (البشر) يختصُّ بالظُّهور والهيئة أو الخِلْقَة، ويختصُّ بالإنسِ مِن بني آدَمَ، أمّا ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ فَهو مشتقٌّ من النَّوس، فهو لفظٌ يُشير إلى الجماعةِ المُتَحَرِّكة في المجتمع وتأثيرها الاجتماعيِّ[4]، وهو لفظٌ يشمَلُ الإنسَ والجنَّ جميعًا على المختارِ مِنْ قولَي أهل العلم، ومع كون الآيةِ تتناول أثَرَ البُخَلاء الذين لا يَقْتَصِرون على مَنْعِ أنفُسِهم، بل يُحاوِلون جرَّ الآخرين إلى البخل، كان استعمال ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دالًّا على شُمول ذمِّ فِعْلِهم، وتأثيرِه العَميق على الجماعةِ، لا مجرَّد وصْفِ حالٍ فرديٍّ أو هيئة ظاهريَّةٍ.

---

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 784.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 231.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 101.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

إشاعَةُ البُخْلِ في كُلِّ الأنفاسِ، واستعدادٌ في الأمرِ يَعُمُّ جميعَ النّاسِ

(أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دالَّةٌ على الاستِغراق؛ إذ ليسَ أمرُهُم مقصورًا على فئةٍ مخصوصة، بل يتوجَّه إلى كلِّ مَن يَعْرِفونَهُ، ويُخالِطونَه[1]، فهُم لا يَرضَونَ لأنفُسِهم بالبُخْلِ فحسبُ، بل يَسعَونَ إلى إشاعةِ عَدْواهُ في أوسَعِ نطاقٍ، حتّى يشمَلَ المُجْتَمَعَ كلَّهُ.

مَعنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾:

المبالغَةُ في الأمرِ بالبُخلِ، حتّى كأنَّهم يُلْصِقونَه بالنّاسِ إلصاقَ الدّاءِ

الباءُ في قولِه تَعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ هي باءُ التَّعْدِيَةِ، وهي التي تَجْعَلُ الفِعْلَ متعدّيًا إلى مفعولِه الثّاني، والمعنى: يأمرون النّاسَ أن يَبْخَلوا، أي: يَجْعَلونَهُم مُتَلَبِّسينَ بالبُخْلِ مُقْتَرنينَ بهِ، والباءُ هنا تفيد معنى الإلصاقِ أيضًا، وفي ذلك إشارَةٌ إلى شدَّة حِرْصِهم على إلصاقِ هذه الخَصْلَةِ المذمومة بالنّاس، حتّى تصيرَ صفة لازمَةً لَهُم.

دلالَةُ التَّعبير بالبُخْلِ مُظْهرًا لا مُضْمرًا:

بيانُ خطورةِ كُفْرانِ النِّعْمَةِ، والتَّحذيرُ من إخفاءِ الفَضْلِ الإلهيِّ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ البُخل مظهَرًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾، دونَ الإضْمارِ بِـ (ويأمرون النّاسَ به)، تكشِف عن قصدٍ قرآنيٍّ دقيقٍ؛ إذ يُراد الإشارةُ صراحَةً إلى أنَّ فِعْلَهُم هو أمرُ النّاسِ بالبخل، مع إظهارِ إخفائِهِم لِما أنعم اللّهُ تَعالى عليهِم مِن المالِ وسَعَةِ الحال، وفي هذا بيانٌ لأثَرِ الكُفْرِ وعلامَة على انحدارِ صاحِبِها مِن وادي الإخلاص إلى وادي الكُفْرِ[2]، كما هو تنبيهٌ عَلى خُطورَةِ الكُفْرانِ لِنِعْمَةِ اللّهِ تَعالى.

دلالَةُ (أل) في ﴿بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾:

استغراقُ البُخلِ، وتحريضُ النّاسِ على التَّلبُّسِ بالخِصالِ المذمومةِ

دخولُ (أل) على ﴿بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ دالٌّ على الاستغراقِ، أي: يأمُرونَهُم بالبُخلِ مِن حيثُ هو خصلَةٌ مذمومَةٌ في عُمومِه، لا بنوعٍ خاصٍّ منه، ولا بواقعةٍ بعَيْنِها،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 3/ 78.

فصار المعنى: يحثّون النّاسَ على التّلبُّس بهذه الخصالِ المَمجوجَةِ مطلقًا، وكأنَّهم يريدون إشاعة روح البُخْلِ بين النّاس جميعًا، حتّى يغدوَ البُخْلُ سجيَّة عامَّة لا تقتَصِرُ على بابٍ دون بابٍ.

سِرُّ الجَمْعِ بينَ البُخْلِ والأمرِ به:

مِـنَ الـبُـخْـلِ الـشَّـخـصيِّ إلى التَّأثير العامِّ

والجمع بين (البُخلِ) والأمر به يشير إلى أنَّ هؤلاء البخلاء يريدون أن يكون لهم أتباع ينفِّذون أعمالهم الخبيثة، ويحمون عنهم، أو أن يجعلوا من أفعالهم سببًا للتَّكبُّر والبطر فيما حازوه من المال؛ استدراجًا من الله لهم بأن يبخل الآخرون عليهم، فإذا رأوا ذلك المال ازداد بخلهم؛ فكانوا آمرين بالبخل؛ إذ صاروا أسبابًا له، والسَّبب في هذا السّياق كالآمر في إيجاد الشَّيء، يفعِّل أثره، ويضاعفه[1].

وفي الجَمْعِ بينَ البُخْلِ والأمر به أيضًا إشارةٌ إلى شرِّ البُخَلاء، فهم لا يَكْتَفون بمَنْعِ أنفُسِهم عن العطاء، بل يمتدُّ بُخْلُهم إلى النّاس، فهُم في ذلك جَمَعوا بين رَذيلَتَين، كلٌّ منهما كافٍ في الشَّرِّ، فالبخل منعٌ للحُقوق الواجبةِ، والأمر به دعوَةٌ لنَشْرِ هذا الخلُقِ الذَّميم، فلم يكتفوا ببُخْلِهم لأنفسهم، بل حثّوا النّاس عليه قولًا وفعلًا، وهذا كلُّه من شدَّةِ إعراضهم عن طاعة ربِّهم، وتولّيهم عنها[2].

بَلاغَةُ إيجازِ الحَذْفِ في الآية:

إبـهـامٌ يُـصـوِّرُ سوء عاقِبَتِهم

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ استغنى عن ذكر الخبَرِ صراحةً، فجَعَلَ بعضُ أهل العلم (هم) في موضع الرَّفعِ على الابتداء، والخبر محذوفٌ، ومعناه الوعيد والذَّمُّ، والحذفُ جاء على جهة الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الرعد: 31][3]، فيكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 268 - 269.

تقدير آية الحديد: الذين يبخلون، ويأمرون النّاس بالبُخْلِ مذمومونَ ومُتَوَعَّدونَ، وهذا يَجعل النَّفسَ تذهبُ كلَّ مذهبٍ في تصوُّرِ جزائِهِم القبيحِ، وفي هذا الإبهامِ تهويلٌ لمآلِ أمرِهِم وسوءِ عاقبَتِهِم.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾:

إقــراضٌ حسَنٌ يـورِثُ الرَّحْمَةَ وبُـخْـلٌ مذمومٌ يجلِبُ النِّقمة

الواوُ في ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عاطفةٌ على مقدَّرٍ، وذلك أنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ يقتضي كلامًا مقدَّرًا، وهو: "فمَن أقبَلَ على ما نُدِبَ إليهِ من الإقراض الحسَنِ والأمْرِ بالمَعْروف والنَّهي عن المُنْكَر؛ فإنَّ اللّه شكورٌ حليم؛ عطَفَ عليه قولَهُ ذامًّا للبُخْلِ محذِّرًا منه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾"(1)؛ ليُظْهِر ثوابَ المُبادِرين إلى الخير، وعقابَ المُتَقاعِسين عن أداء حقوق اللّه تَعالى وحقوقِ النّاس، فتتجلّى بذلك الحكمةُ الإلهيَّة في الجَمْعِ بينَ المَدْحِ والذَّمِّ، ممّا يقوّي أثرَ الحثِّ والتَّحذيرِ.

استئنافٌ يكشِفُ غنى الإلهِ، وتولٍّ لا يَـنْـقُـصُ مِن عُلاه

ويجوز في الواوِ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أن تكون للاستئناف(2)، والجملةُ بعدها مستأنفةٌ تفيد أنَّ تولّيَهُم لا يضرُّ اللّه تَعالى شيئًا، فهو الغنيُّ عن خلقِه كلِّهِم، المحمود في ذاتِه وصفاتِه.

دلالةُ حذْفِ متعلّقِ البُخْلِ في قوله: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾:

شمولُ الذَّمِّ كلَّ صوَرِ البخلِ

حُذِفَ متعلِّقُ البُخْلِ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾؛ ليعمَّ الذَّمُّ كلَّ صوَرِ البخل ومجالاته، فلا يُقيَّد بمالٍ أو علم أو معروفٍ مخصوص، بل يشمَلُ كلَّ ما يُمكِنُ أن يَبْخَل به الإنسانُ من خيرٍ، فكان الحذفُ أبلَغَ في التَّوبيخ والتَّقريع.

بلاغَةُ التَّذييل بجُمْلَةِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾:

جملة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ تذييلٌ؛ إذ يشمَلُ مَن يتولّى مِن جَميع المُبْغِضين للخير، بمَن فيهِم البخلاءُ الذين

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.

يأمرون النّاسَ بالبُخْل، فقد تولّوا عن طاعةِ اللّهِ تَعالى، وأهْمَلوا أداءَ الواجباتِ في سَبيلِهِ[1]، ويجوزُ أن يكونَ الغرَضُ مِن هذا التَّذييلِ ذمَّ هؤلاء البخلاء على بُخْلِهم[2]، وإظهارَ فَقْرِهم، وضآلة شأنهم أمامَ غِنى اللّه تَعالى.

التَّحذير من التَّولّي عن الحقِّ، وشمول الذَّمِّ كلَّ المُبْغِضين للخيرِ

بلاغةُ التَّعبير بالجملةِ الشَّرْطيَّة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

(مَنْ) اسْمُ شرطٍ جازمٌ في محلِّ رفعٍ مبتدأً، و﴿يَتَوَلَّ﴾ فعل الشَّرط، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة[3]، وفي التَّعبير بجملةِ الشَّرْطِ تهديد وإشعارٌ بأنَّ الأمر بالإنفاقِ إنَّما هي لمصلحة المُنْفِق نفسِه؛ إذ يعودُ ثوابُ نفقَتِه إليه[4]، فيجمع بين الحثِّ على الخير، وتحذير المقصِّرين في آنٍ واحد.

في الأمرِ بالإنفاقِ نفعُ المُنْفِق، وتحذيرُ مَن أعرضَ عن الفَضلِ

دلالَةُ حَذْفِ متعلّقِ التَّولّي في قوله: ﴿يَتَوَلَّ﴾:

حُذِفَ متعلّقُ الفعلِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي: من يتولَّ عن الإنفاق، ويشمَلُ ذلك أنواعًا كثيرة مِنَ الإنفاق، كإعالَةِ الأقاربِ، وصدقة الفطر، والكفّارات، والزَّكاة وغيرها[5]، فيدلُّ على شمولِ ذمِّ التَّهرُّب عن أداءِ الواجبات الماليَّة، والصَّدقات التَّطوّعيَّة على حدٍّ سواء.

شموليَّة ذمِّ التَّهرُّب من الواجباتِ الماليَّة، والامتناع عن الصَّدقات التَّطوّعيَّة

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط[6]، والمقصودُ: بيانُ أنَّ تولّيَهُم لا يضرُّ اللّه تَعالى شيئًا، فهو الغنيُّ المحمودُ في ذاتِهِ وصفاته.

بيانُ غِنى اللهِ تَعالى عن خلقِهِ أجمعينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 413.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 226.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1303.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 470.
(6) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 530.

بيانُ غِنَى الله سُبحانَهُ المطلقِ

دلالةُ حَذْفِ جوابِ الشَّرط في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾:

حُذِفَ جوابُ الشَّرط في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، إلّا أنَّ جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تقومُ مقامَ الجواب؛ إذْ تَحمِلُ العلّةَ الظّاهرة لعدَم تأثير تولّيهم، فالمعنى: ومن يتولَّ؛ فلا يضرُّ اللّهَ تَعالى شيئًا، ولا ينقص مِن حقِّ الفقير شيئًا، فاللّه تعالى غنيٌّ عن مالِ المُتَولّين، وله عبادٌ مُطيعونَ يُسَبِّحونه، ويثنون عليه في كلِّ حالٍ، فيَحْمَدُهُم على ذلكَ[1].

توكيدٌ يقطَعُ التَّوهُّمَ، ويُثبِتُ الغِنى والحَمْدَ بلا تردُّدٍ

سِرُّ التَّأكيد بـ (إنَّ):

(إنَّ) في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ حرف توكيدٍ ونَصبٍ[2]، يُرادُ بها تقويةُ مضمونِ الجُمْلَة، وقطْعُ توهُّم خلافِه، ففيها تثبيتُ حقيقةِ غِنى اللّهِ تَعالى وحَمْدِه على وجهٍ لا يقبل الشَّكَّ، فجاء الأسلوبُ مؤكَّدًا يليقُ بمَقام الرَّدِّ على مَن يتولّى، ويظنُّ أنَّ إعراضَهُ مؤثِّرٌ في جانبِ اللّهِ تَعالى.

تفرُّدٌ في الغِنَى واستِحقاقٌ للحَمْدِ في السِّرِّ والجهرِ

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهرًا دون إضْماره:

جاءَ التَّعبير بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهَرًا في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، بدلًا من الإضمارِ (فإنَّه) يحمِلُ دلالةً بلاغيَّةً جليلة؛ إذ هو تصريحٌ باسم اللّهِ سُبحانَهُ؛ لإبرازِ عظمَتِه وجَلاله، والتَّنويه بأنَّه المتفرِّدُ بالغِنى المُطْلَق والمستحقِّ للحَمْدِ على كلِّ حالٍ، فذِكرُ الاسم الكريم هنا فيه دلالةٌ على العظمة والكبرياء اللائقَيْن بِجَلال المقام[3]، بخلافِ الضَّمير الذي لا يَنْهَضُ بهذا القَدْرِ مِنَ الإشعارِ والتَّفخيم.

بلاغَةُ التَّعبير بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾:

عُبِّرَ بضمير الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 414.

(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2402.

(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 391.

للتَّأكيد على أنَّ الغِنَى للّه تَعالى وحده[1]، فهو المُستَغْني عن جميع خلقه، المستحِقُّ للحَمْدِ في ذاته وصفاتِه، فضميرُ الفصْلِ مؤكِّدٌ للقصْرِ المستفادِ من تعريف جزأي الجملةِ.

تأكيدُ الغِنى المُطْلَقِ للهِ تَعالى وحدَهُ، واستِحْقاقه الحمدَ في ذاتهِ وصفاتِه

بلاغَةُ القَصْرِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وذلك بطريقِ تعريفِ جُزْأي الجُملةِ، فالمسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ أعرف المعارفِ، والمسنَدُ ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ معرَّفانِ بـ (أل)، أو بكونِهما عَلَمَيْنِ على اللّهِ سُبحانَهُ، فدلَّ ذلك على القصْرِ؛ للدَّلالةِ على اختصاصِ اللّه تَعالى بالغِنى والمحموديَّةِ وحدَهُ، وهو رافعٌ عن ذاته أيَّ شريكٍ أو مَثيل، ومُؤكِّدٌ لتمام صفاته وعظَمَته.

غِنى اللهِ تَعالى وحَمْدُه المطلقانِ خاصّانِ بِهِ

أَثَرُ تعدُّدِ القِراءات في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

قرأ نافعٌ وابن عامرٍ وأبو جَعفر قولَ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، مِنْ غير ﴿هُوَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وقرأ الباقون بإثباتِ ﴿هُوَ﴾[2]، فمَن أثبت ﴿هُوَ﴾ كان ذلك فصلًا بين المسنَدِ والمسند إليه، وكان تقويةً للقصْرِ وتأكيدًا له، ومن حذَفَ؛ فإنَّ القصرَ مستفادٌ من تعريفِ الجزأين، والتَّوكيدَ من (إنَّ)، وإثباتُها وحذفها راجعٌ إلى اختلاف مصاحفِ الأمصار، فإنَّ مصحف المدينَةِ والشّام بغير (هو)، ومصاحف الباقينَ بإثباتِها[3].

فَضلٌ يُعلي التَّوكيدَ والبيانَ، وحذفٌ لا يُنْقِصُ مِنَ المَعْنى المرادِ

دلالَةُ استِعمالِ وصْفِ الغَنيِّ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾:

استُعمِل وصفُ الغِنَى في اسم اللّه تعالى ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾، مِن قولهِ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾؛ للدَّلالةِ على كمال استقلالهِ عَن عِبادِهِ وعَمّا دعاهُم إليه، بل هو الغَنيُّ بذاته[4].

غِنًى ذاتيٌّ عنِ العبادِ جميعِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 384.
(3) الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار، ص: 112.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 534.

وفي وصف ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ تهديد ضمنيٌّ بأنَّ البُخْلَ لا يضرُّ اللّه تعالى؛ إذ هو الغنيُّ الغِنَى المُطْلق[1]، وإنَّما يعودُ ضرَرُ البخل على البخيلِ نفسِه، فالأمر بالإنفاقِ لمَصْلحة المنفق لا لحاجةٍ منهُ ﷻ، فغناه ذاتيٌّ لا يتأثَّر بعطاءٍ أو مَنْعٍ.

تعريضٌ بمَن أعْرَضَ عَن الإنفاقِ

وفي وصفِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ أيضًا تعريضٌ بالمُعْرِض عن الإنفاقِ، وتأكيدٌ أنَّ اللّهَ تَعالى غنيٌّ بذاتِه، لا يحتاج إلى ما في أيدي الخَلْق[2]، وإنَّما الحاجَةُ للمُنْفِق، ففي الإنفاقِ صَلاحُه، وزكاةُ نفسِه، ونيلُ رِضْوانِ ربِّه.

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ متعلّق ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾:

الإشارَةُ إلى الغِنى المُطْلَق عَن كُلِّ شيءٍ وفي كلِّ حالٍ

﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ هو الموصوفُ بالغِنى، وهوَ عدمُ الاحتياج، وغِناهُ ذاتيٌّ لا يَفْتَقِر إلى سببٍ، ولا يتعلَّق بغيرِه، ولمّا لم يُذْكَر لَهُ متعلِّقٌ؛ أفادَ الغِنى العامَّ[3]، فهو الغنيُّ عَن كلِّ شيء، وفي كلِّ حال، وهو الكاملُ في استِغنائِه عَن الخَلْق جميعًا.

دلالَةُ التَّعبير بوصفِ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ على وزْنِ (فَعيل):

الحميدُ في ذاتِه، المَحْمودُ قبلَ حَمْدِ العبادِ إيّاه

جاءَ التَّعبيرُ بوَصْفِ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ على وزْنِ (فَعيل)؛ للكَشْفِ عَن كمالِ استِحْقاقِه الحَمْدَ؛ إذ هو المستحقُّ للحَمْدِ دائمًا، سواءٌ أمَدَحَهُ الحامِدون أم لم يَمْدَحوهُ، فالحمدُ لَهُ ثابتٌ في ذاته لا يتوقَّفُ على حَمْدِ العبادِ لَهُ، ووصفُ اللّهِ تعالى بـ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ - وهو وصف مبالغةٍ - يدلُّ على كثرةِ الحَمْدِ.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾:

غَنِيٌّ مُعطٍ، فاستَحَقَّ الحَمْدَ؛ إذ هو الجامِع بين الكمالِ والجودِ والمَجْدِ

قُدِّم الغِنى على الحَمْدِ؛ لأنَّ اللّهَ سُبْحانه غنيٌّ عَن عبادِه وعَن عبادَتِهم، ومع ذلك يُغْدِقُ عليهم من مُلْكِه، فيستَحِقُّ الحَمْدَ، ويُحْمَدُ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 153.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 469.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 414.

للأسبابِ الكثيرةِ[1]، فلمّا كان غنيًّا مُعطيًا؛ صار بذلك حميدًا محمودًا، جامعًا بين الغِنى الكامل، والاستحقاقِ الدّائم للحَمْدِ.

وهذا التَّقديم أيضًا ملائمٌ للسّياقِ؛ إذ السّياقُ في ذمِّ البُخْلِ والتَّولّي عن الإنفاقِ، فكانَ لا بدَّ أوَّلًا من تقريرِ غناهُ المطلق الذي يُغني عن طاعةِ العبادِ وأموالهم، فلا ينالُه من بُخْلِهم نقصٌ، ولا من عطائهم زيادَةٌ.

بيانُ غِنى الله تَعالى المطلَق قبلَ بيانِ استِحقاقِه الحَمْدَ تناسبًا مع سياقِ ذَمِّ البُخْلِ

دلالَةُ الجَمْعِ بين اسمي الله تعالى: الغنيِّ والحميدِ:

في الجمع بين الاسمينِ الكريمَيْنِ ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ إشارةٌ بليغَةٌ إلى أنَّه سُبحانَهُ المُسْتَحِقُّ للحمدِ وحدَه على السَّرّاء والضَّرّاء، وعلى الغنى والفَقْر، فهو الغنيُّ الذي لا تَنْفَدُ خزائنُه، ولا يتوقَّفُ عطاؤُهُ وجودُهُ، ولَم يحرِم فقيرًا إلّا بحكمةٍ وتقديرٍ، وما كان من حكمته وتقديره؛ فلا يقبلُهُ المُؤْمن إلّا بالحمد والرِّضا[2]؛ اعترافًا بكمالِ عِلْمِه وعَدْلِه وإحْسانه.

غنيٌّ لا تنفَدُ خزائِنُهُ، ولا ينقطِعُ عطاؤُهُ وكرمُهُ

دلالَةُ تعريفِ الوَصفَيْنِ ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

عُرِّف الاسمان الكريمانِ ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؛ للإفصاحِ عَن كمال الغِنى والاستحقاقِ المُطْلَق للحَمْدِ، فهو الغنيُّ عن العالمين، المُغْني عبادَهُ كلَّ الغِنى، وهوَ الحميدُ الذي يَسْتَحِقُّ الحمدَ كلَّهُ على ما أنعَمَ، وخَلَقَ، وأحْسَنَ، في السَّرّاء والضَّرّاء، في الدُّنيا والآخرة، لِحِكْمَتِه وأفعالِه وصِفاتِه، وفَضْلِه وإحسانِه وشَرْعِه وأحْكامِه ورَحْمَتِه[3]، جامعًا بذلكَ بينَ الغِنى المُطْلَق مع الاستحقاقِ الكامل للحَمْدِ.

الغنيُّ عَن العالمينَ، والحميدُ في كلِّ حينٍ، الجامع بينَ الكمالِ والإحسانِ المُبينِ

فائدَةُ ذِكْرِ وصْفِ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾:

في ذكر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ فائدةٌ جليلةٌ، وكأنَّه واردٌ جوابًا عن سؤالٍ؛ إذ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 355.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 785.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 355.

عـطـاءٌ محمـودٌ من غنيٍّ كريمٍ، وتقصير العبدِ مـــردودٌ عليهِ بالتَّأثيم

يُقال: لَمّا كان اللّهُ تعالى عليمًا بأنَّه قد يَبْخَل بذلك المال، ولا يَصْرِفه إلى وجوه الطّاعات، فلِمَ أعطاه ذلك المال؟ فالإجابة: إنَّه تعالى حميدٌ في إعْطائِه، مستحقٌّ للحَمْدِ؛ إذ فتحَ لعباده أبوابَ رحمَتِه ونعمته، فإذا قَصَّر العبدُ في الطّاعة؛ فإنَّ وبالَهُ يعودُ إليه(1).

بلاغةُ الاتِّفاق والاختلافِ بينَ آية الحديدِ وآية النِّساء:

صـورةٌ قـرآنـيَّـةٌ جامعَةٌ لغُرور الـنَّـفْـس في الـعِـبـادَةِ والنِّعْمَة، وذمٌّ لمن يمنَعُ الخَيْرَ، ويَهْدِمُ التَّواضُعَ

قول اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٣٧﴾ [النساء: 37]، وقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

ففي سورة النّساء أمرهم بالعبادة وترك الشِّرك في قوله: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: 36]، وأخبرهم أنَّهم عبيدٌ، والعبد لا يَحْسُن منه الاختيال والفخر؛ لأنَّ الرِّقَّ والذُّلَّ يخالِفانه، فجاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36]، وأعْقَبها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء: 37]؛ لأنَّه بعدَ العبادَةِ أمَرَهُم بالإحسان للوالدين وإعطاءِ ذي القربى واليتامى والمساكين، فبيَّنَ أنَّ اللّه تعالى لا يُحِبُّ العبد المختال الفخور البخيلَ، وأمّا في سورة الحديدِ؛ فقد جاءَ بعدَ نَهْيِه عنْ تمكينِ الحُزْنِ والأسى على ما يفوتُ مِن أحوال الدُّنيا، فذَمَّ الإفراطَ في الجزَعِ عندَ المُصيبة والفَجيعة، والغلوَّ في الفرح، والمرح عند العطيَّة، وكثرة السَّعة حتّى يخرج عن التَّواضع بما يحولُ إلى الكبرياء، فيَبطر، ويَمْرَح، ويفخر، بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، ثمَّ عقَّبها بقوله سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾؛ لأنَّه تقدَّمَهُ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، فكأنَّه حثَّهُم على الصَّدقة، وإقراض اللّهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 469.

تَعالى، فإنَّ مَن لَم يَفْعَل ذلكَ؛ يكون بخيلًا، واللّه لا يحبُّ البخيلَ[1]، وتعريضًا بالمكذِّبين[2] الّذين نُزِعَ عنهم هذا الوسامُ الرَّفيع، فكأنَّ الخطابَ يَسِمُ المؤمنين بوسامِ الصِّدّيقيَّة في صَدْرِ الحقيقةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البخل والشُّحِّ:

في الشُّحِّ معنى الحِرْصِ وكونِه عادةً متأصِّلة في النَّفس

البُخْلُ في أصلِ اللُّغة: نقيضُ الكرَم، وحقيقَتُه: إمساكُ المالِ والمُقْتَنيات عمّا لا يحقُّ حَبسُها عنه، وأمّا الشُّحُّ؛ فهو أشدُّ البُخْلِ، وفيه دلالةٌ على الحِرْص، وهو يعُمُّ المال والمعروفَ، كما أنَّه طبيعةٌ متأصِّلة ثابتَةٌ في نَفْسِ الشَّحيح.

وقد ورد ذِكْرُ البُخْلِ ومشتقّاته في القرآن الكريم، منها قول اللّه سُبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران: 180]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: 37]، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ [محمد: 38].

وقد اقترنَ البُخْلُ في الاستعمالِ القُرآنيِّ بالمال، فهو حَبْسُ المال دونَ غيرِه مِنَ الخَيْرِ والمعروف، وممّا يُؤَكِّد اختصاصَ البُخْلِ بمَنْعِ المال خاصَّة عن مستحقّيه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ [محمد: 36 - 37].

وأمّا الشُّحُّ؛ فقَد وردَ في القرآن الكريم خَمْسَ مرّات، منها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: 128]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن

(1) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 252 - 254.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 249.

يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]، والآياتُ الواردة في الشُّحِّ تدلُّ على أنَّ الشُّحَّ طبعٌ متأصِّل في النَّفس، وفيه حرصُ النَّفس على الحقوق وقلَّة التَّسامح فيها، كما تَحْتَمِلُ لفظةُ (الشُّحِّ) البخلَ بالمال، وعدمَ التَّسامح في الحقوقِ الأُخْرى مِن غير المالِ.

والحاصلُ أن البُخْلَ والشُّحَّ يشتركان في أصلِ المَنْع والحبس، إلّا أنَّ الشُّحَّ يمتاز بالشِّدَّة والحرص، وكونه عادةً وطَبْعًا متأصِّلًا في النُّفوس، وهو يشمَلُ المالَ وغيرَه مِن الخَيْر والمعروفِ[1].

التَّولّي والإعراض:

التَّولّي أقبَحُ مِنَ الإعراضِ وأشْنَعُ

الأصلُ في الواو واللّام والحرفِ المعتلِّ دلالَتُه على القُرْبِ، وقد يكونُ بِمَعْنى الإعراضِ والصُّدوف، وتَرْكِ القُرْب، وقد يكون بالجِسْم أو بالمعنى، بتَرْكِ الائتِمارِ والإصْغاءِ، وتولّى بمعنى: ذهب، ونأى عنهُ[2]، فالتّولّي يدلُّ على إحداثِ تكلُّفٍ في الانصراف؛ لِما في صيغة التَّفعُّل من التَّكلُّف، أي: إنَّ الإنسانَ يُجْهِدُ نفسَه ليولّي وجهَه عنِ الحقِّ، مخالفًا ما جُبِلَت عليه فِطرتُه من محبَّة الخير، والإقبال على اللّه تَعالى[3]، بينَما الإعراضُ فهو دالٌّ على مُطْلَقِ الانصرافِ، بلا ذلك التَّكلُّف والمقاومة.

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 105 - 107.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ولى - ولي).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 298.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا كان غنيًّا حميدًا؛ أرسل الرّسل، وأنزل معهم الكتب لإقامة القسط

لَمّا تقرّرت الحجج السّاطعة، وظهرت البراهين القاطعة حتّى لم يبقَ لمعتذر عذر، ولا لمستكبر حجّة، وشاع نور الدّلالة، فغمر أقطار الوجود، وكان قد سبق بيان خسَّة الدّنيا ووضاعة بهجتها، وأنَّ الإنسان إذا تُرك ونزعات طبعه؛ انقاد إلى البُخْل والفخر؛ فناسب أن يُبيّن سبحانه أنّ غناه مطلق، وحمده كامل؛ إذْ هو الغنيّ الحميد، غير أنّ ختام تلك الآية ربّما يوهم اشتراك الأنبياءِ في هذا الغنى؛ أعلن اللّهُ جلّ شأنه أنّه لم يترك الخلق سُدًى، بل أيّد أنبياءه بالبيّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط، وأنزلَ الحديد قوة رادعة، ومنفعة واسعة؛ لتتمَّ الحجّة بالبرهان، ثمَّ بالسَّيف عند الإعراض والطّغيان، وليعلم مَن يَنْصُرُ اللّهَ ورسلَه بالغيب، إنَّه سبحانه القويّ العزيز(1).

من مظاهر حمد المولى سبحانه نعمة الهداية بإرسال الرّسل والشّرائع

ومن أوجُهِ المناسبةِ بين هذه الآيةِ وما قبلَها: أنّ اللّه سبحانه وصف ذاته بـ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحقّ للحَمد على ما أنعم به على عباده، ولَمّا كانت من أجلّ نِعَم اللّه تعالى نعمة الهداية إليه؛ اقْتَضَت الحكمة أن تُذكَر هنا هذه النّعمة الجليلة، وهي نعمةُ إرسال الرّسل وما مَعَهُم مِن كتُب الشّرائع، وما في أيديهم من معجزات تشهد لهم بأنّهم رسل اللّه تعالى، وأنّ دعوتهم إلى النّاسِ ليسَت دعوة بشريّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.

بل هي دعوةُ اللّهِ تعالى، جامعًا بين الثّناء على ذاته، وتنبيه النّاس إلى أصل الهداية وسببِها الحقّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: اسمٌ لآلة الوزن، والأصل فيه (مِوْزان) حصل فيه إعلالٌ صرفيّ بقلب الواو ياءً مجانسة للكسرة السّابقة، وهو على زِنَة (مِفْعال)، والجذر اللّغويّ منه: (وزن)، ومعناه: ثِقَلُ شيءٍ بما يُعادِلُه، والوزنُ معناه: التّقدير، والعرب تقول: ما لفلان عندنا وزنٌ، أي: قَدْرٌ؛ لخسّته، وهذا يزِنُ درهمًا، ودرهم وازن، أي: تامٌّ[2]، والأصل في الحرف المعتلّ والزّاي والنّون دلالتُها على الاستقامَةِ والتّعديل، والمتعارَفُ في الوزنِ عندَ العامّة ما يُقدَّر بالقسط والقَبّان، كقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35][3]، ومعنى ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ في الآية الكريمة: "العدل، قال سلمة: كفّة الميزان على جهنّم، والكفّة الأخرى على الجنّة"[4].

2) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: اسمٌ ثلاثيّ من الجذر (قسط)، والقِسْطُ: هو العدْلُ في القِسمة والحكم، يقال: أَقْسَطْتُ بينهم، وأَقْسَطْتُ إليهم، و(القِسطِ) هو الحصّة التي تؤول إلى صاحبِها، ويقال: تَقَسَّطوا الشّيء بينهم، أي: اقتسموه بالسّويّة، فكلّ مقدارٍ يُعدّ قِسْطًا في كلّ أمر، و(القِسطِ) بكسر القاف وضمّها معًا: يطلقانِ على أعدَلِ المَوازين[5]، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: ذواتَ القِسطِ، أي: العدل، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، أي: أقوم وأعدل[6]، ومعنى قيام النّاس بالقِسْطِ في الآية الكريمة، أي: بالحقّ والعدل باتّباع الرّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتهم فيما أُمِروا به؛ إذ ما جاؤوا به هو الحقّ الذي لا يتجاوَزُه حقٌّ[7].

3) ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾: اسمٌ على وزْنِ (فَعيل)، والجذر اللّغويّ منه: (حدد)، و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 786 - 787.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (وزن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وزن).
(4) عبد الرزاق، تفسير عبد الرزاق: 3/ 287.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 188.

هو الجوهَرُ المعروفُ الدّالُّ على المَنَعَة، والقطعة منه: الحديدة[1]، سُمّي بذلك لمناعَتِه وصلابَتِه، وعدم قبوله الانشقاقَ أو التّفتُّتَ بالضَّغْطِ المُعْتاد، أي: بالكيفيَّة التي ينشقّ، أو يتفتّت بها غيره[2]، وهو المراد به في الآية[3].

4) ﴿بَأۡسٌ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، والجذر اللّغويّ منه: (بأس)، ويَرِدُ بلَفْظِ البَئِس، على زِنَةِ (فَعِل) بمعنى: العذابِ الشَّديد، ومن معانيه الأخرى أيضًا: الحرب[4]، والأصل في الباء والهمزة والسّين: راجعٌ إلى الشّدّة ونحوها، كالشّدّة في الحرب، ويَرِدُ بمَعْنى الامتناعِ والقوّة[5]، ومعنى البأسِ في الآية موضع الشّاهد: "الحرب تكون بآلته وسلاحه، أو خوف شديد مِن خشية القتل به"[6].

5) ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: جَمْعٌ على صيغة منتهى الجموع بِوَزْنِ (مَفاعِل)، مأخوذٌ من الجذر اللّغويّ (نفع)، وأصل النّفع في الدّلالة اللّغويّة: أنّه خلاف الضَّرر، فكلّ ما يعدّ خيرًا فهو داخل في معناه[7]، وحقيقةُ النّفع: "ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخيرِ فهو خيرٌ، فالنّفع خير، وضدّه: الضّرّ"[8]، ومن هنا صار النّفع لفظًا جامعًا لكلّ ما يعود على الإنسان من فائدة حسّيَّة أو معنويّة، كما يُطْلَقُ على الفائدةِ المحصَّلة مِن الشّيء، والجدوى العائدة على المنتفِع به[9]، ومعنى المنافع في الآية الكريمة: ما يقيمون به شؤونَ مصالِحِهم ومَعايِشِهم وصَنائعهم؛ إذ لا تكاد توجد صناعة إلّا وللحَديد فيها آلة يعتمَد عليها، أو أثر يُعْمَل به، ويقوم مقامَ الأساسِ فيها[10].

6) ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ، جذره اللّغويّ: (غيب)، والغيبُ في أصل معناه: ما كان خلافَ الحاضرِ المشهود، وهو المكان الذي يُسمَع منه الصّوت، ولا يُرى، أو يُجهل ما

---

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (حدّ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حدد).
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بأس).
(6) العزّ بن عبد السلام، تفسير القرآن: 3/ 289.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (نفع).
(8) الراغب، المفردات: (نفع).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 441.

فيهِ وما وراءه، وكلّ ما غاب عن العيون يُسمّى: غيبًا، سواء أكان ثابتًا في القلوب بالاعتقاد أم لم يكُن محصّلًا بَعْدُ[1]، ويُطلَق كذلك على معنى السَّتر، والخفاء[2]، والمعنى المحوريّ للجذر: الاختفاءُ اسْتِتارًا بكثيفٍ في أثناءٍ أو عمقٍ[3]، ومعنى الغيب في الآية الكريمة: أنّه إيمان من لم يَرَ اللّه تعالى، ولم يشاهد أحكامَ الآخرة وحقائِقَها، وإنّما يجتهد في الطّاعة، ويُثاب عليها؛ لأنّه آمنَ بالغيب، وامتثل الأمر دون معاينَةٍ، فصار إيمانُهُ أرسخَ وأعظمَ أجرًا[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامَةُ العَدْلِ ونصرةُ الحقِّ وتمييز المُخْلِصين في نُصْرَةِ الدّين

يذكر اللّه تعالى أنّه قد أرسلَ الرّسل محمَّلين بالبيّنات السّاطعة، مفصَّلات الحجج، وأنزلَ معَهُم الكتابَ المُشْتَمِل على الأحكام المُحْكَمَة، والميزان الذي به يستقيم أمرُ العدل بين العباد، وليَجْعَلوا العدل أساسَ معاملاتِهم، فَيَصِلُ كلُّ ذي حقّ إلى حقّه، وأنزل الحديد، وجعل فيهِ قوّة صارمةً، وبأسًا شديدًا، ينتفع به النّاسُ في مواطن الحرب، والذّبّ عن الحقّ، كما ينتفعون به في مصالح معاشهم، وما تقوم به صناعاتُهم، فهو أداةُ نُصرَةٍ، ومظهَرُ منفعَةٍ، ثُمّ بيّن المقصد الأعظمَ بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾، أي: ليتميّز المخلِص من المدّعي، ويعلَم مَن يَنْهَض بنُصرة دينِ اللّه تَعالى ورسله، وهو غائبٌ عن مرأى العيان، وختم الآية بأنّه سبحانه قويّ لا يُغالب، عزيز لا يُقهر، غالبٌ على أمره، منتقِمٌ ممَّن عاندَ رُسُلَه، وخالفَ أمره[5].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غيب).

(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 361.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).

(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 238.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 424 - 426.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عمّا سبقه؛ لكونِه استئنافًا ابتدائيًّا متفرِّعًا عمّا تقدَّم من التّحريض على الإنفاق في سبيل اللّه تَعالى، ومِن الإشارة إلى الفتح، فجاء هذا الاستئنافُ إعذارًا للمتولّين من المنافقين؛ ليَغْتَنموا فرصة التّدارك بإصلاح حالهم، وذلك باتّباع الرّسول ﷺ، والتّبصّر في هدي القرآن، كما أنّ فيه إنذارًا صارخًا لهم؛ إنْ هُم لم يَرْعَووا؛ إذ يواجهون الحجّة السّاطعة التي تلزمهم بالحقّ إلزامًا، فإن أعرضوا، وتعنّتوا، فإنّ تقويم اعوجاجِهم لا يكون حينئذٍ إلّا بالسّيوف القاطعة، وهو ما صرّح لهم به دون موارَبَة[1].

باب التوبة مفتوح، والكيّس الفطن من يغتنم الفرص

بلاغة التوكيد بـ (اللّام) و(قد):

اللّام الدّاخلة على (قد) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ لامُ قسَم مقدَّر، والتَّقدير: واللّه لقد أرسلنا رُسُلَنا[2]، فجاء هذا الأسلوب؛ ليجمعَ بين القسم المكنون و(قد) المحقِّقة، التي تجعل وقوعَ الفعل الماضي محسوسًا ومحقَّقًا في زمن القائلِ، فيتضاعف التّوكيد[3]، ويتعاظم أثرُ الجُملَةِ في تقرير الخبَر، وتثبيته في القلوبِ، ويُزال العُذْرُ؛ إذ أقام اللّهُ تَعالى الحُجَجَ عليهم بإرسال الرّسل بالمعجزاتِ الحاضرة، والكتب الباقية[4]، فجاءت اللّامُ المشيرةُ إلى القسَم المقدَّر و(قد) التي للتّحقيق، فيَعْظُمُ بذلك قوّةُ البيان، ويزدادُ وضوحُ حقيقة الإرسال، وتمام الحجّة على المخاطَبين.

في قوّة التّقرير في الإرسال إتمامٌ للحجّة وقطعٌ العذر

وتأكيدُ الخبرِ بلامِ القسَمِ وحرفِ التّحقيق يعود إلى ما اشتمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 227.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.

إعظامُ الخبَرِ تأكيدٌ لمقصد القِسْطِ ووعيدٌ للمُعْرِضين

عليه الخبر من بيان ما تضمّنه إرسالُ رسُلِ اللهِ تَعالى وإنزالُ كتبه من إقامة القسط والعدل بين النّاس، ومن التّحذير والتّعريض بحَمْل المُعْرِضين على السّيف؛ إن استمرّوا على غَلْوائِهم وتماديهم في الباطل[1].

سِرُّ التَّعبير بالإرسالِ دون البَعْثِ في قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

اصطفاء الرّسل تشريف لهم ورحمة ورعاية للبشر

اختير فعلُ الإرسال في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ لِما في مادَّتِه من الإيحاء بالاصطفاءِ والرّعاية، ولِما يُشعر به من التّوجيه المقصود برسالةٍ ممتدّةِ الأثر؛ إذِ الإرسالُ في اللّغة دالٌّ على إرسال في مهمّة بيّنةٍ فيها بيانٌ وتبليغ، والتَّبليغُ إذا اقترنَ بالبيِّناتِ والحُجَجِ والبراهينَ؛ كان أوسعَ أثَرًا، ولذا كان اختيارُ الإرسالِ ههنا أنسبَ.

دلالة إسنادِ فعل الإرسالِ إلى ضميرِ العَظَمةِ:

تعظيمٌ للإرسالِ وللمُرْسِل سُبْحانَهُ

في إسنادِ فِعل الإرسالِ إلى ضمير العظَمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ إشارةٌ إلى عظمة الباري سُبْحانه، وقدرته المطلقة[2]، وفيه تعظيمٌ لشأنِ الإرسالِ.

دلالَةُ التّعبير بالرُّسُل دونَ الأنبياء:

الملائكة رسلٌ موكَّلون بالوحي لا بالنّبوّة

التّعبير بالرّسل دون الأنبياء في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾ توسيعٌ لدلالة اللَّفظ؛ على القول: إنَّ المراد بهم الملائكة[3] المرسلونَ إلى الأنبياء - وإنْ لم يكن هو الوجه الأظهر وفاق ما سيأتي بيانه - فالملائكة يصْدُقُ عليهم لفظ الرّسل، ولا يُطلقُ عليهم لفظُ الأنبياء، وقد رويَ أنّ جبريلَ ﷺ نزل بالميزانِ، فدفعه إلى نوحٍ ﷺ قائلًا: مُرْ قومَك يَزِنوا به[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

دلالة جمع الرُّسُلِ:

استُعْمِل لفظُ الرُّسل جمعًا في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ دون المفرد (رَسولَنا)؛ تأليفًا بين تأويلينِ مُحْتَملين، فإمّا أن يكون المرادُ بالرُّسُلِ الملائكةَ المُرسَلين إلى الأنبياء، أو المراد الأنبياء المُرْسَلين إلى أممِهم، وهو الأظهر[1]، فجاء الجَمْعُ ليشمَلَ هذا التّعدد، ويعظّم مقامَ الرّسالة، والمُرسلين.

بلاغٌ من الرّحمن يشمَلُ الملائكةَ والإنسانَ

وهذا الجمعُ جاء أيضًا لإفادة أنّ ما جاء به محمّد ﷺ ليس بدعًا من الرّسل، وأنَّ مكابرةَ المنافقين وعماءَ قلوبِهم عن إدراك سنّة اللّه تَعالى في خلقه لا يغيّر من حقيقة الإرسالِ شيئًا، فجاء لفظُ الرُّسُلِ جمعًا مُصدّرةً جُملَتُهُ بالتّأكيد؛ تنزيلًا للسّامعين منزلة من يُنْكِرُ أنّ اللّه تَعالى أرسل رسلًا قَبْلَ محمَّد ﷺ[2].

رسالة موصولةٌ بسُنَنِ الأوّلين وإن جحَدها المكابرون مِنَ المتأخّرين

و(الرُّسُل) بهذه الصّيغة الجَمْعيَّة واردٌ لإظهار أنّ جميع الرّسل جاؤوا بالحقّ، وأنَّ شرعَهُم قائم على الصِّدْقِ والإبلاغ[3].

جميع الرّسل على نهج الحقّ ساروا، وبالصِّدْقِ والإبلاغ في الخَلْقِ أناروا

فضلًا عمّا تقدّم فإنَّ لفظَ (الرّسُل) مجموعًا مستعمَلٌ في سياق التَّعظيم؛ ليبيّن علوَّ قدر الرّسالة وشمولها، ولإظهارِ أنّ كلَّ رَسولٍ مِنَ الرُّسُل قد جاء حاملًا الحَقَّ المبينَ[4].

التّعظيم بشمول لفظ الرُّسُل وعلوِّ قَدْرِ الرّسالة

سِرُّ التّعبير بالرُّسُل دونَ المَلَائكَةِ:

لَمّا كان الأظهر أنَّ المقصودَ بالرّسل في هذا الموضع جنسُ البَشَر من بني آدم[5]، مع احتمال دخول الملائكَةِ في اللَّفْظِ؛ جاء التَّعبير بلفظ الرّسل دون الملائكة؛ إذ لا يُناسب مقام التّبليغ إلى النّاس إلّا مِن جنسهم؛ ليكون أقرب إلى الفهم، وأدعى للقبول، ودخولُ الملائكة في لفظِ الرّسل يُرادُ به إرسالُهُم إلى الأنبياءِ لا إلى البشَرِ.

الرّسُلُ مِن جنس البشرِ، فهُم أقرب للإفهامِ وأدعى للقبولِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5096.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 470.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

دلالَةُ إضافة الرّسل إلى ضمير العظَمَةِ في قوله: ﴿رُسُلَنَا﴾:

بيانُ عظمَةِ المنزِلَةِ ورفْعَةِ القَدْرِ

أُضيفَ لفظُ الرُّسُل إلى ضمير العَظَمةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾؛ للإيذانِ بعظيم منزلتهم، ورفيع قدرهم؛ إذْ هُم صفوةُ الخَلْقِ الذين نالوا غايةَ الإجلال؛ لِما شَرَّفَهُم مِنَ الاتّصال به سُبحانه، من الملائكة المكرّمين والأنبياء المصطفين، عليهم أجمعين أزكى الصّلاةِ وأتمّ التّسليم[1].

تكريمٌ في الإرسالِ وعلوٌّ في المنزلةِ والمآلِ

وفي الإضافة هنا أيضًا تشريفٌ وإظهارٌ لعلوّ مكانتهم وقدرهم عند اللّه تَعالى[2]، وأنّ الإرسالَ الإلهيَّ لا يقتصر على مجرّد الرّسالة، بل يتضمّن تكريمَ هؤلاء المرسلين ورفعَ منزِلَتِهم.

بلاغَةُ الجِناس في قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾:

تقاربٌ لفظيٌّ بين الإرسال والرّسل يُضفي جمالًا صوتيًا

تضمّنت الآية الكريمةُ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ جناسَ الاشتقاقِ؛ إذ تقاربت كلمتا الإرسالِ والرّسل في اللّفظ، واختلفتا في بعض الحروفِ والتّركيب[3] ممّا أضفى على النّص جمالًا صوتيًّا رقيقًا، وقوّة في العبارة تناسب التوكيد في المطلع.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

اقترانُ الإرسالِ بالدّليل السّاطعِ، يُثْبِتُ صِدْقَ الرّسالة ويَهدي إلى التّوحيد القاطِع

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ دالَّةٌ على مَعْنى الإلصاقِ والمُلازمة؛ إذ تُفيد أنّ الرّسل أُرسلوا، وهم مُقْتَرِنون بالدّليل والبرهان والمعجزة، فلا تنفكُّ دعوَتُهم عن الحجّة السّاطعة التي تشهد بأنّ اللّه تعالى هو الإله الحقّ، وتشهد بصِدْقِ نبوّةِ الرُّسُلِ، وصحّة دعوتهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له[4].

ففي تعديةِ فِعْلِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بالباءِ دلالةٌ على أنّ الرّسل جاؤوا مُتَلَبِّسين بالبيِّناتِ حاملين لها، لا مجرّدين عنها، فكانت البيِّناتُ ملازمةً لَهُم في دَعْوَتِهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 517.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.

دلالة التّعبير بلفظِ (البَيّناتِ) دون الآيات أو المعجزاتِ:

إقامةُ الصّلاة وإيتاءُ الزّكاة بيّنات خالصة للهِ تَعالى

لَمّا كان المرادُ مِنَ البيّنات في هذا السّياق مظاهرَ الإخلاصِ للّه تعالى في العبادة، مِن إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة[1]، لا محض الآيات الخارقة والمعجزات؛ اسْتُعْمِلَ هذا اللّفظ دونَ غيره.

شمول البيّنات للحُجج والمُعْجِزاتِ

ويجوز أن يكونَ استعمالُ هذا اللَّفظ هنا راجِعًا إلى اختلاف تفسير لفظ الرّسل، فالملائكة تُرْسَلُ بالمعجزات، كإرسال جبريلَ ﷺ بالقرآنِ إلى نبيّنا ﷺ، أو إرسالُهُ وغيرِهِ للأنبياء بِمُعْجِزاتٍ مخصوصةٍ، فإن فُسِّر الرّسل بالملائكة؛ كانت البيِّنات بِمَعْنى الحُجَج، وإن فُسِّر بالأنبياء؛ كانت البيّناتُ شاملَةً للمُعْجِزاتِ والحُجَجِ جميعًا[2].

الحُجَجُ السّاطعةُ ومن ضمنها المعجزات من دلائل الدعوة

ويجوز أن تكونَ (البيّنات) في الآية هي الحجج السّاطعة الدّالّة على أنّ ما يدعون إليه هو مرادُ اللّهِ تعالى، وتدخل المعجزات في عمومها دخولًا أوّليًّا[3].

دلالَةُ جَمْعِ البَيِّناتِ دونَ إفْرادِها:

المعجزات كثيرةٌ ظاهرةٌ، والأدلَّة وفيرةٌ قاهِرَةٌ

استُعْمِل لفظُ (البيِّناتِ) في قول اللّه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالجَمْعِ دونَ الإفراد؛ للإيماءِ إلى كثرتِها وعظَمَتها، فهي معجزات ظاهرة، وأدلَّةٌ قاهرة، ويجوز أن تكون (البيِّناتُ) الأعمالَ التي تدعو إلى طاعة اللّه سبحانه، والإعراض عمّا سواه[4]، فهي على كلا الاحتمالين كثيرَةٌ متكاثرَةٌ.

دلالةُ عطف ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

تمام النّعمة بإرسالِ الرُّسُل وإنزالِ الكتُبِ

عُطِفَ فعل الإنزال على فعل الإرسالِ[5]، في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 260.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 469.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.

﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ﴾؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالينِ؛ إذ الجملتانِ اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ؛ فإن الجملتَيْن فعليَّتانِ ماضويَّتانِ، وأُسنِدا إلى ضمير العظمة (نا) الرّاجع إلى الله تعالى، وأمّا في المعنى؛ فلما فيه مِنْ بيان تمامِ النّعمة بإرسال الرّسل وإنزال الكتُب معَهُم بوصفها دلائل الهداية، وسبل الرشاد.

دلالة التَّعبير بـ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ دون (نزّلنا):

نــزول الكتب السـماويّة دفعي، ونـزول القرآن تدريجيّ

في التَّعبيرِ بفعل الإنزالِ إيماءٌ إلى عظمة الأنبياءِ عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّهم لعلوّ مقاماتهم بالإرسال، كأنّهم أتوا إلى العبادِ من موضعٍ عالٍ جدًّا[1]، وفيه إظهارُ التّقدير والرّفعة في الإرسال، وبيانُ أنّ الكتبَ المنزَّلة جاءت مرفوعة القدرِ والهَيبةِ.

واختيرَ فعل الإنزالِ دون التَّنزيلِ، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ دون (نزّلنا)؛ لأنَّ الإنزالَ يكون دفعيًّا، والتنزيل تدريجيٌّ، وكلُّ كتابٍ مِنَ الكتُبِ الإلهيَّةِ قد نزلَ دفعةً واحدةً، إلّا القرآنَ الكريم فإنَّه نزل نزولًا تدريجيًّا، فكان التَّعبيرُ بالإنزالِ هنا مراعاةً للغالبِ الكثيرِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبير بالإنزالِ شاملًا عامًّا، فإنَّ القرآن الكريم له تنزيلٌ دفعيٌّ أيضًا، وهو نزولُهُ إلى بيت العزَّة في السَّماءِ الدُّنيا.

بلاغةُ المجاز في فِعْلِ الإنزال:

وحيٌ بالكتاب من فوقِ سَبْعٍ شدادٍ، وأمرٌ بالميزان ليُقامَ العدلُ في البلادِ

قول اللهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من باب المجاز؛ لأنَّ إنزالَ الكتاب يُرادُ به تبليغُه بواسِطة الملَك من السّماء، كما أنّ إنزالَ الميزانِ يُرادُ به تبليغُ الأمر بالعدل بين النّاس[2]، وفيه تصويرٌ للتَّبليغ والإنزالِ المعنويِّ في صورةِ الإنزال الحِسّيِّ؛ إشعارًا بجلالِ الكتُبِ الإلهيَّةِ وعلوِّ قَدْرِها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

دلالَةُ إسنادِ فعل الإنزالِ إلى ضمير العظَمَةِ:

أُسنِدَ فعل الإنزال إلى ضمير العَظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾؛ إشارة إلى عظمة الفعل وجلال المُنزِل، فلا شيءَ أعلى مِن عظمة الخالقِ سُبحانه[1]، فأغنَى ضميرُ العظمةِ عَن التّصريحِ؛ لِما تدلُّ عليه مِنَ الكبرياءِ المُطْلَقِ، والسّموِّ الذي لا يُدانيه علوٌّ.

الإشــــارة إلى عظمة الفعلِ، والاستدلال على الكبرياءِ المُطْلَقِ

دلالَةُ استِعمالِ فِعْلَي الإرسالِ والإنزالِ ماضِيَيْنِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾؛ لأنّ الإرسالَ والإنزال حقيقة واقعةٌ ثابتةٌ، وفي ذلك تعريضٌ وذمّ للمخاطَبين، وإيقاعُ الملامة عليهم، فكان في صيغةِ المُضيِّ تثبيتٌ لِلوقوعِ في الأذهانِ، وإظهارُ أنّ ما جاءت به الرّسل قد تحقَّق فلا مجال للشّكِّ أو الإنكار.

تثبيتُ الحقّ في الأذهان، وإيقاعُ الملامةِ على أهل الشّكّ والطّغيانِ

دلالَةُ التّعبيرِ بالظّرفيّة ﴿مَعَهُمُ﴾ دون (إليهم) أو (لهم):

في التّعبير بالظّرفِ ﴿مَعَهُمُ﴾ دون التّعبير بـ (إليهم) أو (لهم) تقريرٌ لِلحال، أي: وأنزلنا الكتابَ صائرًا معهم، مُقدّرًا صحبته لهُم؛ لأنّ الرُّسل مرسَلونَ هُم، والكتابُ مُنَزَلٌ معَهُم[2].

إنـــزال الكتب مصاحب لإرسال الرسل

ويجوز أن يكون هذا التّعبيرُ واردًا على معنى المقارنةِ بتنزيلِ الاتّصال منزلةَ المقارنة بين الرّسل والكتاب[3]، فجاءت الظّرفيّة لتبيّن ملازمةَ الكتابِ للرّسل أثناء الإرسالِ وارتباطهما في تبليغ الدّعوة.

الكتابُ والرّسولُ في ميدان التّبليغ متـلازمانِ لا يَفْتَرقانِ

دلالَةُ تَقْديم ﴿مَعَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

قُدِّم الظَّرفُ ﴿مَعَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لإفادةِ الحصْرِ والقصْرِ؛ فإنَّ الكُتُبَ الإلهيَّةَ محصورةٌ في الرّسل ﷺ، فجاء التّقديم لتأكيد ملازمتهِ لَهُم،

انحصارُ الكتب الإلـهـيَّـةِ في الرُّسلِ ﷺ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299 - 300.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 188.

وارتباطه بهم، فتُبرِزُ هذه الصّياغةُ خصوصيَّةَ الرّسالة، وتُشَدِّد على تميُّزِ الرّسل، وحصر الكتاب فيهم لقصْدِ تبليغِ كلامِ اللّهِ تَعالى لأقوامِهِم.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بـ (أل) هُنا تعريفُ جِنْسٍ، أي: إنَّ المراد: وأنزلنا معهم كتبًا من جنس ما يُسمّى كتابًا، كالتّوراة والإنجيل والقرآن[1]، لا كتابًا بعينه، فكان التّعبير دالًّا على وحدة النّوعِ والمصدرِ.

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بصيغة الإفراد:

الكتُبُ الإلهيَّةُ مـتَّـحـدَةٌ في الـدَّعـوة إلى تـوحـيدِ الـلـهِ تَعالى

لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وإن كان مفردًا في اللَّفْظِ إلّا أنَّه في معنى الجَمْعِ؛ لأنّه اسمُ جنسٍ، فيَعُمُّ جميعَ الكتبِ المنزلةِ[2]، ويجوز أن يكون ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بمعنى الوحي[3]، وأورِدَ مفردًا؛ لبيانِ أنّ المقصودَ هو الجوهر الواحدُ للرّسالة المنزلة، فلا اختلافَ في أصلِ الدّين، وهو توحيدُ اللّهِ تَعالى، وكذا لا خلاف في غايتِهِ والحقّ الذي تحمله هذه الرّسالاتُ، وإن اختلفت في تفاصيلِ الشَّرائعِ، فكان الإفرادُ إشارةً إلى اتّحاد الغاية مِن هذه الكتبِ، وترابُطِ الدّعوة إلى الحقّ والخيرِ[4].

دلالة التعبير عن الشّرائع بكلمة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

شـرائـع الـلـه تـعـالى كاملة شاملة

التّعبير عن الشّرائع بكلمة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تُضفي على هذه الشّرائع صفاتِ الكمال والشّمول والدّقة والثّبات، فـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يرمز إلى دستور مكتمل، ومنظومة متكاملة، لا مجرّد إرشادات متفرّقة، كما أنّ الكتابة تضمَنُ الوُضوح والدّقة في الأحكام، وتُسهم في حفظِها من التّحريف عبر الزّمنِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 786.

بلاغةُ عطفِ (الميزان) على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتاب لحفظ الدّينِ، والميزان لحفظ الحقوقِ

عُطِف (الميزان) على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ استدلالًا على تكامُلِ الدّين والعدلِ، فالكتاب لحِفْظِ حدودِ الدّين بما يَحْتَويه من الأحكام وشرائع، والميزان لحفظ الحقوقِ والمعاملات بما يكشفه معنى العَدْل فيه؛ تحقيقًا للهدايَةِ الشّاملَة، فلا زيادَةَ في الحقِّ ولا نُقْصانَ[1]، وتأكيدًا على وجوب إقامة العدلِ بين النّاس، ويجوز أن يكونَ المرادُ بالميزانِ الآلةَ التي يوزن بها، وهو يرجِعُ أيضًا إلى مَعْنى العدل[2]، لكِنّ ذُكِرَ هنا؛ للإشعارِ بأهمّيَّته وبيانِ أنّ إتمامَ الرّسالة وإنزال الكتاب لا يكتَمِلُ إلّا بتحقيق العدلِ.

الكتابُ نورٌ والميزانُ عدلٌ، فمَن حكَم بِهما؛ فقد بلغ المقصودَ

وجاء التَّعبير بلفظ (الميزان) بعد ذِكْرِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع أنَّ معانيَ الميزانِ متضمِّنة فيه؛ تنبيهًا على أنَّ فهْمَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يحتاج إلى عقلٍ صافٍ، وفكر عميقٍ، وصبر طويلٍ، فلولا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لضلَّ العقلُ، ولولا العقل؛ لما انتفع بالكتاب، فعقّب بالميزان وهو ما يشترك في إدراكه الكبيرُ والصّغير والجاهل والعالم؛ ليكون أقربَ وسيلة لفهم مقاصدِ الكتاب، وفي التعقيب به إشارةٌ إلى أنّ مَن حَكَمَ بالكتاب مجرّدًا عن هوى النّفس؛ فقد بلغ المقصود دونَ زيغٍ أو مَيْلٍ[3].

سرّ تخصيص الميزان بالذكر:

ضابطُ الحقوق مستحقٌّ لعلوِّ المقامِ ورفعة الشَّأن

خُصّ الميزانُ بالذِّكر؛ لكثرة استعماله، ولا سيّما في النَّقدين؛ إذْ هو أداة المعاملات وضابطُ الحقوق، وذكر الحقوق على الإطلاق مع أنّ المقصودَ الحقوقُ الموزونةُ منها؛ لوضوحِ المُرادِ[4]، ولكون (الميزان) وسيلةُ انتظامِ أمورِ البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: 105]،

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 535.

(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 252.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 471.

كان في التَّنصيصِ عليه تنبيهٌ على عَظيم شأنهِ ورفيعِ مكانَتِه، فليس المرادُ من (الميزان) إلهامَ الرُّسُلِ وضعَ آلاتِ الوزنِ، فذلك ممّا لا يستحقّ التَّنبيهَ عليه[1].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾:

الحكم بالقرآن يُظهر الحقَّ، ويبطلُ البُهْتان، ويقيم العدل بين الناس

التَّعبير بالميزان جارٍ على سبيل الاستعارة؛ إذْ أُريدَ به الحُكمُ بالوحي؛ لما فيه من إظهار الحقّ وإبطال الباطل، واعتبارِ العدل والتّسوية بين النّاس[2]، فكأنّ الميزان صار مِثالًا ناطقًا للإنصاف، ومقياسًا جامعًا للفَصْلِ بين الخصوم، يُقوِّم ما اعوجّ، ويُظهر ما خَفيَ.

القِسطُ لا يُتْرَكُ للأهواء بل تحدِّده الشّرائعُ

واسْتُعير الميزانُ للعَدْلِ بين النّاس في أداءِ حقوقهم؛ لأنَّ من لوازم الميزانِ وجودَ طرفَيْن يُراد معرفةُ تَكافُئِهما، واعتبارِ توازنهما، فشُبِّه به ما يُقام به القسط في المعاملات والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: 58]، وهذا الميزانُ لَم يترك النّاسَ لأهوائِهم، بل جاءت كتبُ الرّسل مبيّنة معالِمَه[3]، مرشدةً إلى حدوده.

بلاغةُ إفراد ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾:

إنزالُ الميزان حقيقةً أداةٌ قائمةٌ بذاتِها لتحقيق العدْلِ

المرادُ بلفظ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ في الآية: إنزالُ عينِه، فقد روي أنّ جبريل عليه السلام نزل به، فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال له: مُرْ قومَك يَزِنوا بِه[4]؛ ليقوم أمرُهُم على العدلِ والقِسْطِ، فهو على هذا ميزانٌ واحد.

بالميزان تُقامُ المساواةُ ويُدْرَكُ الحقُّ

ويجوز في (أل) من قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أن تكونَ لإرادةِ الجِنْسِ، فيراد به معنى الميزانِ عَلى إطْلاقِهِ، أي: كلّ ما يتحقَّق به العدْلُ، وتقوم به المساواةُ بينَ النّاسِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 544.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الرازي، أنموذج جليل، ص: 509، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

سِرُّ عدَمِ تكرار فِعْلِ الإنزالِ مَعَ الميزانِ:

تبايُنُ جهة الاعتبارِ بينَ التّشريع بالوحي والتّقدير بالوضْعِ

لَم يُذْكَر فِعْلُ الإنزالِ مع الميزانِ، كما ذُكر مع ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّ الإنزال في حقّ الكتاب إنزالٌ مِنَ السّماء وحيًا وتشريعًا، أمّا في حقّ الميزانِ؛ فهو وضْعٌ وشَرْعٌ للتَّقدير به، كما قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ [الرّحمن: 7][1]، فجاء عطفهُ عَلَى ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون تكرار فعل الإنزال؛ إشارةً إلى اختلاف جهة الاعتبارِ بينَهُما، فالكتاب تشريعٌ بالوحي، والميزان تشريعٌ بالوَضْع.

الميزانُ صُنْعُ البشَرِ مَع إمداد الإلهِ بأسبابِهِ ومقوِّماتِهِ لتحقيق العدْلِ

ويجوز أن يكونَ ترك فعل الإنزال مع الميزانِ؛ لكونِهِ من صُنع البشر لا ممّا نزل من السّماء إنزالًا مباشرًا، فإنزال الميزانِ معناهُ إنزالُ أسبابِهِ ومقوِّماته، كالمطر الذي ينبت الكتّان والقطْن والخشب، وهي موادّ تُصْنَع منها أدوات القياسِ، وقَد أُمِرَ النّاسُ بصنْعه، وأُلْهِموا كيفيّة استعماله، إمّا بإلقاءِ الفِكْرَةِ في روعِهم، أو بإلهام سَماويٍّ[2].

دلالة تقديم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾:

صلاحُ القُلوب مقدَّمٌ على عَدْلِ الميزانِ

قُدِّمَ الكتاب على الميزان؛ للدّلالةِ على أولويّة ما فيه مِن شرائع الدّين، وأمْرِ الآخرة؛ إذ إنّ الميزانَ يتعاطاهُ النّاسُ في الدّنيا لأمورِ معايِشِهِم في أخذهم وإعطائهم، بخلاف الكتابِ فإنَّهُ ينظّم علاقَتَهُم بربّهم، ويهديهم لِما فيه صلاحُ أُخراهم، والميزانُ فيه تَناصُفُهُم في دُنْياهُم[3]، فجاء التّرتيب؛ ليبيّن أنّ إصلاح النّفوس مقدَّمٌ على إصلاح المعاملاتِ.

أسبقيّة رعاية المصالحِ الرّوحانيَّة على المصالحِ البَدَنيَّة

والكتابُ آلَةٌ يُتوسَّل بها إلى إدراك ما ينبغي من الأفعال النّفسانيّة؛ إذ به يتميّز الحقّ من الباطل، وتفرز الحجّة عن الشُّبهة، فهو نور العقل، وهداية الرّوح، وأمّا (الميزانَ)؛ فهو ما يُتوسَّل به إلى

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 1/ 251.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 471.
(3) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7332.

ما ينبغي من الأفعال البدنيّة من ضبط المعاملات، وتحديد الحقوق، ولَمّا كانت رعاية المصالح الرّوحانيّة أشرف الأقسام، وأعلى في المرتبة من رعاية المصالح الجِسمانيّة؛ روعي هذا التّرتيب، فُقدِّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾[1].

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِيَقُومَ﴾:

إقامةُ العدل بين الأنام، وتحقيق التّناصُفِ في المعاملاتِ والأحكامِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ هي لامُ (كَيْ)[2]، فهي للتّعليل، أو هي الدالَّة على العلّة الغائيّة[3]، وقيامُ النّاسِ بالقسط يحتَمِلُ أن يكون تعليلًا لإنزال الميزانِ وحدَهُ، بوصفه أداةَ التّناصُف في المعاملات الظّاهرة، ويجوز أن يكون تعليلًا لإنزال الكتابِ والميزانِ معًا؛ لأنّ القِسْط هو العَدْلُ في جميع الأشياء، مِن سائِر التّكاليف الظّاهرة والباطنَة؛ إذ لا جَوْرَ في شيءٍ منها[4]، ويكون معنى: إنزال الكتاب والميزان كي يعمل النّاس فيما بينهم بالعدل[5]، فيُقيموا الحقوق، ويتَناصفوا في معاملاتِهم.

دلالَةُ التّعبير بالفعل ﴿لِيَقُومَ﴾:

دلالةُ القيامِ على قابليَّةِ التَّحرُّك نحوَ معالي الأمورِ

اختيرَ فعلُ القيامِ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ الألفاظِ، مثل: (ليحكم) أو (ليتعامل)؛ لارتباطِ فعل القيامِ بدلالَةٍ حركيَّةٍ شاملةٍ، لا تختصّ بمجالٍ واحدٍ، كالتّحكيم أو التّعامل الماليّ أو الاجتماعيّ، بل تشمَلُ القابليَّة العامّة للنّهوض إلى الفضائلِ والمَعالي[6].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿لِيَقُومَ﴾:

الاستمرارُ في القيامِ بالعَدْلِ

اختار النَّظْمُ القرآنيُّ الفعلَ المضارعَ ﴿لِيَقُومَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ بدل المصدر الصَّريحِ (لإقامَة) يهدِف

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 470.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 244.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 456.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.
(5) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7332.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.

إلى إبراز الحركة الفعليّة والاستمراريّة في التّطبيق؛ إذ يدلُّ الفعلُ المضارع على الانطلاق العمليّ للنّاس نحوَ العدلِ بكلّ طاقاتهم، بخلافِ المصدرِ فإنَّه يَكْتَفي بالإشارةِ إلى أصلِ العَمَلِ بقَطْعِ النَّظر عن دلالةِ الحرَكَةِ أو الاستمرارِ.

بلاغة المجازِ في قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾:

لا يتحقّقُ العدلُ بالدَّعَة والسُّكون، بل بالاجتهادِ والحَزْمِ

قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُحْمَلُ على المجاز؛ إذ ليس المقصود قيامًا جسديًّا، بل هو قيام معنويّ بالعدْلِ، أي: التزام عمليّ بما أُمروا به من أحكام الإنصافِ؛ ليُعاملَ بعضُهُم بعضًا بالنّصفة[1]، وتأديةِ الحقوق على وجهها الأمثلِ، فيكون قد شُبِّه القيامُ المعنويُّ - وهو التزامُ العَدْلِ والعمَلُ بهِ - بالقيامِ الحسّيِّ وهو انتصابُ الجسَدِ واستقامَتُهُ بجامِعِ أنَّ كليهما فيه مَعنى النُّهوضِ والجِدِّ والتَّوجُّه نحوَ الغايةِ، ففي الآيةِ إخراجٌ للمعنى في صورةٍ محسوسةٍ؛ ليكونَ أقربَ إلى الفَهْم وأعلقَ بالذِّهْنِ، وأيضًا فإنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ العَدْلَ لا يتأتّى بالرُّكونِ والكسَلِ والتَّشهّي، بل لا بُدَّ مِنَ الاجتهادِ والجدِّ والحَزْمِ والعزْمِ.

استقامَةُ الأحوالِ وبناءُ العَدْلِ الاجتماعيِّ على قواعد الإنصافِ

والقيامُ هنا ليس مجرّد انتصابٍ جسديٍّ، بل المرادُ به صلاحُ الأحوالِ واسْتِقامَتُها؛ إذ المقصودُ أن يُشيَّد بنيانُ العَدْلِ في المُجْتَمَع، ويُؤسَّس على قواعد الإنصاف والتّناصف؛ لأنّ استقامةَ الأمورِ هي السَّبيلُ إلى تَيْسيرِ العمَلِ[2].

دلالةُ إيثار ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

إقامة العدلِ واجِبٌ على جميع العبادِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ للدّلالة على عموم العبادِ، لا خصوص الحكّام؛ تنبيهًا على أنّ إقامة العدل مسؤوليَّة جماعيّة، يشترك فيها النّاسُ كلّهم

(1) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

بلا استثناء[1]، وعليه فـ (أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للاستغراقِ، فتفيدُ عمومَ النّاسِ جميعًا.

دلالَةُ التّعبيرِ بالباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

تصويرُ اقترانِ النّاسِ بالعَدْلِ حتّى يصيرَ طَبْعًا لَهُم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ باء التّعدية، وهي تُفيدُ إظهارَ التَّعلُّق الشَّديدِ بينَ القيامِ والمقصودِ مِنْهُ، وفيها معنى الإلصاقِ أيضًا، فتكون مُصوِّرةً لشدَّةِ اقترانِ النّاس بالعدل حتّى كأنَّهم ملتصِقونَ بِهِ لا ينفكّون عَنْهُ في أقوالِهم وأفعالِهِم، حتّى يكونَ سِمَةً لَهم وطبْعًا، يمشون به في حياتهم، ويحكمونه فيما بينهم، فيقوم الحقّ، وتستقيم الأمور[2].

بلاغَةُ إيثار (القِسطِ):

العــدل المحسوس حين يُعطي المرء قسط غيره كما يأخذ قسط نفسه

(القسط) هو العدلُ الشّامل في جميع شُؤون الحياةِ، يُجْرى به الحقّ دون ميلٍ أو حَيْفٍ، ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، ويُتاح لصاحب الحقّ منازعة من احتواه[3]، وبالقسط يُقام التّوازن، وتُصان الحقوق، ويُرفع الجَوْرُ؛ ليكون أساسًا لحياة مستقيمةٍ، ومجتمعٍ عادلٍ، واختيرَ لفظُ (القِسطِ) دون (العدل)؛ لإبراز الإنصافِ العمليّ بين النّاس، أي: أن يُعطيَ كلّ أحدٍ قِسْطَ غيرِه، كما يأخذُ قِسْطَ نفسِه[4]، ممّا يجعل العدلَ نشاطًا ملموسًا، وتطبيقًا عمليًّا في الحياة.

سرّ التّعبير بـ (القِسطِ) بعد (الميزان):

تكامل المعيار العامّ للحقوق، والتجسيدُ العمليّ للعدْلِ في تعاملِ النّاس

القسطُ أعمُّ وأشمَلُ من (الميزان) المذكورِ، فـ (الميزان) غالبًا ما يختصّ بالعدل بين طرفَيْن متنازِعَين[5]، بخلافِ القِسْطِ؛ فإنَّهُ يشمل الإنصاف والعدلَ في كلّ المعاملاتِ، فجاء ذكرهُ بالعامّ بعد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 471.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

الخاصّ؛ ليشمل تطبيقَ العدْلِ في الأحوالِ جَميعِها، فالقسْطُ يمثل الإنصافَ الواقعيّ في التّعامل بين النّاس، سواءٌ أأذْعَنوا للبيّنات لذاتها أم للرّغبة في الالتزامِ بها[1]، في حين يرمز الميزانُ إلى المعيار العامّ للحقوق والواجباتِ.

سرُّ التّعبير بـ(القِسطِ):

القسطُ دالٌّ على كمالِ العَدْلِ، والقسطاسُ: الميزانُ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (القسْطِ) هنا دون (القسطاس) وهو - أي: القسط - مأخوذٌ في العربيَّة من لفظِ (القسطاس) عند الرّوم[2]؛ لما يدلُّ عليه لفظُ القسْطِ من كمال العَدْلِ وشمولِه، بخلافِ لفظ (القسطاسِ)؛ فإنَّه بمعنى الميزانِ، وقد تقدَّم مرادِفُهُ في لفظِ (الميزان).

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

الرَّبْطُ بينَ مراتبِ الإنعامِ بالكتابِ والميزانِ والحديدِ؛ لإفادة التَّكاملِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على الجملةِ قبلها[3]، فكأنَّ الآية تقول: أنزلنا ما يهتدي به الخواصّ، وما يهتدي به أتباعهُم، وما يهتدي به مَن لَم يتبعهم، فالواو عاطفة، وليست معترضةً لقصْدِ تقوية الكلامِ كما توهَّم بعضُهم؛ إذ ليس في السّياق ما يقتضي الاستئنافَ أو الاعتراضَ، بل في المعنى ما يُنافيه[4].

سرُّ التّعبير بإنزال الحديد:

عظمَةُ المصدَرِ ورفعَةُ المنْزَل

اختير لفظُ الإنزالِ دونَ الإخراج أو الخلق؛ لأنَّ الإنزال يوحي بعظمةِ المُنْزِل، وأهمّيَّة ما نزلَ منْهُ، فهو يحمِل دلالة تعظيم وتفخيم وتقديسٍ تُفيد أنَّه أمر عظيم مُنزَّل من مصدر سام، بخلافِ الإخراج والخلق فقد يَقْتَصِران على الجانب الفعليّ أو الحسّيّ دون حملِ هذا البُعْدِ الرّمزيّ والقُدْسيّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2403.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 161.

إيداعُ اللهِ تَعالى القوَّةَ والمَنْفَعَةَ في الحديدِ

ويجوز أن يكون الإنزالُ واقعًا حقيقةً مِن سَماء القدرةِ الإلهيَّة[1]؛ إذ جَعَلَ اللّهُ تَعالى في الحديدِ قوّةً ومنفَعَةً؛ ليكونَ أداةً للبِناءِ والدّفاع، وشاهدًا على حكمة الخالق وقدرته.

نُزُلٌ مُهَيَّأ من لدُن الرّحيم

ويجوز أن يراد بالإنزال معنى التّهيئة والإعداد، فهو من النُّزل الذي يُهيَّأ للضّيف، فكأنَّ الحديد نُزل إلهيٌّ كريم، أُعدَّ للإنسان، وهُيِّئَ له[2]؛ ليكون أداة للعمران، وسلاحًا للحراسة، وجعله اللّه تَعالى منّة عظيمة وأنعَمَ بِهِ عليه.

سرّ تكرارِ فعل الإنزال مع ﴿ٱلۡحَدِيدَ﴾:

تأكيدُ منفعة الحديدِ العمليّة وصلته بتمشيةِ الكتابِ والميزان

أُعيدَ فِعْلُ الإنزال في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾، دون الاقتصارِ على ذِكْرِه مرّة واحدة مع ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لبيانِ مغايرة إنزال الحديد لإنزال الكتاب، فالميزانُ يُعد تتمَّة لإنزال الكتاب، بخلاف الحديد؛ فإنَّه مستقلٌّ عنه، فيظهر بذلك حُسْنُ العَطْفِ بين ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ و﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[3].

كما أنَّ تكرارَ فعل الإنزالِ جاءَ تأكيدًا لخصوصيَّة الحديدِ، وإبراز منفعتهِ للنّاس، بما يوضّح أنَّ تمشية أمْرِ الكتاب والميزانِ مرتَبِطَةٌ بالحِكْمَة العَمَليّة والفائدة الواقعيّة[4].

بلاغَةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾:

الإشارةُ إلى علوِّ مصدرِه وخصوصيَّةِ أمرِه

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ إشارةٌ إلى علوِّ مصدره، وخصوصيّة أمره؛ إذ تَنْزِلُ الأوامر الكونيَّة من السّماء، وهي محلّ الحوادث العظام والبدائع، كما يَنْزِلُ الماء الذي هو أصلُ الحياة، فتكون الأرض للحديدِ كالرّحِمِ للنُّطفة[5]، تستقبلُهُ

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 378.
(2) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 253.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 472.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 255.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

وتُنشئه بأمرٍ سماويٍّ، فالحديدُ يأتي من الأرض، لكنَّ إرادةَ كونِه تأتي من السّماء[1].

ويجوز أن يكون الإنزالُ مستعارًا لخَلْقِ مَعْدنه، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: 6]، أي: خَلَقَها لأجلكم، فالتَّعبير بالإنزالِ يُرادُ به الإيجادُ والتَّقديرُ، لا التَّنزيل الحسّيُّ، وفي التَّعبيرِ عن خَلْقِ الحديدِ بالإنزال تشريف للخَلْقِ، وتعظيم للنِّعمَة[2]، وقد يكون المقصودُ بالحديدِ خصوصَ السّلاح المتّخذ منه، كالسّيوف والأسنّة والنِّبال، فيكون الإنزالُ استعارةً لإلهام البشر صِناعتَه[3]؛ لِما فيه مِن قوّةٍ وبأسٍ ومنافِعَ.

خَلْقُ الحديدِ وإلهامُ البشَرِ صناعتَهُ؛ لِما فيه مِن بأسٍ ومنافِعَ في تدبيرِه

دلالة المضيّ في فعل الإنزال، وإسنادِه إلى ضمير العظمَةِ:

في التّعبير بإنزال الحديدِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ دلالةٌ على قِدَمِ إنزاله، فإنّ أصلَهُ مِن ماء السّماء بانعقاد جوهرِهِ في الأرض حتّى يُسْبَكَ، ويصيرَ حديدًا[4]، فهو مُنَزَّلٌ منذ زمَنٍ بعيدٍ.

إشعارٌ بسَبْقِ التّقديرِ وقِدَمِ الإنزالِ

وأُسنِدَ فعل الإنزالِ إلى ضمير العظمَةِ المرادِ به اللّهُ تَعالى؛ لِما في ذلك من تعظيم للذّات الإلهيّة؛ إذ يوحي هذا الأسلوبُ بجلال المنزل وعظمَةِ ما أُنْزِل، ولَمّا كان الإعراض عن البيّنات بعدَ الإيضاح موجبًا لدفع الفسادِ بأنواع الجهادِ؛ جاء هذا التّعبير مهدِّدًا المكذّبين، ومُمَتِّنًا للمؤمنين، جامعًا بين التّرغيب والتّرهيب على وجهِ التَّعظيم فيهما.

تعظيمٌ للمُنْزِل والمُنزَل، وجمعٌ بين ترغيب المؤمنين وتهديد المكذّبينَ

سِرُّ التّعبير بالحديدِ دونَ غيرِه من المعادن:

خصّ الباري سُبحانه تعالى الحديدَ بالذِّكر دونَ غيرِهِ مِنَ المَعادِنِ؛ لِما فيه من قوّة البأس، ولذلك تُتَّخذ منه آلات الحرب

في الحديدِ الضّربُ والدّفاعُ، فكان للقتال سلاحًا وللتّحصُّنِ دِرْعًا

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10812.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416 - 417.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 483.

والقتالِ[1]، وإن شاركه غيرُه في الإيذاء والضّرب، لكنّه أكملُ في النّفاذ والجرح، فاعتاده النّاس في القتال، فكان البأسُ فيه أشدَّ، كما أنَّه يُتّخذ منه الدّرعُ للتّحصُّن، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم﴾ [الأنبياء: 80]، فخصَّه بالذِّكر لَمّا اجتمعَ فيه الضّربُ والدّفاعُ[2]، وفي كون المراد بالحديد في الآية السِّلاح، حثٌّ على القتال، وترغيبٌ فيه[3].

معدن فريدٌ، اجتمَعَ فيه الشِّدَّة والانقيادُ

وخصَّه بالذِّكر دون سائر المعادن أيضًا؛ لكونِه أظهرَها في القوَّةِ والصّلابةِ واللّينِ والحدّة، فهو يُؤثِّرُ، ويقبَلُ التّأثير، ويُستَعْمَل في الضّرب والقَطْعِ، ويُعدُّ به كالبائن لما في الأرض[4]، فكان ذِكْرُه دالًّا على جِنْسِه؛ لِما اجتمع فيه مِن خصائصَ فريدةٍ تجمَعُ بين الشّدّة والانقياد، ممّا جعلَهُ أداةً للبَطْشِ والتَّحَصُّنِ، ومظهرًا للتّمكين في الأرضِ.

تجسيدُ قوّة الوحيِ وعدًا ووعيدًا، رحمةٌ للمؤمنين ونِقْمَةٌ على المكذّبين

ويُشير ذِكْرُ الحديدِ هنا إلى ما تَحْمِلُه الرّسالات من وعدٍ ووعيد، ورحمة وعذاب، فهو رمزٌ للبأسِ الذي يَنْزِلُ مع آيات اللّه تَعالى، زاجرًا المكذّبين، وناصرًا المؤمنين، فكلّ رسولٍ يحمِلُ بشريات للمُستَجيبين، ومهلكاتٍ للمعاندين، وتقوم الحجَّة ببعثته، والحديدُ هُنا يُجسِّدُ قوّةَ الرّسالة، بما فيها من منافعَ للنّفوس المؤمنة، وبأس شديدٍ على أهل الضّلال، دون أن تُغفل صفتَهُ المادّيَّة؛ إذ تُتّخذ منه أدواتُ الجهاد، فيجاهد الرّسلُ وأتباعُهم بألسنتهم وأيديهم، ويدفعون بَغْيَ أعدائِهم وعدوانهم بسُيوفِهم[5].

وفي تخصيص الحديد بالذِّكر مقرونًا بالبأس والمنفعةِ إشارَةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 471.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 536، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300 - 301.

(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 788 - 789.

إلى ما فيه من أدوات القوّة التي تحرس الأمن، وتحفظ التّوازنَ بين الأفراد والجماعات والأمم[1]، فهو رمْزٌ للرّدْعِ والرَّدِّ، وللمنفعَةِ والبِناء، يَجْمَعُ بين الشِّدَّة والرّحمة، ويُستَعمَلُ في إقامة الحقِّ، وصَوْنِ الحياة، وردّ العدوانِ.

بين القوَّة والمنفعة تحقيقُ التّوازنِ وحمايةُ الأفرادِ والجماعاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بإنْزالِ الحديدِ:

جاء التَّعبير بإنزال الحديدِ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، دون الإلانَةِ الواردةِ في موضعِ آخرَ في قوله تعالى عن داود ﷺ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ: 10]؛ لأنَّ المقصود بيانُ خلقهِ وتقديره، لا مجرّد تليينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: 6] أي: خلَقَها، و﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، أي: خلقَهُ لكم، لا أنّه نزَل جاهزًا، فالتّعبير بالإنزال مثله يُراد به الإيجاد والتّيسيرُ[2]، وفيه إشارة إلى أنّ الحديدَ نزَلَ بتقديرٍ إلهيٍّ؛ لِما فيهِ مِن منافِعَ وبأسٍ شديد، لا لمجرّد استعماله في اللّين والصّنعةِ.

خَلْقُ الحديدِ وإيجادُهُ منَّة عامَّة، وإلانَةُ الحَديدِ نعمَةٌ خاصَّة بداودَ عليه السلام

وفي التَّعبير بالإنزال مرادًا به الخلق والإيجاد منَّة على عموم العبادِ، بخلاف تليين الحديد فهو من خصائصِ داود ﷺ الذي أُلين له الحديد، فكان في يدهِ كالشَّمع يعمَلُ منهُ ما يُريد بلا نارٍ ولا مِطْرَقَةٍ[3].

وَجْهُ المُناسبَةِ بينَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾:

المُناسبَةُ بينَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾ متعدِّدةٌ، منْها أنّ التّكليفَ يدورُ على فِعْلِ ما ينبغي، وترك ما لا ينبغي، فالكتابُ وسيلة للتّمييز بين الحقّ والباطل، فهو متعلّق بالقوّة النَّظريَّة، والميزانُ وسيلَةٌ لتحقيقِ العدْلِ في المعاملات، وهو متعلّق بالقوّة العمليَّة، أمّا الحديدُ؛ ففيهِ بأسٌ شديد، يُستعمَل للزّجر والدّفع، وهو

ترتيب المصالح الرّوحيّة والجسديّة والزّجريّة في تحقيق العدلِ والحقّ بحسب مقام الإنسان والأمّةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1305.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 458.

متعلِّق بدفع الفسادِ، فترتيبُ الآية راعى المصالحَ الرّوحيّة أوّلًا، ثمّ الجسديّة، ثمّ الزّجر، كما أنّ المعاملة إمّا مع اللّهِ تَعالى بالكتابِ، أو مع الأحباب بالميزانِ، أو مع الأعداء بالحديدِ، والأقوام إمّا سابقون يتعاملون بالكتابِ، أو مقتصدون بالميزانِ، أو ظالمون لا يَرْدَعُهم إلّا الحديدُ، كما أنَّ الإنسانَ بحسب مقامه؛ فالمطمئن بالكتابِ، واللَّوّام بالميزانِ، والأمّارة بالحديدِ، وكذلك الدّينُ، فَأصوله بالكتابِ، وفروعه بالميزانِ، ومَن أعرض عنهما؛ فلهُ الحديدُ، والكتابُ للأحكام، والميزانُ لتَطْبيقِها، والحديد لحَمْلِ المُتَمَرِّدين عليها، وبهذا تظهر حكمةُ الجَمْعِ[1].

الكتابُ دستورٌ، والميزان معيارٌ، والحديد سلاح يُقيم الحدودَ ويمنع التّظالمَ

وعلاوة على ذلك فإنّ الكتابَ قانونُ الشّريعة، ودستورُ الأحكام الدّينيَّة، الذي يتضمّن جوامع الأحكام والحدودَ، وقد حُظِرَ فيه التّعادي والتّظالم ودفع التّباغي والتّخاصم، وأُمِر بالتّناصف والتّعادل، ولم يكن يتم إلّا بهذه الآية؛ فلذا جُمِعَ بين الكتابِ والميزانِ، وإنّما تحفَظُه العامّة على اتباعها بالسّيف، وجذوة عقابه، وعذب عذابه، وهو الحديدُ الذي وصفه اللّه تَعالى بالبأس الشّديد، فجمع بالقول الوجيز معاني كثيرة الشّعوب متدانية الجنوب محكمة المطالع مقوّمة[2].

الكتاب هدايَةٌ، والميزان عدالةٌ، والحديد سياج الحمايةِ

وفي الجمع بين الكتابِ والميزانِ والحديدِ أيضًا دلالةٌ على تكامُل وسائِلِ الهداية والتّقويم؛ فالكتابُ يُبيّن، والميزان يُقيم العدْلَ، والحديدُ يُؤمّن الحمايةَ لهما، ويُرهِب مَن يَعتدي عليهما، فقوّة الحديدِ تَحْفَظُ الكتابَ والميزانَ، وتَحمِلُ النّاسَ على الالتزام بهما[3].

وقرن اللّهُ تعالى إنزال الكتابِ بالأمر بالعدل وإنزال الحديدِ؛ إشارةً إلى تكامُل أركان إقامةِ القِسْطِ، فالكتابُ يمثّل القوّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 470.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 161.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 250.

التّشريعيّة، والعدلُ القوّةَ القضائيّة، والحديدُ القوّةَ التّنفيذيّة، فالتّشريع الإلهيّ لا يُثمر إلّا بقاضٍ يَحْكُم به، وسلطانٌ ينفّذ حكمَه؛ إذ الحقّ وحده لا يسير إلّا بقوّة تحميهِ، وتردّ العدوان عنه؛ لأنّ النّفوس مجبولةٌ على الظّلم[1].

التّشريع يُثمِرُ بقاضٍ يَحْكُم به، وسلطان ينفِّذه، ويحميه

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِيهِ﴾:

جاء التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾؛ للدّلالة على أنّ البأس كامن في جوهرِ الحديدِ ذاتِه، لا مجرّد أثرٍ خارجٍ عنه، وقد ثبت علميًّا أنّ تلاحم ذرّات الحديد داخلَ نواتهِ يفوقُ تلاحم ذرّات المعادن ذاتِ الوزنِ الذّرّيّ الأعلى، كالنّحاس والذّهب، ممّا يجعله أشدّ صلابة وتماسكًا، ويحتاج إلى طاقة هائلة للانصهارِ[2].

الإيماءُ إلى كوامِنِ القوَّة في جوهَرِ الحديدِ

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ ﴿فِيهِ﴾ دون الإظهار:

الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ راجعٌ إلى أقربِ مذكورٍ، وهو الحديدُ، وقد أُضْمِرَ طلبًا للإيجاز وحسن النّسق، وإظهارُهُ ههنا بعيدٌ عن الفصاحَةِ؛ إذ يكون التَّركيبُ: (وأنزلنا الحديد في الحديد بأس شديد)، فالإضمارُ متعيِّنٌ هنا، كما أنّه يعكس وضوح المرجع في الذّهن بما يغني عن الإظهار.

وضوح المرجع الذّهنيّ بما يُغني عن الإظهار

موقِعُ جُمْلَةِ ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ ودلالتُها:

الجملة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ حالٌ مِنَ المفعول ﴿ٱلۡحَدِيدَ﴾، وهي حالٌ متضمّنةٌ مَعْنَى التّعليل؛ إذ كثيرًا ما تفيد الحالُ سببَ الفِعْلِ، فكأنَّ المعنى: أنزلنا الحديد؛ لأنّ فيه بأسًا، وليَنْتَفِعِ النّاسُ بما فيه من قوّة وردع[3]، فالحال هنا تُظْهِرُ الحكمةَ مِنَ الإنزالِ.

تضمُّن الحالِ مَعْنَى التَّعليل

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 623.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 359.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 473.

سِرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

التَّنبيه إلى ما فيهِ مِن قوَّةٍ وبأسٍ

﴿فِيهِ﴾ جارّ ومجرور متعلِّقان بمحذوفٍ خبرٌ مقدَّم، و﴿بَأۡسٌ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر[1]، وسرّ التّقديمِ أنّه لَمّا وقع التّشوّف إلى بيان سبب إنزال الحديد؛ جاء التّقديمُ ليفيدَ الحصر، والتخصيص، والتّنبيه، فكأنّ المعنى: أنزلناه لما فيه مِن قوّة وشدّة وعذابٍ[2]، فضلًا عمّا في التقديم من رعاية للسَّجْعِ الذي يجعل التّعبير منسجمًا في إيقاعه، متناسقًا في نظمه، كأنّه الدُّرُّ المنظوم[3].

بلاغَةُ التّعبير عَن الضّر بلفظ البأسِ نكرة:

تصويرُ شدّة الضّرّ وقوّة الرّدع بالسّيوف والرّماح والنّبال المصنوعةِ مِنَ الحَديدِ

التَّعبيرُ بالبأسِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ﴾ يحمِلُ بلاغةً في تصوير الضّرّ؛ إذ البأس يدلُّ على القوّة الشّديدة، ويُراد به السّلاح والكراع، وفيه من رهبة القِتال وخشية القتل والجرح بآلات الحديد، كالسّيوف والرّماح والنّبال ما يُحدِثُ خوفًا شديدًا في النّفوس[4]، وفيه بأس جرأة النّاس على إيصالِ الأذى لغيرِهم باستعمال أدوات الرّدع والدّفاع المصنوعة من الحديد[5].

إطلاقُ البأسِ وبيانُ ثباتِ الشّدّة الملازمة للحديدِ في ذاته

جاءَت لفظة البأسِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ للتَّأكيدِ على إطلاقِ المعنى، وكون القوّة والشّدّة ملازمةً للحديدِ في ذاته، كما أنَّ في التَّنكير دلالةً على التَّعظيمِ والتَّفخيم، وأنَّ البأسَ في الحديدِ عظيمٌ.

دلالة وصفِ البأس بالشَّديدِ دون العظيم:

الشِّدَّةُ تصويرٌ للقوّة الحاضرة، والعِظَمُ يدلُّ على القَدْرِ دون الأثَر

وُصِف البأسُ بالشّديد دون العظيم؛ لأنَّ الشّدّة تُناسب طبيعةَ الحرْبِ وأدواتِها[6]؛ لكونها تُشير إلى الصّلابة والقوّة الفاعلَة، وهي

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 532.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 518.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 483، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

الملائِمَةُ للمَضاء والحدّة[1]، فالسّلاح والعدّة تُحدث أثرًا مباشرًا وقويًّا في القتال، والشّدّة توحي بالقوّة الفاعلة، والأثر الحاسم، والبطش الحاضِر، والرهبة العالية، بخلاف العظمة التي قد تدلُّ على القدْرِ دون التّأثير.

دلالَةُ التّنكير في ﴿شَدِيدٌ﴾:

بـأسُ الحديد عظيمٌ لا يُحدُّ، ولا يُقادرُ قدره

أورد القرآنُ الكريمُ وصفَ الشِّدَّةِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ لإفادَةِ التّعظيم والتّفخيم؛ إذ يُشْعِرُ بأنّ بأسَ الحديد عظيمٌ لا يُحدُّ، ولا يُحاط به، ويوحي كذلك بالتّكثير والتّعميم، فكأنّ كلّ ما في الحديد من قوّة وبطشٍ شديدٌ، ولو عُرّف فقيل: (البأس الشّديد)؛ لتُوهِّمَ فيه معنى العَهْدِ، وأنَّ المرادَ به بأسٌ مخصوصٌ أو نوعٌ محدودٌ؛ وهو خلاف المرادِ.

سِرُّ عَطْفِ المَنَافِع على البأسِ:

خصائص الحديد تجمَعُ بين القوّة والرّدعِ، والعطاء والعمرانِ

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ معطوفة على ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[2]، وهو من باب عطف أدواتِ القتال على أدوات البناءِ، كالسّيوف والرّماح التي يُقاتل بها، والآلات التي تُحفر بها الأرض والجبال[3]، فكما في الحديدِ بأس يُرْهِب، ويُدافِع، ففيه أيضًا منافِعُ يُنْتَفَعُ بها في السّلم والعمران، فجُمِعَ في الآيةِ بين القوّةِ والرَّحْمَة، والرّدع والعطاءِ، وفي ذلك تحقيق للأمن والاستقرار الذي تُبْنى عليه مصالحُ النّاس.

عطف العامِّ على الخاصِّ لتجلية المنافِعِ

ويجوز أن يكون هذا العطفُ مِن بابِ عطفِ العامّ على الخاصّ؛ تنبيهًا على شَرَفِ المنافِع وعُموم نَفْعِها[4]، فالمنافعُ تشمل البأسَ وغيرَه، لكنّها أُخِّرت؛ لتُبْرَزَ أهمّيّتها، ويُبَيَّن أنّ المقصود من البأس ليس الإيذاءَ، بل ما يُفْضي إليه من مصالحِ للنّاس.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 301.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 201.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 472.

بلاغَةُ التعبير بلفظ المنافِع:

في المنافع معنى التَّمكين والفتح لا مجرّد نفع عابر أو فائدة في الطّرح

عُبِّرَ بمفردة المنافِعِ لدقَّتِها، وشمولها للغلبَةِ بالحديدِ؛ إذْ يُشير إلى ما يَجْنيهِ الغالبُ مِن غنائمَ وأسْرى وفتحِ بلادٍ[1]، فكلمة (منافع) تجمع بين المعنى الواقعيِّ للتّمكين والسّلطة، وتُضْفي على النّصِّ قوّةً ودلالة تفوق مجرّد المنفعَةِ العاديَّة.

نكتة تنكير (منافِع) وجَمْعه:

منافعُ الحديدِ لا تُحْصى؛ لدُخوله في أغلَبِ أدوات الحياةِ

نُكِّرَ لفظُ (منافِع) وجُمِع؛ للدَّلالةِ على الكثرةِ والتّنوع، فلَم تُعرَّف لئلّا توهِمَ العَهْدَ بنوعٍ خاصٍّ مِنْها، بل نُكِّرتْ لتَشْمَل وجوهًا متعدّدة، لا تُحصى، وكذا الجمع يدلُّ على وفْرَتِها وتعدُّدها، فالحديد فيه منافعُ عديدة لا توجد في غيره من المعادن، كصناعة أدوات الحمايةِ واللّباس وآلات الزّراعة والبناءِ والتّجارة، حتّى لا يكاد يقومُ أمرٌ من أمور المعاشِ إلّا بهِ[2]، ومن هنا صار الحديدُ أساسًا في مصالح النّاس، لا يَسْتَغْنونَ عنهُ في حياتِهم اليوميَّة.

سِرُّ تقديمِ البأس على المنافِع:

مقابَلةُ دعواتِ الرُّسُلِ بالجحودِ أوجبَ تقديمَ الزّجرِ

قُدِّمَ قوله: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ على ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دعواتِ الرّسل غالبًا ما تُقابَل بالعناد والجحود، فيكون أوّل ما يَظْهَر منها هو الزّجر والهلاك، لا النّفع والنّجاة، فالهلاكُ يُصيبُ الأكثرين، والنّجاة لا تكون إلّا للقليلِ، كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]، وقال مخاطبًا نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][3]، فجاء ذكرُ البأسِ أوّلًا؛ لأنَّه يُجسّد ما يواجه به الحقُّ عنادَ الباطل، ثمّ ذُكرت المنافع؛ إشارةً إلى ما ينالُهُ المؤمنون من الخيْرِ بعد التّمحيص والابتلاءِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 536 - 537.

(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 789.

دلالَةُ الجمْعِ بين بأس الحديد ومنافعه:

لا يُقام العدْلُ إلّا بقوّةٍ تَحْميهِ ومَعاشٍ يُسْنِدُه

في الجمع بين البأس الشّديد والمنافع دلالةٌ بليغة على أنّ إقامة القسْطِ لا يتحقّق إلّا بتكامل عناصر القوّة والرّحمة؛ فالكتاب يُرْشِد، والميزان يَعْدِل، لكنْ لا يُثْمِران إلّا بوجود مَن يَحْمِل السّيف، فهو يردَعُ الظّالم، ويُقيم الحقّ؛ لأنَّ النّفوس مجبولة على الجَوْر، ومن جهة أخرى فإنَّ الوازِعَ لا يكفي وحده، بل لا بدَّ من وسائلِ التّعايُش[1]؛ إذ ما مِن صنعَةٍ أو مصلحة إلّا والحديدُ داخل فيها آلةً أو أداةً، فكان ذِكْرُ المنافع بعد البأسِ إشارةً إلى أنّ العدل لا يُقام إلّا بقوّة تحميه، ومعاشٍ يُسْنِدُه.

سِرُّ الاستغناء عن وصف المنافع:

منافع الحديد كثيرةٌ شاملةٌ بوصفها أساسَ المعايش والمصالح

لم توصَفِ المنافِعُ كما وُصِفَ البأسُ؛ لأنّ المرادَ الإجمالُ؛ للدّلالة على كثرَتِها وتنوّعها دون حَصْرٍ، وهذا الإجمال يُشير إلى أنّ تمشية أمْرِ الكتاب والميزان متوقّفة عليها[2]، فهي أساسُ المعايش والمصالح، أمّا البأس؛ فاحتاج إلى وصفٍ يُبْرِزُ شِدَّتَه؛ لأنّه زاجِرٌ ورادِعٌ، بخلاف المنافع التي تُفهم مِن سياقها.

دلالَةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تَسْخيرُ الحديدِ لنَفْعِ النّاس في مَعايِشِهم

اللّام في قولِه تَعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تُفيد التّخصيصَ، أي: في الحديدِ منافِعِ لأجلهم، فما في الحديد من منافعَ مسخَّرٌ لمصالح النّاسِ ومعايشهم؛ لتقومَ أحوالُهُم، وتَنْتَظِمَ شُؤونُهُم به[3].

سِرُّ التَّعبير بالنّاسِ دون الخَلْقِ:

خصوصيَّةُ الحديدِ في خدمة حياة البشَرِ وضرورات عمرانهم

التّعبير بالنّاسِ دون الخلْقِ اختيارٌ دقيق بليغ؛ إذ إنَّ الخَلْقَ يشمل جميعَ المخلوقاتِ مِن إنس وجنّ وحيوانٍ وجماد، والحديد بما فيه من بأس حربيّ، ومنافعَ مدنيّة؛ إنّما هو أخصّ بحياة البشر وضروراتِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 188.

(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 473.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

عُمْرانِهم، فاقْتُصِرَ على ذكر النّاسِ؛ ليدلّ على أنّ الانتفاعَ بالحديد من مقوّمات وجودهم الاجتماعيِّ والحضاريِّ، وللتّنبيه على عمومِ الحاجة إليه في معاشِهم ومعادهم.

بيانُ متعلّق شبه الجملة في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

فوائد الحديد تجمع بين الرَّدْعِ والنَّفْعِ

شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يتعلَّقُ بكلٍّ من ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ و(منافع) على طريقة التّنازع؛ تنبيهًا على أنّ الحديد يجمَعُ بين الرّدع والنّفع، فلكلّ وجهٍ من وجْهَيْهِ قومٌ ينتَفِعون به؛ إذ قد يكون بأسُهُ لقومٍ ومنافعه لآخرين، كما أنَّ مصائب قوم عند قوم فوائدُ، والمقصود من هذا الجَمْعِ لفْتُ بصائر السّامعين إلى حكمة اللّه تَعالى في خلق الحديد، وإلهام صنعِه، ليُستعمل بأسُه في مواضع العدل، ونفعُه في مصالح الخلق، فتُجَهَّز الجيوشُ لحماية الأوطان، وصون الحرمات، وردِّ العدوان، وحفظ الأموال من الضّاريات والعادياتِ[1].

مَعْنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾:

اتّصالُ رسالة الرّسل بتحقيق العدل ومعرفة النّصرة الإلهيّة

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾، فالمعنى متّصل ومترابط، فيصبح السّياقُ: لقد أرسلنا رسُلَنا، وفَعَلْنا كذا وكذا؛ ليَقومَ النّاسُ، وليَعْلَمَ اللّهُ...[2]، فبين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفظِ؛ إذ الجملتانِ فعليَّتانِ مضارعيَّتانِ، وبينَهُما تناسبٌ في المعنى أيضًا، وهو الجمع بين غرض إقامةِ القِسْطِ والغاية الإلهيَّة في معرفةِ مَن ينصُرُ رسلَهُ.

استعمال الحديد في الجهادِ؛ ليَظْهَرَ المُخْلِصونَ في نُصْرَةِ الحقِّ بالسُّيوف والعتادِ

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ عطفٌ على مَحْذوفٍ مُقَدَّرٍ يُفْهَمُ مِن السّياق، أي: ليَستعمِلوا الحديدَ في مواضع الجهاد والعدل، وليَظْهَرَ مَن ينصُرُ اللّه تَعالى ورسلَه بالسّيوف والرّماح وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائهِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 253.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ تفيد التّعليل، أي: إنَّ إنزال الكتاب والميزان والحديد كان لأجل أن يَظْهَرَ مَن يَنْصُرُ اللّهَ تعالى ورسله في مواضع الجهاد[1].

بلاغَةُ التّعبير بقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾:

المرادُ بالعِلْمِ ظُهورُهُ علمه أو هو المعلوم في ذاته

التَّعبير بفِعْلِ العِلْمِ ههنا على ضَرْبَيْنِ، أحدُهما: أنّ المرادَ ليَعْلَمَ اللّهُ تَعالى مَن قد عَلِمَ أنّه ينصرُه عِلْمًا سابقًا، فيُظْهِرُه ناصرًا في الواقع، فيكون العلمُ متعلّقًا بظهور المعلوم لا بتغيُّر العلم ذاته؛ لأنّ علمَ اللّه تَعالى لا يطرأ عليه تجدّدٌ. والآخر: أن يُراد بالعلم المَعْلومُ نفسُه، وهو جائز في اللّغة، كما يقال: الصّلاة أمرُ اللّهِ تَعالى: مأمورُهُ الذي أمرَ بِهِ[2].

البَأْسُ للاستعمالِ في الحقِّ لا لقَمْعِ العَدْلِ

وهذا التّعبيرُ فيه سدٌّ للذّريعة؛ وذلك أنّ اللّه تعالى لم يَخْلُقِ الحديدَ وما فيه من بأس شديدٍ؛ ليُستعمَل في قَمْعِ أهل العدل، أو إرغام الآمرين بالمعروفِ على السّكوت، بل ليُستعمل في مواضع الحقّ، فصَرْفُ البأس عن مواضِعه تَحْريفٌ لحِكْمَةِ اللّهِ تَعالى في وضع الأشياء النّافعة، وقد أومأ إلى هذا المعنى بهذهِ الجُمْلَةِ[3].

دلالة التّعبيرِ بالفعل ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ مُضارِعًا:

الإشارةُ إلى تحقُّق المعلوم في الخارِجِ لا حدوث عِلْمٍ جديدٍ

دلالة التّعبير بالفِعْلِ المضارع ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ في حقّ اللّه تعالى تُفيد أنّ العلمَ متعلّق بظهور المعلوم في الخارج، لا بتغيُّرٍ في علم اللّه تَعالى؛ لأنّ علمه أزليٌّ لا يطرأ عليه تغييرٌ، فالمقصودُ أنّ الحدَثَ خَرج مِن العدَمِ إلى الوُجود[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 114.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.

والتّعبيرُ بفِعْلِ العِلْمِ مُضارعًا في حقّ اللّهِ سبحانه يدلّ على العِلْمِ بالواقع والمَشْهَد، وإلّا فإنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ الغَيْبَ قبلَ وُقوعِه، لكنْ يُظْهِرُهُ للخَلْقِ؛ ليكونَ حُجّة عليهم، فالمقصودُ أن يُظْهِرَ المعلومَ في الخارج، فيُرى، ويُشْهَد، فلا يستَطيعُ العَبْدُ إنكارَه أو دَفْعَه(1).

بَلاغَةُ المَجاز في قولِه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾:

إسنادُ عِلْمِ الأولياءِ إلى اللهِ تَعالى؛ لأنَّه الذي أظْهَرَهُ لَهُم

قولُه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ يجوزُ أن يُفهم على وجهِ المجاز بالحذف، أي: ليعلَمَ أولياءُ اللّهِ تَعالى مَن يَنْصُره(2)، وحمْلُ اللَّفْظِ على ظاهِره أوْلى؛ لأنَّ الأمر إذا دارَ بين الحذْفِ وعَدَمِه؛ فعدَمُ الحذْفِ أوْلى، ما دامَ ذلك مُمْكِنًا مِنْ غيرِ أن يترتَّب عليه ما لا ينبغي.

دلالَةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾:

اسم (الله) جامِعٌ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

أُسنِدَ العلم إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ دون غيره من أسمائِه الحُسْنى؛ لأنّ هذا الاسمَ هو الجامع لجميع صفات الكمال والجلال، وفيه من العظمةِ ما يَقْتَضي الخضوعَ المُطْلَق(3).

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾ دون (الذي):

الإيماء إلى معنى التَّمييز والاختبارِ

التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ دون (الذي) تَعْبيرٌ دقيقٌ، وذلك أنَّ ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ يُستعمَل غالبًا للعاقل، فيوحي بالاختبارِ والتّمييز بين النّاصِر وغيره، بخلاف (الذي) فهو أعمُّ، وليس فيه إشعارٌ بتعلُّق الإرادةِ بالتّمييز أو الامتحانِ، فجاءت ﴿مَن﴾؛ لتدلَّ على أنّ علمَ اللّهِ تَعالى هنا متعلّق بكشْفِ حالِ أفرادٍ مخصوصينَ مِنَ الذين يُبدون النّصرةَ بالفِعْلِ لا بالادّعاءِ.

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/ 5795.
(2) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

سِرُّ التّعبير بفعل النَّصْرِ مضارعًا:

وجوبُ بذلِ الوُسْعِ في إعلاءِ دينِ اللهِ تَعالى

التّعبير بالنّصر في الجملة وارد على سبيل التّشريف والتّكريم؛ لِما يَحْمِلُهُ لفظُ النَّصْرِ مِنْ معاني الغلبة والقهر بعد المُدافعة، لا مجرّد المعونةِ، فيكون العبْدُ قد بذلَ غايةَ وُسْعِهِ في إعلاءِ دينِ اللّهِ تَعالى والذَّبِّ عَنْهُ حتّى نصَرَهُ، وصوغه مضارعًا ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ يدلُّ على الاستمرار والتّجدُّد، أيْ: إنَّ النّصرة ليست لحظةً عابرَةً، بل هي فعلٌ متواصِلٌ يُقْبِلُ صاحِبُه على نصر دينِ اللّه تَعالى ورسله بإرادة ثابتَةٍ وعزْم دائم، ففيه إشعارٌ بأنّ النّصرة المطلوبة هي نصرةٌ مستمِرَّةٌ، لا موقِف مؤقّت[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالإضمارِ في الفِعْلِ ﴿يَنصُرُهُۥ﴾:

الإشارةُ إلى عظمةِ الذّاتِ العليَّةِ دون وسائِطَ

التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ دون أن يُقال: ينصر دينَه - بالإظهار - فيه تعظيمٌ للّهِ سُبْحانه؛ إذ جُعِلَ الضّميرُ يعودُ إليه مباشرة دون التّنصيصِ على لفظِ الدّينِ، فجُعِلَ النّصرُ متعلِّقًا بِهِ تعظيمًا لشأنِه[2].

دلالَةُ المَجازِ في قوله: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾:

نسبةُ النّصرِ إلى اللهِ تَعالى تكريمٌ للعبد وإعلاءٌ لمقامه في مناصرتِهِ الحقَّ

قول اللّهِ تَعالى: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصُرُ دينَهُ، فإضافة النّصر إلى اللّهِ تَعالى مجازٌ بالحذْفِ؛ لأنّ النّصرة تكون لدينهِ وشَريعتِه، لا لذاته سُبْحانَهُ؛ إذ إنّ اللّه تعالى غنيّ عن نصرة عباده، لكنّه نَسَبَ النّصر إليه؛ لبيان أنّ مَن ينصُرُ دينَهُ ورسولَهُ، فكأنّما نَصَرَ اللّه تَعالى؛ لأنّ نصرةَ الدّين نصرةٌ لحقّه وأمرِه، وهذا أرفع ما يناله العبد من مقام.

تعدُّدُ صورِ النُّصْرَةِ وتنوُّعُها

ويَحْتَمِلُ أيضًا أنّ المقصودَ نصرُ رسولهِ محمّد ﷺ، وسائر الرّسل، فالنّصرة تكون بتبليغ ما أُمروا به، ومعاونتهم على أداء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

الرّسالة، ونصرُ الدّين يكون بإظهاره في النّاس، والذبّ عن أهله، والمعونة لهم، فكلّ ذلك داخل في معنى النّصرة، وعلى هذا المعنى يُفهَم قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7][1].

بلاغَةُ عَطْفِ ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾:

بيانُ أنّ النّصرة تشملُ دينَ اللهِ تَعالى ورُسُلَهُ جميعًا

﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ معطوف على الضّمير في ﴿يَنصُرُهُۥ﴾[2]، أي: وينصر رُسُلَه، كما في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: 8]، ولا يصحّ أن يكون الرّسل معطوفًا على مفعول ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾، وهو ﴿مَن﴾؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى الفَصْلِ بينَ الموصول وصلتهِ؛ إذ إنّ ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ متعلّق بالفعل ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، وهو جُزْءٌ من صِلَةِ ﴿مَن﴾، ولا يجوز العطف على الموصولِ قبلَ تَمام صِلَتِه[3]، والمقصودُ بعطفِ الرّسل في الجملةِ: وينصُرُ رُسُلَه بالذَّبِّ عنهم، والدَّعوةِ إلى ما جاؤوا به[4].

شمولُ النُّصرةِ للرُّسلِ ومَن تَبِعَهُم في إقامةِ الشَّرْعِ والدّعوة إلى العَدْلِ

وهذا العطفُ يدلُّ على أنَّ النّصرة تشمَلُ القائمين بدين اللّه تَعالى، ومنهم الرّسلُ ومَن سار على نَهْجِهم، كمَن يُقيم شرائع الإسلام بعدَ النّبي ﷺ، ويذبّ عن الدّينِ، ويُعْلي كلمتَهُ، ويدخل في ذلك نَصْرُ ولاةِ أمْرِ المسلمين إذا كانوا قائمينَ بالحقّ والعَدْلِ، ومِن أبرز مَن نَصَرَ دينَ اللّه تَعالى بعد وفاة النّبيِّ ﷺ أبو بكرٍ الصّدّيقُ رضي الله عنه[5].

دلالَةُ استِعمالِ لفْظِ الرُّسُلِ مجموعًا:

نصرة الرّسولِ محمَّدٍ ﷺ هي نُصْرَةٌ لجميعِ الرُّسلِ

عُبِّر بلفظِ الرُّسُلِ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ الرّسالات، وتكريمًا لجماعَةِ الأنبياء؛ ببيان أنَّ نُصرة النّبيِّ محمّد ﷺ ليست منفصلةً عن نصرة إخوانهِ مِنَ المُرْسَلين، بل هيَ امتِدادٌ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 244.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 107.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.

لسِلْسِلَةِ الدَّعَواتِ الإلهيَّة، وفيه إشعارٌ بأنّ نصرة الرّسولِ ﷺ هي نُصْرَةٌ لجَميع الرّسُلِ؛ لأنَّ دَعْوَتَهُم في أصلِها واحدَةٌ ومَصْدَرَها واحدٌ، فمَن وقَف مع هذا الرّسولِ تأييدًا ونُصرةً؛ فقَد نَصَرَ الحقَّ الذي بعثَ اللّهُ تَعالى بهِ سائِرَ الرّسل، وفي الجَمْعِ أيضًا تعميمٌ للابتلاءِ، حتّى يتبيّنَ صِدْقُ الموقِفِ مِنَ الرّسالة في ذاتها، لا مِن شخصٍ بعَينِه، فيتحَقَّق الامتحانُ في نُصْرَةِ المَبْدَأِ الإلهيِّ الجامع، لا في موالاةِ فَرْدٍ مخصوصٍ.

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ فِعْلِ النُّصْرَةِ معَ الرُّسُل:

تركُ الذِّكْرِ ههنا أبلغُ من الذِّكْرِ

لم يُكرَّر فعل النَّصرِ (يَنصُرُ) مع الرُّسُلِ، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (وينصُرُ رسُلَهُ)؛ اكتفاءً بالفِعْلِ الأوّل؛ لدلالةِ السّياق عليه، وتركُ الذِّكْرِ هنا أبلَغُ مِن الذّكْرِ؛ لأنّ العطف هنا يَقْتَضي اشتراكَهما في الفعلِ الواحِدِ، وأيضًا فإنّ تقديمَ النّصْرِ للّهِ تعالى، ثُمّ عطْفَ الرُّسُلِ عليه يَشي بأنّ نُصرة الرّسل فرعٌ عَن نصرة اللّه تَعالى، فهي في حقيقتها وجهٌ مِن وجوهِ نصرة الحقّ الإلهيّ، فكان حذفُ الفعل مع المعطوف أدلَّ على شدّة الارتباط بين الجِهَتَيْن، وإبراز أنّ نصرة الرّسُلِ لا تُتصوَّر إلّا ضِمْنَ نُصْرَةِ اللّهِ تَعالى ودينِه، فكأنّهما شيءٌ واحد لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخَرِ.

مَعْنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾:

إشعارٌ بحال النّصر مقترنًا باليقين بالغيب دون معاينَةٍ حسّيَّةٍ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ تفيد السّببيّة، أي: إنَّ النّصرةَ وقَعَت بسبَبِ إيمانِ النّاصر وتصديقه بما غاب عنهُ مِن وعدِ اللّهِ تعالى ووعيده، فهو يَنْصُرُ اللّهَ تَعالى ورسلَهُ عليهم السلام اعتمادًا على ما لَم يَشْهَدْهُ بعَيْنِه، بل بما كان غائبًا عن مظاهِرِ القوّة، مستندًا إلى يقينٍ قلبيٍّ، أو بما كان غائبًا عن كلّ ما يوجب له النّصرةَ مِن دَعْمٍ أو تأييد[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301 - 302.

النُّصْرَةُ الحقَّةُ هي التي تقعُ حالَ الإيمانِ بالغَيْبِ

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ دالَّةً عَلى الملابَسَةِ، أي: مُتَلبّسين بالغيب حالَ نُصرَتِه ورُسُله، فيُفْصِح التّعبير عن مقام الإيمان الصّادق الذي يَثْبُتُ فيه المؤمن على نَصرِ الحقّ دونَ معاينَةٍ حسّيَّةٍ أو بُرْهان مُشاهَدٍ، بَل اعتمادًا على يقين الغيبِ وإخلاصِ السّريرةِ.

دلالَةُ تعلُّقِ (الغَيبِ) بفعلِ النَّصْرِ:

النّصرة المطلوبةُ ما كانت نابعةً من إخلاصِ القَلْبِ

تعلُّقُ (الغيب) في قول اللّه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ بفِعْلِ النَّصْرِ يدلُّ على أنّ النّصرة المطلوبةَ ليست مجرّد فعلٍ ظاهرٍ، فقَد يُظْهِرُها منافِقٌ أو طالِبُ دنيا، بل المرادُ نُصْرَةٌ نابعة من إخلاص القلب، تصديقًا بوعد اللّه تَعالى ووعيده، دون رؤية أو منفعة عاجلة، فهي نصرة غيبيَّة، أي: بإيمان خالصٍ لا رياءَ فيه، يَظْهَرُ صِدْقُ النّاصِرِ في نُصْرَتِهِ للّه تَعالى ورسلهِ عليهم السلام[1].

النّصرة حالَ الغَيْبِ علامَةٌ على الإيمانِ الصّادِقِ

وخَصّ اللّه سبحانه النّصر لَهُ ولرُسُلِهِ بحال الغيْب؛ لأنّه نَصْرٌ نابِعٌ مِن صدق الإيمان ويقينِ القلب، لا من رياء أو مجاملَةٍ، فهو نَصْرٌ لا يَنْقَطِع، يَظْهَر في السّر والجهر، وفي القول والعمل، بخلافِ النّصر الظّاهرِ الذي قد يَصْدُرُ عَن نفاقٍ أو مصالحَ دنيويَّة، ولذلك كان المعوّلُ عليهِ ما في القلوبِ مِن إخلاص، فإذا صَدَقَتِ النّيّاتُ؛ صحّت الأعمالُ، ونالت القبولَ عندَ اللّه تَعالى[2].

العملُ للهِ تَعالى وحده في السِّرِّ والعلنِ

وقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ يتعلّق بالفِعْلِ ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصرُه نصرًا نابعًا من داعي النّفس وإيمان القلب، لا مِن خوفِ رقيبٍ أو طلَبِ مَدْحٍ، فالمعنى: أنّه يُجاهِد في سبيل اللّه تعالى، ويدافع عن الدّينِ بإخلاصٍ خالِصٍ[3]، دون أن ينتظِرَ رؤيَةَ أحَدٍ أو مراقبَتَهُ، فيكون عملهُ للّهِ تَعالى وحدَهُ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 472.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 790 - 791.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.

بلاغة التّعبير ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾:

الإيمان الحقُّ يثبُت قبل رؤيةِ الحقائقِ في الآخرة

في التَّعبير بالغيبِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ إشارةٌ إلى أنّ الإيمان الحقيقيّ هو ما كان في الدّنيا قبل يومِ القيامَةِ، فإيمانُ العبادِ قبلَ القيامة غيبٌ بالنّسبة إليهم[1] حين تكون الغيبيّات محلَّ ابتلاء واختبارٍ، فالنّصرة بالغيبِ تدلّ على صدق الإيمانِ؛ إذْ يَنْصُرُ المؤمنُ دينَ اللّهِ تَعالى ورسلَهُ قبل أن يَرى الجزاءَ أو النّصرَ بعينِه، فهو يُحْمَد، ويُثاب على طاعته[2]؛ لأنّ طاعتَهُ وقعَت عن يقين قلبيٍّ.

إبراز الفرق بين المؤمن الصّادقِ والمنافِق الكاذِبِ

وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنَّ النّاصر يفعَل ذلك عن إخلاصٍ، لا رياءً ولا طلبًا للثّناء، فهو بخلاف المنافق الذي يُظْهِر النّصرة إذا رآهُ النّاس، ويتركها، إذا غابَ عَن أعيُنِهم[3].

سِرُّ فصلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ عمّا قبلَها:

تعليلُ إرسالِ الرُّسُلِ بإظهارِ قوَّة اللهِ تَعالى وعزَّتِهِ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونه تعليلًا بديعًا لجملةِ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ إذ إنّ قوّةَ اللّهِ تَعالى وعزّتَه في شُؤونه القدسيّةِ تَقْتضي أن يكون رسلُه على سَمْتِ القوّة والعزّة، وأن تُعظَّم كتبُه، وتوقَّر شرائعُه، وهذا لا يتحقّق في عالم الأسباب إلّا بأن ينهَضَ لنُصْرَتِه رجال مخلصون، يعينون على نشر دينه، ويقيمون دعائمَه[4].

تعزيزُ إدراكِ المؤمنين أنّ كمالَ القوّةِ والعزّةِ للهِ تَعالى وحدَهُ

ويجوزُ أن يكون الفصلُ هنا واردًا؛ لكونِ الجملةِ جملةً استئنافيَّةً لا محلّ لها من الإعراب[5]، جاءت لترسّخ في القلوب أنّ اللّه تَعالى هو القوي الذي لا يُغلَب، العزيز الذي لا يُقهر، فلا يَظُنَّ ظانٌّ أنّ نَصْرَهُ متوقّف على عبادِهِ.

---

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ص: 1071.
(2) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 254.
(3) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.
(5) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 314.

بلاغةُ التّذييل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

تقريرُ غِنَى اللهِ تعالى عن نُصرةِ عبادِهِ لَهُ

قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراض تذييليٌّ يحمِلُ بلاغةَ التّقرير والتّأكيدِ، وهوَ يُبيّن أنّ أمْرَ اللهِ تَعالى عبادَهُ بالجهاد، وتعريضَهُم للقتال، ليس لحاجتهِ إلى نُصْرَتِهم في إعلاءِ كلمَتِه، فهو غنيٌّ عنهم، قويٌّ بذاته، عزيزٌ في سُلْطانه، لا يفتقر إلى أحدٍ في تنفيذ مشيئتِه، وإنّما شرَعَ الجهاد لينتفع به المؤمنون، فيرتقوا بطاعتِه، وينالوا الثّواب، ويُظهروا صدقَ الإيمان، فاللّه سُبحانَهُ يُريد لهم الخير، لا لنفسه النّفعَ؛ إذْ هو القويُّ العزيز في كلّ ما يُريد[1]، لا يُعجزه شيء، ولا يحتاج إلى مُعين.

دلالَةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

دفـعُ مظنّـة الـضّـعـف؛ بإثباتِ أنّ القوّة والعزّةَ لَهُ وحدَهُ

جاءت ﴿إِنَّ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ للتّوكيد[2]؛ إذ قد يُتوهَّم في طلب النّصر مظهرُ ضَعْفٍ، فنَفى سبحانهُ ذلكَ مؤكِّدًا؛ ليَقْطَعَ الطّريق على المُتَعَنِّتين، مبيّنًا أنَّ القوّة والعزّة لَهُ وحده[3].

دلالَةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهَرًا:

بيانُ أنّ القويَّ العزيزَ هو اللهُ تَـعـالى بجلالهِ المُطْلَق

في التّعبير بالاسْم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظهرًا، مع أنَّ الظّاهر يقتضي إضمارَهُ؛ لتقدُّم ذِكْرِهِ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وذلك قطعًا لأيِّ احتمالٍ في دفع الوَهْم النّاشئ عن الجملةِ قبلَهُ؛ فإنَّهُ لّمّا كان طالبُ النُّصرة مظنَّةَ توهُّم الضَّعف؛ نفى سبحانه ذلك، وأظهر الاسمَ الأعظمَ؛ إشارةً إلى أنّ من له جميع صفات الكمال لا يمكن أن يلحقَهُ ضعفٌ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ، فاللّهُ تَعالى له العَظَمَةُ كُلُّها[4]، كما أنَّ إظهارَ الاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾ يجعل جملةَ التَّذييل جاريةً مَجْرى المَثَلِ؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 359.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

لاستقلالِها بالإفادَةِ وعدَمِ افتقارِها إلى ما قبلَها في الكشْفِ عن تمامِ مرادِها، بخلاف ما لو أُضْمِرَ؛ فإنَّ جملةَ التَّذييلِ تحتاجُ إلى ما قبلها في بيانِ كمال المرادِ منْها.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿قَوِيٌّ﴾:

بيانُ وفرةِ القُدرةِ وكمالِها

استُعْمِل وصف ﴿قَوِيٌّ﴾؛ لأنّه أدلُّ على شدَّة البَطْشِ واستحكامِ القُدرة من وصف (القادر)؛ لأنَّ (القادِرَ) يصدقُ على مَن يملك أصلَ الاستطاعة، ولَو في أدنى مراتبِها، أمّا القويُّ؛ فإنَّه يُفيد وفرةَ القدرة وتمامَها، فلا يلابِسُها عجزٌ ولا قصور، فجيءَ بوَصْفِ القوّة هنا مبالغةً في تهديدِ المُشْرِكين؛ إذِ القوَّةُ التّامّة التي لا يعارضها شيء أوقَعُ في نُفوسِهم، وأقطَعُ لشُبْهَةِ المُتَعَنِّتين[1].

سِرُّ وصف القويِّ بالعزَّة:

الـقـوّةُ أسـاسُ العزّةِ ومبدَؤُها

وُصِفَ القويُّ بالعزَّة في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ لِما فيه مِنَ الجَمْعِ بينَ أصلِ القُدْرَةِ وكمالِ السُّلْطانِ، فاللّهُ قويٌّ في أمرِه لا يُعْجِزُه شيء، وعزيزٌ في مُلْكِه لا يُغالَب ولا يُقهَر[2]؛ فجاء التَّرتيب منسجمًا مع مقتضى الفِطرة؛ إذ لا تُتَصوَّر عزّةٌ بغيرِ قوَّةٍ تمهّد لها.

سِرُّ الجَمْعِ بين الوصفَيْنِ مِن غيرِ حرفِ عَطْفٍ:

تكامُلُ الأوصافِ الإلهيَّةِ

جُمِعَ بين الوَصْفَيْنِ ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من غير حرفِ عَطْفٍ؛ لإفادةِ قوَّة المعنى وترابطِه من غير تباعُدٍ يوهِمُ التّغايُر، فالقويُّ يدلُّ على كمال القدرة التي لا يُعجزها شيء، والعزيز يدلّ على الامتناع والغلبة التي لا تُقهر، واجتماعهُما من غير وساطَةِ حرفِ عطفٍ يوحي بأنّ القوّة والعزّة في ذات اللّهِ تَعالى مُتلازِمَتان، لا تنفَصِلُ إحداهُما عن الأخرى، فهو قويٌّ في عزّته، عزيز في قوّته.

كما أنّ حذْفَ العاطفِ يُفيد التّأسيسَ، أي: إنَّ كلَّ وصفٍ يُضيف

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 44.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 33.

معنًى مستقلًّا، ويُضْفي على السّياق إيقاعًا قويًا يناسب مقام التّهديد، ومقامَ التّذكيرِ بعظمَةِ الحقِّ سُبْحانَه.

دلالَةُ تنكيرِ الاسمَيْنِ الكريمَيْن:

إطلاقُ القوّةِ والعزّةِ وتعظيمُهُما

نُكِّرَ الاسمانِ الكريمانِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ دون التَّعريف (القَويُّ العَزيزُ)؛ لإظهارِ الوصفَيْنِ على جهة الإطلاقِ مِن غير تخصيص ولا حصْرٍ؛ ليدلَّ على عظمةٍ مطلقة لا تُقيَّد بموطنٍ دونَ آخر، فجاء التّنكيرُ هنا تأكيدًا على المَعْنى المقصودِ في مقام التّهديد والإنذار، بخلاف مواردَ أخرى اقتضَت التّعريفَ لمقامٍ أعظمَ، بإنجاءِ أهل الإيمان ونحوِه، كما في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]، فهو سبحانه قويٌّ في ذاته، عزيز لا يُغلب، غنيّ عن كلّ شيء، فنُكِّر الخبر ﴿قَوِيٌّ﴾ في آية الحديد؛ لإفادةِ ما تضمّنه التّنكيرُ مِن تعظيمٍ وتهويلٍ[1].

بيان المتشابه اللفظي في الفاصلة:

زيادة التّوكيد باللّام في سورة الحجِّ لمقام أشدّ ابتلاء

اختلفَت جملةُ الفاصلةِ في هذه الآيةِ عَن موضعِ سورة الحجِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: 40]؛ لأنّ المقام في سورةِ الحجّ أُشير فيه إلى مظلوميّةِ الإخراج مِن الدّيارِ وما يَقْتَضيهِ مِن عِظَمِ البلاء، فناسبَه مزيد توكيد باللّام دفعًا لكلّ شبهة، وتثبيتًا للقلوب في موطن عظيم يحتاجُ إلى أقوى أسبابِ التّعزية والطّمأنينة، أمّا هنا؛ فلَم يَكُن السّياقُ داعيًا إلى هذا القَدْرِ مِنَ التّوكيد، فاكْتُفي بالتّصريح بالخبر مُجرّدًا مِن اللّام؛ تنبيهًا على أنّه غنيّ عن كلّ شيءٍ[2].

بلاغَةُ الإيجاز في الآية الكريمَة:

هذه الآيةُ الكريمةُ آيةٌ في الإيجاز، بحَشْدِ معانٍ جمَّة في ألفاظٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

كلماتٌ موجزةٌ تحمِلُ معانيَ كُلّيَّةً جامعَةً

قليلة موجزةٍ، فـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هُنا ليس محضَ نصٍّ، بل هو قانونُ الشّريعة، ودستورُ الأحكام، يتضمَّن الحدود والنّواهيَ، ويُحرِّم البغيَ والتّظالم، ويَقْضي على التّعادي والتّخاصم، وقد وضع سبحانه آلة العدْلِ؛ لتنبيهِ النّاس إلى موقِع فائدةِ العدل، ويُراد بالكتاب الجامعِ حِفْظُ النّاس على اتِّباع الأوامر الإلهيَّة، وإلزام العالَم بأحكامِها، وأمّا الحديدُ؛ فهو رمز القوّة والصّلابة، وسيفُ اللّهِ تَعالى الذي يحقِّق الحجَّةَ على مَن جحَدَ الحقَّ، وعانَدَهُ، فجاء ذِكْرُهُ موجزًا جامعًا لمعانٍ كثيرة هي القوّة والعدل والرّشد والعقوبة في جمع بليغ بين المفهوم والمعنى والرّمز، وفي قول وجيز مُحْكَم يفيض بالمعاني دونَ إفراطٍ أو إسهابٍ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبَعْثُ:

إرسال الرسل مقرون بالآيات والبينات

يرى بعضُ أهلِ العلم أنَّ الإرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البَعْثِ، مِنْ جِهَةِ أنَّ "الإرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلوِّ"[2]، ويرى آخرون، مِنهمُ العسكري أنَّ "الإرْسالَ لا يَكونُ إلّا بِرِسالَةٍ وما يَجْري مَجْراها"[3]، وهَذا الفَرْقُ قَد تُشْكِلُ عليه آياتُ إرْسالِ الرّياح، كَما هوَ ظاهِرٌ، إلّا إنْ قيلَ: إنَّ إرْسالَ الرّياحِ يَكونُ بِرِسالَةٍ يُفْهِمُها اللّه تعالى إيّاها، ويُفْهِمُها الأَرْضَ المَيِّتَةَ، ولكِنَّ هذا مِنَ الغَيْبِ الذي لا يُمْكِنُ الجَراءَةُ عليه إلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفي تَفْسيرِ المَنارِ أنَّ البَعْثَ أَبْلَغُ مِنَ الإرْسالِ؛ "لأَنَّهُ يُفيدُ مَعْنى الإثارَةِ والإزْعاجِ إلى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولَمْ يُذْكَرْ في القُرْآنِ إلّا في بَعْثِ المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بَعْثَةِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 255.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وابن عادل، اللباب: 9/ 176.

نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكَذا في بَعْثِ نُقَباءِ بَني إسرائيلَ، وبَعْثِ مَن انْتَقَمَ مِنْهُمْ، وعَذَّبَهُمْ، وسَباهُمْ حينَ أفْسَدوا في الأرْضِ"(1)، ويُشْكِلُ عليه ذِكْرُ إرْسالِ الرّيحِ لِلعَذابِ في مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ، كَقوله تَعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ [الإسْراءُ: 69]، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّارياتُ: 41]، ولَم يُستعمَل مَعَهُ البَعْثُ.

وأظْهَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ ما ذَكَرَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغَرْناطيُّ مِنْ أنَّ الفِعْلَ (أرْسَلَ) أخَصُّ في بابِ الإرْسالِ مِنَ البَعْثِ؛ "إذْ لا يُقالُ: أرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ مَعْنى الانْتِقالِ حَقيقَةً أوْ مَجازًا، أمّا (بَعَثَ)؛ فَأوْسَعُ؛ فَإنَّهُ يَقَعُ بِمَعْنى الإرْسالِ، وبِمَعْنى الإحْياءِ، ومِنْهُ: البَعْثُ الأُخْراويُّ"(2)، وممّا تقدّم يظهر أن لفظ إرسال الرّسل في الآية أنسب من لفظ بعثهم؛ لأنَّ التعبير بهم في الآية مقرون بالرسالة التي بُعِثوا بها، والآيات والبيّنات التي صاحبت إرسالهم من كتاب، وميزان، وغيرهما.

القِسْطُ والعَدْلُ:

القسط: هو العدلُ الظّاهِرُ البيِّنُ

(القسط): هو العدْلُ الظّاهر البيِّن الذي يمكِنُ إدراكُهُ بالحِسِّ والمشاهدَةِ، لا مجرّد العدْلِ الباطنيّ أو النّظريّ، ومنه سُمّي المكيالُ قسطًا والميزان قسطاسًا؛ لأنّه يصوّر لك العدلَ في الوزنِ حتّى تراه ظاهرًا، وقد يأتي مِنَ العَدْلِ ما كان خافيًا(3).

واستُعمِلت مفردة (القسط) في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنّ الآية تُشير إلى أنّ الله تعالى أرسَلَ رُسُلَهُ بالبيّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، وهي أدوات توصِل إلى إقامة عدلٍ حقيقيّ في حياة النّاسِ، يُرى في المعاملات والأحكام والموازين

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.
(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 428.

والحقوق، فالمطلوب مِن النّاس ليس معرفةَ العَدْلِ أو الإيمان به حسبُ، بل تحقيقُه واقعًا ظاهرًا، وهذا ما يُعبَّر عنه بالقِسْطِ، فاختيار هذا اللّفظ يؤكّد أنّ الغايةَ مِنَ الرّسالات الإلهيَّة أن يُقام العَدْلُ الذي تتحقق به مصالح النّاس في حياتِهم، وتُصان به حُقوقُهُم، لا أن يَبْقى العدل أمرًا نظريًّا.

القويّ والقادِر:

القـويُّ مَـن لا تـنـفَـدُ قُـدْرَتُـه، فـهـو أبـلـغُ مِـنَ القادِرِ

(القويُّ): هو مَن يَقْدِرُ على الشّيء، وعلى ما هو أكثرُ منهُ، ويملكُ فَضْلَ قُدْرَةٍ يتجاوزُ الفعل ذاته، بخلاف (القادرِ) الذي قد يَقْدِرُ على الشّيء بحدِّ طاقته دون زيادة[1]، ومن هنا يُعْلَمُ سببُ اختيارِ النَّظم القرآنيِّ لِلَفْظِ ﴿قَوِيٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ إذِ المقصود بيانُ أنّ قدرة اللّهِ تعالى لا تحدّها حدود، وأنّه يفعَلُ، ولا يَنْفَدُ مِن قوّتهِ شيءٌ، بل تبقى قدرتهُ كاملةً مُطْلَقَةً، وهذا يتناسب مع سياقِ صفاتِه العُليا، فجاء التّعبير بـ﴿قَوِيٌّ﴾؛ للدّلالة على عظمة الشّأن، وكمال القدرة، واستمرارِها بلا نقص، ثُمّ قُرِنتْ بـ﴿عَزِيزٌ﴾؛ تأكيدًا لهيبتهِ وغلبَتِهِ التي لا تُقهَر.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 438.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ [الحديد: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من إجمالِ الرّسالات إلى تَفْصيلِ ميراثِ النّبوةِ في ذرّيّةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

بعد أن ذكَر سُبْحانَهُ في الآية السّابقةِ إرسالَ الرُّسُل مؤيَّدين بالبيّنات، محمَّلين بالكتاب والميزان، ومنَحَهُم ما بهِ تقومُ الحجّةُ، وتثبت الدّعوة؛ فصّل في الآية ذلك الإجمالَ[1]، فخصّ بالذّكر نوحًا وإبراهيمَ عليهما السلام؛ إذْ هما أصلان عظيمان في سلسلةِ النّبوّات، ثُمّ بيَّن أنّه جعلَ في ذرّيَّتهما ميراثَ النُّبوَّة والكتاب، فاستمرَّ في أعقابِهما نورُ الوحي والهداية، فجاءت الآيةُ الأولى بإجمالِ إرسالِ الرّسل بالكتُب، وجاءت الثّانية بتفصيلِ ذلكَ؛ بذِكْرِ أبرز المُرْسَلين وميراث الرّسالة في أعقابِهم؛ ليَظْهَرَ جليًّا اتّصالُ السّلسلة النّبويّة وانتظامُها في حكمتِه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: اسمٌ مؤنّث، جذره اللّغويّ: (ذرر)، والذّال مع الرّاء المشدّدة أصلٌ واحدٌ يدلّ على اللّطافة والانتشار، والذَّرُّ: صغار النّمل، وأنْ تأخُذَ المِلْحَ بأطراف أصابعك، فتذرّه على الخبزِ، ومِن هنا أُخِذَتِ الذُّرّية، فإنَّه تعالى نثَرَهُم على الأرضِ[2]، ومَن ذهَب إلى هذا الأصلِ جعل الذّريّة من الذّرّ؛ إذِ استَخرَجَ اللّهُ تعالى ذرّيَّة آدمَ مِن ظَهْرِه كهيئة الذّرّ حين أشْهَدَهُم على أنْفُسِهم[3]، ويُقال: ذَرَّ اللّه الخلق في الأرض، أي: نشرَهُم نشرًا دقيقًا مسترسلًا، وذرّية الرّجلِ:

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 214.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذرا).

أولاده[1]، وأصلُ الذّرّيَّة: الصِّغارُ مِنَ الأولاد، ثُمَّ غلب استعمالُها في المُتَعارَفِ على الصّغار والكبار جميعًا، وتأتي للواحدِ وللجَمْع[2]، وإن كان أصلُها الجمعَ، ومعنى ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ في الآية موضع الشّاهد: نِسْل نوحٍ وإبراهيم ﷺ، فصار أكثرُ الأنبياءِ والرّسل من ذرّيَّتهما، وبِهِما ارتبطت سلسلة الهدايَةِ في الأمم[3].

2) ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾: مصدر للفعل (نَبا يَنْبو)، وجذره اللّغويّ يجوز أن يكون من: (نبو) أو مِنْ (نبأ)، ومعناه: الخروج والطّلوع، يقال: نبا على القوم؛ إذا طلَعَ عليهم، والأصل في النّون والباء والحرف المعتلّ في لسان العرب: دلالتُه على الارتفاع عن الشَّيء، أو التّنحّي عنه، وإذا كان مهموزَ الآخِر؛ فمعناهُ: الإتيانُ من مكان إلى آخرَ، كالخبر الوارد من مكانٍ إلى مكان[4]، والنَّبيُّ في لسان العربِ هو العلَمُ من أعلام الأرض يَهْتَدي به السّائرون، ومِن هذا المَعْنى سُمّي النّبيُّ نبيًّا، فهو أرفَعُ خلقِ اللّهِ تَعالى مكانةً، وهو المُبلّغ عن اللّهِ تعالى، ولفظُ النَّبيِّ بغير همزٍ أبلَغُ؛ إذ ليسَ كلُّ مَن يُنَبِّئُ يكونُ رفيعَ القَدْرِ والمحلّ، فالنّبيُّ ارتفع قدرُه على سائر الخلق، وتشرَّف عليهم، والنّبوَّة: سفارَةٌ بين اللّه تَعالى وبين ذوي العقول من عبادِهِ؛ لإزاحة عِلَلِهِم في أمر معادهم ومعاشهم[5]، وهو معنى النّبوّة في الآية الكريمة.

3) ﴿مُّهۡتَدٍۖ﴾: وصفٌ على وزن (مُفْتَعِل)، من الجذر اللّغويّ: (هـدي)، ومنه اشتُقّ لفظ الهدى الذي هو نقيض الضّلالة وضدّها، ومن معانيه: البيان والإرشاد بإخراج الشّيء إلى غيره، وكذلك: الطّاعة والورع، والدّلالة إلى الطّريق، وهذا المعنى يقوم على أصلين اثنَيْن، أوَّلُهما: التَّقدُّم للإرشاد، وثانيهما: بعثة لطف، وهما متقاربان في الدّلالة، والمتقدّم هو الهادي، والهُدى يتضمّن معنى التَّلطُّف في الدّلالة، ومنه جاءت الهداية في الآخرة إلى الجنّة، وبيان الوجهة إمّا بالتّقدُّم، وإمّا بالكشف[6]، ومعنى ﴿مُّهۡتَدٍۖ﴾ في النّصِّ الكريم: مستجيبٌ للحَقِّ[7]، منقادٌ لهَدْيِه، قابل لما دُعيَ إليه مِن إيمان ورَشادٍ.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرو - ذرى).
(2) الراغب، المفردات: (ذرو).
(3) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 459.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدي).
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 545.

4) ﴿فَٰسِقُونَ﴾: جَمْعُ سلامةٍ للمذكَّر، مفردُهُ: فاسِق، وأصله من الجذر اللّغويّ: (فسق)، ويقال: فَسقتِ الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت من قِشْرِها، والفسق: أن يترُكَ المرءُ ما أَمَرَ اللّهُ تعالى به، ويميلَ إلى المعاصي، ومنه الفِسْقُ، وهوَ الخروجُ عن الطّاعة[1]، ويُطلَق لفظُ الفاسق على مَن التَزَمَ حُكْمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثُمّ خرج عنه قليلًا أو كثيرًا، ويُطْلَقُ أيضًا على الكافر الأصليّ، باعتبار إخلالِهِ بما تَقْتَضيهِ الفطرَةُ، ويدلّ عليه العقل[2]، ومعنى ﴿فَٰسِقُونَ﴾ في النّصّ المبارك: ضالّون قَد خرجوا عن طاعة اللّهِ تَعالى، وانحرفوا إلى معصيتِه[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ اختصاصِ ذرّيّـــةِ نـوحٍ وإبـراهـيـمَ عليهما السلام بالنُّبوَّة

ولقد بَعَثْنا نوحًا أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، ثمّ أتبعناهُ بإبراهيمَ خليلِ الرّحمن، وجعلنا في نَسْلِهما موضعَ الاصطفاء، فخصَصْنا ذرّيَّتَهُما بالنُّبوَّة وميراث الكتابِ، فكانت فيهم مشاعلُ الهداية، ومصابيح البيان، غيرَ أنّ حالهم لم يَسْتَوِ على سواءٍ، ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ﴾ منقادٌ للحقِّ، مستجيبٌ لدعوة الرّسل، مستقيمٌ على أمر اللّهِ تَعالى، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ قد تخلّوا عن طاعةِ ربِّهم، وخرجوا عن جادّة الحقِّ، فانحَرَفوا عن سواءِ السّبيلِ، فاستَحَقّوا الذَّمَّ والخذلانَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ العطف في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

بيانُ مكانةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، وفَضْحُ انحرافِ المُشْرِكينَ

قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ معطوفٌ على جُمْلَةِ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وهو من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لبيانِ التَّفصيل بعد الإجمالِ إظهارًا لمكانة نوحٍ وإبراهيمَ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(2) الراغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 545.

ﷺ، وكشفًا عن شدَّة انحراف المشركين مِنَ العرَبِ واليهود عن مَنْهَج أبوَيهِم العظيمَين[1].

بلاغة التوكيد بـ(اللّامِ)، و(قد):

الإرسالُ حقيقةٌ جليلةٌ راسخَةٌ

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هي لامُ جوابِ قسَم مقدَّر[2]، و(قد) حرفُ تحقيقٍ[3]، دخل على فعل الإرسال ليحقّق الوقوعَ، مستفيدًا من دلالةِ المُضيِّ في الفعل الذي يدلّ على وقوعِهِ وانتهائِه، والتّقدير: واللّهِ لقَد أرسلنا نوحًا وإبراهيمَ[4]، فبعثة هذين النَّبيَّيْن ليسَت أمرًا عابرًا، بل هيَ حقيقَةٌ جليلَةٌ راسخَةٌ، قُرِنَت بالقَسَم وحرف التحقيق لزيادَةِ التَّقْرير، وإلزام السّامعين بالإذْعانِ لَها، وتأكيد الثُّبوتِ المطلقِ للبَعْثِ، وإزالة كلِّ شكٍّ حول حقيقةِ ما أُرسِل به هؤلاء النَّبيّونَ.

سِرُّ تكرارِ الفِعْل ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

إظهارٌ لعظيمِ مقامِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

كُرِّرَ فعل الإرسال؛ لأنّه جاء تفصيلًا لبعضِ الإجمال[5]؛ وذلك لبيانِ خُصوصيَّة هذَيْنِ النّبِيَّيْنِ ومكانتهما بين الرّسل، ويُظهر كيف أعرضَ عَنْ مَنْهَجِهِما بعضُ العربِ واليهودُ، فجاء التّكرارُ للتّأكيدِ والتّخصيصِ.

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ الإرسالِ إلى ضَميرِ العظَمَةِ:

عظمةُ الإرسالِ، وجلالُ المرسِلِ، وعلوُّ مكانةِ المرسَلِ

أُسنِدَ فعل الإرسالِ إلى ضمير العظمَةِ (نا) في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وهي راجعةٌ إلى اللّه تعالى المتّصف بالكمال والجمال والجلال[6]، فدلَّ ضميرُ العظمةِ على عظمة فِعل الإرسالِ وجلال المرسِلِ سُبحانَهُ، ورفعةِ مكانةِ المُرْسَل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 419.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2403.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 625.
(5) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

دلالَةُ تكرارِ القسَمِ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

كُرِّرَ القسم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، بعد ذِكْرِهِ في صَدْرِ الآيةِ قبلها: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ لإظهار مزيدِ الاعْتِناءِ بالأمْرِ، والمعنى: واللّهِ لقَد أَرْسَلْناهُما[1]، وفيه تشديدٌ على حقيقة البَعْث، وإبرازُ عِظَمِ شأنِ النّبيَّيْن الكريمَيْن.

كمالُ العنايةِ وتأكيدُ البَعْثِ، وإظهارٌ لعظمَةِ الأنبياءِ

توكيدٌ مضاعَفٌ يُرَسِّخ حقيقة الإرسالِ:

وفي تكرار القسمَ مبالغةٌ في التَّوكيد[2]؛ إذْ يُضاعِف القسَمُ قوَّةَ الخبر، ويشدِّد على حقيقة الإرسال، ويثبت في الأذهانِ عظمة بعثةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام.

سِرُّ تخصيصِ نوح وإبراهيمَ بالذِّكر:

خُصَّ نوحٌ وإبراهيمُ عليهما السلام بالذِّكْرِ دون غيرهما مِنَ الأنبياء والرُّسل تشريفًا لَهُما، وإظهارًا لعظَمَتِهما ومكانتهما؛ ولأنَّهما من أوائل الرُّسُل الذين أسَّسوا منهجَ الهِداية، وأرسوا قواعدَ الرّسالة[3].

تشريفٌ في الذِّكر لا يُجارى، ومكانةٌ في الرّسالة لا تُبارى

ولّما عَمَّ الرُّسلَ قبلُ جامعًا لهم في البيّنات؛ كان السّامع جديرًا بأن يتوقَّع التّعيينَ؛ فاختير من بينهم نوحٌ وإبراهيمُ عليهما السلام؛ لأنَّ ذلك أنسبُ لمقصود السّورة في بيان فضل محمّدٍ صلى الله عليه وسلم الذي عمّت رسالتُه الجميعَ، ولم يكن لأحدٍ غيرُه مثلُ هذا العموم، فجاء نوحٌ عليه السلام مرسلًا لأهل الأرضِ؛ لكونِهم على لسانٍ واحد، وعمّ إبراهيم عليه السلام بأولادِه عليهم السلام، ثمّ نُصَّ بعدهما على عيسى عليه السلام؛ لما له مِن عموم الرّسالة إلى بني إسرائيل بالنَّسخ والتَّشريع[4].

تمهيدٌ لبَيانِ فَضلِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم

ويجوز أن يكونَ التخصيص؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام أبو البشر، فقد جاء بعد آدم عليه السلام، وأمّا إبراهيمُ؛ فهوَ أبٌ أخصُّ؛ إذ هو أبو

أبوَّةُ نوحٍ إبراهيمَ محلُّ اتِّفاقِ المللِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 213.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

الأنبياءِ، وخُصَّ بالذّكر لاتّفاقِ المِلَلِ عليه، وللإيماءِ إلى موافقةِ شريعَتِه لشَريعَتِنا[1].

تـوازنٌ بين شدَّة نـوحٍ وصلابتـهِ ولـينِ إبراهيـمَ ورقَّتِهِ

والتخصيص أيضًا؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام كان في غاية القوَّة والشّدَّة، وإبراهيمَ عليه السلام في غاية اللّين والسُّهولةِ، وهكذا هم أولياءُ كلِّ زمان، بعضهم يميل إلى القوَّة والصَّلابةِ في التّمسُّك بالحقِّ، وبعضُهم يميل إلى الرّقّة واللّين في الدّعوة[2]، فجاء التَّخصيصُ؛ ليُبيّن التّوازُنَ في سنن الهداية ومظاهر اختلاف الأنبياء في الصّفاتِ.

سِرُّ تقديم نوحٍ على إبراهيم عليه السلام:

نـوحٌ عليه السلام الأب الثّاني للبَشَريّة، وإبـراهـيـمُ عليه السلام أبٌ للأنبياءِ

تقديم نوحٌ عليه السلام على إبراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ راجع إلى الزَّمان؛ إذ إنَّ واو العطفِ - في أحدِ معانيها - تعطف الشَّيءَ على لاحقه[3]، ونوحٌ عليه السلام هو أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، والسّابق زمنًا في الرّسالة، فهو الجدُّ الأعلى، والأبُ الثّاني للبشريَّةِ[4]، فكان تقديمُه إعلاءً لشأن البِدايات والأصول، في حين أُخِّرَ إبراهيمُ عليه السلام في الذِّكر، وإن عَظُمَ شأنُهُ؛ لكونه الأبَ الجامع الذي انتسبَت إليه سلسلةٌ عظيمة من الأنبياء، وصار معظَّمًا في جميع الشّرائع[5].

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ وصف الرّسل مع فعلِ الإرسالِ:

تـشـريـفُ نـوحٍ وإبـراهـيـمَ عليهما السلام وتفخيمُ شأنِهِما

ذُكِر الاسمانِ الشّريفانِ مُباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ دون ذكر لفظِ (رسلَنا)، فلم يقل: (ولقد أرسلنا رسُلنا نوحًا وإبراهيمَ)؛ لأنَّ المقصود هنا ليس مجرَّد الإخبار عن الإرسالِ، بل إبرازُ مكانَتِهما في سِجلِّ الرّسالة، وإظهارُهما عَلَمَين

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 148.
(4) رضا، تفسير المنار: 7/ 488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 114.

بارزَيْنِ في مسيرة النُّبوَّة، فلا يُحتاجُ معَهُما إلى تكرار لفظِ (رُسُلَنا) الذي يوحي بالجَمْعِ العامّ ابتداءً ثمَّ تخصيصُهُ بالتَّنصيص على اسمَي النَّبيَّيْنِ الكريمَيْن، بُل حُذِف تشريفًا وتفخيمًا لهما، وتنصيصًا على استقلاليَّة موقعهما في تاريخ الهِداية، فنوحٌ فاتحة الرّسالات العظمى بعد حدوثِ الشِّرْكِ، وإبراهيم أبو الأنبياءِ وموئِل المِلَل، فكان ذِكْرُ الاسم مؤذنًا بإشعاع حُضورِهِما في الذِّهن بلا حجابٍ، ولتَقَعَ العظمَةُ على السّامع صريحةً جليّةً.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

تكريمُ اللهِ تعالى لَهُما بامتِدادِ الرِّسالَةِ في عَقِبَيْهِما

عُطِفَ فِعْلُ الجَعْلِ في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على فِعْلِ الإرسالِ[1]؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكماليْن؛ فإنَّ الجملتينِ متَّحدتان خبرًا، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فكلتا الجملتينِ فعليَّةٌ ماضويَّةٌ، اتَّحد فيهما المسنَدُ إليهِ، وأمّا في المعنى؛ فإنَّ تعقيبَ جملة الجَعْلِ بعد جملةِ الإرسالِ يدلّ على أنّ إرسال الرّسل لم يكن مقصورًا على بعثةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام حسبُ، بل تَبِعَهُ تكريم إلهيّ آخَرُ؛ هو تثبيت النّبوّة في عَقِبَيْهِما، وكأنَّ الجعل جاء مكمِّلًا للإرسال، ومؤكِّدًا امتدادَ الرِّسالة عبر الزَّمنِ والأنسابِ.

سِرُّ التَّعبير بفِعْلِ الجَعْلِ ماضيًا:

تصيير النُّبوَّة في الذُّرِّيَّة تدبيرٌ مُحْكَمٌ وتمكينٌ متتابِعٌ ووعاءٌ حافِظٌ

الجَعْلُ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: التّصيير[2] الذي يفيد التَّحويل من حالٍ إلى حال، فكأنَّ الله سبحانه قد صيَّر النُّبوَّة والكتاب قرينة راسخةً في نَسْلِ نوح وإبراهيم عليهما السلام؛ ليَشيَ بأنَّ هذا التَّخصيصَ لَم يكُن عطاء عابرًا أو منحةً طارئة، بل كان تدبيرًا ربّانيًّا مُحْكَمًا، وتقديرًا إلهيًّا ثابتًا مُتتابِعًا في أصلاب

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

ذُرّيَّتِهما، وذلك يُضْفي معنى التّمكينِ والتّثبيت، فالنّبوّة لم تُلقَ إلقاءً، بل أُنْشِئَت إنشاءً، وصوّرت فيهم تصويرًا؛ ليكونوا وِعاءَها الحافظَ، ومَعْدِنها الذي لا يزولُ، والتَّعبيرُ بفِعْلِ الجَعْلِ يُبيّن إسنادَ النّعمةِ وإيداعَها لَهُم، أيْ: إنَّ اللّهَ تَعالى استَنْبَأهُم، واختارَهُم، وأوحى إليهِم الكتابَ والنُّبوَّة[1]، فجاء هذا الفعلُ؛ ليُظْهِرَ التّقديرَ الإلهيَّ لهَذِهِ النِّعَم، ولتَحْويلِها إلى نصيبٍ ثابتٍ لَهُمْ.

تفضيلٌ ربّاني ومنحةٌ إلهيَّةٌ باختيارٍ حكيمٍ، لا بطَبْعٍ ولا وراثةٍ لازمَةٍ

وفي التّعبير بفعل الجَعْلِ أيضًا إشارةٌ إلى تفضيل اللّهِ تعالى ذرّيّةَ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام بالنّبوّة والكتاب[2]، وهما منحة إلهيّة، وتكريم ربّانيّ، أُنزلا عليهم باختيارٍ حكيم، لا بطَبْعٍ فيهم، ولا وراثةٍ لازمَةٍ.

وعُبِّر بفعل الجَعْل ماضيًا دونَ المُضارع؛ لبيانِ أنّ الأمْرَ واقعٌ ومتحقّق بالفعْل؛ إذْ يُفيدُ الفعلُ الماضي وقوعَ النّعمَةِ وتحقُّقَها للذّريّة المذكورَة.

دلالَةُ إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَة:

تعظيمُ الجَعْلِ وفاعِلِهِ، وتفخيمُ شأنِ النُّبوَّةِ ومَنْ جُعِلت فيهم

أُسْنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ للإشارَةِ إلى تعظيم الذّات الإلهيّة، وإظهارِ الجلال والكمال[3]، فاللّهُ تعالى يُعبِّر عن فِعْلِه بصيغة الجمع لا للتّعدد؛ للدّلالة على عظمة القدرة، وكمال السّلطانِ، فكان في هذا الإسنادِ تعظيمٌ للجَعْلِ ولفاعِلِه، وتعظيمٌ لشأنِ الأمر المجعولِ، وهو النُّبوَّةُ، وتعظيمٌ للمجعولِ فيهم، وهم ذرّيَّةُ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، فكان هذا تعظيمًا مضاعفًا من جميع الجهاتِ.

دلالَةُ استعمال حَرْفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ دونَ (اللّام):

احتواءٌ حقيقيٌّ للنُّبوَّة والكتاب مُتَغلغلٌ في الذُّرّيَّة

عُبِّر بحرف الظّرفيَّة ﴿فِي﴾ دون اللّامِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾؛ لما توحي إليه مِنَ الاحتواءِ والوُجود

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.

(2) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 202.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

داخلَ الذّرّيَّة لا مجرّد الاختصاصِ أو الانتماءِ الخارجيِّ، والمعنى: أنَّ النُّبوَّةَ والكتاب متحَقِّقان فيهِم بالفِعْلِ، سواءٌ أكان ذلك بالأصالةِ أم بالتّبعيَّةِ، فالكتابُ يوحى للأنبياء مِنْهُم، فيعمّ ذرّيّةَ إبراهيمَ عليه السلام التي هيَ مِن ذرّيّة نوحٍ عليه السلام، ويشمل الأمرُ أولادَهُ ومَن تَبِعَهُم مِنَ الأنبياءِ، كموسى وداودَ وعيسى ورسولنا محمَّدٍ ﷺ، فجاءت الظّرفيّةُ توضيحًا لمَعْنى جَعْلِ النّبوَّةِ فيهِم[1].

إظهارُ تحقُّق النّبوّة في المُختارينَ مِنْهُمْ بحسَبِ مشيئة الله تعالى وحِكْمَتِه

وفي جعل الذُّرّيَّة ظرفًا للنّبوّةِ دلالةٌ على أنّ النّبوّة متحقّقة في بعضٍ مِنْهُم لا في جَميعِهِم بالضّرورة، أي: إنَّ اللّه تعالى اسْتَنْبَأَ بعضًا من ذرّيَّتهم؛ ليكونوا حامِلين للنُّبوَّة والكتاب[2]، فجاءت الظّرفيَّة لتحقّق ذلكَ في المُنْتَخَبين منهُم بحسبِ مشيئةِ اللّه تعالى وحكمته البالغةِ.

سِرُّ التّعبير بالذُّرّيّة دون الأبناءِ أو النّسْلِ:

الإشارةُ إلى تعاقُبِ النُّبوَّة في الذُّرّيّةِ على امتدادِ أزمِنَتِها

استُعْمِلَ لفظُ الذّرّيّة دون الأبناء أو النّسل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ لكونه أعمَّ وأشمل، فالذرية تشمل الأولاد وما يتبعهم من أحفاد إلى نهاية النسل، بما فيهم ولد البنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84]، إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 85]، فإنما هو من ذريته من قبل أمه؛ لأنَّه لا أب له[3]، أمّا النسل؛ فلا يدخل فيه ولد البنات، وأمّا الأبناء؛ فيختصّون بأولاد الرّجلِ وأولاد أولادِهِ الذّكور على وجه التّكريم، ومن هنا ففي التّعبيرِ بالذُّرّيّة دلالة على استمرار النِّعمة، وانتشار النُّبوَّة والكتاب عَبْرَ الزّمنِ؛ لأنَّه أوسع وأدقُّ في بيانِ الامْتِدادِ البَشَريِّ والرّوحي الذي نُشِرت فيه الرّسالات، وظهرت فيه النُّبوَّة والكتابُ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 474.
(2) محي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 94.

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

تخصيص الفَضل وتَشريفُ النَّسَبِ

أضيفَت الذُّرّيَّة إلى الضَّمير العائدِ إلى نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾(1)؛ لإفادَةِ تخصيص النّبوّة والكتاب في نَسْلِهما، فما جاء نبيٌّ بعدَهُما إلّا مِن أولادهما(2)، وفي ذلك إشارةٌ إلى شرَفِ النّسَبِ، ودوام الفَضْلِ الإلهيّ في عَقِبِهما المبارك.

بلاغَةُ تقْديمِ شبه الجملة: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

اختصاصُ النّبوّة في نَسْلِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

قُدّم شبه الجملة ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ - وهو المفعول الثّاني - على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ - وهو المفعول الأوّل - (3)؛ لإفادة معنى القصْرِ والتّوكيد؛ إذ لم يأتِ بعدهما نبيٌّ يحملُ رسالة السّماء إلّا وهو من سلالَتِهما(4)، فكان التّقديمُ إيذانًا بحَصْرِ النّبوّة في نَسْلِهِم المبارك، وتوثيقًا للرّابطة بين مقام النّبوّة وأصلِهم الكريم.

دلالَةُ التّعبيرِ بالإفراد (ذرّيّة):

النّاس بعد الطّوفانِ كلُّهم من ذرّيّةِ نوحٍ عليه السلام

في استعمال المفردِ (ذرّيّة) دون الجمع (ذرّيات) لطافةُ إيجازٍ ورهافةُ معنًى، فلفظ (ذُرّيّة) في لسان العرب يُستَعْمَلُ مرادًا به الجمعُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، وقد يُستعمَلُ للواحد، كما في قوله تعالى حكايةً عن قول زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]، وفي إيثار المفردِ إيماءٌ إلى أنَّ ذرّيّتَهما واحدةٌ؛ إذ إنَّ النّاسَ بعد الطّوفانِ كلَّهم من ذرِّيَّةِ نوحٍ عليه السلام، كما دلَّ عليه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات: 77].

دلالة تثنية الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

استِقلالُ كلٍّ من نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام بالكرامة الرّبّانيّة

أُضيفَ لفظُ الذُّرّيَّة إلى ضمير التَّثنية الرّاجع إلى نوحٍ وإبراهيمَ

(1) القنوجي، فتح البيان: 13/ 423.
(2) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 496.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(4) محي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.

عليهما السلام في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، مع أنّ ذرّيّة إبراهيمَ عليه السلام هي ذرّيّةٌ لنوحٍ عليه السلام؛ إذِ البشَرُ كلُّهم بعدَ الطّوفان كانوا مِن ذُرّيّتِه، ووجهُ الإضافةِ إلى ضميرِ التّثنيةِ هو الإشارَةُ إلى استِقلالِ كلٍّ مِنَ النَّبيَّيْنِ الصّالحين بالكرامة الإلهيَّة لَهُما ولذُرّيَّتِهما.

في ذرّيَّة نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام الأنبياء والرّسل

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ معرفةً دونَ الرِّسالَة:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دون الرّسالةِ؛ لأنّ مَن أُكْرِموا مِن ذُرّيَّتِهما ليسوا كلُّهُم رسلًا، بل فيهم أنبياءُ حسبُ، فكان لفظُ النّبيِّ أصدقَ وأشمَلَ، ففي اختيارِ لفظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دلالةٌ على عمومِ الاصطِفاء، و(أل) في لفظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ أنَّ اللّه تعالى جعل في ذرّيَّة نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام النُّبوَّةَ، وهي الوحيُ الإلهيُّ الخاصُّ.

العنايةُ بعلوِّ المَنْزِلَةِ لا بِخُصوصِ الأفرادِ

سِرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلَفْظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دون لَفْظِ (الأنبياء)؛ لأنَّ المَقْصودَ هو بيان المنزلةِ نَفْسِها لا تعداد أصحابِها، فالنُّبوَّةُ وصفٌ للوحيِ الإلهيِّ[1]، وما يُفيضُهُ من هدايَةٍ، بخلافِ الأنبياءِ فَهُم الذين يَحْمِلونَ هذا الشّرفَ.

إظهارُ تَمامِ النِّعْمَةِ وكمالِ المِنّة

دلالَةُ عطفِ (الكِتاب) على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾:

عُطِف (الكِتاب) على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾؛ للكَشْفِ عن تمامِ النّعمة، وكمالِ المنّة؛ إذْ لَم يقتَصِر الفضلُ على مَنْحِ النُّبوّة وحدَها، بل جُعِلَ معَ النُّبوَّةِ كتابٌ منزّلٌ يُتلى، ويُعْمَلَ به[2]؛ ليكون دليلًا وشاهدًا وحجّةً قائمةً على الأمم، فهو جَمْعٌ بين مقامِ الاصْطِفاءِ بالوحيِ، ومقامِ التّوريثِ للشَّريعَةِ.

بلاغة تقديم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على (الكتاب):

قُدِّمَتِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على (الكتابِ)؛ لأنّها الأصل الذي تُبْنى عليه

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.
(2) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.

الرّسالاتُ، فلا كتابَ إلّا بنبيٍّ سابقٍ يتلقّى الوحيَ، ويحملهُ إلى النّاس، فالنّبوّة أساسُ المقام ومفتاح الرّسالة، وإنّما لم يُقدَّم الكتاب؛ لأنّ كمال حالِ النّبيّ أن يَرْقى من الاصطفاءِ المجرَّدِ بالوَحْي إلى مَقام صاحبِ الكِتاب والشَّرْع[1]؛ ليَكْتَمِلَ بها كيانُ الرّسالة، وتتمَّ نعمَةُ التّشريعِ.

النّبوّةُ أساسُ المقام ومفتاح الرّسالة

سِرُّ التّعبيرِ بلفظ الكِتابِ مُفْرَدًا:

جاءَ التّعبيرُ بلفظ (الكِتاب) مفردًا؛ لأنّ المرادَ بهِ الجِنْسُ، فيعمُّ كلَّ كتابٍ مُنَزَّل[2]، فهو وإن كان مفردًا في اللَّفْظِ، إلّا أنّه في معنى الجَمْعِ، والمرادُ الإشارةُ إلى جنسِ الكتابِ لا تعدادُ الكتاب أو التّفصيل فيها، فيكونُ اللّفظُ شاملًا التّوراةَ والإنجيلَ والزّبورَ والفرقانَ وسائرَ الكتبِ السّماويّة[3].

(الكتاب) جنسٌ يشمَلُ كُلَّ كتابٍ منَزَّلٍ

وجوَّزَ بعضُ أهل العلم إفراد لفظ (الكتاب)؛ لأنَّ المرادَ به الخطُّ بالقلم[4]، فهو وسيلَةُ التّدوينِ والتّوثيقِ التي تُنقل بها المعارف والشّرائع، فلا يَقِفُ المعنى عند الكتبِ السّماوية حسبُ.

الخطُّ بالقلَم وسيلةُ توثيقٍ وتَدْوينٍ

دلالَةُ التّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمِنْهُم﴾:

الفاء في ﴿فَمِنْهُم﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على السَّبَبيّة[5]، فالاهتداءُ نتيجة لهذا الاصطفاءِ الإلَهيِّ، والمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى لمّا جعل النُّبوَّة والكتابَ في ذريَّة نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، فمِنْهم مَن اهتدى بسببِ ذلك، ومِنْهُم مَنْ خرَجَ عن أمرِ اللّه تعالى وطاعتِهِ مع توفُّرِ أسبابِ الهدايَةِ، فكانَتِ الفاءُ رابطةً بينَ السّبب والمُسَبَّب.

بيانُ أنّ الهدايةَ نتيجة للاصطفاءِ الإلهيِّ بالنّبوّة والكتاب

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 472.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(5) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 202.

حقُّ التَّفصيلِ أن يَرِدَ بعدَ الإجمالِ

ويجوز أن تكونَ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٍۖ﴾ للتّعقيب في الذّكر، أي: لتفصيلِ ما أُجْمِلَ قبلُ؛ إذْ إنَّ حقَّ تفصيل المجمل أن يُذكرَ بعد ذكر الإجمال[1].

معنى (مِن) في القيد (منهم):

قلَّةُ المهتدينَ؛ لغلبة الهَوى على أكثرِ الخَلْقِ

(مِنْ) في شبه الجملة ﴿فَمِنۡهُم﴾ دالٌّ على التّبعيض[2]، الدّالّ على الانتقاء مِن بين الذّرّيّة أو مِنَ المرسَل إليهم[3]، وعلى أنَّ المهتديَ هم بعضُ الذين أُرسلَت إليهم الرُّسُلُ، فمَعَ عِظَمِ الهدايةِ الكامنةِ في النُّبوَّة والكتابِ إلّا أنَّ المهتديَ قليلٌ؛ لغلبةِ الهَوى على كثيرٍ مِنَ الخَلْقِ، وأنَّ المُهْتَدين هُم من ذوي الأصل المبارَكِ، والمُرْتَبطين بالنُّبوَّة والكتابِ.

فائدة التّعبير بشبه الجملة (مِنْهم):

إظهارُ القدرَةِ الإلهيَّةِ، فالهدايةُ والإضلالُ بيدِ اللهِ تعالى

لَمّا كان مظهَرُ العظمة الإلهيّة يَقْتضي إشقاءَ مَن أراد اللّهُ تَعالى إشقاءَهُ دونَ مبالاة بحالِ أحدٍ؛ ليُظهر أنّ الهدايةَ والهلاك بيدِ اللّهِ تَعالى وحدَهُ، فلا يأمن أحدٌ مِنَ الوقوعِ في الخسران، ولا ييأس أحدٌ، فيلزمه الهوانُ؛ جيء بالقيد (مِنۡهُم) في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٍۖ﴾[4] جمعًا بينَ العُموم والخصوصيَّة؛ للدَّلالةِ على شُمولِ الاختيارِ الإلهيّ وعدالةِ القضاءِ الرّبّانيِّ.

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ في قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

اختزال بليغٌ وتركيزٌ دقيقٌ

قول اللّهِ تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٍۖ﴾، أي: "فمن ذرّيتهما مُهتدٍ إلى الحقّ مستبصرٌ"[5]، وقد جيء به مضمرًا لقُربِ العَهْدِ بمرْجِعِه، ولأنَّ الإضمارَ هنا يُضْفي على الكلام إيقاعًا أكثرَ اختزالًا وتركيزًا.

(1) محيي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 360.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.

سِرُّ عدمِ ذِكرِ القِلَّةِ والكثرةِ مع ﴿مُّهۡتَدٖۖ﴾:

شرفُ الهدايةِ لا يُقاس بالعدَدِ

لم يوصَف المهتدي في قول اللّهِ تَعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ بقلّةٍ ولا بكَثْرَةٍ، مقابل وصف الفاسقين بالكثرة؛ للإشارة إلى أنّ الهداية منزلةٌ عظيمَةٌ لا تُقاس بالعدد، بل تُقاس بالصّفاء والصّدقِ، فكأنّ المهتدين هُم الصّفوة الذين لا يُحتاج إلى تَعْدادِهم؛ إذْ يكفي شرفُ الهِداية بذاتِها، بخلاف الفسقِ؛ فلِكَثْرَةِ وُقوعِه وانتشارِه اقتضى البيانُ أن يُذكَر معهُ لفظ الكثرةِ ﴿وَكَثِيرٞ﴾؛ لإظهارِ تَفشّي الانحرافِ على الرّغم مِن وجود أنوارِ النُّبوَّة والكتابِ في الذُّرّيَّة.

دلالَةُ التّعبيرِ بلفظ الهِداية دون الإيمان:

الهدايةُ سلوكُ طريقِ الحقِّ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ وصْفَ المهتدي دون المؤمنِ؛ لأنَّ هَذا الوصف له عنايةٌ بالنّتيجة العَمليّة وهي سلوكُ طريقِ الحقّ، فالمهتدي هوَ مَن ظهَرَت آثارُ الإيمانِ في سُلوكِه وتصرُّفاتِه، والتَّعبيرُ بوصف الهداية أنسب لذِكْرِ مقابلِه، وهو الفِسْقُ؛ إذ الفسقُ خروجٌ عن الطّاعة، فكانت الهدايةُ سلوكَ سبيلِ الحقِّ والانقيادَ إليه.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿مُّهۡتَدٖۖ﴾:

انقيادٌ كامل للحقّ، وهدايةٌ متجذّرَةٌ في النّفس

عُبِّرَ بلفظ ﴿مُّهۡتَدٖۖ﴾ دون (هادٍ)؛ لكونِه أدقَّ وأبين وأنسبَ للمقام؛ إذ الهادي يدلُّ على مَن يملك دلالةَ غيرِه، بخلاف المهتدي؛ فإنَّهُ يدلّ على استقامة العَبْدِ في ذاتِه، وانقياده الكامل للحقّ، فتظهر الهدايةُ أثرًا باطنيًّا متجذِّرًا، مستمسكًا بالعهْدِ، لا يزيغ عن طريقِ الأصفياء، وإن كان من نسلِ الأعداءِ[1].

تمييزُ مَن قَبِلَ الهدايةَ ممَّن رفضَها

وأيضًا فإنَّ اختيار لفظِ ﴿مُّهۡتَدٖۖ﴾ فيه عنايةٌ بالفَرْدِ بوصفه منتفعًا بالهداية، لا فاعلًا لها، ممّا يناسب السّياق الذي يُبيّن حال ذرّية نوح وإبراهيمَ ﵉، ويُفرّق بين من استجاب للهداية، ومَن فسق عنها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.

فالمقام مقامُ تمييز بين من قَبِل الهداية ومَن رفَضها، لا مقام دعوةٍ أو تبليغ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسم ﴿مُّهۡتَدٖۖ﴾ دون الفعل:

الهدايَةُ المَحْمودُ أصحابُها ما كانَت مُستَقِرَّةً مُداوَمًا عَلَيْها

عُبِّر بالاسم في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ﴾ دون الفعلِ؛ لدلالةِ الاسمِ على الثُّبوت والاستمرارِ، أي: إنَّ مِنْهم مَن اهْتَدى، وثبَت على دينِه، واستمرَّ على ذلكَ[1]، بخلاف الفعلِ الدّالِّ على الحُدوث، فالاسْمُ أدلُّ على الاستمرارِ والدَّوام مِنَ الفِعْل، فكانَ هَذا الوصفُ توكيدًا لاستقرارِ الهدايةِ وثباتِها فيهم.

دلالَةُ استِعْمالِ الواوِ في ﴿وَكَثِيرٞ﴾:

بيانُ التَّقابُلِ بين فريقَي المهتدينَ والفاسقينَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ عاطفَةٌ ما بعدها على جملةِ: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ﴾؛ لتأكيد معنى البَعضيَّةِ[2]، وبين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخبريَّةِ، ولما بينَهما من المُناسبةِ لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفظِ؛ فلاتِّحاهما في الاسميَّةِ، وأمّا في المعنى؛ فلما فيهما مِنَ التَّضادِّ والتَّقابُل بين المهتدينَ والفاسقينَ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الكثرة مع الفاسقين:

بيانُ الغَلَبَةِ في العَدَدِ للفاسِقينَ مع إبـرازِ شَرَفِ الهِدايَةِ

استُعْمِلَ لفظُ الكثرة مع الفاسقين، ولم يَستَعمِلْهُ معَ المُهْتَدي، فلَم يُسَوِّ بين الطّرفين بأن يقولَ: (فمنهم مهتدٍ، ومِنْهُم فاسقون)؛ لأنَّ المرادَ الإشارةُ إلى أنَّ الغلبَةَ عَدَدًا في الذّرّيّة للفسّاق[3]، مع الإشارة إلى أنَّ الهداية لم تَخْلُ فيهم، فاستوعب اللّفظُ الذُّرّيَّةَ الموصوفة بسلوكِ طريقِ الحقِّ وبالانحرافِ عَنْهُ[4].

ذمُّ مَن زاغَ بعد تذكيرِه بالكتُبِ والرّسل:

وفي التّعبير بلفظ الكثرةِ أيضًا إشارةٌ إلى الذَّمِّ؛ إذ إنّ مَن زاغ

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 534.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 481.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.

بَعْدَ تذكيرهِ بالكتُبِ والرُّسُل؛ كان مستحقًّا للمبالغة في الذّمّ، ولو كان واحدًا، فكيف إذا كان كثيرًا؟.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَكَثِيرٌ﴾:

بيانُ شُيوعِ الفِسْقِ وغلَبَتِه

الفاسقون في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هُمُ الخارجونَ عن طاعة اللّه تعالى ورسله ودينه، وجاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾، ولم يقل: وأكثرهم فاسقون؛ إذ إنَّ (أكثر) على وزن (أفْعَل)، وهي تدلُّ على زيادةٍ عدديَّةٍ تفوقُ الكثرةَ المُعْتادَةَ، بخلافِ لفظِ (كثير)، والمقامُ ليس مقامَ مقارنَةٍ، بل لوصْفِ غلبَةِ الفسْقِ وشيوعِهِ، وحتّى يوصَفَ بالفِسْقِ لا بدَّ مِن تبليغِهِ أوّلًا والعلم؛ لأنَّ من الفسقِ ما يكونُ عن قصد وعلم، ومنْهُ ما لا يكون كذلك[1].

دلالَةُ إعادَةِ ذِكْرِ القيد ﴿مِّنْهُمْ﴾:

إظهارُ شدَّةِ التّبايُنِ في تلقّي الوحي المَنَزَّلِ

أُعيدَ شبه الجملة ﴿مِّنْهُمْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيّة جليلة؛ إذ لو اقتصَر النّصُّ على قوله: (وكثير فاسقون)؛ لاحتمل أن يكون الفِسْقُ من غيرِهم، فجاءَ تكرار (مِنْهم)؛ لتدلَّ على أنّ الكثرة الفاسقة مِنْهُم هُم بأعيانِهم، لا مِن سواهم، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة التَّبايُنِ في استقبالِ الوحي المنزَّلِ؛ فمِنْهم مَن أقبل عليه، وانقادَ، ومِنْهُم من أعرضَ عَنْهُ، وحادَ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ الضّلالِ:

مَن خرجَ عَنِ الهدايَةِ بَعْدَ العِلْمِ بِطَريقِ الحَقِّ يستحقّ الذمَّ

عُبِّر بلفظ الفسقِ دون الضّلالِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، مع أنّه مقتضى الظّاهرِ؛ لتقدُّم لفظِ الهداية، وعُدِلَ عنه إلى الفسْقِ؛ لأنّ الفسق هو الخروج عن الاهتداء بَعْدَ العِلْم، فلا يُقال عنه: ضلالٌ مُطْلَقٌ، فلو عُبّر بلفظ: (ومنهم ضالّون)؛ لم يُفْهَم مِنْهُ إلّا أنَّهم لم يسلكوا طريقَ الحقِّ من غير بيانِ نوعِ هذا الضّلالِ، أكان عن علمٍ وقصْدٍ أمْ كان عن خطأٍ وذهولٍ؟

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 360.

فلمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ عُلِمَ "أنَّهم خرجوا من الطَّريق المستقيم بعد أن تمَكَّنوا من الوصول إليه، وبعد أن عرفوهُ حقَّ المعرفَة، وهَذا أبلَغُ في الذَّمِّ وأشَدُّ في الاستهجانِ لِعَمَلِهِم"[1].

سِرُّ العُدولِ عَن سَنَنِ المقابلة:

المبالغة في الذمّ لشدَّةِ انحرافِهم عن الصِّراطِ المستقيم

في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عدولٌ بلاغيٌّ عن سَنَنِ المقابلة؛ إذ كان يُتوقَّع ذِكْرُ (ضالّ) لُمقابلَةِ المُهْتَدين إلى استعمالِ تعبيرِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ دليلًا على المبالغة في الذَّمِّ، فإنَّ الانحراف عن الصِّراط المُستَقيم قَد يكونُ بعدَ الدُّخول فيه أو لا، فالتَّعبير بالفِسْقِ - وهو خروجٌ - لتنزيلِ تَمَكُّنهم من الدُّخول فيه منزلَةَ الدُّخول فيه حقيقةً، فكأنَّهُم دَخَلوا، ثُمَّ خَرَجوا ارتدادًا، وهَذا مَنْشَأُ المُبالَغَةِ في الذَّمِّ، وفي هذا العدولِ أَيْضًا تسجيلٌ عَلى أَهْلِ الضَّلالِ[2].

دلالَةُ التّعبيرِ بالجَمْعِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

بيانُ عِظَمِ شأنِ المُهْتَدين وحقارةِ الفاسِقينَ

إفرادُ المُهْتَدين وجَمْعُ الفاسقينَ يُشير إلى تمايُزٍ جوهريٍّ في طبيعة كلِّ فريقٍ، فالمهتدون ذواتٌ مُتَّصِفون بشخصيَّة متميّزة، يوزَن الفردُ منهُم بميزانِ الذّهب، ويُحْسَبُ بحساب الجواهِرِ الكريمَةِ، جوهَرَةً جَوْهرة، ممّا يؤكِّد على قيمةِ النَّوْعيَّة والجَوْدَةِ الفَرْديَّة، وفي المقابل فإنَّ أهلَ الضّلال - وهُمْ غثاء كغثاءِ السَّيل - يُحْسَبون حِساب الحطَب، ويعدّون عدَّ الحَصى[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعل ﴿فَٰسِقُونَ﴾ دون الفعلِ (يَفْسُقون):

تأصُّلُ الفِسْقِ فيهم، واستمرارُهم عليه

جاءَ التَّعبيرُ بِاسْمِ الفاعل ﴿فَٰسِقُونَ﴾ بدلًا من الفِعْلِ المُضارِعِ (يفسقون)؛ للدَّلالَةِ عَلى الثّبوتِ والرُّسوخ، ممّا يعني أنَّ صفة الخروجِ عَن طاعةِ اللّهِ تَعالى صار حالًا ثابتَةً مستمرَّةً ومتأصِّلَةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 184، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 496.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 474.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 792.

فيهم، ويتجسَّد هذا الثّبوت في أعمالِهم المُتَمَثِّلة في تَرْكِ نُصوص كتُبِهم وتَحْريفها، وإيثار آراءِ الأحبار والرُّهبان على كلام اللّه تَعالى، وارتكابِ ما نُهوا عنه(1).

بلاغَةُ تَذْييلِ الآيةِ بِذِكْرِ المُهْتَدين والفاسقينَ:

مواساةُ النّبيِّ ﷺ بذِكْرِ حالِ الأُمَمِ السّابقةِ مَع أقوامِهم

في تذييل الآيةِ بِذِكْرِ فَريقَيِ المُهْتَدين والفاسقينَ توجيهُ رسالةٍ إلى الرّسول ﷺ؛ إذ تخبره أنَّ حال قومهِ الذين انْقَسَموا بين تابعٍ ومُعْرِضٍ لَم يكن بدعًا من الأمر، فقد كان في قوم الرُّسُل السّابقين مَن اتَّبعوا رُسُلَهُم فصاروا مُهْتَدين، ومنهم من ترك اتِّباعهم، وخرجَ عَن أمر اللّه تَعالى، فصاروا فاسِقينَ، وبذلك يسكُنُ قَلْبُه، ويَصْبِرُ على عِنادِ قومِه؛ فالموقفُ كلّه يؤكّد لهُ أنّه ليس أوّلَ مَن كُذِّب، وعونِد(2)، وبذلك يَجِدُ تسليتَهُ في أنَّ آباءَه من الأنبياء قَد جرى لهم معَ أقوامِهم مثلُ ما جَرى لَهُ(3).

بيان المُتَشابَه اللّفْظي مع آيَةِ العَنْكبوتِ:

التَّصرُّفُ في إفرادِ الضّميرِ وتثنيَتِه مراعاةً للسّياقِ

قال اللّهُ تعالى هنا: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، ووجه الاختلاف بين الآيتين في إفراد الضَّمير وتثنيَتِه؛ وذلك لاختلاف سياقِ الآيتينِ، ففي آية العنكبوتِ كان السّياق قد افتُتِح بذِكْرِ إبراهيمَ عليه السلام وحده، في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [العنكبوت: 27]، فناسب ذلك أن يأتي الضّميرُ مفردًا في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، أمّا في آية الحديد؛ فقد بُدِئت الآية بِذِكر نبيَّيْن معًا في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾، فلمّا تعلَّق السّياقُ بِهما كِلَيْهما؛ جاء الضّمير بصيغةِ التّثنية المناسبة لهما

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 156.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾[1]؛ ليصبح التَّعبيرُ دقيقًا وموافقًا لعدَدِ الأنبياء المذكورينَ في صَدْرِ كلِّ آيةٍ مِنْهُما.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِسْق والكُفْر:

الفِسْقُ خروجٌ عن طاعة اللهِ تَعالى، وهو بريدٌ إلى الكُفْرِ

يقَع الكُفْرُ "على ضروبٍ مِنَ الذّنوب، فمنها: الشّرك باللّه، ومنها الجَحْدُ للنّبوّة، ومنها استحلال ما حرّم اللّه، وهو راجِعٌ إلى جحد النّبوّة"[2]، أمّا الفسق؛ فهو "خروج مكروه، ومنهُ يقال للفأرة: الفوَيْسِقَة؛ لأنَّها تخرُج مِن جُحْرِها للإفساد... ومنه سمّي الخروج من طاعة اللّه بكبيرةٍ: فِسْقًا، ومن الخروجِ مذمومٌ ومحمود"[3]، وعبّر اللّه تعالى في قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ بالفِسْقِ؛ لأنَّه خروج عن الطّاعةِ، وهو أعمُّ مِنَ الكُفْرِ، وأدقُّ في الدّلالة على حال أهل الكتاب في السّياق؛ إذ لم يكونوا كلُّهم كفّارًا، بل خرج كثير منهم عن طاعة اللّه تعالى بعد أن عرفوها، ففسدوا سلوكًا وعقيدة، فجاء التّعبير بالفسق؛ ليشمَلَ هذا الانحرافَ التّدريجيَّ، وليكونَ تحذيرًا للمؤمنين من أن تَسْلُكَ قلوبُهم الطّريق نفسَهُ نحوَ القَسْوَةِ والبعدِ عن الحقّ، فالفِسْقُ هنا يعبّر عن بدايةِ الانحدار لا عَن الكُفْرِ الصَّريح حسبُ.

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 858.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 405.

﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَسَلْسُلُ الهِدايات وتكامُل الرِّسالات

لما كان مِن مقاصد هذه السّورة العظمى الإعلامُ بنَسْخِ الشَّرائع السّابقة كلِّها بشريعة هذا النَّبيِّ الخاتَم، المبعوثِ برسالةٍ عامَّة للثَّقلين؛ أتى سبحانه بذِكْرِ نوح وإبراهيمَ وذريَّتِهما، مُبَيِّنًا ما أودَعَ في أعقابِهما مِنَ النُّبوَّة والكِتاب، ثُمَّ أَرْدَفَهُ بأداةِ التَّراخي الدّالَّة على عظمة التَّرتيب وعلوِّ المنزلة، فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[1]؛ ليشير إلى استمرار موكب الرِّسالات، وتعاقُبِ الرُّسل واحدًا إثْرَ آخَرَ، فالآية الأولى إجمالٌ لامتدادِ النُّبوَّة في عَقِبِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، والثّانية تفصيلٌ لمَسيرَتِها حتّى بَلَغَتْ عيسى عليه السلام؛ تمهيدًا لخاتِمَةِ الشَّرائع بشريعةِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَفَّيۡنَا﴾: فعلٌ ماضٍ مضعَّف، وجذره اللّغويّ من: (قفو) أو (قفي)، وهو أن يَتْبَعَ شيءٌ شيئًا[2]، ومنه: القَفْوُ، فيقال: قَفَوْتُ أثرَه، أي: تَبِعْتُه، وسُمّيت قافيةُ البيتِ؛ لأنَّها تَقْفو سائرَ الكلام، أي: تتلوه، وتَتْبَعُ آخرَه، ومن هذا الباب أيضًا: القفا، وهو مؤخّر الرّأس والعنُق، كأنّه يقفو الوجهَ، ويَتْبَعُه من خلف[3]، والمعنى المحوريّ للجذر: هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.

(2) الخليل، العين: (قفو).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قفو)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قفي)، والهروي، الغريبين: 5/ 1571.

اللّحاق بخلفِ الشّيء مِن أعلاه، ومنه سمّي الذّنبُ والقفا والقافية؛ لاتّصالها بما يتقدّمها مِن خلف، ومن هذا البابِ قولُهُم: قفاهُ يقفوه، أي: تبعَ أثرَهُ مِن ورائه[1]، وهو معنى ﴿قَفَّيۡنَا﴾ في النّصّ الكريم[2].

2) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: جمعٌ مكسّر، مفرده: (أثر)، وجذره اللّغويّ: (أثر)، ومعناه: بقيَّة ما يُرى من كلّ شيء، وهو أيضًا: الخبر، و"الهمزة والثّاء والرّاء له ثلاثة أصول: تقديم الشّيء، وذِكْرُ الشّيء، ورسمُ الشّيء الباقي"[3]، وأثَرُ الشّيءِ: أن يحصُلَ ما يدلّ على وُجودِه فعلًا، فالطّريق الذي يستدلّ به على ما تقدّم يُسَمّى أثرًا، ويُقال: خرج في إثْرِه، أي: بعدَهُ، وائتثَرهُ وتَأثَّره: تَبِعَ أثره[4]، والمعنى المحوريّ: هو البقيَّة أو العلامة التي تبقى من جُرْمِ الشَّيء ثابتَةً خَلْفَه، كالآثار الباقية من الشّيء بعدَ زواله، ومِن هذا المعنى استُعْمِلَ أيضًا للدّلالةِ عَلى المجيءِ بَعْدَهُ زمنًا، أي: ما يلي الشّيءَ بعدَ انصرام وقْتِه، أو مرورِ أثره[5]، ومعنى ﴿قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ في الآية محلّ الشّاهد: أرسَلْناهُم واحدًا في إثْرِ واحدٍ[6] مُتَّبعين سبيلَهُم في الدّعوة والهداية[7].

3) ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾: مصدرٌ صِناعيٌّ، والجذر اللّغويّ مِنْهُ: (رهب)، ومنه: الرّهبة، يُقال: رهبتُ الشّيءَ أرهبُه، أي: خِفْتُه، وارْتَعَبْتُ منه، والتَّرهّب: الانكباب على التّعبّد والاعتزال للتّقوى والزّهد، والأصل في الرّاء والهاء والباء في أكثر تصاريفها: دلالَتُها على الخَوْفِ، ومنه: الرّاهب، وهو المتعبِّدُ في الصَّوْمَعَة، فإنَّ الّذي حَمَلَهُ على التّعبُّد خوفُه، والرَّهبة المخافَةُ مع التَّحرّز والاضطراب[8]، وقيل في تعريفِها: إنّها الإمعان في الهرَبِ والفرار من المكروه[9]، والرّهبة: خوف مقرونٌ بالعمَلِ، ومنه: الرّاهب، وهو عابد النّصارى، وسمّي بذلك

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قفو).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 190.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (أثر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثر).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 305.
(7) الخازن، لباب التأويل: 4/ 252.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (رهب).
(9) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 508.

لأنَّ الذي حمَلَهُ على الانقطاع إلى العبادةِ الخوفُ مِنَ اللّهِ سبحانه[1]، ومعنى ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ في الآية الكريمة: اعتزالُ النّاسِ، والانقطاع للعبادَةِ، والتَّفرُّغ للطّاعةِ والتّقوى[2].

4) ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾: فعلٌ مزيدٌ على وزن (افْتَعَلَ)، مُسْنَدٌ إلى ضمير الجماعة، وجذره اللّغويّ: (بدع)، ومعناه: إيجاد شيءٍ لَم يكُن موجودًا من قبل، ومن هذا المعنى: أبدع اللّهُ السّماواتِ والأرضَ؛ إذْ لَم يكونا شيئًا، ولم يَخْطُر على بالِ أحَدٍ، والباء والدّال والعين: تدلّ تصريفاتُها على بَدْءِ الشّيءِ وصُنْعِه دون الاعتماد على مِثالٍ أو نَموذَجٍ سابِقٍ، والابتداع: إنْشاءُ عَيِّنَةٍ مِن غير تقليدٍ أو محاكاة[3]، والمعنى المحوريّ: إيجاد الشّيء جديدًا على غير أصلٍ سبَقَ له[4]، ومعنى ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ في الآية الكريمة: أحدثوها من عند أنفسِهِم، ولم يأذَن بها اللّهُ تَعالى في شَرْعِه.

5) ﴿رَعَوۡهَا﴾: فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ إلى ضمير الجماعة، والجذر اللّغويّ مِنْهُ: (رعي)، ومنه: الرّعاية، وهو النّظر إلى ما يصير مِن أمْرِ الرَّجُل، ورعى اللّهُ تَعالى فلانًا، أي: دعوتَ له بالحِفْظِ والرِّعايَةِ، ورعيتُ لَهُ عَهْدَهُ وحقَّهُ بعده أو فيما خلّف، أي: التزمتُ حِفْظَ ما عليهِ تُجاهَهُ، وأرعيتُهُ سَمْعي؛ إذا أصغيت إليه، وانتبهت لكلامه، والرّاء والعين والحرف المعتلّ له أصلان، أحدهما: المراقبة والحفظ، والآخر: الرّجوع، ومِنَ الأوّل قولهم: رعيتُ الشَّيءَ، أي: رقبته وراقبته، وورعيتُه؛ إذا لاحظته، وعُنيت به، مراعيًا أحواله[5]، والرّعاية والمراعاة تَعْنيان الانتباهَ لَمصالح الإنسانِ وتَدْبيرِ أُمورِهِ، والاهتمام بما يُحَقِّق خيرَهُ، ويَصونُه من الضّياع أو الضّرر[6]، ومعنى ﴿رَعَوۡهَا﴾ في الآية الكريمة: لم يقوموا بما التَزَموا بِهِ حقَّ القيامِ بها، ولم يحافظوا على واجباتِها كما يَنْبَغي[7].

(1) الفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (رهب).
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 246.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدع).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدع).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رعي، رعى).
(6) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعى).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 189.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تلقّي الرِّسالاتِ بينَ صِدْقِ الأوائلِ وزيغِ المتأخِّرين

يقول المولى سبحانه: ثمَّ أعقبنا على آثار أولئك المرسلين برُسُلٍ آخرين، فكان في طليعتِهم عيسى بنُ مريمَ ﵇، وآتيناه الإنجيلَ كتابًا منزَّلًا بالهداية والنّور، وجعلنا في قلوبِ أتباعِهِ الأوائل - وهُم الحَواريّون - رقَّةً تخشَعُ بِها أفئِدَتُهم، ورحمةً يسَعُ بها عطفُهم الخلقَ، غير أنَّ أُمَّتَهُ ابتدعوا رهبانيَّة لَم نَشرَعْها لَهُم، وإنَّما ألزموا أنفُسَهُم بها ابتغاءَ مرضاةِ اللّهِ تَعالى، فما وفَّوا بما أوجَبوه على أنفُسِهم حقَّ الوفاء، فاستَحَقّوا الملام مِن وجهَيْن، أحدهما: ابتداعُهم في الدّين ما لَم يأذَن به اللّهُ تعالى، والآخر: إخْلالُهُم بما التَزَموا بهِ زَعْمًا أنَّه قربة، فأكرَمْنا المُؤْمنين الصّادقين مِنْهُم، فآتَيْناهُم أجْرَهُم، وأمّا أكْثَرُهم؛ فَحادوا عَنِ الحَقِّ، وكَذَّبوا، وخالفوا، وكَفروا برسالةِ مُحَمَّد ﷺ، فكانوا فاسِقين خاسِرينَ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الواوِ في قوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾:

تـدرُّج الـهدايةِ في أطوارِ الدَّعوةِ وتربيَةِ الأُمَمِ عَبْرَ الزَّمانِ

اختيرت ﴿ثُمَّ﴾ دون الواو مع فعل التَّقْفيَة؛ لِما تُفيدُهُ ﴿ثُمَّ﴾ مِن التّراخي والمُهلة الزّمنيَّة؛ إشارةً إلى أنَّ إرسال الرّسل كان مُتَتابعًا على مهل في أطوارِ الدّعوة، وتدرُّج الهداية، لا على سبيلِ التّوالي المُتَقارب كما توحي به الواو، في تعبير بليغ عن حكمة التّأنّي الإلهيّ في تتابع الرّسل، ومراعاة مُقْتَضى التّمهّل في تربيةِ الأمم، وتكميلها على مرِّ الزّمانِ(2).

التَّنويهُ بمنزلةِ النّبيِّ الخاتَمِ ﷺ وشَريعَتِه

ولَمّا كان مِن مَقاصِدِ هذه السّورةِ العُظمى الإعلامُ بنَسْخِ الشّرائع كلّها بشريعة هذا النّبيِّ الخاتمِ؛ جاء التّعبيرُ بحرف العطْفِ الدّالِّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 188 - 189.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

على التّراخي ﴿ثُمَّ﴾[1]؛ إشارةً إلى عِظَمِ الإرْسالِ وجلالةِ المُرْسَلين، وتنويهًا برفيعِ مَنْزِلَتِهم.

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿قَفَّيۡنَا﴾:

تَتابُعُ الرُّسُلِ عَلى الأثَرِ يَحْمِلونَ نورَ الهِدايَةِ

معنى فعل ﴿قَفَّيۡنَا﴾: أَتْبَعْنا، وعقَّبنا، فأصلُ التّقفية للشّيءِ: اتِّباعُهُ لغَيْرِه ومَجيئُهُ على إِثْرِ ما قَبْلَهُ، كأنّه يُقفى، ويُتْبَع أثرُه، فالأنبياء والرّسل ساروا على هذا الأسلوب، فاللّاحقُ منهم يقفو أثَرَ السّابق، ويسيرُ على طريقهِ؛ إذ كانوا جميعًا على طريقِ اللّهِ تعالى يَحْمِلون نورَ الهِدايةِ[2]، فالمراد بـ: ﴿قَفَّيۡنَا﴾ متابعةُ أثَرِ مَن سبَق من الرُّسل بعد أن مَضى زمَنُه، فيُرْسِلُ اللّهُ تَعالى كلَّ رسولٍ بعدَ سابقِه في سياقٍ متتابعٍ حتّى انتهى إلى أيّام عيسى ﵇، فأرسلَهُ اللّهُ تَعالى بعدَهُم، وآتاهُ الإنجيلَ[3].

دلالَةُ التّعبيرِ بالفعل ماضيًا مضعّفًا:

تحقُّقُ إرسالِ الرُّسلِ على وجهٍ متتابِعٍ مكثَّفٍ يتعاقَبُ فيه الرُّسُلُ بعهدِ النُّبوَّةِ

استُعمِل الفِعْلُ الماضي ﴿قَفَّيۡنَا﴾؛ للتَّأكيدِ على أنّ إرسالَ الرّسلِ المُتَعاقِبين هو سنّةٌ إلهيّة محقّقة وثابتة قَد وقعَت في الأُمَمِ السّابِقَة، ممّا يُعطي الخبرَ صفةَ اليقين، وأنَّهُ حقيقةٌ لا تقبَلُ الشّكَّ.

والتّضعيف في الفعل ﴿قَفَّيۡنَا﴾ يدلُّ على التّتابع والتّكثيفِ والتَّكرار والتَّعزيز، أي: أرسلنا رسولًا يتبَعُ رسولًا من غير انْقِطاعٍ، فجاء كلٌّ مِنْهُم يتبَعُ الآخَرَ، ويَقْفوه[4] مؤيِّدًا لِمَن قبلَهُ، موصولًا بعَهْدِ النّبوّة، في سِلْسِلَةٍ متلاحقة من الهداية والرّحمةِ.

دلالَةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العظَمَةِ:

تعظيمُ شأنِ الإرسالِ والمرسِلِ والمرسَلينَ

أُسْنِدَ فعل التَّقفية ﴿قَفَّيۡنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ (نا)؛ لإفادَةِ تعظيمِ هذا الجنْسِ مِنَ الإرسالِ، وتفخيم شأن المُرْسَلينَ، وفيه أيضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 792.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 473.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.

دلالةٌ على علوّ شأن الفاعِل، وهو اللّه تعالى، فجاء ضميرُ العظمةِ مشيرًا إلى جلال اللّه تَعالى وعظمته، بما له من السّلطان والحكمة التي تفوق الوصفَ[1].

دلالَةُ التّعبير بحَرْفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

من رحمة الله تعالى لعباده كثرةُ المرسلين لهدايتِهم

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستِعْلاءِ، وأصل "قفّى على أثره" يدلُّ على قُرْب الماشي الثّاني مِن أثَرِ الأوّل، أي: حضَر الماشي الثّاني قبل أن يزولَ أثَرُ الماشي الأوَّل، فشاع ذلك حتّى صار قولهم: (على أثَرِه) بمعنى بعدَه بقليلٍ أو متّصلًا شأنُه بشأنِ سابقِه[2]، فكان هذا إيماءً إلى كثرةِ الرُّسُلِ الذين أرسلَهُم اللّهُ تعالى إلى العبادِ لهدايتِهم.

رفعَةُ مَقامِ الرُّسُلِ وسموُّ الرّسالات المتعاقبَةِ

واستعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ يحمِلُ دلالةً تفوقُ مجرَّدَ التّتابُع؛ إذ يوحي الحرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بالاستعلاءِ المَعْنَويِّ، والمكانة الرّفيعة للرُّسُلِ، وأنّ الرّسل الجدد جاؤوا ليحلّوا محلّ من سبَقَهُم، حاملين مقامًا عاليًا من الهدى والنّور فوق ما تركوهُ من آثار، مؤكّدين بذلك هيمنةَ الرّسالة الجديدة وسموَّها على ما قبلها، مع كونها امتدادًا لها.

إفادةُ الاستعلاء والتّمام في تراكم الرّسالات على آثار السّابقينَ

وتعديةُ فعل ﴿قَفَّيۡنَا﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ واردٌ لإفادة الاستعلاءِ والتّمام، فكأنّ إرسال الرّسل الجدُدِ جاء متراكمًا فوق آثارِ الرّسل السّابقين، ومتّجهًا لتحقيق غاية كاملة هي إتمامُ الدّين، وإظهارُ معنى الاستمرارِ التّكامليّ، والارتقاء فوق مسيرةِ الرّسالات السّابقة.

سِرُّ التَّعبير بمفردة ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾:

استمرارُ الأثَرِ الظّاهِرِ في إرسالِ الرُّسُلِ وتتابُعِهم

استُعْمِلَ مفردة ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ دون طريقَتِهم أو هديهم؛ لأنَّ لفظ الآثار فيه تصويرٌ للاتِّباعِ المعنويِّ في صورةٍ حسّيَّةٍ، فالأثَرُ لا يَزال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 420.

يُرى، أي: أرسلنا الواحدَ تِلْوَ الآخَر مِن غيرِ فاصلٍ زمنيّ طويلٍ، فقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: على آثار نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام بزمَنٍ يسيرٍ[1].

دلالَةُ جَمْعِ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾:

تـعـدُّدُ وجـوهِ الاتِّـبـاعِ في آثـار الرُّسُلِ

في التّعبير بالجمعِ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ دلالةٌ على تعدُّدِ وجوهِ الاتِّباع من أقوالٍ وأفعالٍ وسُنَنٍ، لا أثر واحد، وفي هذا الجمْعِ إشعارٌ بِشُمولِ الهِداية واستمرارِ الرِّسالَةِ على مَساراتٍ مُتَعَدِّدة من ذُرّيَّةِ الأنبياءِ.

إشعارٌ بشُمولِ الأنبياءِ الأخيارِ، مِـن نـوحٍ وإبـراهـيـمَ ومَـن تقدَّمهم

والجمعُ دالٌّ أيضًا على أنّ الله تعالى أراد أن يشمل نوحًا وإبراهيمَ عليهما السلام ومَن مضى من الأنبياء[2]، فكان اختيارُ الجَمْعِ مبيِّنًا اتّصالَ دعوةِ الرُّسُلِ وتتابعهم على طريق واحدٍ يشعُّ مِنْهُ نورُ الهِدايَةِ.

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تعدُّد مَن سبَقَ مِنَ الرّسل، لا إلى نوح وإبراهيمَ عليهما السلام، ولا إلى الذّرّيّة المذكورة، فالجمعُ يُفْصِحُ عَن أنّ التّقفية كانت على آثارِ جماعَةٍ من الأنبياء ممّن مَضى قَبْلَ عيسى عليه السلام، ويُؤكّد أنّ الضّمير لا يعود على الذّريّة[3]، بل على مَن تقدَّمهم مِنَ الرُّسُلِ.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾:

إفـادةُ معنى الاخـتـصـاصِ وتشريفِ المضافِ إليهِ

الإضافةُ في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ تدلُّ على معنى الاختصاصِ، فالرّسُلُ الذين يُقْتَفَى أثَرُهم هُم من ذريَّةِ نوح وإبراهيم عليهما السلام، والمعنى: ثمّ قفّينا على آثار هؤلاء الرّسل، وليس على آثار الذّريّة كلّها، فلا يصح أن يقال: قفّينا على آثار ذريَّتِهما بذُرّيَّتِهما؛ إذ يلزم حينئذٍ تعقيبُ الشّيء على نَفْسِه[4]، وفي الإضافةِ معنى التَّشريفِ للمضافِ إليه، وأنَّ الرُّسُلَ اللّاحقينَ إنَّما جاؤوا مقتَفينَ آثارِ أنبياءَ عظامٍ.

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 361.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 442.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.

(4) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 475.

دلالَةُ الإضافَةِ إلى ضَمير الجَمْعِ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾:

تعظيم مقام النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ: نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

أضيفَ لفظُ الآثارِ إلى ضمير الجَمْعِ في قوله: ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾، مع أنَّ المذكورَ قبلَهُ مُثَنّى - وهو نوحٌ وإبراهيمُ عليهما السلام - ؛ إمّا لأنّ المثنّى يُعامل أحيانًا معاملةَ الجَمْعِ في الضّمائرِ[1]، وإمّا أنّ أقلّ الجَمْعِ اثنانِ[2] ممّا يُضفي على الآية سعَةً في الاتِّباع، وتنوُّعًا في الآثارِ.

فضلًا عن أنَّ التّعبيرَ بالجمع فيه مَعْنى التّعظيم[3]؛ إذ جُعِلَ نوحٌ وإبراهيم عليهما السلام في مقام الجَمْعِ؛ لِما لَهُما من علوِّ المنزلة، وكثرة الفضائِلِ.

بلاغَةُ التَّعبير بجملة ﴿قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ عَنْ إرسالِ الرُّسل:

توالي الرّسلِ مقتفين آثارَ مَن قبلَهُم

التّعبيرُ بجُمْلَةِ ﴿قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يدلُّ على أنَّ اللّهَ تعالى أرسَلَ الرّسل واحدًا في إثْرِ واحِدٍ بينَ ما لا يُحصى من الخلق مِنَ الكفَرَةِ، محروسين منهم في الأغلَبِ بما تَقْتَضيه العظمَةُ، فلا يزولُ أثَرُ الأوّلِ حتّى يُرسَل الذي بعدَهُ في قَفاه، فكلُّ رسولٍ يَسيرُ بين يَدَي الذي بعدَهُ، واللّاحق يقفو أثر السّابق[4]، فهذا التّعبير يحمل معنى التّتبع الدّقيق، والتّعاقب الحكيم في إرسال الرّسلِ.

دلالَةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِرُسُلِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِرُسُلِنَا﴾ صِلةٌ، و(رسل) مجرور لفظًا منصوبٌ محلًّا[5]، وقد جيءَ بالباءِ؛ لإفادة توكيدِ التَّقفيةِ وتعزيزِ اتِّباعِ آثار الأنبياءِ السّابقين وإرسالِ الرّسل.

دلالَةُ الإضافَةِ في قولِه: ﴿بِرُسُلِنَا﴾:

الانتساب إلى اللهِ تعالى شرفٌ لا يُقادر

أضيفَ لفظُ الرُّسُل إلى ضمير العظَمَةِ (نا) في قولِه: ﴿بِرُسُلِنَا﴾؛ تعظيمًا للمضافِ وتشريفًا له؛ فكانَت الإضافةُ دالَّةً على شرفِ الانتسابِ

---

(1) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7334.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.
(3) الكوراني، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، ص: 100.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.

إلى اللّهِ تَعالى، فهُم حزبُ اللّهِ تَعالى وخاصَّتُه، ممّا يوجِبُ تَوْقيرَهُم، ويُثْبِت أنَّهم تحتَ حمايةِ اللّهِ تَعالى وعِنايَتِه، فهي إضافةٌ تدلُّ على الاصْطِفاء والتّكريم، فهُم رسلُ اللّهِ تَعالى، وهو الذي يتَكَفَّل بِحِفْظِهِم ونُصْرَتِهم بما تَقْتَضيهِ العظمَةُ[1]، ولو كانوا وسط ألوفِ المُعانِدينَ.

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾:

تثبيتُ المَعْنى وتأكيدُهُ، والإيماءُ إلى التَّتابُعِ القريبِ

عُطِفَ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بالواو؛ لأنَّه قد أُعيدَ فِعْلُ التَّقْفيَةِ في المعطوفِ؛ تأكيدًا للمعنى وتثبيتًا لَهُ، ولذا عُطف بالواوِ دونَ ﴿ثُمَّ﴾[2]، فالعطفُ بالواوِ يَحْمِلُ معنى التّتابع القريبِ قبل أن تزولَ آثارُ السّابقين وتدرس[3]، بخلاف ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد المهلة والزّمن بين الأحداث.

سِرُّ إعادَةِ فِعْلِ التَّقفيةِ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾:

تثبيت لمعنى التّتابع الرّسالي وترسيخ لسنّة الإرسال الإلهي المتكرّرة

أُعيدَ فعلُ التَّقفيةِ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ مع سبْقِ ذِكْرِهِ في المعطوفِ؛ تأكيدٌ على المَعْنى وتثبيتٌ لَهُ[4]، في تعزيز دلالةِ تتابع الرّسل على آثار السّابقين، وتؤكّد أنَّ اللّه تعالى أرسلَ الرّسل على وجْهٍ مستمرٍّ متتابعٍ.

عيسى عليه السلام أعظَمُ رُسُلِ بني إسرائيلَ بعْدَ موسى عليه السلام

وقد خصّ اللّهُ تعالى عيسى عليه السلام بالذِّكر؛ لكونِهِ أعظَمَ مَن جاء بعدَ موسى عليه السلام مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، وهوَ المؤيّد لَهُ في تجديدِ دينِه وتقريرِ شريعتِه، وكان الزّهد والرّأفة والرّحمة في تابعيهِ في غايَةِ الظّهور، مع أنّ ذلك لَم يَمنَعْهُم من القسوة النّاتجة عن طول الأمَدِ والإعراضِ عَنِ الآياتِ والكِتاب، فلمّا كان ذلكَ كذلكَ؛ أُعيدَ الفعلُ[5]؛ لتأكيد التّتابُعِ الإلهيّ للرّسلِ وإبرازِ المكانة الخاصّة لعيسى عليه السلام في مسيرة الهداية.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 168.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 168.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِعِيسَى﴾:

توكيدُ بَعْثِهِ ورفعُ مكانتِهِ في سلسلة الرِّسالة الإلهيَّة

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِعِيسَى﴾ صِلَةٌ، والاسم العلَمُ (عيسى) مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا؛ إذ هوَ مفعولٌ به[1]، والمرادُ: توكيدُ الإخبارِ عَنْ بعْثَتِه، وبيانُ مكانتِهِ في سلسلَةِ الرِّسالَةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (عيسى بن مريم):

تحقيقٌ لبشريّتِه وتثبيتٌ لنُبوَّتِه

في التّعبيرِ بـ (عيسى بن مريم) دون (المسيح) تقريرٌ لأمرٍ عقديٍّ، فهو يربطُ عيسى ﷺ بسلسلة الرّسل برابطةِ النّبوّة، وفيه تأكيدٌ على بشريَّتِه ومُعْجِزةِ ولادَتِه، وذلك ممّا يَقْطَعُ الطّريقَ على دَعاوى الألوهيَّة.

سِرُّ تخصيصِ عيسى بالذّكْرِ:

امتدادُ الهدايةِ بين ذُرّيَّتَي إسحاق وإسماعيل ﵉

خُصَّ عيسى ﷺ بالذّكر دون غيرِهِ مِنَ الرُّسل؛ لأنَّه مِن أولادِ إسْحاقَ ﷺ، وبُعِثَ بعدَهُ محمّدٌ ﷺ من ولَدِ إسماعيل ﷺ[2]، فجاء ذِكْرُهُ لتوضيحِ التّتابُعِ الزّمنيِّ والمنزلة الخاصّة له، والإشارة إلى ارتباطِ الرّسالات، وامتداد الهدايةِ بين ذُرّيَّتَي إسحاقَ وإسماعيلَ ﵉.

تشريفٌ لمكانَتِه وتكريمٌ لمقامِه

وأيضًا فإنَّ في تخصيصه ﷺ بالذّكر تشريفًا لهُ وتكريمًا لمَقامِه[3]، ولِما لأمَّتِه من سعَةٍ وانتشارٍ بينَ الأمم[4]، فجاء ذِكْرُه منفردًا لبيانِ مكانتِهِ الرّفيعَةِ، وعظمة بِعْثَتِه قبل النّبيِّ ﷺ.

تجليَةُ الحقِّ أمام مَن نَسَبوا إليهِ اتِّباعًا منفرِدًا عن سائرِ الرُّسُلِ

وخُصّ عيسى ﷺ بالذّكرِ أيضًا؛ لأنَّ السّياقَ يُخاطِبُ النّصارى الذين يَزْعُمون أنّهم أتْباعُ عيسى ﷺ، فجاء التّخصيصُ؛ تأكيدًا لمنزلته ﷺ، وإبرازًا لعظمَةِ رسالته، ولإظهار الحقائق الإلهيَّة أمامَ مَن نَسَبوا إليهِ اتِّباعًا خاصًّا[5].

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 843.

ويجوز أن يكون قد خُصّ بالذّكر؛ لأنَّ رسالَتَهُ كانَت آخِرَ الرّسالاتِ قَبْلَ رسالَةِ نبيِّنا ﷺ، مع ما تشْتَمِلُ عليهِ مِنَ التَّنويهِ ببِعْثَتِهِ والحديثِ عَن رسالَتِه ممّا يُعدُّ إرهاصًا ببِعْثَتِه ودعوةً لها[1].

التَّمهيدُ للبعثَةِ النَّبويَّةِ والإرْهاصُ للرِّسالَةِ المحمَّديَّةِ

دلالَةُ إضافَةِ بُنوَّةِ (عيسى) إلى أُمِّهِ ﴿مَرۡيَمَ﴾:

تأكيدُ براءَتِهِ مِنْ دعوى الألوهيَّةِ

أُضيفَت بُنُوَّةِ عيسى عليه السلام إلى أمّه مريمَ عليها السلام على العادة في الإخبار عنهُ منسوبًا لأمِّه[2]، فجاءت الإضافة لتأكيدِ براءتهِ من دَعْوى الألوهيَّة، وبيان نَسَبِه الطّبيعيِّ إلى أمّه، ولتوضيحِ خصوصيَّة ولادتهِ المُعْجِزَة، وعِظَم شأنهِ بين الأنبياءِ دونَ الإخلالِ بعقيدَةِ النُّبوَّة.

بيانُ النّسبِ المباركِ وعظمَةِ المكانَةِ

والإضافة أيضًا؛ لبيانِ وجهِ انتسابِهِ إلى إبراهيمَ عليه السلام، وأنَّه من ذرّية إبراهيم عليه السلام من جهَةِ أمّه، وهو - أي: عيسى عليه السلام - آخِر مَن جاء قبل النّبيِّ الخاتم ﷺ، فكانَت الإضافة مبيِّنةً نسبَهُ المباركَ وعِظَمَ مكانَتِه، وتنويهًا بأنّ أمّته أولى الأمم باتّباعِ محمَّدٍ ﷺ[3].

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

دلالةُ الاتِّصالِ بين الأحداثِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ دالَّة على العطف[4]، وهي واردةٌ للتّقريب بين الأحداث، فتُعْطي معنى الاتّصال المباشر، والارتباط الوثيقِ بينَ الموعظةِ والإكرام الإلهيِّ لعيسى عليه السلام، بخلاف (ثمّ) التي تدلّ على التّراخي الزّمنيِّ، وكذا الفاء التي تُفيدُ التّعقيبَ اليسيرَ مِن دون دلالةٍ على التّلاحم.

سِرُّ التَّعبير بفعل الإيتاءِ ماضيًا دونَ الإعطاءِ:

اخْتِصاصُ الإيتاءِ في الاستعمالِ القُرآنيِّ بالأمرِ المُعظَّم الجليلِ

آثر البيانُ القرآنيُّ فعل الإيتاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ دون الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاء في الاستعمال القرآنيِّ خاصٌّ بالعطاء الجليلِ ذي القَدْرِ والثّبات، ولذا استُعْمِلَ مع الكتُبِ المُنَزَّلة

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1308.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.

(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 215.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.

كالقرآنِ الكريمِ والتَّوراةِ، واستُعْمِلَ أيضًا مع المُلْكِ والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَة، ولمّا كان الإنجيلُ مِنَ الكتب الإلهيَّة المُعَظَّمة؛ سَلَكَ النَّظم القرآنيُّ مَسْلَكَهُ المعهودَ في التَّعبير عنهُ بالإيتاء؛ إظهارًا لعظيم مكانتِه وجليلِ قدرِه.

واستُعمِلَ الفعلُ الماضي ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ لدلالَتِهِ على الإخبارِ عَن وُقوعِ الفِعْلِ قَطعًا وتحقُّقِهِ، وأنّ اللّه تَعالى قد أكرم عيسى ﵇ بما حَصَلَ له من أجْرٍ ونِعَمٍ.

دلالةُ إسْنادِ فِعْلِ الإيتاءِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

إبــرازُ عَـظَـمَـةِ الـفِـعْـلِ وجَـلالِ الفاعلِ

أُسْنِدَ فعل الإيتاءِ إلى ضمير العَظَمةِ (نا) في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ لإفادَةِ عظمةِ الفِعْلِ وجَلالِ الفاعِلِ، فالمعنى: أنَّ اللّه تعالى أكرمَ عيسى ﵇ بالإنجيلِ بما لَهُ سُبحانَهُ مِن قُدْرَةٍ وعظمَةٍ[1].

سِرُّ استِعمالِ مُفْرَدَة ﴿ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾:

الإنجيلُ مصدَرٌ للعِلْمِ والهدايَةِ

﴿ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ مشتقٌّ من النَّجْلِ، وهو الأصل الذي يُستخرَج منه العلومُ والحِكم، فكأنّ اللّه تعالى أخرجه لنَقْلِ الهدايَةِ، ونَشْرِ الحقّ، فهو مصدرُ عِلْمٍ ومعرفَةٍ وضياء، وورد أنّ النّجْلَ يدلّ على ما يُسْتَخْرَج، ويُسْحَب، مثل الماء الخارج من الأرض، فسمّي الإنجيلُ بذلك؛ لأنّه أخرَجَ به دارسًا مِنَ الحقّ عافيًا، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنّه مشتقٌّ مِنَ النَّجَلِ، وهو السَّعَةُ، ومنْ ذلكَ قولهم: طَعْنَةٌ نجلاءُ، أي: واسعةٌ، وسمّي الإنجيل بذلك؛ لأنَّهُ وسَّعَهُ عليهم نورًا وضياء[2]. فالإنجيلُ لفظٌ يُشير إلى الحكمةِ والمعرفة المستخرجةِ مِنَ الوَحْيِ، ونَشْرِ الهدايةِ بينَ النّاس، وتجلّي العِلْمِ الإلهيِّ على أيدي الأنبياءِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 5 - 6.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ دون الكتابِ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ دون (الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ أشدُّ تعييناً للمطلوبِ من (الكتاب)؛ لكونِهِ لفظًا عامًّا يصدقُ على كثيرينَ.

مَعْنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

بيانُ إنعامِ اللهِ تَعالى على عيسى عليه السلام وأتباعِهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾[1]؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، وذلك أنَّ الجملتَين خبريَّتان، وبينهما مناسَبَةٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا اللَّفْظُ فاشتراكُ الجملتين في الفعليَّة والماضَويَّة، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وأمّا في المعنى؛ فإنَّهما واردتانِ في بيانِ إنعامِ اللهِ تعالى على عيسى عليه السلام وأتباعِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الجَعْلِ مادَّةً وصيغَةً:

أمْرٌ وترغيبٌ، ثمَّ خلْقٌ وتمييزٌ

جاءَ التّعبير بفعل الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ الله تعالى أودَعَها في قُلوبِهم بالأمْرِ بها والتّرغيبِ فيها، أي: أثبتها، وحثَّ عليها، ويحتَمِلُ أنَّ الجَعْلَ بخَلْقِها فيهم[2]، فكان فعل الجَعْلِ شاملًا الإيجادَ والتّثبيتَ للخَيْرِ في نُفوسِهِم.

ويجوزُ أن يكون الجَعْلُ بمعنى التّصيير، أي: تحويل الشّيء من حالٍ إلى حالٍ، فيكون ما بَعْدَها مفعولًا ثانيًا[3]، أي: صيّرنا القلوبَ متّصفَةً بهذِه المعاني.

إلهامُ أتباعِ عيسى عليه السلام التّراحمَ والتّعاطُفَ

أو أن يكون الجَعْلُ بمعنى: وفّقناهُم للتّراحم والتّعاطُف فيما بَيْنَهُم، كما في شأنِ أصحابِ النّبيِّ ﷺ الذين كانوا رُحماءَ بينَهُم[4].

(1) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 485.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.

إظهارُ أثَرِ سيرة عيسى عليه السلام في تهذيب النّفوسِ

ويجوز أن يكون مَعْنى فعلِ الجَعْلِ إظهارَ أثَرِ سيرة عيسى عليه السلام في تهذيبِ نفوس أتباعه؛ إذْ إنَّ ارْتياضهُم بسيرته الرّقيقة الرّحيمةِ رسَّخَ في قلوبهم الرّأفة والرّحمةَ، وكان ذلك بجَعْلِ اللّه تعالى، أي: بتيسيرهِ وتقديره؛ لأنّه أمَرَهُم بها، ويسَّر لَهُم التّخلُّق بها، فقد بُعِث عيسى عليه السلام لمُعالجَةِ قَسْوَةِ القلوب التي استَحكَمَت في بني إسرائيلَ عَبْرَ أجيالٍ، كما وصفها اللّهُ تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74][1].

دلالةُ إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

تعظيمُ فعل الجَعْلِ وفاعِلِه جل جلاله

أُسْنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ تعظيمًا لفِعلِ الجَعْلِ وأثرِه، وتعظيمًا للفاعِلِ جل جلاله[2]، فهي تفيد أنّ هذا الجعل كان بعظمةِ اللّهِ تَعالى وسُلْطانِه، ممّا يُضفي على الفعلِ قوّةً وهيبةً، ويُبرز أنّ التّغيير في القلوبِ لَم يكُن معهودًا، بل أثرًا من آثارِ العزّة الإلهيّة والتّدبير الرّبّانيّ.

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿فِي﴾ دون (على):

تمكُّنُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ في نفوسِهم

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ﴾؛ لتَصْويرِ تمكُّنِ الرَّأفة والرَّحمة واستِقرارها في نُفوسِهم.

سِرُّ التَّعبير بالقلوبِ دون الأفئدة:

الإشارةُ إلى ثَباتِ الصِّفات واستِقرارها

في اختيار لفظ (القلوب) دون (الأفئدة) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ إيحاءٌ بالثَّبات والاستقرار؛ إذِ القَلْبُ - على الرُّغم مِنْ تَقلُّبه - قد يَثْبُت على الخَيْرِ والفَضيلَة، بخِلافِ لفظِ (الفؤاد)؛ فإنَّ فيه مَعْنى التَّوقُّد والعاطِفَة العارِضَة، ولذا جاء التَّعبير بـ (القلوب)؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذهِ الصِّفات - وهي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 421.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 306.

الرَّأفة والرَّحمة - قَد استقَرَّت، وأصْبَحَت سَجيَّة ثابتَةً في داخِلِ أتباعِ عيسى عليه السلام.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿قُلُوبِ﴾ جمعًا مضافًا:

إشعارٌ بالانتشارِ وتكثيرٌ في التّأثيرِ ودلالـــةٌ على العُمومِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿قُلُوبِ﴾ جَمْعًا دون المفرد؛ للدّلالةِ على انتِشار هذه الصِّفاتِ في قلوبِ الأتباعِ، ويُفيدُ الجَمْعُ أيضًا كثرةَ القلوبِ وتَفاوُتَها في القوّةِ والدّرجة، وكأنّ كلّ قلبٍ امتلأَ بأنواعٍ متعدِّدة من المشاعر الرّحيمة، ممّا يجعل الصّورةَ حيّةً ومتجدِّدَةً تعكِسُ أثرَ النُّبوّة في نفوسِ الأتباع، وإضافتُها إلى الاسم الموصول ﴿قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يدلُّ على العموم؛ إذ إنَّ الجَمْعَ المضافَ إلى معرفةٍ يُفيدَ الاستغراقَ.

دلالَةُ التَّعبير بالاسْمِ الموْصولِ وصلته:

اسـتِـقـرارُ الأوصـافِ الـحـسَـنَـةِ في جَـمـيـعِ أتـبـاعِ عيسى عليه السلام

استُعمِلَ الاسمُ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للدّلالةِ على العمومِ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ ذلك، وجاءت الصِّلةُ مبيِّنَةً لهذا العموم، وأنَّه ليس عمومًا في كلِّ فردٍ من أفرادِ العبادِ، بل هو عمومٌ لجميعِ أفرادِ مُتَّبعي عيسى عليه السلام، فكانت الصِّلةُ مفيدةً مزيدًا مِنَ التَّخصيصِ والتّوضيح، فـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يُشير إلى جماعَةٍ مَعْلومَةٍ اتّصفوا بالاتِّباعِ الحقِّ لعيسى عليه السلام، وفي ذلك بيانُ فضلهم، وإشعارٌ بأنّهم أهلٌ لهذهِ النّعمَةِ الإلهيَّة.

الرّأفة والرّحمةُ ثـمـرَةُ الاتِّـبـاعِ الحقِّ لنبيِّ الله تـعـالى عيسى عليه السلام

وفي التَّعبيرِ بالموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ بدلًا من (أتْباعه)؛ للإشعارِ بأنَّ جَعْلَ الرّأفة والرّحمة في قلوبهم كان إحسانًا وتفضُّلًا من اللّه تعالى؛ بسبَبِ اتّباعِهم نبيَّهم عيسى عليه السلام والانقطاع التّامّ إليه والمواظبة على هَدْيِه(1)، فجُعِلَت الصّلة معيارًا هو الذي رُبِطَ به الحُكْمُ، ونالوا بهِ هَذا الفَضْلَ.

دلالَةُ التَّعْبير بالاتِّباع دون الإيمانِ:

عُبِّر بالاتِّباعِ دونَ الاكتفاء بالإشارةِ إلى الإيمان؛ لأنّ الاتِّباعَ دالٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.

كمالُ الإيمانِ بالاتِّباعِ الحَقِّ لِمِنهاجِ النُّبوَّة

على كمالِ الإيمانِ؛ فهو دالٌّ على الإيمانِ القلبيِّ مع العملِ الصّالِحِ، فجَعَلَ اللهُ سُبْحانَهُ النّعمةَ معلّقةً بالمواظبةِ والسّيرِ الدّؤوبِ على المناهجِ النّبويّةِ، بما يشمَلُ غايةَ الجُهْدِ[1]؛ ليعلنَ أنّ الاستحقاقَ ليس لمن ادَّعى، بل لِمَنِ انقادَ، واقْتَفى.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

تأكيدُ وُقوعِ الفِعْلِ وتحقُّقِه واستقرارِهِ

الفِعْلُ ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ فعل ماضٍ، والواوُ: ضميرٌ متَّصل في محلِّ رفعِ فاعلٌ، والهاء: في محلِّ نصبٍ مفعولٌ بهِ[2]، واستعمالُ الفعلِ هنا ماضيًا فيه تأكيدٌ على وُقوعِ الفِعْلِ وتحقُّقِهِ واستقرارِهِ.

دلالةُ الإضمارِ في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دونَ الإظْهارِ:

رشاقةٌ في التّعبير، ووضوحٌ في التّفسير، وإشارةٌ إلى عيسى عليه السلام بلا تَكْريرٍ

جيءَ بالضَّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دون أن يُظْهَرَ، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (اتّبعوا عيسى)، وذلك لتجنُّبِ التّكرارِ والإطنابِ، فجاء اللَّفْظُ موجزًا ومؤكّدًا للمعنى، مع الإشارة إلى أنّ المتبوع هو عيسى عليه السلام.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَأۡفَةٗ﴾ نكرة:

الدّلالَةُ على شدّةِ الرّأفةِ وفائِضِ الرَّحْمَةِ في قلوبِ أتباعِ عيسى عليه السلام

نُكِّرَ لفظُ ﴿رَأۡفَةٗ﴾؛ للدّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فهي تُفيدُ شدَّةَ الرّحمةِ[3]، وواسعَ الرأفة، وهذا يُبْرِزُ أثرَها العظيمَ في القلوبِ، ويدلُّ على أنّ الله تعالى ألهمَ أتباعَ عيسى عليه السلام رأفةً وتراحُمًا يفوقُ الوَصْفَ.

دلالَةُ عطفِ (رَحمَة) على ﴿رَأۡفَةٗ﴾:

الجَمْعُ بين لُطْفِ المعاملةِ ورحابةِ القَلْبِ في وصفِ الأتْباعِ

لَمّا كانت الرّأفةُ تدلّ على اللّين واللّطف في المعاملة، والرّحمة والشّفقة والرّحابة في القلب[4]؛ عُطِفت الرَّحمةُ على الرّافةِ؛ ليُجْمَعَ بين المَعْنَيَين، ويُظهر الصّورة الكاملة لِما وهبه اللهُ تعالى لأتباع عيسى عليه السلام من مكارمِ الأخلاق، وفيضِ العِنايَةِ الإلهيَّة في القلوبِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 306.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 484.

والمراد من الرّأفة دفعُ الشّرّ، ومن الرّحمة جلبُ الخير[1]، فجاء العطف ليُظهر شموليَّة الفعلِ الإلهيِّ في القلوبِ، وكانَ في اجتماع الرّأفة والرّحمة دلالةٌ على مَنْعِ الضّرر وإدخال النّفع، وبيانٌ للكمال الأخلاقيِّ، الذي غرسه اللّهُ تَعالى في نفوس أتباع عيسى عليه السلام.

دفعُ الشّرّ وجلبُ الخَيْرِ

ولما كانت الرّأفةُ هي الرّحمةَ المتعلّقةَ بدَفْعِ الأذى والضّرّ، فهي رحمةٌ خاصّةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]، وكانت الرّحمةُ هيَ العطفَ والملايَنَةَ - كما في فاتحة الكتاب - جاء عطفُ الرّحمة على الرّأفة من عطف العامّ على الخاصّ؛ لاستيعاب جميعِ أنواعِهِ بَعْدَ أن وقع الاهتمامُ ببَعْضِها[2].

الرّأفة والرّحمةُ يُجلّيانِ كمالَ الفَضْلِ وصنوفَ الإحسانِ

وفي العَطْفِ معنًى آخرُ، وهو أنّ الجمع بين الوصفين واردٌ؛ لإفادة أنَّ اللّه تعالى يرحم بالرّحمة القويّة مَن يستحقّها، ويرحم بمطلق الرّحمةِ مَن دونَ ذلك[3]، فجاء العطف؛ ليُبْرِز تدرُّج الرّحمة الإلهيَّة، وشموليَّتها في التّعامُلِ مع خَلْقِه.

التَّدرُّجُ في الرّحمة الإلهيّة بين مَن يَسْتَحِقّ كمالَها، ومن ينالُ دون ذلكَ مِنْها

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ دالّة على الاستئنافِ، ولفظُ (رهبانية) منصوب بفعل مضمرٍ يدلّ عليه ما بعده، والمعنى: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً، وهم ابتدعوا رهبانيَّة من أنفسهم[4]، فيكون قوله: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ من باب الاشتغالِ، وكانَت الواوُ فاصلةً بين ما أنزلهُ اللّه تعالى مِن صفات القلْبِ، وما أحدثه النّاسُ من بدعٍ، ممّا يؤكّد أنّ الرّهبانية ليست من الدّينِ بَل مِن ابتداع البشَرِ.

أثَرُ الإعرابِ في اختِلافِ المَعاني وتَنَوُّعِها

ويحتَمِلُ أن تكون الواوُ عاطفة، والجعلُ في هذه الآية بمعنى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 421.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 25.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 254.

الخلقِ والإيجادِ[1]، "وإنّما عطفت هذه الجملة على جملة: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ لاشْتِراك مضمون الجملتينِ في أنّه مِن الفضائلِ المراد بها رضوانُ اللّهِ تَعالى، والمعنى: وابتدعوا لأنفسهم رهبانيَّة ما شَرَعْناها لَهُم، ولكنّهم ابتَغوا بها رضوانَ اللّهِ تَعالى، فقَبِلَها اللّهُ تَعالى مِنْهُم؛ لأنّ سياقَ حكايَةِ ذلكَ عَنْهُم يَقْتَضي الثّناءَ عليهم في أحوالِهِم"[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالرّهبانيّةِ دونَ العبادةِ:

تصويرٌ لحالِ الانقطاعِ والخوفِ والمبالغةِ التي ابتدَعها الأتباعُ

عُبِّرَ بالرَّهبانيَّة دون العبادة؛ لأنّ الرّهبانيّة تدلّ على الأمور التي تَحْمِلُ على الرّهبنَةِ والعمل بموجبِها والخوفِ والانقطاعِ والهَرَبِ مِنَ الدُّنْيا، وهو ما ابْتَدَعَهُ أتباع عيسى ﷺ زيادةً على المشروعِ[3]، بخلافِ العبادةِ فإنَّها أعمُّ وأشمَلُ، وليس فيهِ دلالةٌ على مَعْنى الانقطاع والرّهبَةِ الخاصَّةِ، ففي التَّعبيرِ بها دلالةٌ على حالٍ خاصَّةٍ من الخوف والانقطاع المبالغ فيه.

أثَرُ الاشتقاقِ مِنْ مادَّةِ (رهب) عَلى المَعنى:

الخوفُ الشَّديدُ يَعْكِسُ غُلوَّهُم وابتِداعَهُم

اشتُقَّ لفظُ الرّهبانيّة من مادة (رهب) الذي يدلّ على الخوف الشّديد، فالرّهبانيَّةُ: العبادَةُ النّاشِئَة عن خوفٍ مُفْرِطٍ شديد، وسُلوكٍ غالٍ، ممّا يجعلها انحرافًا عن الاعتدال الذي أمَرَ به الشّرعُ، والمعنى: أنّهم بالغوا في الخوف حتّى أوصلهم إلى ابتداعِ عِباداتٍ شاقَّةٍ لَم يَشْرَعْها اللّهُ تعالى، فكان الاشتقاقُ لفظًا ومعنًى موحيًا بعلّة النّهي عَنِ الغلوّ في الدّين، كما قال تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: 171][4].

سِرُّ التّعبيرِ بالرّهبانيّةِ دون الخَوْفِ:

الرّهبانيّةُ أخصُّ من الخَوْفِ

عُبِّرَ بالرّهبانية دون الخوفِ؛ لأنَّها وإن كانت مأخوذةً من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19306.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 540.

الرّهبة، وهي الخوفُ، إلّا أنَّها أخصُّ مِنْهُ؛ إذ هي الخوفُ الشّديدُ الذي يبلغ حدًّا ينقَطِعُ فيه الإنسانُ عَنِ النّاس، ويَنْفَرِدُ لِلعبادة[1]، بخلاف مُطْلَقِ الخوف الذي لا يستلزم الانقطاعَ والانفرادَ.

بلاغةُ المَجازِ بالحَذْفِ في لفظِ ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ مجازٌ بالحذف؛ إذ قُدِّر مُضافٌ، والتَّقدير: وجعلنا في قلوب الذين اتَّبَعوهُ رأفةً ورحمةً وحُبَّ رهبانيَّةٍ مبتدعَةٍ لَهُم[2].

دلالَةُ التّعبير بِفِعلِ الابتداع:

الإحْداثُ لا على مِثالٍ سابقٍ

عُبِّرَ بِلَفْظِ الابتداعِ دونَ لَفْظِ الإحداث؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ ما قاموا بِهِ؛ لَم يَفعَلْهُ السّابِقونَ، فقد أحدثوهُ لا على مثالٍ سابقٍ، فهذا اللّفظُ يُضْفي دلالةً أعمقَ من الإحداث؛ إذ يؤكّد أنّ الرّهبانيّة هي زيادة مبتكرة كلّيًّا وُجدت بعد صاحبِ الشّريعة، وهي خارجَةٌ عن مَنْهَجِه[3]، ممّا يرسِّخ كونها اجتهادًا بشريًّا غاليًا لَم يشرعْهُ اللّهُ تَعالى لَهُم.

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ في ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾:

اختلاف درجاتِ الوِزْرِ بين المُبْتدِعِ حقيقةً وبين المتابِعِ لَهُ

أُضْمِرَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾، والمرادُ به أتباعُ عيسى عليه السلام، ولم يُصرَّح به؛ للإشارةِ إلى أنّ الرّهبانيّة لم تكن مِن شَريعتِه، بل من ابتِداعِ أتباعِه، وليُحمّلهم وزر الابتداع على وجه الإجمالِ، مع اختلاف درجات وِزْرِهم بين المُبْتَدِعِ حقيقةً والمتابعِ لهُ، ثمّ يُفهم من السّياق أنّ أعلاهم منزلةً هُمُ الذين انقَطَعوا للعبادَة، واهتَدوا بسيرتِه[4]، فجاء التّعبير بالإضمار؛ ليجمع بين التَّعميم في الذَّمِّ، والتّلميح إلى تفاوُتِ مَراتِبِهِم.

---

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 107.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 190.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 422.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.

سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ عمّا قبْلَها:

استقلالٌ مؤذِنٌ بتأكيد نفي التّشريع الإلهيِّ للرّهبانيّة

فُصلت جملة ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ عن سابقها؛ لتُبرز استقلال المعنى، وتُشدِّد على نفي التّشريع الإلهيِّ للرّهبانيّة، فجاءت استئنافَ إخبارٍ بذلكَ[1]، فهي تُؤكِّدُ أنَّها ليست من الدّين المُنَزَّل، بل من ابتداعهم، فكان الفصلُ أبلغ في التَّبرُّؤ منها، وأقوى في إظهار أنّها ليست ممّا كُتِبَ عَلَيهم.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ فُصِلت؛ لكونها مبيِّنَةً لجُمْلَةِ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾[2]؛ لبيانِ أنّ ما ابتدعه النّاس لم يكن من عنده تعالى، ولم يُفرَض عليهم، فهي تأكيد على أنّ الرّهبانيّة كانت اجتهادًا بشريًّا محضًا.

دلالَةُ نَفْيِ الكِتابَةِ في قولِهِ: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾:

نـفـيُ كـون الرَّهبانيَّةِ مِنْ عند اللهِ تَعالى وشرعِهِ

نفيُ الكتابةِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ نفيٌ لتشريعها في جميع الأوقات، قبل ابتداعهم لَها وبعدَهُ[3]، فلم تكن في أصل الشّرع مفروضَة، ولم تُقَرَّ بعدَ ابتِداعِهم على الرّغم مِن تَحَمُّلِهم المشقَّةَ، ونفي الكتابةِ مُشعِرٌ بأنَّ الرَّهبانيَّةَ لو كانَتْ مِنْ عند اللّهِ تَعالى؛ لكان لها ذِكْرٌ في كتابِهِم المُنَزَّلِ على نبيِّهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمّا لم تكن كذلك؛ عُلِمَ أنّها مُبتدعةٌ مُحدثَةٌ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالكِتابَةِ دون الفرضِ:

شمولُ الكتابةِ للقضاءِ الكونيِّ والتَّكليفِ الشَّرعيِّ

عُبِّر بالكتابةِ؛ لأنّها في لسان الشّرع تفيد التّقدير والإلزام والإثباتَ، فهي أبلَغُ مِن مجرّد الفَرْضِ، وهي تَشْمَلُ القضاءَ الكونيَّ، والتّكليف الشّرعيَّ[4].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿كَتَبْنَاهَا﴾:

حَسْمٌ وقَطْعٌ في نفي تشريعِ الرَّهْبانيَّةِ

قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ فعل ماضٍ، و(نا) فاعله[5]، والتّعبير

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 505.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 485.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(5) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.

بالفعل الماضي منفيًّا يُضفي على المعنى طابَع الحَسْم والقطع؛ إذْ يدُلُّ على نفيٍ قد استقرَّ، وانتهى، لا مجال لمراجَعَتِهِ أو الشّكِّ فيه، فالرّهبانيّة ليست من أصل التّشريع، بل هي خارِجَةٌ عَنْهُ، فكان استعمالُ الماضي أبلَغَ في بيانِ البَراءَةِ الإلهيَّة.

دلالَةُ التَّعبير بالإضمارِ في قولِه: ﴿كَتَبۡنَٰهَا﴾:

عُبِّر عن الرَّهبانيَّةِ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لقُرْبِ العَهْدِ بها، ولعَوْدِ الضَّمير قبلَها عليها في قوله: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾، فأُجْرِيَ هذا الموضعُ على الإضمار على نسَقِ الذي قَبْلَهُ، ولأنَّ الإضمارَ أخصَرُ من الإظهارِ مَع دلالتِهِ على المرادِ من غير لَبْسٍ.

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾:

دَفْعُ تَوَهُّمِ عِنادِهِم ومُحادَّتِهِم للشَّرعِ المُنَزَّل

قول اللّهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ وارِدٌ على جِهَةِ الاحتراس[1]؛ لأنَّ ذِكر ابتداعِهِم الرَّهبانيَّةَ مع زيادةِ التَّنصيص على أنَّ اللّه تَعالى لم يَشَرِّعها في كتابٍ، يوهِمُ أنَّهم ابتدعوا ذلك على سبيلِ المحادَّةِ والعنادِ، فجاء دفعُ هذا الوهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّهم ألزموا بها أنفُسَهم، وقصدُهُم بذلك رضا اللّه تعالى[2].

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

استثناء منقطعٌ يبيِّنُ التَّمايز بين الإخلاصِ والابتِداعِ

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع[3]، واستعمالُ ﴿إِلَّا﴾ هنا أبلغ من استعمال (لكن)؛ لأنَّ ﴿إِلَّا﴾ تحمل في طيّاتِها معنى الفَصْلِ والانقطاع مع بقاء الصّلة اللّفظيَّة، فجمعَت بين قوَّة الرّبط ومُغايَرَةِ المعنى، بخلاف (لكن) التي تُفيد الاستدراكَ، والاستثناء المنقطعُ هنا يُفيد أنّ ابتغاء الرّضوان ليس ممّا كُتِبَ عليهم، وإنَّما هو الدّافع الذي حَمَلَهُم على الابتداع، فكأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423 - 424.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.
(3) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 311.

المعنى: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾، لكنّهم فعلوها؛ طلبًا لرضوان اللّه تعالى، فجاء الاستثناء لبيان علّة فِعْلِهم معَ تأكيدِ عدَمِ شَرْعيَّتِها[1].

انـدِراجُ أصلِ الرّهبانيَّة في القُرُباتِ مَعَ بقاءِ صورَتِها بدعَةً مُحْدَثَةً

ويجوز في الاستثناءِ هنا أن يكون متّصلًا، أي: ما كتبناها عليهم في أصلها، إلّا من جهة اندراجها في عموم المندوباتِ، كابْتغاء رضوان اللّه تَعالى بالنّوافل، وهو مكتوب على كلّ أمّة، فدلّ التّعبيرُ على أنّ أصل الرّهبانيّة قد يندرج ضمن ما يُحبّب مِنَ القربات، وإن كان ابتداع صورَتِها مِن عندِ أَنْفُسِهم، فاجتمع في التّعبير نفيُ الإلزام وإثباتُ المقصدِ الحسَن[2].

بلاغَةُ التّعبير بالجُمْلَةِ الاعتراضيّة ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾:

الكَشْفُ عَن صفاءِ القَصْدِ وإظهارُ كمالِ رحمةِ الله تعالى بالعبادِ

جاءَ قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ على وجْهِ الاعتراض[3]؛ إذ اعترضت بين أفعالهم ومآلِها؛ لتكشف عن صفاءِ مقصدهم، فصيغ الاستثناءُ في أسلوب الاعتراض ليُشعر بأنَّ ترك فرض الرّهبانيَّة لم يكن زهدًا فيها، بل رأفةً بهم ورحمةً من اللّه تَعالى[4].

بلاغَةُ التَّعبيرِ بالابْتِغاءِ:

دلالةُ الابتغاءِ على شدَّةِ السَّعْيِ وجِدّيَّةِ القَصدِ في تحصيلِ الرّضا الإلهيِّ

جاء التّعبيرُ بالابتغاءِ دون الطّلبِ؛ لِما في مادَّة الابتغاءِ مِن دلالةٍ على السَّعْيِ الحَثيث، والجُهْد البالغ في تحصيل الغايةِ، فَهو أعمَقُ من مُطلَقِ الطّلَب؛ إذ يوحي بتكلُّفِ المشقَّة في سبيل بلوغ الرّضا الإلهيِّ، وتصميم النّفس على تزكيةِ العَمَلِ[5].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

دلالةُ المصدرِ على ثباتِ النّيَّةِ ودوامِ الحالِ في السّعي نحو القبولِ الإلهيِّ

استُعمِلَ الاسمُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ دون الفعل (يبتغون)؛ لِما في الاسم من دلالةٍ على الثُّبوت والرّسوخ، لا الحدوث والتَّجدُّد؛ فاختيار المصدرِ

(1) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص: 627.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 424.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.

يوحي بأنّ ابتغاء رضوان اللّه تَعالى كان غاية راسخةً في نفوسِهم، لا أمرًا عارضًا، وكأنَّ الرَّغبة في مرضاته صارت لهم حالًا دائمة وهيئةً مستقرّة، فعُبِّرَ بالاسمِ لإفاضةِ السُّكونِ والثَّباتِ على المعنى[1].

أثر تعدُّدِ الموقعِ الإعرابيِّ لقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ على المَعْنى:

انفِصالُ الرِّضا عَمّا قبلَهُ مِنَ الرَّهْبانيَّة المُبْتَدَعَة

يجوز في لفظِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ أن يكون منصوبًا على الاستثناء، فيَتَضَمَّن معنى الانفصالِ عمّا قبلَه مِن الأعمال المبتدَعَة، وفي الوقت نفسهِ يجوزُ أن يكون بدلًا من المُضْمَر، أي: ما كَتَبْنَاها عليهم إلّا أن يَبْتَغوا رِضا المولى سُبْحانَه[2].

رضوانُ اللهِ تَعالى هو غايتُهُم المقصودَةُ مِنَ الرَّهبانيَّة

وتعدُّد الموقع الإعرابيِّ للفظِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ يُثْري المَعْنى، فبِنَصْبه على المفعولِ بِهِ يكونُ طلَب الرّضوان هو الغايَة التي مِن أجْلِها كَتَبوا الرّهبانيَّة على أنفسِهم، وبنَصْبِه على المفعول لأجله يُصْبِحُ الدّافع الباطنيُّ هو المحرّكَ لابتداعهم، وهذا يؤسِّس لمسألة شرعيَّة مهمَّة، وهي أنَّ الأعمال المباحة يُؤجَرُ عليها صاحبُها؛ إذا قَصَدَ بِها طاعةَ اللّه تعالى[3].

بلاغَةُ الإيجازِ بالحذفِ:

رهبانيَّةٌ لم تُشْرَعْ، ولكنّها أُحْدِثَت طلبًا لرضوانِ اللهِ تَعالى

في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذف، سواءٌ أكانت الجملةُ استثناءً منقطعًا، أم بدلًا من الضّمير المنصوبِ، والتّقدير: ما كتبناها عليهم، لكِنْ فَعَلوها، أو ابتَدَعوها لابتغاءِ رِضْوانِ اللّهِ تَعالى[4]، وهذا التَّقديرُ متعيِّنٌ، وإلّا نقضَ آخرُ الكلام أوَّلَهُ؛ إذ إنَّ اللّهَ تَعالى نصَّ على أنَّهم أحدثوها، وابتدَعوها، وهذا يتنافى مع كَتْبِها عليهم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 245.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 424.
(4) الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 108.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿رِضۡوَٰنِ﴾:

طَلَبُهُم غايَةَ الرِّضا ومُنْتَهاهُ

آثر البيانُ القرآنيُّ اختيارَ لفظِ ﴿رِضۡوَٰنِ﴾ بدلًا من (رضا)؛ لتصويرِ عِظَمِ المقصودِ وسموِّ الباعثِ، وأنَّ مرادَهُم هو طلبُ الرِّضا العظيم[1]؛ وذلك لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالبًا، فالرِّضوانُ أدلُّ على عِظَمِ الرِّضا وجلالتِهِ من لفظ (الرِّضا).

دلالَةُ إضافَةِ ﴿رِضۡوَٰنِ﴾ إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

عَظمةُ الرِّضوانِ وفَخامَتُهُ

أُضيفَ لفظُ ﴿رِضۡوَٰنِ﴾ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تَعالى: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للرِّضوانِ وتفخيمًا لَهُ؛ إذ هو صادِرٌ ممَّن جمعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، فهو رضًا عظيمٌ يتناسب مع جلالِ مَن أُضيفَ إليه، وهو ملك الملوكِ الأعظم[2].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾:

الـرَّبْـطُ بـيـنَ الابـتـداعِ والـتَّـفـريـطِ في العَمَلِ

الفاء في قوله: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾ عاطفةٌ[3]، تربِطُ بينَ ابتِداعِهِم الرّهبانيَّة دون أن تُكْتَب عليهِم، وبين تَقْصيرِهِم في رِعايَتِها، وهي تفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ مع ما فيها مِن معنى السَّببيَّة، فتدلُّ على أنّ عدم رعايَتِهِم للرّهبانيّةِ كان نتيجةً مباشرةً لمَشَقَّة التِزامِها، فترتَّب على ذلك أنّهم لم يُحْسِنوا رعايتها، فأضاعوا شُؤونَها، وسَفَلوا من عَلْيائِها[4].

ومعنى التّفريعِ في الفاء: أنّ عدم رعايَتِهِم للرّهبانية حقّ رعايَتِها جاء مُتَرَتِّبًا على ابتِداعِهِم لَها دون أن تُكْتَبَ عليهم[5]، فالفاء تربط بين الابتداعِ غير المشروعِ وبين التّقصيرِ في العَمَلِ؛ لتُبيّن أنّ مَن ابتدع عبادةً لم يُكلَّف بها، فإنَّه غالبًا لا يُحسن رِعايَتَها والتِزامَها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 307.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 479.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 425.

دلالَةُ نَفْيِ رعايَتِهِم لَها بـ (ما):

(ما) من قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾ نافية[1]، وهي تفيدُ التَّأكيدَ في النَّفْيِ والقطع به، فجاء النّفيُ بها؛ ليُدلَّ على تأكيدِ انتفاء الرّعاية، ممّا يُظْهِر أنّ التّقصير كان متأصِّلًا متجذِّرًا، لا أمرًا عارضًا.

تأكيدُ انتفاءِ رعايَتِهِم الرَّهبانيَّةَ المُبْتَدَعَة

والنّفيُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ يتناول أيضًا كمال الرّعاية، فالمقصود أنّهم لم يحفظوا شؤونَ الرّهبانيَّة حفظًا تامًّا يليق بما التَزَموهُ، فجاء الكلام مسوقًا لِلَّوْم على تَقْصيرِهِم في الوفاء بما أَلْزَموا بهِ أنفُسَهُم، وهو تَقَهْقُرٌ عَن مراتب الكمال التي ينبغي للمُتَّقي أن يزدادَ فيها[2]، لا أن يتراجَعَ عنها، ولهذا جاء الحديث الشّريف مؤيِّدًا لهذا المعنى: «أَحَبُّ الأَعْمالِ إِلَى اللّهِ تَعالَى أَدْوَمُها، وإِنْ قَلَّ»[3]، فالاستمرارُ في الطّاعة هو علامة الكمالِ.

لَوْمُهُم على تَقْصيرِهِم في الوفاءِ بالعُهودِ وتَقَهْقُرُهُم عَن مراتِبِ الكَمالِ

سِرُّ التّعبير بالرّعايةِ دون الحِفْظِ:

اختير فعل الرّعايَةِ دونَ الحِفْظِ؛ لأنّه يدلُّ على حفظٍ وعنايةٍ مشوبين بالخَوْفِ مِن الضّياعِ[4]، لا مجرّد صونٍ، فكان أبلغ في التّوبيخِ عَلى التّفريطِ.

عنايَةٌ مشوبَةٌ بالخَوْفِ مِنَ الضَّياعِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعل الماضي: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾:

في التَّعبيرِ بالفعل الماضي المنفي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾ دلالةٌ على أنّ التّقصيرَ في رعاية الرّهبانية أمرٌ متحقِّق، فهو ليس احتمالًا أو أمرًا مستقبليًّا ممكِنَ الوقوعِ، بل واقعٌ ثابِتٌ؛ ولذا استحقّوا عليه اللَّوْمَ.

تقصيرٌ واقِعٌ واستحقاقٌ للَّوْمِ ثابِتٌ

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في قولِه: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾ استعارة؛ إذ شُبِّهت الرّهبانيّة بالدّابَّةِ

تصويرُ الرَّهبانيَّةِ في صورةٍ محسوسةٍ تقريبًا لها إلى الأذهانِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 511.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 462.
(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (6465)، ومسلم في صحيحه برقم: (783).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.

التي تحتاج إلى رعاية دائمةٍ، واستُعير الرّعيُ؛ للدّلالة على الحِفْظِ المصحوبِ بالعِنايَة والخوف من الضّياع، فتكون الاستعارةُ مكنيَّةً تبعيَّةً، فالرّهبانيّة تقتضي مجاهدةَ النّفس، وترك اللّذائذ، والصّبر على الطّاعات، فإذا وقع التّفريطُ في شيءٍ من ذلك؛ فقد انتفت رعايتُها(1)، فجاءت الاستعارةُ؛ لبيانِ تقصيرِهم في حفظِها بأسلوبٍ تصويريٍّ.

دلالَةُ التَّقْييدِ بقولِهِ: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾:

ظُهورُ صوَرٍ مِنَ الخَلَلِ في الرَّهبانيّة المُبْتَدَعَة

جاء التَّقييد بـ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ ليُبيّن أنّ الخلل لم يكن في أصلِ الرّعاية، بل في كمالها وصِدْقها، فالنّفيُ مُسلَّطٌ على مرتبةِ الإحسانِ في الالتزام، لا مُطْلَقِ العمَلِ، وقد تنوَّعت وجوهُ هذا التّقصيرِ، فمنهم مَن ضَمَّ إلى الرّهبانيَّة عقائدَ باطلةً، كالتّثليث والاتّحاد، ومنهم مَن قصد بها الرّياءَ وطلبَ الدّنيا، لا مرضاة اللّه تَعالى، ومنهم مَن تَركها بَعْدَ أن التَزَمَ بها، ومنهم مَن أدرك النّبيَّ ﷺ ولم يُؤْمِن به، فكان عدمُ الإيمان علامةً على التّفريط، ومنهم مَن اقتدى بالصّالحين في القولِ دونَ العمَلِ(2).

دلالَةُ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ في ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾:

الرِّعاية المنفيَّة هيَ الكاملَةُ التّامَّة دون أصْلِها

الإضافةُ في قول اللّه تعالى: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من إضافةِ الصّفة إلى الموصوفِ، والأصل: فما رَعَوْها رعايتَها الحقَّةَ، وفيها تأكيدُ أنّ المطلوب ليس مطلقَ الرّعاية، بل كمالها وتمامها، فالرّهبانيّة تُرعى بصونِ الأعمال من الرّياء، ورعاية الأحوالِ بالصّدق في المجاهدة، ورعاية الأوقات بالحضور معَ اللّهِ تَعالى دون غفلةٍ(3)، فكلّ تفريط في هذه الجوانب يُعدّ إخلالًا بحقّ الرّعاية، ولذلك جاء التّعبيرُ لإدانَةِ مَن قَصَّر في جَوْهَرِ الالتزام، لا مَن اجتهد فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 425 - 426.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 474.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.

وفي الإضافةِ أيضًا معنى نفي بُلوغِ الرّعاية غايتَها وكمالَها، فالحقُّ هنا بمعنى الكاملِ التّامِّ، أي: الرّعاية التي تقع على أكملِ أحوالِ نَوْعِها، وهذه الإضافة تُبيّن أنّ المطلوبَ هو الرّعاية الصّادقة التي تستوفي شروطَها من إخلاص، ومتابعة، ومداومة، فجاء المفعول المطلقُ؛ ليُبيّن نوع الرّعايةِ المَنْفيَّة[1].

سِرُّ التّعبير بـ لفظ الـ﴿حَقَّ﴾ دون غيره:

نفيُ الاستيفاءِ التّامِّ لمَقامِ الرَّهْبانيَّة

التّعبير بـ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ دون (أكمل رعايتها)، يُفيد الاستيفاءَ الكامل لِما تقتضيهِ الرّهبانيّة من أعمالٍ وأحوالٍ ونيّاتٍ، لا مُطلقَ بلوغِها درجةً عاليَةً منها، فالمعنى: أنّهم لم يراعوا حقوقَها كما ينبغي، بل راعوا بَعْضَها، وأهملوا بعضَها الآخر، بخلافِ ما لو قيل: (أكمل رعايتها؛ لاحتمل أنّ بعضَهُم بلَغَ درجَةً مقبولَةً دونَ الكَمالِ، فيكون الذَّمُّ جزئيًّا[2].

بلاغَةُ الجناسِ بين ﴿رَعَوۡهَا﴾ و﴿رِعَايَتِهَا﴾:

تأكيدُ مَعْنى الإهمالِ والتّقصير، ومُضاهاةُ الصّيغةِ اللّغويّةِ للواقعِ المَوْضوعيّ

في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ جناسُ الاشتقاقِ بين ﴿رَعَوۡهَا﴾ و﴿رِعَايَتِهَا﴾؛ إذ اشتركت الكلمتان في الأصل اللّغوي (رعي) مع اختلاف الصّيغةِ، فيسمّى مُغايرًا[3]، وهو مِمّا يُحدِثُ جمالًا صوتيًّا يُؤكِّدُ المعنى، ويُقوّيه، ويَرْسُم صورةً حيَّةً للإهمالِ والتّفريطِ، فالتّعبير بالرّعي، وهو حفظ الشّيء والحفاظ عليه؛ يناسب أنّهم قصّروا في حفظ هذه البدعةِ حتّى بَعْدَ التزامِهم لها، فكان التّقصيرُ مُضاعَفًا؛ ابتداعًا ثمّ إهمالًا، فجاءت الصّيغةُ اللّغويَّة مطابقةً للمعنى، شاهدة عليهم بعدَمِ الجدّيَّةِ مطلقًا، حتّى في باطلهم.

دلالةُ الواو مع فِعْلِ الرِّعايةِ:

الواو في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾ واو الجماعةِ، وقد اختلف

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 478.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 518.

توبيخٌ جماعيٌّ لكلِّ مَن قصَّر أو فرَّط، سواءٌ أكان ذلك بالفِعْلِ أمْ بالسُّكوت

المفسّرون في هذه الواو، فذهب جماعةٌ إلى أنَّها تعود إلى الذين ابتدعوا الرّهبانيّة، ثُمّ فرّطوا فيها، وذهب آخرون إلى أنَّها ترجِعُ إلى الملوك الذين اضطهدوا الرّهبان، ومن أهل العلم من يرى أن مرجع الضَّمير هُم الأخلاف الذين ورِثوا الرّهبانيَّة دون أن يَلتزِموا بها[1]، فجاء التّعبير بصيغة الجمع؛ ليُحمِّل الجميع مسؤوليَّة التّفريط، سواءٌ أكان ذلك بالفعل أم بالسّكوت، وليُقرّر أنّ من التزَمَ عبادةً أو تطوّعًا؛ لزِمَهُ أن يرعاهُ حقَّ رعايَتِه، وإلّا كان مذمومًا.

والواوُ في هذا السّياق جاءت لنسبةِ التّفريط إلى الجميع، مع أنّ الواقع أنّ بعضَهُم هو الذي فرّط[2]، وهذا الأسلوب البلاغيُّ يُستعمَل للتّغليب أو للتّوبيخ الجماعيِّ؛ لأنّ التّفريطَ في أمر دينيٍّ جماعيٍّ يُعدّ تقصيرًا من الجماعةِ كُلِّها.

بلاغَةُ إضمارِ الرّهبانيّةِ في قوله: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾:

تحقيرُ الرّهبانيّةِ وذمُّ المُـبـتـدِعِ المـسـؤولِ عَـن تَفريطِهِ

أُضْمِرَت الرّهبانيَّة في ﴿رِعَايَتِهَاۖ﴾، مِنْ قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾؛ لتقدُّم ذِكْرِها قريبًا، وللدّلالة على تحقير شأنِها، وعدم استحقاقها للذّكر الصّريحِ، فجاء الضّميرُ (ها) إيحاءً بأنّها أمرٌ لا قيمة له في ميزانِ الشَّرْعِ، مع الإشعار بأنّهم هم المسؤولون عنها، وقد فرّطوا فيما التزَموهُ مِنْ بِدْعَتِهم، فجمعَ الإضمارُ بين تحقيرِ المُبْتَدَعِ، وذمِّ المبتدِع.

مَعْنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا﴾:

الأجْـرُ الحسَنُ ثمرَةُ النَّجاةِ مِنَ الغلوِّ والانحِرافِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا﴾ دالَّةٌ على السّببيَّة، فهذه الفاءُ تَفْصِلُ المصيرَ، وتُعلن العدلَ الإلهيَّ، فبِسَبَبِ إيمان الذين آمنوا منهم؛ آتاهم اللّهُ تَعالى أَجْرَهُم الخاصَّ بهم؛ لتَمْييزِهم من الكثير الفاسِق الذي استمرّ في الغلوِّ والانحراف، مؤكِّدَةً أنّ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.

(2) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7335، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 482.

الإيتاءَ كانَ نتيجةً وثمرةً لنَجاتِهِم مِنَ الوقوع في المُروق الكلّيِّ عن الدّينِ[1].

وفي الفاءِ مَعْنى التَّفْريع أيضًا، فهي تربطُ بينَ ما سبَقَ مِن جَعْلِ الرّأفة والرّحمة في قلوب أتباع عيسى عليه السلام، وبينَ الجزاء الذي نالهُ المؤمنون مِنْهُم، فدلَّت عَلى أنَّ الإيمان الصّادقَ هو الذي ترتَّب عليهِ الأَجْرُ، وما بينَ الجُمْلَتَيْنِ مِن ذِكْرِ الرّهبانيَّة وعدم رعايتها يُعدُّ استِطرادًا[2]، لا يقطعُ السّياق، بل يُعمِّق المعنى، ويبرز أنَّ الجزاءَ لَم يكُن لِمَن ابتدع، أو فرَّطَ.

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ الماضي، مُسندًا إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

عظَمَةُ الإيتاءِ وفاعِلِه، وفخامَةُ الأجر المُعْطى

في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا﴾ إخبارٌ بأنّ الذين آمنوا، ثمّ ثَبَتوا على إيمانهم، يوجَبُ لهُم الأجرِ العميمُ[3]، وعُبِّر عنْهُ ماضيًا؛ لإفادَةِ تحقُّق هذا الإيتاءِ وثبوتِه، وأُسنِدَ الإيتاءُ إلى ضمير العَظَمَةِ (نا)؛ تفخيمًا لشأن الإيتاءِ؛ لكونِه صادرًا عن اللّهِ سبحانه المتّصف بصفات الكمال المطلقةِ[4]، وفيه تفخيمٌ للفاعلِ جل جلاله، وتعظيمٌ للأجرِ الذي يُؤتاهُ أهل الإيمانِ.

دلالَةُ التّعبير بالإيتاء دونَ الإعطاءِ:

عظمةُ الثَّوابِ الإلـهـيِّ لأهْـلِ الإيمانِ

في التَّعبيرِ بالإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا﴾ إيماءٌ إلى عظمَةِ الأجر الذي أوتيَهُ أهل الإيمان؛ لأنَّ طريقةَ القرآن الكريم استعمالُ الإيتاءِ فيما كان شأْنُهُ عظيمًا، ولذا استُعمِلَ مع القرآنِ والتَّوراة والإنجيل والثّوابِ بخلاف الإعطاءِ فلا يلزَمُ فيهِ ذلكَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِه:

بـلـوغُ المؤمنين في ثباتِ الإيمان درجَةً عاليَةً

آثَر البيانُ القرآنيُّ التّعبير بالموصول وصلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 539.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

لترسيخِ العلّة والسّببيَّة، فجملةُ الصِّلةِ تُثبِّت صفةَ الإيمان باعتبارِهِ أصلًا وشرطًا جوهريًّا للأجْرِ العظيم[1].

مَـنْ يـتردَّد بـين الإيمـان والكفر والاتّباع الظاهري يخرج مـن وصـف الإيمان

ويشير هذا التّعبيرُ إلى فئة تمسّكت بالإيمان الكامل والثّابت، لا الاتِّباع الظّاهريّ أو العارِض، فاختيارُ الفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، مع إرادة التّعميم يُفْهَمُ منهُ تحقُّق الإيمانِ واستمراره، أي: إنَّ هؤلاء قَد بَلَغوا درجَةً مِنَ الثّبات العَقَديِّ تجعَلُ الإيمانَ وصفًا ملازمًا لهم، وفي هذا التّعبيرِ أيضًا إشارة إلى أنَّ مَن يتقلّبُ بين الإيمان والكفر، ويتردَّد في أمره؛ لا يُدرَج ضِمْنَ هذا الوصف، وإن لم تجرِّده معصيته مِن أصلِ الإيمان، وذلك كما يُفْهَمُ مِن ختم الآية الذي تضمَّن ذمًّا للتقلُّب والغلوِّ، ومدحًا للاقتصادِ والاعتدالِ[2].

سِرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

تَخْصيصُ الأجْرِ العَظيمِ بأهْلِ الإيمانِ

قُدِّمَ القيد ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قوله: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾؛ لتحقيقِ الحَصْرِ والاختصاصِ، مؤكِّدًا أنَّ العطاءَ مُقْتَصِرٌ على طائفة معيَّنة مِنَ المؤمنين، وفي الوقت ذاته يومِئُ هذا التّقديمُ إلى تلك الطّائفة بالاهتمامِ، مُركِّزًا العنايةَ على خصوصيَّة استحقاقهِم الأجْرَ دونَ غَيْرِهِم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ (مِنْ):

اخْتِصاصُ الأجْرِ بِطائِفَةٍ مِنَ الذين اتَّبَعوا عيسى عليه السلام

(مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على التّبعيض، والمعنى: أنّ الثّواب كان لبعضٍ مخصوصٍ مِن هؤلاء، لا للجميع، وهم الذين صَدَقوا في إيمانِهم، وأكملوهُ، فآمنوا بعيسى عليه السلام والرّسلِ مِنْ قبله، وآمنوا بمحمَّد صلى الله عليه وسلم، موافقين لِما في كُتُبِهم مِنَ البِشارَةِ به، فاستَحَقّوا الأجْرَ بإيمانِهم الصّادق لا بمجرَّد الانتماءِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 482.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

سرّ التّعبير بالأجر منكَّرًا دون الجزاء أو الثّواب:

استعمل مفردة الأجر نكرة دون الجزاء أو الثّواب في إشارة إلى مكافأة لائقة ومناسبة لهم تتجاوز مجرَّد المكافأة العادية، فالأجر هنا يعني الرِّضوان المضاعف[1]، وهو نوع من الثّواب العظيم الذي يعبِّر عن كرم اللّه وجوده.

المكافأة اللائقة والرّضوان المضاعف المناسب لتضحياتهم تعبيرٌ عن كرم الله تعالى

دلالَةُ إضافَةِ الأجْرِ إلى الضّمير (هُمْ):

أُضيفَ الأجرُ إلى الضّمير (هُمْ)؛ لإفادَةِ التَّخصيصِ والملك، فكأنَّ الأَجْرَ أَصْبَحَ مِلكًا مُستحقًّا لهم وحدَهم، وهذه الإضافَةُ تدلّ على أنّ الجزاءَ هو الرّضوان المضاعَفُ اللّائق بتَضْحياتِهِم وإيمانِهم[2]، ويؤكّد على أنّه جزاء مُفصَّل على قَدرِ فِعْلِهم، والمعنى: فآتينا الذين آمنوا "أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقّوا وآلافها"[3]، وهو جزاءٌ مقابلُ إيمانِهم وأعمالهم، بل يتجاوز استحقاقَهُم؛ ليُناسِب كرَمَ المانِحِ.

عِظَمُ إيمانِهم سَبَبُ استِحقاقِهِمُ الأجْرَ

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَكَثِيرٞ﴾:

الواو في قوله ﴿وَكَثِيرٞ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستِئنافِ[4]، تفيد الابتداءَ بجُمْلَةٍ جديدةٍ تُقرِّر مَعْنًى آخر، ليس معطوفًا على ما قبله في الحكم، فبَعْدَ أن بيّن اللّه تعالى جزاءَ المؤمنين منهم؛ استأنَفَ الحُكْمَ بذِكْرِ حال الغالبِ، فقال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، أي: خارجون عن الطّاعة، لا يشملهم الجزاءُ المذكور، فالواوُ هنا تُفيد الانفصالَ المعنويَّ، وتُبرز المفارقة بينَ حال الفريقين، ومآلِهِم.

إبرازُ المُفارَقةِ بينَ حالِ الفاسِقينَ وجزاءِ المُؤمنينَ

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (كَثير) دون (أكثر):

اختار البيان القرآنيُّ لفظَ (كَثير) دون (أكثر)؛ للتَّدليل على

الخروجُ عَنِ الحقِّ فعل فظيع يستحقّ الذّمَّ والتّحذير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 392.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 538.

أنّ الفاسقين فئَةٌ ضخمة ومهولة بذاتِها مِنْ غير حاجةٍ إلى عقْدِ المقارنَةِ بأهل الإيمانِ بلفظِ (أكثر)، وهذا التّعبير يَحْمِلُ دلالةَ الذَّمِّ والتّحذير من فظاعَةِ هذا الخروجِ عَن الحقِّ، حتّى وإن كان عدَدُهم يفوقُ عددَ أهل الإيمان الصَّحيح[1].

الموازنَةُ بينَ وصْفِ الواقِعِ وحِكْمَةِ التَّكْليفِ:

والتَّعبير بلفظ (كثير) يُصَوّر حالَ طائفة متحقِّقةٍ في الواقع على وجهٍ يُحافِظُ على سعَةِ المعنى واستيعابِ الاستثناءات، بخلاف لفظ (أكثر) الذي يُغْلِقُ بابَ الإمكان دون مَن بَلَغَتْهُم الحجَّةُ، فاستجابوا، فكانت الكلمة قصدًا إلهيًّا يوازن بين وصفِ الواقع، وحكمةِ التَّكليفِ[2].

سِرُّ تَكرار ﴿مِنْهُمْ﴾:

خروج الفسقِ مِن داخلِ الجماعَةِ التي ابتدعَت الرّهبانيَّة لا مِن خارجِها

كُرِّر القيد ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ بعد تقدُّمِ ذِكْرِه ليس من بابِ التَّكرارِ المحضِ، بَل لِما فيه من توكيدِ المعنى وتشديدِ المَسْؤوليَّة، أي: إنَّ الفسق لم يأتِ مِن غَيْرِهِم، بَل من الجماعة التي ابتدعَت الرّهبانيَّة وضيّعتها[3]، فكان في الإعادة تحميلٌ صريحٌ لَهُم، وبيان أنّ الانحرافَ كان مِن داخل الصفِّ لا من خارجِهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ الكُفْرِ:

دلالَـةُ الفِسْقِ عَلى كلِّ خُروجٍ عَن الطّاعَةِ

عُبِّر بلفظ الفسقِ في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ لِسَعَة دلالَتِه ودقَّتها؛ إذ شَمِلَ وصفًا لمن خرج عن الطّاعة الصّحيحة، وهذا الوصفُ يتجَنَّب الإطلاقَ الحادَّ، وهوَ الكُفْرُ؛ ليَصِفَ حالَ مَن لَم يُؤْمِن بمحمّد ﷺ، أو أشرك بشأنِ عيسى عليه السلام، أو انحرف عن القانون الصّحيح للرّهبانيَّة[4]، فكان الفِسْقُ جامعًا لدلالة التّمرُّدِ على الحقِّ.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 232.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 360.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 239.

وعلى الرّغم من أنّ الفِسْقَ قَد يُراد به الكُفْرُ المُطْلَق في هذا السّياق، فقد جاء التّعبير بـ ﴿فَٰسِقُونَ﴾؛ ليدلّ على مَن أفسدَ إيمانَه مِن أتباعِ المَسيح، مُدّعين اتّباعَهُ صوريًّا، وهذا الاختيارُ البَيانيُّ يخصّ بالذّمّ فئةً التَزَمَت الدّين ظاهرًا لكنّها نقضَت حقيقةَ التّوحيد، فكان الفِسْقُ وصفًا دقيقًا لخروجهم عَن أصلِ دينهم المُلْتَزَم به[1].

ظاهرهم الإيمانُ وباطنهم الزَّيْغُ والعُدْوان

ويَشْمَلُ وصفُ الفِسْقِ كلَّ خروجٍ عَن سواءِ السّبيل، سواءٌ أكان كُفْرًا صَريحًا أمْ معصيَةً عظيمةً، فهو وصف دقيقٌ لا يحصر الإدانةَ، بل يجمَع كلّ من بدّلَ الكتابَ، أو أكل أموال النّاس بالباطلِ أو غير ذلك، يجمعُهم تحت معنى الفِسْقِ الشّامل للتّمرُّد على الطّاعة[2].

استيعابُ لَفْظِ الفِسْقِ لكلِّ تمرُّدٍ على الحَقِّ

سرُّ التّعبير باسمِ الفاعل ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

عُبِّر بالاسم ﴿فَٰسِقُونَ﴾ بدل الفعلِ (يفسقون)؛ للدّلالَة على الدّوام والثّبات، فهم عَريقونَ ومُتَجَذّرون في حالِ الخُروجِ عَن حُدودِ اللّهِ تَعالى[3]، ففي التَّعبير بالاسمِ توكيدٌ لِعُمْقِ الانحرافِ واستِحالَته إلى صفةٍ ملازمَةٍ لَهُم.

ثباتُ الفِسْقِ فيهِم ودَوامُهُ

بيان المتشابه اللفظي بينَ هذهِ الآيةِ وآيةِ المائدة:

اختلَف التّعبير في آيتَي المائدَةِ والحديدِ في ذكر من قُفّي بهم قبلَ عيسى عليه السلام، فورد في سورةِ المائدة قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 46]، دون ذكر الواسطة (برُسُلِنا)، بخلاف الذي في سورةِ الحَديدِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾، فقد ذُكِرت الواسِطَةُ أوّلًا، ثُمّ خُصَّ عيسى عليه السلام بالذِّكرِ، وذلك أنَّ السّياقَ في سورةِ المائدةِ كان كلُّه منصبًّا على بني إسرائيلَ بَدْءًا من أخْذِ الميثاقِ، ثُمّ استمرَّ الحديثُ عنهم في الآيات بعدَها، متناولًا نَقْضَهُم للمَواثيقِ، وتحريفَهُم للكُتُب، وارتكابَهُم

اختِلافُ السّياقِ بينَ خُصوصيَّةِ بَني إسرائيلَ وعُمومِ الرِّسالَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 427.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

المُخالَفاتِ، والحُكْمَ بغَيْرِ ما أنزل اللّهُ تعالى، مَعَ تسليَةٍ للنّبيِّ ﷺ في مواجهة مواقفهم، وغيرها من الآيات التي تركّز على بني إسرائيل دون غيرهِم، ولمّا كان جميعُ الأنبياءِ المذكورين في هذا السّياق من بني إسرائيل، وكان عيسى عليه السلام خاتِمَهُم؛ جاءَ ذِكْرُهُ مباشرةً بعدَهُم دون حاجةٍ لذِكْرِ (بِرُسُلِنا)؛ لأنّ التّقفيَةَ بهِ كانَت امتدادًا طبيعيًّا لَمسارِهِم، فاقْتَضى السّياقُ الإيجازَ والاختصار، وجاء التّعبيرُ منسجمًا مع وحدة الأمّة المخاطَبة، أمّا في سورة الحديد؛ فإنَّ السّياق مختلفٌ تمامًا؛ إذ هو خطابٌ عامّ موجّه إلى المؤمنينَ، يتضمّن موعظَةً وتَرْغيبًا وتحذيرًا، ويعرِضُ نماذجَ مِن الأُمَمِ السّابِقَة، ويُذكِّر بنِعمَةِ إرسالِ الرّسُل إلى البشريَّة جمعاءَ، لا إلى بني إسرائيلَ فَقَط، فبدأ السّياقُ بذِكْرِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، وبيان ما جعل اللّه تَعالى في ذرّيَّتِهما من النّبوّة والكتاب، ثُمّ أتبعَ ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾؛ إشارةً إلى الرّسل الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام - وهُم كثيرونَ - ثُمَّ خُصّ عيسى عليه السلام بالذِّكْرِ؛ لأنّه خاتِمَةُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وصاحِبُ كتابٍ مُنَزَّل، فاقْتَضى السّياقُ الإطنابَ والتّفصيل؛ ليَشْمَلَ جميعَ الرّسل الذين أُرسِلوا إلى الأمم المختلفةِ، ويُبْرَزَ عيسى عليه السلام في موقعهِ الخاصِّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(قفّينا) و(أتبعنا):

التَّقفيةُ أخصُّ من الاتِّباعِ وأدقُّ مِنْهُ

أصل القَفْوِ في اللّغة: مُتابعَةُ الأثَرِ والتَّتَبُّع، تقولُ: قفوتُ أثَر فلانٍ أقفوهُ قَفوًا؛ إذا اتَّبَعْتَ أثَرَه، وسُمّيت القافيةُ في الشّعر قافيةً؛ لأنَّها تقفو البيتَ، وسُمّيت القبيلةُ المشهورة بالقافَة؛ لأنَّهم يَتَّبعون آثارَ أقدامِ النّاس، ويستدلّون بها على أحوالهِم، وسُمّي القَفا قفًا؛ لأنّه مؤخّر بدنِ الإنسان، كأنّه شيء يتبع، ويقفى[2]، فكان لفظُ القَفْو

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 135 - 137.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 338 - 339.

أخصُّ من الاتِّباعِ، و(قفَّينا) أخصُّ من (أتبعنا)، وقد استُعْمِلَ الفِعْلُ (قفَّينا) دون (أتبعنا)؛ لكونِهِ يحملُ معنى التَّتبُّع الدَّقيق للأثر والاهتداء إلى الحقائق عبر الرُّسل بخلافِ الاتِّباع؛ فلَيْسَ فيهِ التَّتبُّع الدَّقيق الذي في فعل التَّقفيَةِ.

الابتداعُ: إنشاءُ ما لا أصلَ لهُ، والإحداثُ أعمُّ مِنْهُ

الابتداع والإحداث:

لفظُ الابتداعِ دالٌّ على إنشاءِ شيءٍ لا أَصْلَ لَهُ في الشَّرْعِ، وهو "إيجادُ ما لَم يُسْبَق إلى مثله"[1]، بخِلافِ الإحداث الذي قَد يَشْمَلُ ما لَهُ أصلٌ، وإنَّما نُظِرَ إليه باعتبارِ حدوثِهِ، واستُعْمِلَ الابتداعُ في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾؛ لأنَّ الرّهبانيَّة لم تكُن مأمورًا بها في كِتابِهم، ولا على لسانِ رسولِهم، وإنَّما اخْتَرعوها من تلقاءِ أنفُسِهم، فكان التّعبير بالابتداع أبلَغَ؛ إذ يُشير إلى غرابةِ الفِعْلِ، وانفصالِهِ التّامِّ عَن الوَحْيِ.

الرِّعاية أخصُّ من الحِفْظِ؛ لأنَّها حفظٌ مع دوام المراقبَةِ والتَّعهُّد

الرّعاية والحِفْظ:

الرِّعايَةُ ليسَت مجرَّد حِفْظٍ مِنَ الضّياع، بل هي القيامُ بالأسبابِ التي تَقي الشّيءَ مِن الفَسادِ والضَّياع، مع دَوام المُراقبَةِ والتَّعَهُّد، كرَعْي المواشي الذي يتفقَّدها صاحبُها، ويَصْرِفُ عنها الأذى، فالرِّعايةُ أخصُّ من الحفْظِ، وكذا فإنَّ نقيضَ الحِفْظِ: الضّياعُ، بخلاف الرّعاية فإنَّ نقيضَها: الإهمالُ، والإهمالُ هو السّبب المؤدّي للضّياع[2]، ومن ثمّ جاء التّعبير بالرّعاية في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ دون الحفْظِ؛ لتصوير أنّهم لَم يَقوموا بالرّهبانيَّة حقّ القيام، لا رقابةً ولا التزامًا ولا عنايةً، فجاءت الصّيغةُ أوقعَ في الكَشْفِ عن تقصيرهم في المعنى العمَليِّ المستمرِّ، لا مجرد التَّفريط اللّحظيِّ العارِضِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 133.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دعوةُ أهل الكتاب للإيمان برسول اللهِ ﷺ خاصَّةً، بعد أن آمن الصّادقون منهُم بمَن سبقَهُ مِن الرُّسل الكرام

لمّا قرَّر اللّهُ تَعالى في الآيتين السّابقتين أنَّ الرّسلَ دُعاةٌ للحقِّ إلى سيِّدهم طوعًا أو كرهًا بالكتابِ والحديدِ، وقرَّرَ أنَّ السَّعادةَ كلَّها في اتِّباعِهم، وأنَّ البدعَ لا تَأتي بخيرٍ، وأنَّ أصحابَ عيسى عليه السلام - الذي نَسَخَ شريعةَ من قبلَه - ابتدعوا بدعةً، فَوُكِلوا إليها، فَفَسَقَ أكثرُهم، فاقتضَى ذلكَ إرسالَ مَن ينسخُ كلَّ شريعةٍ تقدَّمتهُ نسخًا لا زوالَ لهُ؛ لأنَّه لا نَبيَّ بعدَه؛ أنتجَ ذلك دعوتَهُم إلى الإيمان برسول اللّهِ ﷺ خاصَّةً بعد إيمانهم برسولهم، وأنْ يُقِرّوا بذلك إقرارًا صحيحًا، وأنْ يؤمنوا إيمانًا مضمومًا إلى إيمانهم باللّه تَعالى، فإنَّه لا يصحُّ الإيمان به إلّا مع الإيمان برسولهِ ﷺ؛ لأنَّ رسالتَهُ عامَّة، نَسَخَتْ جميعَ ما تقدَّمه من الشَّرائِع، ولذا جاء الوعدُ بإيتائِهم نَصيبَيْنِ ضَخْمَيْنِ مِن رَحْمتِه تَعالى، تحصينًا لَهُم، وهذا التَّحصين لأجل إيمانهم به ﷺ وإيمانهم بمَن تقدَّمه، وزاد في الوعدِ الجزيلِ بأن يجعل لهم نورًا مجازيًّا يَمْشون به في الدُّنيا مِنَ العُلومِ والمعارف القلبيَّة، ونورًا حسّيًّا في الآخرة، ولمّا كانَ الإنسانُ لا يخلو من نقصانٍ، فلا يبلغُ جميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ؛ وعدهم اللّهُ تَعالى بمغفرةِ ما فرطَ منهم من سهوٍ وعمدٍ وهزلٍ وجدٍّ، ولما قرَّر سُبحانَهُ ذلك؛ أتبعه التَّعريفَ بأنَّ الغفرانَ - وما يتبعه من الرَّحمةِ - صفةٌ له سُبحانَهُ شاملةٌ لِمَن يُريدهُ هو[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 323 - 324.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾: مثنّى، مفرده: كِفْلٌ، مأخوذٌ من الكافِ والفاءِ واللّامِ، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَضمُّنِ الشَّيءِ الشَّيءَ، ومن ذلك: الكِفْلُ، وهو كساءٌ يُدارُ حولَ سنامِ البعيرِ، أو هو كِساءٌ يُعقدُ طرفاه على عَجُزِ البعيرِ؛ ليركبَه الرَّديفُ، والكفيلُ: الضّامنُ، وهو: الذي يكفلُ إنسانًا يعولُه، قال اللّه تَعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: 37]، ومن معانيهِ النَّصيب، والضِّعف من الأجرِ والإثم[1]، والكِفْل بمعنى الحظِّ والنَّصيب، هو: قَدْرُ أيِّ كتلةٍ وكمٍّ من الشَّيء[2]، والمرادُ بـ ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾ في الآية، أي: نصيبَيْن يَحْفَظانِهم مِنَ المعاصي الموقِعَة في الهَلَكة، أو: نصيبَيْن من نِعْمَته في الدّنيا والآخرة[3]، أو أنَّ المرادَ النِّعمةُ المتواليةُ المُتَكَفِّلَةُ بكفايتِه، ويكونُ تثنيتُه على حَدِّ قولهم: (لَبَّيْكَ وسَعَدَيْك)[4].

2) ﴿تَمۡشُونَ﴾: (مشي) أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدُهما على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وهو الانتقالُ من مكانٍ إلى آخرَ، ومنه: مَشَى يمشي مشيًا[5]، والمعنى المحوريّ: انتقالٌ بحركةِ الأرجلِ أو نحوِها بلا حِدَّةٍ، فهو انتقالٌ بالأرجلِ قليلًا قليلًا بلا حِدّةٍ، على خلاف الجَرْي[6]، والمرادُ بـ ﴿تَمۡشُونَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ يَحْتَمِلُ إرادةَ الحقيقة، بمعنى المشي يومَ القيامةِ بما يُعْطيهم مِن النّورِ، ويَحْتَمِلُ إرادةَ المجازِ، بمعنى تدبيرِ الأمورِ، أي: يُبيّن لكم السّبيلَ، ويوضِّحُ الحقَّ[7].

3) ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾: (غفر) مُعْظَمُ بابِه دالٌّ على السَّترِ، والمِغْفَرُ: غطاءُ الرَّأس في الحرب، والغَفْرُ: السَّتْرُ، والغُفرانُ والغَفْرُ بمعنًى، يقال: غَفَرَ اللّهُ ذنبَه غَفْرًا ومَغفرةً وغُفرانًا، بمعنى: سَتَرَها، ولم يَفْضَحْه بها على رُؤوس الملأ، وكلُّ شيءٍ سترته، فقد غَفَرْتَه، والاستغفارُ طلَبُ المغفرة، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من (غفر) وتركيباته؛ فهو من

---

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (كفل).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفل).

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفل).

(4) الراغب، مفردات القرآن: (كفل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مشي).

(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مشى).

(7) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 541 - 542.

مغفرة الذّنوب[1]، ومعنى ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ هَهُنا: يصفحُ عنكم، ويسترُ ذنوبَكم، فلا يؤاخذُكُم بِها[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــوةُ أهـل الكتاب للإيمانِ والتَّصديقِ بالرّسولِ العدنانِ ﷺ

في هذه الآية الكريمة نداءٌ من الرَّحمن سُبحانَهُ لعبادة المؤمنين، وهم المؤمنون من أمَّةِ محمدٍ ﷺ بأن يَلۡزَموا طاعتَه فيما أمَر، وأن يَجْتَنِبوا ما نهى، وزجَر، وأنْ يَثْبُتوا على إيمانهم، ويجدِّدوا العهدَ باليقين الصّادقِ، ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ في الآيةِ لأهل الإيمانِ بعيسى عليه السلام، الذين ذكرهم اللّه تَعالى في الآية السّابقة بقولِه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾، وهو الرّاجح عند جَمْعٍ كثيرٍ من المُفَسِّرين[3]، فالآية على ذلك دعوةٌ لهؤلاء المؤمنين من أهلِ الكتابِ؛ لأن يَتَّقوا اللّهَ تَعالى في أنفسِهم وفي دينِهم، وألّا يُهْلِكوا أنفُسَهُم، ويُفْسِدوا إيمانهم، فإنَّهم إذا ألۡزَموا أنفسَهم صدقَ التَّقوى؛ كان عليهم أن يُؤمنوا برسول اللّه ﷺ، فإنَّ ما يَدْعوهُم إليه هو الإيمانُ الذي يُؤْمِنون به؛ إن كانوا مؤمنين حقًّا؛ ولهذا ناداهم اللّهُ تَعالى بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فمن كان مؤمنًا حقًّا من أهلِ الكتابِ؛ فإنَّه لا يجِدُ في الإيمان برسول اللّهِ محمَّدٍ ﷺ إلّا دعوةً مجدَّدةً للإيمانِ الذي تحملُه دعوة موسى وعيسى عليهما السلام؛ ولذا كان جزاؤُهم

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7341.

(3) ممن رجح هذا القول من كبار المفسرين: ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 207، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 541، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7336، والواحدي، البسيط في التفسير: 21/ 319، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 36، والزمخشري، الكشاف: 4/ 482، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 217، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 239، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 266، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 191، والنسفي، مدارك التنزيل: 4/ 443، والخازن، لباب التأويل: 4/ 253، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 214، وإسماعيل حقي روح البيان: 9/ 385، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 332، ويحتمل أن يكون الخطاب للفريقين كما أشار البقاعي، نظم الدرر: 19/ 323، والطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

إن استجابوا لهذا الأمرِ الشَّريفِ أَنْ يُؤْتِيَهُم اللّٰهُ تعالى كِفْلَينِ من رحمته، أي: جزاءً مضاعفًا من رحمته، جزاءً على إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام، وجزاءً على إيمانهم بمحمَّد ﷺ. وزاد على هذا الجزاءِ العميم الوعدَ بأنْ يجعل لهم نورًا من أنوارِ الحقِّ يمشون به في الدُّنيا يَكْشِفون به معالمَ الطَّريق إلى اللّٰه تعالى، وقَبَسًا من أنوارِ النَّعيم يَمْشون به في عرصاتِ القيامةِ، فهو نورٌ يَسْعى بين أيديهم وبأيمانِهم، كما يقول سُبْحانَهُ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾، ثُمَّ زاد على ذلك الوعدَ بالمغفرةِ التَّامَّةِ والرَّحمة الشّاملةِ، التي لا يتَّصفُ بها أحدٌ سواه، وبهذا يتحقَّقُ - لمَن يؤمنُ برسولِ اللّٰه ﷺ من مُؤْمِني أهلِ الكتاب - مضاعفةُ الجزاء لهم، وإيتاؤهم أجرَهم مرَّتين، وأن يجعلَ اللّٰهُ تَعالى لهم بهذا الإيمانِ نورًا يمشون به في الدُّنيا والآخرة، وأن يغفرَ لهُم ما يقعُ مِنْهُم من أخطاءٍ أو آثامٍ بواسِعِ رحمتِه ومغفرتِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ نداءِ المؤمنين في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

جذبُ انتباهِ السامعينَ لخطورةِ قضيَّةِ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ

في قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، افتتح النَّظمُ الجليلُ الآيةَ بأسلوب النِّداءِ؛ تنبيهًا على الاهتمامِ بمضمونِ القولِ، وهو الأمرُ بالتَّقوى والإيمان بنبوَّة محمَّد ﷺ، وخاطَبَهُم بصِفَةِ الإيمان؛ تنبيهًا على أنَّ ما يأتي في الخطابِ هو من أعمالِ المؤمنين الصّادقينَ في إيمانهم حثًّا لهُم على التَّحلّي بهذه الصِّفة العظيمة، وإن كانَ دخلَ إيمانَهُم شوبٌ من التُّرَّهاتِ التي حرَّفَ بها أهلُ الكتاب رسالةَ عيسى عليه السلام؛ فيجِبُ عليهم أنْ يُطَهِّروا اعتقادَهُم منها.

سِرُّ إيثار النِّداءِ بِـ (يا) دونَ غيرِها:

جاء النِّداء بـ (يا) في قول اللّٰه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 800 - 802.

علوُّ قدرِ الخالقِ سُبحانَهُ عن أوهام النَّصارى وأكاذيبِ اليهودِ

وهي في الأصلِ لنداءِ البعيدِ؛ لما فيها مِن مدِّ الصَّوتِ، فلاءمَتْ نداء الشَّيءِ المُتراخي البعيد[1]، ونداءُ اللّهِ تَعالى لعَبادِهِ نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أنْ يكونَ بأداة النِّداء للبعيد؛ لِبُعْدُ ما بينَ الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانة، وفيه أنَّه نِداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعْلى العلوِّ وأبعدَه، ويُظهرُ ذلك عِظَمَ شأنِ موضوع النِّداء، وضرورة العناية بهِ، والمُبالغة في حَثِّهم على المُحافظةِ عليه، فلاءَم النِّداءُ بالياءِ تقديسَ اللّهِ تَعالى عن أوهام النَّصارى وأكاذيبِ اليهودِ.

سِرُّ النّداءِ بِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

في الانتقالِ من الإبهامِ إلى الإيضاحِ توكيدٌ وتنبيهٌ

النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النّداءِ، ووَجهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المراد منه إلَّا باسم بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهام والغموضِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هَذا نَوعُ توكيدٍ، وفي اقترانه بـ (ها) التَّنبيه زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُراد به التَّنبيه، فجاءَ النَّظمُ بما يُشْعِرُ بخطورةِ ما سيأتي بعد النِّداءِ والتَّنبيه، ولذا فَقَد عدَلَ عنِ التَّعبير بغيرِهِ مِنَ الأساليب، فلم يقل: (يا أهل الكتاب الذين آمنوا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ تنبيهًا وتوكيدًا وإرشادًا لهذه الفائدة.

سِرُّ النداءِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ثباتُ الإيمانِ في نفوسِ المؤمنِينَ، وظُهورُهُ في سلوكِهِم وطبائعِهِم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النِّداء بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلتهِ؛ لما فيهِ مِنَ الإيماءِ إلى ثباتِ ذلكَ الإيمانِ في نُفوسِهِم، وظُهورِهِ في سلوكِهِم وطبائعِهِم، فالجملةُ الموصوليَّةُ أفادَتِ المدحَ والتَّقريظَ من جهةٍ، وأفادتِ الحثَّ والترغيبَ في السيرِ على منوالِ المؤمنين الصالحين في صدقِ الإقرارِ بنبوَّةِ محمد ﷺ ونفي الأوهام في ذات اللّهِ تعالى والتشريع في العبادة بما لم يأذن به اللّهُ.

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 230.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالصِّلَةِ فعْلًا ماضيًا:

التَّلبُّسُ بالإيمانِ واستِصْحابُه في كُلِّ أحْوالِ المؤْمنينَ وثَباتُه في نُفوسِهِم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن مؤمني أهلِ الكتابِ بالاسمِ الموصولِ مع الفعلِ الماضي، وليس باسم الفاعل؛ وذلكَ لأنَّ الإتيانَ بالموصولِ مع الصِّلةِ بالفعلِ الماضي قُصِدَ به التَّلبُّسُ والاستصحابُ[1]، إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ الاسمَ الموصولَ مع الفعْلِ الماضي دلَّ على زمانٍ ماضٍ مُحَدَّدٍ، عكس اسم الفاعلِ الذي لا يدلُّ على زمانٍ مُحَدَّدٍ، وأيضًا فإنَّ ضَّميرَ واو الجماعَةِ في ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيهِ قصديَّةُ الإيمانِ والتَّوجُّه إليهِ بكلِّ حواسِّهِم ومشاعِرِهِم، فكان الأَوْلى التّعبير بالاسم الموصولِ؛ وذلك لِما فيهِ من إشارةٍ إلى بيانِ سَبَبِ هَذا النِّداءِ بإخلاص التَّقوى والإيمان برسولِ اللّهِ ﷺ، وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ دلالةً على تحقُّقِ الإيمانِ في نُفوسِهم وثباتِه ورُسوخِه.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بفِعْلِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ:

المُعَوَّلُ في حقيقةِ الإيمانِ على القلبِ مع الجوارِحِ، لا إسلامِ الجوارحِ وحدَها

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بفعلِ الإيمانِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ فعلِ الإسلام (أَسْلَموا)؛ لِما في الإيمانِ من الدَّلالةِ على تمام انقيادِ القلبِ للّهِ تَعالى، ولمّا كان الخطابُ في الآية للذين آمنوا من أهل الكتابِ، وكان الاختلافُ معَ مَن تَمَسَّكوا بعقائدِهم الفاسدةِ؛ جاء التَّعبير بلفظِ الإيمان دون لفظِ الإسلام؛ لأنَّ المُعَوَّلَ في صحَّة الإيمان على إيمانِ القَلبِ مَعَ تَسليم الجوارِحِ، لا إسلامِ الجوارحِ وحدَها.

دلالةُ حذْفِ متعَلِّقِ الفعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

شمولُ مفهومِ الإيمانِ لكُلِّ أركانِهِ وفُروعِه

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متَعَلِّقَ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا للعلم به، فهوَ المذكورُ في قولِه ﷺ: «أنْ تُؤْمِنَ باللّهِ، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه»[2]، فصارَ هذا القولُ بمنزلةِ المفهومِ المعروفِ، فإذا قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فُهِمَ المقصودُ

---

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/ 186.

(2) رواه مسلم في صحيحه برقم: (8).

منْ تعلُّقِ الإيمانِ دونَ تركٍ لأيِّ رُكْنٍ من أركانِه، أو لأيّ فرعٍ من فروعِه، وإمّا للإيجازِ الذي هو أحدُ أهمِّ خصائصِ النَّظمِ الجليلِ، في اكتِنازِ اللَّفظةِ القرآنيَّةِ بمعانٍ كثيرةٍ.

دَلالةُ تكرار وصف الإيمان:

تخصيص القولِ للخُلَّصِ من المؤمنين من النَّصارى ومن أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ كِليهما

عبَّر النَّظم الجليلُ عن المخاطَبينَ بصفة الإيمانِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، بَعْدَ أن سبَقَ ذِكْرُهُم بالوَصْفِ نفسِه في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ وذلك لتخصيصِ هذهِ الفِئَةِ المُؤْمِنَة بالحديثِ فضلًا عن أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، بخلاف الكثرة الفاسقة التي عبَّرَ عنها في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾، فالغالبُ في القرآن الكريم أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لقَبٌ للمؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ، ولكنْ لمّا وقعَ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هنا عقِبَ قولِه: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، أي: مِن الذينَ اتَّبعوا عيسى عليه السلام؛ احْتَملَ قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن يكونَ مُستعملًا استعمالَه اللَّقبيَّ، أي: كونُه كالعَلَمِ بالغلبةِ عَلى مُؤمني ملَّة الإسلام، واحتملَ أنْ يكونَ قد استُعمِلَ استعمالَه اللُّغويَّ الأعمَّ، أي: مَن حصل منه إيمانٌ، وهو هنا مَن آمنَ بعيسى عليه السلام، والأظهرُ أنَّ هذينِ الاحتمالينِ مقصودانِ؛ ليأخذ خُلَّصُ النَّصارَى من هذا الكلامِ حظَّهُم، وهو دعوتُهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ؛ ليَستَكمِلوا ما سبق من اتِّباعِهم عيسى عليه السلام؛ فيكونُ الخطابُ موجَّهًا إلى الموجودينَ ممَّن آمنوا بعيسى عليه السلام، أي: (يا أيُّها الذينَ آمنوا إيمانًا خالصًا بشريعةِ عيسى اتَّقوا اللّهَ، واخشوا عقابَه، واترُكوا العَصبيَّةَ والحسدَ وسوءَ النَّظرِ، وآمنوا بمحمَّد ﷺ)، وأمّا احتمالُ أن يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الإطلاقُ اللَّقبيُّ؛ فيأخذ منه المؤمنونَ أهلُ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بشارةً بأنَّه لا يقلُّ أجرُهم عن أجرِ مؤمني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم لمّا آمنوا بالرُّسلِ السّابقينَ؛ أعطاهُم اللّهُ تَعالى أجرَ مؤمني أهلِ مِلَلِهِم[1].

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

سِرُّ الأمْرِ بالتَّقوَى بعدَ الإيمانِ:

توكيدُ خطورة الشِّرك ونفي نبوةِ محمَّدٍ ﷺ والابتداعِ في شرع اللهِ تَعالى

جاءَ الأمرُ بالتَّقوى في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اعتراضًا خلال الحديثِ عن وجوب الإيمانِ برسولِ اللّهِ ﷺ، والابتعاد عن طريق الكثرة الفاسقةِ التي كذَّبت برسول اللّهِ ﷺ مِن المشركين، والكثرة الفاسقة التي ادَّعت في عيسى عليه السلام مِن الألوهيَّة ما ليس فيهِ، فكان من جرّاءِ ذلك أنَّهم أنكروا نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فالأمرُ بالتَّقوى في هذا السّياق تأكيدٌ لخطورةِ الشِّرك والقولِ في شرع اللّهِ تَعالى ما لم يأذَن به من العقائدِ والعبادات؛ إذِ الإيمانُ أمرٌ قلبيٌّ في المقام الأوَّلِ، والتَّقوى تحقيقُ هذا الإيمانِ بالعملِ الصّالح الخالص من أَدران الشِّرك والوثنيَّة، واتِّباع الأوامرِ واجتناب المَنْهيّات في الاعتقادِ والعِبادَةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالتَّقوى دونَ الخَشيةِ أو الخوفِ:

التَّقوى هي المُحَصِّلة النِّهائيَّة للخشية والخوفِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالأمر بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، دون الأمرِ بالخشية أو الخوفِ؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوى أنْ يجعل المؤمِنُ بينَهُم وبين معاصي اللّهِ تَعالى حاجزًا من تعظيم اللّهِ سُبحانَهُ يحجزه عن الوقوع فيها، وأمّا الخوفُ من اللّه تعالى؛ فهو الرَّهبةُ منه واستشعارُ عظمتِه والوقوفُ بين يَدَيْه؛ لِما بدرَ منه مِن المعاصي والذُّنوبِ، وأنَّه يعلمُ سرَّ العبدِ وجهرَه وما توَسوسُ به نفسُه، وأمّا الخشيةُ؛ فهي جزءٌ من الخوف، ولكنَّها أخصُّ منه، فهي تتضَمَّن مهابةَ المخوفِ منهُ واستعظامَ قدرِه وانكسارَ القلبِ له، ولا تكون حقيقتُها إلّا ممَّن عنده علمٌ بالمَخوف منه، وعلى ذلك فالخشيةُ والخوفُ يكونان في المقام الأوَّل ندمًا وتحسُّرًا على ما بدرَ منه فيما مضى، والتَّقوى هي المحصِّلة النِّهائيَّةُ للخشيةِ والخوفِ كليهما.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهَرًا:

في قوله عَزَّ ذِكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، جعل

في إظهارِ الاسم الأحسنِ توكيدٌ على خطورة قضيَّةِ التَّقوى والمهابة لله تَعالى

النَّظمُ الكريم فعلَ التَّقوى المأمور به واقعًا على الاسم المُتَضَمِّن لمعاني الجلال والكمال؛ تعظيمًا لوجوب هذه التَّقوى، أي: خافوا عقابَه، فاجعلوا بينكُم وبين سخطه وقاية؛ لأنَّه الملكُ الأعظمُ، وذلك بحفظِ الأدبِ معهُ، وعَدمِ أمْنِ مَكْرِه، فكونوا على حَذَرٍ مِن أنْ يسلبَكم ما وهبَكُم، فاتَّبعوا الرَّسولَ ﷺ؛ تَسْلَموا، وحافظوا على اتِّباعِه؛ لئلّا تَهْلَكوا[1].

سِرُّ إيثار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ لفظِ الرُّبوبيَّة:

الحثُّ على الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وتخليصِ الاعتقادِ من الشِّركِ

التعبيرُ بالألوهيَّةِ عادةً ما يكون في سياقِ الأمرِ بإخلاصِ العبادة والتَّنزُّه عن الشِّركِ، وأمّا التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة؛ فعادةً ما يكونُ في سياقِ التَّذكيرِ بالنِّعَمِ المربّيَة للعبدِ؛ إظهارًا لفضل الرَّبِّ سُبحانَهُ عليه، ولذا كان التَّعبيرُ بالألوهيَّةِ هنا أنسبَ لسياقِ تخليصِ الاعتقادِ من الشِّركِ، والإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وعدمِ القولِ في شرعِ اللّه تَعالى بما لم يأذن بِه.

بَلاغةُ عطفِ الأمر بالإيمان على الأمْرِ بالتَّقوى:

الإيمانُ بالرَّسولِ ﷺ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ مهما بالغَ بعضُهم في ادِّعاءِ التَّقوى

جاءَ عطفُ الأمرِ بالإيمان على الأمرِ بالتَّقوى، في قولِه تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ للجمع بين الإيمانِ بشِقَّيْهِ: القلبيِّ والعَمَليِّ، فإنَّ الأمرَ بالتَّقوى غالبًا ما ينصبُّ على الأعمالِ الظّاهرة، والأمرُ بالإيمان عادةً ما ينصبُّ على الأعمالِ القلبيَّة، فلرُبَّما ظنَّ بعضُ مَن ابتَدَعوا الرَّهبانيَّةَ أنَّهم بتقواهم للّهِ تَعالى بهذه العباداتِ الظّاهرةِ قد حقَّقوا شرطَ الإيمانِ الصّحيح، فجاءَ العطفُ هنا لبيانِ المغايرةِ بين الأمرين، فالإيمانُ بالرَّسولِ ﷺ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ؛ مهما بالغَ مؤمنو أهلِ الكتابِ في ادِّعاءِ التَّقوى دون الإيمانِ بالرَّسولِ ﷺ عامَّةً، وبما جاءَ به من العبادة والتَّشريع خاصّةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.

سِرُّ الأمرِ بالإيمانِ، مع سَبْقِ وصْفِهم به:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أمَرَ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإيمان في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، مع أنَّ وصْفَهم بالإيمان يقتضي أنَّهم مؤمنون، والحقُّ أنَّ الأمرَ بالإيمانِ في الآيةِ مغايرٌ للوصفِ بالإيمانِ؛ إذ المرادُ من الأمرِ بالإيمان أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ مستعمَلًا في الدَّوام على الإيمانِ، كقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136]، ويكونَ إقحامُ الأمرِ بالتَّقوى في هذا الاحتمالِ قصدًا لأنْ يحصلَ في الكلام أمرٌ بشيءٍ يتجدَّد، ثُمَّ يُردَف عليه أمرٌ يُفهم منه أنَّ المرادَ به طلبُ الدَّوام، وهذا من بديعِ نَظم القرآن[1].

تجدُّدُ الإيمانِ يقتضي تجدُّدَ الأمرِ بهِ؛ ليدومَ عليه أهْلُهُ

وفي تخصيص الأمرِ بالإيمان برسول اللّهِ ﷺ دفْعٌ لتوهُّم مَن قد يظنُّ مِن أهل الكتابِ عامَّةً والنَّصارى خاصَّةً أنَّ إيمانه باللّهِ تعالى على أيِّ وجهٍ قد حقَّقَ له تمامَ فضيلةِ الإيمانِ، فلا إيمانَ خالصًا سوى ما كان شطرُه الإيمانَ برسول اللّهِ ﷺ.

خصوصيَّةُ الإيمانِ برسول اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

دَلالةُ تعديةِ (آمِنوا) بالباءِ:

عدَّى النَّظم الجليلُ الفعلَ (آمِنوا) بحرف الباءِ في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ لإفادة لزوم التَّصديق برسولِ اللّهِ ﷺ؛ لِما فيها مِن مَعْنى الإلصاقِ[2]، أي: التصاق الإيمان في قلوبِهم ونُفوسهم وعُقولِهم، وهو إلصاقٌ مجازيٌّ مأخوذٌ من المَعْنى الحقيقيِّ، وفيه دلالةٌ على أنَّ الأمرَ هَهُنا هوَ بالإيمانِ الصّادقِ الدّائم الذي لا تشوبه شائبةٌ، فيَلْتَصِقُ بالنَّفس، فلا يزولُ أبدًا.

الإيمانُ الصّادقُ إذا التصقَ بالنَّفس؛ فإنَّهُ لا يزولُ

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ (رَسولِه) مفردًا:

جاءَ النَّظمُ الجليلُ بتخصيصِ الإيمان برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

تخصيص الإيمان برسول الله مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إذ لا إيمان أصلًا لمن لَم يُؤْمِن به

ﷺ، وذلك على خلاف الآية السّابقة في قولِه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾؛ إذ المرادُ في هذا الموضع تخصيصُ الإيمانِ برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وذلك لبيانِ أنَّه ﷺ الرَّسولُ الذي لا رسولَ للّهِ الآنَ غيرُه، فيَجِبُ أن تُؤْمِنوا به إيمانًا مضمومًا إلى إيمانِكم باللّهِ تَعالى، فإنَّه لا يصحُّ الإيمانُ به إلّا مع الإيمانِ برسوله مُحَمَّدٍ ﷺ، وبأن تَثْبتوا على الإيمانِ بهِ، وتضمّوا الإيمانَ به إلى الإيمانِ بمَن تقدَّمَه يا أهلَ الكتاب؛ لأنَّ رسالتَه ﷺ عامَّة، فقد نَسَخَتْ جميعَ ما تقدَّمتْها من الشّرائع، فإيّاكم أنْ يميلَكم عنه ميلٌ من حسدٍ أو غيرِه، فبادروا إلى إجابتِه، والزَموا جميعًا الحَذَرَ في اتِّباعه والإيمان به، فلا تميلوا إلى بدعةٍ أصلًا[1]، وكذلك فإنَّ تخصيص الخطاب بالنَّبيِّ ﷺ فيه ما لا يَخْفى مِنَ الدَّلالةِ على جلالةِ قَدْرِه ﷺ[2].

في التَّعبير بصفةِ الرِّسالةِ دلالةٌ على الاستقلالِ في التَّبليغِ والتَّشريعِ

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ الرسول مضافًا دون النبيّ:

لَمَّا قَرَنَ النَّظمُ الجليلُ طَلَبَ الإيمانِ باللّهِ تَعالى في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بأعظم صفاته سُبحانَهُ، وهي الألوهيَّةُ المتضَمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ربَطَ الإيمانَ بالرَّسولِ بأخصِّ صفاته ﷺ، وهي الرِّسالة، وذلك مَعلومٌ من تعليق الإيمانِ بوصف الرَّسولِ دون اسمِه العَلَم، فرَبَط أعظَمَ المطالبِ بأعظم الصِّفات، وكذلك فإنَّ المَوْضِعَ هَهُنا في سياق الأمرِ بالإيمان والاتِّباعِ، ودلالةُ لفظِ (رَسولِه) على طلب الاتِّباع أقوى من لفظ (نَبيِّه)؛ لِما في لفظِ الرِّسالةِ دلالةٌ على الاستقلالِ بالتَّبليغ والتَّشريع، وفي إضافة لفظ (رسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى تشريفٌ للمضافِ وتعظيمٌ لَهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

سِرُّ الاكتِفاءِ بِالإيمانِ بِرسولِهِ دونَ بقيَّةِ أركانِ الإيمانِ:

اكتفى النَّظمُ الجليلُ بالأمرِ بالإيمانِ برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، دونَ بقيَّةِ أركانِ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمان الصّادق برسول اللّهِ ﷺ يتضمَّنَ كل أركان الإيمان القلبيَّة، والصِّدق في اتِّباعِه يتضمَّنُ كلَّ الأعمال الصّالحة، فضلًا عن أنَّ المقام هَهُنا ليس مقامَ تفصيلٍ في أركانِ الإيمانِ، بل هو دعوةٌ لأهل الكتابِ خاصَّةً، وللمؤمنين عامَّةً بتحقيقِ الإيمانِ برسول اللّهِ ﷺ، وبيان حُسْنِ الجزاءِ وسَعَةِ الرَّحمةِ، فكانَ الإيجازُ أوْلى وأنسبَ للسّياقِ.

الإيمانُ برسولِ اللهِ ﷺ وحسنُ اتِّباعِه يتضمَّنُ الإيمانَ بكلِّ الأركانِ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بِجملةِ ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ جَوابًا للأمرِ:

جُزِم المضارع في قولِه تَعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾؛ لأنَّه واقعٌ في جوابِ الطَّلبِ، أو على تقديرِ الشَّرط، والفاعل ضميرٌ مستترٌ تقديرُه (هو) يعودُ على اللّهِ تَعالى، والكافُ ضميرٌ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به أوَّل، و﴿كِفۡلَيۡنِ﴾: مفعولٌ به ثانٍ[1]، والمعنى: يُؤتِكم جزاءً في الآخرةِ، وجزاءً في الدُّنيا، فجزاءُ الآخرةِ قولُهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، وقولُهُ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وجزاءُ الدُّنيا قولُه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾، فالمرادُ: يُؤتكم أجرينِ عَظيمَيْنِ، وكلُّ أجرٍ مِنهُما هو ضِعْفُ الآخرِ مماثلٌ لهُ[2]، وفي الحديثِ الصَّحيحِ الذي رواه البخاريُّ في صحيحه أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَرَّتَينِ: رَجُلٌ من أَهْلِ الكِتابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وأَدْرَكَ النَّبيَّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ، واتَّبَعَهُ وصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرانِ ...»[3].

عطاءُ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ واسعٌ لا ينفدُ

سِرُّ التَّعبيرِ بِالإيتاءِ مضارعًا دونَ الإعطاءِ:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على عظيمِ الجزاءِ لِمَن آمَنَ

الإيتاءُ أقوى وأعظمُ وأشدُّ فائدةً من الإعطاءِ

---

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 27/ 340.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (3011)، ومسلم في صحيحه برقم: (154).

برسولِ اللّهِ تَعالى مِن أهلِ الكِتاب ومِن أمَّةِ الإسلام؛ لأنَّ الإيتاءَ لا يكون إلّا للشَّيء الكثير والعظيم، كما في قولِه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: 148]، في حين لم يَرِدِ الإعطاءُ في القرآنِ إلّا دالًّا على الإعطاء القليلِ، وإذا جاءَ دالًّا على عطاءٍ كبيرٍ؛ قُرِنَ بما يشيرُ إلى ذلك من السّياق نفسِه، والإيتاءُ فيه قوَّة؛ لأنَّه لا يتوقَّف على قبولٍ، في حين أنَّ الإعطاء يتوقَّف على القبول، والإيتاءُ لا يكونُ إلّا عن رضًا وطيبِ نفسٍ، في حين قد يكونُ الإعطاءُ عن كُرهٍ[1]، ولمّا كانَ المقامُ مقامَ جزاءٍ وإحسانٍ لا حدَّ لمنتهاهما؛ جاءَ النَّظمُ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ.

دَلالةُ الخِطابِ في قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾:

في التَّخصيصِ تشريفٌ وبشارةٌ وحثٌّ على صدقِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بكاف الخطابِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾؛ لتخصيصِ الخطاب بمن آمن بالرُّسل السّابقينَ، ثُمَّ آمن بمُحَمَّدٍ ﷺ، وبِمَن آمَنَ مِن أُمَّةِ الإسلام، وفي هذا التَّخصيص تشريفٌ كبيرٌ، وبشارةٌ سارَّةٌ لهم، وفيه كذلك حثٌّ للفريقَيْنِ جميعًا على تحقيقِ صدقِ الإيمانِ به ﷺ.

سِرُّ التَّعبيرِ عن جزاء أهل الإيمانِ بالكِفْلِ دونَ النَّصيبِ أو الضِّعف:

في الكِفْل من معاني الثِّقلِ والمضاعفة والمماثلة ما هو أنسبُ للسّياقِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التعبيرَ بلفظِ الكفْلِ دونَ النَّصيبِ، والكفلُ والنَّصيبُ كلاهُما بمعنى الحظِّ، ومن معاني الكفلِ في اللُّغةِ: النَّصيبُ المُساوي، ومنها: المِثل، أمّا النَّصيب؛ فهو مُطلَقٌ، والنَّصيب عامٌّ: صغيرٌ وكبيرٌ وأكبرُ، وليس له شيءٌ محدَّدٌ، وقد وردت كلمَةُ كِفْلٍ عندَ ذكر السَّيِّئة في قولِه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النساء: 85]؛ لأنَّ السَّيِّئات تُجزى بقَدْرِها، ولا يزيد

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 27 - 29.

عليها، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: 40]، أمّا الحسنةُ؛ فتُضاعفُ، وتتَّسعُ وتعظمُ، وقد تكون عشرةَ أضعافٍ، وقد تكون أكثرَ، ولَم يُحَدَّد أنَّها مثلها؛ لذا جاءت كلمة نصيب مع الحسناتِ؛ لأنَّ الحسنةَ لها نصيبٌ أكثرُ من السَّيِّئات، وقول بعضِ اللُّغويّين: إن النَّصيب في الأمورِ الحسنةِ، والكفلَ في الأمور السَّيِّئة؛ تردُّه الآيةُ هَهُنا ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، وجاءَ الكِفْلُ هَهُنا بمعنى المثلِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ لهم مِثْلَينِ من أجر غيرهم ممَّن لم يُؤْمِن بسائر الأنبياءِ، وكذلك ففي مادَّة الكافِ واللّام والميم ما يدلُّ على الضَّمانِ والكفايةِ والثِّقلَ ومضاعفةِ الأجر، وهي معانٍ أنسبُ للسّياقِ من معاني النَّصيبِ أو الضِّعفِ أو المثل.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾:

مِن رحمة الله تَعالى المبالغةُ في وقاية أهل الإيمانِ

الكِفْلُ في الأصل: كساءٌ يُعْقَدُ على ظهرِ البعير، فيلقي مقدَّمه على الكاهِل، ومُؤَخَّره على العَجُز، يَحفظ الرّاكب، ويَمْنَعُه مِنَ السُّقوط، والمراد في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾: نَصيبان عظيمانِ مِن الرَّحمة، يَمْنَعان الشَّخص مِنَ العذابِ، كما يمنَع الكفلُ الرّاكب من السُّقوط[1]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِالمُثَنَّى ﴿كِفْلَيْنِ﴾ دونَ المفرد:

عظيمُ الأجرِ والجزاءِ لمَن سارَ على دَرْبِ الأنبياءِ

جاءَ التَّعبيرُ بالمُثّنى في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على عظيمِ الأجْرِ والجزاءِ، مثل قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 68]، وقولِه: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30]، والمرادُ بـ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ في الآية، أي: نصيبَيْنِ يَحْفَظانِهم من المعاصي الموقِعَة في الهَلَكة، وقيل المرادُ: نصيبَيْنِ

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 6/ 570 - 571.

مِن نِعْمَتِه في الدّنيا والآخرة[1]، وهما المرغوبُ إلى اللّه تَعالى فيهما بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201]، وقيل: لم يَعْنِ بقوله: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أيَّ نعمتينِ اثنتينِ، بل أرادَ النِّعمةَ المتواليةَ المُتَكَفِّلَةَ بكفايتِه، ويكونُ تثنيتُه على حَدِّ قولهم: (لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ)[2].

معنى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

ابتداءُ الفَضْلِ والرَّحمةِ من اللهِ تَعالى

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ابتدائيَّةً مجازيَّةً، أي: ذلك من رحمةِ اللّه تَعالى بِكُم، وهذا في جانبِ النَّصارى، وذلك لإيمانهم بمحمَّد ﷺ وإيمانهم بعيسى، وهذا مِن فضلِ اللّه تَعالى وإكرامه وإلّا فإنَّ الإيمان بمحمَّد ﷺ واجبٌ عليهم كإيمانهم بعيسى عليه السلام، وهو متمِّمٌ للإيمانِ بعيسى، ويجوز أن يكون ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ صفةً لـ ﴿كِفْلَيْنِ﴾، وتكونَ ﴿مِن﴾ بيانيَّةً، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، تقديرُه: وهو ثوابُ الجنَّةِ ونعيمُها[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالرَّحمةِ دونَ الفَضلِ في قولِه: ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

الرَّحمةُ في الأصلِ تتناولُ المغفرةَ والعفوَ واللُّطفَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالرَّحمةِ دونَ الفضلِ؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة في الأصل تتناول المغفرةَ والعفوَ واللُّطفَ، وأمّا الفَضْلُ؛ فهو العطاءُ الزّائدُ ابتداءً بلا سببٍ[4]، ولمّا كان السّياقُ في الآيةِ الكريمةِ أقربَ لمعنى إسباغِ العَفْوِ والمغفرة على ما اقْتَرَفَه أهلُ الكتابِ وأمّة الإسلام قبل إيمانِهم مِن المعاصي والذُّنوب؛ كان التَّعبيرُ بالرَّحمةِ أشمل وأوقعَ، وكذلك فإنَّ الرَّحمة عادةً ما تتناولُ النِّعم المعنويَّة، والفضل يتناولُ النِّعم المادّيَّة، والإنعام بالمغفرةِ والعفو من النِّعم المعنويَّة، لذا كان التَّعبيرُ بها أنسبَ للسّياق وأوفقَ للمعنى.

---

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفل).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (كفل).

(3) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 428.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

سِرُّ إضافةِ الرَّحمةِ إلى الضَّميرِ لا إلى الاسم الأحسَن (الله):

رحمةُ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ تشريفٌ لقَدْرِهِم ومكانَتِهِم عند اللهِ سُبحانَهُ

أضاف البيانُ القرآنيُّ الرَّحمةَ إلى اللّهِ تَعالى في قولِه تباركت آلاؤُه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ دلالةً على التَّشريف والحفاوة بأهل الإيمان بالرُّسل السّابقين وبِمُحَمَّدٍ ﷺ، وآثر النَّظمُ الإضافةَ إلى الضَّميرِ؛ لِما فيه من التَّفخيم وعلوِّ الشَّأنِ؛ إذْ لا يَنْصَرِف الذِّهنُ إلّا إليه سُبحانَهُ، وكذلك فإنَّ التَّعبير بالضَّمير أوجزُ وأخصرُ لسَبْقِ وُرودِ الاسم الكريم في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الآية نفسِها، فعُدِلَ عن الإظهارِ؛ تنزيهًا للنَّصِّ البليغِ عن تكرارٍ يسدُّ مسدَّه الضَّميرُ على نحوٍ أبلغَ.

دَلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ﴾:

تـعـدُّدُ ألـوانِ الرَّحمةِ والفضل لِمَن آمـن برُسل اللهِ تَعالى

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ على قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ لبيانِ تعدُّدِ ألوانِ الرَّحمة والفضل بأهل الإيمانِ، وقد وصل البيانُ القرآنيُّ بين الجملتينِ لاتِّفاقهما في الخبريَّة، ولِما بينَهما من التَّناسُب لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فاتّحادهما في الفعليَّةِ، وفي المسنَدِ إليه، وأمّا في المعنى؛ فلأنَّهما واردانِ لتعدادِ إنعامِ اللّهِ تَعالى على أهل الإيمان، فيكون بين الجُملَتين توسُّطٌ بين الكمالَيْن.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل﴾ دونَ (يُنشِئ) أو (يُحدِث):

الجعلُ إعطاءُ الصِّفةِ الوظيفيَّةِ النّافعةِ لما خَلَقَه اللهُ تَعالى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بفعلِ الجَعْلِ دون الإنشاءِ أو الإحداث؛ لأنَّ الجَعْلَ إعطاءُ المخلوقِ الصِّفةَ الوظيفيَّة التي يقومُ بها، فالخلقُ والإنشاء والإحداث إبداعٌ، والجعلُ تسخيرٌ وتسييرٌ لهذا المخلوقِ المبدَعِ، وكذلك فإنَّ لفظَ الفعلِ (جعلَ) لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من (فعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتِها، ولذا فالجَعْلُ في اللُّغة فيه معنى التَّهيئةِ والتَّضمينِ والتَّبعيَّة، وإحداث شيءٍ من شيءٍ وتكوينه منْهُ[1]، وفيه إشارةٌ إلى الامتنانِ بالنَّجاة والهداية والتَّوفيق

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

والنّور التي أكْرَمَهُم اللّهُ تَعالى بها، وبتهيئةِ هذا النّورِ بحيثُ ينتفعونَ به في الدُّنيا والآخرةِ، فلا هو بَرْقٌ ساطعٌ يُعْمي أبصارَهُم، ولا هو ضوءٌ خافِت لا ينتفعونَ به، بل هو نورٌ على نورٍ مِن فَضْلِ اللّهِ تَعالى ورحمته بأهْلِ الإيمانِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارَعَةِ ﴿وَيَجۡعَل﴾:

تجدُّدُ النّورِ لأهلِ الإيمانِ في الدُّنيا والآخرة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المُضارعةِ ﴿وَيَجۡعَل﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا الجَعْلِ بما يُنيرُ طريقَ هؤلاء المؤمنينَ في دُنْياهُم وآخراهُم، بنورٍ متجدِّدٍ في عقولِهم وقُلوبِهم في الدُّنيا، وبنورٍ لا يَنْقَطِعُ في الآخرة يَهْديهم سواءَ الصِّراط.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَّكُمۡ﴾، ودَلالةُ تَقديمِ شبه الجملة:

الاهتمامُ البالغُ بأهلِ الإيمانِ جزاءَ سَيْرِهِم على دَرْبِ الأنبياءِ

جاءَ تقديمُ القيدِ ﴿لَّكُمۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ للعنايةِ بتَخْصيصِ هذا النّورِ الباهرِ لِمَن آمَنَ بالرُّسُلِ المتقدِّمة، ثُمَّ آمن بمُحَمَّدٍ ﷺ، وبِمَن آمَنَ من أمَّةِ الإسلام، وزاد هذا الاهتمامُ بالتَّعبيرِ باللّامِ الدّالَّةِ على التَّخصيصِ، فأفادت أنَّ هذا التَّخصيصَ تشريفٌ وبُشْرى سارَّةٌ لهم، وفيه كذلك حثٌّ للفريقين جميعًا على تحقيقِ صدقِ الإيمانِ به ﷺ، لنيل هذا النّور المُبين في الدُّنيا والآخرة.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿نُورٗا﴾ دونَ (ضوءًا):

في التَّعبيرِ بالنّورِ دلالةٌ على السَّلامِ والصّفاءِ والرّاحة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عمّا وهبه اللّهُ تَعالى برحمته لأهل الإيمانِ بلفظ ﴿نُورٗا﴾ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾، وعدلَ عن لفظِ (ضوء)، وذلك لِما بَيْنَهُما مِنَ الفرْقِ الدّلاليِّ؛ إذِ الضَّوء هو الأشِعَّة الصّادرةُ عن جِسْمٍ مُلْتَهِبٍ مُضيءٍ بذاته، فلَفْظُ الضَّوء يتضمَّنُ الحرارة، وهو مرتبطٌ عادةً بالشَّمس والنُّجوم المُشْتَعِلَة، أمّا النّورُ؛ فهو انعِكاسُ هذا الضَّوء على الأجسامِ المُظْلِمَة[1]، وهو مرتَبِطٌ عادةً بالقمرِ

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ضوأ) و(نور).

خاصَّةً في اللَّيالي البدريَّة الجميلةِ، ففيه إشارةٌ إلى ما يَجْلِبُه النّور مِن سلام وصفاءٍ وراحةٍ نَفْسيَّة، والنّور ضربانِ: دنيويّ، وأخرويّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضرب معقولٌ بعَيْنِ البَصيرَةِ، وهو ما انتشر من الأمورِ الإلهيَّة، كنور العَقْلِ ونور القرآن، ومحسوسٌ بعَيْنِ البصَر، وهو ما انْتَشَر من الأجسام النَّيِّرة، كالقَمَرَيْنِ والنّجوم والنّيّرات، فمن النّور الإلهيِّ قولُهُ تَعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ [المائدة: 15]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورًا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: 122]، ومِنَ المحسوس الذي بعين البَصَرِ نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5][1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالإفراد والتَّنكير في قولِه: ﴿نُورٗا﴾:

نورُ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ نورٌ فخمٌ عظيمٌ يهدي القلوبَ والنُّفوسَ والعقولَ

آثرَ النّظمُ الجليلُ التَّعبير عن نورِ أهل الإيمان الذي جعله جزاءً لهم بلفظِ ﴿نُورٗا﴾ مُفْرَدًا نكرةً؛ وذلك لأنَّ في الإفرادِ والتَّنكيرِ من تفخيم هذا النّور السّاطع الباهِر ما لا يوجَدُ في الجَمْعِ والتَّعريف، فهو نورٌ من لدن اللهِ تَعالى لا يُشْبِهُ ما نَعْرِفُه من الأنوار الأرضيَّة، ففيه مِنَ العظمَةِ والفَخامَةِ والجَمال والبهاء ما يُسْعِدُ نُفوسَهُم، ويَهْدي قُلوبَهُم وعُقولَهُم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِالمَشْيِ دونَ السَّعْي:

مشيُ أهلِ الإيمانِ مشيٌ هيِّنٌ لا اضطرابَ فيهِ

عُبِّر بالمَشْيِ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ دون السّعي؛ لأنَّ المَشْيَ يدلُّ على السّكينةِ والتُّؤدَة والاهتداءِ بنور اليقين، بخلاف السّعي الذي قد يُفيد السُّرْعَة والاضطرابَ والحركة القَلِقة غالبًا، فالسّعي في اللّغة هو المشي السّريعُ الذي لا يبلغ حدّ العَدْوِ، وهو مَشْيٌ يَنْطَوي عَلى اجتهادٍ وحرصٍ ومُبادَرَةٍ، بخلاف المَشْيِ الذي قَد يُفهم منه التَّمهُّل[2]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾

(1) الراغب، مفردات القرآن: (نور).

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 359.

[الجمعة: 9]؛ إذ المقامُ مقامُ جدٍّ ومسارعةٍ إلى طاعة اللّهِ تَعالى، أمّا في هذه الآية؛ فالمقصودُ سَيْرُ المُؤْمِن في دروبِ الحياة على بصيرة وهدًى بنورٍ إلهيٍّ يهديه في الظّلمات، فناسب لفظ المَشْي لِما فيه من طُمَأْنينَةٍ واعتدالٍ واستقامَةٍ على الطّريق؛ إذِ الهدايَةُ نورٌ يَضْبِطُ الخُطا لا اندفاعَ يُلْهِبُها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بَصيغةِ المُضارَعَةِ ﴿تَمْشُونَ﴾:

تــجــدُّدُ مشي المؤمنين بالهدى والــحــق في الـدنـيـا، وإلى الجنَّةِ في الآخرةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغة المضارعةِ ﴿تَمْشُونَ﴾؛ للدلالةِ على تجدُّدِ مشي المؤمنينَ في دروب الحياة بالهدى واليقين، وعلى تجدُّد توفيقهم أثناء المشي إلى الجنَّةِ، فهو النور الذي يمشون به في الآخرة على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة، وهذا النور هو علامة المؤمنين يوم القيامة يبرز لهم من صحائف أعمالهم(1)، فليست الهدايةُ بهذا النورِ مقتصرَةً على لحظةٍ بعينها، بل هو توفيقٌ دائمٌ في كلِّ حركاتهم وسكناتهم، وهذا من الفضلِ العميمِ والجزاءِ الجزيلِ من رب العالمين.

دَلالةُ تَعديةِ ﴿تَمْشُونَ﴾ بِالباءِ دونَ (في):

مـلازمـةُ الـنّـورِ لـلـمُـؤْمِـنـين في الدُّنيا والآخرة، فكأنَّهم أصبَحوا نورًا أينَما ذَهَبوا

عدَّى النَّظمُ الجليلُ فعل ﴿تَمْشُونَ﴾ بحرفِ (الباء) دون حرفِ الجرِّ (في)؛ وذلك لأنَّ (في) تدلُّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة أو الزَّمانيَّة، فلو جاءت في هذا السّياق بأن يكون اللفظ: (يمشون فيه)؛ لفُهِمَ منهُ أنَّ النّورَ قد يَنْقَطِعُ عنهُم؛ إذا ساروا في مكانٍ آخَرَ لَيْسَ فيهِ نورٌ، أمّا التَّعبيرُ بالباءِ؛ فيدلُّ على المُصاحبةِ والملازمةِ والالتصاقِ، ويدلُّ على الاستعانَةِ كذلكَ، ولذا ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا النّورَ الإلهيَّ ملازمٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ، لا ينفكُّ عنهم، فكأنَّهُم صاروا هُم بِذَواتِهِم نورًا يتحرَّك في سبيلِ الهُدى والحَقِّ، فلا يَضِلّون عن طريق الإسلامِ والقرآنِ في الدُّنيا، ويوفَّقون بِه في السَّير في عَرصاتِ القيامةِ.

(1) محيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 127 - 128.

بَلاغَةُ التَّمثيلِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾:

نورُ المؤمنين صراطٌ مستقيمٌ لهم في الدُّنيا والآخرة

قولُه تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ تمثيلٌ لحالِ القوم الطّالبينَ التَّحصيلَ على رِضا الله تعالى والفوز بالنَّعيم الخائفينَ مِنَ الوقوعِ في ضدِّ ذلك بحالِ قوم يَمْشونَ في طريقٍ بِلَيْلٍ، يخشون الخطأ فيه، فيُعطَوْنَ نورًا يتبصَّرونَ بِهِ، فيأمَنون الضَّلالَ فيه، والمعنى: ويجعل لَكُم حالًا كحالِ نورٍ تمشونَ به، وجميعُ أجزاءِ هذا التَّمثيلِ صالحةٌ لتكون استعاراتٍ منفردةً، وهذا أبلغُ أحوالِ التَّمثيلِ، فالنّور مستعارٌ للهُدى استعارةً مصرَّحَةً مُرَشَّحة، و﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ ترشيحٌ، إمّا أن يكون باقيًا على معناه، أو مجازًا لمعنًى يُناسبهُ[1]، وقد عُرِفَ في القرآنِ الكريم تشبيهُ الهُدَى بالنّورِ، والضَّلالِ بالظُّلمة، والبرهانِ بالطَّريقِ، وإعمالِ النَّظرِ بالمشيِ، وشاع ذلك بعدَ القُرآن الكريم في كلامِ أدباءِ العربيَّة[2].

سِرُّ اختلافِ التَّعبيرِ في الجَزاءِ المُعدِّ لأهلِ الإيمانِ:

يوصَفُ النّورُ بالسَّعي والمَضاءِ، أمّا المؤمنون؛ فيوصَفون بالمَشْيِ الهادِئِ المُطْمَئِنِّ

وَصَفَ النَّظمُ الحكيمُ أهلَ الإيمانِ هَهُنا بأنَّ لهم نورًا يمشونَ به في قولِه تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾، وكان قد وصَفَ المؤمنين والمؤمناتِ بأنَّ لهم نورًا يَسْعى، وذلك في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾، والنّور واحدٌ في المَوْضِعَيْنِ[3]، ولكنَّهُ لمّا وصَفَ حركةَ النّورِ؛ وصَفَها بالسَّعْيِ بسرعةٍ ومضاءٍ، وحين وصفَ حركةَ المؤمنينَ أنفُسِهم؛ وصَفَهُم بالمَشْيِ؛ للدّلالة على هدوءِ أنفُسِهم وطمأنينةِ بالِهِم.

دَلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾:

تعدُّدُ صوَرِ الفَضْلِ والمغفرة لِمَنْ آمَنَ برُسل اللهِ تَعالى

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ على قولِه:

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 480.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 428.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ لبيانِ تعدُّدِ صوَرِ الرَّحمة والفضل لأهلِ الإيمانِ، والوصلُ بينَهُما لاتِّفاقهما في الخبريَّةِ، ولِما بينَهما مِن التَّناسُبِ لفظًا ومعنًى، فيَكونُ بينَ الجملتَينِ توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمغفِرَةِ دونَ الرَّحمة:

في المغفرةِ مَعْنى السَّتْرِ والصَّفْحِ والكِتْمانِ

لمّا سبقَ ذِكرُ الرَّحمةِ في قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، وأعقبَ ذلكَ بذِكْرِ النّورِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ ناسبَ ذلك ذِكر المغفرة في قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لتَتَكامَلَ لَهُم ألوانُ الفَضْلِ الإلهيِّ؛ لِما في المغفرةِ مِن مَعاني السَّتْرِ والصَّفْحِ والكِتْمان، فيَمْحو اللّهُ تَعالى بفَضْلِه ما اقْتَرَفوهُ مِنَ المعاصي والذُّنوب.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعَةِ في ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

مـغـفـرةُ الـلـه تَعالى للمؤمنين متجدِّدَةٌ بتجدُّدِ تـوبَـتِـهـم ما ابـتَـعَـدوا عن الـشِّـرك بـالـلـهِ تَعالى

عبر النَّظمُ بالفعلِ المُضارع الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحُدوثِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ كلَّما أحدثَ العَبد ذنبًا؛ أوجدَ اللّهُ تَعالى له مغفرةً، وفيه طَمْأنَةٌ لقلوبِ المؤمنين بأنَّه مهما تعاظَمَت ذُنوبُهُم؛ فإنَّ اللّهَ تَعالى يَغْفِرُها؛ ما اجتنبوا الشِّرك، ورَضوا باللّهِ تَعالى ربًّا وبالإسلامِ دينًا، وبسَيِّدنا مُحَمَّدٍ نبيًّا ورسولًا ﷺ، وفيه بشارةٌ بأنَّ بابَ المغفرة مفتوحٌ لا يُغلَقُ حتّى تطلع الشَّمسُ مِن مَغْرِبِها؛ لأنَّهُ لمّا كان الإنسانُ لا يخلو من نقصانٍ، فلا يبلغُ جميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ، فوعدهم سبحانهُ بتجدُّدِ مغفرةِ ما فَرط منهم مِن سهوٍ وعمدٍ وهزلٍ وجدٍّ(1).

دَلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، وفائدة التعبير بشبه الجملة:

في التَّخصيص بـيـانٌ لمـبـلـغ العِنايةِ الإلهيَّة والرِّعايةِ الرَّبّانيَّة

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بقولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾؛ لبيانِ مزيدِ العنايةِ والاختصاصِ بمَن آمَنَ بالرُّسل السّابقين مِن أهْلِ الكِتاب، ولِمَن صدَقَ إيمانُه برسولِ اللّهِ ﷺ، وإن كانت المغفرة عامَّة لِكلِّ مَن آمن باللّهِ تَعالى، إلَّا أنَّ اللّه سُبحانَهُ أرادَ أن يَزيدَ في إكرامِهِم بهذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.

التَّخصيص؛ ليَنْزَع ما في قلوب بعضِهم مِن أدرانِ ديانَتِه الأولى، وفي ذلك دليلٌ على مبلغِ العناية الإلهيَّةِ والرِّعايةِ الرّبّانيَّةِ لكثرة المَوانِع في قلوبِ هَؤلاءِ عامَّةً، ومُؤْمِني أهل الكتابِ خاصَّةً.

دَلالةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ المَغفرَةِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾:

شمولُ المغفرةِ وعمومُها

حذفَ النَّظم الجليلُ متعلِّقَ المغفرة في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لبيان شمولِ المغفرة وعمومِها، فإنَّه سُبحانَهُ واسِعُ المغفرة، ما اجْتُنِبَ الشِّرك باللّه، والغالبُ على النَّظمِ القرآنيِّ حذفُ متعلِّقِ الفعل (يَغْفِر)، وعليه سار النَّظم في هذا الموضعِ، وغالبًا ما يكون ذِكرُ المُتَعلِّقِ - وهو الذُّنوبُ أو الخطايا - لنكتةٍ بعَيْنِها يقتضيها السّياقُ.

بَلاغةُ ترتيبِ الوعد الإلهيِّ في الآية:

التَّدرُّج في بيانِ درجـاتِ الجَزاء الحسنِ تشويقًا لأهـلِ الإيـمانِ وحثًّا لَهُم

رتَّبَ النَّظمُ الحكيمُ ما وعد اللّهُ تَعالى به عبادَه المؤمنين من أهلِ الكتاب وغيره، فبدأ ببيانِ مُضاعفَةِ الرَّحْمَة في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ ليحثَّهم على التَّحوُّلِ عن إنكارِ رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ، وهو مضاعفةُ الدَّرجاتِ في الرَّحمة، ثُمَّ ثنَّى بجَعْلِ نورٍ لهم يَمْشونَ بِهِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ طمأنةً؛ لقُلوبِهِم على أنَّه قد أيَّدَهُم بِما يَجْعَلُهُم ثابتِينَ على طريقِ الحقِّ، فيخوضونَهُ غيرَ خائفين ولا وجلين، وأخيرًا جاءَ الوعدُ بالمغفرةِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لطَمْأنَةِ نُفوسِهِم أنَّهم لَو وقعوا فيما لا يُحبُّ اللّه تَعالى؛ فإنَّه سُبحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَة، فلا يَسْتَبِدُّ به القُنوط أو اليأس مِن رَحْمَتِه.

دَلالةُ عَطْفِ جملة الفاصلة بالواوِ:

ترسيخُ معنى المغفرةِ والرَّحمة بعد تأسيسه في الجملةِ السّابقةِ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بقولِه تَعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ بالواوِ؛ لاتِّفاق الجُملَتَينِ في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، ولانتفاءِ مانعِ الوصلِ، ولأنَّ الجملةَ توكيدٌ لِما ورَدَ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، التي تَضمَّنت تأسيس معنى المَغْفِرَة، ثُمَّ أكَّدته الجملةُ الثّانية بِما يُقَرِّره، ويُرَسِّخه في نفوس المُتَلَقّين.

بَلاغةُ التَّذييلِ بِقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

اللهُ تَعالى كثيرُ الرَّحمةِ واسعُ المغفرةِ

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ هذه الآيةَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ للتَّأكيدِ على صفةِ المغفرةِ بَعْدَ التَّأسيس لَها في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، على أنَّ هذا التَّذييلَ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقاره إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المرادِ مِنْهُ، وفيه إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرة اللّه تعالى لَهُم؛ لأنَّه كثيرُ الغفرانِ كثيرُ الرَّحمةِ بعبادِه.

دلالةُ مجيءِ جملة الفاصلة اسميَّةً:

دوامُ رحمةِ اللهِ ومغفرته فلا يحول دونها حائلٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بالجملة الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المُعطي والمُؤتي والمُجازي هو اللّه ﷻ، وقد تعدَّدت ألوانُ الجَزاءِ مِنْهُ، فَشَمِلَت الرَّحمة والنّور والمغفرة على وجهِ التَفضُّلِ دون واسطةٍ ودون التماسِ عِوَضٍ، فجاءت الجملةُ لتوكيدِ ثباتِ هذا العطاءِ الرَّبّانيّ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ (الله):

توكيدُ تفرُّدِ المنعِمِ سُبحانَهُ بصفة الألوهيَّةِ واستحقاقِ العبادةِ

أتَت الآيةُ بالاسم الظاهرِ (اللّهُ) في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لزيادة التَّقرير والإيضاح، وليَبْعَثَ في النُّفوس الأملَ بواسعِ رحمةِ اللّه تَعالى ومغفرته، ولأنَّ الاسمَ الأحسنَ (اللّهُ) جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ التي تَشتَمِلُ على كُلِّ أنواعِ العطاءِ والتَّفضُّلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاء المغفرةِ وعطاء السَّتْرِ وغيرِها، وفي الإظهار تذكيرٌ بصِفَةِ الألوهيَّةِ الغالبةِ، وهي استحقاقُ العبادةِ دون إشراكٍ لغَيْرِه في هذا الحقِّ الذي تفرَّد به سُبحانَهُ.

دَلالةُ الجَمْعِ بين الوصفين من غيرِ حرفِ عطفٍ:

استقلالُ كلِّ اسمٍ جليلٍ بتأسيس معنًى مستقلٍّ

جَمَعَ النَّظمُ الجليلُ بين صفةِ المغفرةِ والرحمةِ دونَ حرفِ عطفٍ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ ليَتَأسَّس على كلِّ اسم من الاسمين الكريمين معنًى بمفرده؛ انطلاقًا من كونِهِ خبرًا مستقلًّا، فكان الفصلُ بينَهُما أبلَغَ في أداءِ المعنى.

بَلاغةُ الجِناسِ بين قولِه: (يَغْفِرْ) و ﴿غَفُورٌ﴾:

تـلـذُّذُ السَّمع بـمادَّةِ الغفرانِ كتلذُّذِ النَّفس بـالـعَـفْـوِ مِـنَ الرَّحمنِ سُبحانَهُ

جاءَ جناسُ الاشتقاقِ بين (يَغْفِرُ) و﴿غَفُورٌ﴾؛ لتأكيدِ صفةِ المغفرةِ الغامرةِ من اللهِ تَعالى، فأسْهَم وقعه الجميلُ في تلذُّذِ السَّمعِ بمادَّةِ الغفرانِ كتلذُّذِ النَّفس بالعَفْوِ مِنَ الرَّحمن ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكِفْلُ والنَّصيبُ:

جـزاءُ الإيمان بـالـلـهِ تَـعالى ورَسولِه عنايةٌ إلـهيّةٌ شاملةٌ ورحمةٌ مُضاعفَةٌ

النّصيب في اللُّغةِ: المقسوم والمقدَّر من خيرٍ أو شرٍّ، فهو مُحايد القيمَة، يقال: نصيبُه من النّعيم أو من العذاب[1]، وأمّا الكِفل؛ فهو الضّمُّ والتَّكفُّل، فيُشعر بالرّعاية والاحتواءِ والضّمان[2]، والكفلُ والنَّصيبُ كلاهما بمَعْنى الحظِّ، ومِن معاني الكفلِ في اللُّغة: النَّصيبُ المُساوي، ومِنها: المثل، أمّا النَّصيب؛ فهوَ مُطلقٌ، والنَّصيب عامٌّ: صغيرٌ وكبيرٌ وأكبرُ، وليس له شيءٌ محدَّدٌ، ومن هنا وردَت كلمَةُ (كِفْل) عند ذكر السَّيِّئة في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ﴾ [النساء: 85]؛ لأنَّ السَّيِّئات تُجزى بِقَدْرِها، ولا يُزادُ عليها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ﴾ [غافر: 40]، أمّا الحسنةُ؛ فتُضاعَفُ، وتَتَّسعُ، وتَعْظُمُ، وقد تكون عشرةَ أضعافٍ، وقد تكون أكثرَ، ولَم يُحَدَّد أنَّها مثلُها؛ لذا جاءت كلمة (نصيب) مع الحسناتِ؛ لأنَّ الحسنةَ لها نصيبٌ أكثرُ من السَّيِّئات، وجاءَ الكفلُ هَهُنا بمعنى المثلِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ لهم مِثْلَيْنِ من أجْرِ غيرِهم مِمَّن لم يُؤْمِن بسائرِ الأنبياءِ، وكذلك ففي مادَّة الكافِ واللّام والميم ما يدلُّ على الضَّمانِ والكفايةِ والثِّقلَ ومضاعفةِ الأجر، وهي معانٍ أنسبُ للسّياقِ من معاني النَّصيبِ أو الضِّعفِ أو المِثْلِ؛ إذِ المرادُ رَحمَتانِ مَضْمومَتان مُحيطَتان بالمؤمنين، تكفَّل اللّهُ تَعالى بهما جزاءً لإيمانهم باللّهِ تَعالى ورَسولِه، فدلَّ اللَّفظُ على عنايةٍ إلهيَّةٍ شاملة ورحمة مُضاعفَةٍ.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 54.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفل).

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الحديد: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ الوعدِ بالجزاءِ لِمَن آمَن مِن أهلِ الكتابِ؛ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذا العطاءَ فَضْلٌ منه

لمّا كانَ أهلُ الكتابِ قد تابَعوا أهْواءَهُم على بُغضِ الأُمّيّينَ، وأُشرِبتْ قلوبُهم أنَّ النُّبوَّةَ مختصَّةٌ بهم؛ لأنَّهم أولادُ إبراهيمَ ﷺ من ابنةِ عمِّه سارة، والعربُ - وإن كانوا أولادَه - فإنَّهم مِن الأمَةِ هاجرَ، وما دروا أنَّ كونَهم من أولادِهِ مُرشِّحٌ لنُبوَّةِ بعضِهم، وكونهم من الأمة مهيِّئٌ لعمومِ الرِّسالةِ لأجل عُمومِ النَّسبِ؛ لذا أعْلَمَهُم اللّهُ تعالى أنَّهم لا يَقْدِرونَ في زمَنٍ مِنَ الأزمانِ على شيءٍ، وإن قلَّ من فَضْلِ اللّهِ تَعالى الذي خصَّهم بما خصَّهم به، ولا شيءَ يَمْنَعُ نَزْعَ النُّبوَّة منهم، ووَضْعَها في بني عَمِّهم إسماعيلَ ﷺ الذين كانوا لا يقيمون لهم وزنًا، وليعلموا أنَّ الفضلَ بيد اللّهِ تَعالى الذي له الأمرُ كلُّه يؤتيه من يشاءُ منهم أو مِن غَيْرِهم نُبوَّةً كانت أو غيرَها من أفضالِ اللّه تَعالى ورَحَماتِه، ولمّا كان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه لا يَسَعُ جميع النّاس؛ دفَع ذلك بأنَّه سُبحانَهُ هو الذي أحاط بجميع صفاتِ الكمال، وأنَّه مالكُ المُلْكِ؛ فلذلك يخصُّ مَن يَشاءُ بِما شاء، فقَدْ نزَّهَ له التَّنزيه الأعظم جميعَ ما في السَّماوات والأرض، فهو العزيز الحكيمُ الذي لا عزيزَ غيرُه ولا حكيمَ سواه، فانطَبَقَ آخِرُ السّورةِ على أوَّلها(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡدِرُونَ﴾: (قدر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مبلغِ الشَّيءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 325 - 330.

وكُنْهِهِ ونهايتهِ، فالقَدْرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، وقدَرْتُ الشَّيءَ أقْدِرُهُ وأقْدُرُهُ من التَّقْديرِ(1)، والمعنَى المحوريُّ: ضبطُ الشَّيءِ القابلِ للتَّسيُّبِ أو الانبساطِ وحَكْمُهُ وامتساكُهُ على وضعٍ أو كمٍّ أو مسافةٍ معيَّنَةٍ، فلا يَتَسَيَّبُ، ولا يَسترْسِلُ، وقدَر على الشَّيء، واقْتَدَرَ عليه: قَويَ عليه، ومنه قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: 45](2)، والمُرادُ بـ ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ في الآية: أنَّهم لا يملِكونَ فضلَ اللّهِ ﷻ، ولا يدخُلُ تحت قَدرِهم واستطاعَتِهم(3).

2) ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: (فضل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلكَ الفضلُ، وهوَ الخيرُ، والزّيادَةُ عن الاقتصادِ(4)، وذلكَ ضربانِ: محمودٌ، كفضلِ العلمِ والحِلمِ، ومذمومٌ: كفضلِ الغضبِ على ما يجبُ أن يكونَ عليه، والفضلُ في المحمودِ أكثرُ استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمِلَ لزيادةِ أحدِ الشَّيئينِ على الآخرِ؛ فعلى ثلاثةِ أضْرُبٍ: من حيثُ الجنسُ، والنَّوعُ، والذّاتُ، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ من يُعْطي يقالُ لها: فَضْلٌ(5)، فالمعنَى المحوريُّ: زيادَةٌ من مادَّةِ الشَّيءِ مُتَمَيِّزَةٌ عنهُ(6)، والمُرادُ بـ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ ههُنا: دينُ اللّهِ تَعالى، وهو الإسْلامُ، أو رزقُ اللّهِ تَعالى، أو نِعَمُ اللّهِ سُبحانَهُ الَّتي لا تُحْصى(7).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الفضلُ والنُّبوَّةُ عطاءٌ من اللهِ يهبه من يشاء

هذه آيةٌ مشكِلَةٌ، وليسَ للمُفَسِّرين ولا لأهلِ المعاني فيها بيانٌ يُنْتَهى إليه، ويُلَفَّق به بين هذه الآية والتي قبلها، وأقوالُهُم مختلفة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).
(3) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 396.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (فضل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فضل).
(7) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 486.

متدافعة[1]، فهي إمّا لإثباتِ العلم لَمن لَم يُؤْمِن مِن أهل الكتاب، بأنَّهم لا يَقْدِرونَ على فضل اللّهِ تَعالى باستِحْقاقٍ سابقٍ، إمّا لإثباتِ عدَمِ عِلْمِهِم بذلك، وذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الآيةَ مُنْصَرِفةٌ للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه، والمعنى على هذا الرَّأي: لئلّا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّه لا يَقْدِرُ النَّبيُّ ﷺ والمؤمنونَ به من صحابَتِهِ وأهل الكتاب الذين آمنوا به على شيءٍ من فَضْلِ اللّه تَعالى، ولا يَنالونَه[2].

وممّا رويَ في نزول هذه الآيةِ أنَّ أهلَ الكتابِ - وهم بنو إسرائيلَ - كانوا يُفَضِّلون أنفسَهم على سائرِ أهلِ الأديانِ؛ بسببِ كونهم أهلَ الكتابِ، ويقولون: الوحيُ والرِّسالةُ فينا، والكتابُ والشَّرعُ ليس إلّا لنا، وأنَّه تعالى خَصَّنا بهذه الفضيلةِ العظيمةِ من بينِ جميعِ العالمينَ، فخاطبَ اللّهُ تعالى فيها مَن آمنَ بالرُّسلِ المتقدِّمةِ، فقال لهم: إنَّكم إنْ تتَّقوا اللّهَ، وتؤمنوا برسولِه ﷺ يؤتكم اللّهُ تَعالى في الآخرة كِفْلَينِ من رحمته، ثُمَّ قال: فَعَلْنا ذلك، وبيَّنّاه لكم، ليَعْلَمَ أهلُ الكتابِ أن لا أجرَ لهم ولا نصيبَ مِن فضلِ اللّهِ تَعالى، وإنْ كانوا مجتهدينَ في التَّديُّنِ بدينِ مَنْ بُعِثَ قبلَه؛ لأنَّه كُفرٌ بما فَرَضَ اللّهُ تَعالى عليهم في ذلكَ الوقتِ، فأحبطَ أعمالَهم[3].

فهذِه الآيةُ الكريمةُ ردٌّ من اللّهِ - تباركت آلاؤه - على اليهودِ الذينَ زَعموا اختصاصَ النُّبَوَّةِ فيهم، وذلك ليعلمَ، ويَتَحَقَّقَ الذينَ لم يَتَّقوا، ولا آمنوا من أهلِ الكتابِ على ردِّ ما أعطاه اللّهُ تَعالى، ولا إعطاءِ ما منعَ اللّهُ تَعالى، فإنَّهم لا يَقْدِرونَ على أنْ ينالوا شيئًا من فضلِ اللّهِ تَعالى الذي تفضَّلَ به على مَن آمنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ولا يَقدِرون أن يمنعوا ذلك الفضلَ الذي تفضَّلَ به على المستحقّينَ له، كالنُّبوَّةِ والرِّسالةِ وغيرِهما، وأنَّ الفضلَ - ومنه النُّبوَّةُ والعلمُ والتَّقوى - بيدِ اللّهِ تَعالى، يُعطيهِ مَن يشاءُ، كما آتى مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه وأمَّته منه نصيبًا أوفرَ من دينِ الإسلامِ، واللّهُ واسعُ الفضلِ، كثيرُ العطاءِ والخيرِ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه[4].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 191.
(3) محيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 128 - 129، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 479.
(4) وهبة الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 340 - 341.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصلِ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بـيـانُ سبب الفَضْلِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ عن الآية السّابقة، وهي قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ لوقوع قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانًا لسبيل الفَضْلِ المذكور في الآيةِ السّابقةِ، وهما الكِفْلانِ مِن رَحْمَتِه والنّور والمغفرة[1]؛ إذْ إنَّ هذا الفضلَ العميمَ من اللّهِ تَعالى إنَّما هو جزاءٌ لَمَن آمَنَ برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأنَّ فضلَ اللّهِ تَعالى لا يقدرُ عليه أحدٌ من أهلِ الكتاب الذين يَزْعُمونَ أنَّ فضلَ اللّهِ تعالى محصورٌ في بني إسرائيلَ لا يتعدّاهُم إلى غَيْرِهم، فبيَّنَتِ الآيةُ أنَّهم لا يَقْدِرون على نَيْلِ شيءٍ مِن هذا الفَضْلِ إلّا مِن هذا الطَّريق، وهو الإيمانُ برسولِ اللّهِ ﷺ.

دَلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا﴾:

تعليلُ وجوبِ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لنيلِ فضل اللّهِ تَعالى

اللّامُ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ تَعْليليَّةً، فيكونُ ما بعدَها معلولًا بما قبلَها، وعليهِ فَحَرْفُ (لا) يجوزُ أن يكونَ زائدًا للتَّأكيدِ والتَّقوية، والمُعَلَّلُ هو ما يَرْجِعُ إلى فضلِ اللّهِ تَعالى لا مَحالَةَ، وذلكَ ما تضَمَّنَهُ قولُهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، أو قوله: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ إلى ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2]؛ لبَيانِ عدَمِ اقتدارِ أهل الكتابِ على نَيْلِ أيِّ شيءٍ من فضلِ اللّهِ تَعالى المذكورِ في الآيةِ السّابقة إلّا بالإيمانِ برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فضلًا عن إيمانهم برسُلِهم وأنبيائهم، فإنَّ الإيمانَ بهِم وحدَهُم دونَ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لا يوصِلُهُم إلى هذا الفَضْلِ المذكورِ.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321، ومحيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 128.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 430.

دَلالةُ (لا) في قولِه: ﴿لِّئَلَّا﴾ بين النَّفي والتَّوكيدِ:

توكيدُ عدمِ اقتدارِ أهلِ الكتابِ على الفَضْلِ إلّا مِن طريقِ رسولِ اللهِ ﷺ

يجوز أن تكون (لا) في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ صلةً للتَّوكيدِ، وهو قولُ جماهيرِ المُفَسِّرين، وهو الأشهر، ويجوز أن تكون نافيةً على أصل وضْعِها، وفصَّلوا القولَ في الرَّأيِ الأوَّل: إنَّ (لا) صلةٌ في كلِّ كلامٍ دخَلَ عليه نفيٌ، مثلُ الورادِ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، ويجوز زيادَتُها مع القرينة كثيرًا، أي: لأنْ يَعْلَم أهلُ الكتابِ أنَّهم (لا يَقْدِرونَ على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وأنَّ الفَضْلَ بيَدِ اللّهِ)؛ وذلك لأنَّ اليهودَ قالت: يَخْرُجُ منّا نبيٌّ يَقْطَع الأيدي والأرجُلَ، فلَمّا خرَجَ مِن العَرَبِ؛ كفروا، فنزلَتِ الآيةُ[1].

نفيُ قدرةِ أهلِ الكتابِ على نَيلِ فَضْلِ اللهِ تعالى؛ إن لم يؤمنوا برسولِ اللهِ ﷺ

وأمّا القولُ: إنَّها على أصلِ مَعْناها في النَّفي، فهو قولُ عددٍ من المُفَسِّرين، وتقديرُ المعنى عندهم: لئلّا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّهم يقدرونَ على حصرِ فضلِ اللّه تَعالى وإحسانه في قومٍ مُعَيَّنينَ، وعلى هذا الرَّأي؛ فإنَّ دعوى زيادة (لا) لا داعيَ إليها، وأنَّ بقاءَها على أصلِ معناها، وهو النَّفْيُ مُتَعَيِّنٌ، وتُجعَلُ اللّامُ للعاقبةِ، أي: أعطيناكم هذا الفضلَ، وحُرِمَ منه أهلُ الكتابِ الذينَ لم يؤمنوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فبقيَ أهلُ الكتابِ في جهلِهم وغرورِهم بأنَّ لهم الفضلَ المستمرَّ، ولا يحصلُ لهم علمٌ بانتفاءِ أن يكونوا يملكونَ فضلَ اللّهِ تعالى، ولا أنَّ اللّهَ تعالى قد أعطى الفضلَ قومًا آخرين، وحرَمَهم إيّاه، فيَنْسَونَ أنَّ الفضلَ بيد اللّهِ سُبحانَهُ، وليس أحدٌ يستحقُّه بالذّاتِ، وبهذا الغرورِ استَمَرّوا على التَّمسُّك بدينِهم القديم، ومعلومٌ أنَّ لامَ العاقبةِ أصلُها التَّعليلُ المجازيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8][2].

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 258، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 267، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 430.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾:

الـلّامُ أقـوى في بيانِ التَّعليل مِن (كي)

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبير باللّامِ دون (كي)؛ لتعليل سببِ عدَمِ نَيْلِ أهلِ الكِتابِ لِفَضْلِ اللّهِ تعالى في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على سعَةِ مَعْنى التَّعليل وقوَّته؛ إذْ هيَ أوسعُ استعمالًا من (كَي)، فهي تدخلُ على الفعلِ المضارعِ وغيرِه؛ لبيانِ العِلَّة، وذلكَ نحو قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: 25]، ونحو: (جئتُ لطلبِ العلم)، وعند النُّحاة أنَّه يُفيد التَّعليل، سواءٌ اقْتَرَن بـ (كي) أم لَم يَقْتَرِن[1]؛ ولهذه السَّعة والأصالة في الاستعمال ولحاجَةِ السّياقِ إلى تقويةِ التَّعليل على نحوٍ أقوى؛ آثرَ النَّظمُ استعمالَ اللّامِ لتقويةِ مَعْنى التَّعليل.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالعلمِ دونَ الاعتقادِ:

لـيـسَ لأهْـلِ الـكِـتـابِ دلـيـلٌ صـحـيـحٌ عـلى أحـقـيَّـتـهـم لِلفضل

آثر النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ العلم ﴿يَعۡلَمَ﴾ دونَ الاعتقاد، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ في اللُّغة: إدراكُ الشَّيء بحقيقَته ودَليله، وهو مأخوذٌ من العلامةِ، وهي السِّمَة التي تُمَيِّز الشَّيء، أو مِن العَلَم، وهو الدَّليل على أمرٍ ما[2]، وأمّا الاعتِقادُ؛ فهو اسمٌ لِجِنْسِ الفِعْل على أيِّ وجه وقعَ اعْتِقادُه، والأصْل فيه أنَّه مُشَبَّه بِعقد الحَبل والخَيْط، فالعالِمُ بالشَّيء على ما هوَ بِهِ كالعاقِدِ المُحكم لِما عَقَدَه[3]، ولمّا كان المرادُ بالسّياقِ هَهُنا نفيَ عِلْم أهلِ الكِتاب بدَليله المَقرونِ بهِ بِقُدرَتِهم على الوصولِ إلى فَضْلِ اللّهِ تعالى، ونفيَ أن يكون لهم دليلٌ أو شبهُ دليلٍ؛ جاء النَّظمُ باستعمالِ فعلِ ﴿يَعۡلَمَ﴾ دون (يعتَقِد).

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَعۡلَمَ﴾ مضارعًا:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن نفْيِ علمِ أهل الكتاب بمَقْدِرَتِهم على

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 353.
(2) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 92.

شيءٍ من فضل اللّهِ تَعالى، وأنَّه لا جزاءَ لِعبادَتِهم بعدَ بعثَةِ النَّبيِّ ﷺ بصيغة المضارعةِ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لتجديدِ نفي عِلْمِهم، فلا يظنُّ ظانٌّ منهم في وقتٍ من الأوقاتِ هذا الظنَّ مرَّةً أخرى، وكلَّما تجدَّدت هذه الفكرةُ المُستَعْليَةُ على خلقِ اللّهِ تَعالى من غيرِ بَني إسرائيل؛ تجدَّدَ نفي عِلْمِهم، فيظلّون على هذا الحالِ مِن نَفْيِ العِلْم أبدًا.

تـجـدُّدُ نـفـي عِلْمِهم بسببِ عـدَمِ إيمانِهم برَسولِ اللهِ ﷺ

سِرُّ التَّعبيرِ بِقولِه: ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

استعملَ النَّظمُ الجليلُ اسم ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في هذا الموضع دونَ اسم اليهودِ والنَّصارى؛ لامتزاج التَّرهيب مِن عدَمِ الإيمان برسولِ اللّهِ ﷺ بالتَّرغيب في الإيمان به؛ إذ الملاحظُ أنَّ القرآن الكريمَ قد استعملَ في مخاطبةِ اليهودِ والنَّصارى عدَّةَ أساليبَ، مثل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 64]، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، بهدَفِ التَّأثيرِ على المخاطَبِ واستنهاضِ الهِمَم، وهزِّ المشاعر؛ لأنَّ فيه تذكيرًا لَهُم بتِلْكَ النِّعمةِ العَظيمَةِ، مِن إنْزالِه تلكَ الكتُبَ ذاتَ المكانَةِ السّاميَة، وهذا التَّذكيرُ لَهُم بذلكَ يتضمَّن أيضًا التَّوبيخ اللّاذع لَهُم على تقصيرِهم وأفعالِهم القَبيحَة، فَخِطابُهُم بصِفَةِ المَدْحِ وهي ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مع إقامَتِهم على الباطل وما لا يَليقُ فيهِ أعظَمُ تبكيتٍ، وأعظَمُ تأنيبٍ، وأعظَمُ تقريعٍ لَهُم، وفيه كذلكَ حثٌّ لَهُم على قَبولِ ما جاء به مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّه جاء بكتابٍ، وهُم كذلك أهلُ كِتابٍ؛ فهو احتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتابِ الذي عِنْدَهُم يَقْتَضي الإيمانَ بالكتابِ الذي جاء بِهِ؛ لأنَّهُ من جِنْسِه[1].

ترغيبُ اليَهودِ والـنَّـصـارى وتَرْهيبُهُم بِذِكْرِ الكتابِ المنزَّلِ مِن عند اللهِ تَعالى

سِرُّ التَّعبيرِ بِالكتابِ:

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن استعمالِ اسْمِ (أهل التَّوراةِ والإنجيل) إلى اسم ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بشرفِ الكتابِ وعظم

(1) مجموعة من المؤلفين، موسوعة التفسير الموضوعي: (أهل الكتاب): 6/ 150.

منزلتهِ عندَ اللّهِ تَعالى، من حيث إنَّ أصلَ الكتابِ هو الوحيُ الإلهيُّ المجموعُ بينَ دَفَّتي كتابٍ كريم، وهو العُنْصُر الجامِعُ بينَ الرِّسالات السَّماويَّة كلّها، فكلُّها تشترك في كونها وحيًا إلهيًّا، جُمِعَ لحِفْظِ أركانِ الدّين مِنَ التَّحريف والتَّبديل، فالتَّعبير به أنسَبُ لسياقِ التَّذكير بأهمّيَّة رسالة الإسلام.

الجامعُ بين الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ أنَّها ذاتُ كتبٍ

دَلالةُ التَّعبيرِ بِقولِه: ﴿أَلَّا﴾:

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ جاءَتْ ﴿أَلَّا﴾ مكونةً من (أنْ) المخفَّفةِ مِن الثَّقيلة، واسْمها ضميرِ الشَّأن[1]، وفي العدولِ عن التَّعبير بأصل الكلام: (أنَّهم لا يَقْدِرونَ) إلى ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾ تتَمَثَّلُ في رغبةِ النَّظمِ الكريمِ في سُرعةِ الإخبارِ عن عدمِ قُدْرَتِهم على شيءٍ من فضلِ اللّهِ تَعالى، وكذلك لكون التَّعبير بها أوْجَزَ، والإيجازُ البليغُ المعَبِّرُ من أهمِّ سِمات النَّظم المُعْجِز.

في سُرعةِ بيانِ عدمِ قدرةِ أهلِ الكتابِ إمعانٌ في إثباتِ القدرةِ للهِ تَعالى

دَلالةُ التَّعبيرِ بِنَفْيِ القُدْرَةِ في قولِه: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ نفي القدرةِ على نفي النَّيلِ، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ نفي القدرةِ يَنْفي وجودَ الطّاقة أو الاستطاعة من أساسِها، وأمّا نفيُ النَّيل؛ فقد يوحي بإمكان الوصولِ؛ إذِ المَعْنى المحوريُّ للنَّيل: أنَّهُ حَوْزٌ بتَمَيُّزٍ وقوَّةٍ ونوعٍ من الاسترسالِ، وفيه مَعْنى الأَخْذِ[2]، فكانَ نفيُ القُدْرَة أبلَغَ وأمنَعَ لَهُم مِنَ الاقْتِدار على أيِّ شيءٍ مِن فَضْلِ اللّهِ تَعالى دون الإيمانِ بِرَسول اللّهِ ﷺ.

نفيُ القدرةِ ينفي وُجودَ الطّاقةِ أو الاستطاعَةِ مِن أساسِها

بَلاغةُ الكِنايةِ في قولِه: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

أشارَ الرَّأي - الذي أثبت النَّفي بـ (لا)، وأنَّها على أصل عَمَلِها، وأنَّها ليست صلةً للتَّوكيدِ - إلى أنَّ المرادَ بقولِه تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ

عدم القدرةِ على العلم كنايةٌ عن الجهلِ المرَكَّبِ والختمِ على القلوبِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 258، والخطيب ومصلوح والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 27/ 341.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نول - نيل).

﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ هو عدم العلم، بمعنى الخَتْم على القلوب؛ إذ المعنى على هذا التَّقدير: لا تَكْتَرِثوا بعدم علم أهلِ الكتابِ بأنَّهم لا يَقْدِرونَ على شيءٍ من فضلِ اللّهِ تَعالى، وبأنَّ الفضلَ بيدِ اللّهِ تعالى يؤتيهِ من يشاءُ، أي: لا تَكْتَرِثوا بجَهْلِهم المُرَكَّب في استِمْرارِهم على الاغترارِ بأنَّ لَهُم منزلةً عندَ اللّهِ تَعالى؛ فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ عالمٌ بذلكَ، وهو خَلَقَهم، فهُم لا يُقْلِعونَ عنه، وهذا مثلُ قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، وأمّا على إثباتِ العلم لَهُم؛ فالآيةُ في معنى الوعيدِ بإحباطِ العملِ ونفي الأفضليَّةِ التي يَزْعُمونَها لأنفُسِهم، وأنَّها إعلامٌ لهُم بنَسْخِ رسالَتِهم التي يَفْتَخِرونَ بها[1].

بَلاغةُ تَخصيصِ أهلِ الكِتابِ بِالذِّكْرِ:

حَسَدُ مَن لَم يُؤْمِن مِن أهلِ الكِتابِ سببٌ في تَذْكيرِهِم بِبُطْلانِ عَمَلِهِم ونَسْخِ رِسالَتِهِم

خصَّ النَّظمُ الجليلُ أهلَ الكتابِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهم؛ لأنَّهم لَمّا نزل الوعدُ بالجزاء الجزيل في الآية السّابقة بإيتاءِ الأجْرِ مَرَّتين، وآمَن مَن آمَنَ مِنهُم؛ حَسَدَهم الذين لم يؤمنوا، فأنزل اللّهُ تعالى قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: الذين لَم يُؤْمِنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وحَسَدوا المُؤْمنين مِنْهُم أنَّهم لا يقدرون على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّهِ تَعالى، والمعنى: جَعَلْنا الأجْرَيْنِ لِمَن آمَنَ بمُحَمَّدٍ ﷺ؛ ليعلمَ الذين لَم يُؤْمِنوا مِنْهُم أنَّهم لا أجْرَ لَهُم، ولا نَصيب لهم في فضل اللّه تَعالى، فآتى المُؤْمنين مِنْهُم أجرين[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بِحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

استعلاءُ فضلِ اللهِ تعالى على كلِّ الخلقِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ باستعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في أصل معناه الذي يفيد الاستعلاءَ[3]، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 431.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 321.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

﴿شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ فضلَ اللّهِ تَعالى مستعلٍ على وهْمِ الواهِمينَ وزَعْمِ الزّاعمين مِن أهْلِ الكتاب وغيرِهِم بأفْضَليَّتِهِم على غَيْرِهِم مِنَ الرِّسالة لتَوالي الرُّسُلِ والوَحْيِ فيهِم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ مُنَكَّرًا:

جاء لفظُ ﴿شَيۡءٖ﴾ نَكِرَةً في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ التَّقليل والتَّحقير، وفي ذلك دلالةٌ على مُطْلَقِ حرمانِ مَن لَم يُؤْمِن بِرَسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ من أيِّ فضلٍ للّهِ تَعالى، ولو كان شيئًا نزْرًا قليلًا لا يُؤْبَهُ له[1].

حرمانُ مَن لَم يُؤمِن بمُحَمَّدٍ ﷺ مِن أيِّ فضلٍ، ولو كانَ قليلًا لا يُؤْبَهُ له

دَلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

جاءتْ ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ بيانيَّةً، توضِّحُ الشَّيءَ الذي لا يقدرونَ عليه، وهو فضلُ اللّهِ سُبحانَهُ.

بيانُ الشَّيءِ الذي لا يَقْدِرونَ عليه

سِرُّ التَّعبيرِ بالفَضْلِ دونَ الرَّحمةِ:

لَمّا كانت الرِّسالةُ والوحيُ والنُّبوَّةُ أمورًا لا تُنالُ بدراسةٍ ولا باجتهادٍ وإنَّما هو محضُ تفضُّلٍ واختيارٍ واصطفاءٍ من اللّهِ تَعالى؛ آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ استعمالَ لفظِ (الفضل) دون الرَّحمةِ، وكذلك لأنَّ الفضلَ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[2]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ من يُعْطي يقالُ لها: فَضْلٌ[3]، والمُرادُ بِـ ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ هَهُنا: إمّا دينُ اللّه تعالى - وهو الإسْلامُ - وإمّا رزقُهُ، وإمّا نِعَمُ اللّهِ تَعالى الَّتي لا تُحْصى[4]، فكان في استعمالِ لفظِ الفَضْلِ مِنَ المُناسَبةِ ما لا يوجدُ في لفظِ الرَّحمة التي عادةً ما تَخْتَصُّ بالرِّقَّة والإحسان[5].

الرِّسالةُ والوحيُ والنُّبوَّةُ أمورٌ لا تُنالُ بدراسةٍ ولا باجْتِهادٍ، بل هي محضُ تفضُّلٍ إلهيٍّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 326، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 9/ 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (فضل).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 486.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).

دَلالةُ إضافةِ لفظ ال﴿فَضۡلِ﴾ إلى الألوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

النُّبوَّةُ والرِّسالةُ والجزاءُ من أخصِّ سماتِ الألوهيَّةِ

أُضيف الفضلُ إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ دون لفظ الرَّب؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بأمر نبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ، التي تهدف إلى تعبيدِ النّاس لربِّ العالمين؛ إذ العبادةُ من أخصِّ خصائصِ الألوهيّة، ويُراد بالإضافةِ أيضًا تعظيمُ المُضافِ وتشريفُه، وهوَ فَضْلُ النُّبوَّة والرِّسالةِ والجزاءِ؛ إذْ كان من عندِ اللّه سُبحانَهُ الَّذي لَهُ جميع صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

دَلالةُ العطف بالواوِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ﴾:

إبرازُ اقتدارِ اللهِ تَعالى وحده على إعطاءِ الفَضْلِ لمَنْ يشاءُ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ بينَ قولِه اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْن: كمالِ الاتِّصال وكمال الانقطاع، فالجملتان كلتاهما خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وقد أفادَ الجمعُ بينَ الجُملتَين إبرازَ فضلِ اللّهِ ﷻ في أسْمى معانيها، فهو وحدَه سُبحانَهُ صاحِبُ الفَضْلِ على كلِّ الخلقِ، ولا سبيل لأحدٍ لنَيْلِ فَضْلهِ إلّا بأمرِهِ وباتِّباعِ نبيِّه ﷺ.

دَلالةُ التَّأكيدِ بِـ (أنَّ):

شدَّةُ إنكارِ مَن لم يؤمنِ برسالةِ مُحمَّدٍ ﷺ لأهليَّةِ المؤمنين لفضلِ اللهِ تَعالى

صدَّر النَّظمُ الجليلُ جملة: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ بـ (أنَّ) المؤكِّدَةِ لتَنْزيلِ مَن لَم يؤمنْ من أهلِ الكتابِ منزِلَةَ مَن يُنكر أنَّ الفَضل بيد اللّه تَعالى، ومَن يَتَوَهَّمُ أنَّ الفَضْلَ تَبَع لشهواتهم، ولإثبات أنَّ الفضل بيد اللّه تَعالى، وهو - تباركت آلاؤه - لا يَخْفى عليه مَن هو أهلٌ لنَوال فَضله، فسواءٌ أنْكَرتُم هَذا أم لَم تُنْكِروه؛ فإنَّه حقيقةٌ واقعةٌ ثابتةٌ لا مجالَ لإنكارِها أو المماراةِ فيها.

سِرُّ إعادةِ لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مُعرَّفًا باللّامِ:

أعادَ النَّظمُ الجليلُ ذكرَ لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾، وعدلَ عن التَّعبيرِ

خطورةُ قضيَّةِ النُّبوَّةِ تَستَدعي التَّوكيدَ مِرارًا وتكرارًا

عنه بالضمير، فلم يَقُل: (وأنَّهُ بيدِ اللّهِ)، وذلك لأهمّيَّةِ القضيَّةِ المَطْروحةِ هَهُنا، فكانتْ إعادَةُ لفظِ الفضلِ توكيدًا لعدم اقتدارِ مَن لَم يُؤْمِنوا بِمُحَمَّد ﷺ على نيل أيِّ شيءٍ من هذا الفضلِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ، وأُعيدَ لفظُ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مُعَرَّفًا باللّام؛ للدّلالةِ على أنَّ الفضلَ المقصودَ هو الفضلُ الزّائدُ الَّذي لا يحتاجُ إليه مَن هو عِنْدَهُ[1]، وهو مضاعفةُ الأجْرِ والنّورِ والمَغْفِرَة.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

الفَضْلُ مصاحبٌ لـقـدرةِ اللـهِ تَعالى، ويصدُرُ عَنْها، ولا دخلَ لأحدٍ مِنَ الخلقِ فيه

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على المُصاحبةِ والمُلابسةِ، والمرادُ أنَّ التَّفضُّلَ بوَضْعِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ مِنَ الأمورِ الإلهيَّةِ التي لا دَخْلَ لأحدٍ من الخَلْقِ فيها، وأنَّ المرجعَ والمآل فيها للّهِ تَعالى وحدَهُ، فالفضلُ مصاحِبٌ لقدرةِ اللّهِ تَعالى ملابسٌ لها، ويصدرُ عنها، والمُصاحَبَةُ هُنا بمعنى قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124].

بلاغة الكناية في قولِه: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

اختصاصُ اللهِ تَعالى بالفضلِ، فلا فضلَ لأحدٍ سواهُ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن اختصاصِه سُبحانَهُ وحدَهُ بالفَضْلِ دونَ غيرِهِ بقَوْلِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، فهي كناية عَن قُدْرَةِ اللّهِ تَعالى وتَصرُّفه الكاملِ في مُلكِهِ كما يشاءُ، معَ جواز إرادةِ المَعْنى الأصليِّ، وهو إثباتُ اليَدِ للّه تعالى على وجهٍ يليقُ بجلالهِ وعظمَتِه، في ضوءِ قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11].

دَلالةُ الإخبار عن الفضْلِ بأنَّهُ ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

تـشـريـفُ قـدرِ الـفَـضـلِ وتـعـظـيـمُـه لانْتِسابِهِ للذّاتِ العليَّةِ

أُخْبِرَ عن الفضلِ بأنَّه بيد اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على تَشْريفِ قَدْرِ الفَضْلِ - الذي هو الأجْرُ والنُّبوَّة - وتعظيمِه؛ إذِ الفضلُ صادرٌ عن إرادةِ اللّهِ تَعالى وقُدْرَته المُطْلَقَة، وفي الإضافةِ أيضًا دلالةٌ على الملكِ التّامِّ لَهُ وحدَه، بدليلِ إضافة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 330.

الفَضْلِ لصِفَة ثابتَةٍ مِن صفات اللّهِ تَعالى، فهو المُتَصَرِّف فيه وحده، يهبُه لَمَن يشاء، ويمنَعُه عمّن يشاء، فليس الفضلُ أمرًا داخلًا في الاكتساب، بل هو عطاءٌ إلهيٌّ خالص، لا يُنال إلّا بمشيئةِ اللّه تَعالى، فاللّه سُبحانَهُ هو المُخْتَصُّ بِأنَّهُ لا كُفْءَ لَهُ، فَلَهُ الأمْرُ كُلُّهُ ولا أمْرَ لأحَدٍ مَعَهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِفعل الإيتاءِ مُضارِعًا:

في الإيتاء عطاءٌ عظيمٌ يليقُ بعظمَةِ فَضْلِ اللّهِ تَعالى وجلاله

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإيتاءِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدّلالةِ على عظيم مكانةِ فضلِ اللّهِ تعالى؛ إذِ الإيتاءُ لا يُستعملُ إلّا للشَّيءِ الكثيرِ العظيم، كما في قولِه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: 148]، وفي الإيتاءِ أيضًا قوّةٌ؛ لأنَّه لا يتَوَقَّف على قَبولٍ، ولا يكونُ إلّا عن رضًا وطيبِ نفسٍ، في حين قد يكونُ الإعطاءُ عن كُرهٍ[1]، وجاءَ الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ في صيغةِ المضارعة؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ فضلِ اللّهِ تَعالى لِمَن يشاءُ وقْتَما يشاءُ؛ ردًّا على زَعْمِ أهلِ الكِتاب باختِصاصِهِم وحدَهُم بالنُّبوَّةِ والأجرِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَن﴾:

عمومُ إيتاءِ الفضلِ لكلِّ من شاءَ اللّهُ تَعالى

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ باستعمالِ اسم الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ اسم الموصولِ (الذي)، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّ في ﴿مَن﴾ من العموم والشُّمولِ وعدم التَّعيين ما يُلائِمُ عظمةَ إيتاءِ الفضلِ لمن يشاءُ اللّهُ تَعالى؛ إذ إنَّه يُستعمَلُ للمفردِ والمثنّى والجَمْع، وللمذَّكرِ والمؤنَّث، وللعاقل وغيرِ العاقل، بخلاف اسم الموصولِ (الذي) فهو لا يُستَعمَلُ إلّا مع المفردِ المذكرِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المشيئةِ دونَ الإرادةِ:

المَشيئَةُ حَتْمٌ واجبٌ لازمٌ غيرُ مُتَراخٍ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن إيتاءِ الفَضْلِ مع فعلِ المشيَئَةِ دون فعلِ الإرادةِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ وذلك

---

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 27 - 29.

لأنَّ المشيئةَ تَقْتَضي الحَتْم والوجودَ والتَّأْقيتَ غيرَ المتراخي، كما في الحديث الشَّريف: «ما شاءَ اللّهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»(1)، أمّا الإرادةُ؛ فتكونُ لِما يَتراخى وقْتُه، وليسَت بحَتْمٍ ولا واجِبٍ، ثم إنَّ هناك فرقًا بين الإرادة الشَّرعيَّة الدّينيَّة وبين المشيئة؛ فالإرادة الشَّرعية لا تكون إلّا فيما يحبُّه اللّه تَعالى، وأمّا الإرادةُ الكونيَّة أو المشيئةُ؛ فإنَّها تكون في المحبوب وغيره، فكلُّ ما في العالَم من خير وشرٍّ قَد شاءَهُ اللّه تَعالى، وأرادهُ إرادَةً كونيَّة، وكذلك فإنَّ الإرادةَ قَد تكونُ بحسَبِ القوَّة التَّسخيريَّة والفِكريَّة والحِسّيَّة، ولذلك تُستَعمَل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان وفي العقلاء، والمشيئةُ لا تكونُ إلّا معَ اختيارٍ، ولذلك لا يُقال إلّا للعالم والمُتَفَكِّر في مشيئَتِه(2)، ولمّا كان المرادُ في هذا السّياقِ إثباتَ عموم القدرةِ على إيتاءِ الفضل؛ عبَّرَ النَّظمُ بالمشيئةِ دونَ الإرادة.

سِرُّ حذفِ مَفعولِ ﴿يَشَآءُۚ﴾:

حَذْفُ فضولِ الكلامِ مِن سِماتِ البلاغَةِ العاليَةِ

حُذِفَ مفعول المشيئةِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ ولو أظْهَرَهُ، فقال: (يؤتيه من يشاءُ إيتاءَهُ)؛ لصارَ الكلام فيه ركاكةٌ، ولا فائدةَ مقصودةَ منه، ومِن أحكام البلاغة العاليةِ ألّا يُنطَقَ بالمحذوفِ، ولا يَظهر في اللَّفْظِ في مثل هذا السّياق؛ لانصِبابِ الكلام إلى مشيئةِ اللّهِ تَعالى، فنابَت قَرينةُ الحالِ عن ذكرِ المَفْعولِ(3).

دَلالةُ العطف بِالواوِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

توكيدُ اختصاص اللهِ تَعالى بالفَضلِ والعَظَمَةِ في الإنعامِ بالنُّبوَّةِ والجزاءِ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ بينَ قولِه اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين: كمالِ الاتِّصال وكمالِ الانقطاع، فالجملتان كلتاهما

(1) رواه أبو داود في سننه برقم: (5075).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124، والراغب، تفسير الراغب: 1/ 151.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163.

خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى[1]، وقد أفاد الجمعُ بينَ الجُمْلَتَين إبرازَ قدرة اللّه ﷻ في أسمى معانيها، فهو وحدَه صاحبُ الفضلِ على كلِّ الخلقِ، ولا سبيل لأحدٍ إلى نيل فضلهِ إلّا بأمْرِهِ واتِّباع نبيِّه ﷺ.

بَلاغةُ التَّذييلِ بِجملةِ الفاصلة وإيرادِها اسميَّةً:

دوامُ فضلِ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ

ذَيَّل البيانُ القرآنيُّ الآيةَ والسّورةَ كلَّها بقولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ كنايةً عن حصول منافعَ أخرى لَمن آمن باللّهِ سُبحانَهُ، وآمَن بسائِرِ الرُّسل، وفي مقدِّمتهم مُحَمَّدٌ ﷺ، وفي هذه الجملةِ أيضًا اختصارٌ؛ إذ لا يحدُّ عطاءَهُ كلماتٌ، فذيَّل بما يدلُّ على كثرة العطاء لأهلِ الإيمانِ، بذكر الاسم الأحسَن (اللّه) الذي يدلُّ على العظمة، وبوصفِ فَضْلِه وعطائه بالعظمَة، وبالتَّعبير بالجملة الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المُعْطي هو اللّهُ تَعالى، ووُصِفَ عطاؤُهُ بالعظمة؛ فأنَّى لكلماتٍ أن تتَّسع لعطائِهِ؟ وفي الجملةِ أيضًا إشارةٌ إلى تَفَضُّله سبحانه بما رزَقَ أهلَ الإسلام من عظيم الأجر ومُضاعَفَتِه على الرغم من أنْفِ مَن كَفَرَ من بَني إسرائيلَ الزّاعِمين اخْتِصاصَهُم بالنُّبوَّة والوحي والرِّسالةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ مُظْهَرًا:

بعْثُ الأملِ في نفوسِ المؤمنينَ وشدُّ عزائمهم في مواجهَةِ مَزاعِمِ أهْلِ الكِتابِ

أتت الآيةُ بالاسْمِ الظَّاهرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دون التَّعبير بالضَّمير، فلم يقل: (وهو ذو الفضلِ العَظيم)؛ لزيادَةِ التَّقريرِ والإيضاحِ والتَّوكيد، وليَبْعَث في النُّفوس الأملَ بفضلِ الإلهِ العظيم، ولأنَّ الاسْمَ الأحسَنَ (اللّه) جامِعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ، الَّتي تشتمل على كلِّ أنواعِ العطاءِ والفضْلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاء المغفرة وعطاء السَّتْر وغيرها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿ذُو﴾:

الوَصْفُ بـ ﴿ذُو﴾ أشرفُ عند أهلِ المعاني من الوصف بـ (صاحب)؛

---

(1) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 477.

لأنَّهم ذَكَروا أنَّ ﴿ذُو﴾ لا تكونُ إلَّا مضافة لاسم، فمدلولُها أشرفُ[1]، فناسب مجيءُ الوصفِ في الآية بـ ﴿ذُو﴾؛ لإضافته إلى صِفَةٍ عظيمة، والمعنى: ذو فضلٍ يتفضَّل به على مَن أحبَّ، وشاءَ مِن خلقه[2]؛ إذ العظيمُ لا بُدَّ وأن يكونَ إحسانُه عظيمًا، والمرادُ: تعظيمُ حالِ مُحَمَّدٍ ﷺ في نُبوَّتِه وشَرعِه وكتابِه[3].

سِرُّ تَكرارِ لفظِ الفَضلِ في الآية:

بيانُ مزيَّةِ الفَضلِ الإلهيِّ، وتوكيدُ الرَّدِّ على أهلِ الكتابِ

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الفَضْلِ في الآيةِ ثلاثَ مَرّات؛ لبيانِ مزيَّةِ هذا الفضلِ الإلهيِّ المتمثِّل في النُّبوَّةِ والجزاء الجَزيل على ما زَعَمَهُ أهلُ الكتاب مِن اختِصاصِهم بالوَحْيِ والرِّسالةِ، وفيه تذكيرٌ بزوالِ فَضْلِهم، وإثباتُ فضلِ اللّهِ تَعالى على المؤمنين مِن أَهْلِ الكِتابِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ خاصَّةً والمؤمنين عامَّةً، ولتوكيدِ هذا المعنى الجليلِ وترسيخِه في النُّفوسِ.

دَلالةُ وصفِ الفَضلِ بِـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

الاتساع الدلالي يقتضي الوصفَ بالعظمةِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ وصفَ فضلِ اللّه تَعالى بالعظمةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ وذلك لاتِّساعِ دلالةِ مفردة ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في المعنى ما لا تَتَّسع له دلالةُ (الكبير)، فالعظيمُ: صفة مشبَّهَةٌ لمِن اتَّصف بالعظمَة، والعظمَةُ معناها: الكِبَرُ والاتِّساع وعلوُّ الشَّأْنِ والارتفاع، يقال: عَظُمَ، أي: كَبُرَ، واتَّسَعَ، وعلا شأنُهُ، وارتفع[4]، وكلُّ هذه معانٍ تُراعى في اسمِه تَعالى (العظيم)، وفي معنى التَّعظيم يأتي اسمُه تَعالى الكبير، وكذا اسمُهُ الواسع، وكذا يأتي معنى التَّبجيل للّه تَعالى، ولمّا كان السّياق دالًّا على عظمةِ أجْرِ المؤمنين ومبيِّنًا لاختصاصِه وحده تَعالى بالأجْرِ العَظيمِ؛ كان الوصفُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 546.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 6/ 518.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 476.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عظم).

بالعظمَةِ أَوْلى؛ لنسبتهِ إلى اللّه سُبحانَهُ، وأمّا إذا لم يُنْسَب الفضلُ إلى اللّه تعالى، بَل ورد مطلقًا غيرَ مقيَّدٍ؛ كان وصفُهُ بالكِبَر، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾ [الشورى: 22].

دَلالةُ التَّعريفِ في قولِه: ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

الاخـتـصـاصُ يَقْتَضي التَّعريف

جاءَ النَّظْم هَهُنا بتعريف الفَضْلِ وصِفَتِه في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وجاء في أواخرِ سورة آل عمران قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]، بتنكير كلمة ﴿فَضۡلٍ﴾ [آل عمران: 174]، وتبِعَها في التَّنكير كلمةُ ﴿عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]؛ لوقوعِها نعتًا لنكرة، ووجهُ ذلك أنَّه لمّا كان المقصودُ بالفضلِ هنا النُّبوَّةَ والرِّسالةَ والجزاء الجزيلَ الذي خصَّ اللّه تعالى به المؤمنين من أمَّةِ نبيِّه ﷺ؛ ناسبَهُ تعريفُ الفَضلِ والوصفِ التّابع له؛ وذلك للخُصوص، بخلاف الموضع الأخيرِ مِنَ سورة آل عمرانَ، فهو في موضع العُموم؛ لمجيئِه في سياق تَوابِع أحداث غَزْوَة أحد، والفَضلُ فيها عامٌ للرَّسولِ صلى اللّه عليه سلم وللمؤمنين.

بَلاغةُ تَعَلُّقِ عَجُزِ السّورة بِمطلَعِها:

تنزيهُ الخلق لله تـعـالى أعـظـم تـنـزيـه؛ لعزَّته وحكمَتِه وعُموم فَضْلِه وعَظَمَتِه

اشتَمَل خِتامُ السّورة في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على تنزيهِ اللّهِ تَعالى تنزيهًا عظيمًا فيه معنى العزَّة والعظمة، وفيه كذلك معنى الحكمةِ البالغةِ بوضع الفضل في موضعه الرَّشيد السَّديد، فلا يقدرُ أحدٌ على الاعتراض بوَجْهٍ مِنَ الوجوه، ومِن ثَمَّ فقد نزَّه له التَّنزيهَ الأعظمَ جميعُ ما في السَّماوات والأرض، وسبَّحوا بفضله وعظمته وحكمته، فهو العزيزُ الحكيمُ الذي لا عزيزَ غيرُه ولا حكيمَ سواه، فانطَبَقَ آخرُ السّورةِ على أوَّلها، ورجع مِفْصَلُها على مَوْصِلِها(1).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 330.

ومن أوجُه التَّناسُب بين المطلع والختام: أنَّ اللّه تعالى قال في مَطْلَعِ السّورة: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وقال سُبحانَه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وذَكَر فَضْلَهُ في آخِرِ السّورة في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، فذكر أنَّ له الملكَ العظيمَ في بداية السّورة، وذكر فَضْلَهُ العَظيمَ في خاتِمَتِها، فالذي له ملكُ السَّماوات والأرض هو ذو الفَضْلِ العظيم.

ومنها أيضًا أنَّ اللّه ﷻ قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وقال في خاتِمَتِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، فأمَرَهُم اللّهُ تعالى بالإيمان به وبالرَّسول ﷺ وبالإنفاقِ في سَبيلِهِ أوَّلًا، وأمَرَهُم بتَقْوى اللّه تعالى والإيمان برَسولِهِ ﷺ في الختام، وذَكَرَ أنَّ للذين آمنوا، وأنفقوا، أجرًا كبيرًا في البَدْءِ، وأنَّ الذين اتَّقوا، وآمَنوا برَسولِهِ، يُؤْتيهم كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِه في الخاتِمَةِ، والأجر الكبير مِن جُمْلَةِ رَحْمَتِهِ ﷻ[1].

(1) فاضل السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ص: 70 - 71.

الجُزْءُ
الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

سُورَةُ المُجَادلَة

❁ التَّعريفُ العامُّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ وعَدُّ الآيِ:

سـورةُ المجادلة مدنيّة

هذه السّورةُ مدنيَّةٌ بالإجماع كما نقل ذلك ابنُ عطيّة(1)، ونَقَلَ القرطبيُّ عن عطاءٍ أنّها مكّيَّةٌ باستثناء الآيات العشر الأولى منها، ونَقَلَ عن الكلبيِّ أنّها كلَّها مدنيَّةٌ باستثناء قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: 7] نزلتْ بمكّة(2)، والظّاهرُ أنّها من السّوَرِ المدنيَّة الخالصة، ومَن قال بأنّ فيها آياتٍ مكّيّةً لم يأتِ بدليلٍ يُعتمَدُ عليه في ذلك(3).

وهي إحدى وعشرونَ آيةً في المدنيِّ الأخيرِ والمكّيِّ، واثنتانِ وعشرونَ في عدد الباقينَ، واختلافُها آيةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾ [المجادلة: 20]؛ إذ لم يعدَّها المدنيُّ الأخيرُ والمكّيُّ وعدَّها الباقون(4).

ترتيبُ النُّزولِ وترتيبُ المصحف:

جـاءَ ترتيبُ المجادلة المصحفيُّ بينَ سورتَي الحديدِ والحشر

هذه السّورةُ هي الثّامنة والخمسون في التّرتيب المصحفيِّ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابت، والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتي الحديد والحشر، أمّا ترتيبُها النُّزوليُّ فقد اختلفوا فيه، فقيل: هي السّورةُ الرّابعةُ بعدَ المائةِ في ترتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَتْ بعدَ سورةِ المنافقون وقبلَ سورةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 272.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 269.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 242.
(4) الدّاني، البيان في عد آي القرآن، ص: 242.

الحجُرات[1]، وقيل: هي الثّالثةُ بعدَ المائة، نَزَلَتْ بعدَ سورةِ المنافقون وقبلَ سورةِ التَّحريم[2].

فضائلُ السّورة:

هذه السّورةُ من سوَرِ المفُصَّل

هذه السّورةُ الكريمة من طِوال المفصَّل الّذي قال فيه النّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المَثاني، وفُضِّلتُ بالمُفصَّل»[3].

اسمُ السّورةِ ومُناسَبةُ تَسْميتِها:

سورةُ المُجادلة اشتُهِرَتْ بهذا الاسم، ولم يَثبُتْ لها أسماءٌ أُخرى

وَرَدتْ تسميتُها بسورةِ (المُجادلة) عند البخاريِّ[4] و التّرمذيِّ[5]، وبه جاءَتْ تسميتُها في جميع المصاحف وكتب التَّفسير، وقد ذكروا أنَّ تسميتَها بهذا الاسم لوُرودِهِ فيها؛ يقولُ ابنُ عاشور: "سُمّيَتْ سورَةَ (المُجادَلَة)، وتُسمَّى سورَةَ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾، وهذا الاسْمُ مُشْتَهِرٌ في الكَتاتيبِ في تونُسَ، وسُمّيَتْ في مُصحفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (سورَةَ الظِّهارِ).

وَوَجْهُ تَسْمِيَتِها (سورَةَ المُجادَلَة)؛ لِأَنَّها افْتُتِحَتْ بِقَضيَّةِ مُجادَلَةِ امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ الصّامِتِ لَدَى النَّبيءِ ﷺ في شَأْنِ مُظاهَرَةِ زَوْجِها"[6].

والحقُّ أنَّ هذه التَّسمياتِ الأخرى للسّورة الكريمة ليس لها أسانيدُ مُعتمَدةٌ، وسُمّيَت السّورةُ بالمُجادلة؛ لأنَّها لمّا كانَت لطلب الحقِّ والصوابِ أشبَهَتْ مُجادَلة الأنبياء والقرآن، ولذلك سَمِعَ الله لصاحبها[7].

---

(1) دروزة، التفسير الحديث: 8/ 467.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 28/ 6.

(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم: 22/ 76، (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

(4) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب: تفسير سورة المجادلة: 4/ 1851.

(5) التّرمذي، سنن التّرمذيّ، بابٌ: وَمِنْ سُورَةِ المجادلة: 5/ 405.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير28/ 5، بتصرّف.

(7) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 161.

وقد رَبَطَ البقاعيُّ بينَ اسمِها ومقصودِها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها: الإعلام بإيقاعِ البأسِ الشَّديد، الَّذي أشارت إليه الحديد بمَن حادَّ اللّٰه ورسوله؛ لِما له سبحانه من تمامِ العلم اللّازم عنه تمامُ القدرة، اللّازم عنه الإحاطةُ بجميع صفات الكمال، وعلى ذلك دلَّتْ تسميتُها بالمجادلةِ بأوّل قصّتها وآخرها، وتكرير الاسم الأعظم الجامع في القصَّة وجميعِ السّورة تكريرًا لم يكنْ في سواها، بحيث لم تَخْلُ منه آية"[1].

والحقُّ أنَّ ما قاله الإمامُ البقاعيُّ له وجاهتُهُ؛ فمِحورُ هذه السّورة مرتبطٌ باسمها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّها تناوَلَتْ مظاهرَ علم اللّٰه تعالى بخلقه الَّتي أشارتْ إليها سورةُ الحديد الَّتي سبقَتْها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾ [الحديد: 4]، فجاء في هذه السّورة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: 7]، ولذلك فإنَّ تسميتَها بالمجادلة فيه إشارةٌ إلى سَعَةِ علمه تعالى من خلال ضربِ المَثَلِ بهذه المرأة الَّتي جادَلَتِ النَّبيَّ ﷺ سرًّا، حتّى إنّ عائشةَ لم تكن تسمعُ ما جرى بينهما، ولكنّ اللّٰه تعالى سَمِعَ ما جرى بينهما، وقضى بأمرِها وأمرِ غيرها إلى يوم القيامة.

واسمُ (المجادلة) بكسرِ الدّالِ أم بفتحِها؟ قال الخفاجيُّ في حاشية البيضاويِّ: "بفتح الدّال وكسرِها، والثّاني هو المعروفُ"[2]، قال ابنُ عاشور: "ولم يَذكُر المُفسِّرون ولا شارِحو كُتُبِ السُّنَّةِ ضبطَهُ بكسرِ الدّال أو فتحِها...، وكسرُ الدّال أظهرُ؛ لأنَّ السّورةَ افتُتِحَتْ بذكرِ الَّتي تُجادِلُ في زوجها، فحَقيقةٌ أنْ تُضافَ إلى صاحبةِ الجِدال...، وأمّا فتحُ الدّال فهو مصدرٌ مأخوذٌ من فعلِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾"[3].

المِحوَرُ العامُّ للسّورة:

جاء محورُ هذه السّورة مُتمِّمًا لمحورِ سورة الحديد الَّذي يقوم على بناء المجتمع المسلم، وتحقيقِ عناصر تمكينه من خلال تحقيقِ التّوازن العادل بين متطلَّباتِ الإنسان المادّيَّة والمعنويّة، الدّنيويّة والأخرويّة، إذن فإنَّ محورَ سورة المجادلة يقومُ على بيان أنّ هذا

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 68، ونظم الدّرر: 19/ 331.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 5، باختصار.

التّمكينَ والغلبةَ لا يقوم إلّا على تحقيق المفاصلة بين الحقّ والباطل، وأن يكون الوَلاء والبَراء للّه وفي اللّه، ولا يتحقّق ذلك كلّه إلّا باتّباع منهج اللّه.

مِحوَرُ السّورة يقومُ على تحقيقِ المُفاصلةِ بينَ الحقِّ والباطل

لذا اقتضاها هذا المحورُ أن تُبيِّنَ الأمورَ الآتية:

أوّلًا: بيّنَتِ السّورةُ بعض المظاهر التّشريعيَّة المتنوِّعة لتحقيق المفاصلة بين الحقِّ والباطل، حيث لا يُمكن أن يُنتزَعَ رِباطُ الزّوجيَّة المقدسُ بناءً على كلمة؛ لأنَّ ذلك يتعارضُ مع حقِّ الزّوجة ويُحرّم على الرّجل ما أباحه اللّه له، وهذا أمرٌ يَنسَجِمُ مع مفهوم التّوازن والأخذ بأسباب الحفاظ على الرّوابط المقدَّسة في المجتمع.

ثانيًا: جاء التّحذيرُ من المنافقين الَّذين تفاوتت مواقفُهم بين الإيمان والكفر، فحذَّرتهم السّورةُ من هذه المحادَّةِ، وفرضت عليهم الذّلّ والعذاب؛ لأنّها تقتضي أن يُحذِّرَ المجتمعُ من مكرهم وخداعهم، وأن يُجتنَبَ موالاتُهم والولاء لهم، باعتبار أنَّ ذلك يُفضي إلى فساد المجتمع وخُسرانه.

ثالثًا: أمرت السّورةُ المسلمين بمقاطعةِ موالاة الكافرين، وحذَّرَتْ من التّولّي لهم، موضِحةً أنَّ من يتولّاهم يخالفُ مبدأ الإيمان، ويقعُ في معصية كبيرة، وأنَّ هذا التَّولّيَ يورِثُ العذابَ، ويُبعِدُ عن رحمة اللّه، مع التّأكيد أنَّ الموقفَ الصّحيح هو إظهارُ البراءة منهم، وعدمُ التّستُّرِ على مكرِهم.

موضوعاتُ السّورةِ وخَصائِصُها:

تضمَّنتْ هذه السّورةُ حُكمَ الظّهار وكفّارتَه، وحكمَ التّناجي، وأدبَ المجالس، وتقديمَ الصّدقة في بدءِ الأمر قبلَ مُناجاةِ الرّسول ﷺ، وحكمَ المنافقين وجزاءَهم وتكذيبَهم ووصفَهم بأنّهم حزبُ الشّيطان، ومُوادَّةَ أعداءِ اللّه وموالاتَهم، وجاء ذلك مفصّلًا في السّورة على الشَّكل الآتي:

مَدارُ السّورة على ضرورة المُفاصلةِ بينَ الحقِّ والباطل

أوَّلًا: بدأت السّورةُ بذكر سماع الله صوتَ المرأة وهي تجادلُ الرّسولَ في شأن حكم الظّهار، حيث بيَّنَتْ أنَّ حكم الظّهار هو التّحريمُ المؤقَّتُ الَّذي يُرفَعُ بكفّارة، وبيّنَتْ أيضًا أنَّ الَّذين يُعادون الله ورسوله يُذَلّون ويُخزَى سعيُهم، ويُحاسبون على أعمالهم.

ثانيًا: ذَكَرتِ الأدبَ في التّناجي في المجالس، مُحذِّرةً من التّناجي بالإثم والعدوان مثلَ اليهود، مُشيرةً إلى خديعتهم حين يُحَيّون الرّسولَ بتحيَّةٍ ظاهرُها السَّلام، وباطنها الأذى والسَّبّ.

ثالثًا: أوجَزَتْ أدبَ التّفسُّحِ في المجالس وطلبِ المغادرة، ومدحَ المؤمنين الَّذين يمتثلون أوامرَ الله ورسولِه، مع التّزهيد في مجالسِ المناجاة.

رابعًا: بيَّنَتْ مَخازيَ المنافقين الَّذين يوالون غير المسلمين، ويَفْشون أسرارَ المؤمنين، ويَحلِفون كذبًا، ويعادون الله ورسوله.

خامسًا: ختمت السّورةُ بأمر المؤمنين بتجنُّبِ الخَوَنةِ والمُتَذبْذِبين، الَّذين يوالون الأعداء ويعملون على إضعاف الأمَّة وتفريقِ جماعتها، فالأمَّة المتماسكة المحبَّة هي أمَّة الإيمان الحق[1].

الخَصائِصُ الموضوعيّةُ للسّورة:

أوَّلًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها استُهِلَّتْ بحرفِ التَّحقيق ﴿قَدْ﴾ مُشارِكةً بذلك سورةَ (المؤمنون).

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها السّورة الوحيدةُ الَّتي ذُكر اسمُ الله تعالى في كلّ آيةٍ من آياتها؛ إذ تكرَّرَ فيها اسمُ الجلالة أربعين مرَّةً[2]. ولعلَّ ذلك الأمرَ مرتبطٌ بمحورِ السّورة القائم على المفاصلة بين أهل الحقّ وأهل الباطل، ولأنّها أيضًا ارتبَطَتْ بسورة الحديد الَّتي تحدّثَتْ عن معيَّةِ الله تعالى الَّتي لا تنقطعُ، فكانت معيَّتُهُ ظاهرةً هنا في كلِّ آية من آيات السّورة الكريمة.

سـورةُ المُجَادلةِ هـي الـوحيـدةُ الَّتي ذُكِرَ اسمُ اللـه تـعـالى في كـلِّ آيـةٍ مِـن آياتِها

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 5 - 6.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 173.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها شارَكَتْ سورةَ الحديد في ذكر معيَّةِ اللّه سبحانه، حيث قال تعالى هناك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]، وقال هنا: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، مع اختلافِ الأسلوب بينَهما.

الخَصائِصُ الأسلوبيَّةُ للسّورة:

سورةُ المُجادلةِ حَوَتْ مَزيجًا مِنَ الألفاظِ والأساليبِ انفرَدَتْ بها عن سائرِ السّوَر

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة بتكرارِ بعضِ الألفاظ فيها بشكلٍ لافتٍ، فلفظةُ ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾ ومشتقّاتُها وردت نحوَ عشرِ مرّات[1]، وكذلك كلمةُ (العمل) ومشتقّاتُها؛ إذ وردت ستَّ مرّات[2]، وكذلك لفظةُ (الحزب)؛ إذ وردت أربعَ مرّات[3]، وكذلك كلمةُ (المُحادَّة) ومشتقّاتُها وردت ثلاثَ مرّات[4]، و(التَّفسُّحُ) ومشتقّاتُها وردت ثلاثَ مرّاتٍ في آيةٍ واحدة[5]، فضلًا عن حديثِها عن (المُظاهَرة) مرَّتين[6]، و(الكَبْتِ) مرَّتين[7]، و﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾ مرَّتين[8]، و﴿أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ مرَّتين[9].

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة كذلك بتكرار بعضِ الأنماطِ التّعبيريَّة فيها، مثل: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، ومثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: 20]، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 22]، ومثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(1) الآيات: 7، 8(2)، 9(3)، 10، 12(2)، 13.
(2) الآيات: 3، 6، 7، 11، 13، 15.
(3) الآيات: 19(2)، 22(2).
(4) الآيات: 5، 20، 22.
(5) الآية: 11(3).
(6) الآيات: 2، 3.
(7) الآية: 6(2).
(8) الآيتان: 3، 4.
(9) الآية: 2(2).

إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 9]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: 12]، وغيرها.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها انفرَدَتْ بأنماطٍ تركيبيَّةٍ لعلَّها لم تَرِدْ في غيرها، من مثل قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾، ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾، ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾، ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: 11]، ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: 11]، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة: 11]، ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: 12]، ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [المجادلة: 19]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [المجادلة: 19]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21]، وغيرها.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حَوَتْ أبنيةً صرفيَّةً لعلَّها لم تأتِ في غيرِها من السّور، مثل: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ﴾، ﴿كُبِتُواْ﴾، ﴿كُبِتَ﴾، ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾ [المجادلة: 8]، ﴿تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ [المجادلة: 9]، ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾، ﴿ٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة: 11]، ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾ [المجادلة: 19]، ﴿يُوَآدُّونَ﴾ [المجادلة: 22]، ﴿يُحَآدُّونَ﴾، ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ [المجادلة: 20]، ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ [المجادلة: 22]، وغيرها.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ جَذْرَينِ لُغَويَّينِ لم يَرِدا في غيرِها من السّور، وهما: (فسح) و(جلس)، حيث وردَتْ مادَّةُ (فسح) بهذه السّورة ثلاثَ مرّاتٍ في آيةٍ واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: 11]، ووردَتْ مادَّةُ (جلس) منفردةً بلفظةِ ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: 11] في الآية السّابقة نفسِها.

مُناسَبةُ السّورةِ لِما قبلَها:

تَتَلاقى سورةُ المجادلة وسورةُ الحديد في تِبْيان عظمةِ اللّه وفضله، وفي التَّأكيد على أهمّيَّةِ الإيمانِ والعملِ الصّالح، مع التَّركيز على علم اللّه الواسعِ ومكانتِه في حياة المؤمنين، وهو ما يعكِسُ مَدى تلازُمِ المعرفة الإلهيَّةِ بالعباد والفوزِ بها في الدُّنيا والآخرة، ويَظهَرُ ذلك من خلال ما يأتي:

أوَّلًا: تَتَشابَكُ المناسبتان في ذكرِ صفات اللّه الجليلة، حيث ورَدَ في سورة الحديد أنَّه

سورةُ المُجادلةِ قامَتْ على بيانِ مَظاهِرِ عِلْمِ اللهِ تعالى المُطلَقِ الَّذي ذَكَرَتْهُ سورةُ الحديد

الظّاهرُ والباطن، والعالمُ بما في الأرض وما يَنزِلُ من السّماء، وهو مع عباده أينَما كانوا، وهذا ما يَتوافقُ مع سورة المجادلة الَّتي تذكرُ سماعَ اللّه لصوتِ المرأة المجادِلة، وتؤكّدُ أنَّ علم اللّه يشملُ كلَّ شيء، وأنَّه مُطَّلعٌ على ما في القلوب، وهو حاضرٌ في كلِّ مكان، وهو ما يعكِسُ عُمقَ علم اللّه واطِّلاعه على سيرِ الأمور.

ثانيًا: يَظهَرُ التّوافقُ في بيان فضل اللّه على عباده ومكانةِ المؤمنين، إذ خُتِمت سورةُ الحديد ببيانِ هذا الفضلِ وأهمّيَّةِ الإيمان والعملِ الصّالح، بينما أشارَ مطلعُ سورة المجادلة إلى بعضٍ من ذلك الفضل، فالسّورتانِ تُؤكِّدان أنَّ رحمةَ اللّه وفضلَهُ يتوقَّفان على التّقوى والإيمان، وأنَّ الخير بيدِ اللّه، يُيَسِّرُهُ لِمَن يتَّبعُ شرعَه.

ثالثًا: يَبرُزُ التَّشابُهُ في تقريرِ السّورتَينِ أنَّ علمَ اللّه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ففي المجادلةِ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: 7]، وفي الحديدِ يَذكُرُ سبحانه أنَّه مع عباده أينَما كانوا، وأنَّه بصيرٌ بأعمالهم، وهو ما يعكسُ أنَّ علمَ اللّه واطِّلاعَهُ شاملٌ لكلِّ تفاصيلِ الحياة، وأنَّه حاضرٌ في كلِّ زمانٍ ومكان.

رابعًا: يَظهَرُ مِن التّوافُقِ أنَّ الإيمانَ والعملَ الصّالحَ يرفعان مرتبةَ الإنسان ويُقرِّبانِه من اللّه؛ فقد ذُكِرَ في سورة الحديد أنَّ الإيمانَ يُنيرُ القلبَ ويَزيدُ من التّوفيق، وفي المجادلة إشارةٌ إلى أنَّ فضلَ اللّه مرتبطٌ بضرورةِ الإيمان، وأنَّ الرَّحمةَ والفضائلَ تتوقَّفُ على الإخلاصِ واتِّباعِ مَنهَجِ اللّه، وهو ما يُعزِّزُ أهمّيَّةَ الالتزامِ والطّاعة في بلوغِ رِضا اللّه[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 5 - 6.

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: 1]

أمَّـةُ الإسـلام مـرحـومـةٌ مـخـصـوصـةٌ بالكرامة

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا خُتِمت الحديدُ بعظيم الفضل له سبحانه بعدَ إثبات عَجْزِ الخلق، وكان قد تقدَّم ابتداعُ بعض المتعبِّدين من الرَّهبانيَّة بما لم يُصرَّحْ لهم بالإذنِ فيه فكان سببًا للتَّضييع، وكان الظِّهارُ المؤقَّتُ ممّا يدخلُ في الرّهبانيَّة؛ لأنَّه من التَّبتُّلِ وتحريم ما أحلَّ اللّٰه من الطّيبات، وكان بعضُ الصّحابة رضي الله عنهم قد ظاهَرَ من امرأته، وكان ذلك ممّا لم يأذَنْ به اللّٰه تعالى، بل نهى عنه فضلًا وتكرُّمًا منه سبحانه على عباده أن يُحمِّلوا أنفُسَهم فوق طاقتِهم جاء بحُكمٍ عامٍّ للمرأة الَّتي اشتَكَتْ رسولَ اللّٰه ﷺ ولغيرِها من عباده، حتّى صارَتْ واقعتُها رُخصةً عامَّةً للمسلمين إلى يوم القيامة مُعلِمًا بأنَّه ذو الفضل العظيم، وكان السّامع لذلك جديرًا بتوقُّع البيان الَّذي هو النّورُ في هذه الرّهبانية الَّتي ابتُدِعَتْ في هذه الأمَّة، وتخفيفِ البأسِ الشَّديد الَّذي وقع من بعضهم؛ ليعلمَ أهلُ الكتاب ما لهذه الأمَّة من الكرامة على ربِّها، وأنَّه يختصُّ برحمته من يشاء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: (جدل) أصلٌ يدلُّ على استحكام الشَّيءِ في استرسالٍ يكونُ فيه[2]، ومِنْ ذلكَ: الجدولُ، وهو نهرٌ صغيرٌ ممتدٌّ، وماؤُهُ أقوى في اجتماعِ أجزائِهِ مِنَ المنبطحِ السّائحِ[3]، والجَدالةُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 332 - 333.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).

الأرضُ الصُّلْبةُ[1]، والجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المنازعةِ والمغالبةِ، وأصلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الحَبْلَ؛ أي: أحكمتُ فَتْلَهُ، فكأنَّ المتجادلَيْن يَفْتِلُ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ عن رأيِهِ[2]. والمرادُ بالمجادلةِ هنا: المُساءَلةُ[3]، والمراجعةُ في الكلامِ[4].

2) ﴿وَتَشْتَكِي﴾: (شكو) أصلٌ يدلُّ على توجُّعٍ مِنْ شيءٍ[5]، والشَّكْوُ والشِّكايةُ والشَّكاةُ والشَّكوى: إظهارُ البثِّ والحزنِ، يقالُ: شَكَوْتُ واشتكيتُ[6]، ويقالُ: أشكاهُ إذا جعلَ لهُ شكوى، نحو: أمرضَهُ، وأشكاهُ إذا أزالَ شِكايتَهُ، فهو مِنَ الأضدادِ[7]، والمرادُ باشتكائِها هنا: إظهارُ بثِّها وما انطوَتْ عليهِ مِنَ الغمِّ والهمِّ، وتضرُّعُها إليه ﷻ[8].

3) ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾: (حور) أصلٌ يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ وعنهُ[9]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حارَ الماءُ في الغديرِ؛ أي: تردَّدَ فيه، وحارَ في أمرِهِ؛ أي: تحيَّرَ وتردَّدَ[10]، والمحاورةُ والحوارُ: المُرادَّةُ في الكلامِ، والمراجعةُ فيهِ[11]. وهو المرادُ بالتَّحاورِ هنا[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمةُ اللهِ بالمرأةِ المُتضرِّعةِ إليهِ، وسماعُها شَكْواها مِن فوقِ سبعِ سموات

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن قصَّةِ مُجادَلةِ خولةَ بنتِ ثعلبةَ للنَّبيِّ ﷺ، فيقولُ: قد سمعَ اللهُ - يا محمَّدُ ﷺ - قولَ المرأةِ الَّتي تراجعُكَ الكلامَ في شأنِ مُظاهَرةِ زوجِها منها، وتبثُّ ما لديها مِنَ الهمِّ

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (جدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 272.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 4.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكو).
(6) الرّاغب، المفردات: (شكو).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شكو).
(8) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 198.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حور).
(10) الرّاغب، المفردات: (حور).
(11) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (حور).
(12) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 478.

والحزنِ إلى اللّهِ، وتسألُهُ الفرجَ، واللّهُ يسمعُ تحاورَكما؛ لأنَّ اللّهَ سميعٌ لكلامِ خلقِه، بصيرٌ بأعمالِهم وأحوالِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿قَدۡ﴾ في ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾:

حُصولُ ما يَتَوقَّعُهُ المُخاطَبون

أصلُ معنى الحرفِ ﴿قَدۡ﴾ تحقيقُ الخبرِ، فهو مِنْ حروفِ توكيدِ الخبرِ، ولكنَّ الخطابَ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وهو لا يُخامِرُهُ تردُّدٌ في أنَّ اللّهَ يعلمُ ما قالَتْهُ المرأةُ الَّتي جادلَتْ في زوجِها، فتعيَّنَ أنَّ الحرفَ ﴿قَدۡ﴾ هنا مُستعمَلٌ في التَّوقُّعِ؛ أي: الإشعارِ بحصولِ ما يتوقَّعُهُ السّامعُ. ومعنى التَّوقُّعِ الَّذي يُؤذِنُ بِهِ الحرفُ ﴿قَدۡ﴾ في مِثلِ هذا يَؤولُ إلى تنزيلِ الَّذي يَتَوقَّعُ حصولَ أمرٍ لشدَّةِ استشرافِهِ لَهُ منزلةَ المُتردِّدِ الطّالبِ، فتحقيقُ الخبرِ مِنْ تخريجِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ لنكتةٍ[2].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ السَّماعِ:

سَماعُ اللهِ شَكْوى المرأةِ سَماعُ قبولٍ وإجابة

السَّماعُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ مجازٌ مرسلٌ عن القبولِ والإجابةِ بعلاقةِ السَّببيَّةِ، أو كنايةٌ عن ذلكَ[3]، بقرينةِ دخولِ ﴿قَدۡ﴾ التَّوقُّعيَّةِ عليهِ؛ فإنَّ المُتوقَّعَ هو استجابةُ شكواها[4]. وعُبِّرَ بالسَّماعِ دونَ غيرِهِ لشدَّةِ مناسبتِهِ للمجادَلةِ والاشتِكاءِ[5].

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿سَمِعَ﴾:

حُصولُ القَبولِ والإجابةِ مُتحقِّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَمِعَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 219، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 6.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 485، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 8.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 198، والخلوتي، روح البيان: 9/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 8.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 484.

السَّماعِ وحصولِه[1]، وفي ذلكَ تقويةٌ لحصولِ القبولِ والإجابةِ منهُ تعالى لشكوى المرأةِ؛ إذ السَّماعُ مجازٌ عنهما أو كنايةٌ بحسب ما تقدَّمَ.

سرُّ إيثارِ لفظِ الجلالة:

أوثِرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي بها يكونُ السَّماعُ والقبولُ والإجابةُ؛ "أي: أجابَ بعظيمِ فضلِه الَّذي أحاطَ بجميعِ صفاتِ الكمالِ، فوَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ"[2].

العظيمُ سبحانَهُ لا يَخفى عليهِ شيءٌ

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ القولِ دونَ الكلام:

القولُ أعمُّ من الكلامِ؛ لصدقِهِ على المفردِ نحو: (زيد)، وعلى المركَّبِ غيرِ المفيد نحو: (إنْ جاء زيدٌ)، وعلى المركب المفيدِ نحو: (جاء زيد)، أمّا الكلامُ فمختصٌّ بالمركَّب المفيد، ومِن هنا فإنَّه عبَّرَ باللَّفظ الأعمِّ وهو القولُ؛ ليفيدَ عمومَ السَّماعِ في المُفيدِ وغيرِه[3]؛ أي: أنَّه تعالى سمع كلَّ ما لفَظَتْ به ونطَقَتْ.

المسموعُ هو الملفوظُ كلُّه

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾:

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ بمعنى اللّامِ، والمعنى: قولًا للَّتي تجادلُكَ، والمرادُ بِهِ قولٌ معهودٌ، وهو ما يَتعلَّقُ بمظاهرةِ زوجِها منها؛ مِنْ إظهارِ البثِّ والحزنِ والتَّضرُّعِ وطلبِ الحكمِ الشَّرعيِّ.

حديثُ المُظاهَرةِ مسموعٌ للهِ تعالى

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾:

التَّعبيرُ بالموصولِ وصلتِهِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾؛ للتَّنويهِ بمجادَلتِها وشَكْواها؛ لأنَّها دلَّتْ على توكُّلِها الصّادقِ على رحمةِ ربِّها بها وبأبنائِها وزوجِها[4]، وبذلكَ استجابَ اللّهُ لها.

استحضارُ المرأةِ بالصِّفاتِ الرَّفيعةِ

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 333.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 173، بتصرف وزيادة إيضاح، وقد وقع في المطبوعة: (المُقيَّد) بدل: (المفيد)، ولعلَّه خطأ طباعيٌّ؛ إذ لا دلالة له في سياق الكلام.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 8.

لا يُعلَمُ من حالِ المرأةِ إلّا ما دَلَّتْ عليهِ الصِّلَة

أو يقال: عبَّرَ بالاسم الموصول لعدمِ حُسْنِ التَّصريحِ باسمِها، ولعدمِ علمِ المُخاطَبِ سوى الصِّلة[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾:

حالُ المُجادِلةِ عجيبُ الشَّأنِ

المرادُ بالمُجادَلة هنا المُكالَمَةُ ومُراجَعةُ الكلام؛ أي: مُعاوَدَتُه[2]. والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ لحكايةِ حالِ المجادلةِ الماضيةِ واستحضارِها؛ لزيادةِ التَّعجيبِ منها[3] ومِن غرابةِ شأنِها وحالِها، وكأنَّ السّامعَ يَرى هذهِ المرأةَ الآنَ وهي تجادلُ النَّبيَّ ﷺ في أمرِ زوجِها وظِهارِه منها، فتَمتلِئُ نفسُهُ عَجَبًا.

نكتةُ صيغةِ المُفاعَلةِ في ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾:

حِرْصُ المرأةِ على المُجادَلةِ

والتَّعبيرُ بصيغةِ المُفاعَلةِ في قولِه جلَّ مِن قائلٍ: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ للدَّلالةِ على مبالغةِ المرأةِ في المُجادَلةِ، والمعنى: تبالِغُ في أنْ تُقْبِلَكَ إلى مرادِها[4].

معنى ﴿فِي﴾ مِن قولِه: ﴿فِي زَوۡجِهَا﴾:

جدالُ المرأةِ كانَ لأجلِ زوجِها وبِسَبَبِه

كلمةُ ﴿فِي﴾ مِن قولِه ﷻ: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ بمعنى اللّام؛ أي: تجادلُكَ لزوجِها[5]. ويجوز أنْ تكون سببيَّةً[6]؛ لأنَّ المجادلةَ والشَّكوى كانت بسببِ ظِهارِ زوجِها.

جِدالُ المرأةِ كانَ في شأنِ ظِهارِ زَوْجِها منها

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ على ظاهرِها مِن الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ المجازيَّة، فيكون في الكلامِ إيجازٌ بحذفِ المضافِ[7]، والمعنى: تجادلُكَ في شأنِ زوجِها[8]، وفي الأمرِ المُخلِّصِ لهُ مِنْ ظِهارِه منها[9].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 484.
(2) الخلوتي، روح البيان: 9/ 388.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 484.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.
(6) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1919.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 478، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 444.
(9) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.

غَرَضُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿زَوۡجِهَا﴾:

جِرْصُ المرأةِ على مَصلحتِها ومَصلحةِ زوجِها وأولادِها

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿زَوۡجِهَا﴾ بمعنى اللّام، وفيها تحبُّبٌ وتودُّدٌ، ودلالةٌ على غايةِ حرصِ المرأةِ على بيانِ حكمٍ شرعيٍّ يكونُ فيهِ مصلحةٌ لها ولزوجِها، ويَضمَنُ عدمَ ضياعِ حقوقِ أولادِهما.

سرُّ التَّعبيرِ بالزَّوجِ دونَ البَعْلِ:

اختيارُ أشهَرِ كلمةٍ في الدَّلالةِ على المُرَادِ

عُبِّرَ بالزَّوجِ دونَ البعلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾؛ لأنَّ كلمةَ البعلِ أعمُّ؛ إذ قد تُطلَقُ على السَّيِّدِ والمالكِ، فاختيرَ أخصُّ كلمةٍ، بحيث لا يتبادرُ إلى الذِّهنِ غيرُ المعنى المقصودِ منها، ولأنَّ الغالبَ في القرآنِ استعمالُ لفظِ الزَّوجِ، أمّا لفظُ البعلِ فاستُعمِلَ في المواضعِ الَّتي حُكيَ فيها أحوالُ الأممِ الماضيةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: 72]، والمواضعِ الَّتي أُشيرَ فيها إلى التَّذكيرِ بما للزَّوجِ من سيادةٍ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ [النِّساء: 128](1).

دلالةُ الواوِ في ﴿وَتَشۡتَكِيٓ﴾:

اقترانُ مُجادَلةِ المرأةِ بالشَّكوى إلى اللهِ

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، فهي داخلةٌ أيضًا في حيِّزِ صلةِ الموصولِ.

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ في موضعِ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعلِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: تجادلُكَ شاكيةً حالَها إلى اللّهِ(2).

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَشۡتَكِيٓ﴾:

حكايةُ اشتكاءِ المرأةِ إلى اللهِ وتصويرُها

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ واستحضارِها بقصدِ التَّعجيبِ منها لغرابتِها(3)، وكأنَّ السّامعَ يرى هذهِ المرأةَ الآنَ وهي تشتكي وتتضرَّعُ إلى اللّهِ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/ 393.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 261، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 215.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 484.

بلاغةُ الصّيغةِ في ﴿وَتَشۡتَكِيٓ﴾:

مُبالَغةُ المرأةِ في شَكْواها إلى الله

الاشتكاءُ في قولِه ﷻ: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُبالَغةٌ في الشَّكوى[1]؛ لأنَّ صيغةَ الافتعالِ تدلُّ على ذلكَ، "يقالُ: شكا وتَشَكّى واشتكى، وأكثرُها مبالغةً: اشتكى"[2]، والمعنى: وتَتَعمَّدُ الشَّكوى بتلكَ المجادلةِ[3]، وتبالغ فيها.

دلالةُ ﴿إِلَى﴾ في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

مُنتهَى الشَّكوى إلى اللهِ تعالى

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، والمعنى: وتبالغُ في الشَّكوى مُنتهيةً بها إلى اللّهِ تعالى[4].

سرُّ إيثارِ لفظِ الجلالةِ في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

مَـنْ تَـضَـرَّعَ إلى الـعـظـيـم سبحانَهُ ما خابَ ولا خَسِر

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِه من الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي بها يَسمَعُ الشَّكوى، ويَكشِفُ الضُّرَّ والبلوى، ويَجبُرُ كَسْرَ عبادِه، ويَشرَعُ لهم مِنَ الأحكامِ ما فيهِ خيرُهم وصلاحُهم، والمعنى: وتشتكي إلى المَلِكِ العظيمِ الرَّحيمِ الَّذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وفي ذلكَ تنبيهٌ على قوَّةِ الرَّجاءِ وتوقُّعِ حصولِ المأمولِ[5].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾:

مَنْ أكثَرَ التَّضرُّعَ وألَـحَّ على اللهِ فـهـو حَـريٌّ بالإجابةِ

الواوُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ استئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ؛ فإنَّ إلحاحَها في المسألةِ، ومبالغتَها في التَّضرُّعِ إلى اللّهِ تعالى، ومُدافعتَهُ ﷺ إيّاها بجوابٍ مُنبئٍ عن التَّوقُّفِ وترقُّبِ الوحيِ، وعلمَهُ تعالى بحالِها؛ كلُّ ذلك مِنْ دواعي الإجابةِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 215، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.

شَكوى العبدِ مسموعةٌ مِنَ اللهِ

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِنْ ضميرِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: والحالُ أنَّ اللهَ يسمعُ تحاورَكما[1].

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ وتكريرِه:

اللهُ ﷻ مُتَّصِفٌ بصفاتِ العَظَمةِ والجَلالِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وهو يسمعُ تحاورَكما وهو سميعٌ بصيرٌ)؛ لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالةِ، وإنَّما أُظهِرَ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ، وإثارةِ تعظيمِ مِنَّتِه تعالى ودواعي شُكرِه، وتعليلِ الحكمِ بوصفِ الألوهيَّةِ - فإنَّ لفظَ الجلالةِ يَشتمِلُ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها السَّمعُ والبصرُ - وتقويةِ استقلالِ الجملتين[2]، بحيثُ تَجريانِ مَجْرَى الأمثالِ.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

سماعُ اللهِ تعالى تحاوُرَ المرأةِ والنَّبيِّ مؤكَّدٌ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾؛ لتقويةِ الحكمِ[3]؛ لأنَّ الجملةَ تشتملُ على نسبةِ السَّماعِ إلى اللهِ تعالى، وفي ﴿يَسۡمَعُ﴾ ضميرٌ يرجعُ إلى لفظِ الجلالةِ، فيفيدُ نسبةَ السَّماعِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ مرَّتينِ: يسمعُ اللّهُ تحاورَكما، يسمعُ اللّهُ تحاورَكما.

الغرضُ مِن إلقاءِ الخبرِ ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾:

عَظَمةُ شأنِ تَحاوُرِ المرأةِ والنَّبيِّ عندَ اللهِ

كونُ اللّهِ تعالى عالمًا بما جرَى مِنَ المحاورةِ معلومٌ، فلا يرادُ مِنَ الإخبارِ بهِ إفادةُ الحكمِ، فتعيَّنَ صرفُ الخبرِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ إلى لازمِ إفادتِهِ، وهي إرادةُ الاعتناءِ بذلكَ التَّحاورِ، والتَّنويهُ بهِ وتعظيمُ منزلتِه؛ لاشتمالِه على تَرَقُّبِ النَّبيِّ ﷺ ما يُنزَّلُ عليهِ مِنْ وحيٍ، وتَرَقُّبِ المرأةِ الرَّحمةَ، وإلّا فإنَّ المسلمينَ يعلمونَ أنَّ اللّهَ عالمٌ بتحاورِهما[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 199.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسۡمَعُ﴾:

استمرارُ السَّمعِ باستمرارِ التَّحاورِ

صيغةُ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ للدّلالةِ على استمرارِ السَّمعِ حسبَ استمرارِ التَّحاورِ وتجدُّدِه[1].

استحضارُ حالةِ مُقارنةِ علمِ اللهِ لتحاورِهما

أو لاستحضارِ حالةِ مقارنةِ علمِ اللهِ لتحاورِهما؛ زيادةً في التَّنويهِ بشأنِ ذلكَ التَّحاورِ[2].

براعةُ التَّغليبِ في ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾:

تشريفُ المرأةِ بعزِّ الخِطابِ والحُضورِ

في قولِه تعالى: ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ تغليبٌ للخطابِ على الغَيْبةِ، بنَظْمِ المرأةِ في سِلْكِ الخطابِ، والخطابُ هنا إنَّما هو للنَّبيِّ ﷺ؛ لقولِه تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، وفي ذلكَ تشريفٌ لها[3] بعزِّ الخطابِ والحضورِ ومعيَّةِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام.

نكتةُ صيغةِ التَّفاعلِ في ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾:

التَّحاوُرُ تجاوُبٌ مِنْ شخصَين

عُبِّرَ بصيغةِ التَّفاعُلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾؛ لأنَّ التَّحاورَ حصولُ الجوابِ مِنْ جانبينِ، فيَقتضي مراجعةً بينَ شخصَينِ[4]، يُرجِعُ كلٌّ منهما الكلامَ إلى صاحبِه.

غرضُ الإضافةِ في ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾:

تحاوُرُهما المعهودُ مسموعٌ للهِ تعالى

الإضافةُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ بمعنى اللّامِ، والمعنى: تحاورًا لكما، والمرادُ بهِ تحاورٌ معهودٌ، وهو ما جرَى بينَها وبينَ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الكلامِ عن مُظاهَرةِ زوجِها لها.

علّةُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

مَنْ كانَ سميعًا بصيرًا فلن يَخفَى عليهِ شيءٌ

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَ الجُملتينِ مِن شبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ تعليلٌ لهُ بطريقِ التَّحقيقِ، والمعنى:

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 215، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 199.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 9.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 164.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 9.

إنَّ اللّهَ عالمٌ بكلِّ صوتٍ، وبكلِّ مرئيٍّ، ومِنْ ذلكَ مُحاورةُ المُجادِلةِ ووقوعُها عندَ النَّبيِّ ﷺ[1].

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

لا غرابةَ في سماعِ اللهِ ما يَخفى على البَشَر

لمّا كانَ سماعُ قولِ المُجادِلةِ في غايةِ ما يكونُ مِنْ خَرْقِ العادةِ أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ تنبيهًا على شدَّةِ غرابتِه، ولأنَّهُ ربَّما استبعَدَهُ مَن اشتدَّ جهلُهُ؛ لتقيُّدِه بالعاداتِ[2].

نكتةُ الجمعِ بينَ السَّمعِ والبصرِ:

اللهُ تعالى مُطَّلِعٌ على أقوالِ الخلقِ وأحوالِهم

جُمِعَ بينَ صِفَتَي السَّمعِ والبصرِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ ليتناولَ الكلامُ جميعَ الأقوالِ والأحوالِ؛ إذ المعنى: سميعٌ للأقوالِ بصيرٌ بالأحوالِ[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ الخلقَ كلَّهم تحتَ سلطانِه تعالى.

بلاغةُ صيغةِ (فَعيلٍ) في ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

اتِّصافُهُ تعالى بالسَّمعِ والبصرِ اتِّصافًا بليغًا مُطلَقًا غيرَ مَحدود

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بالسَّمعِ والبصرِ، والمعنى: إنَّ اللّهَ بالغُ السَّمعِ لكلِّ مسموعٍ، وبالغُ البصرِ لكلِّ ما مُبصَرٍ[4].

غرضُ تقديمِ السَّمعِ على البصرِ:

رِعايةُ الفاصلةِ، ومُناسَبَةُ السّياقِ بتقديمِ ما لَهُ مُتعلَّقٌ صريح

قُدِّمَ السَّمعُ على البصرِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لأنَّ بعضَ متعلَّقِهِ مذكورٌ صريحًا، بخلافِ متعلَّقِ البصيرِ؛ فإنَّهُ مُنْفهِمٌ مِنَ الفَحْوى[5]، ولأنَّ تأخيرَ ﴿بَصِيرٌ﴾ أنسبُ برعايةِ الفاصلةِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 9.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 199.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 334.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الكلامُ والقولُ والنُّطْقُ:

اللهُ تعالى سامعٌ كلَّ مَقولٍ قَلَّ أم كَثُر، جُهِرَ بِهِ أم لم يُجهَر

الكلامُ: هو ما كانَ مُكتفيًا بنفسِهِ، وهو الجملةُ. والقولُ: ما لم يكنْ مُكتفيًا بنفسِهِ، وهو الجزءُ مِنَ الجملةِ[1]، أو القولُ أعمُّ مِنَ الكلامِ؛ لِصِدْقِهِ على المفردِ، وعلى المركَّبِ[2]. وأمّا النُّطْقُ: فهو الأصواتُ المُقطَّعةُ الَّتي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتَفهَمُها الآذانُ، ولا يكادُ يقالُ إلّا للإنسانِ، ولا يقالُ لغيرِهِ إلّا على سبيلِ التَّبَعِ، نحوُ: النّاطقِ والصّامتِ، فيرادُ بالنّاطقِ ما لهُ صوتٌ مِنَ الإنسانِ وغيرِهِ، وبالصّامتِ ما لا صوتَ لهُ، ولا يقالُ للحيوانِ: ناطقٌ، إلّا مُقيَّدًا أو على سبيلِ التَّشبيهِ[3]. وقد عُبِّرَ بالقولِ هنا؛ لأنَّهُ أعمُّ مِنَ الكلامِ[4]، فيكونُ أنسبَ بسياقِ بيانِ كونِهِ تعالى سميعًا لدقيقِ الكلامِ، قليلِهِ وكثيرِهِ.

المُجادَلةُ والمُحاجَّةُ:

مُراجَعةُ المرأةِ النَّبيَّ ﷺ في قضيَّةِ ظِهارِ زوجِها مِنها

المُحاجَّةُ: أنْ يَطلُبَ كلُّ واحدٍ مِنَ المختلفَينِ أنْ يَرُدَّ الآخرَ عن مَحَجَّتِهِ ومَقصِدِهِ[5]. والمُجادَلةُ: الاحتجاجُ والاستدلالُ[6]، والمراجعةُ في الكلامِ[7]. وقد عُبِّرَ بالمجادلةِ هنا؛ لدلالتِها على مُعاوَدةِ الكلامِ الحاصلةِ بينَ المرأةِ وبينَ النَّبيِّ ﷺ[8]، وليسَ المرادُ بيانَ حرصِ كلٍّ مِنهما على إقامةِ حُجَّتِهِ على الآخرِ ليُعبَّرَ بالمُحاجَّةِ.

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (كلم).
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 173.
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نطق).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 173.
(5) الرّاغب، المفردات: (حج).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 8.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 4.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 215، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 484.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ [المجادلة: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ سببِ المُجادَلةِ الَّتي سَمِعَها اللهُ

لمّا أتمَّ ﷻ الخبرَ عن إحاطةِ علمِه؛ أخبرَ عن حكمِ الأمرِ الَّذي وقعتِ المجادَلةُ بسببِه(1).

بيانُ حُكمِ الظِّهارِ بعدَ بيانِ وقوعِهِ

ثمَّ إنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لبيانِ شأنِ الظِّهارِ في نفسِه، تمهيدًا لبيانِ حكمِهِ المترتِّبِ عليهِ شرعًا، إثرَ بيانِ وقوعِ الظِّهارِ مِنْ بعضِ الرِّجالِ(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾: (ظَهَرَ) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ(3)، ومِنْ ذلك يقالُ: ظهرَ عليهِ، إذا غلبَهُ، وظاهرتُهُ؛ أي: عاونتُهُ(4)، والظَّهيرُ: المُعينُ(5)، والظِّهارُ: أنْ يقولَ الرَّجلُ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمّي، وهو مشتقٌّ مِنَ الظَّهرِ، وألحقَ بهِ الفقهاءُ تشبيهَها بجزءِ أُنثى مُحَرَّمٍ(6). وهذا هو المرادُ هنا.

2) ﴿مُنكَرٗا﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ المعرفةِ(7)، فالإنكارُ ضدُّ العِرْفانِ(8)، ويقالُ: أنكرتُ على فلانٍ، إذا فعلتَ بهِ فعلًا يَردَعُهُ(9). والمُنْكَرُ: كلُّ فعلٍ تحكمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أو تتوقَّفُ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 342.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 10.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(6) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نكر).
(9) الرّاغب، المفردات: (نكر).

في استقباحِهِ واستحسانِهِ العقولُ فتحكمُ بقُبحِهِ الشَّريعةُ[1]. والمرادُ بالمُنكَرِ هنا: القبيحُ[2].

3) ﴿وَزُورٗاۚ﴾: (زور) أصلٌ يدلُّ على المَيْلِ والعدولِ، ومِنْ ذلكَ يقال: ازْوَرَّ عن كذا؛ أي: مالَ عنه[3]، ومفازةٌ زَوْراءُ، أي: مائلةٌ عن القَصد والسَّمْت[4]، وقال تعالى: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الكهف: 17]؛ أي: تميل[5]، والزّورُ: الكذبُ؛ لأنَّهُ مائلٌ عن طريقةِ الحقِّ[6]، قال تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]، ويُسمَّى الصَّنمُ زورًا لكون ذلك كذبا وميلا عن الحق[7]، والزّورُ أيضًا: كلُّ شيءٍ يُتَّخذُ ربًّا ويُعبَدُ مِنْ دونِ اللّهِ[8]. والمرادُ هنا: الكذبُ[9].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الظِّهارُ مَحْضُ كَذِبٍ وقَلْبٍ لحَقائقِ الأشياء

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى قُبْحَ صنيعِ المُظاهِرينَ، فيقولُ: الَّذين يُحرِّمونَ نساءَهم على أنفُسِهم تحريمَ أمَّهاتِهم - بأنْ يقولَ أحدُهم لامرأتِهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمّي - لا أثرَ لكلامِهم في تغييرِ حقائقِ الأشياءِ، فما نساؤُهم اللّائي يُظاهِرونَ منهنَّ بأمَّهاتِهم، بل هنَّ لهم حلالٌ، وما أمَّهاتُهم إلّا اللَّواتي ولَدْنَهم، لا اللَّواتي قالوا لهنَّ ذلكَ، وإنَّ المُظاهِرينَ ليقولونَ قولًا قبيحًا لا صحَّةَ لهُ وكذبًا فظيعًا، وإنَّ اللّهَ لذو صفحٍ عن ذنوبِ عبادِهِ إذا تابوا منها وأنابوا، غفورٌ لهم أنْ يعاقبَهم عليها بعدَ التَّوبةِ[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 13.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).
(4) الخليل، العين: (زور).
(5) الراغب، المفردات: (زور).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).
(7) الراغب، المفردات: (زور).
(8) الجوهري، الصحاح: (زور).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 13.
(10) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 227، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 162.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾:

بيانُ المَخرَجِ للمُجادِلةِ مِنَ الظِّهارِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ شأنِ الظِّهارِ في نفسِهِ؛ تمهيدًا لبيانِ حكمِهِ المترتِّبِ عليهِ شرعًا إثرَ بيانِ وقوعِ الظِّهارِ مِنْ بعضِ الرِّجالِ، فهو جوابُ سؤالٍ نشَأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: ما الظِّهارُ في الشَّرعِ؟ وماذا يَتَرَتَّبُ عليهِ مِنَ الحكمِ الشَّرعيِّ[1]؟ أو يقالُ في تقديرِ السُّؤالِ: فماذا نشأ عن استجابةِ اللّهِ لشكوى المُجادِلَةِ؟ فيجاب بما فيهِ المَخرَجُ لها منهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قُبْحُ شأنِ الظِّهار

الموصولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ؛ أي: مخطئونَ، وأُقيمَ دليلُهُ - وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ - مُقامَهُ، أو هو الخبرُ نفسُهُ؛ أي: ما نساؤُهم أمَّهاتِهم على الحقيقةِ[3]. ويجوزُ أن يكونَ الموصولُ في محلِّ نصبٍ مفعولًا به لصيغةِ المبالغةِ ﴿بَصِيرٌ﴾ على مذهبِ سيبويهِ في جوازِ إعمالِ (فَعيل)[4].

وأيًّا ما كانَ ففي التَّعبيرِ بالموصولِ إيماءٌ إلى علَّةِ الحكمِ، وهو كونُهم مخطئينَ، واستحضارٌ لهم بالفعلِ القبيحِ الَّذي لا ينبغي أنْ يَصدُرَ عنهم، وهو الظِّهارُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾:

الظِّهارُ عادةٌ للمخاطَبينَ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظِّهارَ كانَ عادةً عندَ المخاطَبينَ، وأنَّهُ كانَ يصدرُ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 485، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 10.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.
(4) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 247، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 262.

منهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ وقتًا فوقتًا[1]، وفي ذلك مزيدُ ذمٍّ لهم.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾:

تعدُّدُ القراءاتِ واتِّحادُ المعنى

وَرَدَ في قوله ﷻ: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ مرتبطةٍ بالنّاحيةِ الصَّرفيَّة:

فقرَأ عاصمٌ: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وتخفيفِ الظّاءِ وألفٍ بعدَها وكسرِ الهاء.

وقرَأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿يَظَّٰهَرُونَ﴾ بفتحِ الياءِ وتشديدِ الظّاءِ وألفٍ بعدَها وفتحِ الهاء.

وقرَأ الباقونَ: ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾[2] بفتحِ الياءِ وفتحِ الظّاءِ مُشدَّدةً من غيرِ ألفٍ بعدَها وفتحِ الهاءِ مُشدَّدة.

أمّا الأولى ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ فهي من (ظاهَرَ يُظاهِرُ) كـ(قاتَلَ يُقاتِلُ)، ولا تاءَ هنا توجبُ التَّشديد. وأمّا الثّانيةُ ﴿يَظَّٰهَرُونَ﴾ فهي من (تظاهَرَ يَتَظاهَرُ)، أُدغِمَتِ التّاءُ المزيدةُ في الظّاءِ لقُرْبِ مَخْرَجَيهِما، والَّذي حَسَّنَ الإدغامَ هنا نقلُ الأضعفِ إلى الأقوى؛ لأنَّ الظّاءَ أقوى من التّاء، فلمّا أُدغِمَتِ التّاء في الظّاء وقع التَّشديدُ في الظّاء. وأمّا الثّالثةُ ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ فهي من (تَظَهَّرَ يَتَظَهَّرُ) مضعَّفِ العين، فأُدغِمَتِ التّاءُ المزيدةُ في الظّاءِ[3].

والظّاهرُ: أنَّ هذا الاختلافَ إنَّما هو اختلافٌ صرفيٌّ يتعلَّقُ بأبنيةِ الأفعالِ المَزيدةِ؛ فـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ على وزن (يُفاعِلون) من (فاعَلَ) المزيدِ بحرفٍ، و﴿يَظَّٰهَرُونَ﴾ على وزنِ (يَتَفاعلون) من (تفاعَلَ) المزيدِ بحرفين، و﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ على وزن (يَتَفعَّلونَ) من (تَفعَّلَ) المزيدِ بحرفين.

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 268، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 164.

(2) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 10، بتصرف وزيادة إيضاح.

أمّا مِن حيث المعنى فإنَّ معنى هذهِ القراءاتِ واحدٌ، قال ابنُ منظورٍ: "وظاهَرَ الرَّجُلُ امرأتَهُ ومِنها، وقد تَظَهَّرَ مِنها وتَظاهَرَ، كلُّهُ بمعنًى"[1]، واللّه ﷻ أعلم.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الظِّهارِ:

المُظاهِرُ قاصدٌ تأبيدَ تحريمِ نكاحِ الزَّوجة

معنى الظِّهارِ في قولِه تعالى: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ أنْ يقولَ الرَّجلُ لزوجتِه: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمّي، وكانَ هذا قولًا يقولونَهُ في الجاهليَّةِ، يريدونَ بهِ تأبيدَ تحريمِ نكاحِها. وهو مشتقٌّ مِنَ الظَّهرِ ضدِّ البطنِ؛ لأنَّ الَّذي يقولُ لامرأتِهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي يريدُ بذلكَ أنَّهُ حرَّمَها على نفسِه، كما أنَّ أمَّهُ حرامٌ عليه، فإسنادُ تركيبِ التَّشبيهِ إلى ضميرِ المرأةِ على تقديرِ حالةٍ مِنْ حالاتِها، وهي حالةُ الاستمتاعِ المعروفِ، سَلَكوا في هذا التَّحريمِ مَسلَكَ الاستعارةِ المكنيَّةِ، بتشبيهِ الزَّوجةِ حينَ يَقْرَبُها زوجُها بالرّاحلةِ، وإثباتُ الظَّهرِ لها تخييلٌ للاستعارةِ، ثمَّ تشبيهُ ظهرِ زوجتِهِ بظهرِ أمِّهِ في حالةٍ مِنْ أحوالِه، وهي حالةُ الاستمتاعِ المعروفِ. وجُعِلَ المشبَّهُ ذاتَ الزَّوجةِ، والمقصودُ أخصُّ أحوالِها، وهو حالُ قُرْبانِها، فالتَّقديرُ: قُربانُكِ كقُربانِ ظهرِ أميِّ[2].

معنى (مِنْ) في ﴿مِنكُم﴾:

الحكمُ المذكورُ ليس خاصًّا بمُعيَّن

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ بيانيَّةٌ، كشأنِها بعدَ الأسماءِ المبهَمةِ، فعُلِمَ أنَّ هذا الحكمَ تشريعٌ عامٌّ لكلِّ مُظاهِرٍ، وليسَ خصوصيَّةً لخولةَ ولا لأمثالِها مِنَ النِّساءِ ذواتِ الخَصاصةِ وكثرةِ الأولادِ[3].

ويجوزُ أن تكونَ تبعيضيَّةً[4]؛ تقليلًا لمُمارِسي هذه العادةِ مِن المسلمين.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ظهر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 11.
(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1920.

فائدةُ التَّقييدِ بـ﴿مِنكُم﴾:

الظَّهارُ مِنْ عاداتِ أهلِ الجاهليَّة

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (الَّذينَ يظاهرونَ مِنْ نسائِهم)، ولكنْ قُيِّدَ بـ﴿مِنكُم﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾؛ ليُدمَجَ في الكلامِ توبيخُ العربِ وتهجينُ عادتِهم في الظِّهارِ؛ لأنَّ الظِّهارَ كان مخصوصًا بالعرب، وكان مِنْ أيمانِ أهلِ جاهليَّتِهم خاصَّةً دونَ سائرِ الأممِ[1]، فالخطابُ على ذلك في ﴿مِنكُم﴾ للعرب. ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ في ﴿مِنكُم﴾ للمُسلمين، "فيكونُ ذكرُ هذا الوصفِ للتَّعميم؛ بيانًا لمدلولِ الصِّلةِ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لئلّا يُتوهَّمَ إرادةُ معيَّنٍ بالصِّلة"[2].

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾:

الظِّهارُ مُبْعِدٌ لأحدِ الزَّوجينِ مِنَ الآخَر

﴿مِّن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لتَضمُّنِه معنى البُعدِ؛ إذ الظِّهارُ قد كانَ طلاقًا، والطَّلاقُ يُبعِدُ أحدَ الزَّوجينِ مِنَ الآخرِ، فاجتُلِبَ لهُ حرفُ الابتداءِ، كما في قولِكَ: خرجَ مِنَ البلدِ[3].

غرضُ الإضافةِ في ﴿نِّسَآئِهِم﴾:

ظِهارُ الزَّوجِ يقعُ على زوجتِهِ

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ بمعنى اللّامِ، والمعنى: مِنْ نساءٍ لهم، والمرادُ بهنَّ الأزواجُ لا عمومُ النِّساءِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ ظهارَ الزَّوجِ يقعُ على زوجتِهِ لا على غيرِها.

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّساءِ دونَ الأزواجِ:

الأزواجُ محلُّ المُظاهَرة

المرادُ بالنِّساءِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الأزواجُ[4]؛ إذ الظِّهارُ إنَّما يقعُ عليهنَّ، وإطلاقُ لفظِ النِّساءِ على الأزواجِ معروفٌ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 485، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 266، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 486.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 11.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 11.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 445.

عندَ العربِ إذا أُضيفَ لفظُ النِّساءِ إلى واحدٍ أو جماعةٍ، دونَ ما إذا وردَ غيرَ مضافٍ، قال سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 32]، وقال جلَّ شأنُهُ: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 59][1].

موقعُ جملةِ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ مِن الإعرابِ، والمعنى المَنوطُ بها:

تقدَّمَ أنَّ الاسمَ الموصولَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ بالابتداء، أو مفعولٌ به في محلِّ نصبٍ بـ﴿بَصِيرٌ﴾.

القولُ لا يُبدِّلُ حقائقَ الأشياءِ

وجملةُ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ على وجهِ النَّصب استئنافيَّةٌ تعليليَّةٌ، بتقديرِ جملةٍ محذوفةٍ تُفهَمُ من سياق الكلام؛ لأنَّ المَقامَ حينئذٍ مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ، والتَّقديرُ: إنَّ اللّٰه بصيرٌ الَّذين يُظاهِرون، وسيُجازيهم على افترائِهم وكَذِبهم؛ لأنَّ أزواجَهم ما هنَّ أُمَّهاتِهم. وهذا سببُ فَصْلِها عمّا قبلَها؛ لأنَّ بينَ الجملتين شِبْهَ كمالِ الاتِّصال.

أمّا على وجهِ الرَّفعِ فالجملةُ خبرٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: الَّذين يُظاهِرون من أزواجِهم ليسَ أزواجُهم أمَّهاتٍ لهم بقولِ أحدِهم: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي؛ أي: لا تَصيرُ الزَّوجةُ بذلك أُمًّا لقائلِ تلك المقالةِ. وهذا تمهيدٌ لإبطالِ أثرِ صيغةِ الظِّهارِ في تحريم الزَّوجةِ، بما يُشيرُ إلى أنَّ الأمومةَ حقيقةٌ ثابتةٌ لا تُصنَعُ بالقولِ؛ إذ القولُ لا يُبدِّلُ حقائقَ الأشياءِ[2].

انتِفاءُ أُمومةِ الأزواجِ دليلُ خَطَإِ المُظاهِرينَ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ خبرُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محذوفًا تقديرُهُ: مُخطِئونَ، وأُقيمَ دليلُه - وهو قولُه تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ - مُقامَهُ[3]، فتكونُ الجملةُ استئنافًا تعليليًّا، ولذلك فُصِلَتْ عمّا قبلَها.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ وإعرابُها:

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ نافيةٌ، وذلك أنَّهُ لمّا كانَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 3/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 12.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.

مقصودُ المُظاهِرِ تحريمُ زوجتِهِ كحُرمةِ أُمِّه

معنى قولِهم: (كظَهْرِ أُمّي): كأمّي في التَّحريم، ولا يُرادُ خصوصيَّةُ الظَّهرِ الَّذي هو مِنَ الجسدِ جاءَ النَّفيُ بقولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾[1].

وهي هنا عاملةٌ؛ تشبيهًا لها بـ(ليس)؛ لاستيفائها شُروطَ الإعمالِ، والضَّميرُ ﴿هُنَّ﴾ اسمُها في محلِّ رفعٍ، و﴿أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ خبرُها منصوبٌ، وهذه هي اللُّغةُ الفُصحى في (ما) النّافيةِ إذا توفَّرَتْ فيها شروطُ الإعمالِ، وهي لغةُ أهلِ الحِجازِ[2].

بلاغةُ التَّشبيهِ المنْفيِّ في ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾:

تشبيهُ الزَّوجةِ بالأمِّ باطِل

لمّا كانَ ظهارُ الرَّجلِ مِن امرأتِه تشبيهًا لها بأُمِّهِ في حُرمةِ النِّكاحِ أُبطِلَ هذا التَّشبيهُ بقولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾[3]، وهو تشبيهٌ بليغٌ[4].

بلاغةُ الإخبارِ بـ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾:

تَسفيهُ رَأْيِ المُظاهِرينَ مِن أزواجِهم

الإخبارُ بقولِه تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ ليسَ على ظاهرِه؛ لأنَّ عدمَ كونِهنَّ أمَّهاتِهم أمرٌ ظاهرٌ معلومٌ، بل المرادُ التَّمهيدُ لإبطالِ أثرِ صيغةِ الظِّهارِ في تحريمِ الزَّوجةِ[5]، وبيانُ سوءِ حالِهم وتسفيهُ رأيِهم[6].

غرضُ الإضافةِ في ﴿أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾:

تشبيهُ الأزواجِ بالأُمَّهاتِ لا وجهَ له

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ بمعنى اللّامِ، والمعنى: ما هُنَّ أمَّهاتٍ لهم، وفي ذلكَ تنصيصٌ على نفيِ أنْ تكونَ أزواجُهم أُمَّهاتِهم المُختصّاتِ بهم، وتأكيدٌ لبطلانِ تشبيهِ الأزواجِ بالأُمَّهاتِ.

علَّةُ فَصْلِ ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾:

تأكيدُ إبطالِ التَّحريمِ بلفظِ الظِّهارِ

فُصلَتْ جملةُ ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ عن جملةِ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾؛ لأنَّها واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لها، فبينَهما شِبهُ كمالِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 121.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 265.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 267.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 486.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 12.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 486.

الاتِّصال، وهو تعليلٌ للحُكمِ المقصودِ مِنْ هذا الكلامِ، وهو إبطالُ التَّحريم بلفظِ الظِّهارِ؛ إذ كونُهنَّ غيرَ أمَّهاتِهم ضروريٌّ لا يحتاجُ إلى التَّعليلِ[1]. ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الفصلُ لكونِها تأكيدًا لها[2]، فبينَ الجملتين حينئذٍ اتِّحادٌ تامٌّ، وهو ما يُسمّى كمالَ الاتِّصال.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ قصرٌ بطريقِ النَّفي والاستثناء، وهو مِن أبلغِ طُرُقِ القصر، ومعناهُ: ما أُمَّهاتُهم إلّا اللّائي ولَدْنَهم؛ "أي: فليستِ الزَّوجاتُ المُظاهَرُ منهنَّ بصائراتٍ أمَّهاتٍ بذلكَ الظِّهارِ؛ لانعدامِ حقيقةِ الأمومةِ منهنَّ؛ إذ هنَّ لم يَلِدْنَ القائلينَ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي، فلا يَحْرُمْنَ عليهم، فالقصرُ في الآيةِ حقيقيٌّ؛ أي: فالتَّحريمُ بالظِّهارِ أمرٌ باطلٌ لا يقتضيهِ سببٌ يُؤثِّرُ إيجادَهُ"[3].

التَّحريمُ بالظِّهارِ باطلٌ لا يَقتَضيهِ سببٌ يُؤثِّرُ إيجادَه

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾:

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو الولادةُ - إلى ذكرِ الوصفِ الَّذي يُؤكِّدُ نفيَ كونِ الزَّوجاتِ أمَّهاتٍ، ويُثبِتُ كونَ الأمَّهاتِ هنَّ الوالداتِ.

مَنْ ولَدَتْ هي الموصوفةُ بالأُمومة

بلاغةُ صيغةِ الماضي في ﴿وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الولادةِ ووقوعِها، وأنَّ مَنْ تحقَّقَتْ ولادتُهنَّ هنَّ المُستحِقّاتُ للأمومة.

تحقُّقُ الولادةِ يُقوّي استِحقاقَ الأُمومة

فنُّ السَّلبِ والإيجابِ في آيةِ الظِّهار:

في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 13.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 12.

بناءُ الكلامِ على نفي الشَّيءِ مِنْ جهةٍ وإيجابِهِ مِنْ جهةٍ أُخرى

﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ فنٌّ عجيبٌ بديعٌ مِنْ فنونِ البلاغةِ، وهو السَّلبُ والإيجابُ، وهو بناءُ الكلامِ على نفي الشَّيءِ مِنْ جهةٍ وإيجابِهِ مِنْ جهةٍ أخرى، أو على الأمرِ بشيءٍ مِنْ جهةٍ والنَّهي عنهُ مِنْ جهةٍ ثانيةٍ، وفي هذه الآيةِ نفيٌ لصيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتٌ لصيرورتِها أُمًّا بالوِلادة[1]. وقد أدرَجَهُ كثيرٌ من علماءِ البلاغةِ في فَنِّ الطِّباق، وجعلَهُ بعضُهم فَنًّا قائمًا بذاتِه.

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا﴾:

قُبْحُ فعلِ المُظاهِرينَ وقولِهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا وقَّفَهم على جَهْلِهم في الفعلِ وقَّفَهم على جَهْلِهم في القولِ[2]، وفي ذلكَ زيادةُ ذمٍّ لهم[3].

نكتةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ)، و(اللّام):

الظِّهارُ مِنْ مُختَرَعاتِ أهلِ الجاهليَّة

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ بـ(إنَّ) واللّامِ؛ لأنَّهم كانوا قد اعتادوا هذا القولَ المُنكَرَ، فأُشرِبَتْهُ قلوبُهم[4]، فأُريدَ بالتَّأكيدِ انتزاعُهُ مِنْ أنفُسِهم، وللاهتمامِ بإيقاظِ النّاسِ لشَناعتِهِ؛ لأنَّهم لمّا اعتادوهُ نُزِّلوا منزلةَ مَنْ يَتَردَّدُ في كونِهِ مُنكَرًا أو زورًا، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الظِّهارَ لم يكنْ مشروعًا في شرعٍ قديمٍ ولا في شريعةِ الإسلامِ، وأنَّهُ شيءٌ وضَعَهُ أهلُ الجاهليَّةِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ استمرارَهُم في الظِّهارِ استمرارٌ في قولِ المُنكَرِ والزّورِ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 8، بتصرف.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 346.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 13.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 345.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 13.

بلاغةُ إيثارِ لفظِ (المُنكَرِ) بصيغةِ التَّنكير:

لفظُ ﴿مُنكَرًا﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ مفعولٌ مطلقٌ منصوبٌ نائبٌ عن مصدرِ (يقولون)؛ لبيان النَّوعِ، وزيادة التَّوكيد[1]، أو هو مفعولٌ به على تضمينِ (يقولون) معنى (يَلفِظون)، وهو في الأصلِ نعتٌ لمفعولٍ محذوفٍ، والتَّقدير: وإنَّهم ليقولون شيئًا منكرًا من القول[2].

الظِّهارُ قبيحٌ فظيعٌ مُستنكَرٌ

واختيرَ التَّعبيرُ بلفظِ (المُنكَرِ)؛ لزيادةِ تقبيحِ الظِّهارِ، ببيانِ أنَّهُ فظيعٌ تُنكِرُهُ الحقيقةُ، وتُشَنِّعُهُ الأحكامُ الشَّرعيَّةُ[3].

ونُكِّرَ قولُهُ: ﴿مُنكَرًا﴾ في الآيةِ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[4]؛ أي: مُنكَرًا عظيمَ الشَّأنِ، يُنكِرُهُ الشَّرعُ والعقلُ والطَّبعُ. ونظيرُهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [الإسراء: 40][5].

الظِّهارُ مرفوضٌ شرعًا وعقلًا وطبعًا

بلاغةُ الحذفِ في ﴿مُنكَرًا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ أنَّ ﴿مُنكَرًا﴾ و(زورًا) نعتانِ لمفعولٍ محذوفٍ لفهمِ المعنى؛ أي: ليقولونَ شيئًا مُنكَرًا مِنَ القولِ وزورًا[6].

الظِّهارُ شيءٌ مردودٌ

معنى ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ بيانيَّةٌ؛ لِما في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مُنكَرًا﴾ مِنَ الإبهامِ، وفي سلوكِ سبيلِ الإيضاحِ بعدَ الإبهامِ تقريرٌ للمعنى.

تقريرُ المعنى بالإيضاحِ بعدَ الإبهامِ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾ من قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ

المُنكَرُ مِنْ جنسِ القولِ

(1) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1920.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 264.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 486، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 279.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 487.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.
(6) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 264.

﴿ٱلْقَوْلِ﴾ لتعريفِ الجنسِ؛ أي: مُنكَرًا مِنْ جنسِ القولِ، وفي إعادةِ القولِ معرَّفًا تشنيعٌ عليهم فيما قالوه وتأكيدٌ لكونه منكرًا، فـ"مَناطُ التّأكيدِ ليسَ صدورَ القولِ عنهم؛ فإنَّه أمرٌ محقَّقٌ، بل كونُهُ منكرًا؛ أي: عندَ الشّرعِ وعندَ العقلِ والطَّبعِ أيضًا، كما يُشعِرُ بِهِ تنكيرُهُ"[1]، بحسبِ ما مَرَّ بيانه.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَزُورًاۚ﴾:

قولُ الزّورِ مُنكَرٌ مُستهجَنٌ

عطفُ الزّورِ على المُنكَرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ كعطفِ العلَّةِ على المعلولِ[2]، والمعنى: ليقولونَ مُنكَرًا؛ لأنَّهُ زورٌ؛ أي: كذبٌ.

سرُّ إيثارِ لفظِ (زورًا) مُنكَّرًا:

ألفاظُ الظِّهارِ كذبٌ شنيعٌ

أوثِرَ لفظُ الزّورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾: "لأنَّ الزّوجة محلَّلةٌ والأُمَّ محرَّمةٌ، وتشبيهُ المحلَّلة بالمحرَّمةِ في وصف الحلِّ والحُرمة كذبٌ"[3]. وتنكيرُه للتَّفخيمِ[4]؛ أي: كذبًا فظيعًا عظيمًا مُبالَغًا فيه؛ لانحرافِهِ عن الحقِّ؛ فإنَّ الزّوجةَ لا تُشبِهُ الأُمّ[5].

بلاغةُ عطفِ جملةِ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾:

المُظاهِرُ مَغفورٌ لهُ إنْ تابَ

جملةُ الفاصلة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها؛ لذكرِ العفوِ وترغيبِهم في التَّوبةِ بعدَ توبيخِهم بأنَّهم يقولونَ مُنكَرًا مِنَ القولِ وزورًا[6]، وفي ذلكَ تكميلٌ حسنٌ بدفعِ تَوَهُّمِ أنَّ المُظاهِرينَ لا يُغفَرُ لهم[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 487.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 481.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 487.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 13.
(7) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 488.

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ معطوفةً على محذوفٍ، والتَّقديرُ: فإنَّ اللّهَ حرَّمَهُ وإنَّ اللّهَ لعفوٌّ غفورٌ، ونكتةُ العطفِ التَّرغيبُ في التَّوبةِ والدَّعوةُ إليها[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

ما مَضَى مِنَ الظِّهارِ قبلَ نزولِ الآيةِ فهو مَغْفوٌّ عنه

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ كنايةٌ عن عدم مُؤاخَذتِهم بما صدرَ منهم مِنَ الظِّهارِ قبلَ هذهِ الآيةِ؛ إذ كانَ عذرُهم أنَّ ذلكَ قولٌ تابعوا فيهِ أسلافَهم، وجَرَى على ألسِنَتِهم مِن دونِ تفكُّرٍ في مدلولاتِهِ، وأمّا ما يكونُ بعدَ نزولِ هذهِ الآيةِ فهو منهيٌّ عنهُ[2].

نكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في جملةِ الفاصلة:

بابُ الرَّجاءِ والتَّوبةِ مفتوحٌ للمُظاهِرِ التّائِب

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بـ(إنَّ) واللّامِ واسميَّةِ الجُملة؛ لمناسبةِ تأكيدِ مقابلِه، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾[3]، ولدفعِ تَوَهُّمِ المُظاهِرينَ أنْ لا توبةَ لهم، بسببِ شناعةِ ما صدَرَ عنهم مِنَ الظِّهارِ[4].

سرُّ إيثارِ لفظِ الجلالةِ:

العظيمُ سبحانَهُ يَعفو ويَغفِر

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ؛ أي: وإنَّ المَلِكَ الأعظمَ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معَهُ في شرعٍ ولا غيرِهِ لعفوٌّ غفورٌ[5]، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على التَّوبةِ.

سرُّ الجمعِ بينَ العَفوِّ والغَفور:

سَعَةُ عَفْوِ اللهِ تعالى وصَفْحِهِ عن الذُّنوبِ

جُمِعَ بينَ العفوِّ والغفورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ ﷻ مِنْ صفاتِهِ تركُ عقابِ مَنْ شاءَ، ومَحْوُ عين

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 14.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 347.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 348.

الذَّنبِ وأثرِه، حتَّى إنَّهُ كما لا يُعاقِبُ عليهِ لا يُعاتِبُ، وفي ذلكَ زيادةُ ترغيبٍ في التَّوبةِ والإنابةِ[1]. أو للدَّلالةِ على أنَّهُ تعالى عفوٌّ لا يُؤاخِذُ بالفعلِ، وغفورٌ يَصفَحُ عن فاعلِ فعلٍ مِنْ شأنِهِ أنْ يُعاقِبَهُ عليهِ، فذكرُ وصفِ ﴿غَفُورٌ﴾ بعدَ وصفِ ﴿لَعَفُوٌّ﴾ تتميمٌ لتمجيدِ اللهِ، وفيهِ مقابلةُ شيئَينِ - وهما ﴿مُنكَرًا﴾ و(زورًا) - بشيئَينِ، وهما (عفوٌّ) و﴿غَفُورٌ﴾[2].

بلاغةُ صيغةِ (فَعول) في ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

كثرةُ عفوِ اللهِ تعالى ومغفرتِهِ

جيءَ بصيغةِ (فَعولٍ) في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بالعَفْوِ والمغفرةِ، وأنَّهما يَصدُرانِ عنهُ كثيرًا، والمعنى: وإنَّ اللهِ لَمُبالِغٌ في العفوِ والمغفرةِ، فيَغفِرُ ما سلَفَ منه، ويَعفو عمَّن ارتكَبَهُ مُطلقًا أو بالتَّوبةِ[3].

غرضُ تقديمِ العَفوِّ على الغَفور:

تقديمُ الأخفِّ على الأشدِّ

قُدِّمَ وصفُ العَفوِّ على وصفِ الغفورِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ يدلُّ على أنَّهُ تعالى يَترُكُ عقابَ مَنْ شاءَ، والثّاني يدلُّ على أنَّهُ ﷻ يَمحو عينَ الذَّنبِ وأثرَهُ، فهو كما لا يُعاقِبُ عليهِ لا يُعاتِبُ[4]، فقُدِّمَ الأخفُّ على الأشدِّ، وفي تأخيرِ ﴿غَفُورٌ﴾ رعايةٌ للفاصلةِ أيضًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَذِبُ والافتِراءُ والإفْكُ والبُهْتانُ والخَرْصُ والزّوْرِ:

الظِّهارُ انحرافٌ عن الحقِّ

الكَذِبُ: خلافُ الصِّدقِ. والافتراءُ: اختلاقُ الكذبِ. والإفكُ: قلبُ الشَّيءِ وصرفُهُ عن الحقِّ في الاعتقادِ إلى الباطلِ، وعن الصِّدقِ في المقالِ إلى الكذبِ، وعن الجميلِ في الفعلِ إلى القبيحِ[5]. والبُهْتانُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 14.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 348.
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 154، 159.

هو الكذبُ الفظيعُ الَّذي يَتَحيَّرُ منهُ سامعُهُ عندَ سماعِهِ[1]. والخَرْصُ: كلُّ قولٍ مَقولٍ عن ظنٍّ وتَخْمينٍ[2]. والزّورُ: تزيينُ الكذبِ وزَخرَفتُهُ، والمَيْلُ بهِ عن الحقِّ[3].

وجميعُ هذه المصطلحاتِ تَشترِكُ في عدمِ مُطابَقةِ الخبرِ للواقع، إلّا أنَّ النَّظمَ الحكيمَ آثَرَ هنا التَّعبيرَ بلفظةِ (الزّورُ) على التَّعبيرِ بغيرها؛ لِما فيها مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ الظِّهارَ انحرافٌ عن الحقِّ؛ فإنَّ الزَّوجةَ لا تُشبِهُ الأمَّ[4].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/ 1154.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 154، 159.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.

(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 486، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن
يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

[المجادلة: 3 - 4]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ حُكمِ الظِّهارِ بعدَ التَّنصيصِ على تحريمِه

لمّا هجَّنَ القرآن الظِّهارَ، وأثبَتَ تحريمَهُ على أبلغِ وجهٍ وآكدِهِ أتبعَ ذلكَ بيانَ حكمِ الظِّهارِ(1)، وبيانُ حكم العاجزِ عن تحريرِ الرَّقبةِ في الآيةِ الثّانيةِ(2) تتميمٌ لبيانِ حُكم الظّهار، وإحاطةٌ بجِماعِ وُجوهِهِ وحالاتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: (حرر) له أصلان؛ وهو هنا أصلٌ يدلُّ على خلافِ العبوديَّةِ والبراءة من العيب والنقص، ومِنْ ذلكَ يقالُ: طينٌ حُرٌّ؛ أي: لا رملَ فيه، وحُرُّ الدار: وسطها، وحُمِل على هذا شيءٌ كثير(3)، والحُرُّ: خلافُ العبدِ، والتَّحريرُ: جعلُ الإنسانِ حُرًّا، وتحرير الرقبة: عِتْقها(4)، وهو المرادُ هنا.

2) ﴿رَقَبَةٍ﴾: (رقب) أصلٌ يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ، ومِنْ ذلكَ: الرَّقيبُ، وهو الحافظُ، ومِنْ ذلكَ اشتقاقُ الرَّقبةِ؛ لأنَّها

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 445، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 348، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 7.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 487، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 352.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرر).
(4) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (حرر).

مُنتصِبةٌ، ولأنَّ النّاظرَ لا بدَّ يَنتصِبُ عندَ نظرِه[1]، ويُعبَّرُ بالرَّقبةِ عن جُملةِ الشَّخصِ، وجُعِلَ في التَّعارفِ اسمًا للمَماليكِ[2]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾: (مسس) أصلٌ يدلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[3]، ومَسِستُه، بالكسر، أَمَسُّه مَسّاً ومَسيساً: لَمَسْتُه، هذه اللُّغَةُ الفَصِيحَةُ، ومَسَسْتُه، بالفتح، أَمُسُّه، بالضَّمِّ، لُغَةٌ، والمَسُّ مَسُّك الشيءَ بِيَدِكَ، ويقالُ مجازًا: مسَّهُ الكِبَرُ والمرضُ، ومسَّهُ العذابُ[4]، وكُنّيَ بالمَسِّ عن الوطءِ، فقيلَ: مسَّها وماسَّها، وهو المرادُ هنا[5].

4) ﴿تُوعَظُونَ﴾: (وعظ) أصلٌ يدلُّ على التَّخويفِ[6]، ومِنْ ذلكَ: الوعظُ، وهو زَجْرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ، أو هو التَّذكيرُ بالخيرِ فيما يَرِقُّ لهُ القلبُ، والعِظَةُ والموعظةُ: الاسمُ منهُ[7]. والمرادُ بالوعظِ هنا: التَّذكيرُ بالخيرِ، والتَّحذيرُ مِنَ الشَّرِّ بترغيبٍ أو ترهيبٍ[8].

5) ﴿مِسۡكِينٗاۚ﴾: (سكن) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الاضطرابِ والحركةِ[9]، فالسُّكونُ: ثُبوتُ الشَّيءِ بعدَ تحرُّكٍ[10]، أو ثبوتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ إلى حركةٍ سابقةٍ[11]، والمسكينُ: هو شديدُ الفقرِ الَّذي لا شيءَ لهُ[12]، كأنَّ الفقرَ أسكَنَهُ عن التَّحرُّكِ، وهو المرادُ هنا[13].

6) ﴿حُدُودُ﴾: (حدد) أصلٌ يدلُّ على المنعِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: فلانٌ محدودٌ، إذا كانَ ممنوعًا، والمُحادَّةُ: المخالَفةُ[14]، والحَدُّ: الحاجزُ بينَ الشَّيئينِ الَّذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسس).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور: (مسس).
(5) الرّاغب، المفردات: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 19.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(7) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 19.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(10) الخليل، العين: (سكن).
(11) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).
(12) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 21.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدد).

بالآخرِ[1]، وحدُّ الدّارِ: ما تَتَميَّزُ بِهِ مِن غيرِها[2]. والمرادُ بحدودِ اللّه هنا: فرائضُهُ[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أحكامُ اللهِ تعالى رحمةٌ بالعبادِ، فيَجِبُ الالتزامُ بها

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى الأحكامَ المترتِّبةَ على الظِّهارِ، فيقولُ: والَّذينَ يقولونَ لنسائِهم: أنتنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا، ثمَّ يَندَمونَ ويُريدونَ العَوْدَ إلى معاشرةِ أزواجِهم وجماعِهنَّ فالواجبُ عليهم قبلَ ذلكَ إعتاقُ رقبةِ عبدٍ أو أمةٍ، وقد أوجبَ ﷻ ذلكَ ليكونَ عِظَةً لكم، فتنتهوا عن الظِّهارِ، واللّهُ ذو خِبْرةٍ بأعمالِكم الَّتي تعملونَها، لا يخفَى عليهِ شيءٌ منها، وهو مُجازيكم عليها، فانتَهوا عن الظِّهارِ. فمَنْ لم يَجِدْ رقبةً يُعتِقُها فعليهِ صيامُ شهرينِ مُتَتابعينِ مِنْ قبلِ المُماسَّةِ، فمَنْ لم يستطعِ الصِّيامَ فعليهِ إطعامُ ستّينَ مِسْكينًا. وهذا الحكمُ المفروضُ عليكم - أيُّها المُظاهِرونَ - كي تُقِرُّوا بتوحيدِ اللّهِ ورسالةِ رسولِهِ ﷺ، وتُصَدِّقوا بذلكَ، وتَعمَلوا بموجَبِه، وهذهِ الأحكامُ حدودٌ لهُ تعالى، لا يجوزُ تجاوُزُها، وللكافرينَ الجاحدينَ بهذهِ الأحكامِ وغيرِها عذابٌ شديدُ الإيلامِ[4].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ العطفِ بالواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾:

تفصيلُ حُكمِ الظِّهارِ بالعطفِ على جُملةِ تحريمِه

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ للعطفِ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾؛ تنزيلًا لتغايُرِ الصِّفاتِ منزلةَ تغايُرِ الذَّواتِ[5]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواو استئنافيَّةً[6]. وأيًّا ما كانَ فالكلامُ مَسوقٌ

(1) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (حدد).
(2) الرّاغب، المفردات: (حدد).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 8.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 229، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 7.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 488، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 15.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 7.

لتفصيلِ حكمِ الظِّهارِ، "بعدَ بيانِ كونِه أمرًا مُنكَرًا بطريقِ التّشريعِ الكُلّيِّ المُنتظِمِ لحكمِ الحادثةِ انتظامًا أوَّليًّا"[1].

وعطَفَ هنا بالواوِ دون الآيةِ الَّتي قبلها؛ لأنَّها كانت جوابًا عن سؤالِ خولةَ عن الظِّهار، وشَكْواها أمرَها إلى النَّبيِّ ﷺ، والجوابُ لا يَقترِنُ بالواو. ولمّا اقتَضى الجوابُ تحليلَ المُظاهَرِ منها بعدَ بيانِ حُرمةِ الظِّهار كان التّحليلُ سببًا في الكفّارة هنا، فعُطِفَ بالواو[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾:

الظِّهارُ والعَوْدُ علَّةُ تحريرِ الرَّقَبة

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾؛ للإيماءِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو الظِّهارُ والعَوْدُ - إلى علَّةِ الحُكمِ الَّذي هو تحريرُ الرَّقبة. والتَّعريفُ بالموصولِ هنا للعهدِ؛ إذ المرادُ الَّذينَ كانَتْ عادتُهم الظِّهارَ[3].

سرُّ تكرارِ الموصولِ في ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾:

حكمُ الظِّهارِ مَحلُّ العِنايةِ والاهتِمام

أُعيدَ المبتدأُ - وهو الموصولُ - في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾؛ للاهتمامِ بالحكمِ والتَّصريحِ بأصحابِه[4] المذكورينَ في الآيةِ السّابقةِ، ولتقويةِ تنزيلِ تَغايُرِ الصِّفاتِ منزلةَ تَغايُرِ الذَّواتِ[5]، وتقويةِ استقلالِ الجملةِ، وإلّا فمُقتضَى الكلامِ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَعودوا لِما قالوا فتحريرُ رقبةٍ إلخ)، فيكون عطفًا على جملةِ الخبرِ مِنْ قولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾[6].

دلالةُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾:

الظِّهارُ عادةٌ مُستمِرَّةٌ لِمَنْ نَزَلَتْ فيهمُ الآيات

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على إرادةِ معنى الاستمرارِ وأنَّه كانَ يصدرُ منهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 176.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 486، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 268.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 15.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 448.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 15.

على سبيلِ التَّجدُّدِ وقتًا فوقتًا؛ فالظِّهارُ كانَ عادةً للعربِ[1]. يُضافُ إلى ذلك أنَّ الكلام في هذه الآيةِ على كفّارةِ الظِّهارِ، وهذا الحكمُ عامٌّ في كلِّ مُظاهِرٍ إلى يومِ القيامة، فهو أمرٌ مستقبليٌّ بالنِّسبةِ للَّذين سيُظاهِرون مُستقبَلًا، ودلالةُ المستقبلِ يناسبُها المضارع.

سرُّ عدمِ تكرارِ (منكم) كما في الآيةِ السّابقة:

السّياقُ هنا لبيانِ حُكمِ الظِّهارِ لا لتَهْجينِه

لم تُذكَرْ لفظةُ (منكم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ استغناءً بذكرِها أوَّلًا في قولِهِ في الآيةِ السّابقة: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، أو لأنَّ هذا لبيانِ الحكمِ الشَّرعيِّ، فلا يناسبُ التَّهجينَ لعادةِ العربِ[2].

دلالةُ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾:

الظِّهارُ مُتَضَمِّنٌ معنى البُعْد

﴿مِن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لتضمُّنِهِ معنى البُعدِ؛ إذ الظِّهارُ قد كانَ طلاقًا، والطَّلاقُ يُبعِدُ أحدَ الزَّوجينِ منَ الآخرِ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿نِّسَآئِهِمْ﴾:

الظِّهارُ يكونُ بينَ الزَّوجَين

الإضافةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ بمعنى اللّام؛ أي: مِنْ نساءٍ لهم، والمرادُ بهنَّ الأزواجُ، لا عمومُ النِّساءِ، فظِهارُ الزَّوجِ يقعُ على زوجتِهِ لا على غيرِها.

سرُّ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾:

المُظاهِرُ لا يَعودُ إلى ما قالَ في اللَّحظةِ نفسِها

العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدّالَّةِ على التَّراخي يُناسِبُ الحالةَ النَّفسيَّةَ والعَصَبيَّةَ الَّتي يمرُّ بها المُظاهِر؛ إذ يَبعُدُ معهما أن يعودَ في اللَّحظةِ نفسِها، ولا بدَّ مِن وقتٍ وزمنٍ تَخبو فيه فَوْرَتُهُ، فيعودُ فيه عن ظِهارِه.

العَوْدُ أشَدُّ تَبِعةً مِنَ الظِّهار

كذلك عُطِفَ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدّالَّةِ على التَّراخي الرُّتْبيِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العَوْدَ أشَدُّ تَبِعةً

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 486، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 268.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 448.

وأقوى إثمًا مِنْ نفسِ الظِّهارِ؛ لأنَّ الكفّارةَ تتعلَّقُ بالعَوْدِ لا بالظِّهارِ مُطلَقًا[1].

ولأنَّ مقتضَى لفظِ الظِّهارِ المباعدةُ مِمَّنْ قيلَ ذلكَ فيها، فكانَ ينبغي أنْ يكونَ إمساكُها بعدَهُ في غايةِ البُعد، فأُشيرَ إلى ذلكَ بأداةِ البُعدِ[2].

الإمساكُ بعدَ الظِّهارِ في غايةِ البُعدِ

وللتَّعريضِ بالتَّخطئةِ لهم، بأنَّهم عادوا إلى ما كانوا يفعلونَهُ في الجاهليَّةِ بعدَ أنِ انقطعَ ذلك بالإسلامِ[3].

المُظاهِرُ راجعٌ إلى أفعالِ الجاهليَّة

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ العَوْدِ:

المرادُ بالعَوْدِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ العَوْدُ إلى أزواجِهم بالمُعاشَرةِ، وعليهِ فقد استُعمِلَ الفعلُ ﴿يَعُودُونَ﴾ في إرادةِ العَوْدِ مجازًا؛ لأنَّهُ لو كانَ عَوْدًا بالفعلِ لم يكنْ لاشتراطِ التَّكفيرِ قبلَ المَسيسِ معنًى، ومعنى الكلامِ: ثمَّ يريدونَ العَوْدَ إلى ما حرَّموهُ على أنفُسِهم مِن مُعاشَرةِ أزواجِهم فعليهم كفّارةٌ قبلَ أنْ يعودوا إليهِ[4].

المُظاهِرُ مُريدٌ لِلعَوْدِ إلى مُعاشَرةِ زوجتِه

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ العَوْدُ محمولًا على التَّدارُكِ مجازًا، بإطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السَّببِ؛ لأنَّ المُتدارِكَ للأمرِ عائدٌ إليهِ، والمعنى: ثمَّ يَتَدارَكونَ ما قالوا[5].

حَمْلُ العَوْدِ على التَّدارُكِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَعُودُونَ﴾:

العادةُ اسمٌ لتكريرِ الفعلِ أو الانفعالِ حتّى يَسهُلَ تَعاطيهِ كالطَّبعِ، ولذلكَ قيلَ: العادةُ طبيعةٌ ثانيةٌ، وإعادةُ الشَّيءِ كالحديثِ وغيرِه:

العَوْدُ يكونُ بعدَ الظِّهار

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 270.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 16، واختلف أهلُ العلم في تفسير العَود المذكور على أقوال، فقيل: إنَّه العزمُ على الوطء، وقيل: هو الوطءُ نفسُه، وقيل: هو أن يُمسِكَها زوجةً بعد الظّهار مع القدرة على الطّلاق، وقيل: هو الكفّارة، والمعنى: أنَّه لا يَستبيحُ وطأَها إلّا بكفّارة، وقيل: هو تكريرُ الظِّهار بلفظه، والمعنى، ثمَّ يعودون إلى قول ما قالوا، ينظر: الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 219.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 486، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 271.

تكريرُهُ، قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١﴾ [طه: 21]، والعَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشّيءِ بعدَ الانصرافِ عنه، إمّا انصِرافًا بالذّات وإمّا بالقولِ وإمّا بالعزيمة[1].

وعُبِّرَ بالمضارعِ ﴿يَعُودُونَ﴾؛ لأنَّ العَوْدَ مُستقبَلٌ مُقارَنةً بزمنِ الظِّهارِ، والمضارعُ يَصلُحُ للدِّلالةِ على المستقبلِ.

معنى اللّامِ في ﴿لِمَا قَالُواْ﴾ وبيانُ مُتعلَّقِها:

المُظاهِرُ يَندَمُ على فِراقِ زوجتِه

اختُلِفَ في معنى اللّام في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ بناءً على الاختلافِ في مُتعلَّقِها.

فالجمهورُ على أنَّها مُتعلِّقةٌ بالفعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾، إلّا أنَّهم اختلفوا في معناها:

فذهَبَ أبو عليٍّ الفارسيُّ إلى أنَّها لتعديةِ الفعل، فلا فرقَ بين أن يُقالَ: يعودون لِما قالوا، وإلى ما قالوا، وفيما قالوا، فالحرفانِ إلى واللّامُ يَتَعاقبانِ[2]. وقد اعتمَدَ الآلوسيُّ هذا القولَ فقال: "واللّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿يَعُودُونَ﴾، وهو يَتَعدّى بها كما يَتَعدّى بـ(إلى) وبـ(في)، فلا حاجةَ إلى تأويلِهِ بأحدِهما كما فعل البعضُ"[3].

وذكَرَ الفرّاءُ: أنَّ اللّامَ بمعنى (عن)، والمعنى: ثمَّ يَرجِعون عمّا قالوا ويُريدون الوطءَ[4].

وذكَرَ ابنُ عاشورٍ أنَّ اللّام هنا بمعنى (إلى)، وأنَّ معنى اللّامِ في الأصلِ التَّعليلُ، فتَعَلُّقُها بفعلِ (العَوْدِ) هنا يُشيرُ إلى إرادةِ معنًى في (العَوْدِ) مجازًا أو تضمينًا يناسبُهُ حرفُ التَّعليلِ، والتَّقديرُ: ثمَّ يُريدونَ العَوْدَ لأجلِ ما قالوا؛ أي: لأجلِ رغبتِهم في أزواجِهم[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (عود)، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 268.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 482.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.
(4) الفراء، معاني القرآن: 3/ 139، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 219.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 18.

وذهَبَ الأخفشُ إلى أنَّ في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: والَّذين يُظاهِرون من نسائِهم ثمَّ يعودون فتحريرُ رقبةٍ لِما قالوا، فاللّامُ حينئذٍ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو خبرُ المبتدأ (تحريرٌ)، والتَّقديرُ: فعليهم تحريرُ رقبةٍ لِما قالوا[1]. ومعنى اللّامِ بيانُ السَّببِ والعلَّةِ. وهذا القولُ ليس بالقويِّ؛ لعدمِ الحاجةِ إلى التَّقديمِ والتَّأخير، إذ الأصلُ عدمُ ذلك.

دلالةُ (ما) في ﴿لِمَا قَالُواْ﴾:

ما قيلَ مِن لَفْظِ الظِّهارِ مُقيَّدٌ بالماضي

(ما) في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ موصولةٌ؛ أي: ثمَّ يعودون لِلَّذي قالوه[2]، وهو ما حرَّموهُ على أنفُسِهم مِنَ الاستمتاعِ، وأوثِرَ التَّعبيرُ بالموصولِ وصلتِهِ عن المعنى الَّذي وقعَ التَّحريمُ لهُ بلفظِ الظِّهارِ؛ للإيجازِ وتنزيهِ الكلامِ عن التَّصريحِ بهِ[3]، وللإيماءِ إلى علَّةِ الحكم ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً؛ أي: ثمَّ يعودون لقولِهم[4]. وهو عَوْدٌ لأصلِ القولِ وتفاصيلِه، وعدَلَ عن التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ (لقولِهم) إلى التَّعبيرِ بالمُؤوَّلِ من (ما) المصدريَّةِ وما دخلتْ عليه؛ ليفيدَ الفعلُ بصيغةِ المُضيِّ تقرُّرَ هذا الأمرِ وقِدَمَهُ بتقييدِ حُصولِهِ فيما مضى؛ فيناسبُ معنى العَوْدِ، ومعنى التَّراخي في ﴿ثُمَّ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ القَوْلِ:

تَضْمينُ المَصدرِ معنى اسمِ المَفعولِ

المرادُ بـ﴿لِمَا قَالُواْ﴾ المقولُ فيه، وهو الَّذي حرَّموهُ على أنفُسِهم بلفظِ الظِّهارِ، تنزيلًا للقولِ منزلةَ المَقولِ فيه[5]. والمعنى: ثمَّ يَرومونَ

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 219.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 165، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 17.

(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 192، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 165، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 200.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 482.

أنْ يَرجِعوا للاستمتاعِ بأزواجِهم بعدَ أنْ حرَّموهُ على أنفسِهم[1] تصريحًا ومُجاهَرةً. وجيءَ به ماضيًا؛ لأنَّ القولَ قد مضى وتحقَّقَ قبلَ زمنِ العَوْدِ بحسبِ ما ذُكِرَ آنفًا.

معنى الفاءِ في ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾:

تَحريرُ الرَّقَبةِ مُسبَّبٌ عن الظِّهارِ والعَوْدِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ للسَّببيَّةِ؛ لتَضَمُّنِ المبتدإ - وهو الموصولُ - معنى الشَّرطِ، فهي رابطةٌ، ومِنْ فوائدِها الدَّلالةُ على تكرُّرِ وجوبِ التَّحريرِ بتكرُّرِ الظِّهارِ[2]؛ أي: فعليهم بسببِ هذا الظِّهارِ والعَوْدِ تحريرُ رقبةٍ[3]. وفي التَّصريحِ بالفاءِ دلالةٌ على التَّرتيبِ؛ لأنَّ الكفّارةَ إنَّما تَجِبُ بالعَوْدِ[4].

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿فَتَحۡرِيرُ﴾:

الإيجازُ بحذفِ المبتدإ أو الخَبَرِ

في قولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ إيجازٌ بحذفِ الخبرِ، والتَّقديرُ: فعليه تحريرُ رقبةٍ[5]، أو بحذفِ المبتدإ، والتَّقديرُ: فالواجبُ عليهم تحريرُ رقبةٍ[6].

غرضُ تنكيرِ ﴿رَقَبَةٖ﴾:

شُمولُ الرَّقَبةِ للمُؤمنةِ والكافِرة

تنكيرُ ﴿رَقَبَةٖ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ للعموم، فيشملُ المؤمنةَ والكافرةَ[7]، وهي مقيَّدةٌ بالإيمانِ عندَ الشّافعيَّةِ، قياسًا على كفّارةِ القتلِ[8].

بلاغةُ المَجازِ في ﴿رَقَبَةٖ﴾:

الرَّقَبةُ مَجازٌ عن سائرِ البَدَنِ

في قولِه تعالى: ﴿رَقَبَةٖ﴾ مجازٌ مرسلٌ، بإطلاقِ الجزءِ - وهو الرَّقبةُ - وإرادةِ الكلِّ، وهو جملةُ البدنِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 17.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 492.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 349.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 178.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 282، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 216.
(6) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 264.
(7) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 445.
(8) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

التَّحريرُ واجبٌ قبلَ ابتداءِ زَمَنِ المُماسَّة

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى في الموضعين: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ[1]، والمعنى: فيلزمُهُ تحريرٌ أو فعليه كذا مِن قبلِ تَماسِّهما[2]. فيكونُ الأمرُ بالكفّارةِ على الفَوْر؛ أي: بنفس العَودِ تجب الكفارة، ولذلك دخلت الفاء لتفيدَ التَّعقيبَ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

التَّحريرُ لا يَستغرِقُ زمانَ القَبْلِ

لمّا كانَ تحريرُ الرَّقبةِ لا يَستغرِقُ زمنَ القَبْلِ، بل يكونُ في بعضِه أُدخِلَ الجارُّ، فقيلَ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[4]، ولم يقلْ: (قبلَ أنْ يتماسّا). ومثلُ ذلكَ يقالُ في الآيةِ الآتيةِ.

وجهُ تثنيةِ الضَّميرِ في ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾:

المُماسَّةُ بينَ المُظاهِرِ والمُظاهَرِ مِنها

ثُنّيَ الضَّميرُ في قولِه تعالى ذكرُهُ في الموضعين: ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾، ولم يُقَلْ: (يتماسّوا) كما قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لأنَّهُ راجعٌ إلى ما دلَّ عليهِ الكلامُ مِنَ المُظاهِرِ والمُظاهَرِ منها[5]. فـ"التَّماسُّ صفةٌ لا تُعقَلُ إلّا من اثنين: ماسٍّ ومَمسوسٍ، والظِّهار من فِعل الرِّجال فقط، وفعلُ الجماعة لا يدلُّ على المشاركة بين اثنين، وإنَّما يدلُّ على وقوع ذلك من كلِّ واحدٍ على حَدِتِه، ولأنَّ المُظاهَرَ منها يجبُ عليها أن تمنعَ زوجَها من نفسِها حتّى يُكفِّرَ، والمُماسَّةُ مِن فعلِهما معًا بخلافِ الظِّهار"[6].

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾:

المُماسَّةُ مُستقبَلةٌ مُقارَنةً بالتَّحرير

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾؛ لأنَّ المُماسَّةَ مُستقبَلَةٌ بالمقارنةِ مع زمانِ التَّحريرِ؛ إذ المرادُ المُماسَّةُ بعدَ المظاهرة،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 178.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 267.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 178.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 350.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 446.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 178.

وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا دلالةٌ على التَّجدُّدِ[1]. ومثلُ ذلكَ يقالُ في الآيةِ الآتيةِ.

سِرُّ إيثارِ لفظةِ المُماسَّةِ دونَ المُلامَسَةِ:

التَّكفيرُ شرطٌ واجبٌ يَسبِقُ القُرْبَ بقصدٍ أو غيرِ قصدٍ

المُلامَسةُ لا تكون إلّا عن قصدٍ، قال تعالى: (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)، والمُماسَّةُ أعمُّ، فقد تكونُ عن قصدٍ، وقد تكونُ عن غيرِ قصدٍ، فيقال: تَماسَّ الحجران.

وعلى ذلك يقال: كفّارةُ الظِّهارِ إنَّما تجبُ بالمُلامَسةِ؛ لأنَّها مقصودةٌ، لا بالمُماسَّة، فكيف عُبِّرَ بالمُماسَّة؟! وما وجهُ عدمِ التّعبيرِ باللَّفظِ الأخصِّ؟ مع أنَّه أخصُّ في بيانِ ما يقعُ به الوجوب، فضلًا عن أنَّهم قالوا: إذا مَسَّها ناسيًا فلا كفّارةَ عليه:

والجوابُ: أنَّ مادَّةَ التَّماسِّ تقتضي وقوعَهُ مِن اثنين؛ لأنَّها مُفاعَلة، والغالبُ في فعل الاثنين أنْ يكونَ مقصودًا؛ فالقصديَّةُ مُتوافِرةٌ. ثمَّ إنَّ في الكفّارة إشارةً إلى الفَوْرِيَّة، وأنَّها تجبُ قبل القُربِ من المرأة بقصدٍ أو غيرِه. يُزادُ على ذلك أيضًا: أنَّه مِن بابِ النَّفيِ، وهو المنعُ من الوطءِ حتّى يُكفِّرَ، والقاعدةُ استعمالُ الأعمِّ في النّفيِ، والأخصِّ في الثُّبوت[2].

نكتةُ صيغةِ التَّفاعُلِ في ﴿أَن يَتَمَآسَّا﴾:

الاستمتاعُ مُشتركٌ بينَ المُظاهِرِ والمُظاهَرِ منها

جيءَ بصيغةِ التَّفاعُلِ في قولِ الباري ﷻ في الموضعين: ﴿يَتَمَآسَّا﴾؛ لأنَّ المُماسَّةَ تكونُ مِنَ المُظاهِرِ والمُظاهَرِ منها، بأنْ يَستمتِعَ كلٌّ منهما بالآخَرِ جِماعًا ولَمْسًا ونظرًا بشهوة[3]. وبهذا يكونُ لفظُ (التَّماسِّ) محمولًا أيضًا على معناهُ الكنائيِّ، فهو في اصطلاحِ القرآن كنايةٌ عن الجِماع، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237][4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 350.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، ص: 179 - 4/ 178، نقله - بحسب تصريحه - عن ابن رشد في مقدماته في كتاب الطّهارة.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 217، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 493.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 18- 19.

علّةُ فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾:

وَعْظُ المخاطَبينَ بما ذُكِرَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ؛ لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ موعظةٌ للمخاطَبينَ[1]؛ لأنَّ الحكمَ بالكفّارةِ دليلٌ على ارتكابِ الجنايةِ، فيجبُ أنْ تتَّعظوا بهذا الحكمِ حتّى لا تعودوا إلى الظِّهارِ، وتخافوا عقابَ اللّهِ عليهِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾:

الوَعْظُ بالحُكمِ المذكورِ حقيقةٌ ثابتةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَ الجملةِ أمرٌ ثابتٌ لا يَتغيَّرُ ولا يَتَبدَّلُ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

أحكامُ الشّارعِ عظيمةُ الشَّأْنِ

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ مُشارٌ إلى الحكمِ المذكورِ[3]، أو إلى تحريرِ رقبةٍ[4]، وفي استعمالِهِ للبعيدِ تعظيمٌ لشأنِ المشارِ إليهِ وتفخيمٌ له.

تعيينُ المخاطَبِ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾:

الخِطابُ للحاضِرينَ أو لجميعِ الأُمَّةِ

الخطابُ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ للمؤمنينَ الَّذين كانوا عندَ النُّزولِ، أو لهم ولغيرِهم مِنَ الأُمَّةِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُوعَظُونَ﴾ مُضارِعًا:

مَواعِظُ اللهِ تعالى لا تَنقَطِع

معنى الوعظِ: "التَّذكيرُ بالخيرِ والتَّحذيرُ من الشَّرِّ بترغيبٍ أو ترهيبٍ؛ أي: فَرْضُ الكفّارة تنبيهٌ لكم؛ لتَتَفادَوا مسيسَ المرأةِ الَّتي طُلِّقَتْ، أو تستمرّوا على مُفارقتِها مع الرَّغبةِ في العَوْدِ إلى مُعاشرتِها؛ لئلّا تعودوا إلى الظّهار"[6].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 351.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 487.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 487، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 274، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 19.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 207.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 19.

وعُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الوعظَ أمرٌ مستمرٌّ متجدِّدٌ، وذلكَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِهِ، حيثُ لا يُسلِمُهم للغفلةِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ ﴿تُوعَظُونَ﴾:

اللهُ تعالى يَعِظُ عبادَهُ بأحكامِهِ

جيءَ بالمبنيِّ للمفعولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ لتعيُّنِ الواعظِ، وهو اللهُ ﷻ الَّذي يشرعُ الأحكامَ، ومنها هذا الحكمُ الجليلُ.

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

الحكمُ المذكورُ مُتعلِّقٌ للوَعْظ

الباءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِهِ الثّاني؛ توكيدًا للحكمِ المذكورِ، أو للكفّارة بتحريرِ رقبةٍ وفاقَ ما مرَّ ذكرُه. ويجوز أن تكون للسَّببيَّة، فالحكمُ والكفّارةُ سببان للوَعْظ[1].

بلاغةُ التَّذييلِ في ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾:

تقريرُ ما اشتَمَلَتْ عليهِ الآيةُ مِنَ الحُكمِ والمَوعِظةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ جملةٌ تذييليَّةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها مِنَ الحُكمِ في الظِّهارِ، وفيها وعدٌ لِمَنْ حافَظَ على الحدودِ، ووعيدٌ لِمَنْ نقضَ العهودَ[2]، أو مُقرِّرةٌ لجملةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: واللهُ عليمٌ بجميعِ ما تعملونَهُ مِنْ هذا التَّكفيرِ وغيرِهِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾:

سَعَةُ عِلمِ الحقِّ سبحانه حقيقةٌ ثابتةٌ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَها حقيقةٌ ثابتةٌ، لا شكَّ فيها ولا ارتيابَ.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ:

العظيمُ سبحانَهُ واسعُ العِلْمِ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ الكمالِ والجلالِ، ومنها العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ[4]، فيُلائِمُ سياقَ الوعدِ والوعيدِ.

---

(1) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1920 - 1921.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 494.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 19.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 351.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

علمُ اللهِ تعالى مُتعلِّقٌ بأعمالِ العبادِ وبغيرِها

الباءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ للتَّعديةِ، ومعناها الإلصاقُ المعنويُّ؛ لتعلُّقِهِ بصيغةِ المُبالغةِ ﴿خَبِيرٞ﴾[1].

دلالةُ (ما) في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

كلُّ أعمالِ العبادِ مُحاطَةٌ بعلمِ اللهِ تعالى

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ موصولةٌ، تفيدُ العمومَ، وأنَّ علمَ اللهِ ﷻ مُتعلِّقٌ بكلِّ ما يَعمَلُهُ عبادُهُ مِنَ الأعمالِ، ومِنْ جُملتِها التَّكفيرُ وما يَتعلَّقُ به مِن جِنايةِ الظِّهارِ[2]. والعائدُ على الموصولِ محذوفٌ تقديرُهُ: واللّٰه بما تعملونه خبيرٌ. أو هي مصدريَّةٌ، والتَّقديرُ: واللّٰه بعَمَلِكم خبيرٌ، والدَّلالةُ على كِلا الإعرابينِ واحدة.

دلالةُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

اللهُ تعالى لا تَختلِطُ عليهِ الشُّؤون

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ للتَّنبيهِ على تجدُّدِ العملِ واستمرارِهِ[3]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ تعالى لا تَختلِطُ عليه الشُّؤونُ، ولا تخفَى عليهِ أعمالُ العبادِ وإنْ كَثُرَتْ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعملِ دونَ القولِ:

العملُ يَصدُقُ على القولِ والعمل

عُبِّرَ بالعملِ دونَ القولِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ معَ أنَّ الظِّهارَ المذكورَ في الآيةِ قولٌ؛ لأنَّ العملَ أعمُّ، يَصدُقُ على القولِ والعملِ[4].

غرضُ تقديمِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

الانتهاءُ عن الظِّهارِ واجبٌ مُعتَنًى به

قُدِّمَ مُتعلّقُ الخبرِ على الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ مع أنَّ الأصلَ تأخُّرُهُ عنه؛ إشارةً إلى إرادةِ المبالغةِ؛ للتَّنبيهِ على الاهتمامِ بإلزامِ الانتهاءِ عن ذلك[5].

---

(1) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1920 - 1921.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 217.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 351.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 179.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 5/ 193.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَبِيرٌ﴾ دونَ غيرِه:

مَن اتَّسَعَ عِلْمُهُ وجَبَتْ طاعتُه

اختيرَ الخبيرُ دونَ غيرِه - كالعليم - في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ الخبيرَ هو العالمُ بظواهرِ الأمورِ وبَواطنِها، وهو الَّذي لا تخفَى عليهِ خافيةٌ، فيكونُ أنسبَ لسياقِ الحثِّ على الحفاظِ على حدودِ الشَّرعِ[1].

دلالةُ صيغةِ (فَعيلٍ) في ﴿خَبِيرٌ﴾:

اتِّصافُهُ تعالى بالعِلْمِ الشّامِلِ اتِّصافًا بليغًا

جيءَ بصيغةِ فَعيلٍ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿خَبِيرٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِه ﷻ بظَواهِرِ الأمورِ وبَواطنِها.

معنى الفاءِ في ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾:

إفادةُ العطفِ والقُرْب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ عاطفةٌ[2]، وإيثارُها دونَ باقي حروفِ العطفِ لإفادةِ القُرْبِ[3]، وتَرَتُّبِ شيءٍ على شيءٍ؛ فإنَّ صيامَ الشَّهرينِ مُترتِّبٌ على عدمِ وُجودِ الرَّقبة. ومثلُهُ يقالُ في قولِه سبحانه الآتي: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصول (مَنْ):

عَدَمُ وُجودِ الرَّقَبةِ عِلَّةُ صيامِ الشَّهرَين المُتَتابِعَين

عُبِّرَ بالموصولِ المُتضمِّنِ معنى الشَّرطِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو عدمُ وُجودِ الرَّقبةِ - إلى تعليلِ الحكم، وهو صيامُ شهرين متتابعين. ومثلُهُ يقالُ في الاسمِ الموصولِ من قولِه تعالى الآتي: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾؛ فإنَّ الإطعامَ الواجبَ هناك مُترتِّبٌ على عدمِ استطاعةِ الصِّيام.

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَّمۡ﴾ في ﴿لَّمۡ يَجِدۡ﴾ مَصحوبًا بمعنى الشَّرْط:

اعتِبارُ العُسْرِ واليُسْرِ عندَ الحُكمِ لا قبلَهُ

﴿لَّمۡ﴾ من أحرُفِ الجزمِ المختصَّةِ بالمضارع، ومعناها في الأصل النَّفيُ والقَلْبُ، فتَقلِبُ زمنَ المضارعِ إلى الماضي المُنقطِعِ مَنْفيًّا، بدليل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 208.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 8.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 495.

جوازِ قولِنا: لم يقمْ زيدٌ أمسِ[1]، إلّا أنَّها في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ لنفيِ الماضي المتَّصلِ بالحالِ؛ لاقترانِها بمعنى الشَّرط؛ لأنَّهُ إذا كانَ عديمًا حينَ الظِّهارِ، ثمَّ أيسرَ بعدَ ذلكَ؛ فعليهِ العِتْقُ، وإنَّما يُعتبَرُ يُسْرُهُ وعُسْرُهُ حينَ الحكمِ عليهِ[2].

عدمُ الوُجودِ مُتعلِّقٌ بالرَّقبة

نكتةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في ﴿لَّمۡ يَجِدۡ﴾:

في قولِهِ ﷻ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ، والتَّقديرُ: فمَنْ لم يَجِدِ الرَّقبةَ[3] المأمورَ بها، بأنْ كان فقيرًا، وعِلَّةُ الحذف ظهورُ المعنى؛ لذكره قريبًا.

ومثلُ هذا الإيجازِ نَجِدُهُ في قوله ﷻ الآتي: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾؛ لأنَّ التَّقديرَ: فمَن لم يَستطِعْ صيامَ الشَّهرينِ المُتَتابِعَين.

صيامُ شهرَين مُتَتابِعَين مُتَرَتِّبٌ على عدمِ وُجودِ الرَّقَبة

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾:

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَصِيَامُ﴾ رابطةٌ؛ لتَضَمُّنِ المبتدإ - وهو الموصولُ - معنى الشَّرطِ، فتفيدُ تأكيدَ المعنى، من حيثُ ارتباطُ تَعَيُّنِ صوم الشَّهرين بعدم وُجودِ الرَّقَبة. ومثلُها الفاءُ في قولِه تعالى الآتي: ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾.

حذفُ المبتدإ أو حذفُ الخَبَر

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ الخبرِ، والتَّقديرُ: فعليهِ صيامُ شهرينِ متتابعين[4]، أو بحذفِ المبتدإ، والتَّقديرُ: فالواجبُ عليه صيامُ شهرينِ متتابعين، أو فكفّارتُهُ صيامُ.

ومثلُ هذا يقالُ في قوله ﷻ الآتي: ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾، فالمحذوفُ إمّا المبتدأُ وإمّا الخبر.

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/ 35.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 179.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 123، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 495.

(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 446.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾:

الشّهران المُتَتابعانِ ظَرْفٌ لصومِ الكفّارة

الإضافةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ بمعنى (في)، فهي مِن إضافةِ المَظروفِ لظَرْفِه؛ لأَنَّ المضافَ إليه ظرفٌ للمضاف؛ بمعنى: أنَّ صومَ الكفّارةِ واقعٌ في شهرين متتابعين.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَهۡرَيۡنِ﴾:

المطلوبُ صيامُ شهرينِ لا على التّعيين

تنكيرُ ﴿شَهۡرَيۡنِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ للإشارةِ إلى أنَّهُ لا يُطلَبُ صيامُ شهرينِ بأعْيُنِهما، وإنَّما المطلوبُ صيامُ شهرينِ مُتتابِعَينِ مِنَ الشُّهورِ لا على التَّعيين.

نكتةُ وصفِ الشَّهرينِ بالتَّتابُعِ:

متابعةُ الصّيامُ تَكسِرُ النَّفْس

قُيِّدَ الشَّهرانِ بالتَّتابُعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾؛ لأَنَّ المرادَ كَسْرُ النَّفْسِ المُخالِفةِ بالظِّهارِ، ومتابعةُ الصَّومِ أنكَى وأنسبُ بتحقيقِ هذا الغرضِ[1].

سرُّ تكرارِ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾:

المُماسَّةُ لا تكونُ إلّا بعدَ انقِضاءِ الصّيام

أُعيدَ قيدُ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُماسَّةَ لا تكونُ إلّا بعدَ انقضاءِ الصّيامِ، فلا يَظُنَّ المُظاهِرُ أنَّ مُجرَّدَ شروعِهِ في الصّيامِ كافٍ في العَوْدِ إلى الاستمتاعِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بانتفاءِ الاستطاعةِ دونَ عدمِ الوُجود:

عدمُ الوُجْدانِ لا يُلائِمُ الصَّوْم

التَّعبيرُ بانتفاءِ الاستطاعةِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾، وبعدمِ الوجودِ في قولِه قبلُ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾؛ لأنَّهُ لا معنى لعدمِ وُجْدانِ الصَّومِ، بخلافِ عدمِ وُجدانِ الرَّقَبةِ[3].

سرُّ تحديدِ العددِ بستّينَ مِسكينًا:

إلحاقُ كفّارةِ الظِّهارِ بكفّارةِ فِطْرِ يومٍ مِن رمضانَ عَمْدًا

حُدِّدَتِ الكفّارةُ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ بإطعامِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 352.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 20.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 495.

هذا القَدْرِ من المساكين؛ إلحاقًا لها بكفّارةِ فِطْرِ يوم مِنْ رمضانَ عَمْدًا، بجامع أنَّ كليهما كفّارةٌ عن صيامٍ، فكانت الكفّارةُ مُتَناسبةً مع المُكفَّرِ عنهُ مُرتَّبةً ترتيبًا مناسبًا[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّمييزِ ﴿مِسۡكِينٗاۚ﴾:

سُلوكُ الإيضاحِ بعدَ الإبهامِ يُرسِّخُ المعنى

قولُه تعالى: ﴿مِسۡكِينٗاۚ﴾ تمييزٌ مِنْ ﴿سِتِّينَ﴾، وسلوكُ طريقِ التَّمييزِ المُشتمِلِ على الإيضاحِ بعدَ الإبهامِ الَّذي يَشتمِلُ عليهِ المُميَّزُ ترسيخٌ للمعنى المقصودِ؛ لأنَّهُ يَرِدُ على النَّفْسِ بعدَ تشويقِها وتَهْيِئَتِها لاستقبالِه.

سرُّ عدمِ ذِكْرِ ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ مع الإطعامِ:

الاكتفاءُ بالسّابقِ عَنِ اللّاحِقِ

لم تُذكَرِ المُماسَّةُ مع الإطعامِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾؛ اكتفاءً بذكرِها مع الآخَرَين، فلو ذُكِرَتْ هنا أيضًا لَلَزِمَ التَّكرارُ المورِثُ للمَلالِ، أو لجوازِها في أثْناءِ الإطعامِ كما قال أبو حنيفةَ رحِمَهُ اللّٰهُ[2].

علَّةُ فصلِ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾:

التَّشريعُ يُقوّي الإيمانَ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ لبيانِ علَّتِه؛ ترغيبًا فيه[3].

نكتةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

شرعُ اللهِ تعالى عظيمُ الشَّأْنِ

الإشارةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ للبيانِ والتَّعليمِ للأحكامِ والتَّنبيهِ عليها[4]، أو للتَّرخيصِ والرِّفقِ. وفي إيثارِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ تنبيهٌ على عِظَمِ المُشارِ إليهِ وتفخيمِ شأنِه[5]، بتنزيلِه منزلةَ المحسوساتِ البعيدةِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 20.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 496، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 21.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354.

(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354، والشربيني، السّراج المنير: 4/ 223.

معنى اللّامِ في ﴿لِتُؤۡمِنُواْ﴾:

الأحكامُ تؤدّي إلى الإيمانِ

اللّامُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ للتَّعليلِ؛ أي: لأجلِ أنْ تُؤمِنوا باللّهِ ورسولِه(1).

سرُّ التَّعليلِ بلفظ الإيمانِ:

الإيمانُ الكاملُ يكونُ بالامتثالِ للشَّرعِ

عُلِّلَ ما سبقَ مِنَ التَّشريعِ والأحكام والتَّرخيصِ بالإيمانِ في قولِه ﷻ: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾، مع أنَّ المخاطَبينَ مؤمنونُ؛ لأنَّ المرادَ هنا ليسَ إحداثَ الإيمانِ، بل المرادُ الإيمانُ الكاملُ؛ أي: لتُؤمِنوا إيمانًا كاملًا بالامتثالِ لِما أمرَكم اللّهُ ورسولُه، فلا تَشوبوا أعمالَ الإيمانِ بأعمالِ أهلِ الجاهليَّةِ، وفي هذا زيادةٌ في تشنيعِ الظِّهارِ، وتحذيرٌ للمسلمينَ مِنْ إيقاعِه(2).

المؤمنُ يُجدِّدُ إيمانَهُ ويَستمِرُّ عليه

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ: لتستمرّوا على الإيمانِ وتُجَدِّدوهُ(3)، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ.

معنى الباءِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الإيمانُ مُتعلِّقٌ باللهِ ورسولِه

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ للتَّعديةِ، أو للإلصاقِ المعنويِّ، وتتعلَّقُ بالفعل قبلَها.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة:

وُجوبُ الإيمانِ بالعظيمِ سبحانَه

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِه مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي توجبُ الإيمانَ بِه وطاعتَهُ؛ أي: لتُؤمِنوا بالمَلِكِ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معَهُ، فتُطيعوهُ بالانسلاخِ مِنْ فعلِ الجاهليَّةِ(4).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦۚ﴾:

تعظيمُ الرَّسولِ مِنْ تعظيمِ مُرسِلِه

إضافةُ الرَّسولِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 22.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 22.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354، والشربيني، السّراج المنير: 4/ 223.

﴿وَرَسُولِهِۦۚ﴾ لتشريفِ الرَّسولِ، وتعظيمِ شأنِه وتفخيمِه؛ لأنَّ تعظيمَهُ مِنْ تعظيمِ مُرسِلِه[1].

سرُّ الاقتصارِ في الإيمانِ على اللهِ والرَّسول:

التَّشريعُ يكونُ مِنَ اللهِ تعالى ورسولِه

اقتُصِرَ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ على اللّهِ والرَّسولِ، ولم تُذكَرْ باقي أركانِ الإيمانِ؛ لأنَّ المَقامَ ليسَ لتقريرِ أركانِ الإيمانِ، وإنَّما هو للحَثِّ على الالتزامِ بأحكامِ الشَّرعِ، والامتناعِ عن أحكامِ الجاهليَّةِ الَّتي منها الظِّهارُ[2]، والتَّشريعُ يكونُ مِنَ اللّهِ تعالى ورسولِه.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾:

النَّهيُ عن التَّهاوُنِ بالحُكمِ بعدَ التَّرغيبِ بِه

الواوُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على قولِه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾، وسببُ هذا الوصلِ اتِّحادُ المُناسَبةِ بين الجملتين، واشتراكُهما في الخبريَّةِ مِن دونِ داعٍ للفَصْلِ.

ونكتةُ العطفِ هنا الجمعُ بينَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ فإنَّهُ تعالى لمّا رغَّبَ في هذا الحكمِ رهَّبَ مِنَ التَّهاونِ بهِ[3]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ مستأنفةٌ لإفادةِ هذا الغرضِ.

نكتةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في ﴿وَتِلۡكَ﴾:

تفخيمُ شأنِ أحكامِ الظِّهارِ والكفّارةِ

الإشارةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ للأحكامِ المذكورةِ في الظِّهارِ والكفّارةِ[4]. وإيثارُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ لتعظيمِ شأنِ هذهِ الأحكامِ وتفخيمِه.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354، والشربيني، السّراج المنير: 4/ 223.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 446، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 165.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 4/ 223.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 446.

المُؤمِنُ وقّافٌ عندَ حُرُماتِ الله

نكتةُ التَّعبيرِ بالحُدودِ:

الحدودُ في الأصلِ: هي الحَواجِزُ ونهاياتُ الأشياءِ الَّتي إذا تجاوَزَها المرءُ دخلَ في شيءٍ آخرَ، وقد شُبِّهَتِ الأحكامُ في نحوِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ بالحدودِ؛ لأنَّ تجاوُزَها يُخرِجُ مِنْ حِلٍّ إلى منعٍ[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ يجبُ امتثالُها والتَّقيُّدُ بها، ولا يجوزُ تعدّيها وانتهاكُها[2].

حُدودُ العظيمِ عظيمةٌ لا يَجوزُ تَعَدّيها

دلالةُ الإضافةِ في ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾:

إضافةُ الحدودِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ لتشريفِها وتعظيمِها، وزيادةِ التَّنفيرِ مِن مُخالَفتِها.

مَـنْ هـابَ العظيمَ وقَفَ عندَ حدودِه

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالة:

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الباري ﷻ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، وفي ذلكَ تربيةٌ للمهابةِ في النُّفوسِ، وزيادةُ حثٍّ على الوقوفِ عندَ حدودِ الشَّرعِ وعدمِ تجاوُزِها.

الظِّهارُ سُنَّةُ القومِ الكافِرين

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ تتميمٌ لجملةِ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾؛ أي: ذلكَ الحكمُ - وهو إبطالُ تحريمِ الزَّوجةِ بالظِّهارِ - حكمُ الإسلامِ، وأمّا ما كانوا عليهِ فهو مِنْ آثارِ الجاهليَّةِ، فهو سنَّةُ قومٍ لهم عذابٌ أليمٌ على الكفرِ وما تَوَلَّدَ منهُ مِنَ الأباطيلِ، فالظِّهارُ شرعُ الجاهليَّةِ[3]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الجملةُ معطوفةً على محذوفٍ نَشَأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، والتَّقديرُ: فلِلمُؤمنينَ بها جنّاتُ النَّعيمِ، وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/ 186.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 41، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 354.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

معنى اللّامِ في ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للاستحقاقِ، فتفيدُ أنَّ الكافرينَ مُستحِقّونَ لِما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ الأليمِ.

الكافرونَ مُستحِقّونَ للعذابِ والنَّكالِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالكُفر:

المرادُ بالكافرينَ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الَّذينَ يَرُدّونَ أحكامَ الشَّرعِ، ولا يَقبَلونَها، وذلكَ كفرٌ؛ لأنَّهُ إنكارُ ما عُلِمَ مِنَ الدّينِ بالضَّرورةِ. وعلى هذا يُحتمَلُ أنْ يكونَ تعريفُ الكافرينَ للعهدِ - والمرادُ: الكافرونَ بهذهِ الحدودِ - ويُحتمَلُ أنْ يكونَ للجنسِ، فيَشمَلُ جميعَ الكافرينَ، ويدخلُ فيهم هؤلاءِ دخولًا أوَّليًّا.

مُنكِرُ أحكامِ الشَّرعِ كافر

أو المرادُ: مَنْ يَتَجاوَزُ حدودَ اللّهِ تعالى، والتَّعبيرُ بالكفرِ تغليظٌ عليهِ؛ لزجرِهِ[1]، والتَّنبيهِ على أنَّهُ بهذا التَّجاوُزِ على خَطَرٍ عظيمٍ.

مُتَجاوِزُ حُدودِ الشَّرعِ على خَطَرٍ عظيم

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرتِهم، وعلى رُسوخِهم في صفةِ الكفرِ؛ أي: وللعَريقينَ في الكفرِ عذابٌ أليمٌ[2]، وكأنَّ الكفرَ صارَ صفةً مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تُفارِقُهم.

عَراقةُ الكافِرينَ في كُفرِهم

بلاغةُ الإيجازِ بحَذْفِ مُتعلّقِ الكفرِ:

في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ إيجازٌ بحذفِ مُتعلّقِ الكفرِ؛ إذِ المعنى: وللكافرينَ بهذهِ الأحكامِ، أو بهذهِ الأحكامِ وغيرِها مِمّا يجبُ الإقرارُ والعملُ به.

الكافرُ جاحِدٌ بما يَنبَغي الإقرارُ به

غرضُ تقديمِ الخبرِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ على المبتدإ ﴿عَذَابٌ﴾:

قُدِّمَ الخبرُ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ على المبتدإ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو العذابُ الأليمُ؛ ليَتَمكَّنَ في

استِحقاقُ الكافرينَ للعذابِ مَحَطُّ الاهتمامِ والعِنايةِ

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 168.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

النَّفْسِ عندَ وُرودِهِ عليها فضلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ تأخيرَ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أنسبُ للفاصلةِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عذابُ الكافرينَ هائلٌ فَظيع

نُكِّرَ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لتهويلِ شأنِ العذابِ وتفخيمِهِ؛ أي: عذابٌ عظيمٌ هائلٌ لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِهِ.

سرُّ وصْفِ العذابِ بالأليم:

فَظاعةُ العذابِ ذاتًا وصفةً

وُصِفَ العذابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكونِهِ أليمًا؛ لزيادةِ فظاعتِهِ الذّاتيَّةِ المُستفادةِ منَ التَّنكيرِ ببيانِ فظاعتِهِ المُستفادةِ من هذا الوصفِ.

نكتةُ صيغةِ (فَعيلٍ) في ﴿أَلِيمٌ﴾:

شِـــدَّةُ إيــلامِ عذابِ الكافرين

المرادُ بالأليمِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: المُؤلِمُ[1]، والإتيانُ بصيغةِ (فَعيلٍ) للتَّنبيهِ على شدَّةِ إيلامِهِ، ولتغليظِ أمرِهِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ واللَّمْسُ:

الـجِـمـاعُ والاستِـمـتـاعُ مَـمنوعانِ قبلَ الكفّارة

اللَّمْسُ قد يقالُ لطلبِ الشَّيءِ وإنْ لم يوجَدْ، والمَسُّ يقالُ فيما يكونُ معَهُ إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمْسِ، ويُكنَى بهِ عن الجماعِ[3]، واللَّمسُ يكونُ باليدِ خاصَّةً؛ لمعرفةِ اللّيِّنِ منَ الخُشونةِ، والحرارةِ منَ البرودةِ، ونحوِ ذلكَ، والمَسُّ يكونُ باليدِ والحجرِ وغيرِهما[4]، واللَّمسُ لا يكونُ إلّا عن قصدٍ، والمسُّ يكونُ عن قصدٍ وعن غيرِ قصدٍ[5].

وقد استُعمِلَ المَسُّ هنا؛ لأنَّهُ كنايةٌ عن الجماعِ[6]، وقد جَرَتْ عادةُ

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 447.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 217.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسس).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 303.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 178.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 167.

القرآنِ في تعليم الأدبِ بالكنايةِ عن المعاني المُستقبَحةِ بالألفاظِ اللَّطيفةِ. ويَدخُلُ في المنعِ قبلَ الكفّارة الاستمتاعُ باللَّمسِ بشهوةٍ وبالتَّقبيلِ ونحوِ ذلكَ[1].

الزَّجْرُ والوَعْظُ والنُّصْح:

الكفّارةُ رادِعةٌ عن الظِّهارِ

الزَّجْرُ في الأصلِ: الدَّفْعُ عن الشَّيءِ بتسلُّطٍ وصياحٍ، ثمَّ استُعمِلَ في الحثِّ على الشَّيءِ، وفي المنعِ والنَّهيِ وإنْ لم يكنْ صياحٌ[2]. والوَعْظُ: زَجْرٌ مُقترنٌ بتخويفٍ، أو هو التَّذكيرُ بالخيرِ فيما يَرِقُّ لهُ القلبُ[3]. والنُّصْحُ: تَحَرّي فعلٍ أو قولٍ فيهِ صلاحُ صاحبِهِ. وقد عُبِّرَ بالوعظِ هنا لاقترانِهِ بالتَّخويفِ، فيدلُّ على أنَّ الحكمَ بالكفّارةِ رادِعٌ عن العَوْدِ إلى الظِّهارِ[4]، ومُليِّنٌ للقلوبِ[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 274، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر)، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 64، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 41.
(3) الرّاغب، المفردات: (زجر)، (وعظ)، (نصح).
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 446.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 167.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

لمّا ذَكَرَ تعالى المؤمنينَ الواقفينَ عندَ حدودِهِ ذَكَرَ المُحادّينَ المُخالِفينَ لها[1].

تهديدُ الكافرينَ المُتجاوِزينَ حدودَ الله

ولمّا جرَى ذِكرُ الكافرينَ، وجرَى ذِكرُ حدودِ اللّهِ نُقِلَ الكلامُ إلى تهديدِهم وبِشارةِ المؤمنينَ بالنَّصرِ عليهم[2].

تعيينُ وقتِ العذابِ المُهينِ المَوعود

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى فهي أنَّهُ تعالى لمّا ذَكَرَ عذابَهم ذَكَرَ وقتَهُ على وجهٍ مُقرِّرٍ لِما مَضَى مِنْ شُمولِ عِلْمِهِ وكمالِ قُدرتِهِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُبِتُواْ﴾: (كبت) أصلٌ يدلُّ على الإذلالِ والصَّرفِ عن الشَّيءِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: كبتَ اللّهُ العدوَّ يكبتُهُ، إذا صرفَهُ وأذلَّهُ[5]، وردَّهُ بغيظه[6]، والكَبْتُ: الرَّدُّ بعنفٍ وتذليلٍ، قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 127][7]، والكَبْتُ: الصَّرعُ[8]، والكَبْتُ: كسرُ الرَّجلِ وإخزاؤُهُ[9]. والمرادُ بالكَبْتِ هنا: الخزْيُ والهلاكُ[10].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 288، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 124.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(5) الجوهري، الصحاح: (كبت).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (كبت).
(7) الراغب، المفردات: (كبت).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (كبت).
(9) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (كبت).
(10) الزمخشري، الكشاف: 4/ 489.

2) ﴿مُّهِينٌ﴾: (مهن) أصلٌ يدلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[1]، ومِنْ ذلكَ قولُهم: مَهِينٌ؛ أي: حقيرٌ، والمَهانةُ: الحقارةُ[2]. والمرادُ بالمُهين هنا: أنَّهُ يُلحِقُ بهم الهَوانَ والذُّلَّ[3].

3) ﴿أَحْصَىٰهُ﴾: (حصي) أصلٌ يدلُّ على العدِّ[4]، ومِنْ ذلكَ: الإحصاءُ، وهو التَّحصيلُ بالعددِ[5]، وذلك من لفظ الحَصَى؛ لأنَّه يُستعمل كما تُستعمَل الأصابع في العدّ، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن: 28]؛ أي: أحاطَ به وحصَّله إحاطةَ العادِّ منكم، وذلك على سبيل التنزُّل معهم على ما يفهمونه[6]، ويقالُ: أحصيتُ الشَّيءَ، أي: عَدَدْتُهُ[7]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: 20]، أي: لن تطيقوا عدَّه وضبطَهُ، ومعنى ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: أحاطَ بِه عدًّا، ولم يَغِبْ عنهُ شيءٌ منهُ[8].

4) ﴿وَنَسُوهُۚ﴾: (نسي) أصلٌ يدلُّ على إغفالِ الشَّيءِ[9]، ومِنْ ذلكَ: النِّسيانُ، وهو تركُ الإنسانِ ضَبْطَ ما استودِعَ، إمّا لضعفِ قلبِه، وإمّا عن غفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ حتّى يُحذَفَ عن القلبِ ذكرُهُ بهِ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ خالَفَ الحقَّ فلهُ سوءُ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرة

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن سوءِ عاقبةِ المخالفينَ لهُ ولنبيِّهِ ﷺ، فيقولُ: إنَّ الَّذينَ يخالفونَ اللّهَ ورسولَهُ ويُعادونَهما أُخْزوا كما أُخزيَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم مِنَ الأممِ الَّذينَ خالفوا اللّهَ ورُسُلَهُ، وقد أنزَلْنا دلالاتٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهن).
(2) الخليل، العين: (مهن).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 8.
(4) ابن فارس، مقايس اللغة: (حصي).
(5) الراغب، المفردات: (حصي).
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حصي).
(7) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (حصي).
(8) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 8.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(10) الرّاغب، المفردات: (نسي).

مفصَّلاتٍ تدلُّ على حقائقِ حدودِ اللّهِ وأحكامِه، ولجاحدي تلكَ الدَّلالاتِ ومُنكِريها عذابٌ مُذِلٌّ في جهنَّم، وذلكَ يومَ يَبعَثُهم اللّهُ جميعًا مِنْ قبورِهم لموقفِ القيامةِ، فيُخبِرُهم بما عملوهُ مِنَ الأعمالِ، فقد أحصَى اللّهُ ما عملوا، فعَدَّهُ عليهم، وأثبَتَهُ وحَفِظَهُ، ونَسوه هم، واللّهُ مُطَّلعٌ ورقيبٌ على كلِّ شيءٍ مِنْ أعمالِهم وغيرِها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ الآية:

تَبْشيرُ المؤمنين بإذلالِ الكافرين

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لزَفِّ البُشرى إلى رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنينَ بكَبْتِ أعدائِهم وإذلالِهم[2].

نكتةُ التَّوكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ:

الـكـافـرونَ مَـغـلـوبـونَ وإنْ كَثُروا

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ لأجلِ إنكارِهم أنْ يُغلَبوا على كثرتِهم وقوَّتِهم وضعفِ المؤمنينَ وقلَّتِهم[3]، وللتَّنبيهِ على أنَّ كَبْتَهم وإذلالَهم واقعٌ لا محالةَ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مَـنْ حـادَّ اللـهَ ورسولَهُ ذلّ

جيءَ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾؛ للتَّوصُّلِ لذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وهو مُحادَّتُهم للّهِ ورسولِه، ولتعليلِ حكمِ كَبْتِهم وإذلالِهم، كأنَّهُ قيلَ: كُبِتوا لأنَّهم يحادّونَ اللّهَ ورسولَهُ. وليكونَ الوعيدُ عامًّا يَشمَلُ كلَّ مَن حادَّ اللّهَ ورسولَهُ، فليس المرادُ كفّارًا بأعْيانِهم.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان، ص: 236 - 23/ 235، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 41، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 165.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 10.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُحَآدُّونَ﴾:

استمرارُ الكَفَرةِ على مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ؛ أي: مُجدِّدينَ المُحادَّةَ مُستمرّينَ عليها[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمُحادَّةِ دونَ غيرِها:

المُحادَّةُ أنسبُ بذكرِ حُدودِ الله

المرادُ بالمُحادَّةِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: المُعاداةُ والمُشاقَّةُ؛ فإنَّ كُلًّا مِنَ المُتَعاديَينِ كما أنَّهُ يكونُ في شِقٍّ غيرِ شِقِّ الآخرِ كذلكَ يكونُ في حَدٍّ غيرِ حَدِّ الآخرِ، ولكنْ أوثِرَ هنا لفظُ المُحادَّةِ؛ لوُرودِها في أثناءِ ذكرِ حدودِ اللهِ، فتكونُ أنسبَ بها؛ فإنَّ المُحادَّةَ مُشتقَّةٌ مِنَ الحدِّ[2].

وجهُ إيقاعِ المُحادَّةِ على اسمِ الجلالة:

مُحادَّةُ رسولِ اللهِ محادَّةٌ لله

المرادُ بالمحادَّةِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ محادَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ المُرسَلِ بدينِ اللهِ، فمُحادَّتُه مُحادَّةٌ للّهِ[3]، وبناءً على ذلكَ يكونُ ذكرُ اسمِ الجلالةِ تمهيدًا لذكرِ الرَّسولِ ﷺ، والمقصودُ التَّنبيهُ على منزلةِ الرَّسولِ مِنَ اللهِ ﷻ. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: يحادّونَ أولياءَ اللهِ ورسولَهُ[4]، على تقديرِ حذفِ مضافٍ.

نكتةُ إيثارِ اسمِ الجلالةِ دونَ غيرِه:

مُعاداةُ العظيمِ خارجةٌ عن دائرةِ المَعقول

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي توجبُ عدمَ مُحادَّتِهِ ومُعاداتِهِ ومُخالفتِهِ[5]، فإقدامُ هؤلاءِ على محادَّتِهِ ومعاداتِهِ أمرٌ خارجٌ عن دائرةِ المعقولِ، وفي ذلكَ مِنْ تقبيحِ شأنِهم ما لا يخفَى.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 217، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 288.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

رسولُ العظيم شأنُهُ عظيم

إضافةُ الرَّسولِ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لتشريفِ الرَّسولِ وتعظيمِه[1]، وزيادةِ التَّشنيعِ على مَنْ يُحادُّهُ ويُخالفُهُ ويُعاديه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكَبْتِ:

مَنْ خالفَ اللهَ ورسولَهُ فعاقِبَتُهُ الخِزْيُ والإذلال

أصلُ الكَبْتِ: الكَبُّ، وقد استُعمِلَ في قولِه ﷻ هنا: ﴿كُبِتُواْ﴾ بمعنى الإخزاءِ على سبيلِ المجازِ؛ لأنَّ الإخزاءَ لازمٌ للكَبِّ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كُبِتُواْ﴾ و﴿كُبِتَ﴾:

إذلالُ الكافرينَ واقعٌ لا مَحالة

الفعلُ ﴿كُبِتُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الوعيدِ؛ أي: سيُكبَتونَ، فعُبِّرَ عنهُ بصيغةِ الماضي تنبيهًا على تحقيقِ وقوعِه؛ لصُدورِه عمَّن لا خلافَ في خبرِه، ولأنَّه مؤيَّدٌ بتنظيرِه بما وقعَ لأمثالهم. وقرينةُ ذلكَ تأكيدُ الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّ الكلامَ لو كانَ إخبارًا عن كَبْتٍ وقعَ لم يكنْ ثَمَّ ما يَقتَضي تأكيدَ الخبرِ؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ فيما وقعَ[3].

غرضُ البناءِ للمفعولِ في الفعلِ ﴿كُبِتُواْ﴾:

اللهُ تعالى يُعِزُّ مَن يشاءُ ويُذِلُّ مَن يشاء

جيءَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ الفاعلَ متعيِّنٌ، وهو اللهُ ﷻ الَّذي يُعِزُّ مَنْ يشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ.

الكافرونَ صائرونَ إلى هَوانٍ شديد

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ للتَّنبيهِ على شدَّةِ ضعفِهم وذُلِّهم وهَوانِهم، بحيثُ يَكْبِتُهم كلُّ أحدٍ، ويُتَخطَّفونَ من كلِّ مكانٍ.

دلالةُ التَّشبيهِ بالكافِ:

سُنَّةُ اللهِ في إذلالِ الكافرينَ واحدةٌ لا تَتَخلَّف

الكافُ في قولِ الباري عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 497.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 124، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 23.

للتَّشبيهِ، فتفيدُ تشبيهَ كَبْتِ هؤلاءِ بكَبْتِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، وفي ذلك فَتٌّ في عَضُدِهم بالتَّنبيهِ على أنَّهم لا يُعجِزونَ اللّهَ تعالى، بل هو قادرٌ عليهم اقتدارَهُ على الَّذينَ مِنْ قبلِهم، وذلكَ بمنزلةِ قَرْنِ كَبْتِ هؤلاءِ بالدَّليلِ عليه[1].

دلالةُ (ما) في ﴿كَمَا كُبِتَ﴾:

(ما) في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنى: ككَبْتِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم. وعدَلَ عن التّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ (كبْت) إلى التّعبيرِ بالمؤوَّلِ مِن (ما) المصدريَّةِ والفعلِ الماضي بعدها؛ ليفيدَ الفعلُ بصيغةِ المُضيِّ تقرُّرَ هذا الأمرِ، بتقييدِ حُصولِهِ فيما مضى.

كَبْتُ المذكورينَ مِثلُ كَبْتِ أسلافِهم

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

جيءَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على قومٍ معهودينَ معروفينَ، وهم أعداءُ الرُّسلِ في كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُممِ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرِهم[2]، أو الَّذينَ حادّوا اللّهَ في غزوةِ الخندقِ، وهم يعرفونَهم جيِّدًا[3]، والأوَّلُ أولى وأعمُّ وأدخَلُ في الوعيدِ والتَّهديدِ والحثِّ على تركِ المُحادَّةِ.

مَنْ وُعِظَ بكَبْتِ غيرِهِ اتَّعَظَ واعتَبَرَ

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ، فتفيدُ أنَّ زمانَ المكبوتينَ السّابقينَ قبلَ زمانِ هؤلاءِ المحادّينَ.

زمانُ المكبوتينَ السّابقينَ مُتقدِّمٌ على زَمَنِ هؤلاء

وجهُ التَّعبيرِ بـ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

لمّا كانَ المحادّونَ لم يستغرقوا جميعَ الأزمانِ الماضيةِ والأماكنِ أُدخِلَ الجارُّ، فقيلَ: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، ولم يُقَلْ: (قبلَهم)[4].

المُحادّونَ لم يَستغرِقوا جميعَ الأزمانِ الماضيةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 276.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 356.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾:

سَفاهةُ رَأْيِ مَن يُعادي الحقَّ وهو يَعلَمُ سوءَ العاقِبة

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ حالٌ مِنْ واوِ ﴿كُبِتُواْ﴾؛ أي: كُبِتوا لمحادَّتِهم والحالُ أنَّنا قد أنزلنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَنْ حادَّ اللّهَ ورسولَهُ ممَّنْ قبلَهم مِنَ الأممِ وفيما فعَلْنا بهم[1]، وفي ذلك تسفيهٌ لرأيِهم؛ إذ حالُهم حالُ مَنْ يقعُ في حُفرةٍ وهو يراها وينظرُ إليها ويُمكِنُهُ اجتنابُها.

لا عُذرَ لِمَن يُحادُّ اللهَ ورسولَه

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الجملةُ معترضةً بينَ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وجملةِ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، ومعنى الاعتراضِ: لا عذرَ لهم في محادَّةِ اللّهِ ورسولِه؛ فإنَّ مع الرَّسولِ ﷺ آياتٍ بيِّنةً على صدقِه[2].

دلالةُ (قد) في ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾:

إنزالُ الآياتِ البيِّناتِ مُتحقِّق

(قد) في قولِه ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ حرفُ تحقيقٍ[3]، فيُفيدُ تحقيقَ إنزالِ الآياتِ البيِّناتِ.

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

إنزالُ الآياتِ البيِّناتِ مُتيقَّن

جيءَ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ على صيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنزالَ الآياتِ البيِّناتِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى، فلا شكَّ فيه ولا ارتيابَ.

سرُّ إسنادِ الإنزالِ إلى ضميرِ العَظَمةِ:

الأفعالُ تَعظُمُ بعَظَمةِ فاعلِها

أُسنِدَ فعلُ الإنزالِ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾؛ لدلالتِه على تعظيمِ شأنِ الإنزال؛ أي: أنزلْنا بما لَنا مِنَ العظمةِ[4]، وذلكَ أنَّ فعلَ العظيمِ عظيمٌ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 217، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 216.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 10.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 356.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الآياتِ) مجموعًا:

الآياتُ علاماتٌ على صدقِ الرِّسالة

عُبِّرَ بالآياتِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾؛ لأنَّها علاماتٌ تدلُّ على صدقِ المُرسَلِ بها وصحَّةِ ما جاءَ بِهِ مِن عندِ ربِّه[1].

تَعَدُّدُ الآياتِ أبلغُ في إقامةِ الحُجَّة

وجُمِعَتِ الآياتُ؛ للدَّلالةِ على كثرتِها، وذلكَ أبلغُ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ إذ كثرةُ الآياتِ تَستدعي كثرةَ التَّنبيهِ والإرشادِ والاستدلالِ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ، وصحَّةِ ما جاءَ بِهِ مِنْ عندِ اللَّهِ ﷻ، ولو كانَتْ آيةً واحدةً لربَّما تَذَرَّعوا بأنَّها غيرُ كافيةٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾:

عَظَمةُ آياتِ التَّنزيلِ وفَخامةُ شأنِها

تنكيرُ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ؛ أي: آياتٍ عظيماتِ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُنَّ.

سرُّ وصفِ الآياتِ بالبيِّنات:

لا لَبْسَ في آياتِ التَّنزيلِ ولا غُموضَ فيها

وُصِفَتِ الآياتُ بالبيِّناتِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على وُضوحِها في الدَّلالةِ على المرادِ بها، وأنَّها لا لَبْسَ فيها ولا غُموضَ، وفي ذلكَ قطعٌ لسِلْكِ أعذارِ المشركينَ وحُجَجِهم[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾:

الكافرونَ مَجموعٌ لهم بينَ خِزْيِ الدُّنيا وعذابِ الآخرة

الواوُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ أي: لهم بعدَ الكَبْتِ عذابٌ مُهينٌ في الآخرةِ[3]، أو معطوفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ يدلُّ عليها السّياقُ، والتَّقديرُ: فللمؤمنينَ نعيمٌ مقيمٌ، وللكافرينَ عذابٌ مهينٌ[4].

بلاغةُ التَّتْميمِ أو التَّذْييلِ في جُملةِ الفاصِلة:

المُحادّونَ في عذابٍ مُقيمٍ يومَ القيامةِ

قولُه ﷻ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ إمّا تتميمٌ وإمّا تذييلٌ، فإذا

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 216.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 356.

جُعِلَتِ اللّامُ في قوله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ للعهدِ كانَ الكلام تتميمًا بوَضْعِ المُظهَرِ موضعَ المُضمَرِ، والمعنى: لأولئك الكافرينَ الَّذين لم يَتَّبِعوا الآياتِ البيِّناتِ، بل حادّوا اللّهَ ورسولَهُ عذابٌ مُهينٌ، والظَّرفُ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوبٌ بالكونِ المحذوفِ الواقع خبرًا، الَّذي تعلَّقَ به الجارُّ والمجرورُ؛ أي: وعذابٌ مهينٌ كائنٌ للكافرين يومَ يَبعَثُهم.

الكافرونَ جميعًا في عذابٍ مُقيمٍ يومَ القيامة

وإذا جُعِلَتِ اللّامُ للجنسِ كان الكلام تذييلًا، فتشملُ اللّامُ جنسَ الكافرين كلَّهُ، ويدخلُ فيهِ أولئكَ المُحادّون دخولًا أوَّليًّا، وينتصبُ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ بإضمارِ (اذكُرْ)؛ لتمامِ الكلامِ هناكَ[1].

معنى اللّامِ الجارَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الـكـافـرونَ مُـسـتَـحِـقّـونَ للعذابِ المُهين

اللّامُ الجارَّةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ للاستحقاقِ، فتُفيدُ أنَّ الكافرينَ جميعًا، أو المُحادّينَ اللّهَ ورسولَهُ مُستَحِقّونَ لِما أُعِدَّ لهم في الآخرةِ مِنَ العذابِ المُهينِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الـكـفـرُ صِـفَـةٌ راسِـخَـةٌ في الكافِرين

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على كثرتِهم، وعلى رُسوخِهم في الكفرِ؛ أي: وللرّاسخينَ في الكفرِ عذابٌ مُهينٌ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الكفرَ صارَ كصفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تُفارِقُهم.

نكتةُ الإيجازِ في ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكافرُ مُنكِرٌ لِكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ فيهِ إيجازٌ بحذفِ مُتعلّقِ الكفرِ؛ إذ المعنى: وللكافرينَ بما يجبُ الإقرارُ والإيمانُ بهِ. وحَذْفُهُ زيادةٌ في الذَّمِّ؛ لِما يَتَضمَّنُهُ من عمومٍ وشمولٍ لكلِّ ما يوجِبُ الإيمانَ.

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 278.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 356، والشربيني، السّراج المنير: 4/ 224.

غرضُ تقديمِ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

قُدِّمَ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو العذابُ المُهينُ؛ ليَتَمكَّنَ في النَّفْسِ عندَ وُرودِهِ عليها فضلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ رِعايةً للفواصلِ.

استِحقاقُ الكافرينَ للعَذابِ مَحَطُّ الاهتِمامِ والعِنايةِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٞ﴾:

نُكِّرَ ﴿عَذَابٞ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لتهويلِ شأنِ العذابِ وتعظيمِهِ وتفخيمِهِ؛ أي: عذابٌ عظيمٌ فظيعٌ هائلٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِهِ.

عذابُ الكافرينَ شديدُ الهَوْلِ والفَظاعَةِ

سرُّ وصْفِ العَذابِ بالمُهينِ دونَ غيرِهِ:

وُصِفَ العذابُ بالمُهينِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لأنَّهُ يَذهَبُ بعِزِّهم وتَكَبُّرِهم[1]. وقد أوثِرَ هذا الوصفُ على غيرِهِ مِنَ (الأليمِ والشَّديدِ ونحوِهما)؛ لأنَّ قبلَهُ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، والمُحادَّةُ هي المُعاداةُ والمُشاقَّةُ، ومِنْ لَوازِمِها الظُّهورُ والارتفاعُ، والإهانةُ مِنْ لَوازِمِها الذُّلُّ والخضوعُ[2]، فعومِلوا بنقيضِ ما أظهَروا. وأيضًا وصفُ المُهينِ يُناسِبُ وعيدَهم بالكَبْتِ الَّذي هو الذُّلُّ والإهانةُ[3].

عاقِبةُ المُحادّينَ المُتعالينَ المُتكبِّرينَ الذُّلُّ والهَوانُ والصَّغار

نكتةُ المجازِ في ﴿مُّهِينٞ﴾:

في وصفِ العذابِ بالمُهينِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ بإسنادِ الإهانةِ إلى السَّببِ، لأنَّها لا تُتَصَوَّرُ من العذابِ، إذ العذابُ هو سببُ الإهانةِ، وإنَّما المُهينُ هو المعذِّبُ بهِ ﷻ[4].

المُهينُ هو المُعذِّبُ، لا العَذابُ

بلاغةُ مَوقِعِ ﴿يَوۡمَ﴾ مِن حيثُ الإعرابِ:

تقدَّمَ أنَّ الظَّرفَ ﴿يَوۡمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾

يومُ الحِسابِ والجَزاءِ يومٌ عظيمُ الشَّأنِ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 180.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 168.

منصوبٌ بإضمارِ (اذكُرْ) على أنَّهُ مفعولٌ بهِ لا ظرفٌ لهُ، تعظيمًا لليوم وتهويلًا لهُ[1]؛ لِما في تقديرِ (اذكُرْ) مِنْ تأكيدِ استقلالِ الجملةِ، والحثِّ على تذكُّرِ ما يَجري في ذلك اليومِ الهائلِ العظيم. أو هو منصوب بالكون المحذوف المقدر في خبر قوله سبحانه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ على قصدِ اتِّصال الكلام بعضِهِ ببعضٍ، وعدم استقلالِ قولِه سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾، كما يجوزُ أن يكونَ منصوبًا باسم الفاعل ﴿مُّهِينٌ﴾.

نكتةُ صَوْغِ الفِعلين ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ و﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ مُضارِعَين:

البَعْثُ والتَّنبِئةُ مَشهَدانِ مَهيبانِ عظيمان

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ لأنَّ البعثَ والتَّنبِئةَ أمرانِ مُستقبَلانِ، ولتصويرِ حَدَثَي البعثِ والتَّنبِئةِ العظيمينِ الهائلين؛ لأجلِ تربيةِ المهابةِ في النُّفوسِ، وحثِّها على تركِ ما هي مُقيمةٌ عليهِ مِنَ المُحادَّةِ والمُشاقَّةِ.

مَرجِعُ الهاءِ في الفعلين:

البَعْثُ شامِلٌ للمُحادّين وغيرِهم

ضميرُ الجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾، و﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة:

يومُ القيامةِ يومُ تَجلّي ذي العظمةِ والجلال

أوثِرَ لفظُ الجلالةِ على غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في مقامِ التَّهديدِ والوعيدِ، وذلكَ يناسبُهُ الإتيانُ باللَّفظِ الدّالِّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ لمالكِ يومِ الدّينِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿جَمِيعًا﴾:

اللهُ تعالى مُقتدِرٌ على جميعِ المُخالِفينَ لشَرائعِه

عُبِّرَ بـ﴿جَمِيعًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ لدَفْعِ تَوَهُّمِ عدمِ الشُّمولِ، وللتَّنصيصِ على أنَّ البعثَ شاملٌ للمُحادّينَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 488، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 289، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 498.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.

والَّذينَ مِنْ قبلِهم، بحيثُ لا يُترَكُ منهم أحدٌ غير مبعوثٍ[1]، وفي ذلكَ مزيدُ تخويفٍ وتهديدٍ وإظهارٍ لاقتدارِ اللّهِ تعالى عليهم، وأنَّهم لا يُعجِزونَهُ.

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾:

الإخبارُ بالأعمالِ يكونُ عَقِبَ البعث

الفاءُ عاطفةٌ للتّرتيبِ والتَّعقيب، كما يُلمَحُ فيها معنى السَّببيّة؛ إذ لمّا كانَ لا أوجعَ مِنَ التَّبكيتِ بحضرةِ بعضِ النّاسِ - فكيفَ إذا كانَ بحضرتِهم كلِّهم؟ وكيفَ إذا كانَ بمرأًى مِنْ جميعِ الخلائقِ ومَسْمَعٍ؟ - سبَّبَ عن بَعْثِهم وعقَّبَ بقولِه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾[2].

غرضُ الإخبارِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾:

الخِزْيُ والفضيحةُ لاحِقانِ بالمُحادّينَ وأسْلافِهم يقينًا

في قولِه ﷻ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تهديدٌ بفَضْحِهم يومَ البعثِ، وتشهيرٌ لحالِهم، وتقريرٌ لعذابِهم[3]. وفيهِ أيضًا كنايةٌ عن الجزاءِ على أعمالِهم[4].

دلالةُ التَّضعيف في الفعل (يُنَبِّئُهُمْ):

الإخبارُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ يَستقصي كلَّ شيءٍ

جيءَ بالفعلِ (يُنَبِّئُهُمْ) مُضعَّفَ العينِ، ولم يُقَلْ: (يُنْبِئُهم) بالتَّخفيفِ؛ للمبالغةِ في شدَّةِ التَّنْبيءِ في ذلكَ اليومِ العظيمِ، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ تَنْبيءٌ يَستقصي كلَّ شيءٍ[5].

معنى الباءِ في ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾:

الأعمالُ مُتعلَّقُ التَّنْبيءِ يومَ البَعْث

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِه الثّاني. وفيه إشارةٌ الى أصلِ معناها وهو الإلصاقُ المعنويُّ، لكونِه معنًى لا يُفارِقُها كما هو مُقرَّرٌ عندَ كثيرٍ من النَّحويّين.

---

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 498، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 24.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.

دلالةُ (ما) في ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾:

كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ مُحصًى عليه

(ما) في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ موصولةٌ وعائدُها محذوفٌ؛ أي: فينبِّئُهم بالَّذي عملوهُ، والمرادُ مِنَ التَّعبيرِ بها إفادةُ العموم، فيفيدُ الكلامُ التَّنبيءَ بجميعِ الأعمالِ يومَ البعثِ، وفي ذلكَ مِنَ التَّهويلِ والتَّرويعِ ما لا يخفَى.

ويجوزُ أن تكون (ما) مصدريَّةً، والتَّقدير: فيُنَبِّئُهم بعَمَلهم، والتَّعبيرُ بالمصدرِ المُؤوَّلِ للدَّلالة على تحقُّقِ تلك الأعمال وحِفْظِها عليهم.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿عَمِلُوٓاْۚ﴾:

الدُّنيا مَزرعةُ الآخرةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾؛ لأنَّ التَّنبئةَ تكونُ بما صدَرَ عنهم مِنَ الأعمالِ في الحياةِ الدُّنيا، الَّتي هي دارُ السَّعيِ والعملِ[1]، وقد مَضَتْ هذهِ الأعمالُ وانقضَتْ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعَمَلِ دونَ غيرِه:

كلُّ إنسانٍ مرهونٌ بكَسْبِ يَدِه

عُبِّرَ بالعملِ دونَ غيرِهِ مِنَ (الفعلِ والصُّنعِ ونحوِهما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾؛ لأنَّ العملَ يكونُ بقصدٍ مِنَ العاملِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ما صَدَرَ عنهم في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ، ونُبِّئُوا به قد صَدَرَ بإرادتِهم وقصدِهم، وفي ذلكَ قطعٌ لأعذارِهم وتعلُّلاتِهم.

علَّةُ فَصْلِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾:

لا يَعْسُرُ على اللهِ تعالى ضَبْطُ أعمالِ عبادِه

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممّا قبلَهُ، وهذا السُّؤالُ إمّا عن كيفيَّةِ التَّنبئةِ وإمّا عن سببِها، كأنَّهُ قيلَ: كيفَ يُنبِّئُهم بأعمالِهم وهي أعْراضٌ مُتقَضّيةٌ مُتَلاشيةٌ؟ فقيلَ: أحصاهُ اللّهُ عددًا، لم يَفُتْهُ منهُ شيءٌ[2].

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ في موضعِ الحالِ من

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 289.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 217.

الموصول في قولِهِ: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾، والمقصودُ مِنَ الحالِ هو ما عُطِفَ عليها مِنْ قولِهِ: ﴿وَنَسُوهُۚ﴾؛ لأنَّ ذلكَ محلُّ العِبْرةِ، وبهِ تكونُ الحالُ مؤسِّسةً لا مؤكِّدةً لعاملِها، وهو ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: عَلِمَهُ اللّهُ علمًا مُفصَّلًا مِنَ الآنَ وهم نَسوهُ[1].

دلالةُ الماضي في ﴿أَحۡصَىٰهُ﴾:

اللهُ تعالى رَقيبٌ على كُلِّ شيءٍ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إحصاءَ اللّهِ تعالى لِما عملوهُ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، وفي ذلكَ إيقاظٌ لبواعثِ الخوفِ والخشيةِ في نفسِ كلِّ عاقلٍ؛ ليَستشعِرَ مراقبةَ اللّهِ تعالى لحركاتِهِ وسَكَناتِهِ.

بلاغةُ المَجازِ بلفظِ الإحصاءِ:

عِلْمُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ ما يَعمَلُهُ عبادُه

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ بجعلِ الإحصاءِ مجازًا عن إحاطةِ علمِهِ تعالى بأعمالِهم عددًا[2]، بحيثُ لم يَفُتْهُ منها شيءٌ[3]، وقد أحاطَ بجميعِ أحوالِ تلكَ الأعمالِ مِنَ الكمّيَّةِ والكيفيَّةِ، والزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّهُ تعالى عالمٌ بالجُزْئيّاتِ[4]. وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ البالغةِ عليهم[5].

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾:

عِلْمُ العظيمِ سبحانَهُ عظيمُ الشَّأنِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أحصاهُ) دونَ اسمِ الجلالةِ؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا اللَّفظُ مِنْ صفاتِ العظمةِ والجلالِ والجمالِ[6]، ومنها العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، فيكونُ مُلائمًا لذكرِ الإحصاءِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 25.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 193.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 488.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 289.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَنَسُوهُۚ﴾:

ضَعفُ عِلمِ المخلوقِ وعَظَمةُ عِلمِ الخالِقِ

قولُه تعالى: ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[1]. وفي هذا العطفِ مقابلةٌ بينَ إحصاءِ اللهِ تعالى لأعمالِهم - وهو علمُهُ المحيطُ بها - وبينَ نسيانِ أصحابِ الأعمالِ لها في الدُّنيا بَلْهَ الآخرةِ، فيفيدُ الكلامُ كمالَ الخالقِ ونقصَ المخلوقِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ النِّسيانِ ماضيًا:

المُشرِكونَ مُتَهاوِنونَ بأمرٍ عظيمٍ

في التَّعبيرِ بالنِّسيانِ في قولِه ﷻ: ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ تسجيلٌ عليهم بأنَّهم تهاوَنوا بالأعمالِ حينَ ارتَكَبوها، فلم يُبالوا بها؛ لِضَراوَتِهم بالمعاصي وكثرةِ ارتكابِهم لها، ولذلك نَسوها؛ لأنَّهُ إنَّما تُحفَظُ مُعظَّماتُ الأمورِ[2].

نِسيانُهم أعمالَهم أمرٌ مُتحقِّقٌ

وجيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَنَسُوهُۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نسيانَهم لِما عملوهُ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى؛ لأنَّهم نَسوهُ في الدُّنيا فضلًا عن الآخرةِ.

دلالةُ الواوِ في جُملةِ الفاصِلة:

مَنْ كَمُلَ عِلْمُهُ أحصَى كلَّ شيءٍ عددًا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما قبلَهُ[3]؛ إذ كونُهُ تعالى شهيدًا على كلِّ شيءٍ يُؤكِّدُ إحصاءَهُ لأعمالِ عبادِه. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواوُ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: فاللهُ بكلِّ شيءٍ مِنْ أعمالِهم وغيرِها عليمٌ، واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ[4].

سرُّ إظهارِ اسمِ الجَلالةِ وتكرارِه:

اللهُ تعالى مُتَّصِفٌ بالقُدرةِ الشّامِلةِ والعِلْمِ المُحيطِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ في جملةِ الفاصلةِ: (وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لتأكيدِ استقلالِ جملةِ التَّذييلِ بحيثُ تَجري مَجْرَى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 25.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 489، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 488.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 25.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 358.

الأمثالِ، وللتَّصريح بالاسمِ الدّالِّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، الَّتي منها كونُهُ تعالى مُتَّصفًا بالقدرةِ الشّاملةِ والعلمِ المحيطِ.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

جميعُ الأشياءِ تحتَ سُلطانِ عِلْمِ اللهِ تعالى وقدرتِه

﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ للاستعلاءِ المَجازيِّ، فتفيدُ أنَّ الأشياءَ مقهورةٌ تحتَ سُلطانِ علمِه تعالى وقدرتِه، وكأنَّ عِلمَهُ تعالى مُستَعْلٍ عليها[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾:

تأكيدُ سَعَةِ عِلْمِهِ تعالى تأكيدًا بعدَ تأكيد

إضافةُ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَىْءٍ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ لتأكيدِ عموم كلمةِ ﴿شَىْءٍ﴾، وبيانِ شمولِها لِما ذُكِرَ وما لم يُذكَرْ، بحيثُ لا يَخرُجُ شيءٌ عن علمِهِ تعالى[2].

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الاهتمامُ بالتَّنصيصِ على إحاطةِ عِلْمِهِ تعالى بكلِّ شيءٍ

قُدِّمَ القيدُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على عاملِه، وهو الخبرُ ﴿شَهِيدٌ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والمُسارعةِ في إثباتِ كونِ كلِّ شيءٍ تحتَ سلطانِ علمِ اللّهِ، وذلكَ أنسبُ لمقامِ الإخبارِ بإحاطةِ علمِهِ ﷻ، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿شَهِيدٌ﴾ رعايةً لتلاؤُمِ الفواصلِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظةِ ﴿شَهِيدٌ﴾ دلالةً وصيغةً:

اللهُ حفيظٌ على كلِّ شيءٍ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿شَهِيدٌ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهُ ﷻ مُطَّلعٌ وناظرٌ، لا يخفَى عليهِ شيءٌ[3]، وحفيظٌ حاضرٌ لا يَغيبُ[4].

وأوثِرَتْ صيغةُ (فعيلٍ) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 358.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 358.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 289.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 358.

اتِّصافُ اللهِ تعالى بالعِلْمِ على وجْهِ المُبالَغة

شَهِيدٌ﴾، ولم يُقَلْ: (شاهدٌ)؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ ﷻ بكونِهِ شاهدًا على كلِّ شيءٍ، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ على شُمولِ علمِهِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَعْثُ والإحياءُ والنُّشور:

البَعْثُ أنسبُ لمَقامِ التَّهْويل

البَعْثُ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُهُ، ويختلفُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به؛ فبعثُ البعيرِ: إثارتُهُ وتسييرُهُ، وبعثُ الموتى: إخراجُهم مِنْ قبورِهم، وتسييرُهم إلى القيامةِ، وأمّا الإحياءُ فهو جعلُ الحياةِ تَدِبُّ في الشَّيءِ[1]. وبناءً على ذلكَ يكونُ البَعْثُ أعمَّ مِنَ الإحياءِ؛ لأنَّهُ يُستعمَلُ في إحياءِ الموتى وإخراجِهم للقيامةِ، ويُستعمَلُ في غيرِهِ، كإثارةِ البعيرِ وتسييرِهِ. وأمّا النُّشورُ فيكونُ بعدَ البعثِ؛ لأنَّهُ جَعْلُ الموتى يَنتشِرونَ في الأرضِ بعدَ بعثِهم، ويتفرَّقونَ فيها حتَّى يَجمَعَهم موقفُ الحشرِ[2]. وقد عُبِّرَ بالبعثِ هنا؛ لأنَّهُ يشيرُ إلى عِدَّةِ أهوالٍ مِنْ أهوالِ القيامةِ، فهو يشيرُ إلى الإحياءِ والإخراجِ مِنَ القبورِ.

الإنباءُ والإخبارُ:

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يَحصُلُ بهِ علمٌ أو غلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ: نبأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يقالُ فيهِ: نبأٌ أنْ يخلوَ عن الكذبِ، كالتَّواتُرِ، وخبرِ اللهِ تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ[3]. وبناءً على ذلكَ يكونُ الإنباءُ هو الإخبارَ بما لهُ فائدةٌ عظيمةٌ، بحيثُ يحصلُ بهِ علمٌ أو غلَبَةُ ظنٍّ.

الإخبارُ بالأعمالِ في الآخرةِ عظيمُ الشَّأنِ

وقد اختيرَتِ التَّنبئةُ هنا؛ لإفادةِ تعظيمِ شأنِ الإخبارِ بالأعمالِ في الآخرةِ[4]، وأنَّ المُخبَرينَ يحصلُ لهم علمٌ بعدَ إخبارِهم بأعمالِهم، وذلكَ أنسبُ لمقامِ إقامةِ الحجَّةِ عليهم.

---

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 286.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 288.

(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ)، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 297.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 357.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عِلمُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ حقيقةٌ مُؤكَّدة

لمّا قالَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: 6] أكَّدَ هنا كونَهُ عالمًا بكلِّ المعلوماتِ[1].

إقامةُ الدَّليلِ على شُمولِ عِلمِهِ تعالى

ولمّا كانَ الإخبارُ عن إحاطةِ علمِهِ تعالى وشمولِ قدرتِهِ يحتاجُ إلى دليلٍ عندَ غيرِ المؤمنينَ - فقد كانَ العربُ يُنكِرونَ أنْ يَسَعَ النّاسَ كلَّهم إلهٌ واحدٌ - بيَّنَ تعالى هنا أنَّ علمَهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّجْوَىٰ﴾: (نجو) أصلٌ يدلُّ على كَشْطٍ وكَشْفٍ[3]، وانفصالٍ مِنَ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ قولُهم: نجا فلانٌ مِنْ فلانٍ، وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[4]، والنَّجْوَةُ: المكانُ المرتفعُ مِنَ الأرضِ[5]. والمرادُ بالنَّجْوى هنا: التَّحدُّثُ سِرًّا[6]، وهي مأخوذةٌ مِنَ النَّجْوةِ؛ لأنَّ المُتَسارَّين يَخلوانِ وحدَهما بنَجْوةٍ مِنَ الأرضِ، أو لأنَّ السِّرَّ يُصانُ، فكأنَّهُ رُفِعَ مِنَ الظُّهورِ إلى الخَفاءِ[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 360 - 361.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نجو).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (نجو).
(6) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 167.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 217.

المَعنى الإجْماليُّ:

حالُ المخلوقِ لا يَخفى على الخالِقِ العظيم

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن سَعَةِ علمِه، فيقولُ: ألم تعلَمْ - يا محمَّدُ، أو أيُّها المخاطَبُ كائنًا مَنْ كانَ - أنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، لا يخفَى عليهِ صغيرٌ مِنْ ذلكَ ولا كبيرٌ، ما يكونُ مِنْ مُسارَّةِ ثلاثةٍ مِنْ خلقِهِ إلّا هو رابعُهم، يَسمَعُ سرَّهم ونَجْواهم، ولا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أسرارِهم، وما يكونُ مِنْ نجوَى خمسةٍ إلّا هو سادسُهم كذلكَ، ولا أقلَّ مِنْ ثلاثةٍ ولا أكثرَ مِنْ خمسةٍ إلّا هو معهم بعلمِهِ إذا تناجَوا في أيِّ موضعٍ كانوا، ثمَّ يُخبِرُ يومَ القيامةِ هؤلاءِ المُتناجينَ وغيرَهم بما عملوا مِنْ عملٍ، فهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية:

شُمولُ علمِهِ تعالى لهُ دَلائلُ كثيرة

فُصِلَ قولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ، جيءَ بهِ للاستشهادِ على شُمولِ شهادتِهِ تعالى[2]. وفيهِ أيضًا تخلُّصٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6] إلى ذكرِ علمِ اللهِ بأحوالِ المنافقينَ وأحلافِهم اليهودِ؛ فقد كانَ المنافقونَ يُناجي بعضُهم بعضًا ليَرى المسلمونَ مودَّةَ بعضِ المنافقينَ لبعضٍ؛ فإنَّ المنافقينَ بتَناجيهم يُظهِرونَ أنَّهم طائفةٌ أمرُها واحدٌ، وكلمتُها واحدةٌ[3].

تعيينُ المُخاطَبِ بقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُدرِكُ صفاتِ اللهِ حَقَّ الإدراك

الخطابُ في قولِ الباري جلَّ جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للنَّبيِّ عليه السلام[4]؛ إذ لا يَفهَمُ ذلكَ حقَّ فهمِهِ غيرُهُ[5].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان، ص: 237 - 23/ 236، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 41، 42.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 217.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 25.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.

دلائلُ شمولِ علمِه تعالى ظاهرةٌ لكلِّ عاقل

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يَصلُحُ أنْ يُخاطَبَ[1]، وكلِّ مَنْ تصحُّ منهُ الرُّؤيةُ.

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تقريرُ المُخاطَبِ بسَعَةِ عِلْمِ الله

الاستفهامُ في قولِه جلَّ ذكرُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لإنكارِ النَّفي وتقريرِ المَنْفيِّ، وحاصلُه: قد علمتَ ذلكَ علمًا يقينيًّا. والجملةُ تقريرٌ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6]، واستشهادٌ على شُمولِ علمِه تعالى[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن العِلْمِ بالرُّؤْية:

المَعقولُ الَّذي اتَّضَحَتْ دلائلُهُ يُنزَّلُ مَنزِلَةَ المحسوس

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ علميَّةٌ؛ لأنَّ علمَ اللّهِ تعالى لا يُرَى[3]، والمعنى: ألم تعلمْ، وإنَّما أُطلِقَ لفظُ الرُّؤيةُ على هذا العلم؛ للإشارةِ إلى أنَّ العلمَ بذلكَ لشدَّةِ وضوحِه ووضوحِ الدَّلائلِ عليهِ كالرُّؤيةِ بالعينِ[4]، وأنَّ علمَهُ ﷻ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مُنزَّلٌ منزلةَ المحسوسِ.

غرضُ التَّوكيدِ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

شُمولُ علمِه تعالى يقينيٌّ

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ علمَهُ ﷻ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، وفي ذلكَ مَزيدُ تقريرٍ لشمولِ علمِه تعالى، ودفعٌ لإنكارِ الكفرةِ أن يَسَعَ العالَمَ إلهٌ واحدٌ.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعْليّ:

العِلْمُ الشّامِلُ مَخصوصٌ بهِ تعالى

قُدِّمَ المُسندُ إليهِ على الخبرِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ[1]، والمعنى: أنَّ اللّهَ وحدَهُ يعلمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، وأمّا غيرُهُ فعلمُهُ ضعيفٌ قاصرٌ.

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالة:

العظيم سبحانَهُ مُتَّصفٌ بصفاتِ الكمال

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِهِ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ الكمالِ كلِّها[2]، ومنها العلمُ الشّاملُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، فيناسبُ مقامَ تقريرِ شُمولِ علمِهِ ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

تَعَلُّقُ عِلْمِ اللهِ بكلِّ معلوم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ بالنِّسبةِ للمعلوم[3]؛ بمعنى: أنَّ كلَّ معلوم يَحصُلُ ويتجدَّدُ فعلمُهُ سبحانَهُ يتعلَّقُ بهِ، وإلّا فعلمُهُ سبحانَهُ لا يتجدَّدُ في ذاتِهِ.

دلالةُ ﴿مَا﴾ في المَوضِعَين:

كُلُّ مَعلومٍ تحتَ سُلطانِ عِلْمِ الله

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ موصولةٌ تفيدُ العمومَ، والمعنى: يعلمُ جميعَ ما في السَّماواتِ وجميعَ ما في الأرضِ مِنَ المُبصَراتِ والمسموعاتِ، كُلّياتِ ذلكَ وجُزْئيّاتِهِ، لا يغيبُ عنهُ تعالى شيءٌ منهُ[4].

بَراعةُ التَّغليبِ في استِعمالِ ﴿مَا﴾:

تَغليبُ غيرِ العاقِلِ على العاقِل

في إيثارِ استعمالِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تغليبٌ في الموضعينِ لغيرِ العاقلِ على العاقلِ

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 169، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.

الَّذي تُستعمَلُ فيهِ (مَنْ)[1]؛ لأنَّ غيرَ العاقلِ أكثرُ، وفي ذلك التَّغليبِ أيضًا تَهاوُنٌ بالمعلوماتِ في مَقامِ القُدرةِ والسُّلطانِ.

معنى ﴿فِي﴾ في المَوضِعَين:

السَّماواتُ والأرضُ مَحَلُّ المَعلوماتِ

عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ السَّماواتِ والأرضَ مَحَلٌّ لِما فيهما مِنَ المسموعاتِ والمُبصَراتِ، وغيرِ ذلِكَ ممّا يعلمُهُ اللّهُ ﷻ، والسَّماواتُ والأرضُ أيضًا مِنْ جملةِ معلوماتِه تعالى.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

السَّماواتُ والأرضُ وما فيهما تحتَ سُلطانِ عِلمِه تعالى وقُدرتِه

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لجميعِ أفرادِه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ شمولِ علمِه تعالى للسَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، وذلكَ يَستلزِمُ الحملَ على العمومِ المُستغرِقِ[2].

غرضُ تقديمِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرض):

عِلمُ جميعِ ما في السَّماواتِ أعجَبُ مِن عِلمِ جميعِ ما في الأرضِ

قُدِّمَ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرضِ) في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ شمولَ علمِه تعالى لِما في السَّماواتِ أعجبُ وأدلُّ على القدرةِ؛ لبُعدِها عن المخاطَبينَ وعدمِ إدراكِهم ما فيها مِنَ الأسرارِ والخفايا، كما أنَّ السَّماواتِ أوسعُ وأكبرُ من الأرضِ بكثيرٍ، وما الأرضُ بما فيها إلّا كذَرَّةٍ مُقارَنَةً بالسَّماواتِ وما فيهنَّ.

نكتةُ عطفِ (ما في الأرْض):

عِلمُهُ تعالى لا يَقتَصِرُ على بعضِ الخَلْقِ دونَ بعضٍ

عُطِفَ (ما في الأرْضِ) على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لتأكيدِ شُمولِ علمِه تعالى، وأنَّهُ لا يَقتصِرُ على بعضِ خلقِه دونَ بعضٍ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 499.

سرُّ تكرارِ (ما) في ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

عَظَمةُ المعلوم وكثرتُه دليلٌ على عَظَمةِ علمِ اللهِ سبحانه

لمّا كانَ المقامُ لبيانِ إحاطةِ علمِ اللّهِ وشمولِه لما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أُكِّدَ العمومُ بإعادةِ الموصولِ[1]، فقيلَ: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ولم يُقَلْ: (والأرض).

نكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

إفـرادُ الأرضِ ألْـيَقُ بفصاحةِ القرآن

جُمِعَتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأُفرِدَتِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، ولأنَّ جمعَ الأرضِ: (أرَضونَ) و(أرَضاتٌ) و(أُروضٌ) و(أراضٍ)، والنُّطْقُ بِهِ ثقيلٌ، فلا يُناسِبُ فصاحةَ القرآنِ، فاختيرَ المفردُ الأخفُّ.

براعةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

لا يَـعْـزُبُ عن عِلْمِ اللهِ تعالى مِثقالُ ذَرَّة

جُمِعَ بينَ لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ رعايةً لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ. وفائدتُهُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ الكونَ كلَّهُ مِنْ أعلاهُ إلى أسفلِهِ مشمولٌ بعلمِهِ تعالى، لا يغيبُ عنهُ ﷻ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ ذلكَ.

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾:

ذِكـرُ فَـرْدٍ مِن أفرادِ معلوماتِهِ تعالى

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَهُ مِنْ سَعَةِ علمِهِ تعالى ومبيِّنٌ لكيفيَّتِهِ[2]، وذلكَ بذكرِ فردٍ مِنْ أفرادِ معلوماتِهِ تعالى يخفَى على النّاسِ، وقد يظنُّ الجَهَلَةُ أنَّهُ يخفى على اللّهِ أيضًا.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ:

كلُّ ما يَتَناجَى بِهِ العِبادُ معلومٌ للهِ

القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في الجُملِ الثَّلاثِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ،

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 361.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 218، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 223.

والغرضُ منهُ بيانُ أنَّهُ لا يَعْزُبُ عن علمِ اللّهِ ﷻ شيءٌ ممّا يتناجَى بهِ العبادُ، والاستثناءُ هنا استثناءٌ مِنْ أعمِّ الأحوالِ[1]؛ أي: ما يكونُ مِنْ نجوَى ثلاثةٍ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا هو رابعُهم إلخ.

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ النَّجْوى:

وُجوبُ مُراقبةِ اللهِ ﷻ في كلِّ قولٍ وفِعلٍ

المقصودُ مِنَ الإخبارِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ هو الإنذارُ والوعيدُ[2]، لا إفادةُ مضمونِ الكلامِ فقط، فينبغي على الإنسانِ أنْ يراقبَ اللّهَ ﷻ في كلِّ ما يقولُهُ سرًّا وعلانيةً، وفي كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿مَا يَكُونُ﴾:

اختِلافُ القِراءاتِ بالتَّذكيرِ والتَّأنيث

قرأ أبو جعفرٍ: ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتّاءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿مَا يَكُونُ﴾ بالياءِ[3]. أمّا الأولى فهي على تأنيثِ النَّجوى، وأمّا الثّانيةُ فهي جَرْيٌ على الأصلِ في تذكيرِ الفعلِ؛ لأنَّ النَّجوى مؤنَّثٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ، وللفصلِ بحرفِ الجرِّ الصِّلةِ (مِنْ) بينَ الفعلِ وفاعلِهِ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في ﴿يَكُونُ﴾:

اللهُ تعالى لا يَشغَلُهُ شيءٌ عن شيءٍ

الفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ تامٌّ لا ناقصٌ؛ أي: ما يقعُ[5]، والتَّعبيرُ بالمضارعِ لإفادةِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، وأنَّ أيَّ نجوى تقعُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ فهي معلومةٌ لهُ ﷻ، الَّذي لا يَشغَلُهُ شيءٌ عن شيءٍ، ولا تَختلِطُ عليهِ الأحوالُ والشُّؤونُ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.

(3) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 489، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.

(5) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 447، وأبو حيان، البحر المحيط: 19/ 125.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾:

عُـمومُ النَّجْوى مُؤَكَّد

﴿مِن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مزيدةٌ في فاعلِ ﴿يَكُونُ﴾[1]، والغرضُ منها تأكيدُ العمومِ المستفادِ مِنْ وقوعِ النَّكرةِ - وهي ﴿نَّجْوَىٰ﴾ - في سياقِ النَّفي[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿نَّجْوَىٰ﴾:

النَّجْوَى صادِرةٌ عـن الـثَّـلاثـةِ، والـلـهُ محيـطٌ بذَوي النَّجْوَى

﴿نَّجْوَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مصدرٌ في الأصلِ، فيجوزُ أنْ يكونَ باقيًا على أصلِه، ويكونَ مضافًا لفاعلِه؛ أي: ما يوجَدُ مِنْ تناجي ثلاثةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ على حذفِ مضافٍ؛ أي: مِنْ ذَوي نَجْوَى.

النَّجْوَى مَعلومةٌ للهِ تعالى وإنْ بولِغَ في كَتْمِها

ويجوزُ أنْ يكونَ قد أُطلِقَ على الأشخاصِ المُتَناجينَ مبالغةً[3]، وكأنَّهم نفسُ النَّجْوَى، وفي ذلكَ تنبيهٌ على علمِهِ تعالى بالنَّجْوَى وإنْ بُولِغَ في إخفائِها.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، ومَوقِعُها من الإعراب:

لا تَكمُلُ النَّجْوى إلّا بثالثٍ يَحفَظُ الأُنْـسَ بإدامة الاجتِماع

جُرَّ لفظُ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ بالإضافةِ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ النَّجوى بمعنى المُتَناجينَ، ويكونَ التَّقديرُ: ما يكونُ مِنْ مُتَناجينَ ثلاثةٍ، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ صفةً[4] أو بدلًا. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلًا مِنْ (ذَوي) المحذوفةِ أو صفةً لها على القولِ بتقديرِ (ذَوي)[5]. ولا يخفَى ما في الإضافةِ والوصفِ مِنَ التَّقييدِ والتَّخصيصِ، وما في البدلِ مِنَ الإيضاحِ بعدَ الإبهامِ الَّذي يُقرِّرُ المعنى في النَّفسِ بعدَ تشوُّفِها لمعرفتِه.

وأوثِرَ لفظُ الثَّلاثة؛ لأنَّ "النَّجوى لا تَكمُلُ إلّا بثالثٍ يَحفَظُ الأُنْسَ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268، وابن عادل، اللباب: 18/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 26.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 490، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(5) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 268.

بإدامةِ الاجتماع؛ لأنَّ الاثنين يَنفرِدان عند عُروضِ حاجةٍ لأحدِهما، ويكونان في التَّناجي والتَّشاوُر كالمُتنازِعَين"[1].

بلاغةُ الحالِ في الجُمَلِ الواقعةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾:

لا يَخفَى على اللهِ تعالى خافيَة

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولُه: ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولُه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾، كلُّ هذهِ الجملِ الاسميَّةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ[2]؛ أي: ما يوجَدُ شيءٌ مِنْ هذهِ الأشياءِ إلّا في حالٍ مِنْ هذهِ الأحوالِ، فالاستثناءُ مُفرَّغٌ مِنَ الأحوالِ العامَّةِ[3]. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على شمولِ علمِه تعالى، وأنَّهُ لا يخفَى عليهِ مِنَ المذكورينَ خافيةٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في الجُمَلِ الواقعةِ بعدَ ﴿إِلَّا﴾:

إحاطةُ اللهِ تعالى بأحْوالِهم حقيقةٌ ثابتة

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضامينَ هذهِ الجملِ حقائقُ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تزولُ، وفي ذلكَ مزيدُ مُلاءَمةٍ لمقامِ بيانِ شمولِ علمِه تعالى.

تَوجيهُ كونِه تعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾ و﴿سَادِسُهُمْ﴾:

اللهُ ﷻ مُنزَّهٌ عن المكانِ والمُشاهَدةِ

المرادُ مِنْ كونِه تعالى رابعًا وسادسًا لهم في قولِه سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ كونُهُ تعالى عالمًا بكلامِهم وضميرِهم، وسرِّهم وعَلَنِهم، وكأنَّهُ تعالى حاضرٌ معهم ومُشاهِدٌ لهم، وهو سبحانَهُ مُتَعالٍ عن المكانِ والمُشاهَدةِ[4]. وحُضورُهُ "بعِلْمِه وقدرتِه، كما يكونُ كلٌّ مِن المُتَناجين عالِمًا بنَجْوى البعض، فروحُ النّجوى العلمُ بالسِّرِّ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 362.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 125، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 269.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 276، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 490.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾:

اللهُ تعالى وحدَهُ الوِتْر

"لمّا كانَ الثَّلاثةُ قد يُريدُ أحدُهم أنْ يَنفرِدَ بآخرَ منهم، فيصيرُ الثّالثُ وحدَهُ، فإذا كانوا أربعةً دامَ الأُنْسُ بينَهم، ثمَّ لا يُكمِلُ إلّا بخامسٍ يَحفَظُ الاجتماعَ إذا عَرَضَتْ لأحدِ الاثنينِ حاجةٌ قالَ تعالى: ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾. فالحاصلُ: أنَّهُ ما يكونُ مِنْ وِتْرٍ إلّا كانَ هو ﷻ شافعَ وِتْرِيَّتِهِ، وأمّا وِتْرِيَّتُهُ هو سبحانَهُ فقد كانَتْ ولا شيءَ معها أصلًا، وستكونُ ولا حيَّ معها، فلا وِتْرَ في الوجودِ على الحقيقةِ غيرُهُ"[1].

وجهُ تكريرِ حرفِ النَّفيِ في المَعطوفات:

لا يَفوتُ عِلْمَ اللهِ تعالى شيءٌ يقينًا

تكريرُ حرفِ النَّفي في المعطوفاتِ على المَنْفيِّ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ أسلوبٌ عربيٌّ، ولا سيّما أنّ مع كلِّ معطوفٍ استثناءً[2]، والغرضُ مِنَ التَّكريرِ تأكيدُ النَّفيِ المُستفادِ مِنْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا يَكُونُ﴾[3]، وإفادةُ استقلالِ ما دخلَتْ عليهِ (لا)، و"بيانُ أنَّ النَّفيَ يَشمَلُ الأمرينِ الَّذي قبلَهُ والَّذي بعدَهُ معًا، وكُلًّا منهما على حِدَةٍ"[4].

سرُّ تخصيصِ الثَّلاثةِ والخمسةِ بالذِّكْر:

اللهُ تعالى وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْر

تخصيصُ الثَّلاثةِ والخمسةِ بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ إمّا لخصوصِ الواقعةِ؛ فإنَّ الآيةَ نزلَتْ في تناجي المنافقينَ، وكانوا بهذهِ الأعدادِ، وإمّا لأنَّ اللّهَ تعالى وِترٌ يحبُّ الوترَ، والثَّلاثةُ أوَّلُ أوتارِ العددِ، أو لأنَّ التَّشاوُرَ لا بدَّ لهُ مِن اثنينِ يكونانِ كالمُتنازِعينِ، وثالثٍ يَتوسَّطُ بينَهما[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 283.
(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1922.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194، والنسفي، مدارك التّنزيل، ص: 448 - 3/ 447.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾:

لمّا ذكرَ ﷻ الثَّلاثةَ والخمسةَ على سبيلِ المثالِ عَمَّمَ الحكمَ بعدَ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ممّا ذُكِرَ كالواحدِ والاثنينِ، ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ كالسِّتَّةِ وما فوقَها[1]. وفي ذلكَ دَفْعٌ لتوهُّمِ أنَّ علمَهُ تعالى يُحيطُ بالقليلِ دونَ الكثيرِ.

عِلْمُ اللهِ تعالى مُحيطٌ بالقليلِ والكثيرِ

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ الأدْنى:

المرادُ بالأدنى في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ الأقلُّ، بقرينةِ ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾، فهو مجازٌ؛ لأنَّهُ مِنَ الدَّناءةِ لا مِنَ الدُّنوِّ، والدَّناءةُ أقلُّ مرتبةً، فيرادُ بهِ هنا أقلُّ عددٍ؛ لاشتراكِهما في مطلقِ القلَّةِ، أو مجازٌ مرسلٌ بذكرِ المقيَّدِ وإرادةِ المطلقِ، ثمَّ إرادةِ المقيَّدِ الآخرِ[2].

أقلُّ عددٍ مِنَ المُتَناجينَ يَعلَمُهُ الله

غرضُ تقديمِ الأدنى على الأكثرِ:

قُدِّمَ الأدنى على الأكثرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾؛ لأنَّهُ القليلُ، وهو قبلَ الكثيرِ، وأخفَى منهُ[3]، فقُدِّمَ لبيانِ أنَّ اللّهَ تعالى محيطٌ بهِ على قلَّتِهِ، فما بالُكَ بما هو فوقَهُ؟!

الأخفَى مُقدَّمٌ على الأظْهَرِ

وَجْهُ إفرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أُفرِدَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ مع أنَّهُ راجعٌ إلى الثَّلاثةِ والخمسةِ - وهما أمرانِ لا أمرٌ واحدٌ - لأنَّهُ بتأويلِ المذكورِ؛ أي: ولا أدنى مِنَ الَّذي ذُكِرَ[4].

القِلَّةُ والكَثْرةُ باعتِبارِ المذكورِ سابقًا

تَوجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾:

قرأ يعقوبُ: ﴿وَلَآ أَكۡثَرُ﴾ بالرَّفعِ، وقرأ الباقونَ: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾[5].

أمّا قراءةُ الجمهورِ بالجرِّ فعطفٌ على لفظِ ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ المجرورِ لفظًا

اختِلافُ القِراءاتِ والمعنى واحد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، ص: 219 - 8/ 218.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 501.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 363.
(5) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.

بحرفِ الجرِّ الزّائد، وأمّا قراءةُ يعقوبَ بالرَّفع فعطفٌ على محلِّ ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾؛ لأنَّ المحلَّ رفعٌ على الفاعليَّة، أو عطفٌ على محلِّ (لا) مع اسمِها في قولِهِ سبحانه: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾، بأنْ جُعِلَتْ (لا) لنفي الجنسِ[1]؛ لأنَّ (لا) مع اسمِها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والمعنى على القراءتينِ واحدٌ.

براعةُ الطِّباقِ بينَ الأدنى والأكثرِ:

القليلُ والكثيرُ في علمِ اللهِ تعالى سَواء

في الجمعِ بينَ الأدنى - بمعنى الأقلِّ - والأكثرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، وفائدتُه التَّنبيهُ على أنَّ ما هو في حَدِّ القلَّةِ وما هو في حَدِّ الكثرةِ في علمِ اللّهِ تعالى سواءٌ، فعِلمُهُ سبحانه يَشمَلُ كلَّ شيءٍ.

تَوجيهُ المَعيَّةِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾:

مَعيَّةُ اللهِ لخَلْقِهِ بالعِلمِ والقُدرة

المرادُ بالمعيَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ معيَّةُ العِلمِ؛ أي: أنَّهُ تعالى يعلمُ ما يتناجَونَ به، ولا يخفَى عليهِ ما هم فيه[2]؛ لعلمِهِ ما يَجري منهم، وما يَجري بينَهم، ويَلزَمُ مِن إحاطةِ علمِهِ إحاطةُ قُدرتِه[3].

فائدةُ الظَّرفِ ﴿أَيۡنَ﴾:

كُلُّ الأماكنِ خاضِعةٌ لسُلطانِ عِلمِهِ تعالى

التَّعبيرُ بظرفِ المكانِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ لإفادةِ تعميمِ الأمكنةِ، والمعنى: في أيِّ مكانٍ كانوا ولو تحتَ الأرضِ؛ فإنَّ علمَهُ تعالى بالأشياءِ ليسَ لقُرْبٍ مكانيٍّ حتَّى يتفاوَتَ باختلافِ الأمكنةِ قُرْبًا وبُعْدًا[4]؛ فإنَّه لا مسافةَ بينَهُ وبينَ شيءٍ من الأشياءِ؛ لأنَّه الَّذي خلَقَ المسافةَ. والحاصلُ: أنَّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من العالَمِ وإن بلَغَ في دِقَّتِهِ إلى ما لا ينقسم، وهو شاهدٌ لذلك كلِّه حفظًا، وعلمًا، وإحاطةً، وحضورًا[5].

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 490، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 447.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾:

عِلمُهُ تعالى بعُمومِ الأماكنِ لا ريبَ فيه

﴿أَيۡنَ مَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ مركَّبةٌ مِنْ ﴿أَيۡنَ﴾ الَّتي هي ظرفُ مكانٍ، و﴿مَا﴾ الزّائدةِ[1] الَّتي تُؤكِّدُ العمومَ المستفادَ من ﴿أَيۡنَ﴾، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لَمقامِ بيانِ إحاطةِ علمِه تعالى بمخلوقاتِه.

سِرُّ تَخْصيصِ المكانِ بالذِّكرِ دونَ الزَّمانِ:

عُمومُ المكانِ يَستَلزِمُ عُمومَ الزَّمانِ

ذُكِرَ المكانُ دونَ الزَّمانِ في قولِه ﷻ: ﴿أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾؛ لأنَّ العُمومَ في المكانِ يَستلزِمُ العمومَ في الزَّمانِ، ولأنَّ المكانَ أظهرُ في الحِسِّ[2].

سِرُّ العَطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

لا يَضِلُّ ربّي ولا يَنسَى

اختيرَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ - وهي للتَّراخي الرُّتَبيِّ - لأنَّ تَنْبِئَتَهم يومَ القيامةِ بما تكلَّموا وما عملوا في الدُّنيا أدَلُّ على سَعَةِ علمِ اللّهِ مِنْ علمِه بحديثِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ مُعظَمَ علمِ العالِمينَ يَعتَريهِ النِّسيانُ في مثلِ ذلكَ الزَّمانِ مِنَ الطّولِ وكثرةِ تدبيرِ الأمورِ في الدُّنيا والآخرةِ[3]، أمّا علمُهُ سبحانَهُ فلا يَعتَريهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

وعليه فليس عجبًا أنْ "يَضبِطَ عليهم حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم من أقوالِهم وأفعالِهم وأحوالِهم، ويَحفَظَها على طولِ الزَّمانِ، كما كان حافظًا لها قبلَ خَلْقِها في أزَلِ الأزَلِ"[4].

غرضُ الإخبارِ بـ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ التَّناجي بما يُخالِفُ الشَّرْع

الإخبارُ بقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فيهِ وعيدٌ لهم بأنَّ نَجْواهم إثمٌ عظيمٌ، فنُهيَ عنها، ويَشمَلُ هذا تحذيرَ مَنْ يُشارِكُهم[5]، وذلكَ أنَّ هذهِ التَّنْبِئَةَ للتَّنديمِ وزيادةِ التَّقريعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 364.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 27.

والتَّوبيخ على مرأًى ومَسْمَعٍ مِنْ أهلِ المحشرِ، فيكونُ ذلكَ أنكَى وأشدَّ إيلامًا لهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ مُضارِعًا مُضعَّفَ العَين:

أنْبـاءُ الآخـرةِ عظيمةُ الشَّأنِ

اختيرتِ التَّنبئةُ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دونَ غيرِها مِنَ (الإخبارِ والإعلامِ ونحوِ ذلكَ)؛ لأنَّ النَّبأ في الأصلِ هو الخبرُ عظيمُ الشَّأنِ، فيفيدُ الكلامُ تعظيمَ شأنِ أخبارِ الآخرةِ، والمعنى: يُخبِرُ أصحابَها إخبارًا عظيمًا[2]، فيكونُ ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ قد أفادَ المبالغةَ في الإخبارِ بمادَّتِهِ وصيغتِهِ الَّتي جاءَتْ بتضعيفِ العين.

التَّنْبِئَةُ لم تَقَعْ بـعـدُ، وهـي حـدَثٌ عظيمٌ مُخيف

وعُبِّرَ عن التَّنْبِئَةِ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّها أمرٌ مستقبَليٌّ يقعُ يومَ القيامةِ كما صرَّحَتْ بذلكَ الآيةُ، والمضارعُ يَصلُحُ للدَّلالةِ على الاستقبالِ، وقد تعيَّنَ لذلكَ هنا بالقرينةِ. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ المُضارَعةُ لتصويرِ التَّنبئةِ بصورتِها العظيمةِ الَّتي تُربّي المهابةَ في النُّفوسِ، وتُقَوّي التَّرهيبَ والوعيدَ.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

العَمَلُ مُتعلَّقُ التَّنبِئَة

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِه الثّاني، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أعمالَهم هي مُتعلَّقُ التَّنبئةِ والإخبارِ.

دلالةُ (ما) في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

سُرعةُ حِسابِه تعالى وسَعَةُ عِلْمِه

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ موصولةٌ وعائدُها محذوفٌ؛ أي: بالَّذي عَمِلوهُ، والمرادُ منها إفادةُ العمومِ، فيفيدُ الكلامُ التَّنبِئةَ بجميعِ الأعمالِ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على سَعَةِ علمِهِ تعالى وسرعةِ حسابِهِ لخلقِهِ.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 11.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.

دلالةُ الماضي في ﴿عَمِلُوٓاْ﴾:

الحياةُ الدُّنيا دارُ السَّعيِ والعَمَل

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ : ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ لأنَّ التَّنبِئةَ تكونُ بأعمالٍ صدرَتْ عنهم في الحياةِ الدُّنيا الَّتي هي دارُ العملِ، وقد مَضَتْ هذهِ الأعمالُ وانقَضَتْ، وفي الماضي إيماءٌ إلى تحقُّقِ صدورِها عنهم، وأنَّهُ أمرٌ لازمٌ لهم، فلا يَسَعُهم الإنكارُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعَمَلِ دونَ غيرِه:

لا عُذْرَ لِمَنْ عَمِلَ بقَصْدِهِ وإرادتِهِ في التَّبرُّؤِ مِن عَمَلِه

عُبِّرَ بالعَمَلِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ (الفعلِ والصُّنعِ ونحوِهما)؛ لأنَّ العملَ ما يكونُ بقصدٍ مِنَ العاملِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ما صدرَ عنهم في الدُّنيا ونُبِّئوا بهِ قد صدرَ بإرادتِهم، وفي ذلكَ مزيدُ تسجيلٍ عليهم وقطعٌ لمَعذِرَتِهم.

بلاغةُ التَّقييدِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

يومُ القيامةِ يومُ الحسابِ والجَزاء

قُيِّدَتِ التَّنبِئةُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، لأنَّهُ يومُ الحسابِ والجزاءِ، وهو المرادُ الأعظمُ مِنَ الوجودِ؛ لإظهارِ الصِّفاتِ العُلا فيهِ أتمَّ إظهارٍ[1]، وفي ذكرِهِ مِنَ المَهابةِ والتَّهويلِ والتَّرويعِ ما لا تحيطُ بهِ العبارةُ.

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ الفاصِلة:

مَنْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْمًا نَبَّأ العامِلينَ بأعمالِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تذييليٌّ تعليليٌّ لهُ ومُؤكِّدٌ لهُ؛ فتَنبِئَتُهم بما عملوا إنَّما تكونُ مِنَ العليمِ بكلِّ شيءٍ [2].

نكتةُ توكيدِ جُملةِ الفاصِلة:

عِلمُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ مَحَطُّ الاهتمامِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للاهتمامِ بهِ، وإلّا فإنَّ المخاطَبَ - وهو النَّبيُّ ﷺ - لا يَتَردَّدُ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.

في ذلكَ[1]. وأمّا إنْ كانَ الخِطابُ لكلِّ مَنْ تَتَأتَّى منهُ الرُّؤيةُ فيُحتمَلُ أنْ يكونَ التَّوكيدُ للاهتمامِ ودفعِ إنكارِ مَنْ يُنكِرُ ذلكَ منهم.

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ الفاصِلة:

مَنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ مُحيطٌ بهِ التزَمَ شَرْعَهُ وأحكامَه

الإخبارُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للتَّحذيرِ مِنَ المعاصي والتَّرغيبِ في الطّاعاتِ[2]، لا لمُجرَّدِ الإخبارِ؛ إذ المُخاطَبُ يَعلَمُ أنَّ اللّهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، وهذا التَّعريضُ بالوعيدِ يَدُلُّ على أنَّ النَّهيَ عن التَّناجي كانَ سابقًا على نزولِ هذهِ الآيةِ والآياتِ بعدَها[3].

سرُّ إظهارِ اسمِ الجَلالةِ:

مَنْ قَدَرَ العظيمَ حَقَّ قَدْرِهِ خافَهُ وأطاعَهُ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، ولكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتربيةِ المَهابةِ وتقويةِ الوعيدِ والتَّحذيرِ الَّذي يشتملُ عليهِ الكلامُ، فضلًا عمّا يدلُّ عليهِ اسمُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ. يُزادُ على ذلكَ ما في الإظهارِ مِنْ تأكيدِ استقلالِ الجملةِ التَّذييليَّةِ الجاريةِ مَجْرَى الأمثالِ.

معنى الباءِ في ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

عِلْمُ اللهِ تعالى مُتعلِّقٌ بكلِّ شيءٍ

الباءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للتَّعديةِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ﴿عَلِيمٌ﴾، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ الأشياءَ هي مُتعلَّقُ علمِهِ تعالى.

نكتةُ إضافةِ (كلّ) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

تأكيدُ سَعَةِ عِلْمِهِ تعالى تأكيدًا بعدَ تأكيدٍ

إضافةُ (كلّ) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لتأكيدِ عُمومِ كلمةِ ﴿شَيۡءٍ﴾، وبيانِ شمولِها لِما ذُكِرَ وما لم يُذكَرْ؛ لأنَّ نسبةَ ذاتِهِ المُقتضيةِ للعلمِ إلى الكلِّ سواءٌ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ص: 491 - 29/ 490.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.

غرضُ تقديمِ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

بيانُ شمولِ عِلمِهِ تعالى أولى وأنسَبُ للمَقام

قُدِّمَ القيدُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على الخبرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم الَّذي يَتَعَلَّقُ به عِلمُ اللّهِ ﷻ، والمسارعةِ في إثباتِ هذا التّعلُّق، وذلكَ أنسبُ لمقامِ الإخبارِ بإحاطة علمِهِ سبحانَهُ[1]، ولِما في تأخيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ رِعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

نكتةُ صيغةِ (فَعيلٍ) في ﴿عَلِيمٌ﴾:

اتِّصافُهُ تعالى بالعِلْمِ اتِّصافًا بليغًا

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بالعلم؛ أي: بالغُ العلم، فهو ﷻ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ[2]، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

بلاغةُ افتِتاحِ الآيةِ واختِتامِها بالعِلْمِ:

التَّنْصيصُ على سَعَةِ عِلْمِ اللهِ في الفاتِحةِ والخاتِمة

مِنْ لطائفِ هذهِ الآيةِ أنَّها افتُتِحَتْ بذكرِ العلمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، واختُتِمَتْ بذكرِهِ أيضًا في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[3]، وفي ذلكَ مِنْ تأكيدِ سَعَةِ علمِهِ تعالى ما لا يخفَى، وفيهِ أيضًا تجاذُبُ أطرافِ الكلامِ، وأخْذُ بعضِها بحُجَزِ بعضٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّجْوَى والسِّرّ:

الكلامُ الخَفيُّ الَّذي يكونُ بينَ النّاسِ لا يَخفى على الله سبحانه

النَّجْوَى: الكلامُ الخَفيُّ الَّذي تُناجي بهِ صاحبَكَ، كأنَّكَ ترفعُهُ عن غيرِهِ، والسِّرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النَّفسِ[4]. وقد عُبِّرَ بالنَّجْوى هنا؛ لأنَّ المرادَ الكلامُ الخَفيُّ الدّائرُ بينَ اثنينِ فأكثرَ، لا الكلامُ الخَفيُّ في النَّفْسِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 366.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 219.
(4) العسكري، الفروق: 1/ 533.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾ [المجادلة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حالِ الَّذينَ نُهوا عن النَّجْوى

بيَّنَ اللهُ ﷻ في هذهِ الآيةِ حالَ أولئكَ الَّذينَ نُهوا عن النَّجوى[1]، وذكَرَ أنَّهم خالَفوا النَّهيَ.

ذِكْرُ دليلٍ جُزْئيٍّ على سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى

ولمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ الآيةَ دليلًا على سَعَةِ علمِ اللهِ تعالى الَّذي تَتعذَّرُ الإحاطةُ بهِ دَلَّلَ عليهِ بأمرٍ جُزْئيٍّ واقعٍ بعِلْمِ المُحدَّثِ عنهُ حقيقةً[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُهُواْ﴾: (نهي) أصلٌ يدلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ، ومنهُ قولُكَ: أنهيتُ إليهِ الخبرَ؛ أي: بلَّغتُهُ إيّاهُ، ونهايةُ كلِّ شيءٍ: غايتُهُ، ويقالُ: نَهَيْتُهُ عن كذا، فإذا انتهَى فذلكَ غايةُ ما كانَ وآخِرُهُ[3]، والنَّهيُ: الزَّجْرُ عن الشَّيءِ، والانتهاءُ: الانزِجارُ عمّا نُهيَ عنهُ[4]. والمرادُ هنا الزَّجرُ عن النَّجوى ومنعُها.

2) ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: (عدو) أصلٌ يدلُّ على تجاوزٍ في الشَّيءِ وتقدُّمٍ لِما ينبغي أنْ يُقتصَرَ عليهِ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: عدا يَعْدو عَدْوًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 491.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نهي).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).

وعُدْوانًا، إذا تجاوزَ ما حُدَّ لهُ[1]، والعُدوانُ أيضًا: الإخلالُ بالعدالةِ في المعاملةِ[2]. والمرادُ هنا: إفراطُهم ومجاوزتُهم الحدَّ في قصدِ إلحاقِ الشَّرِّ بالمؤمنينَ، وتدبيرِ المكائدِ لهم[3].

3) ﴿وَمَعْصِيَتِ﴾: (عصي) أصلٌ يدلُّ على الفُرقةِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: شقَّ عصا المسلمينَ؛ أي: فارقَ جماعتَهم[5]، ويقالُ: عصَى عصيانًا، إذا خرجَ عن الطّاعةِ[6]. والمرادُ هنا: مخالفتُهم ما يأمرُهم بهِ النَّبيُّ ﷺ[7].

4) ﴿حَيَّوْكَ﴾: أصلُ التَّحيَّةِ مِنَ الحياةِ، وهي أنْ يقالَ على سبيلِ الدُّعاءِ: حيّاكَ اللهُ؛ أي: جعلَ لكَ حياةً[8]، ثمَّ استُعمِلَتْ في مُطلَقِ الدُّعاءِ والثَّناءِ عندَ اللِّقاءِ وإنْ لم يكنْ بلفظِ الحياةِ[9]، وغُلِّبَتْ على سلامِ النّاسِ بعضِهم على بعضٍ[10]، وعلى الكلامِ الَّذي يُخاطَبُ بهِ عندَ ابتداءِ الملاقاةِ[11]. والمرادُ بتحيَّتِهم هنا: قولُ اليهودِ للنَّبيِّ ﷺ عندَ السَّلامِ عليهِ: السّامُ - أي: الموتُ - عليكَ، يوهِمونَ أنَّهم يقولونَ: السَّلامُ عليكَ، أو هي قولُ بعضِ المنافقينَ: أنعِمْ صباحًا، بدلَ التَّحيَّةِ بالسَّلامِ[12].

5) ﴿حَسْبُهُمْ﴾: (حسب) أصلٌ يدلُّ على العدِّ[13]، والحسابُ: استعمالُ العددِ، والحسيبُ والمُحاسِبُ: مَنْ يُحاسِبُكَ، و(حَسِبَ) يُستعمَلُ في معنى الكفايةِ[14]. والمرادُ هنا: كافيهم مِنَ العذابِ جهنَّمُ[15].

---

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عدو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عدو).
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصي).
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، والزمخشري، أساس البلاغة: (عصي).
(6) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عصي).
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.
(8) الرّاغب، المفردات: (حيي).
(9) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيي)، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 51.
(10) الزّبيدي، تاج العروس: (حيي).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 51.
(12) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 503.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسب).
(15) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.

6) ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾: (صلي) أصلٌ يدلُّ على النّارِ وما أشبهَها مِنَ الحُمَّى[1]، والصَّلْيُ: الإيقادُ بالنّارِ، يقالُ: صَليَ بالنّارِ، واصطلَى بها، وصَلَيْتُ الشّاةَ: شَوَيْتُها، فهي مَصْليَّةٌ[2]. والمرادُ هنا: أنَّهم يذوقون جهنَّمَ ويُقاسونَ حَرَّها[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

سوءُ عاقبةِ مَنْ يُصِرُّ على التَّناجي بما يُخالِفُ الشَّرْعِ

يُخاطِبُ اللّهُ تعالى رسولَهُ مُعجِّبًا لهُ مِنْ حالِ اليهودِ والمنافقينَ الَّذينَ نُهوا عن التَّناجي دونَ المؤمنينَ، وعن النَّجوى الَّتي تُفضي إلى الإثم، ثمَّ يرجعونَ لِما نُهوا عنهُ، ويُصِرّونَ عليه، ويتناجَونَ بما هو إثمٌ وعدوانٌ على غيرِهم ومُخالَفةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وإذا جاؤوا الرَّسولَ حَيَّوهُ بغيرِ تحيَّةِ اللّهِ، فيقولونَ لهُ: السّامُ عليكَ، يريدونَ الموتَ، أو يقولونَ لهُ: أنعِمْ صباحًا، ونحوَ ذلكَ، ويَعدِلونَ عن السَّلامِ الَّذي هو تحيَّةُ الإسلامِ، ثمَّ يقولونَ فما بينَهم استخفافًا وتكذيبًا: لو كانَ رسولًا لعذَّبَنا اللّهُ بسببِ ما نقولُ لهُ. ثمَّ أخبرَ ﷻ أنَّ جهنَّمَ مآلُ هؤلاءِ، وهي كافيةٌ جِدَّ الكفايةِ لعذابِهم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الآيةَ:

بيانُ استمرارِ المُنافقينَ على نَجْواهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو الكلامُ على استمرارِ المنافقينَ على نَجْواهم[5].

تعيينُ المُخاطَبِ في جُملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ هو المُبَلِّغُ للوَحْي

الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ للرَّسولِ ﷺ[6]؛ إذ هو المُكلَّفُ الأوَّلُ، ومُبلِّغُ الوحيِ إلى أمَّتِهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلي).
(2) الرّاغب، المفردات: (صلي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 12.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 220.

افتِضاحُ أمرِ المُنافقينَ المُصِرّينَ على النَّجْوى

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ المذكورةُ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على افتِضاحِ أمرِ المنافقينَ الَّذينَ يُصِرّونَ على النَّجوى، بحيثُ يصحُّ أنْ يُعجَّبَ مِنْ حالِهم كلُّ أحدٍ.

بلاغةُ الاستِفهامِ في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

حالُ المُنافقينَ المُصِرّينَ على النَّجْوى عجيب

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ لتعجيبِ المخاطَبِ مِنْ حالِ المنافقينَ الَّذينَ يُصِرّونَ على النَّجوى مع أنَّهم نُهوا عنها[1]. وفيهِ توبيخٌ لهم حينَ يسمعونَهُ[2].

سِرُّ تكرارِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

أهمّيَّةُ التَّنبيهِ على إصرارِ المُنافقينَ على النَّجْوى

كُرِّرَ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مع تقدُّمِه في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للتَّأكيدِ على استقلالِ ما بعدَهُ وأهمّيَّتِه، والتَّنبيهِ على أنَّهُ حَريٌّ بأنْ يُعلَمَ عِلْمًا مُستقلًّا، وأنَّهُ ليسَ تابعًا لغيرِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ:

تَنْزيلُ المعلومِ منزلةَ المَرْئيِّ المَحسوسِ المُشاهَدِ

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ بصريَّةٌ، بقرينةِ تعديتِها بالحرفِ ﴿إِلَى﴾[3]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ عِلْميَّةً، والمعنى: ألم تعلمْ علمًا هو كالرُّؤيةِ[4]، وفي ذلكَ تنزيلٌ للمعلومِ منزلةَ المَرْئيِّ المحسوسِ المُشاهَدِ.

دلالةُ ﴿إِلَى﴾ في ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ﴾:

سُفولُ رُتبةِ مَنْ يُخالِفُ الشَّرْع

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ المجازيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ فيه تنبيهٌ على سُفولِ رُتبةِ المَرْئيِّ المُشاهَدِ بإبعادِهِ عن أعلى النّاسِ قدرًا[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 502.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 29.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 502، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 29.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مَناطُ التَّعجيبِ الاستِمرارُ على المُخالَفةِ بعدَ النَّهي

جيءَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على مَدارِ التَّعجيبِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وهو نَهْيُهم عن النَّجوى واستمرارُهم عليها، ولاستهجانِ التَّصريحِ بأسمائِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ ﴿نُهُواْ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

لا عُذرَ لمَن يُخالِفُ نَهيَ الشّارعِ عن النَّجوى المُحرَّمة

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ النَّهْيِ عن النَّجوى، وأنَّهُ قد بَلَغَهم، وسَمِعوهُ ووَعَوْهُ، فلا عُذرَ لهم في استمرارِهم على نَجْواهم.

العاقلُ يَحترِزُ مِنَ الوُقوعِ في الإثم

وأوثِرَتْ صيغةُ البناء للمفعولِ؛ للإشعارِ بالعموم، وأنَّ كلَّ مَنْ رآهم في نَجْواهم زَجَرَهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ إذا زُجِرَ عن شيءٍ انزَجَرَ عنهُ وتركَهُ بصَرْفِ النَّظرِ عن الزّاجرِ، حتّى يتبيَّنَ لهُ أنَّ الفعلَ مأمونُ العاقبةِ[1].

الشّارعُ هو الآمِرُ النّاهي

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ لتَعَيُّنِ النّاهي، وهو الشّارعُ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِهِ ببيانِ أنَّ النَّهيَ لا يُتَصَوَّرُ مِنْ سواهُ؛ لأنَّهُ مصدرُ الأحكامِ.

دلالةُ ﴿عَنِ﴾ في ﴿نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، وفي ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

النَّجوى المُحرَّمةُ مُتعلَّقُ النَّهْي

﴿عَنِ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ في الموضعينِ للمُجاوَزةِ المجازيَّة، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ الابتعاد عن النَّجوى، ووجوب مُجاوَزَتِها لِما يُرضي اللّهَ ﷻ؛ لأنَّها مُخالِفةٌ للشَّرعِ؛ إذ هي مُتعلَّقُ النَّهيِ[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾:

النَّجوى المَنهيُّ عنها هي المَصحوبةُ بالإثم

تعريفُ النَّجوى في قولِهِ ﷻ: ﴿نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها النَّجوى المقترنةُ بالإثم، والنَّجوى الَّتي تَحزُنُ الَّذينَ آمنوا، والقرينةُ على ذلك سياقُ الكلامِ الآتي[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.

(2) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1923.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 29.

ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجنسِ، وذلكَ بأنْ يكونَ النَّهيُ في أوَّلِ الأمرِ عامًّا لكلِّ نَجْوى بمرأًى مِنَ النّاسِ؛ سدًّا للذَّريعةِ، فلمّا فشا الإسلامُ وآمنَ النّاسُ زالَ هذا الحكمُ لزوالِ سببِهِ، فرُخِّصَ في النَّجوى الَّتي تكونُ للأمرِ بالمعروفِ والصَّدقةِ وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ[1].

التَّرخيصُ في النَّجوى الَّتي لا إثمَ فيها بعدَ النَّهيِ عن الجِنْس

سِرُّ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ للتَّراخي الرُّتَبيِّ، والغرضُ الدَّلالةُ على أنَّ عودتَهم إلى النَّجوى بعدَ أنْ نُهوا عنها أعظمُ مِن ابتدائِهم إيّاها؛ لأنَّ ابتداءَها كانَ إثمًا؛ لِما اشتملَتْ عليه نَجْواهم مِنْ نوايا سيِّئةٍ نحوَ النَّبيِّ ﷺ والمسلمينَ، وأمّا عودتُهم إلى النَّجوى بعدَ أنْ نُهوا عنها فقد زادوا بها تمرُّدًا على النَّبيِّ ﷺ ومُشاقَّةً للمسلمينَ[2].

الرُّجوعُ إلى النَّجوى بعدَ النَّهيِ عنها أعظمُ مِن ابتدائِها

أو لأنَّ العَوْدَ إلى ما نَهَى عنهُ العظيمُ ﷻ مُستبعَدٌ غايةَ الاستبعادِ، فعُبِّرَ بأداةِ التَّراخي[3]، فتكونُ ﴿ثُمَّ﴾ دالَّةً على معنى الاستبعادِ.

العَوْدُ إلى ما نَهَى عنهُ العظيمُ مُستبعَد

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ في ﴿يَعُودُونَ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العَوْدِ وتَجَدُّدِهِ[4]؛ أي: يُكرِّرونَ العَوْدَ بحيثُ يريدونَ بذلكَ العصيانَ وقلَّةَ الاكتراثِ بالنَّهيِ؛ فإنَّهم لو عادوا إلى النَّجوى مرَّةً أو مرَّتينِ فقطْ لاحتَمَلَ حالُهم أنَّهم نَسوا[5]، ولاستِحضارِ صورةِ العَوْدِ العجيبةِ[6]؛ لتعجيبِ السّامعينَ مِنها وحَثِّهم على استِهجانِها واستِفظاعِها.

إصرارُ المُنافِقينَ على ما هو شَنيعٌ ومُستهجَنٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 28.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 367.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 220.

معنى اللّامِ في ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

ارتكابُ المَنْهيِّ عنهُ غايةُ المُتناجينَ المذكورين

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ بمعنى (إلى)، ومعناها انتهاءُ الغايةِ المكانيَّة[1] على سبيل المجاز، وأصلُ اللّام هو التَّعليلُ، فيرادُ في فعلِ العَوْدِ هنا معنًى يناسبُهُ حرفُ التَّعليلِ، والتَّقديرُ: ثمَّ يُريدونَ العَوْدَ لأجلِ ما نُهوا عنهُ[2]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِهم؛ إذ جَعَلوا ارتكابَ ما نُهوا عنهُ غايةً لهم يَسعَونَ إليها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (ما):

الإصرارُ على ارتكابِ المَنْهيِّ عنهُ سَفَهٌ وسببٌ للعذاب

قولُهُ تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ معناهُ: للنَّجوى، وقد عُدِلَ عن الإتيانِ بضميرِ النَّجوى إلى الموصولِ وصلتِهِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِنَ التَّعليلِ لِما بعدَها مِنَ الوعيدِ بقولِهِ تعالى: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ الآية، مع ما في الصِّلةِ أيضًا مِنَ التَّسجيلِ على سَفَهِهم[3]، حيثُ لم يُعِدّوا عُدَّةً لِما يُتَوَقَّعُ مِنْ جهةِ النّاهي مِنَ الضَّررِ[4].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ بذِكْرِ المُخالَفةِ إجمالًا وتفصيلًا

قولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ داخلٌ في حكمِهِ[5]، وهو بمنزلةِ التَّفسيرِ والبيانِ للعَوْدِ المذكورِ، وفيهِ مزيدُ تقبيحٍ لصَنيعِهم بذكرِ مُخالَفتِهم بإجمالٍ ثمَّ بتفصيلٍ.

دلالةُ صيغةِ المُضارِعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾:

مَنْ ضَرِيَتْ نفسُهُ بالتَّناجي المُحرَّمِ واظَبَ عليه

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنهم يَرتكِبون التَّناجيَ المحرَّمَ على

(1) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين، ص: 1923.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30، 28/ 18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.
(4) البقاعي، نظم الدّرر، ص: 368 - 19/ 367.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 220.

سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ[1]؛ لأنَّ نفوسَهم قد ضَرِيَتْ به، ولتصويرِ التَّناجي المذكورِ بصورتِه العجيبةِ الَّتي تَستَدعي التَّعجُّبَ والإنكارَ.

توجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾:

تَعَدُّدُ القِراءاتِ والمعنى واحدٌ

قرأ حمزةُ ورويسٌ: ﴿وَيَنتَجُونَ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾[2].

أمّا القراءةُ الأولى فهي من (انتجى) على وزن (افتعَلَ)، وأمّا الثّانية فهي مِن (تناجى) على وزن (تفاعَلَ).

والمُتتبِّعُ لمَعاني صيغ الزَّوائد في كتب الصَّرف يجدُ أنَّ هاتين الصّيغتين تدلّان على معنًى واحد من حيث أصلُ الاشتقاق، إلّا أنَّ بينهما فرقًا دقيقًا، وهو أنَّ صيغة (افتعل) من معانيها المطاوعةُ، مثل: أحرقتُهُ فاحترَقَ، وقرَّبتُهُ فاقترَبَ، أمّا صيغةُ (تفاعل) فمعناها الأوَّلُ هو المشاركةُ بينَ عدَّةِ أطرافٍ.

ومِن هنا نفهمُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيَنتَجُونَ﴾ فيه معنى المُطاوعة، بحيث يوسوِسُ أحدُ الحاضرين لَمَن حولَهُ بالنَّجوى، فيُطاوعونه فيها وينتجون معه، أو أنَّ الشَّيطانَ هو الَّذي يوسوسُ لهم بالنَّجوى فيطاوعونه بذلك، ففيها دلالةٌ على مطاوعةِ المُتناجين بعضِهم لبعضٍ، وكأنَّ أحدَهم هو رأسُ الفتنةِ فيه، والباقون تبعٌ له.

ونفهمُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾ فيه معنى المُفاعَلة والمشاركةِ، فكلُّهم في النَّجوى مشتركون مِن دونِ معرفة المُتسبِّب فيها، واللهُ تعالى أعلم.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾:

المُتَناجونَ المذكورونَ مُلابِسونَ للإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ

الباءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ للملابسةِ؛ أي: يتناجَونَ ملابِسينَ الإثمَ والعُدوانَ ومعصيةَ الرَّسولِ، وهذهِ الملابسةُ متفاوتةٌ؛ فملابسةُ الإثمِ والعُدوانِ ملابسةُ المُتناجَى

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368.

(2) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.

بِهِ لفعلِ المناجينَ، وملابسةُ معصيةِ الرَّسولِ ﷺ ملابسةُ المقارنةِ للفعلِ؛ لأنَّ نَجْواهم بعدَ أنْ نهاهم عنها النَّبيُّ ﷺ معصيةٌ[1].

ويجوزُ أن تكون الباءُ للاستعانة[2]؛ بمعنى أنَّهم تناجَوا مستعينين بالإثم والعدوان.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإثمِ:

عُبِّرَ بالإثم في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾؛ لدلالتِهِ على أنَّهم في تناجيهم متلبِّسونَ بشيءٍ يجرُّ عليهم العذابَ وسوءَ العاقبةِ، وهذا الشَّيءُ هو الكذبُ والظُّلمُ ونحوُهما[3].

تَناجي المُنافقينَ مَجْلَبةٌ للعذابِ وسوءِ العاقبة

دلالةُ تعريفِ الإثمِ والعُدوانِ:

يَحتملُ الإثمُ والعُدوانُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وجهين:

غايةُ المُتناجينَ المذكورينَ الإضرارُ بالإسلامِ وأهلِهِ

أحدُهما: أنَّهما مخالفتُهم للرُّسلِ في النَّهيِ عن النَّجوى؛ لأنَّ الإقدامَ على المنهيِّ يوجبُ الإثمَ والعُدوانَ، لا سيَّما إذا كانَ ذلكَ الإقدامُ لأجلِ إظهارِ التَّمرُّدِ.

والثّاني: أنَّهما السِّرُّ الَّذي كانَ يجري بينَهم؛ لأنَّهُ إمّا مكرٌ وكيدٌ بالمسلمينَ وإمّا شيءٌ فيهِ مَساءةٌ لهم[4]. وأيًّا ما كانَ فتعريفُهما للعهدِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ تعريفُهما للجنسِ، والمرادُ جنسُ الإثمِ والعُدوانِ، فيشملانِ ما ذُكِرَ وغيرَهُ، وهذا أبلغُ في ذمِّهم.

نكتةُ عطفِ العُدوانِ على الإثمِ:

لمّا ذُكِرَ المُطْلَقُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أُتبِعَ بذكرِ المقيَّدِ بالشِّدَّةِ، فقيلَ: ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[5]، وذلكَ أنَّ العُدوانَ إثمٌ عظيمٌ شديدٌ.

تهالُكُ المُتناجينَ في الكيدِ للمسلمينَ والإفراطُ في قَصدِ أذاهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30 - 31.
(2) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1923.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 224.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 491.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368.

وعُبِّرَ بلفظ العُدوانِ؛ لدلالتِهِ على إفراطِهم ومجاوزتِهم الحدَّ في قصدِ إلحاقِ الشَّرِّ بالمؤمنينَ، وتدبيرِ المكائدِ لهم[1].

نكتةُ عطفِ ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

المنافقونَ يَترقَّونَ في العصيانِ ويبالغونَ فيه

لمّا كانَ كلٌّ مِنَ الإثم والعُدوانِ شرًّا في نفسِه أُتبِعَ بالإشارةِ إلى أنَّ الشَّيءَ يتغيَّرُ وصفُهُ بالنِّسبةِ إلى مَنْ يُفعَلُ معَهُ، فيَكبُرُ بِكِبَرِ المعصيِّ، فقيلَ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾[2]، وفي ذلكَ نوعٌ مِنَ التَّرقّي في بيانِ غُلوِّهم في العصيانِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمعصيةِ:

مُخالَفةُ المنافقينَ أمْرَ النَّبيِّ ﷺ

عُبِّرَ بلفظِ المعصيةِ؛ لدلالتِها على مخالفتِهم ما يأمرُهم بِهِ النَّبيُّ ﷺ، ومِنْ جملةِ ذلكَ أنَّهُ نهاهم عن النَّجوى وهم يعودونَ لها[3].

سرُّ الإضافةِ والتَّعبيرِ بالرِّسالةِ في ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

عِظَمُ المعصيةِ على قَدْرِ عِظَمِ المَعْصيِّ

في إضافةِ المعصيةِ إلى الرَّسول مع التَّعبيرِ عن النَّبيِّ ﷺ بعُنوانِ الرِّسالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ تقبيحٌ لأمرِ هذه المعصيةِ واستعظامٌ لها[4]؛ لأنَّها معصيةٌ للنَّبيِّ ﷺ الَّذي تجبُ طاعتُهُ ومتابعتُهُ، وعِظَمُ المعصيةِ يكونُ على قَدْرِ عِظَمِ المَعْصيِّ.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ:

تَفْخيمُ شأنِ النَّبيِّ ﷺ بعدمِ ذِكرِ المعصيةِ في خِطابِه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ومعصيتِكَ)؛ إذ السّياقُ للخطابِ، وإنَّما عُدِلَ إلى الغَيبةِ في قولِهِ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لإفادةِ ما سبقَ مِنْ نكتةِ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرِّسالةِ، وبعدَ ذلكَ عادَ السّياقُ إلى الخطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾[5]، وذلكَ تفنُّنٌ مشهورٌ يُسمَّى الالتفاتَ، وفيهِ تجديدٌ لنشاطِ السّامعِ. وإظهارٌ لقبح

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368.

(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 30.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 169.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368.

فعلهم؛ إذ يَعصون مُرسَلًا لا أيَّ شخص؛ ذلك أنَّ معصيته معصيةٌ للمُرسِل ﷻ.

يضافُ إلى ذلك أنَّ في الالتفاتِ هنا تفخيمًا وتعظيمًا لشأنِ النَّبيِّ الكريم ﷺ على عادةِ القرآنِ في إعلاءِ قَدْرِ نبيِّه وتعظيمِهِ إذا ذُكِرَ فيه؛ إذ لو قيل: (ومعصيتك) لربَّما أدّى إلى إيذاءِ مَشاعِرِ النَّبيِّ ﷺ ومَساءتِه، فعَدَلَ عن الخِطابِ في ذكرِ المعصية، ثمَّ رجَعَ إليه في ذكرِ المجيءِ والتَّحيَّة؛ إذ لا يُجمَعُ بين كافِ الخطاب الشَّريف وبينَ لفظِ المعصية.

غرضُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولِۖ﴾:

عصيانُ المُنافقين لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ مَعَ يقينِهم بِصدقِه

تعريفُ ﴿ٱلرَّسُولِۖ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بهِ رسولٌ مخصوصٌ معهودٌ معروفٌ، وهو نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، وفي ذلك تسفيهٌ لهم وتقبيحٌ لفعلِهم؛ لأنَّهم يعرفون الرَّسولَ حقَّ المعرفةِ ويوقِنون بصدقِهِ، ومع ذلك يَعصونه، وهذا من أشنعِ الأفعالِ وأقبحِ الخِصال.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾:

جَمَعَ المُنافِقونَ الخُبْثَ في الحُضورِ وفي الغَيبة

مناسبةُ عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ على ما قبلَهُ أنَّهُ ﷻ بعدَ أنْ ذكرَ حالَهم عندَ اختلاءِ بعضِهم ببعضٍ ذكرَ حالَ نيّاتِهم الخبيثةِ عندَ الحضورِ في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ[1]، وفي ذلك بيانٌ لحالهم البغيضِ في الجمعِ بينَ كيدِهم ومكرِهم في بُعدِهم عن رسولِ ﷺ وفي حضرتِه عليه الصلاة والسلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

حِرصُ المنافقين على إظهارِ إسلامِهم والاطِّلاعِ على أحوالِ المسلمين

أوثِرَتْ (إذا) دونَ (إنْ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ كثيرِ الحصولِ، وهو جَليٌّ في مجيءِ المنافقينَ إلى النَّبيِّ ﷺ كذلكَ؛ لأنَّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 31.

كانوا يُكثِرونَ التَّردُّدَ إلى مجالسِهِ لإظهارِ صدقِ إيمانِهم، والاطِّلاعِ على أحوالِ المسلمينَ وشؤونِهم.

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾:

المجيءُ والتَّحيَّةُ مقطوعٌ بحصولِهما

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ (إذا) لمّا كانَتْ للأمرِ المقطوعِ بِهِ غُلِّبَ لفظُ الماضي معها؛ لأنَّهُ أقربُ للقطعِ بالنَّظرِ إلى لفظِهِ وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) الشَّرطيَّةَ تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّحيَّةِ:

إطلاقُ التَّحيَّةِ على كلامِ المذكورينَ مشاكلةٌ

المرادُ بالتَّحيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قولُ اليهودِ للنَّبيِّ ﷺ عندَ السَّلام عليهِ: السّامُ - أي: الموتُ - عليكَ، يوهِمونَ أنَّهم يقولونَ: السَّلامُ عليكَ، أو هي قولُ بعضِ المنافقينَ: أنعِمْ صباحًا بدلَ التَّحيَّةِ بالسَّلامِ، فالتَّعبيرُ بالتَّحيَّةِ للمشاكلةِ[1].

ولا يخفَى أنَّ الأوَّلَ مبنيٌّ على القولِ بأنَّ الآيةَ تتحدَّثُ عن اليهودِ، والثّانيَ مبنيٌّ على القولِ بأنَّها تتحدَّثُ عن طائفةٍ مِنَ المنافقينَ.

معنى الباءِ في ﴿حَيَّوْكَ بِمَا﴾:

ما يخالفُ تحيَّةَ اللهِ مُتعلَّقُ تحيَّتِهم للنَّبيِّ ﷺ

الباءُ المتصلة بـ(ما) في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِهِ الثّاني، فيفيدُ الكلامُ أنَّ ما يخالفُ تحيَّةَ اللّه هو ما تعلَّقَتْ بِهِ تحيَّتُهم. ويجوز أن تكون الباءُ للاستعانة[2]؛ بمعنى: أنَّهم يُحَيّون الرَّسولَ ﷺ مُستعينين بغيرِ تحيَّةِ اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلته في قولِهِ: ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ﴾:

كلُّ ما يُخالِفُ تحيَّةَ الإسلامِ مذمومٌ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّهُ لفظٌ عامٌّ يشملُ كلَّ تحيَّةٍ تخالفُ تحيَّةَ اللّهِ[3]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ كلَّ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 503.

(2) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1923.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 31.

ما خالفَ تحيَّةَ الإسلامِ - وهي: السَّلامُ عليكم - مذمومٌ مخالفٌ للشَّرعِ؛ لأنَّهُ خالٍ عمّا في تحيَّةِ الإسلامِ مِنْ بثِّ الطُّمأنينةِ والخيرِ بينَ النّاسِ، ثمَّ منهُ ما هو مكروهٌ، ومنهُ ما هو محرَّمٌ كقولِ اليهودِ لعنَهم اللّهُ: السّامُ عليكَ.

بلاغةُ إيثارِ لفظِ الجلالةِ:

شرعُ الحكيمِ العظيمِ لا يَنبغي مخالفتُه

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِ الباري ﷻ: ﴿حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي بها يكونُ التَّشريعُ الكاملُ، الَّذي لا ينبغي أنْ يُخالَفَ، والمعنى: حيَّوكَ بما لم يُحيِّكَ بهِ المَلِكُ الأعلى الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معهُ، فمَنْ تجاوَزَ ما شَرَعَهُ فقد عرَّضَ نفسَهُ لسَخَطِه[1].

نكتةُ عطفِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

فَضْحُ ما تُكِنُّهُ صدورُ المنافقين

وجهُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ على ما قبلَهُ: أنَّهُ لمّا كانَ المشهورُ عنهم أنَّهم يُخفونَ جاهدينَ تحيَّتَهم للنَّبيِّ ﷺ بغيرِ ما شرعَ اللّهُ، ويُعلِنونَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لا يَطَّلِعُ عليهِ، وإنِ اطَّلعَ عليهِ لم يَقْدِرْ على أنْ ينتقمَ منهم عبَّرَ سبحانَهُ عن ذلكَ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الآية[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في (يقولون):

اغترارُ المنافقينَ بإملاءِ اللهِ لهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم مجاهرون فيما بينَهم بهذا القولِ مستمرّونَ عليه، مُجدِّدونَ لهُ، مواظبونَ عليه[3]، وقد غرَّهم إملاءُ اللّهِ تعالى لهم حين لم يُعجِّلْ بالعقوبةِ، فظنّوا أنَّهُ لا تَبِعةَ عليهم.

دلالةُ ﴿فِيٓ﴾ من قولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

نُفوسُ المنافقينَ مَوطِنُ القبائحِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه تعالى شأنُهُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 368 - 369.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369.

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ على أنَّ نفوسَهم هي موضعُ قولِ هذا القولِ الشَّنيعِ، وفي ذلك تقبيحٌ لهم ولنُفوسِهم المُمتلِئةِ بغضًا وحقدًا على النَّبيِّ ﷺ وعلى المسلمين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأنفُسِ:

حِرْصُ المنافقينَ على كِتْمانِ أمرِهم

التَّعبيرُ بالأنفُسِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهم يقولونَ هذا القولَ فيما بينَهم، مِنْ غيرِ أنْ يُطلِعوا عليه أحدًا[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على غايةِ حرصِهم على عدمِ افتضاحِ أمرِهم.

غَرَضُ جمعِ الأنفُسِ:

القولُ المذكورُ صادرٌ عن جماعةٍ مِن المنافقين

جُمِعَتِ الأنفُسُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لأنَّ القائلينَ بهذا القولِ جماعةٌ مِن المنافقينَ، وهم مِن قلَّةِ الشَّأنِ والتَّأثيرِ بحيث عُبِّرَ عن أنفُسِهم بجمعِ القلَّةِ (أفعُل).

دلالةُ ﴿لَوۡلَا﴾ في ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾:

استعجالُ المشركينَ بالعذابِ تكذيبٌ للنَّبيِّ

﴿لَوۡلَا﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ للتَّحضيضِ؛ أي: هلّا يُعذِّبُنا اللّهُ بذلكَ لو كانَ محمَّدٌ نبيًّا[2]، فتكونُ ﴿لَوۡلَا﴾ مستعمَلةً كنايةً عن جحدِ نبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: لو كانَ نبيًّا لغضبَ اللّهُ علينا، ولَعذَّبَنا الآنَ بسببِ قولِنا لهُ. وهذا خاطرٌ مِنْ خواطرِ أهلِ الضَّلالةِ المتأصِّلةِ فيهم، وهي تَوَهُّمُهم أنَّ شأنَ اللّهِ تعالى كشأنِ البشرِ في الإسراعِ في الانتقامِ[3].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُعَذِّبُنَا﴾:

شدَّةُ تكذيبِ المنافقينَ وعِنادِهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم يطلبونَ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ أنْ يُعذِّبَهم اللّهُ، وفي ذلكَ ما لا يخفى مِن الإشارةِ إلى شدَّةِ تكذيبِهم وعنادِهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.

سرُّ إيثارِ التَّعذيبِ دونَ غيرِه:

طلبُ العقابِ الشَّديدِ تكذيبٌ للمُخبِرِ به

أوثِرَ العذابُ على غيرِه كالحسابِ والعقابِ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ العذابَ هو الإيجاعُ الشَّديدُ[1]، ففي التَّعبيرِ بهِ إيماءٌ إلى أنَّهم لفَرْطِ غُلوِّهم في الكفرِ والتَّكذيبِ يطلبونَ العقابَ الشَّديدَ على سبيلِ التَّكذيبِ للمُخبِرِ به، ولو كانوا يوقنونَ بهذا العذابِ لَما طلبوهُ؛ إذ العاقلُ لا يطلبُ ما فيه مَضرَّتُه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

استـهـانـةُ المنافقينَ بغضبِ العظيمِ ونِقْمتِه

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها القدرةُ الَّتي لا يُعجِزُها شيءٌ، ففي إيثارِهِ إيماءٌ إلى شدَّةِ تكذيبِهم واستهتارِهم، والمعنى: لولا يُعذِّبُنا اللّهُ الَّذي لهُ الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ على زعمِ مَنْ حذَّرَنا مِنْ عذابِهِ ونِقْمتِهِ[2].

معنى الباءِ في ﴿بِمَا نَقُولُۚ﴾:

قـولُ المنافقينَ سببُ التَّعذيبِ

الباءُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ للسَّببيَّةِ، والمعنى: هلّا يُعذِّبُنا اللّهُ تعالى بسببِ ذلكَ لو كانَ محمَّدٌ نبيًّا؛ أي: لو كانَ نبيًّا لعذَّبَنا اللّهُ تعالى بسببِ ما نقولُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿بِمَا نَقُولُۚ﴾:

كلُّ قـولٍ يُفضي إلى الإثـمِ والعذابِ داخلٌ في السَّببيَّةِ

جيءَ بالموصولِ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو القولُ - إلى ذكرِ علَّةِ التَّعذيبِ، وهي قولُهم الَّذي هو عبارةٌ عن التَّحيَّةِ بغيرِ تحيَّةِ اللّهِ[4]، أو عن كلامِهم الَّذي يتناجَونَ بهِ مِنْ ذمِّ النَّبيِّ ﷺ ونحوِ ذلكَ[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب).

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 221.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 221.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 32.

وفي الموصولِ أيضًا عمومٌ يشملُ كلَّ قولٍ يُفضي بصاحبِهِ إلى الإثمِ والعذابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَقُولُ﴾ مضارعًا:

تَوَغُّلُ المنافقينَ في الشَّرِّ والفساد

جيءَ بفعلِ القولِ مضارعًا في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا نَقُولُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما يقولونَهُ في التَّناجي المحرَّمِ أو في التَّحيَّةِ بغيرِ السَّلامِ أمرٌ مستمرٌّ متجدِّدٌ منهم، وهم مواظبونَ عليهِ وإنْ كانَ مخالفًا للشَّرعِ[1]، وذلكَ علامةٌ على توغُّلِهم في الشَّرِّ والفسادِ.

علَّةُ فصلِ ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾:

تركُ التَّعذيبِ في الدُّنيا لا يعني تركَهُ في الآخرة

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ جوابًا منَ اللهِ تعالى لهم عن ظنِّهم أنَّهُ لا يُعذِّبُهم[2]، والمعنى: لم نُعذِّبْهم في الدُّنيا؛ لأنَّ جهنَّمَ حَسْبُهم عذابًا، فننتقمُ منهم بالعقابِ الشَّديدِ[3]، فبينَ الجُملتينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾:

تعذيبُ المنافقينَ حقيقةٌ ثابتةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والاستقرارِ، وأنَّ مضمونَ هذهِ الجملةِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ دونَ غيرِهِ:

النّارُ تلقَى أصحابَها بالتَّجَهُّمِ

اختيرَتْ ﴿جَهَنَّمُ﴾ دونَ غيرِها مِنْ أسماءِ النّارِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها تَلْقاهم بالتَّجهُّمِ والعُبوسةِ والفَظاظةِ[4]، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لسوءِ مآلِهم وعاقبتِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

المنافقونَ يُقاسونَ حرَّ النّارِ

يدلُّ الفعلُ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 169.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 503.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 369.

﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ على أنَّ النّارَ تُصيبُهم بحَرِّقِها بحيثُ يذوقونَها ويُحِسّونَها إحساسًا بليغًا، ويُقاسونَ حرَّها، وأصلُ الكلامِ: يَصلَوْنَ بها، فضُمِّنَ ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ معنى: يَذوقونَها أو يُحِسّونها[1].

المنافقونَ في عذابٍ مقيمٍ

وعُبِّرَ عن الفعل بالمضارعِ؛ للدِّلالةِ على استمرارِ مُقاساتِهم للعذابِ وتجدُّدِها، أي: يُقاسونَ عذابَها دائمًا[2]. وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا تصويرٌ لحالِهم وهم يُقاسونَ حرَّ النّارِ وعذابَها الشَّديدَ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَبِئۡسَ﴾:

ذَمُّ جهنَّمَ بعدَ ذكرِ تعذيبِ أصحابِها

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ للتَّفريعِ، فتفيدُ تفرُّعَ ذمِّ جهنَّمَ عن الوعيدِ[3]، وذلكَ زيادةٌ في عذابِهم ونَكالِهم؛ لأنَّ ذمَّ موضعِ الإقامةِ يزيدُ غمَّ المُقيمِ، لا سيَّما وهو خالدٌ فيهِ. ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحة، جيء بها للاستئناف والسَّببيّة[4]، وما بعدها هو نتيجةٌ أو مُسبَّبٌ لِما ذُكر من سوء تناجيهم، وفُحش تحيّتهم، وإنكارِهم العذابَ.

وجهُ التَّعبيرِ بـ(بئس):

الـذَّمُّ حقيقٌ بالمُنافقين

(بئس) فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، وهو من أبلغِ ألفاظِ الذَّمِّ وصيَغِهِ، والتَّعبيرُ به يُناسِبُ سوءَ أفعالِهم، وحجمَ أذاهم، وقُبحَ إصرارِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمَصير:

مَـآلُ المنافقينَ قبيحٌ مذمومٌ

عُبِّرَ بالمصيرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنَّهُ بمعنى المَرجِعِ والمآلِ[5]، فيفيدُ الكلامُ سوءَ عاقبةِ هؤلاءِ المنافقين.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

سوءُ حالِ مَنْ صارَ إلى جهنَّم

لامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عِوَضٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 370.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.
(4) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1923.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 224.

عن المضافِ إليهِ، أي: فبئسَ مصيرُهم هي[1]، على القولِ بأنَّ لام التَّعريف تنوبُ عن الضَّمير المضاف إليه، وهو قولُ الكوفيّين وبعض البصريّين، وجرى عليه المتأخِّرون[2]. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجنسِ، فيفيدُ العمومَ؛ أي: فبئسَ المصيرُ هي لِمَنْ صارَ إليها[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَوْدُ والرُّجوعُ:

اعتيادُ نُفوسِهم على النَّجوى المُخالِفةِ للشَّرع

العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ[4]. والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا[5]. والحاصلُ: أنَّ الرُّجوعَ يُلحَظُ فيهِ العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ مِن دونِ التِفاتٍ للانصرافِ عنهُ أوَّلًا، والعَوْدَ يُلحَظُ فيهِ الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ، والفرقُ - كما يظهرُ - دقيقٌ جدًّا.

وفي العَوْدِ أيضًا ملاحظةُ الاعتيادِ على الشَّيءِ ونُزوعِ النَّفْسِ إليهِ، وكأنَّ العائدَ يرجعُ بعدَ الانصرافِ إلى ما تألفُهُ نفسُهُ وتَنزِعُ إليهِ.

وقد عُبِّرَ بالعَوْدِ هنا - وهو عَوْدٌ مجازيٌّ - للدَّلالةِ على الرُّجوعِ إلى النَّجوى المخالفةِ للشَّرعِ بعدَ تركِها[6]، وللتَّنبيهِ على أنَّ نُفوسَهم قد اعتادَتْ عليها، فلا تكادُ تتركُها إلّا وقد رَجَعتْ إليها.

المجيءُ والإتيانُ:

إتيانُهم إلى النَّبيِّ ﷺ فيهِ مشقَّةٌ عليهم

الإتيانُ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتيٌّ، وأتاويٌّ[7]، والمجيءُ أعمُّ[8]. والإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 370، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 337.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص: 77.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 337.
(4) الرّاغب، المفردات: (عود).
(5) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 16.
(7) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(8) الرّاغب، المفردات: (جاء).

يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[1]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المعنى المرادِ أقوى مِنْ (أتى)[2]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِن المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

وقد عُبِّرَ بالمجيءِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ إتيانَهم إليهِ حاصلٌ، وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ فيهِ ثِقَلًا عليهم، وأنَّهُ ليسَ سهلَ الحصولِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المـؤمنـونَ لا يَسلُكونَ سبيلَ اليهودِ والمنافقينَ

لمّا ذمَّ ﷻ اليهودَ والمنافقينَ على التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ أتبعَهُ بنهيِ المؤمنينَ أنْ يَسلُكوا مِثلَ طريقتِهم[1].

النَّجوى جائزةٌ بشروطٍ

و لمّا نهَى ﷻ عن النَّجوى، وذمَّ على فعلِها دفعَ توهُّمَ أنَّ النَّهيَ عامٌّ لكلِّ نجوى بأنْ بيَّنَ شروطَ جوازِها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: (برر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ البحرِ، وعلى الصِّدقِ[3]، ومِنْ ذلك قولُهم: برَّتْ يمينُهُ؛ أي: صدقَتْ[4]، وتُصوِّرَ مِن البَرِّ التَّوسُّعُ، فاشتُقَّ منهُ البِرُّ؛ أي: التَّوسُّعُ في فعلِ الخيرِ، فيقالُ: برَّ العبدُ ربَّهُ؛ أي: توسَّعَ في طاعتِهِ[5] وفي أفعالِ الخيرِ. وهذا هو المرادُ هنا[6].

2) ﴿تُحۡشَرُونَ﴾: (حشر) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ[7]، فالحَشْرُ: الجَمْعُ[8]، والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليهِ القومُ[9]، والحَشْرُ أيضًا: إخراجُ الجماعةِ عن مَقَرِّهم، وإزعاجُهم عنهُ إلى الحربِ ونحوِها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 492، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 224.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 370 - 371.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برر).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (برر).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برر).
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 34.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حشر).
(9) الخليل، العين: (حشر).

ويقالُ ذلكَ في الإنسانِ وغيرِهِ، كقولِكَ: حَشَرَتِ السَّنَةُ مالَ بني فلانٍ؛ أي: أزالَتْهُ عنهُم[1]. والمرادُ هنا: جَمْعُهم للحسابِ والجزاءِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وُجوبُ مُراقَبةِ اللـهِ تعالى في العَلَنِ والسِّرّ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى المؤمنينَ بشروطِ النَّجوى الجائزةِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّهَ ورسولَهُ بإخلاصٍ أو بادِّعاءٍ، إذا تناجيتم بينَكم فلا تتناجَوا بما فيهِ ذنبٌ وظلمٌ ومعصيةٌ للرَّسولِ كما يفعلُ أهلُ النِّفاقِ، ولكنْ تناجَوا بالخيرِ وطاعةِ اللّهِ وتقواهُ، وخافوا اللّهَ الَّذي إليهِ مصيرُكم، فيُخبِرُكم بجميعِ أعمالِكم وأقوالِكم الَّتي أحصاها عليكم، وسيَجزيكم بها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإرشادُ إلى التَّناجي الجائزِ حَريٌّ بالإفادةِ استقلالًا

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو بيانُ شروطِ التَّناجي الجائزِ[4]، وذلكَ يَستدعي استقلالَ الكلامِ ودفعَ توهُّمِ كونِهِ مِنْ توابعِ ما قبلَهُ.

بلاغةُ تصديرِ الآيةِ بالنِّداءِ:

المؤمنُ يَهتَمُّ بما فيهِ صَلاحُ دينِه

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالنِّداءِ؛ لتنبيهِ المخاطَبينَ على أنَّ ما بعدَهُ أمرٌ جَلَلٌ مُهِمٌّ خطيرٌ يَستدعي مزيدَ اعتنائِهم بشأنِهِ[5]، وفَرْطَ اهتمامِهم بتلقّيهِ ومراعاتِهِ، وهو طلبٌ للعملِ على مقتضى الإيمانِ، ولذلكَ عُبِّرَ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ (يا)، واقترَنَ المنادى بـ(ها) التَّنبيهِ، الَّتي تدلُّ على أنَّ المنادى فيهِ شيءٌ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (حشر).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 241، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 44.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32 - 33.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.

مِن البُعد بالمعصية والذُّنوبِ عن المُنادي ﷻ، فعليه أن يُصغيَ لِما يُنادي عليه به؛ ليزدادَ بهذه الطّاعةِ قُرْبًا[1].

تعيينُ المنادَى في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

حَثُّ المنافقينَ مُدَّعي الإيمانِ على الإقلاعِ عن النِّفاقِ

يُحتمَلُ أنْ يكونَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ خطابًا للمنافقينَ الَّذينَ يُظهِرونَ الإيمانَ، عامَلَهم اللهُ بما أظهروهُ، وناداهم بوصفِ الإيمانِ، ونبَّهَهم إلى تَدارُكِ حالِهم بالإقلاعِ عن آثارِ النِّفاقِ.

حَثُّ المؤمنينَ الخُلَّصِ على مُخالَفةِ أخلاقِ المنافقين

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ خطابًا للمؤمنينَ الخُلَّصِ؛ تعليمًا لهم بما يَحْسُنُ مِنَ التَّناجي وما يَقْبُحُ منهُ[2]، وتذكيرًا لهم، وضبطًا لأفعالِهم؛ لكي لا تَندّ أو تَحيدَ.

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

حَقُّ المؤمنِ الامتثالُ والطّاعةُ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِ المخاطَبينَ وتَهْييجِهم وإلهابِهم، وحثِّهم على الاستماعِ لِما يتلوهُ مِنَ التَّكليفِ، والإيذانِ بأنَّهُ داعٍ إلى المحافظةِ عليهِ، ووازعٌ عن الإخلالِ بهِ، سواءٌ كانَ خطابًا للمؤمنينَ الخُلَّصِ أو لمدَّعي الإيمانِ، كأنَّهُ قيلَ: إنْ كنتم مؤمنينَ حقًّا كما تقولونَ فاسمعوا وأطيعوا.

الإيمانُ هو أجَلُّ وصْفٍ للمُنادَى

وجاء تعريفُ المنادَى بالاسم الموصول أيضًا دلالةً على أنَّه المعروفُ بالصِّلة الَّتي هي الإيمان، وكأنَّ هذا الإيمانَ هو أجَلُّ ما يُعرَفُ به ذلك المُنادَى، فهو شرفُه الَّذي عليه أنْ يستمسكَ به، وأن يَفْخَرَ بنعتِهِ به، وأن يسعى إلى زيادته وتثبيته بالإكثار من الطّاعات، والفِرار من السّيِّئات، فعليه العنايةُ بفقه ما هو آتٍ مِن بعد ذلك النّداء من أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ[3].

---

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب، دراسةٌ في البلاغة القرآنية، ص: 36.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 491، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 32.

(3) محمود توفيق، شذرات الذّهب، دراسةٌ في البلاغة القرآنية، ص: 36.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ دونَ الوَصْفِ المُشتَقّ:

الإكثارُ مِن الأمرِ والنَّهي ضابطٌ لأفعالِ المُؤمنين

ولم يُعبِّرْ عنهم بلفظِ (المؤمنين)، فلم يقلْ: (يا أيُّها المؤمنون)؛ لأنَّ هذا الوصفَ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ صارَ نعتًا للمؤمنين، فهُم معروفون بالصِّفة لا بالصِّلة؛ أي: أنَّ الإيمانَ في قلوبهم صار مُلازِمًا لهم مُلازَمةَ النَّعتِ لمنعوته، فهو فيهم كالطّولِ في الطَّويل، والقِصَرِ في القصير لا يكادُ يتخلَّى عنه، أمّا (الَّذينَ آمَنوا) فمعناه أنَّ الإيمانَ ما يَزالُ فِعلًا من أفعالهم، فيحتملُ أن يَزولَ وأن يَحول، فكانوا بحاجةٍ إلى الإكثار من أمرِهم ومن نَهْيِهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيـمـانُ لم يُـلامِـسْ قـلـوبَ المُنافقين

إنْ كانَ النِّداءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للمنافقينَ مُدَّعي الإيمانِ فالتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي للإشارةِ إلى أنَّهُ لم يَصدُرْ منهم إلّا مجرَّدُ إحداثِ الإيمانِ[2]، والتَّلفُّظِ بهِ بألسنتِهم دونَ أنْ يُلامِسَ قلوبَهم.

المُـؤمِـنُ الـحَـقُّ مَـحَـلُّ الـكَـرامـةِ والتَّشريف

وإنْ كان النِّداءُ للمؤمنينَ المخلِصينَ فصيغةُ الماضي للإيماءِ إلى أنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ أمرٌ قد تحقَّقَ وثبَتَ، وهم راسخونَ في الإيمانِ، حتَّى كأنَّهُ مِنْ صفاتِهم الجِبلِّيَّةِ، ولذلكَ استحقّوا شرفَ الخطابِ والتَّكليفِ.

سرُّ التَّقييدِ بالشَّرطِ في ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾:

شَأْنُ المؤمنِ تركُ التَّناجي دونَ ضرورةٍ

التَّقييدُ بالشَّرطِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ يُشيرُ إلى أنَّهُ لا ينبغي التَّناجي مطلقًا، ولكنَّهم لمّا اعتادوا التَّناجيَ حُذِّروا مِنْ غوائلِه، وإلّا فإنَّ التَّقييدَ مُستغنًى عنهُ بأنْ يقالَ: (لا تتناجَوا بالإثمِ والعُدوانِ)[3]، فكأنَّهُ قيلَ: إنْ لم يكنْ لكم بُدٌّ مِنَ التَّناجي فلا تتناجَوا بالإثمِ والعُدوانِ إلخ.

---

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب، دراسةٌ في البلاغة القرآنية، ص: 36.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 33.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

تَناجي المُخاطَبينَ مقطوعٌ بحصولِه

أوثرَتْ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ) في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بحصولِه، والآيةُ تُبيِّنُ شروطَ التَّناجي الجائزِ لقومٍ يُقطَعُ بحصولِ التَّناجي منهم؛ لرغبتِهم فيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾:

مُلاءَمةُ صيغةِ الماضي لواقعِ المُخاطَبين

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ كما تقدَّمَ، والماضي أقربُ إلى القطعِ بالنَّظرِ إلى لفظِه، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، والمخاطَبونَ لهم رغبةٌ في التَّناجي، فهو حاصلٌ منهم بلا شكٍّ.

دلالةُ صيغةِ التَّفاعُلِ في ﴿تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾:

كلٌّ مِنَ المُتناجينَ يُحدِّثُ الآخرين

عُبِّرَ بصيغةِ التَّفاعُلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّناجيَ يَتِمُّ مِنْ أكثرَ مِن طَرَفٍ، فكلُّ واحدٍ مِنهم يُحدِّثُ الآخرينَ، ويكشفُ لهُم ما في نفسِه سرًّا[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾:

المُؤمِنُ يَتحرَّى موافقةَ الشَّرْعِ

الفاءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، فتفيدُ ربطَ جزاءِ الشَّرطِ بفعلِه ربطًا وثيقًا، فلا ينبغي أنْ يُقدِمَ المؤمنُ على التَّناجي دونَ تحقُّقِ شروطِ جوازِه. وهي بهذا جوابيَّةٌ أفادَتِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ والسَّببيَّة[2].

دلالةُ النَّهيِ في ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾:

مُخالَفةُ أوامرِ الشَّرعِ في التَّناجي حرامٌ

النَّهيُ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ على حقيقتِه، فهو للتَّحريمِ، فيفيدُ الكلامُ حُرمةَ التَّناجي

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.

(2) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1924.

بالإثم والعدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، ويدلُّ على ذلكَ ما سبَقَ مِنَ الذَّمِّ والوعيدِ لِمَنْ يتناجَونَ بذلكَ، وما سيأتي مِنَ الحَثِّ على التَّناجي بالبِرِّ والتَّقوى، والأمرِ بتقوى اللّهِ ﷻ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾:

اختِلافُ القراءاتِ بالصِّيغةِ الصَّرفيَّةِ والمعنى واحدٌ

قرأ الجمهورُ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾، وقرأ رويسٌ عن يعقوبَ: ﴿فَلَا تَنتَجُواْ﴾[1].

أمّا قراءةُ الجمهورِ فهي على وزنِ (تتفاعلوا)، وأمّا قراءةُ رويسٍ فهي على وزنِ (تفتعلوا)، وهي مضارعُ (انتجَى)[2]. وقد تقدَّمَ في تفسيرِ قوله ﷻ: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ توجيهُ كلتا القراءتين، وبيانُ الفرقِ بينَ صيغَتَيهما على الخُصوصِ، مع اتِّفاقهما في المعنى المرادِ على العموم.

سرُّ تكرارِ ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

تقبيحُ شأنِ المُنافقينَ تَعريضًا وتَصْريحًا

تكرارُ عبارةِ ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ فيهِ تعريضٌ بالمنافقينَ بأنَّهم كانوا يتناجَوْنَ بالإثمِ والعُدوانِ بعدَ التَّصريحِ بذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾؛ لمزيدِ التَّشنيعِ وفَرْطِ التَّقبيحِ[3]. وهذا على أنَّ الخطابَ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للمؤمنينَ الخُلَّصِ، وأنَّ المرادَ نهيُهم عن أنْ يكونوا على صفةِ المنافقينَ.

مواجَهةُ المُنافقينَ بقَبائحِهم المَحْكيَّةِ عنهم فيما سَبَقَ

وأمّا إنْ كانَ الخطابُ للمنافقينَ الَّذينَ يدَّعونَ الإيمانَ فالتَّكرارُ لمواجهَتِهم بالقبيحةِ الَّتي يُقدِمونَ عليها، بعدَ ذكرِها عنهم بطريقِ الغَيبةِ فيما سبقَ، ولا شكَّ أنَّ ذكرَ القبائحِ في وجهِ الشَّخصِ أشدُّ وأنكَى مِنْ ذكرِها في غَيبتِهِ.

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/ 385.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 126 - 127.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 504.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾:

التَّلبُّس بالمعاصي في التَّناجي مَنْهيٌّ عنه

الباءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للملابسةِ؛ أي: فلا تتناجَوا ملابِسينَ الإثمَ والعُدوانَ ومعصيةَ الرَّسولِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على وجوبِ تركِ مخالطةِ المعاصي في التَّناجي. ويجوز أن تكونَ الباءُ للاستعانة[1]؛ بمعنى: لا تتناجَوا مستعينين ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإثم:

المؤمنُ العاقلُ لا يَجُرُّ على نفسِه العقابَ

التَّعبيرُ بالإثم في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للدَّلالةِ على النَّهيِ عنِ التَّلبُّسِ في أثناءِ التَّناجي بالذَّنبِ وكلِّ فعلٍ يُسبِّبُ لفاعلِه عقوبةً[2].

دلالةُ تعريفِ الإثمِ والعُدوانِ:

التَّشديدُ والاحتياطُ في أمرِ التَّناجي

تعريفُ الإثم والعُدوانِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لأفرادِه[3]، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ الابتعادِ في التَّناجي عن كلِّ ما يندرجُ تحتَ هذينِ الجنسينِ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّشديدِ والاحتياطِ في أمرِ التَّناجي.

ويجوزُ - على جَعْلِ الخطابِ للمؤمنين في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ - أن تكونَ اللَّامُ للعهدِ الذِّكريِّ، وفيها إشارةٌ لإثمٍ وعدوانٍ معهودَين معروفَين، ويكونُ المقصودُ النَّهيَ عن الإثمِ والعدوان المذكورَين في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ اللَّذينِ كان المنافقون يتناجَون بهما.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالعُدوانِ:

إفراطُ المنافقينَ في إلحاقِ الضَّررِ بغيرِهم

التَّعبيرُ بالعُدوانِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ

(1) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1923.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277.

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ للتَّنبيهِ على النَّهيِ عن الإفراطِ ومجاوزةِ الحدِّ في ظلم الآخرينَ وإيذائِهم(1). ولا يعني ذلكَ جوازَ الظُّلم والإيذاءِ اللَّذين لا إفراطَ فيهما، بل المرادُ تقبيحُ صنيعِ المنافقينَ الَّذينَ كانوا يُفرِطون في ذلكَ، ونهيُهم عن الاستمرارِ فيهِ إنْ كانَ الخطابُ لهم، ونهيُ المؤمنين عن الاقتداءِ بهم إنْ كانَ الخطابُ لهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمعصيةِ:

التَّناجي الجائزُ ليسَ فيهِ مُخالَفةٌ للنَّبيِّ ﷺ

التَّعبيرُ بالمعصيةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للإيماءِ إلى وجوبِ اجتنابِ كلِّ تناجٍ فيهِ مخالفةٌ للنَّبيِّ ﷺ وإساءةٌ لهُ كما كانَ يفعلُ المنافقونَ(2).

سرُّ الإضافةِ والتَّعبيرِ بالرِّسالةِ في ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

وَضْعُ العصيانِ في موضعِ الطّاعةِ خُسْرانٌ مُبين

في الإضافةِ والتَّعبيرِ عن النَّبيِّ ﷺ بعُنوانِ الرِّسالةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ تشنيعٌ لأمرِ هذهِ المعصيةِ وتفظيعٌ لها؛ لأنَّها معصيةٌ للنَّبيِّ ﷺ الَّذي تجبُ طاعتُهُ ومتابعتُهُ بحُكمِه رسولًا، وفيها تشويشٌ لفِكْرِه يمنعُهُ مِنْ تبليغ رسالاتِ ربِّه وهو منشرحُ الصَّدرِ طيِّبُ النَّفسِ. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ إجلالِ النَّبيِّ عليه السلام(3)، وبيانِ منزلتِهِ عندَ ربِّه ﷻ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

لا ينبغي اشتمالُ التَّناجي على ما يُؤذي نبيَّنا ﷺ

تعريفُ الرَّسولِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ به رسولٌ مخصوصٌ معهودٌ، وهو نبيُّنا محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام، فلا يجوزُ أنْ يَشتمِلَ التَّناجي على ما فيه إيذاءٌ لهُ أو استخفافٌ بمنزلتِه.

كمالُ النَّبيِّ ﷺ في مقامِ الرِّسالة

ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجنسِ المحمولِ على الفردِ الكاملِ مبالغةً؛ أي: ومعصيةِ الرَّسولِ الكاملِ في الرُّسُليَّةِ(4).

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.

سرُّ ترتيبِ المعطوفاتِ في قوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

التَّرقِّي مِنَ الأخفِّ إلى الأشدِّ

بدأ ﷻ في قولِه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ بالإثم لعمومِه، ثمَّ بالعُدوانِ لعظمتِه في النُّفوسِ؛ إذ هو ظلمُ العبادِ، ثمَّ ترقَّى إلى ما هو أعظمُ وأشدُّ، وهو معصيةُ الرَّسولِ ﷺ[1] الَّتي لا تُتصوَّرُ مِنْ مؤمنٍ كاملٍ.

نكتةُ عطفِ ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

التَّناجي الَّذي فيهِ خيرٌ ومصلحةٌ مأمورٌ به

قولُه تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ سبحانَهُ بعدَما نهَى عن التَّناجي المخالفِ للشَّرعِ، والَّذي تترتَّبُ عليهِ الشُّرورُ والآثامُ وإفسادُ ذاتِ البينِ أمَرَ بالتَّناجي الَّذي فيهِ خيرٌ ومصلحةٌ[2]، فبينَ الجملتين اتِّحادٌ تامٌّ؛ إذ كلتاهما إنشائيَّةٌ طلبيَّةٌ، والمناسبةُ الَّتي تَجمعُهما واحدة، وليس في الكلامِ سببٌ يَقتضي الفصلَ بينهما.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ﴾:

التَّناجي بالبِرِّ والتَّقوى مباحٌ لمَنْ شاءَ

الأمرُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ مُستعمَلٌ في الإباحةِ، كما اقتضاهُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾[3]؛ فهو يفيدُ أنَّ التَّناجيَ يكونُ عندَ رغبتِهم فيهِ.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾:

تناجي المؤمنِ مصحوبٌ بالبِرِّ والتَّقوى

الباءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ للملابسةِ؛ أي: وتناجَوا ملابِسينَ البِرَّ والتَّقوى، ويجوزُ أن تكونَ للاستعانةِ؛ أي: تناجَوا مُستعينينَ بالبرِّ والتَّقوى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالبِرِّ:

أبوابُ الخيرِ واسعةٌ لمَنْ يريدُ التَّناجيَ المباحَ

عُبِّرَ بالبِرِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾؛ لدلالتِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 126.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 33.

على الخيرِ الواسعِ المُتضمِّنِ لمختلِفِ الطّاعاتِ والنَّفعِ للمؤمنينَ، والاتِّقاءِ عن معصيةِ الرَّسولِ ﷺ[1]، وفي ذلكَ توسعةٌ على مَنْ يريدُ التَّناجيَ المباحَ.

سَعَةُ فضلِ اللهِ تعالى في إذنِهِ بالتَّناجي

دلالةُ تعريفِ البِرِّ والتَّقوى:

تعريفُ البرِّ والتَّقوى في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أعمالِ البرِّ، ولكلِّ ما يُتَّقى بهِ اللّهُ ﷻ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى سَعَةِ فضلِ اللّهِ تعالى في إذنِهِ وترخيصِهِ بالتَّناجي المقترنِ بما ذُكِرَ.

البرُّ عامٌّ، والتَّقوى مَنزلةٌ مخصوصةٌ لا يَقدِرُ عليها كلُّ مسلم

سرُّ تقديمِ البِرِّ على التَّقوى:

قُدِّمَ البرُّ على التَّقوى في قولِ الباري عزَّ شأنُهُ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾؛ ليتَّصلَ بذكرِ التَّقوى الأمرُ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وفي ذلكَ تلاؤمٌ صوتيٌّ ناشئٌ مِنِ اتِّحادِ المادَّةِ اللُّغويَّةِ لـ(التَّقوى) و(اتَّقوا).

وقُدِّمَ البرُّ أيضًا لدلالتِهِ على الخيرِ الواسعِ المتضمِّنِ لمختلِفِ الطّاعاتِ والنَّفعِ للمؤمنينَ، فهو عامٌّ يقدرُ عليه أغلبُ المسلمين، أمّا التّقوى فهي حالةٌ قلبيَّةٌ من الخشيةِ والخضوعِ للّه، ولا يَصِلُ إليها كلُّ مسلم؛ فهو من تقديمِ العامِّ على الخاصِّ.

المؤمنُ يعملُ الخيرَ بطبعِهِ وامتثالًا للشَّرعِ

نكتةُ عطفِ التَّقوى على البِرِّ:

لمّا أمرَ ﷻ بالتَّناجي بالبرِّ - وهو الخيرُ الواسعُ - وكانَ ذلكَ قد يُعمَلُ بموجَبِ الطَّبعِ والعادةِ حَثَّ سبحانَهُ على القصدِ الصّالحِ بقولِهِ: ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[2]، وخيرُ النّاسِ مَنْ يفعلُ الخيرَ بطبعِهِ وامتثالًا للشَّرعِ.

المؤمنُ يَجعَلُ بينَهُ وبينَ عذابِ اللهِ وِقايةً

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّقوى:

عُبِّرَ بالتَّقوى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾؛ لدلالةِ هذا اللَّفظِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371 - 372.

على السَّترِ والوِقايةِ، فيفيدُ أنَّ على العبدِ أنْ يجعلَ بينَهُ وبينَ عذابِ اللهِ سُتْرةً، وذلكَ بأنْ تكونَ مناجاتُهُ فيما يُرضي اللهَ ورسولَهُ[1].

بلاغةُ الطَّردِ والعكسِ في الآيةِ:

منطوقُ كلِّ جملةٍ يُؤكِّدُ مفهومَ الأخرى

الطَّردُ والعكسُ عندَ أهلِ المعاني هو الإتيانُ بكلامَينِ كلٌّ منهما يُؤكِّدُ بمنطوقه مفهومَ الكلامِ الآخَرِ، وهو نوعُ الإطنابِ في الكلامِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ طردٌ وعكسٌ، وذلكَ أنَّ منطوقَ قولِهِ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ يُؤكِّدُ مفهومَ قولِهِ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ إذ مفهومُهُ جوازُ التَّناجي بالبرِّ والتَّقوى، ومنطوقَ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ يُؤكِّدُ مفهومَ قولِهِ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾؛ إذ مفهومُهُ عدمُ جوازِ التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ. وفي هذا الإطنابِ دليلٌ بيِّنٌ على اهتمامِ الشَّرعِ بأمرِ التَّناجي عمومًا، وتقبيحٌ للتَّناجي المحرَّمِ.

نكتةُ عطفِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّقوى مطلوبةٌ مِنَ العبدِ يقينًا

لمّا ذُكِرَتِ التَّقوى في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، وكانتِ التَّقوى أمَّ المَحاسِنِ أكَّدَها سبحانَهُ، ونبَّهَ عليها بقولِهِ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[2]؛ لئلّا يَغفُلَ عنها المُتناجيانِ. وهذا العطفُ أيضًا مِنْ قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فبعدَ الأمرِ بالتَّقوى في أمرٍ مخصوصٍ - وهو التَّناجي - أمرَ بالتَّقوى في كلِّ شأنٍ مِنَ الشُّؤونِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

تقوى اللهِ واجبةٌ شرعًا

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ، بل سياقُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ يقتضيهِ، والتَّقوى مِلاكُ أمرِ المؤمنِ، ومِرآتُهُ الصّادقةُ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 371 - 372.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372.

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالة:

مَنْ عَرَفَ قَدْرَ العظيمِ اتَّقاه

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِه مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ لتربيةِ الرَّوعِ والمهابةِ، وذلكَ بذكرِ اللَّفظِ الدّالِّ على صفاتِ الكمالِ والجلالِ والعظمةِ؛ أي: اجعلوا بينَكم وبينَ سَخَطِ المَلِكِ الأعظمِ وِقايةً[1]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّرهيبِ مِنْ مخالفةِ أمرِ الشّارعِ في التَّناجي.

نكتةُ الإيجازِ في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

تقوى اللهِ مطلوبةٌ في كلِّ شيءٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ إيجازٌ بحذفِ متعلَّقِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾؛ أي: واتَّقوا اللّهَ فيما تأتونَ وتَذَرونَ[2]، وفي ذلكَ مِنَ الحثِّ على استشعارِ مراقبةِ اللّهِ تعالى ما لا يخفَى.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

مَنْ عَرَفَ أنَّ مرجعَهُ إلى اللهِ اتَّقاه

جيءَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾؛ لتعليلِ الحكمِ - وهو الأمرُ بالتَّقوى - بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وهو كونُ الحشرِ إلى اللّهِ تعالى، كأنَّهُ قيلَ: واتَّقوا اللّهَ؛ لأنَّكم إليهِ تُحشَرونَ.

معنى (إلى) في القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾:

الخلائقُ مجموعونَ للحسابِ والجزاءِ

(إلى) في قولِهِ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، والمرادُ: إلى جزائِهِ وقضائِهِ تُحشَرونَ.

غرضُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

المرجعُ إلى اللهِ لا إلى غيرِه

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ لإفادةِ الحصرِ؛ أي: إليهِ وحدَهُ تُحشَرونَ، لا إلى غيرِهِ استقلالًا أو اشتراكًا[3]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّرهيبِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 222.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 219، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 222.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

الحشرُ هائلٌ عظيمُ الشَّأنِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾؛ لأنَّ الحشرَ أمرٌ مستقبلٌ يكونُ يومَ القيامةِ، ولتصويرِ صورةِ الحشرِ العجيبةِ الشَّأنِ؛ لتربيةِ المهابةِ، والحثِّ على امتثالِ الأمرِ بالتَّقوى.

سرُّ البناءِ للمفعولِ في ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

الخلقُ محشورونَ لُزومًا لا بإرادتِهم

بُنِيَ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ للمفعولِ؛ لتعيُّنِ الفاعلِ - وهو اللّهُ ﷻ - ولزيادةِ التَّخويفِ والتَّهويلِ ببيانِ أنَّ حاشرًا يحشرُهم، وأنَّهم يرجعونَ إلى اللّهِ لا بإرادتِهم.

وجهُ ختامِ الآيةِ بذكرِ الحشرِ:

الآخرةُ مَجمَعُ الأهوالِ والمَخاوِف

خُتِمَتِ الآيةُ بذكرِ الحشرِ في قولِه ﷻ: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾؛ للتَّذكيرِ بيومِ الجزاءِ، فالمعنى: الَّذي إليه تُحشَرونَ فيُجازيكم[1]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّهويلِ؛ لأنَّ الآخرةَ مَجمَعُ الأهوالِ والمَخاوفِ، ولا سيَّما فضحِ الأسرارِ على رؤوسِ الأشهادِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَشْرُ والجمعُ:

جمعُ الخلقِ إلى موقفِ القيامةِ مقرونٌ بالقهرِ والكَره

الفرقُ بينَ الحشرِ والجمعِ: أنَّ الحشرَ هو الجمعُ معَ السَّوقِ، ومنهُ يومُ الحشرِ؛ لأنَّ الخلقَ يُجمَعونَ فيه، ويُساقونَ إلى الموقفِ[3]. وقد عُبِّرَ بِهِ هنا لدلالتِهِ على أنَّهم يُجمَعونَ بقَهْرٍ وكَرْهٍ[4]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ التَّهويلِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 504، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 372.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372.
(3) معجم الفروق اللغوية، ص: 118.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٠﴾

[المجادلة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا تَحقُّقَ نَجْوى السّوءِ إلّا بأهلِها

لمّا شدَّدَ ﷻ في أمرِ النَّجوى، وكانَ لا يفعلُها إلّا أهلُ النِّفاقِ، وربَّما ظنَّ ظانٌّ أنَّهُ يَحدُثُ عنها ضررٌ لأهلِ الدّينِ بيَّنَ أنَّ ضررَها إنَّما يعودُ على أهلِها، وفي ذلكَ تسليةٌ للمؤمنينَ، وتأنيسٌ لنفوسِهم[1]. وفي الآية بيانُ الباعثِ للمنافقينَ على النَّجوى، وذكرُ المُزيِّنِ لهم ذلكَ[2]، وهو وجهُ مناسبةٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾: (ضرر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النَّفْعِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الضُّرُّ، وهو سوءُ الحالِ، إمّا في النَّفْسِ لقلَّةِ العِلمِ والفضلِ، وإمّا في البَدَنِ لعدمِ جارحةٍ أو نقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ مِنْ قلَّةِ مالٍ وجاهٍ[4]. والمرادُ هنا: أنَّهُ لا يقدرُ على إلحاقِ الضَّررِ بهم إلّا بإذنِ اللّهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والتَّوكُّلُ على اللهِ سلاحُ المؤمنِ

يُسلّي اللّهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ الَّذينَ يرونَ تناجيَ المنافقينَ، ويخافونَ الضَّررَ منهم، فيقولُ: إنَّما النَّجوى المخالفةُ للشَّرعِ مِنْ تزيينِ الشَّيطانِ؛ ليُدخِلَ الحزنَ على المؤمنينَ، وليسَ الشَّيطانُ أو التَّناجي بضارِّهم شيئًا مِنَ الضَّررِ إلّا بتقديرِ اللّهِ تعالى

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 372 - 373، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 169، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 34.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 14.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضرر).

ومشيئتِهِ، وليُفوِّضِ المؤمنونَ جميعَ شؤونِهم إلى اللّٰهِ تعالى، فهو حَسْبُهم وكافيهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

ذكرُ أثرٍ مِن آثارِ نَجْوَى المنافقِينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ لإفادةِ غرضٍ اقتضَتْهُ مناسبةُ النَّهيِ عن النَّجوى، وهذا الغرضُ هو بيانُ أثرٍ يترتَّبُ على نجوى المنافقينَ.

تأكيدُ النَّهيِ عن النَّجوى ببيانِ علَّتِهِ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ استئنافًا تعليليًّا فيهِ تأكيدٌ للنَّهيِ عن النَّجوى[2]، فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

بلاغةُ تأكيدِ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

العنايةُ بما يُعينُ على تركِ التَّناجي المُحرَّمِ

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بـ(إنَّ) المكفوفةِ عن العملِ بـ(ما) الكافَّةِ مع بقائها على معنى التَّوكيد، وباسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بتقريرِ مضمونِهِ وتأكيدِهِ؛ لأنَّهُ تقويةٌ للنَّهيِ عن التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، وحثٌّ على تركِ التَّلبُّسِ بهِ.

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾:

النَّجوى المُحرَّمةُ مِنَ الشَّيطانِ لا مِنْ غيرِهِ

القصرُ المستفادُ مِنْ ﴿إِنَّمَا﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ أي: قصرُ النَّجوى على كونِها مِنَ الشَّيطانِ، والمعنى: إنَّما النَّجوى بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ آتيةٌ مِنَ الشَّيطانِ لا مِنْ غيرِهِ؛ لأنَّ الأغراضَ الَّتي يتناجَون فيها مِنْ أكبرِ ما يوسوسُ الشَّيطانُ لأهلِ الضَّلالةِ بأنْ يفعلوهُ[3].

قُبْحُ الإقدامِ على السّوءِ مع العلمِ بهِ

وفي إيثارِ ﴿إِنَّمَا﴾ على غيرِها تنبيهٌ على أنَّ كونَ النَّجوى مِنَ الشَّيطانِ أمرٌ معلومٌ لهم، أو مِنْ شأنِهِ أنْ يكونَ معلومًا، لا يجهلونَهُ،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 295، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 44.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 34.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 220، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 34.

ولا يُنكِرونَهُ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِهم؛ إذ يُقدِمونَ على ما يعلمونَ، أو ينبغي عليهم أن يعلموا أنَّ مصدرَهُ شرٌّ وظلمٌ وعُدوانٌ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾:

نجوى الشَّرِّ والفسادِ تكونُ مِنَ الشَّيطانِ

تعريفُ ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ للعهدِ؛ إذ ليسَ المرادُ بها جنسَ النَّجوى الشّاملَ للتَّناجي بالخيرِ الَّذي يكونُ مِنَ اللّهِ، بل المرادُ بها النَّجوى بالإثم والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، بدليلِ قولِهِ: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وبدليلِ السّياقِ السّابقِ(1)، وبذلكَ يصحُّ قصرُ النَّجوى على كونِها مِنَ الشَّيطانِ(2).

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهذهِ النَّجوى المعهودةِ نجوَى قومٍ مِنَ المسلمينَ، كانوا يقصدونَ مناجاةَ النَّبيِّ ﷺ وليسَ لهم حاجةٌ ولا ضرورةٌ إلى ذلكَ، وإنَّما كانوا يريدونَ التَّبجُّحَ بذلكَ، وكانَ المسلمونَ يظنّونَ أنَّ تلكَ النَّجوى في أخبارِ سوءٍ(3).

معنى ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

الشَّيطانُ منبعُ الشَّرِّ والفسادِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ أي: إنَّما النَّجوى بالإثم والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ مُبتدَأةٌ مِنَ الشَّيطانِ(4). والمعنى: أنَّهُ يَحمِلُهم على أنْ يُقدِموا عليها(5)، فهو المُزيِّنُ لها(6).

نكتةُ التَّعبيرِ بالشَّيطانِ معرفةً:

الشَّيطانُ محترقٌ مطرودٌ من رحمةِ الله

عُبِّرَ بالشَّيطانِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ للتَّنبيهِ على احتراقِهِ إنْ كانَ مشتقًّا مِنْ (شاطَ) بمعنى

---

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 491، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 492، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 285.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 504.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 277.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 492.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 127.

(احترقَ)، وعلى طردِهِ من رحمةِ اللّهِ تعالى إنْ كانَ مشتقًّا مِنْ (شَطَنَ) بمعنى (بَعُدَ)[1]، وإذا كانَ مَنْ هذا وصفُهُ مصدرَ النَّجوى فكيفَ يجترئُ عليها العاقلُ؟!

الشَّرُّ والفسادُ سِمَةُ جميعِ الشَّياطينِ، وإبليسُ أصلُ الشَّياطينِ

وتعريفُ الشَّيطانِ؛ للجنسِ الشّاملِ لجميعِ الشَّياطينِ، فحبُّ الشَّرِّ والفسادِ قاسمٌ مشتركٌ بينَها. أو للعهدِ، والمرادُ بهِ إبليسُ، فهو أصلُ الشَّياطينِ وآمِرُهم، فكلُّ ما ينشأُ مِنْ وسوسةِ الشَّياطينِ فهو راجعٌ إليه.

معنى اللّامِ في ﴿لِيَحۡزُنَ﴾:

غايةُ الشَّيطانِ حَزَنُ المؤمنينَ

اللّامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ[2]، والمعنى: أنَّ الشَّيطانَ يَحمِلُهم على أنْ يُقدِموا على تلكَ النَّجوى الَّتي هي سببٌ لحَزَنِ المؤمنينَ، وذلكَ لأنَّ المؤمنينَ إذا رأوهم مُتناجينَ قالوا: ما نراهم إلّا وقد بلغَهم عن أقربائِنا وإخوانِنا الَّذينَ خرجوا إلى الغَزَواتِ أنَّهم قُتِلوا وهُزِموا، ويقعُ ذلكَ في قلوبِهم، ويَحزَنونَ لهُ[3]، أو إذا أجْرَوا اجتماعَهم على مكايدةِ المسلمينَ، وربَّما كانوا يُناجونَ النَّبيَّ ﷺ، فيظنُّ المسلمونَ أنَّهم ينتقصونَهم عندَ النَّبيِّ ﷺ[4].

سرُّ تخصيصِ علَّةِ الحَزَنِ بالذِّكرِ:

المؤمنُ يَتَصبَّرُ على أذى المنافقين

علَّةُ حَزَنِ المؤمنينَ المذكورةُ في قولِه ﷻ: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليسَتْ قيدًا في الحصرِ المذكورِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ فإنَّ للشَّيطانَ مَآرِبَ أخرى، كإلقاءِ المُتناجينَ في الضَّلالةِ، والاستعانةِ بهم على إلقاءِ الفتنةِ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأغراضِ الشَّيطانيَّةِ. وقد خُصَّتْ هذهِ العلَّةُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المقصودَ تسليةُ المؤمنينَ وحثُّهم على التَّصبُّرِ على أذى المنافقينَ[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 19.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 492.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 295.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 34.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿لِيَحۡزُنَ﴾:

تعدُّدُ القراءاتِ والمعنى واحدٌ

قرأ نافعٌ: ﴿لِيُحۡزِنَ﴾ بضمِّ الياءِ وكسرِ الزّاي، مِن (أحزَنَهُ يُحزِنُهُ) على وزنِ (أفعَلَ يُفعِلُ)، وهي لغةُ تميم. وقرأ الباقونَ: ﴿لِيَحۡزُنَ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الزّاي، مِن (حَزَنَهُ يَحزُنُه) على وزنِ (فعَلَ يَفعُل)، وهي لغةُ قريشٍ العاليةُ، وهما بمعنًى واحدٍ[1]. والفاعلُ على كِلتا القراءتينِ هو الشَّيطانُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِيَحۡزُنَ﴾:

غايةُ الشَّيطانِ استمرارُ حزنِ المؤمنينَ وتجدُّدُه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ غايةَ الشَّيطانِ هي استمرارُ حزنُ المؤمنينَ وتجدُّدُهُ، فهو يحبُّ أنْ يرى المؤمنينَ دائمًا في حالِ ضعفٍ وانكسارٍ ويأسٍ وقُنوطٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إيمانُ المؤمنينَ سببُ عداوةِ الشَّيطانِ لهم

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - على علَّةِ الحكم، وهو طلبُ الحزنُ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ إيمانَ المؤمنينَ هو سببُ إرادةِ الشَّيطانِ حزنَهم المستمرَّ المتجدِّدَ؛ لأنَّ الإيمانَ يَغيظُهُ.

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

المؤمنونَ ثابتونَ على إيمانِهم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الإيمانِ ووقوعِهِ، وهذا يزيدُ الشَّيطانَ غيظًا ورغبةً في جلبِ الحزنِ لهم.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾:

الشَّيطانُ ليسَ في يدِهِ شيءٌ

الواوُ في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ حاليَّةٌ،

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 138.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 449.

والجملةُ حالٌ لدفعِ توهُّم أنَّ في يدِ الشَّيطانِ شيئًا مِنَ الأمرِ[1].
ويحتملُ أنْ تكونَ معترضةً[2] لإفادةِ هذا الغرضِ أيضًا.

مرجعُ الضَّميرِ المستترِ في ﴿وَلَيۡسَ﴾:

يجوزُ أنْ يكونَ اسمُ (ليسَ) المستترُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ عائدًا على الشَّيطانِ، والمعنى: أنَّ الشَّيطانَ لا يضرُّ المؤمنينَ بالنَّجوى أكثرَ مِنْ أنَّهُ يَحزُنُهم.

الحـزنُ أقـصَى ضـررِ الشَّيطانِ بالمؤمنينَ

ويجوزُ أنْ يكونَ عائدًا على حَدَثِ الحزنِ المفهومِ مِنْ ﴿لِيَحۡزُنَ﴾[3]؛ أي: ليسَ الحزنُ بضارِّهم شيئًا إلّا بإذنِ اللّهِ.

الحـزنُ لا يضرُّ المؤمنَ إلّا بإذنِ اللهِ

ويجوزُ أنْ يكونَ عائدًا على النَّجوى بتأويلِها بالتَّناجي؛ أي: ليسَ التَّناجي بضارِّ المؤمنينَ شيئًا إلّا بإذنِ اللّهِ[4].

التَّناجي لا يضرُّ إلّا بإذنِ اللهِ

بلاغةُ الحصرِ بالنَّفْيِ والاستثناء:

القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ يفيدُ أنَّ الضَّررَ لا يَلحَقُهم في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا في حالِ أنْ يكونَ اللّهُ قدَّرَ شيئًا مِنَ المَضَرَّةِ[5]، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فلا داعيَ للخوفِ والجَزَعِ.

الضَّرَرُ لا يَلحَقُ العبدَ إلّا في حالِ تقديرِ اللهِ لهُ

معنى الباءِ في ﴿بِضَآرِّهِمۡ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (ليسَ)[6]، وفي ذلكَ مزيدُ ترسيخٍ للطُّمأنينةِ في نفوسِ المؤمنينَ.

ترسيخُ الطُّمأنينةِ في نفوسِ المؤمنينَ

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ: ﴿بِضَآرِّهِمۡ﴾:

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ

لا ضررَ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا بإذنِ اللهِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 20، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 271.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373 - 374.

﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (وليسَ يضرُّهم شيئًا)؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الضَّررِ عنهم في الحالِ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ حقيقةٌ في زمنِ الحالِ، وذلكَ النَّفيُ يستلزمُ انتفاءَهُ في الماضي بالأولى، ويدلُّ بمعونةِ المَقام على انتفاءِ الضَّررِ في الاستقبالِ أيضًا، إلّا إذا شاءَ اللّهُ تعالى شيئًا مِنَ الضَّررِ.

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ التَّعبيرَ باسمِ الفاعلِ يفيدُ عادةً تحقُّقَ الفعلِ لا محالةَ فضلًا عن تجدُّدِ حدوث الفعل، فنفيُهُ يفيدُ انتفاءَ هذا التَّحقُّقِ المؤكَّد، ونفيَ تجدُّدِ الفعل.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾:

انتصَبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ على المفعولِ المطلقِ؛ أي: شيئًا مِنَ الضُّرِّ، ووقوعُهُ وهو نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ يفيدُ عمومَ نفيِ كلِّ ضرٍّ مِنَ الشَّيطانِ[1]؛ أي: انتفَى كلُّ شيءٍ مِنْ ضرِّ الشَّيطانِ عن المؤمنينَ، فيشملُ ضرَّ النَّجوى وضرَّ غيرِها.

انتفاءُ كلِّ شيءٍ مِنْ ضرِّ الشَّيطانِ عن المؤمنينَ

ويجوزُ أنْ يكونَ عمومُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مرادًا بِهِ الخصوصُ؛ أي: ليسَ بضارِّهم شيئًا ممّا يوهِمُهُ تناجي المنافقينَ مِنْ هزيمةٍ أو قتلٍ إلّا بتقديرِ اللّهِ حصولَ هزيمةٍ أو قتلٍ، والمعنى: أنَّ التَّناجيَ يوهِمُ الَّذينَ آمنوا ما ليسَ واقعًا، فأخبرَهم اللّهُ بعدمِ الحزنِ بالنَّجوى؛ لأنَّ الأمورَ تجري على ما قدَّرَهُ اللّهُ في نفسِ الأمرِ حتَّى تأتيَهم الأخبارُ الصّادقةُ[2].

الأمورُ تَجري على ما قدَّرَهُ الله

معنى الباءِ في ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ للسَّببيَّةِ؛ أي: إلّا بسببِ إذنِ اللّهِ بوقوعِ شيءٍ مِنَ المضرَّةِ[3]. ويجوزُ أن تكونَ للمُلابَسةِ[4]؛ أي: لا يقعُ الضُّرُّ إلّا مُلابِسًا لإذنِ اللّه سبحانه.

كلُّ شيءٍ بتقديرِ الله

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35 - 36.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35.

(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1924.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإذنِ:

الضُّرُّ والنَّفعُ بقضاءِ اللهِ وقدرِه ومشيئتِه

الإذنُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ مُستعارٌ لقضاءِ اللّهِ وقَدَرِه[1]، أو لمشيئتِه[2]، أو لِما جعلَهُ اللّهُ في أصلِ الخِلْقةِ مِنْ تأثُّرِ النُّفوسِ بما يُسوِّلُ إليها[3].

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

إذنُ العظيمِ عظيمٌ

إضافةُ الإذنِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ لتشريفِ الإذنِ وتعظيمِه.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ:

المقتدرُ العظيمُ بيدِهِ كلُّ شيءٍ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِه مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرةً[4]، فيكونُ ملائمًا لمقامِ بيانِ أنَّ الضَّررَ لا يصلُ إلى المؤمنينَ إلّا بإذنِ اللّه؛ أي: إلّا بإذنِ المقتدرِ العليمِ الَّذي بيدِهِ الضُّرُّ والنَّفعُ.

دلالةُ الواوِ في جملةِ الفاصلة:

التَّوكُّلُ تمامُ الاعتقادِ بأنَّ النَّفعَ والضُّرَّ بيدِ اللهِ

الواوُ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ، وهي تذييلٌ مُؤكِّدٌ لِما قبلَهُ.

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها[5]، أو على محذوفٍ، وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ التَّقديرُ: (فقد عُلِمَ أنَّهُ لا يُخشَى أحدٌ غيرُ اللّهِ؛ لأنَّهُ لا يَنْفُذُ إلّا ما أرادَهُ، فإيّاهُ فليَخْشَ المربوبونَ) عطفَ عليهِ قولَهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[6].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 243.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 35.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 20.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.

معنى (على) في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

رجاءُ المؤمنِ قويٌّ باللهِ تعالى

(على) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ؛ بمعنى: أن يَجعلوا توكُّلَهم فوقَ كلِّ شيءٍ مِن المخلوقات، ويَصِلوه باللّه ﷻ وحده. وفي التَّعبيرِ بها إيذانٌ بأنَّ على المؤمنِ أنْ يجعلَ رجاءَهُ باللّهِ تعالى قويًّا، فهو يستندُ إليهِ استنادَ مَنْ لا يخافُ شيئًا.

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في موضعِ إضمارِهِ:

مَنْ تَوَكَّلَ على العظيمِ لم يَخِبْ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وعليهِ فليتوكَّلِ المؤمنونَ) بالإضمارِ؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، ولكنْ أوثِرَ الإظهارُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للتَّنصيصِ على ذكرِ الاسمِ الدّالِّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي تُرغِّبُ في الاعتمادِ عليهِ، وتفويضِ الأمورِ إليهِ[1]، ولتأكيدِ استقلالِ الجملةِ التَّذييليَّةِ، بحيث تَجري مَجْرَى الأمثالِ.

غرضُ تقديمِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

المؤمنُ يَتوكَّلُ على اللهِ وحدَه

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للاهتمامِ بمدلولِ هذا المُتعلَّقِ[2]، ولإفادةِ التَّخصيصِ والحصرِ، وبيانِ أنَّ الواجبَ على المؤمنينَ التَّوكُّلُ على اللّهِ تعالى وحدَهُ[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

كونُ الضُّرِّ مِنْ مشيئةِ اللهِ سببٌ للتَّوكُّلِ عليه

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ هي الفصيحةُ، وزيدَتْ للسَّببيَّةِ، وتوكيدِ تعليقِ الفعلِ بمعموله قبلَهُ؛ فتفيدُ تسبُّبَ الأمرِ بالتَّوكُّلِ عن كونِ الضُّرِّ مِنْ مشيئةِ اللّهِ تعالى[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 36.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 505.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 505.

دلالةُ الأمرِ بالتَّوكُّلِ:

التَّوكُّلُ على اللهِ سببٌ للرِّبحِ في الدُّنيا والآخرة

الأمرُ بالتَّوكُّلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للوجوبِ أو للإرشادِ، فمَنْ أرادَ الرِّبحَ في الدُّنيا والآخرةِ فليُفوِّضْ أمرَهُ إلى اللّهِ.

سرُّ إظهارِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ في موضعِ إضمارِهم:

التَّوكُّلُ على اللهِ مِنْ مقتضَياتِ الإيمانِ الكامِلِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فليتوكَّلوا) بالإضمارِ، ولكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتأكيدِ استقلالِ الجملةِ التَّذييليَّةِ الجاريةِ مَجْرَى الأمثالِ، وللتَّصريحِ بوصفِ الإيمانِ الَّذي هو الدّافعُ إلى التَّوكُّلِ، كأنَّهُ قيلَ: فليتوكَّلِ المؤمنونَ؛ لإيمانِهم باللّهِ، ويقينِهم أنَّهُ النّافعُ الضّارُّ لا غيرُهُ[1]، ولرعايةِ تلاؤُمِ الفواصلِ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ شأنُ جميعِ المؤمنين

تعريفُ المؤمنينَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للجنسِ المستغرقِ لجميعِ الأفرادِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ التَّوكُّلَ على اللّهِ ﷻ ينبغي أنْ يكونَ شأنَ جميعِ المؤمنينَ.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

الرّاسخُ في الإيمانِ يتوكَّلُ على اللهِ في جميعِ أمورِهِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لدلالتِهِ على الرُّسوخِ في الاتِّصافِ بالإيمانِ؛ أي: وعلى اللّهِ فليتوكَّلِ الرّاسخونَ في الإيمانِ في جميعِ أمورِهم[2]. وقد مرَّ أنَّ التَّعبيرَ بوصفِ (المؤمنين) يدلُّ على أنَّ الإيمانَ صارَ نعتًا للمؤمنين، فهُم معروفون بالصِّفة لا بالصِّلة؛ أي: أنَّ الإيمان في قلوبهم صار مُلازمًا لهم مُلازَمةَ النَّعت لمنعوته، فهو فيهم كالطّول في الطَّويل لا يكادُ يتخلَّى عنه، وبهذا يكون التَّعبير ملائمًا لتمام التَّوكُّل على اللّه سبحانه، والتَّسليم له تعالى في شؤونهم كلِّها، وهو صنيعٌ لا يستطيعُهُ إلّا المؤمنُ الحقُّ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 505.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحزنُ والكآبةُ:

النَّجْوى سببُ الهمِّ العظيمِ

الكآبةُ: أثرُ الحُزن البادي على الوجهِ، ولذلكَ يقالُ: عَلَتْهُ كآبةٌ، ولا يقالُ: علاهُ حُزنٌ؛ لأنَّ الحُزنَ لا يُرى، وإنَّما تُرى دلالتُه على الوجهِ، وهي الَّتي تُسمَّى كآبةً[1].

وقد عُبِّرَ بالحُزنِ هنا؛ لدلالتِه على الهمِّ الغليظِ والتَّوجُّعِ[2] النّاشِئَينِ عن النَّجوى.

(1) معجم الفروق اللغوية، ص: 443.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 374.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾

[المجادلة: 11]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استِجلابُ أسبابِ المودَّةِ بعدَ دفعِ أسبابِ التَّباغُضِ

لَمّا نهى اللّهُ سبحانه عبادَهُ المؤمنينَ عمّا يكونُ سببًا للتَّباغُضِ والتَّنافُرِ أمَرَهم بما يكونُ سببًا لزيادةِ المحبَّةِ والمودَّةِ[1].

تعليمُ المسلمينَ الأدبَ في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ

ولَمّا بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ اليهودَ يُحَيّونَ النَّبيَّ ﷺ بما لم يُحيِّهِ به اللّهِ، وذَمَّهم على ذلكَ وصَلَ بهِ الأمرَ بتحسينِ الأدبِ في مُجالستِهِ ﷺ، وأمرَ المسلمينَ بالتَّعاطُفِ والتَّألُّفِ في مجلسِهِ؛ حتَّى يتمكَّنوا مِنَ الاستماعِ منهُ والنَّظرِ إليهِ[2].

ذكرُ سببٍ آخرَ مِنْ أسبابِ حزنِ المؤمنينَ ومعالجتُهُ

ولَمّا ذكرَ ﷻ ما يَحزُنُ مِنَ السِّرِّ؛ لكونِهِ اختصاصًا عن الجليسِ بالمَقالِ أتبَعَهُ الاختصاصَ بالمَجلسِ الَّذي ينشأُ عنهُ الحزنُ أيضًا، وهو المجلسُ الَّذي تَتَباعدُ به الأبدانُ، فيَلزَمُ عن ذلك مِن الظَّنِّ ما يَلزَمُ مِن السِّرِّ في الكلامِ[3].

ذكرُ آدابِ الجلوسِ مع الملَأ

ولَمّا نهى تعالى عن التَّناجي والسِّرارِ عُلِمَ منهُ الجلوسُ مع المَلَأ، فذكرَ آدابَهُ[4].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفَسَّحُواْ﴾: (فسح) أصلٌ يدلُّ على سَعَةٍ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 127.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 296.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 170 - 171.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسح).

فَسُحَ المكانُ فَساحةً[1]، وتفسَّحَ وانفسحَ[2]، والفُسُحُ والفسيحُ: الواسعُ مِنَ المكانِ[3]، ويقالُ: فَسَحَ له في المجلسَ يَفْسَحُ فَسْحًا وفُسوحًا، وتفسَّحَ: وسَّعَ[4]، وقد تفاسحَ القومُ: فَسَحَ بعضُهم لبعضٍ، ورجل فُسُحٌ؛ أي: واسعُ الصَّدرِ[5]. والمرادُ بالتَّفسُّحِ هنا: التَّوسُّعُ في المجلسِ، بأنْ يوسِعَ بعضُهم لبعضٍ، ولا يتضامّوا[6].

2) ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾: (جلس) أصلٌ يدلُّ على الارتفاعِ في الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ: الجلوسُ، وهو النُّهوضُ والارتفاعُ عن نومٍ واضطجاعٍ[7]، والمجلسُ: الموضعُ الَّذي يقعدُ فيهِ الإنسانُ[8]. والمرادُ بِهِ هنا: مجلسُ رسولِ اللّهِ ﷺ، أو مجلسُ القتالِ، أو جميعُ المجالسِ والمَجامعِ[9].

3) ﴿ٱنشُزُواْ﴾: (نشز) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ وعلوٍّ[10]، ومِنْ ذلكَ: النَّشزُ، وهو المرتفعُ مِنَ الأرضِ، ونُشوزُ المرأةِ: بُغضُها لزوجِها ورفعُ نفسِها عن طاعتِهِ[11]. والمرادُ بالنُّشوزِ هنا: الارتفاعُ والقيامُ للتَّوسعةِ على الدّاخلِ، أو القيامُ مِنْ عندِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وعدمُ التَّطويلِ في الكلامِ، أو القيامُ إلى الصَّلاةِ والجهادِ وأعمالِ الخيرِ[12].

4) ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: (درج) أصلٌ يدلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ والمُضيِّ فيهِ[13]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: درجَ، إذا مضَى لسبيلِهِ[14]، وفلانٌ يتدرَّجُ في كذا؛ أي: يتصعَّدُ فيهِ درجةً درجةً[15]، والدَّرجةُ: الرِّفعةُ والمنزلةُ[16]. وهو المرادُ هنا.

(1) ابن سيده، المخصص: (فسح).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فسح).
(3) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (فسح).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فسح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فسح).
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 195.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلس).
(8) الجوهري، الصّحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جلس).
(9) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشز).
(11) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (نشز).
(12) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 494.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درج).
(14) الزّبيدي، تاج العروس: (درج).
(15) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (درج).
(16) الخليل، العين: (درج).

المَعْنى الإجْماليُّ:

رعايةُ الأدبِ مِنْ سِماتِ أهلِ الإيمانِ والعِلْمِ

يحثُّ اللّهُ تعالى عبادَهُ على أدبٍ مِنْ آدابِ المجالسِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّهَ ورسولَهُ؛ إذا قيلَ لكم: توسَّعوا في المجالسِ فوسِّعوا، يوسِّعِ اللّهُ لكم في الدُّنيا والآخرةِ، وإذا قيلَ: انهَضوا مِنْ مجالسِكم، أو قوموا إلى قتالِ عدوٍّ أو صلاةٍ أو عملِ خيرٍ، أو تفرَّقوا عن رسولِ اللّهِ ﷺ فقوموا، يَرفَعِ اللّهُ المؤمنينَ منكم بطاعتِهم، ويرفعِ الَّذينَ أوتوا العلمَ مِنْ أهلِ الإيمانِ على المؤمنينَ الَّذينَ لم يُؤتَوا العلمَ درجاتٍ، واللّهُ بأعمالِكم خبيرٌ، لا يخفَى عليهِ المُطيعُ مِنكم ربَّهُ مِنَ العاصي، وهو مُجازٍ كُلًّا مِنكم بعملِهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ توسيطِ هذهِ الآيةِ بينَ آياتِ النَّجوى:

جَمعُ آياتِ التَّأدُّبِ مع النَّبيِّ في صعيدٍ واحدٍ

فُصِلَ بينَ آياتِ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالنَّجوى بهذهِ الآيةِ؛ مراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بينَ مضمونِ هذهِ الآيةِ ومضمونِ الَّتي بعدَها في أنَّهما يَجمَعُهما غرضُ التَّأدُّبِ مع الرَّسولِ ﷺ، وتلكَ المراعاةُ أولى مِنْ مراعاةِ اتِّحادِ سياقِ الأحكامِ.

ففي هذهِ الآيةِ أدبٌ في مجلسِ الرَّسولِ ﷺ، والآيةُ الَّتي بعدَها تتعلَّقُ بالأدبِ في مناجاتِهِ، وأُخِّرَتْ تلكَ عن آياتِ النَّجوى العامَّةِ إيذانًا بفضلِها دونَ النَّجوى الَّتي تضمَّنَتْها الآياتُ السّابقةُ، فاتِّحادُ الجنسِ في النَّجوى هو مُسوِّغُ الانتقالِ مِنَ النَّوعِ الأوَّلِ إلى النَّوعِ الثّاني، والإيماءُ إلى تميُّزِها بالفضلِ هو الَّذي اقتضَى الفصلَ بينَ النَّوعينِ بآيةِ أدبِ المجلسِ النَّبويِّ. وأيضًا قد كانَ للمنافقينَ نيَّةُ مكرٍ في قضيَّةِ المجلسِ كما كانَ لهم نيَّةُ مكرٍ في النَّجوى، وهذا ممّا أنشأ مناسبةَ الانتقالِ مِنَ الكلامِ على النَّجوى إلى ذكرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ[2].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 243 - 247.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 36 - 37.

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

يَــجِــبُ على المؤمنينَ العنايةُ بأدبِ المجالسِ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بهِ لأمرِ المؤمنينَ بآدابٍ جديدةٍ تتعلَّقُ بالمجالسِ، وفي الفصلِ تأكيدٌ لأهمّيَّتِهِ واستقلالِهِ، ولو عُطِفَ على ما قبلَهُ لربَّما ظُنَّ أنَّهُ مِنْ تَوابعِهِ، فلم يُلتفَتْ إليهِ حقَّ الالتفاتِ.

سرُّ تكرارِ النِّداءِ:

المــؤمــنــونَ حَريصونَ على تعلُّمِ الآدابِ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ بالنِّداءِ مع تقدُّمِهِ قبلَ ذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لتنبيهِ المخاطَبينَ إلى أهمّيَّةِ ما يتلوهُ مِنَ الكلامِ.

تعيينُ المخاطَبِ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

المؤمنُ يُراعي الأدبَ في مجلسِ النَّبيِّ وفي كلِّ المَجالِسِ

الخطابُ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطابٌ لجميعِ المؤمنينَ، يَعُمُّ مَنْ حضروا المجلسَ الَّذي وقعَتْ فيهِ حادثةُ سببِ النُّزولِ وغيرَهم ممَّنْ عسى أنْ يحضرَ مجلسَ الرَّسولِ ﷺ(1). وإذا حُمِلَ الكلامُ على عمومِ المَجالسِ فالخطابُ للمؤمنينَ في كلِّ زمانٍ.

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

المُؤمنُ يَمتثِلُ لأمرِ الشّارعِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِ المُخاطَبينَ وحَثِّهم على الاستماعِ لِما بعدَهُ مِنَ التَّكليفِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الإيمانَ داعٍ إلى الامتثالِ(2). ويُقالُ في صلتِهِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ ما قيلَ في مَطلَعِ الآيةِ السّابقةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 375.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ في المَوضِعَين:

الإيمانُ بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ صفةُ المؤمنِ

حُذِفَ متعلَّقُ الإيمانِ في قولِه ﷻ: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ إيجازًا لظهورِه؛ إذِ المرادُ الإيمانُ باللّهِ ورسولِه وبكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ في ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾:

المؤمنُ يوسِّعُ لإخوتِهِ المؤمنين

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على قوَّةِ الارتباطِ بينَ طلبِ التَّفسُّحِ منهم وبينَ الامتثالِ لهذا الطَّلبِ بتفسُّحِهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ للمؤمنِ على أنَّهُ لا ينبغي لهُ أنْ يتخلَّفَ عمّا فيهِ تَوسعةٌ على المسلمينَ. ومثلُهُ يقالُ في استعمالِ الشَّرطِ في قولِهِ جَلَّ في عُلاهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

طَلَبُ التَّفسُّحِ في المَجالِسِ كثيرُ الحُصولِ

أوثِرَتْ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾، مع أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في المستقبلِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ فيهِ، وطلبُ التَّفسُّحِ مِنَ المؤمنينَ في المجالسِ أمرٌ كثيرُ الحصولِ، لا سيَّما في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ الَّذي يَحرِصونَ على حضورِهِ، ويَزدَحِمونَ فيه عادةً. ومثلُهُ يقالُ في إيثارِ (إذا) في قولِهِ سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

طلبُ التَّفسُّحِ بمنزلةِ الحاصلِ في الماضي

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ كما تقدَّمَ، والماضي أقربُ إلى القطعِ بالنَّظرِ إلى لفظِهِ وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ طلبَ التَّفسُّحِ منهم بمنزلةِ الحاصلِ.

الخيرُ مرغوبٌ فيهِ لِذاتِه

وبُنيَ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ المؤمنَ يَمتَثِلُ للأمرِ بالتَّفسُّحِ أيًّا كانَ الآمرُ به؛ فإنَّ الخيرَ يُرغَبُ فيه لذاتِه[1].

قد يكونُ الأمرُ بالتَّفسُّحِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ لظهورِ الفاعلِ؛ أي: إذا قالَ لكم الرَّسولُ: تفسَّحوا فافسَحوا، فالآيةُ لا تدلُّ إلّا على الأمرِ بالتَّفسُّحِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، ولكنْ يستفادُ منها أنَّ تفسُّحَ المسلمينَ بعضِهم لبعضٍ في المجالسِ محمودٌ مأمورٌ بِه وجوبًا أو ندبًا، فهو مِنْ مكمِّلاتِ واجبِ التَّحابِّ بينَ المسلمينَ وإنْ كانَ فيهِ كُلفةٌ على صاحبِ البُقعةِ يضايِقُهُ فيها غيرُهُ؛ فهي كُلفةٌ غيرُ مُعتبَرةٍ إذا قوبِلَتْ بمصلحةِ التَّحابِّ وفوائدِه، وذلكَ ما لم يُفْضِ إلى شدَّةِ مُضايقةٍ ومَضَرَّةٍ، أو إلى تفويتِ مصلحةٍ مِنْ سماعٍ أو نحوِه، كمجالسِ العلمِ والحديثِ وصفوفِ الصَّلاةِ[2]. ومثلُ هذا يُقالُ في الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قولِه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

تبليغُ الأمرِ بالتَّفسُّحِ إلى المخاطَبينَ

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾ للتَّبليغِ؛ بمعنى إيصالِ القولِ لهم ليَعمَلوا بمقتضاهُ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿تَفَسَّحُواْ﴾:

التَّفسُّحُ واجبٌ أو مندوبٌ

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ واردٌ على سبيلِ الوجوبِ أو على سبيلِ النَّدبِ[3]، على حسبِ مصلحةِ المسلمين في المجلسِ الَّذي يَحضُرونه، والغرضُ منهُ الحثُّ على ما يُؤدّي إلى التَّحابِّ بينَ المسلمينَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّفسُّحِ:

المُضايَقةُ والمُزاحَّةُ ممنوعةٌ في المَجالِس

عُبِّرَ بالتَّفسُّحِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾؛

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.

لدلالتِهِ على تجنُّبِ المُضايقةِ والمُراصَّةِ، بحيثُ يَفوتُ المقصودُ مِنْ حضورِ ذلكَ المجلسِ، أو يحصلُ ألمٌ أو أذًى للجالِسِينَ[1].

سرُّ تضعيفِ الفعلِ ﴿تَفَسَّحُواْ﴾:

بَـذْلُ الـوُسْـعِ فـي الـتَّـوسِـعَـةِ للمؤمنين

جيءَ بصيغةِ التَّفعُّلِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾؛ لدلالتِها على التَّكلُّفِ؛ أي: كَلِّفوا أنفسَكم في تَوسِعَةِ المكانِ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى بذلِ غايةِ الوُسْعِ في التَّوسعةِ للمؤمنينَ في المجالسِ.

معنى ﴿فِي﴾ مِن قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾:

التَّفسُّحُ المأمورُ بـهِ يـكـونُ في المَجالِس

قولُهُ ﷻ: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾، أو بـ﴿قِيلَ﴾[3]، وعلى الأوَّلِ يفيدُ الكلامُ أنَّ المجالسَ ظرفُ مكانٍ للتَّفسُّحِ، وعلى الثّاني يفيدُ أنَّها ظرفُ مكانٍ للأمرِ بهِ، والمآلُ واحدٌ؛ إذِ الأمرُ بالتَّفسُّحِ فيها يَستَدعي وقوعَ التَّفسُّحِ فيها.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾:

اختِلافُ القِراءاتِ بالجَمْعِ والإفراد

قَرَأ عاصمٌ: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ بالجمعِ، وقرأ الباقونَ: ﴿فِي ٱلۡمَجۡلِسِ﴾ بالإفرادِ[4]. والمرادُ بـ﴿ٱلۡمَجۡلِسِ﴾ على الإفرادِ: مجلسُ النَّبيِّ ﷺ، فيكونُ التَّعريفُ للعهدِ، أو المرادُ جنسُ المجلسِ، ويدخلُ فيهِ مجلسُ النَّبيِّ ﷺ دخولًا أوَّليًّا[5]. وأمّا قراءةُ الجمعِ: ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ فهي باعتبارِ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم مَجلِسًا[6]، فاللّامُ للجنسِ، أو للعهدِ والمرادُ مجالسُ النَّبيِّ ﷺ كلَّما تكرَّرَتْ[7].

معنى الفاءِ في ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾:

المُؤمِنُ يُسارِعُ في التَّفسُّحِ إذا طُلِبَ مِنه

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 37.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.
(4) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 385.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 505.
(6) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 272.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.

لأنَّهُ جملةٌ طلبيَّةٌ، وفائدةُ الفاءِ تقويةُ الرَّبطِ بينَ الشَّرطِ والجواب، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى ضرورةِ المسارعةِ في امتثالِ الأمرِ بالتَّفسُّحِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾:

الإفساحُ واجبٌ أو مندوبٌ

الأمرُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ للوجوبِ، أو للنَّدبِ[1]، وأيًّا ما كانَ فالمطلوبُ مِنَ المؤمنينَ التَّوسِعةُ لإخوانِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالإفساحِ دونَ التَّفسُّحِ:

مَنِ امتَثَلَ للأمرِ بالتَّوسِعَةِ يسَّرَ اللهُ عليه

عُبِّرَ بالإفساحِ دونَ التَّفسُّحِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ لأنَّ في صيغةِ التَّفعُّلِ إشارةً إلى التَّكلُّفِ في التَّوسعةِ في المجلسِ، فلم يُعبَّرْ بها؛ للإيماءِ إلى أنَّ المؤمنَ الَّذي يستجيبُ لطلبِ التَّفسُّحِ يُيسِّرُ اللّٰهُ عليه، فلا يجدُ صعوبةً في الامتثالِ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على التَّوسعةِ.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ المجزومِ في ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾:

مَنْ وسَّعَ لعبادِ اللهِ وسَّعَ اللهُ له

قولُهُ ﷻ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ مجزومٌ في جوابِ قولِه: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾[2]، كأنَّهُ قيلَ: إنْ تَفسَحوا يَفسَحِ اللّٰهُ لكم، وهو وعدٌ بالجزاءِ على الامتثالِ لأمرِ التَّفسُّحِ مِنْ جنسِ الفعلِ؛ إذ جُعِلَتْ توسعةُ اللّٰهِ للمُمتَثِلِ جزاءً على امتثالِهِ الَّذي هو إفساحُهُ لغيرِهِ[3].

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾:

اللهُ تعالى واسعٌ كريمٌ مُقتَدِر

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِهِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها أنَّ لهُ الأمرَ كلَّهُ والعظمةَ الكاملةَ[4]، فهو قادرٌ على أنْ يوسِّعَ لِمَنْ وسَّعَ لعبادِهِ، وهو كريمٌ في هذهِ التَّوسعةِ.

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمۡۖ﴾:

فائدةُ التَّفسُّحِ عائدةٌ على المُفسِحِ

اللّامُ في قولِ الحقِّ جلَّ سلطانُهُ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ للتَّعليلِ؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 37 - 38.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

أي: يفسحِ اللّهُ لأجلِكم، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ فائدةَ التَّفسُّحِ تعودُ على المُفسِحَ، فينبغي عليهِ أنْ يُبادِرَ لاغتنامِ هذهِ الفُرصةِ، وقَطْفِ هذهِ الثَّمرةِ.

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَفۡسَحِ﴾:

تَوسِعَةُ اللهِ تعالى مُطلَقَةٌ في خيرَيِ الدُّنيا والآخرة

قولُهُ ﷻ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ مُطلَقٌ في كلِّ ما يَطلُبُ النّاسُ الفُسْحةَ فيه، مِنَ المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ والقبرِ والجنَّةِ[1]، فهو شاملٌ لخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ العملَ الصَّغيرَ الَّذي يعملُهُ المؤمنُ - كالتَّفسُّحِ في المجلسِ - قد يُفيضُ عليهِ خيراتٍ كثيرةً.

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾:

التَّفسُّحُ قد يكونُ بالقيامِ مِنَ المكانِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾، والنُّشوزُ: النُّهوضُ مِنَ المكانِ، وهو أخصُّ مِنَ التَّفسُّحِ مِنْ وجهٍ، فهو مِنْ عطفِ الأخصِّ مِنْ وجهٍ على الأعمِّ منهُ؛ للاهتمامِ بالمعطوفِ؛ لأنَّ القيامَ مِنَ المجلسِ أقوى مِنَ التَّفسُّحِ مِنْ قُعودٍ، فذُكِرَ النُّشوزُ لئلّا يُتوهَّمَ أنَّ التَّفسُّحَ المأمورَ بهِ تفسُّحٌ مِنْ قعودٍ فقطْ[2]، بل قد يكونُ بالقيامِ للتَّحوُّلِ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ[3].

سرُّ عدمِ تكرارِ (لكم):

الاستغناءُ بالمُقدَّمِ عن المؤخَّرِ

لم يُكرَّرْ (لكم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ إيجازًا؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾.

يُضافُ إليه أنَّه لمّا كان النُّشوز بمعنى القيامِ من المكانِ لم يُخصِّصْهُ بتوجيهِ الخطابِ المُباشرِ لهم بالقيدِ (لكم) تَلطُّفًا، مع كونه نوعًا من أنواعِ التَّفسُّحِ.

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 492، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 449.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾:

المُـؤمِـنُ يُـؤثِـرُ إخوانَهُ المؤمنينَ على نفسِه

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ للوجوبِ أو النَّدبِ، وأيًّا ما كانَ فهو حثٌّ للمخاطَبينَ على النُّشوزِ عندَ الحاجةِ إليهِ للتَّوسعةِ في المجالسِ وإنْ أدَّى ذلكَ إلى قيامِهِ مِنْ مكانِهِ، وإيثارِ غيرِهِ على نفسِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّشوزِ:

المُؤمِنُ يَرتَفِعُ عن مكـانِ جلوسِهِ إذا طُـلِـبَ منهُ ذلك

عُبِّرَ بالنُّشوزِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ لدلالتِهِ على الارتفاعِ عندَ النُّهوضِ مِنَ المكانِ الَّذي استقرَّ فيهِ[1]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنَ ينهضُ مِنْ مكانِهِ ليُفسِحَ لغيرِهِ مِنْ إخوانِهِ المؤمنينَ، فهو يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسِهِ، وبذلك يَرتفعُ مَقامُهُ عندَ اللهِ، وبينَ عبادِ اللهِ.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنشُزُواْ﴾:

مُـسـارَعَـةُ المُـخـاطَـبـينَ في النُّشوزِ

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّهُ جملةٌ طلبيَّةٌ، وغرضُ الفاءِ تقويةُ الارتباطِ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المخاطَبينَ لا ينبغي لهم أنْ يتخلَّفوا عن الامتثالِ للأمرِ بالنُّشوزِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المجزومِ ﴿يَرۡفَعِ﴾:

مَـنِ ارتَـفَـعَ لإخـوانِـهِ رفَـعَـهُ الله

قولُهُ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ جوابٌ للأمرِ في ﴿فَٱنشُزُواْ﴾[2] مجزومٌ به، كأنَّهُ قيلَ: إنْ تَنْشُزوا يَرفَعِ اللّهُ ﷻ المؤمنينَ منكم[3]، وهو وعدٌ بمُجازاةِ مَنِ ارتفَعَ عن مجلسِهِ تَوسعةً لغيرِهِ بمثلِ صنيعِهِ، وذلكَ بأنْ يرفعَ اللّهُ تعالى درجاتِهِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿يَرۡفَعِ﴾:

أهـلُ الإيـمـانِ والعلمِ مُفضَّلونَ مُكرَّمونَ عندَ الله

الرَّفعُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 222.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40.

﴿ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ رفعٌ مجازيٌّ، وهو مُستعارٌ للتَّفضيلِ والكرامةِ[1]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أهلَ الإيمانِ والعلمِ مُفضَّلونَ مُكرَّمونَ عندَ اللّهِ ﷻ.

بلاغةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في موضعِ إضمارِه:

النَّفْسُ شحيحةٌ بما يُخالِفُ مألوفَها

أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ مع أنَّ الظّاهرَ الاستغناءُ بالضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على جميعِ صفاتِ العظمةِ والجلالِ؛ ترغيبًا في الامتثالِ، وذلكَ لِما للنَّفسِ مِنَ الشُّحِّ بما يُخالِفُ المألوفَ[2]، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ بجَرَيانِ الجملةِ مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

امتِثالُ النّاشِزينَ مصحوبٌ بإيمانِهم

كانَ مُقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (يرفعِ اللّهُ النّاشزينَ منكم)، إلّا أنَّهم استُحضِروا بالموصولِ بصلةِ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾؛ لِما تُؤذِنُ بهِ الصِّلةُ مِنَ الإيماءِ إلى علَّةِ رفعِ الدَّرجاتِ، وهي إيمانُهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ امتثالَهم للأمرِ مصحوبٌ بالإيمانِ[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

النّاشِزونَ المَرفوعونَ مُتَحقِّقو الإيمانِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِهم في وصفِ الإيمانِ الموجِبِ لعلوِّ الشَّأنِ[4]؛ لأنَّ الماضيَ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ قد تحقَّقَ منهم.

معنى (مِنْ) في ﴿مِنكُمۡ﴾:

رِفعةُ الدَّرَجاتِ لأهلِ الإيمانِ فقط

ضميرُ جماعةِ العُقَلاءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ خطابٌ للَّذينَ نودوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، و(مِنْ) تبعيضيَّةٌ؛ أي: يرفعِ اللّهُ الَّذينَ استجابوا للأمرِ بالنُّشوزِ إذا كانوا مِنَ المؤمنينَ؛ أي: دونَ مَنْ يَضُمُّهُ المجلسُ مِنَ المنافقينَ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 41.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 506، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 41.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40 - 41.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو مِنْ عطفِ الصِّفاتِ، والمعنى: يرفع اللّهُ المؤمنينَ العلماءَ درجاتٍ، فالوصفانِ لذاتٍ واحدةٍ[1].

المَرفوعونَ مُتَّصِفونَ بالإيمانِ والعِلْمِ

ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الَّذينَ أوتوا العلمَ بعضُ المؤمنينَ منهم[2]. ونكتةُ هذا العطفِ: تعظيمُ الخاصِّ - وهم العلماءُ - كأنَّهُ جنسٌ آخرُ، وحثُّ العلماءِ على تركِ ما عُرِفوا بالحرصِ عليهِ مِنْ رِفعةِ المَجالسِ وحُبِّهم للتَّصديرِ، وهذا مِنْ إعجازِ القرآنِ؛ لأنَّهُ قد ظهرَ مِنْ هؤلاءِ في سائرِ الأعصارِ تنافُسٌ في ذلكَ[3].

تَنافُسُ العلماءِ في التَّصدُّرِ ورِفعةِ المَجالِسِ

وفي عطفِ الخاصِّ على العامِّ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ يشهدُ مجلسَ رسولِ اللّهِ ﷺ مِنَ المؤمنينَ أحدُ رجلينِ: عاملٍ يَسمَعُ للعملِ، وعالمٍ عاملٍ يَسمَعُ للعملِ والاستنباطِ والتَّعليمِ، فأرادَ اللّهُ ﷻ مدحَ الفريقينِ، وتفضيلَ أحدِهما على الآخرِ مِنْ حيثُ لا يَلزَمُ منهُ نقصُهُ[4].

مَجالِسُ رسولِ اللهِ ﷺ مَجالِسُ علمٍ وعَمَلٍ

سرُّ تكرارِ الموصولِ في ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

أُعيدَ الموصولُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لتأكيدِ ما في عطفِ الخاصِّ على العامِّ مِنَ الإشعارِ بتعظيمِ الخاصِّ واستقلالِهِ، حتَّى كأنَّهُ جنسٌ آخرُ مُغايِرٌ لجنسِ العامِّ[5]. وفي ذلك إثباتٌ لمزيَّةِ المؤمنِ العالمِ على المؤمنِ غيرِ العالمِ.

المُؤمِنُ العالِمُ مُفضَّلٌ على المُؤمِنِ غيرِ العالِمِ

بَراعَةُ صَوْغِ الفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

جيءَ بالفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

العالِمُ الرّاسِخُ يَستَحِقُّ الرَّفعَ والتَّكريمِ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 128.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 272.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 287.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.

﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ للتَّنبيهِ على رُسوخِهم في العلمِ وتحقُّقِهم فيهِ، ولذلكَ استحقّوا الرَّفعَ والتَّكريمَ مِنَ اللّهِ ﷻ.

شَرَفُ العِلْمِ عظيم

وبُنيَ ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ للمفعولِ؛ للإشعارِ بتعيُّنِ الفاعلِ، وهو اللّهُ ﷻ، وفي ذلكَ تشريفٌ لشأنِ العلمِ، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّنبيهِ على أنَّ العلمَ في نفسِهِ كافٍ في الإعلاءِ، مِنْ غيرِ نظرٍ إلى مُؤْتٍ مُعيَّنٍ(1).

دلالةُ تعريفِ العلمِ:

جنسُ العِلْمِ يُشَرِّفُ حامِلَه

تعريفُ العلمِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ للجنسِ؛ أي: أوتوا جنسَ الشَّيءِ المُسمَّى بالعلمِ.

سرُّ عدمِ تكرارِ القَيْدِ (مِنْكم) في ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

العِلْمُ يُعلي صاحِبَهُ مطلقًا

تُرِكَ التَّقييدُ بـ(مِنْكم) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وإنْ كانَتْ مرادةً؛ لإفادةِ أنَّ العلمَ يُعلي صاحبَهُ مطلقًا، فإنْ كانَ مؤمنًا عاملًا بعلمِهِ كانَ النِّهايةَ في العلوِّ، وإنْ كانَ عاصيًا كانَ أرفعَ مِنْ مؤمنٍ عاصٍ وعارٍ عن العلمِ، وإنْ كانَ كافرًا كانَتْ رِفعتُهُ دنيويَّةً بالنِّسبةِ إلى كافرٍ غيرِ عالمٍ(2).

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾:

الدَّرَجاتُ كراماتٌ عندَ اللهِ ﷻ

انتصَبَ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّة؛ أي: يَرفَعِ اللّهُ الَّذين أوتوا العلم رفعًا كائنًا في درجاتٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على المصدريَّةِ على تقدير: يَرفَعُهم مَرافِعَ.

والدَّرَجاتُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ مُستعارةٌ للكرامةِ؛ فإنَّ مكانَ الرَّفعِ في الآية له رفعٌ مجازيٌّ، والمرادُ بهِ التَّفضيلُ والكرامةُ كما تقدَّمَ، وجيءَ للاستعارةِ بترشيحِها بكونِ الرَّفعِ درجاتٍ، وهذا التَّرشيحُ أيضًا استعارةٌ(3).

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.

الــدَّرجــات مُتنوِّعةٌ وعظيمةُ الشَّأن

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ وجمعِهِ:

تنكيرُ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنواعِها مِنْ درجاتِ الدُّنيا ودرجاتِ الآخرةِ[1]. وفيه تعظيمٌ لها أيضًا؛ أي: درجاتٍ عاليةً[2] عظيمةَ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُها.

استِشعارُ مُراقَبةِ اللهِ يَحُثُّ على الاستِجابة

دلالةُ الواوِ في جُملةِ الفاصِلة:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لتأكيدِ ما سبقَ مِنَ الأوامرِ؛ أي: واللّهُ عليمٌ بأعمالِكم ومُختلِفِ نيّاتِكم مِنَ الامتثالِ وعدمِهِ[3]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ حاليَّةً؛ أي: والحالُ أنَّ اللّهَ بما تعملونَ خبيرٌ[4].

إحاطتُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ عِلْمًا حقيقةٌ ثابِتة

بلاغةُ اسميَّةِ جملةِ الفاصِلة:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كونَهُ تعالى خبيرًا بأعمالِ المخاطَبينَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

مَنْ لم يُراعِ أوامرَ اللـهِ فهو على خَطَر

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ الفاصِلة:

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ خبرٌ يُرادُ بهِ الوعيدُ والتَّهديدُ لِمَنْ لم يَمتثِلِ الأمرَ، أو استكرَهَهُ[5].

مَنْ عَرَفَ صفاتِ العظيمِ خشيَهُ وامتَثَلَ أوامرَه

سرُّ تكرارِ اسمِ الجلالةِ وإظهارِهِ:

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وهو بما تعملونَ خبيرٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، لكنْ أُظهِرَ اسمُ الجلالةُ وكُرِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها القدرة

---

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 171، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 220، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195.

التّامَّةُ والعلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ[1]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ تربيةِ المهابةِ، والحثِّ على الامتثالِ. يُضافُ إلى ذلكَ ما في الإظهارِ مِنْ تأكيدِ استقلالِ جملةِ التَّذييلِ بحيثُ تَجري مَجْرى الأمثالِ.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

تَعَلُّقُ عِلْمِ اللهِ تعالى بأعمالِ المُخاطَبين

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ للتَّعديةِ، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿خَبِيرٞ﴾، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أعمالَ المخاطَبينَ مُتعلَّقُ خِبْرةِ اللّهِ تعالى.

غرضُ الإتيانِ بـ(ما) الموصولة:

أعمالُ المُخاطَبِينَ كلُّها مُحاطٌ بها عِلْمًا

عُبِّرِ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للوعيدِ، ببيانِ أنَّ كلَّ عملٍ يَصدُرُ مِنَ المخاطَبِينَ فهو تحتَ سلطانِ علمِ اللّهِ تعالى وقدرتِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

علمُ اللهِ تعالى مُحيطٌ مع كثرةِ العاملينَ وأعمالِهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ العملِ واستمرارِه، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ علمِ اللّهِ تعالى ببيانِ أنَّهُ سبحانَهُ لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أعمالِهم على كثرةِ العاملينَ وكثرةِ أعمالِهم وتنوُّعِها.

غرضُ تقديمِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

حُظوظُ النَّفْسِ حَرِيَّةٌ بِمَزيدِ التَّرهيب

قُدِّمَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿خَبِيرٞ﴾ وإنْ كانَ علمُهُ سبحانَهُ بالأشياءِ كلِّها على حدٍّ سواءٍ؛ تنبيهًا على مزيدِ الاعتناءِ بالأعمالِ، لا سيَّما الباطنة؛ مِنَ الإيمانِ والعلمِ اللَّذينِ هما الرّوحُ العُظمَى؛ لأنَّ المَقامَ لنزولِ الإنسانِ عن مكانِه بالتَّفسُّحِ والانخفاضِ والارتفاعِ، ولا يخفَى ما في ذلكَ مِنْ حظِّ النَّفسِ الحاملِ على الجَرْيِ مع الدَّسائسِ، فكانَ جديرًا بمزيدِ التَّرهيبِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.

(2) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 227.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377 - 378.

التَّنبيهُ على العلمِ البالغِ أنسبُ بمَقامِ التَّرهيب

سرُّ إيثارِ الخبيرِ على غيرِه:

أوثِرَ الخبيرُ على غيرِه - كالعليم مثلًا - في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لأنَّ الخبيرَ هو العليمُ بالظّاهرِ والباطنِ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّرهيبِ والحثِّ على الاستجابةِ.

اتِّصافُهُ تعالى بالخِبْرَةِ اتِّصافًا بليغًا

نكتةُ صَوْغِ ﴿خَبِيرٞ﴾ على زِنَةِ (فَعيلٍ):

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿خَبِيرٞ﴾؛ لأنَّها مِنْ صيَغِ المبالغةِ، فتفيدُ اتِّصافَهُ تعالى بالخِبْرةِ اتِّصافًا بليغًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّديُّ والمَجلِسُ والمَقامةُ:

المَجالِسُ لا تَختَصُّ بأعيانِ القَوْمِ

النَّديُّ: هو النّادي، وهو المجلسُ وفيهِ أهلُهُ، ولا يقالُ في المجلسِ إذا خلا مِنْ أهلِه: نَديٌّ، ويَجلِسُ فيه عادةً أعيانُ القومِ.

أمّا المَجلِسُ فيُطلَقُ سواءٌ كانَ فيهِ أهلُهُ أم لا.

وأمّا المُقامةُ بالضَّمِّ: فالمجلسُ الَّذي يُؤكَلُ فيهِ ويُشرَبُ، والمَقامةُ بالفتحِ: المجلسُ الَّذي يُتَحدَّثُ فيهِ[2].

وقد عُبِّرَ بالمجلسِ هنا؛ لأنَّهُ يَجلِسُ فيهِ أعيانُ القومِ وغيرُهم، ولا سيَّما مجلسُهُ ﷺ، فهو لنشرِ العلمِ والخيرِ، فيَحضُرُهُ جميعُ أصنافِ النّاسِ.

التَّفسُّحُ والتَّوسُّعُ:

التَّفسُّحُ يقال في التَّوْسِعَةِ للآخَرِ في المكانِ[3]، والسَّعَةُ تقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقدرة والجودِ ونحوِ ذلك[4]، فيكون التَّوسُّعُ أعمَّ من التَّفسُّح. وقد أوثِرَ في الآية الأخصُّ الدّالُّ على المقصود - وهو عدمُ المُضايَقةِ في المَجالِسِ - دلالةً دقيقةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 537.

(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فسح).

(4) الراغب، المفردات: (وسع).

النُّشوزُ والنُّهوضُ والقيام:

النُّشوزُ يَدُلُّ على الارتفاعِ والعُلوِّ[1]، والنُّهوضُ يَدُلُّ على البَراحِ عن المَوضِعِ والقيامِ عنه[2]، والقيامُ يَدُلُّ على الانتِصاب[3].

وقد عُبِّرَ بالنُّشوزِ في الآية؛ لدلالتِهِ على الارتفاعِ عندَ النُّهوضِ مِنَ المكانِ الَّذي استَقَرَّ فيهِ الجالسُ[4]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنَ يَتَجَشَّمُ عَناءَ النُّهوضِ مِنْ مكانِهِ؛ ليَفسَحَ لغيرِهِ مِنْ إخوانِهِ المؤمنينَ، فهو يُحِبُّ لهم ما يُحِبُّ لنفسِهِ، بل يُؤثِرُهم عليها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشز).

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نهض).

(3) الزبيدي، تاج العروس: (قوم).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 39.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [المجادلة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مُناجي النَّبيِّ لا يَنبَغي لَهُ أنْ يتعلَّقَ بالدُّنيا

لمّا نهى تعالى عمّا يَحزُنُ مِنَ المَقالِ والمَقام، وكانَ المَنْهيُّ عنهُ مِنَ التَّناجي إنَّما هو لحفظِ قلبِ الرَّسولِ ﷺ عمّا يُكَدِّرُهُ، فهو مُنصرِفٌ إلى مُناجاتِهم غيرَهُ، وذلكَ يُفهِمُ أنَّ مناجاتَهم لهُ ﷺ لا حرجَ فيها، وقد أكثروا في ذلكَ حتَّى شقَّ عليهِ أمَرَ مَنْ أرادَ أنْ يُناجيَهُ بالتَّصدُّقِ ليكونَ ذلكَ أمارةً على الاجتهادِ في التَّخلُّقِ بأخلاقِهِ ﷺ الطّاهرةِ، مِنَ العُزوفِ عن الدُّنيا والإقبالِ على اللهِ[1].

استيفاءُ أنواعِ النَّجْوى المَحمودةِ والمَذمومة

ثمَّ إنَّ الآيةَ قد ذُكِرَتْ عَقِبَ آياتِ النَّجْوى السّابقةِ لاستيفاءِ أنواعِ النَّجوى المحمودةِ والمذمومةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَدَقَةٗۚ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَهُ، ومِنْ ذلكَ الصِّدقُ، وهو خلافُ الكذبِ، سُمّيَ بذلكَ؛ لقوَّتِهِ في نفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ، فهو باطلٌ. والصَّداقُ: مهرُ المرأةِ، سُمّيَ بذلكَ لقوَّتِهِ وأنَّهُ حقٌّ يلزمُ[3]، والصَّدقةُ: ما يُخرِجُهُ الإنسانُ مِنْ مالِهِ على وجهِ القُربةِ[4]. وهو المرادُ هنا.

2) ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾: (طهر) أصلٌ يدلُّ على نَقاءٍ وزوالِ دَنَسٍ[5]، ومِنْ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 379 - 380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).

ذلكَ: الطُّهْرُ، وهو خلافُ الدَّنَسِ، والتَّطهُّرُ: التَّنزُّهُ عنِ الذَّمِّ وكلِّ قبيحٍ[1]، والطَّهارةُ: النَّظافةُ والمبالغةُ فيها[2]، والطَّهارةُ ضربانِ: طهارةُ جسمٍ حِسّيَّةٌ، وطهارةُ نفسٍ معنويَّةٌ[3]. ومعنى ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ هنا: وأزكى[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يُنـاجـي الـنَّبـيَّ أصحابُ الخيرِ والقلوبِ المُطَهَّرةِ مِنْ حبِّ الدُّنيا

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بأدبٍ مِنْ آدابِ مُناجاةِ النَّبيِّ ﷺ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّهَ ورسولَهُ، إذا ناجيتُمْ رسولَ اللّهِ فقدِّموا قبلَ نَجْواكم صدقةً تتصدَّقون بها على أهلِ المَسكَنةِ والحاجةِ؛ لأنَّ هذهِ الصّدقةَ تُطَهِّرُ نُفوسَكم وتُبعِدُها عن البخلِ والشُّحِّ، فهي خيرٌ لكم في دينِكم، فإنْ لم تجدوا ما تتصدَّقونَ بهِ فإنَّ اللّهَ تعالى يَتَجاوزُ عنكم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

مُـنـاجـاةُ الـنَّبـيِّ مـع الـصَّـدقـةِ محمودةٌ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ لا علاقةَ له بما قبلَهُ مِن التَّفسُّحِ في المجالسِ، وهو ذكرُ بعضِ أحوالِ النَّجوى، وهو التَّصدُّقُ قبلَ مناجاتِهِ ﷺ، وهو مِنْ أحوالِها المحمودةِ[6].

سرُّ تكرارِ النِّداءِ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

اشتراطُ الصَّدقةِ في مُناجاةِ النَّبيِّ حُـكـمٌ مُـهـمٌّ يَستَدعي الانتِباه

افتُتِحَ قولُ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ بالنِّداءِ مع تقدُّمِهِ قبلَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة: (طهر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(3) الرّاغب، المفردات: (طهر).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 18.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 247، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 49.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.

ذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 9]، وقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ [المجادلة: 11]؛ لإيقاظِ المخاطَبينَ وتنبيهِهم على أهمّيَّةِ ما يَعقُبُهُ مِنَ الكلامِ، وللإشارةِ إلى أنَّهُ كلامٌ مستقلٌّ غيرُ تابعٍ لِما قبلَهُ، يستدعي كمالَ التَّنبُّهِ، ولذلكَ جيءَ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ (يا)، واقترَنَ المنادى بـ(ها) التَّنبيهِ.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيمانُ بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ بِهِ حِليةُ المؤمنِ

حُذِفَ متعلَّقُ الإيمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ إيجازًا؛ لظهورِهِ؛ إذِ المرادُ الإيمانُ باللّهِ ورسولِهِ وبكلِّ ما يجبُ الإيمانُ بهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ في ﴿إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾:

لا يَجوزُ لمُريدِ المُناجاةِ تركُ التَّصدُّقِ

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الارتباطِ بينَ مناجاةِ النَّبيِّ ﷺ وبينَ تقديمِ الصَّدقةِ قبلَها، وعلى أنَّ التَّصدُّقَ مطلوبٌ كلَّما أُريدتِ المناجاةُ، فلا ينبغي لمريدِ المناجاةِ أنْ يخالفَ هذا الشَّرطَ. ولكنَّ هذا الحكمَ لم يَدُمْ طويلًا، فلم يقعِ التَّصدُّقُ إلّا مِنْ رجلٍ واحدٍ، وهو عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه، ثمَّ نُسِخَ الحكمُ[1].

نكتةُ إيثارِ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ):

كثرةُ رغبةِ المؤمنينَ في مُناجاةِ النَّبيِّ ﷺ

أوثِرَتْ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾، مع أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في المستقبلِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ فيهِ، ورغبةُ المؤمنينَ في مناجاةِ النَّبيِّ ﷺ أمرٌ مقطوعٌ بهِ، وهو كثيرُ الحصولِ، وهذا يُثقِلُ عليهِ[2]، ولذلكَ اشتُرِطَ لهُ التَّصدُّقُ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 495 - 496.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿نَٰجَيۡتُمُ﴾:

إرادةُ المؤمنينَ التَّناجيَ بمنزلةِ الحاصِلِ

الفعلُ ﴿نَٰجَيۡتُمُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ مُستعمَلٌ في معنى إرادةِ الفعلِ؛ أي: إذا أردتُم أنْ تُناجوا، والقرينةُ قولُهُ: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[1]. وعُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بِهِ كما تقدَّمَ، والماضي أقربُ إلى القطعِ بالنَّظرِ إلى لفظِهِ وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ إرادتَهم التَّناجيَ بمنزلةِ الحاصلِ.

وجهُ صيغةِ التَّفاعُلِ في ﴿نَٰجَيۡتُمُ﴾:

التَّناجي أمرٌ مُشتركٌ بينَ طرَفَين

جيءَ بصيغةِ التَّفاعُلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ التَّناجيَ أمرٌ مشتركٌ بينَ طرفينِ، كلٌّ منهما يُناجي الآخرَ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾:

التَّصدُّقُ قبلَ المُناجاةِ حكمٌ خاصٌّ بنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ

تعريفُ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بِهِ نبيٌّ معهودٌ معروفٌ، وهو نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، وهذا الحكمُ مختصٌّ بِهِ، شُرِعَ ثمَّ نُسِخَ.

كمالُ رسولِنا ﷺ في مَقامِ الرِّسالةِ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجنسِ المحمولِ على الفردِ الكاملِ مبالغةً؛ أي: إذا ناجيتم الرَّسولَ الكاملَ الَّذي لا أكملَ منهُ في الرُّسليَّةِ؛ فهو أكملُ الخلقِ، ووظيفتُهُ تقتضي أنْ يكونَ منهُ الكلامُ بما أرسلَهُ اللّهُ بِهِ، وتكونَ هيبتُهُ مانعةً مِن ابتدائِهِ بالكلامِ، فلا يكونُ مِنَ المبلَّغينَ إلّا الفعلُ بالامتثالِ لا غيرُ[2].

نكتةُ الإيجازِ في ﴿نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾:

المُتناجَى بِهِ عامٌّ لكلِّ شأنٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ إيجازٌ بحذفِ المتناجَى بِهِ، والتَّقديرُ: إذا ناجيتم الرَّسولَ ببعضِ شؤونِكم المُهمَّةِ الدّاعيةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 380، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 44.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 380.

إلى مُناجاتِهِ ﷺ[1]، والحذفُ لإفادةِ التَّعميمِ، ودفعِ توهُّمِ إرادةِ أمرٍ خاصٍّ.

معنى الفاءِ في ﴿فَقَدِّمُواْ﴾:

تقديمُ الصَّدقةِ مُسبَّبٌ عن إرادةِ المُناجاةِ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ[2]، والغرضُ منها تقويةُ الارتباطِ بينَ جوابِ الشَّرطِ وفعلِهِ، وبيانُ أنَّ الجوابَ مُسبَّبٌ عن فعلِ الشَّرطِ[3].

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَقَدِّمُواْ﴾:

تقديمُ الصَّدقةِ قبلَ المُناجاةِ واجبٌ

ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ يدلُّ على أنَّ تقديمَ الصَّدقةِ كانَ واجبًا؛ لأنَّ الأمرَ للوجوبِ، ويتأكَّدُ ذلكَ بقولِهِ تعالى في آخرِ الآيةِ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ فإنَّ ذلكَ لا يقالُ إلّا فيما يَزولُ وجوبُهُ بفَقْدِهِ[4].

وفي هذا الأمرِ تعظيمُ الرَّسولِ، ونفعُ الفقراءِ، والنَّهيُ عن الإفراطِ في السُّؤالِ، والمَيْزُ بينَ المُخلِصِ والمُنافقِ، ومُحبِّ الآخرةِ ومُحبِّ الدُّنيا، وهو منسوخٌ بقولِهِ: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ الآيةَ، وهو وإنِ اتَّصلَ بِهِ تلاوةً لم يتَّصلْ بِهِ نزولًا[5].

علَّةُ تقديمِ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾:

تحذيرُ مَنْ لا يُقدِّمُ الصَّدقةَ قبلَ التَّناجي

قُدِّمَ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ على المفعولِ ﴿صَدَقَةٗۚ﴾؛ للعنايةِ بكونِ تقديمِ الصَّدقةِ قبلَ التَّناجي، والتأكيدِ لهُ، وفي ذلكَ تحذيرٌ لِمَنْ يخالِفُ هذا الحكمَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ معناهُ: قبلَ نجواكم، وفيهِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 220.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 23.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 380.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 495، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 275.

(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221.

استعارةٌ تمثيليَّةٌ، جرَتْ مَجْرى المَثَلِ للقُرْبِ مِنَ الشَّيءِ قُبيلَ الوصولِ إليه، شُبِّهَتْ هيئةُ قُرْبِ الشَّيءِ مِنْ آخرَ بهيئةِ وصولِ الشَّخصِ بينَ يدَيْ مَنْ يَرِدُ هو عليه، تشبيهَ معقولٍ بمحسوسٍ[1]، حيث شُبِّهَتْ هيئةُ قُرْبِ الصَّدقةِ من النَّجوى بهيئةِ شخصٍ يَرِدُ بينَ يَدَي شخصٍ آخرَ، وهي كثيرةُ الاستعمالِ جاريةٌ مَجْرى المَثَلِ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57]؛ أي: قبلَ رحمتِه.

تشبيهُ هيئةِ قُرْبِ الشَّيءِ مِنْ آخرَ بهيئةِ وصولِ الشَّخصِ بينَ يَدَيْ آخر

أو هي استعارةٌ مكنيَّةٌ، بتشبيهِ النَّجوى بالإنسانِ، وإثباتُ اليدينِ تخييلٌ، وفي قوله: ﴿بَيۡنَ﴾ ترشيحٌ، ومعناه: قبلَ[2].

تشبيهُ النَّجوى بالإنسان

غرضُ الإضافةِ في ﴿نَجۡوَىٰكُمۡ﴾:

الإضافةُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ بمعنى اللّامِ، فتفيدُ أنَّ المُناجيَ المُتصدِّقَ إنَّما يتصدَّقُ لأجلِ فائدةِ نفسِه.

المُتصدِّقُ يَتَصدَّقُ لأجلِ فائدتِه

نكتةُ تنكيرِ ﴿صَدَقَةٗ﴾:

تنكيرُ ﴿صَدَقَةٗ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَىۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ للإفرادِ؛ أي: فَرْدًا مِنْ أفرادِ الصَّدقةِ على حسَبِ حالِ المُتصدِّقِ، وفي ذلكَ تيسيرٌ عليهم، وقد تصدَّقَ عليٌّ رضي الله عنه بدينارٍ، ثمَّ نَزَلتِ الرُّخصةُ، ولم يَعمَلْ بالآيةِ غيرُه[3].

المطلوبُ مِنَ المُناجي صدقةٌ مِنَ الصَّدقاتِ

علَّةُ فصلِ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه استئنافٌ[4]؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو التَّعريفُ بحكمةِ الأمرِ بالصَّدقةِ قبلَ مُناجاةِ الرَّسولِ ﷺ؛ ليَرغَبَ فيها الرّاغبونَ[5].

بيانُ حِكمةِ التَّصدُّقِ بعدَ الأمرِ به

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 171، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 44.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 171، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 508.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 496.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾:

خيريَّةُ تقديمِ الصَّدقةِ وطهوريَّتُهُ حقيقةٌ ثابتةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خيريَّةَ التَّصدُّقِ وطهوريَّتَهُ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ.

نكتةُ إيثارِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تقديمُ الصَّدقةِ عظيمُ الشَّأنِ

الإشارةُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ للتَّقديمِ المفهومِ مِنْ قولِهِ: ﴿فَقَدِّمُواْ﴾[1]. وفي التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ إشارةٌ إلى تفخيمِ شأنِهِ وتعظيمِهِ، وبيانِ أنَّهُ عملٌ رفيعٌ جدًّا[2]، كيفَ لا وهو برهانٌ على صدقِ الإيمانِ، وإيثارِ الآخرةِ على الدُّنيا؟!

نكتةُ التَّعبيرِ بالخيريَّةِ:

التَّصدُّقُ أنفعُ للعبدِ في دينِهِ مِنَ الإمساكِ

عُبِّرَ بالخيريَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ لأنَّ التَّصدُّقَ خيرٌ لهم في دينِهم مِنَ الإمساكِ عن الصَّدقةِ[3]، وذلكَ لِما فيهِ مِنْ مضاعفةِ الأجرِ والثَّوابِ، والقيامِ بحقِّ الإخاءِ، بالعَودِ على ذوي المسكنةِ بالمواساةِ والإغناءِ[4].

دلالةُ ﴿خَيۡرٞ﴾ بينَ التَّفضيلِ وعدمِهِ:

في التَّصدُّقِ خيرٌ بكلِّ الأحوالِ

﴿خَيۡرٞ﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ اسمَ تفضيلٍ، أصلُهُ: (أخيَرُ)، وهو المزاوجُ لقولِهِ: ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ أي: ذلكَ أشدُّ خيريَّةً لكم مِنْ أنْ تُناجوا الرَّسولَ ﷺ مِن دونِ تقديمِ صدقةٍ، وإنْ كانَ في كلٍّ خيرٌ.

ويجوزُ أنْ يكونَ اسمًا على وزنِ (فَعْلٍ)، والمعنى: تقديمُ الصَّدقةِ قبلَ النَّجوى فيهِ خيرٌ لكم، وهو تحصيلُ رِضا اللّٰهِ تعالى في حينِ

---

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 450، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(4) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 174.

إقبالِهم على رسولِه ﷺ، فيحصلُ مِنَ الانتفاعِ بالمناجاةِ ما لا يحصلُ مِثلُهُ مِن دونِ تقديمِ الصَّدقةِ[1].

معنى اللّامِ في ﴿لَّكُمۡ﴾:

اللهُ تعالى غنيٌّ عن عبادِه

اللّامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ للاختصاصِ على تقديرِ ﴿خَيۡرٞ﴾ اسمًا لا للتَّفضيلِ؛ أي: ذلكَ خيرٌ لكم مختصٌّ بكم، فتفيدُ أنَّ منفعةَ الخيريَّةِ مختصَّةٌ بهم؛ لتقديمِهم الصَّدقةَ. وعلى تقديرِ ﴿خَيۡرٞ﴾ اسمَ تفضيلٍ تكونُ اللّامُ للتَّعليلِ؛ أي: ذلك أشدُّ خيريَّةً لأجلِكم وأطهرُ، فتفيدُ أنَّ منفعةَ الخيريَّةِ والطَّهارةِ راجعةٌ لهم ولأجلِهم، لا إلى اللهِ تعالى؛ فاللهُ تعالى غنيٌّ عن عبادِه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطَّهارةِ:

الصَّدقةُ تزكيةٌ للنَّفسِ وزيادةٌ في كلِّ خيرٍ

عُبِّرَ بالطَّهارةِ في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ لأنَّ الصَّدقةَ تطهيرٌ لهم مِنَ الرِّيبةِ وحبِّ المالِ والبخلِ والشُّحِّ[2]، وفيها نماءٌ وزيادةٌ في كلِّ خيرٍ[3]، وكأنَّ الأمرَ بالتَّصدُّقِ المذكورِ ليتميَّزَ المؤمنُ مِنَ المنافقِ؛ فإنَّ المؤمنَ تسخو نفسُهُ بالإيمانِ كيفَما كانَ، والمنافقَ يَغُصُّ بهِ ولو في أضرِّ الأوقاتِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّفضيلِ في ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾:

المؤمنُ مُطهَّرٌ بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ

جيءَ بالتَّفضيلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾؛ لأنَّهم مُطهَّرونَ قبلَهُ بالإيمانِ[5]. والطُّهْرُ هنا معنويٌّ، وهو طُهْرُ النَّفسِ؛ لأنَّ المتصدِّقَ تتوجَّهُ إليهِ أنوارٌ ربّانيَّةٌ مِنْ رِضا اللهِ عنهُ، فتكونُ نفسُهُ زكيَّةً[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(4) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 174.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾:

لا يُكلّفُ اللهُ نفسًا إلّا وُسْعَها

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ عاطفةٌ، والغرضُ مِنْ هذا العطفِ بيانُ عُذرِ العاجزينَ عن تقديمِ الصَّدقةِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يُكلِّفُ الإنسانَ ما لا يطيقُ[1].

علّةُ إيثارِ (إنْ) على (إذا):

تَحرّي ما يُتَصَدَّقُ بِهِ قبلَ التّناجي مطلوبٌ

عُبِّرَ بـ(إنْ) في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾؛ لأنَّها تُستعمَلُ في الأمرِ المشكوكِ فيه، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ عدمَ وِجْدانِ ما يُتصدَّقُ بهِ - ولو كانَ يسيرًا - أمرٌ نادرٌ، فعلى المؤمنِ أنْ يَبذُلَ غايةَ الوُسْعِ في تحرّي ما يَتَصدَّقُ به قبلَ المناجاةِ.

لا حُدودَ لسَعَةِ فضلِ اللهِ تعالى

ويمكنُ أنْ يكونَ المرادُ التَّنبيهَ على مغفرةِ اللّهِ ورحمتِه إذا كانَ عدمُ الوِجْدانِ في حيِّزِ التَّردُّدِ والشَّكِّ، فكيفَ إذا كانَ مُحقَّقَ الوقوعِ؟! وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على سَعَةِ فضلِ اللّهِ ولُطفِه بعبادِه.

نكتةُ الإيجازِ في ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾:

لا حَرَجَ على مَنْ لم يَجِدْ ما يَتَصدَّقُ بهِ قبلَ المُناجاة

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ؛ لظهورِه مِنَ السّياقِ؛ أي: فإنْ لم تجدوا ما تَتَصدَّقونَ بهِ أمامَ مُناجاتِكم الرَّسولَ ﷺ[2].

دلالةُ الفاءِ في جُملةِ الفاصِلة:

لا تَثْريبَ على الفقيرِ

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ المتقدِّمِ؛ أي: فإنْ لم تَجِدوا ما تَتَصدَّقون به قبلَ النَّجوى غفَرَ اللّه لكم المغفرةَ الَّتي كانت تحصُلُ لكم لو تَصَدَّقتُم[3].

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ استئنافيّةً لتعليلِ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ،

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 450، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 174.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45.

والتَّقدير: فلا تثريبَ عليكم؛ لأنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ[1]، وبناءً على ذلكَ يكونُ في الكلامِ إيجازٌ بحذفِ جوابِ الشَّرطِ، والمذكورُ هو دليلٌ عليهِ وتعليلٌ لهُ.

غرضُ تأكيدِ جملةِ الفاصِلة:

الكريمُ إذا أعطَى أدْهَش

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لاستبعادِ مِثلِهِ في مَوازينِ البشرِ؛ فإنَّ المعهودَ مِنَ المَلِكِ إذا ألزَمَ رعيَّتَهُ بشيءٍ أنَّهُ لا يُسقِطُهُ أصلًا ورأسًا، ولا سيَّما إنْ كانَ يسيرًا[2]، فأُكِّدَ الكلامُ لبيانِ أنَّ الخالقَ ﷻ منزَّهٌ عن صفاتِ المخلوقينَ، وللاعتناءِ بمضمونِه.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ:

العظيمُ يُسقِطُ الإيجابَ عمَّنْ يَشاء

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لدلالتِهِ على جميعِ صفاتِ الكمالِ[3]، ومنها ما ذُكِرَ هنا مِنَ المغفرةِ والرَّحمةِ، ومنها أنَّهُ سبحانَهُ لا مُعَقِّبَ لحُكمِهِ، ولذلكَ يُسقِطُ الإيجابَ عمَّنْ يشاءُ.

وجهُ التَّعبيرِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ:

اللهُ يُعامِلُ العبادَ بفَضْلِهِ لا بعَدْلِه

جيءَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ إسقاطَ إيجابِ التَّصدُّقِ عمَّنْ لم يَجِدْ ما يَتَصدَّقُ بِهِ أثَرٌ مِنْ آثارِ رحمةِ اللّهِ تعالى ومغفرتِهِ؛ إذ لم يُحرِجْهُ ولم يُضيِّقْ عليهِ[4]، بل مَنْ نوى أنْ يفعلَ الخيرَ لو قَدَرَ عليهِ كانَ لهُ أجرٌ على نيَّتِهِ، ورحمةُ اللّهِ تنفعُ مَنْ فاتَهُ تزكيةُ النَّفسِ بالتَّصدُّقِ[5].

دلالةُ صيغتَيْ (فَعولٍ) و(فَعيلٍ) في ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

شِدَّةُ رحمةِ اللهِ تعالى ومغفرتِه

جيءَ بصيغتَيْ (فعولٍ)، و(فعيلٍ) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿غَفُورٞ

(1) محيي الدين درويش: إعراب القرآن وبيانه: 10/ 23.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381 - 382.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 450، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 174.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 45 - 46.

﴿رَّحِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِه تعالى بالمغفرةِ والرَّحمةِ؛ أي: شديدُ المغفرةِ والرَّحمةِ.

غرضُ تقديمِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ أثرٌ مِنْ آثارِ الرَّحمة

قُدِّمَ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ المغفرةَ مِنْ آثارِ الرَّحمةِ، فيكونُ ذلكَ مِنْ تقديمِ المسبَّبِ على السَّببِ، ولِما في تأخيرِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لفاصلةِ ما قبلَها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدقةُ والزَّكاةُ:

الصَّدقةُ برهانٌ على الصِّدقِ في دَعْوى الإيمان

الصَّدقةُ: ما يُخرجُهُ الإنسانُ مِنْ مالِهِ على وجهِ القُربةِ كالزَّكاةِ، لكنَّ الصَّدقةَ في الأصلِ تقالُ للمتطوَّعِ بهِ، والزَّكاةَ للواجبِ، وقد يُسمَّى الواجبُ صدقةً إذا تحرَّى صاحبُهُ الصِّدقَ في فعلِهِ[1].

وقد عُبِّرَ بالصَّدقةِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّها تكونُ برهانًا قاطعًا على إخلاصِ المتصدِّقِ، فهي مصدِّقةٌ لهُ في دعوى الإيمانِ الَّتي هي التَّصديقُ باللّهِ تعالى ورسولِهِ عليهِ ﷺ، وبكلِّ ما جاءَ بهِ عن اللّهِ تعالى، ومعظمُهُ الإعراضُ عن الدُّنيا، والإقبالُ على الآخرةِ[2]، ولأنَّ الزَّكاةَ علَمٌ خاصٌّ بالفريضةِ الَّتي هي ركنٌ مِنْ أركانِ الإسلامِ.

(1) الرّاغب المفردات: (صدق)، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 229.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 381.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

رَفْعُ الحَرَجِ عمَّنْ يُناجي النَّبيَّ ﷺ بنَسْخِ تقديمِ الصَّدقة

لمّا دلَّ ختمُ الآيةِ السّابقةِ على التَّخفيفِ، وكانَ قد يَدَّعي مُدَّعونَ عدمَ الوِجْدانِ كذبًا، فيحصلُ لهم حَرَجٌ، وكان تعالى شديدَ العنايةِ بنجاةِ هذه الأمَّةِ دلَّ سبحانَهُ على لُطْفِهِ بهم بنسخِهِ بعدَ فرضِهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾: (شفق) أصلٌ يدلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[2]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أشفقتُ عليه فأنا مُشفِقٌ وشفيقٌ[3]، وأشفقتُ مِنَ الأمرِ؛ أي: حاذرتُ وخِفْتُ[4]، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء: 49]، والشَّفَقُ مِنَ الثّيابِ: الرَّقيقُ[5]، والشَّفَقُ: الحُمرةُ الَّتي تُرى في السَّماءِ عندَ غروب الشَّمس، وسُمّيَتْ بذلكَ لِلَوْنِها ورقَّتِها[6]، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ [الانشقاق: 16]. والمرادُ هنا: أشَقَّ ذلك عليكم وخَشيتُم[7]؟ أو: أَبَخِلتُم بالصَّدقةِ[8]؟.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّخفيفُ يَستوجِبُ الطّاعة

يقولُ تعالى ذكرُهُ للمؤمنينَ: أشَقَّ عليكم وخَشيتُم الفقرَ - أيُّها

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(3) الجوهري، الصحاح: (شفق).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شفق).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (شفق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 251.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 303.

المؤمنونَ - بأنْ تُقدِّموا بينَ يدَيْ نجواكم صدقاتٍ؟! فإذ لم تُقدِّموا بينَ يدَيْ نجواكم صدقاتٍ، ورزقَكم اللّهُ التَّوبةَ، ورخَّص لكم في ألّا تفعلوهُ فواظِبوا على الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وأطيعوا اللّهَ ورسولَهُ فيما أُمِرْتم وفيما نُهيتم عنهُ، واللّهُ خبيرٌ عليمٌ بأعمالِكم، وهو مُحصيها عليكم؛ ليُجازيَكم بها(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ المخاطَبِ بـ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾:

دَوَرانُ الخِطابِ بينَ العُمومِ والخُصوص

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ لطائفةٍ مِنَ المؤمنينَ قادرينَ على تقديمِ الصَّدقةِ قبلَ المناجاةِ، وشقَّ عليهم ذلكَ أو ثَقُلَ عليهم(2). ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ للعمومِ، ومَنْ كانَ فقيرًا فإنَّه يَخافُ دوامَ الفقرِ(3).

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾:

مَنْ كانَ غنيًّا ولم يَتصدَّقْ قبلَ المُناجاةِ استَحَقَّ اللَّومَ والتَّوبيخ

الاستفهامُ في قولِه ﷻ: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ للتَّقريرِ(4)، وفيهِ توبيخٌ أيضًا ولومٌ لِمَنْ تَرَكَ الصَّدقةَ معَ ما فيها مِنْ فوائدَ للفقراءِ(5).

دلالةُ ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ بينَ الإيجازِ وعَدَمِه:

ما كانَ يَنبغي أنْ يَمنَعَ خوفُ الفقرِ مِنْ تقديمِ الصَّدقةِ أمامَ النَّجْوى

يُحتمَلُ أنْ يكونَ مفعولُ ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ محذوفًا، والتَّقديرُ: أخِفْتُمُ الفقرَ مِنْ تقديمِ الصَّدقةِ؟! فيكون في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المفعولُ هو ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾، والمعنى: أخِفْتُمُ التَّقديمَ؟! وعلى هذا فلا حذفَ(6).

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 251، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 496.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 511، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 46.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 511.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 303، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 227.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 383، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 46.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 171، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 225.

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾:

الإشفاقُ واقعٌ مِنَ المُخاطَبين

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾؛ لأنَّ التَّقريرَ هنا بفعلٍ قد وقعَ منهم ومضَى، وفي ذلكَ تسجيلٌ عليهم، ومزيدُ تأكيدٍ للَّومِ والتَّوبيخِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ ﴿أَن تُقَدِّمُواْ﴾:

خَوْفُ المُخاطَبينَ مِنِ استمرارِ وُجوبِ التَّصدُّقِ قبلَ المُناجاة

عُبِّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تُقَدِّمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ بصيغةِ المضارعِ على أنَّ خوفَ المخاطَبينَ كانَ مِن استمرارِ هذا الحكمِ عليهم، وهو وجوبُ الصَّدقةِ قبلَ مُناجاةِ الرَّسولِ ﷺ[1]. وفي التَّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ دلالةٌ على مُجرَّدِ معنى حَدَثِ تقديمِ الصَّدقةِ، من دونِ احتمالِ معنًى زائدٍ عليه من معاني الكلامِ المُحتمَلةِ كصفةِ التَّقديمِ وكيفيَّتِه[2].

سرُّ العُدولِ عنْ إفرادِ الصَّدقةِ إلى جَمْعِها:

المُخاطَبون جَمْعٌ يَخافونَ تقديمَ صدقاتٍ كثيرة

عُبِّرَ بالجمعِ دونَ الإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ﴾، مع أنَّ المفردَ أخفُّ وأخصرُ وأوفقُ لما مرَّ مِنْ قولِه: ﴿صَدَقَةٗۚ﴾؛ لأنَّ المُخاطَبينَ جمعٌ[3]، أو للتَّفنُّنِ[4]، أو لأنَّ الخوفَ لم يكنْ في الحقيقةِ مِنْ تقديمِ صدقةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه ليسَ مَظِنَّةَ الفقرِ، بل مِن استمرارِ الأمرِ وتقديمِ صدقاتٍ[5].

معنى الفاءِ في ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾:

عدمُ التَّصدُّقِ مُسبَّبٌ عن الإشفاق

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لتفريعِ ما بعدَها على الاستفهامِ التَّوبيخيِّ المتقدِّمِ[6]، فتفيدُ أنَّ عدمَ فعلِ التَّصدُّقِ مُسبَّبٌ عن الإشفاقِ[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 49.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 92.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، والخفاجي، أنوار التّنزيل: 8/ 171.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 511.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 225.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(7) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 383.

دلالةُ (إذ) في ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾:

تَـداركُ تَـرْكِ التَّـصدُّقِ بالأعمالِ الصّالحة

الظّاهرُ أنَّ (إذ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ على بابِها مِنَ المضيِّ مع الظَّرفيَّةِ، وفيها معنى التَّعليلِ وتوكيدِ السَّببيَّة، وعاملُها الَّذي تتعلَّقُ بهِ محذوفٌ دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، والتَّقديرُ: خفَّفْنا عنكم وأعفيْناكم مِنْ أنْ تُقدِّموا صدقةً قبلَ مُناجاةِ الرَّسولِ ﷺ إذ لم تفعلوا؛ أي: حينَ لم تفعلوا.

مَنْ تَرَكَ التَّصدُّقَ في المستقبلِ أطاعَ وعملَ صالحًا

ويُحتمَلُ أنَّها بمعنى (إذا)، فتكونُ للاستقبالِ مع الشَّرطيَّةِ، فالمعنى: فإذا تركتُموهُ في المستقبلِ فأقيموا، والشَّرطُ هنا مقطوعٌ بهِ.

ويُحتمَلُ أنَّها بمعنى (إن) الشَّرطيَّةِ، فتكونُ أيضًا للاستقبالِ، والشَّرطُ هنا مشكوكٌ فيه(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ دونَ العَمَلِ:

تَـرْكُ التَّـصدُّقِ لا يَـستدعـي تكرارَهم له

عُبِّرَ بالفعلِ دونَ العملِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾؛ لأنَّ الفعلَ يُستعمَلُ في إتيانِ الشَّيءِ مرَّةً واحدةً، والعملَ يُستعمَلُ في المواظبةِ على فعلِ الشَّيءِ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: 107]، وعملُ الصّالحاتِ مستمرٌّ، وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]، وقد وقَعَ مرَّةً واحدةً. والمرادُ هنا الكلامُ على تركِهم التَّصدُّقَ في الماضي، وذلكَ لا يَستدعي أنْ يكونَ التَّركُ متكرِّرًا.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾:

تَـرْكُ المخاطَبينَ ما أُمِروا بِهِ مِنَ التَّصدُّق

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ؛ لدلالةِ السِّياقِ عليهِ، والتَّقديرُ: فإذ لم تفعلوا ما أُمِرْتم بهِ مِنَ التَّصدُّقِ قبلَ مُناجاتِهِ ﷺ(2).

---

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 272 - 273، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 512، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 451، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 129، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 175.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

سَعَةُ فضلِ اللهِ تعالى ورحمتِهِ بالمؤمنين

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ اعتراضيَّةٌ، والجملةُ معترضةٌ بينَ ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ وبينَ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، أو الواوُ حاليَّةٌ، والمعنى: فإذ لم تفعلوا حالَ توبةِ اللّهِ عليكم، أو استئنافيَّةٌ[2]. وأيًّا ما كانَ ففيها ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على رحمةِ اللّهِ تعالى بهم، وسَعَةِ فضلِهِ عليهم، حيثُ بادَرَهم بالتَّوبةِ مع تركِهم الامتثالَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَتَابَ﴾:

توبةُ اللهِ عليهم مُتَحَقِّقة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ توبةَ اللّهِ تعالى عليهم أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، وفي ذلكَ مزيدُ تنبيهٍ على فضلِ اللّهِ عليهم، ومزيدُ حثٍّ على ما سيأتي مِنَ الأمرِ بإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وطاعةِ اللّهِ ورسولِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ التَّوبة:

التَّخفيفُ برَفْعِ الحُكمِ الَّذي شَقَّ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ معناهُ: خفَّفَ عنكم، وأزالَ عنكم المُؤاخذةَ بتركِ تقديمِ الصَّدقةِ على المُناجاةِ مع قدرتِكم على ذلكَ، كما أزالَ المُؤاخذةَ بالذَّنبِ عن التّائبِ عنهُ[3]. وفيهِ إشعارٌ بأنَّ إشفاقَهم ذنبٌ تجاوَزَ اللّهُ عنهُ؛ لِما رأى منهم مِنَ الانفعالِ ما قامَ مَقامَ توبتِهم[4].

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ﴾:

مِنْ شأنِ العظيمِ تركُ عقابِ مَنْ يخالِفُه

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ والكمالِ، ومنها أنَّ مِنْ شأنِهِ أنْ يُعاقِبَ مَنْ تَرَكَ أمرَهُ[5]، ومِنْ شأنِهِ أيضًا أنْ يتركَ عقابَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 24.
(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 451، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 383.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 383.

توبةُ اللهِ على المؤمنينَ فَضْلٌ سابغٌ عليهم

معنى (على) في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

(على) في قولِه ﷻ: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وهي هنا تفيدُ أنَّ التَّوبةَ سابغةٌ عليهم، وكأنَّها مُستعليةٌ عليهم.

معنى الفاءِ في ﴿فَأَقِيمُواْ﴾:

مَنْ عُفيَ عنهُ وجَبَتْ خِدْمتُهُ لصاحبِ العفوِ والفَضْل

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعطفِ، وهي تعطفُ هذهِ الجملةَ على الكلامِ المقدَّرِ الَّذي تتعلَّقُ بهِ (إذ)، والتَّقديرُ: خفَّفْنا عنكم وأعفَيْناكم مِنْ أنْ تُقدِّموا صدقةً قبلَ مناجاةِ الرَّسولِ ﷺ حينَ لم تتصدَّقوا، فحافِظوا على التَّكاليفِ الأُخرى فأقيموا الصَّلاةَ[1]، وفي هذا العطفِ تنبيهٌ على أنَّ العفوَ سببٌ لإقامةِ الصَّلاةِ وما عُطِفَ عليها[2]. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ رابطةً للمبالغةِ في توكيدِ السَّببيَّةِ؛ لشَبَهِ مضمونِ (إذ) بالشَّرطِ في التَّرتيبِ[3].

دلالةُ الأوامِرِ في جُملةِ ﴿فَأَقِيمُواْ﴾:

المؤمنُ يُثابِرُ على الطّاعةِ والأعمالِ الصّالحة

أفعالُ الأمرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لإفادةِ الدَّوامِ والمُثابرةِ على هذهِ الأعمالِ، بدليلِ أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ وطاعةَ اللّهِ ورسولِه سابقةٌ على الأمرِ بالتَّصدُّقِ قبلَ المناجاةِ، والمعنى: دوموا على هذهِ الأعمالِ الَّتي هي قواعدُ شرعِكم[4].

وحكمةُ الأمرِ بهذهِ الأوامرِ: أنَّ الصَّلاةَ طُهْرةٌ لأرواحِهم، ووُصْلةٌ لهم بربِّهم، والزَّكاةَ نزاهةٌ لأبدانِهم، وتطهيرٌ ونَماءٌ لأموالِهم، وصلةٌ بإخوانِهم، فالصَّلاةُ نورٌ، تهدي إلى المقاصدِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، وتُعينُ على نوائبِ الدّارينِ، والصَّدقةُ برهانٌ على صحَّةِ القصدِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 384.
(3) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1926.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 280، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 227، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 20.

الصَّلاةِ[1]، وطاعةُ اللّهِ ورسولِه هي سرُّ الفلاحِ والنَّجاحِ في الدُّنيا والآخرةِ. ومِنَ الحكم أيضًا: ألّا يَظُنّوا أنَّهم كلَّما ثَقُلَ عليهم فعلٌ مِمّا كُلِّفوا به يُعفَون منهُ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإقامةِ:

المُصلّي الكاملُ هو مَنْ يواظِبُ على صلاتِهِ على أكملِ صورة

عُبِّرَ بالإقامةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يُقَلْ: (فصلّوا)؛ لأنَّ معنى إقامةِ الصَّلاةِ: توفيةُ حدودِها وحقوقِها وإدامتُها، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ لم يُرَدْ إيقاعُها فقطْ[3]، بل المواظبةُ عليها على أكملِ صورةٍ[4].

غَرَضُ تعريفِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الصَّلواتُ المفروضةُ أوَّلُ ما يَجِبُ العنايةُ بكمالِهِ مِنَ الصَّلوات

تعريفُ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها الصَّلواتُ المفروضةُ، فهي الَّتي يجبُ الإتيانُ بها على الوجهِ الكاملِ في المَقامِ الأوَّلِ، وإنْ كانَ المؤمنُ يُراعي في كلِّ صلاةٍ يُؤدّيها - سواءٌ كانَتْ مفروضةً أم نافلةً - أنْ يأتيَ بها على وجهِ الكمالِ.

نكتةُ عطفِ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

المُؤمِنُ يُطيعُ اللهَ تعالى بِبَدَنِهِ ومالِه

قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ونكتةُ هذا العطفِ الأمرُ بأمِّ العباداتِ الماليَّةِ بعدَ الأمرِ بأمِّ العباداتِ البدنيَّةِ؛ ليستمرَّ المخاطَبونَ على هاتينِ العبادتينِ العظيمتينِ.

غرضُ تقديمِ إقامةِ الصّلاةِ على إيتاءِ الزَّكاةِ:

شأنُ الصَّلاةِ عظيمٌ في الإسلام

قُدِّمتِ الصَّلاةُ على الزَّكاةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ في هذا التَّقديمِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ هي الرُّكنُ الأعظمُ في الإسلامِ بعدَ الشَّهادتينِ، وهي فرضٌ على كلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ، وأمّا الزَّكاةُ فمِنْ جملةِ شرائطِها

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 292.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 225، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 20.

مِلْكُ النِّصابِ، فلا تجبُ على كلِّ المسلمينَ، بل على الأغنياءِ فقطْ. فضلًا عن كونِ الصَّلاةِ مُصاحِبةً للمسلم في يومِهِ في أوقاتٍ معلومةٍ مُحدَّدةٍ، والتَّقديمُ أدْعى للحثِّ على إقامتِها مَخافةَ الفُتورِ أو السَّآمة، أمّا الزَّكاةُ فهي واجبةٌ في العام مرَّةً واحدةً على مَن ملَكَ النِّصاب.

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ غيرِه:

المــؤمــنــون مكلَّفونَ بإعطاءِ الزَّكاةِ على وجهٍ مقبولٍ

عُبِّرَ بالإيتاءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولم يُقلْ: (وزكّوا) مع أنَّهُ أخصرُ؛ لأنَّ المرادَ الأمرُ برعايةِ حقوقِ الزَّكاةِ، لا بأصلِ الفعلِ فقطْ، وذلكَ أنَّ الإيتاءَ وإنْ كانَ معناهُ لغةً الإعطاءَ إلّا أنَّهُ خُصَّ في القرآنِ بدفعِ الصَّدقةِ، فهو الإعطاءُ على وجهٍ مقبولٍ[1].

غرضُ تعريفِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

المؤمنونَ يُؤتونَ الزَّكاةَ المفروضةَ شرعًا

تعريفُ الزَّكاةِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها الزَّكاةُ المفروضةُ شرعًا، المعلومةُ نصابًا، المُحدَّدةُ ميقاتًا.

نكتةُ عطفِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾:

وُجوبُ مُراعاةِ سائرِ الطّاعات

لمّا خصَّ ﷻ أشرفَ العباداتِ البَدَنيَّةِ - وهي الصَّلاةُ - وأعلى المَناسِكِ الماليَّةِ - وهي الزَّكاةُ - عمَّمَ فقالَ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[2]، والمعنى: فلا تُفرِّطوا في الصَّلاةِ والزَّكاةِ وسائرِ الطّاعاتِ[3]، فالعطفُ مِنْ قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ داخلانِ في طاعةِ اللّهِ ورسولِهِ، وفي ذلكَ تأكيدٌ للأمرينِ السّابقينِ بذكرِهما خصوصًا وعمومًا، وتنبيهٌ على وجوبِ مُراعاةِ سائرِ الطّاعات.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الإطاعةِ:

طـاعـةُ الـلـهِ في سائرِ الأوامرِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الإطاعةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 172.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 384.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 494، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 276.

للدَّلالةِ على العمومِ في المُطاعِ فيهِ؛ أي: وأطيعوا اللّهَ ورسولَهُ في سائرِ الأوامرِ، ومِنها ما تقدَّمَ[1].

بلاغةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في موضعِ إضمارِهِ:

وُجوبُ طاعةِ مَنْ لهُ صفاتُ العظمةِ والكمال

أُظهرَ اسمُ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ للدَّلالةِ على صفاتِ العظمةِ والكمالِ والجلالِ الَّتي بها يَستَحِقُّ سبحانَهُ الطّاعةَ على عبادِهِ[2].

بلاغةُ عطفِ الرَّسولِ على اسمِ الجلالة:

طاعةُ الرَّسولِ لا يَنبغي التَّساهُلُ فيها

عَطْفُ الرَّسولِ على اسمِ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ - مع أنَّ طاعةَ اللّهِ تَستَلزِمُ طاعتَهُ - للإيماءِ إلى أهمّيَّةِ طاعةِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّها عندَ اللّهِ تعالى بمكانٍ، وأنَّهُ لا يَنبغي التَّساهُلُ فيها.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

عَظَمةُ الرَّسولِ مِنْ عَظَمةِ المُرسِل

إضافةُ الرَّسولِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لتكريمِ النَّبيِّ ﷺ وتشريفِهِ، وبيانِ أنَّ عَظَمتَهُ مِنْ عَظَمةِ اللّهِ تعالى الَّذي أرسلَهُ[3].

دلالةُ الواوِ في جُملةِ الفاصِلة:

استِشعارُ مُراقَبةِ اللهِ تعالى دافعٌ للامتِثال

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ تذييليَّةٌ لقولِهِ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لأنَّ ما في هذهِ الجملةِ مِنَ الوعيدِ يحثُّ على الامتثالِ للأوامرِ السّابقةِ[4].

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ في السّياقِ؛ أي: فاللّهُ يحبُّ الَّذينَ يُطيعونَ واللّهُ خبيرٌ بما تعملونَ[5].

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 226.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 384.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.

مَـنْ فَـرَّطَ في طاعةِ اللهِ فهو على خَطَرٍ عظيم

براعةُ الكنايةِ في جُملةِ الفاصِلة:

قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كنايةٌ عن التَّحذيرِ مِنَ التَّفريطِ في طاعةِ اللّهِ ورسولِه[1]، وليسَ مجرَّدَ إخبارٍ عن كونِه تعالى خبيرًا بما يعملونَ، فهم يعلمونَ ذلكَ مِنْ قبلُ، وقد جَرَتْ عادةُ القرآنِ في كثيرٍ مِنَ المواضعِ بتعقيبِ الأوامرِ والنَّواهي بالتَّحذيرِ مِنْ عدمِ الالتزامِ بها.

عِلْمُ اللهِ تعالى بما يَعمَلُهُ عبادُهُ حقيقةٌ ثابتة

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في جُملةِ الفاصِلة:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَهُ تعالى خبيرًا بما يعملونَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، وفي ذلكَ مزيدُ وعيدٍ وتهديدٍ.

وَعيدُ العظيمِ لا يُقادَرُ قَدْرُه

سرُّ تكرارِ اسمِ الجلالةِ:

كُرِّرَ اسمُ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ والكمالِ، ومنها إحاطتُهُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا[2]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّهديدِ والوعيدِ.

الـلـهُ تـعـالى مُطَّلِعٌ على ما في القُلوب

بلاغةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالخبيرِ على غيرِه:

أوثِرَ الخبيرُ على غيرِه كالعليمِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على إحاطتِه ﷻ بالأعمالِ والنِّيّاتِ ظاهرًا وباطنًا[3]؛ لأنَّ الخبرةَ هي العلمُ بباطنِ الشَّيءِ، ويَلزَمُهُ العلمُ بظاهرِه بالطَّريقِ الأولى[4]. ومِنْ وجوهِ مُلاءَمةِ الخبيرِ للسّياقِ أنَّ أوَّلَ الآيةِ وبَّخَ على أمرٍ باطنٍ[5]، وهو إشفاقُهم مِنْ تقديمِ الصَّدقاتِ.

اتِّصافُهُ تعالى بَبواطِنِ الأشياءِ وظَواهِرِها اتِّصافًا بليغًا

نكتةُ صيغةِ (فَعيل) في ﴿خَبِيرُۢ﴾:

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 451، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 497، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 512.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.

﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِه تعالى بالعلمِ ببواطنِ الأشياءِ وظواهرِها، وفي ذلكَ تحريكٌ للرَّهبةِ في نفوسِ المخاطَبين.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

أعمالُ المخاطَبينَ مُتعلَّقُ عِلْمِ اللهِ ﷻ

الباءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للتَّعديةِ، فتفيدُ أنَّ أعمالَ المخاطَبينَ مُتعلَّقُ علْمِ اللهِ ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

لا يخفَى على اللهِ تعالى شيءٌ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على العمومِ، والمعنى: واللهُ خبيرٌ بكلِّ الَّذي تعملونه، لا يخفَى عليهِ مِنْ ذلكَ شيءٌ[1]. ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدريَّةً على تقديرِ: واللهُ خبيرٌ بعَمَلِكم.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

قليلُ العملِ وكثيرُهُ في مَوازينِ عِلْمِهِ تعالى سواءٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ العملِ؛ أي: واللهُ خبيرٌ بما تُجدِّدونَ عَمَلَهُ، يَعلَمُ بواطنَهُ كما يَعلَمُ ظواهرَهُ[2]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على اقتدارِهِ سبحانَهُ وسَعَةِ علمِهِ؛ إذ لا تَكثُرُ عليهِ الأعمالُ، ولا تَختلِطُ عليهِ الشُّؤونُ، بل قليلُ العملِ وكثيرُهُ في مَوازينِ علمِهِ سواءٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعملِ دونَ الفعلِ:

لا يَخفَى على اللهِ شيءٌ وإنْ تَكَرَّر

عُبِّرَ بالعملِ دونَ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ العملَ يدلُّ على المواظبةِ والتَّكرارِ، وذلكَ أوفقُ بمَقامِ التَّنبيهِ على سَعَةِ علمِهِ تعالى كما تقدَّمَ في نكتةِ التَّعبيرِ بالمضارعِ، فيكونُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ قد أفادَ المبالغةَ بمادَّتِهِ وصيغتِهِ.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.

توجيهُ المُتشابِهِ بينَ فَواصِلِ الآياتِ الثَّلاث:

وَرَدَتْ فاصلةُ هذه الآيةِ هنا: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، بينَما ورَدَتْ في الآيةِ الثّالثةِ مِن هذه السّورةِ والآيةِ الحادية عشرةَ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾.

مُناسَبةُ النَّظمِ القُرآنيِّ لِمُقتضَى الحالِ ومُختلِفِ الأعمال

وتوجيهُ ذلك: أنَّ النَّظمَ القرآنيَّ يَتَناسبُ مع أحوالِ العبادِ وأعمالِهم، فإنْ كان يَتحدَّثُ عن أعمالِ الإنسانِ الظّاهرةِ ناسَبَهُ تقديمُ الأعمالِ على الوصف (خبير)، وإنْ كان يَتحدَّثُ عن الأمورِ القلبيَّةِ الَّتي لا يَعلَمُها إلّا اللّهُ تعالى ناسَبَهُ تقديمُ الوصفِ (خبير) على الأعمال؛ اهتمامًا واعتِناءً في كلِّ موضعٍ بما يكونُ الحديثُ لأجْلِه.

وفي الآيةِ الثّالثة ورَدَ الكلامُ على كفّارة الظِّهار وعدم قُرْبانِ الزَّوج أهلَهُ قبلَ التَّكفير، وهو عملٌ ظاهرٌ محسوسٌ، وفي الآيةِ الحاديةَ عشرةَ كان الكلامُ على الفَسْحِ والنُّشوزِ في المجالسِ، وهو كذلك عملٌ ظاهرٌ محسوسٌ، فناسَبَهُ تقديمُ قولِه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الوصف ﴿خَبِيرٞ ١١﴾، فجاءت الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾.

أمّا هنا فالكلامُ على إشفاقِ المؤمنين القلبيِّ مِن تقديم الصَّدقةِ لمُناجاةِ رسول اللّه ﷺ، وهو أمرٌ قلبيٌّ غَيْبيٌّ، كاشَفَهم اللّهُ سبحانه به فقال: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ الآية، ويُناسِبُهُ تقديمُ الوصف ﴿خَبِيرُۢ﴾ على قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فجاءت الفاصلةُ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإشفاقُ والخوفُ والخشيةُ والرَّهبةُ:

المُناجي التّاركُ للتَّصدُّقِ يَخافُ ويَتوقَّعُ حُصولَ الفقر

الإشفاقُ والخشيةُ أخصُّ مِنْ مُطلَقِ الخوفِ؛ فالإشفاقُ هو الخوفُ مِنَ المكروهِ[1]، وتوقُّعُ حصولِ ما لا يَبتَغيهِ[2]، والإشفاقُ نوعٌ مِنَ الرِّقَّةِ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 46.

وضعفِ القلبِ[1]. والخشيةُ: خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشَى منهُ[2]. والرَّهبةُ: طولُ الخوفِ واستمرارُهُ[3].

وقد عُبِّرَ بالإشفاقِ هنا؛ لأنَّ تاركَ التَّصدُّقِ قبلَ المُناجاةِ يَخافُ مِنَ الفقرِ الَّذي هو أمرٌ لا يَبتَغيه.

(1) العسكري، الفروق، ص: 241.
(2) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(3) العسكري، الفروق، ص: 241.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤﴾

[المجادلة: 14]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اطِّلاعُهُ تعالى على نِفاقِ المُنافقينَ مِنْ دلائلِ علمِهِ المُحيطِ

لمّا أخبرَ ﷻ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بإحاطةِ علمِه رَدْعًا لمَنْ يَغتَرُّ بطولِ حِلْمِه دلَّ على ذلكَ باطِّلاعِهِ على نفاقِ المنافقينَ الَّذي هو أبطنُ الأشياءِ وأخفاها[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: (ولي) أصلٌ يدلُّ على قُرْبٍ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ؛ أي: قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني؛ أي: يُقارِبُني[2]، والمَوْلَى: المُعتِقُ، والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخرَ فهو وليُّهُ[3]. والمرادُ بالتَّولّي هنا: الموالاةُ، وهي المودَّةُ والمحبَّةُ[4].

2) ﴿غَضِبَ﴾: (غضب) أصلٌ يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ[5]، والغضبُ - أي: في الآدميِّ - هو ثَورانُ دمِ القلبِ إرادةَ الانتقامِ[6]. والمرادُ بغضبِ اللّهِ هنا: سَخَطُهُ والطَّردُ مِنْ رحمتِهِ[7].

3) ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾: (حلف) أصلٌ يدلُّ على المُلازمةِ[8]، ومِنْ ذلكَ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولي).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 21.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(6) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(7) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 21.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلف).

الحِلْفُ، وهو العهدُ بينَ القوم، والمحالفةُ: المعاهدةُ، وجُعِلَتْ للملازمةِ الَّتي تكونُ بمُعاهَدةٍ[1]، والحَلِفُ: القَسَمُ، وذلكَ أنَّ الإنسانَ يَلزَمُهُ الثَّباتُ عليهِ[2]. وهو المرادُ هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ صفاتِ المُنافقينَ الكذبُ وموالاةُ أعداءِ المؤمنين

يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ، أو لكلِّ مَنْ تتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ: ألم تنظرْ إلى المنافقينَ الَّذينَ اتَّخذوا اليهودَ أولياءَ، مع أنَّ اللّهَ تعالى غَضِبَ عليهم، وما هؤلاءِ المُتولّونَ مِنَ المؤمنينَ الخُلَّصِ ولا مِنَ الكافرينَ الخُلَّصِ، أو: وما اليهودُ مِنَ المؤمنينَ ولا مِنَ المنافقينَ، ففي اتِّخاذِ المنافقينَ لهم أولياءَ شناعةٌ وغرابةٌ. ويَحلِفُ هؤلاءِ المنافقونَ على ادِّعاءِ الإيمانِ وإظهارِ النُّصحِ للمؤمنينَ، وعدمِ إرادةِ الشَّرِّ لهم، وهم يعلمونَ أنَّهم كاذبونَ في هذا الحَلِفِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

ذِكْرُ حالةٍ جديدةٍ مِنْ أحوالِ المنافقين

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو ذكرُ حالةٍ أُخرى مِنْ أحوالِ أهلِ النِّفاقِ، وهي موالاتُهم لليهودِ[4].

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

حالُ المُنافقينَ الموالينَ لليهودِ عجيب

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ لتعجيبِ المخاطَبِ مِنْ حالِ المنافقينَ الَّذينَ يوالونَ اليهودَ،

---

(1) الرّاغب، المفردات: (حلف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلف).

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 252 - 253، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 51 - 52.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47 - 48، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 25.

ويُناصِحونَهم، ويَنقُلونَ إليهم أسرارَ المؤمنينَ[1]! ووجهُ التَّعجيبِ مِنْ حالِهم: أنَّهم تولَّوا قومًا مِنْ غيرِ جنسِهم، وليسَ في دينِهم ما حَمَلَهم على تَوَلّيهم إلّا اشتراكُ الفريقينِ في عداوةِ الإسلامِ والمسلمينَ[2]. وفي الاستفهامِ أيضًا توبيخٌ للمُنافقينَ حينَ يَسمَعونَهُ.

سرُّ تكرارِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

مُوالاةُ المُنافِقينَ لليهودِ جديرةٌ بالاهتمامِ والتَّنبيه

كُرِّرَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، مع تقدُّمِهِ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة: 8]، وقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [المجادلة: 7]؛ للتَّأكيدِ على استقلالِ ما بعدَ الاستفهامِ وأهمّيَّتِهِ، والتَّنبيهِ على أنَّهُ حَريٌّ بأنْ يُعلَمَ علمًا مستقلًّا، وأنَّهُ ليسَ تابعًا لغيرِهِ.

تعيينُ المُخاطَبِ بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ هو المُعَجَّبُ مِنْ حالِ المنافقين

الخِطابُ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّهُ لا يَفهَمُ ذلكَ حقَّ فهمِهِ غيرُهُ.

افتِضاحُ أمرِ المُنافِقينَ الموالينَ لليهود

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يَتَأتَّى منهُ الرُّؤيةُ المذكورةُ، وفي ذلك تنبيهٌ على افتِضاحِ أمرِ المُنافقينَ الَّذينَ يوالونَ اليهودَ، بحيثُ يَصِحُّ أنْ يُعجَّبَ مِنْ حالِهم كلُّ أحدٍ.

بلاغةُ تلوينِ الخِطابِ في الآيةِ:

صَرْفُ الخطابِ مِنَ المؤمنينَ إلى النَّبيِّ ﷺ

في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تلوينٌ للخطابِ، بصرفِهِ عن المؤمنينَ إلى الرَّسولِ ﷺ، وكذا في قولِهِ: ﴿مِّنكُمْ﴾، فإنْ كانَ غُلِّبَ فيهِ خطابُ الرَّسولِ فلا التِفاتَ فيهِ، وكذا إنْ لم يُغلَّبْ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهِ مخالفةٌ لمقتضَى الظّاهرِ؛ لسبقِ خطابِهم قبلَهُ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 21.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 48.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 226.

حالُ المُنافقينَ مَرْئيَّةٌ مُشاهَدة

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ:

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بصريَّةٌ، بقرينةِ تَعْدِيَتِها بالحرفِ ﴿إِلَى﴾، والمعنى: ألم تَنظُرْ[1]، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ حالَهم مَرْئيَّةٌ مُشاهَدةٌ، لا خفاءَ فيها.

سُفولُ رُتْبةِ مَن يوالي اليهود

دلالةُ ﴿إِلَى﴾ في ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ المجازيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ للتَّنبيهِ على سُفولِ رُتبةِ المَرْئيِّ المُشاهَدِ، وأنَّ المنافقينَ بعيدونَ غايةَ البُعدِ عن الخيرِ[2].

مَناطُ التَّعجيبِ تَولّي المَغضوبِ عليهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جيءَ بالموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على مَدارِ التَّعجيبِ، وهو تَوَلّيهم قومًا غضبَ اللهُ عليهم، ولاستهجانِ التَّصريحِ بأسمائِهم، والمرادُ بهؤلاءِ المُتَوَلّينَ المنافقونَ.

مَنْ تَوَلّى المَغضوبَ عليهم فهو خاسِر

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ تَوَلّيَهم للقومِ المغضوبِ عليهم أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى، بحيثُ لا يَسَعُهم إنكارُهُ، وفي ذلك تسجيلٌ عليهم، ومزيدُ تخسيرٍ لهم وتحسيرٍ.

حِرْصُ المُنافقينَ على موالاةِ المَغضوبِ عليهم

بلاغةُ صيغةِ التَّفعُّلِ في ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾:

الفعلُ (تَوَلّى) مصدرُهُ (التَّوَلّي)، وهو على وزنِ (التَّفَعُّل)، وكُسِرَتْ عينُهُ لخَتْمِهِ بالياءِ، وفيه معنى التَّكلُّفِ. وقد عُبِّرَ بصيغةِ التَّفَعُّلِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المنافقينَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.

تَكَلَّفوا بغايةِ جهدِهم أنْ يجعلوا المغضوبَ عليهم أولياءَهم الَّذينَ يُنزِلونَ بهم أمورَهم(1)، ويُحِبّونَهم.

اليهودُ مَغضوبٌ عليهم

غرضُ تنكيرِ ﴿قَوۡمًا﴾:

تنكيرُ ﴿قَوۡمًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾ للتَّحقيرِ، والمرادُ بهؤلاءِ القومِ اليهودُ(2)؛ فقد اشتُهِروا بأنَّهم قد غَضِبَ اللّٰهُ تعالى عليهم، كما دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: 60](3).

قُبْحُ شأنِ مَنْ تولَّى أعداءَ الله

دلالةُ الماضي في ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ غَضَبَ اللّٰهِ تعالى على اليهودِ قد تحقَّقَ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ مَنْ يَتولّاهم مِنَ المنافقينَ، وتنبيهٌ على سفاهةِ رأيِهم؛ لأنَّ مَنْ تولّى مغضوبًا عليهِ مِنْ قِبَلِ اللّٰهِ استوجَبَ غضَبَ اللّٰهِ، وكفى بذلكَ هَوانًا وحَزَنًا وحِرمانًا.

غَضَبُ العظيمِ عظيم

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ:

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِهِ ﷻ: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ لدلالتِهِ على المَلِكِ الأعلى الَّذي لا نِدَّ لهُ(4)، وفي ذلكَ تهويلٌ للغضبِ الَّذي وقَعَ على اليهودِ.

غَضَبُ اللهِ مُحيطٌ باليهود

معنى (على) في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

(على) في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ للتَّعديةِ، وما فيها مِنْ معنى الاستعلاءِ يُفيدُ أنَّ غَضَبَ اللّٰهِ تعالى كأنَّهُ قد استعلَى عليهم استعلاءً، وغَشيَهم مِنْ جميعِ الجوانبِ،

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 304.

(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 495، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 497، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 47.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 385 - 386.

وفي ذلكَ مزيدُ تنفيرٍ مِنْ موالاتِهم؛ إذ العاقلُ لا يَرضَى بموالاةِ مَنْ هذا شأْنُهُ.

علَّةُ فَصْلِ ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ﴾:

المُنافِقونَ ليسوا مِنَ المؤمنينَ الخُلَّصِ ولا مِنَ الكافرينَ الخُلَّص

يجوزُ في جملةِ ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنَّها مُستأنَفَةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، أخبرَ تعالى عنهم بأنَّهم ليسوا مِنَ المؤمنينَ الخُلَّصِ ولا مِنَ الكافرينَ الخُلَّصِ؛ لأنَّهم مُنافقونَ مُذَبْذَبونَ بينَ ذلكَ، فالضَّميرُ في ﴿مَّا هُم﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾، وهم المنافقونَ. والضَّميرُ في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عائدٌ على اليهودِ؛ أي: الكافرينَ الخُلَّصِ.

والثّاني: أنَّها حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، والمعنى كما سبقَ.

والثّالثُ: أنَّها صفةٌ ثانيةٌ لـ﴿قَوۡمًا﴾، فعلى هذا يكونُ الضَّميرُ في ﴿مَّا هُم﴾ عائدًا على ﴿قَوۡمًا﴾، وهم اليهودُ، والضَّميرُ في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾، وهم المنافقون؛ يعني: اليهودُ ليسوا منكم - أيُّها المؤمنونَ - ولا مِنَ المنافقينَ، ومع ذلكَ تَوَلّاهم المنافقونَ، إلّا أنَّ فيهِ تنافُرَ الضَّمائرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ في ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾[1]. وهذهِ الاحتِمالاتُ الثَّلاثةُ مِنْ مَظانِّ الفصلِ.

بلاغةُ الكلامِ المُوَجَّهِ في ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾:

غَزارةُ المَعاني بتَعَدُّدِ احتِمالاتِ مَرجِعِ الضَّمائرِ

تقدَّمَ أنَّ ضميرَ ﴿مَّا هُم﴾ يَحتَمِلُ أنْ يعودَ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾، وهم المنافقونَ، والمعنى: ما هم بمُسلمينَ ولا يهود. ويجوزُ أنْ يعودَ الضَّميرُ على ﴿قَوۡمًا﴾؛ أي: قومًا ليسوا مسلمينَ ولا مُنافقينَ، بل هم يهود. وكذلكَ ضميرُ ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ يَحتَمِلُ الأمرينِ على التَّعاكُسِ، وكِلا الاحتِمالَينِ واقعٌ ومرادٌ على طريقةِ الكلامِ المُوَجَّهِ؛ تكثيرًا للمعاني مع الإيجازِ، فيُفيدُ التَّعجيبَ مِنْ حالِ المنافقينَ أنْ يتولَّوا قومًا أجانبَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 129، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 273.

عنهم على قوم هم أيضًا أجانبُ عنهم، على أنَّهم إنْ كانَ يُفرِّقُ بينَهم وبينَ المسلمينَ اختلافُ الدِّينِ فإنَّ الَّذي يُفرِّقُ بينَهم وبينَ اليهودِ اختلافُ الدِّينِ واختلافُ النَّسَبِ؛ لأنَّ المنافقينَ مِنْ أهلِ يثربَ عربٌ. ويُفيدُ بالاحتمالِ الآخرِ الإخبارَ عن المنافقينَ بأنَّ إسلامَهم ليسَ صادقًا؛ أي: ما هم منكم أيُّها المسلمونَ، وهو المقصودُ. ويكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ على هذا الاحتمالِ احتِراسًا وتَتْميمًا لحكايةِ حالِهم، وعلى هذا الاحتمالِ يكونُ ذمُّ المنافقينَ أشدَّ؛ لأنَّهُ يدلُّ على حَماقتِهم؛ إذ جَعَلوا لهم أولياءَ ليسوا على دينِهم ولا هم مِن نَسَبِهم، فهم لا يوثَقُ بولايتِهم، وأضمَروا بُغْضَ المسلمينَ، فلم يُصادِفوا الدِّينَ الحقَّ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ﴾:

مُغايَرةُ المُنافقينَ للمؤمنينَ والكافرينَ حقيقةٌ ثابتة

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ عزَّ شأنُه: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ انتفاءَ كونِ المنافقينَ مِنَ المؤمنينَ الخُلَّصِ والكافرينَ الخُلَّصِ أمرٌ ثابتٌ، إلّا إنْ أخلَصوا دينَهم للهِ.

معنى (مِنْ) في ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾:

انتِفاءُ كَوْنِ المُنافقينَ بعضًا مِنَ المُؤمنينَ واليهود

(مِنْ) في قولِهِ تعالى في الموضعينِ: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: ما هم بعضًا مِنكم ولا بعضًا مِنهم.

دلالةُ (لا) في ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾:

فَرْطُ تَذَبذُبِ المُنافقين

(لا) في قولِهِ تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ صِلَةٌ لتوكيدِ النَّفي المستفادِ مِنْ (ما)، وفي ذلكَ زيادةُ تنصيصٍ على تَذَبذُبِ المنافقينَ.

نكتةُ عطفِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾:

المُنافقونَ جامِعونَ بينَ موالاةِ اليهودِ والحَلِفِ على الكذب

قولُهُ تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ عطفٌ على ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، داخلٌ في حُكمِ التَّعجيبِ[2]، فكلٌّ مِنْ موالاتِهم لليهودِ وحَلِفِهم على الكذبِ ممّا يَحُثُّ على التَّعجُّبِ مِنْ شأنِهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 48.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 229.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ (يَحْلِفونَ):

اسـتِـسـهـالُ المُنافقينَ للكَذِبِ أمرٌ عجيب

صيغةُ المضارعِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ للدَّلالةِ على تكرُّرِ الحَلِفِ وتجدُّدِهِ بحسبِ تكرُّرِ ما يَقتَضيهِ[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهم قد استَسهَلوا الكذبَ الموثَّقَ بالأيْمانِ[2]. وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا استِحضارٌ لحالِهمُ العجيبةِ حين حَلِفِهم على الكذبِ للتَّنصُّلِ مِمّا فَعَلوه[3].

دلالةُ ﴿عَلَى﴾ في ﴿عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾:

اجتِراءُ المُنافقينَ على الكَذِب

دلَّ التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ على أنَّ التَّقديرَ: ويَحلِفونَ مُجْتَرئِينَ على الكذبِ في دعوى الإسلامِ وغيرِ ذلكَ مِمّا يَقَعونَ فيه مِنْ عَظائِمِ الآثامِ[4]، فيكونُ في الكلامِ تضمينٌ.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكَذِبِ﴾:

كَـذِبُ المُنافقينَ في ادِّعاءِ الإيمانِ وإظهارِ النُّصْحِ لأهلِه

تعريفُ ﴿ٱلۡكَذِبِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ للعهدِ، والمرادُ منهُ: إمّا ادِّعاءُ أنَّهم مسلمونَ، وإمّا أنَّهم كانوا يَشتُمونَ اللّهَ ورسولَهُ، ويَكيدونَ للمسلمينَ، فإذا قيلَ لهم: إنَّكم فعلتُم ذلكَ خافوا على أنفُسِهم مِنَ القتلِ، فيَحلِفونَ إنّا ما قلنا ذلكَ وما فعلناهُ[5].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

تَعَمُّدُ الكَذِبِ قَبيحٌ شَنيع

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ (يَحلِفون)، وفي هذهِ الحالِ تشنيعٌ عليهم وتقبيحٌ لكذبهم؛ إذ حَلَفوا على الكذبِ وهم عالِمونَ مُتعمِّدونَ لهُ، فلا عُذرَ لهم[6]، وذلكَ أدخَلُ في التَّعجيبِ؛ لأنَّهُ أشنَعُ مِنَ الحَلِفِ على الكذبِ؛ لعدمِ التَّثبُّتِ في المحلوفِ عليه[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 226.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 280.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 48.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 386.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 497، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 276.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 129، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 273.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.

دَوامُ عِلْمِ المُنافقينَ بكَذِبِهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

اختيرَتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ دوامِ عِلْمِ المُنافقينَ بأنَّهم كاذبونَ فيما يَحلِفونَ عليه[1].

عِلْمُ المُنافِقينَ بكَذِبِهم مُؤكَّدٌ

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعْليِّ:

تقديمُ المسندِ إليهِ على الخبرِ الفِعْليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ لتقويةِ الحكمِ[2]، وذلكَ أنَّ الجملةَ تَشتَمِلُ على نِسْبةِ العلمِ إليهم، وفي ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إليهم، فيُفيدُ نِسْبةَ العلمِ إليهم مرَّةً أُخرى، كأنَّهُ قيلَ مرَّتينِ: يَعلَمونَ، يَعلَمونَ، ولا عجبَ في ذلكَ؛ فالمرءُ أدرى بأحوالِ نفسِهِ وخَفاياها ونَواياها.

الرِّضا بالمَعصيةِ قَبيح

نكتةُ الإيجازِ في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والتَّقديرُ: وهم يَعلَمونَ بأنَّهم كاذبونَ فيما حَلَفوا عليه[3]. وفي هذا الحذفِ أيضًا رعايةٌ للفَواصِلِ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

إلحاقُ الضَّررِ باليهودِ مِن إرادةِ اللهِ تعالى

الغَضَبُ والسُّخْطُ والغَيْظ:

الغَضَبُ: ثَوَرانُ دمِ القلبِ إرادةَ الانتقامِ[4]. والغَيْظُ: أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يَجِدُها الإنسانُ مِنْ ثَوَرانِ دمِ قلبِه، فهو أخصُّ مِنَ الغضبِ؛ فكلُّ غيظٍ غضبٌ، وليسَ كلُّ غضبٍ غيظًا[5]. والسُّخْطُ: الغضبُ الشَّديدُ المُقتضي للعقوبةِ[6].

والإنسانُ يجوزُ أنْ يَغتاظَ مِنْ نفسِهِ، ولا يجوزُ أنْ يَغضَبَ عليها؛

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 513.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 513.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 177.

(4) الرّاغب، المفردات: (غضب).

(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غيظ).

(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سخط).

لأَنَّ الغضبَ إرادةُ الضَّررِ للمغضوبِ عليهِ، ولا يجوزُ أَنْ يُريدَ الإنسانُ الضَّرر لنفسِهِ. والغضبُ يكونُ مِنَ الصَّغيرِ على الكبيرِ، ومِنَ الكبيرِ على الصَّغيرِ، والسُّخْطُ لا يكونُ إلّا مِنَ الكبيرِ على الصَّغيرِ، يقالُ: سَخِطَ الأميرُ على الحاجبِ، ولا يقالُ: سَخِطَ الحاجبُ على الأميرِ[1].

وقد عُبِّرَ بالغضبِ هنا؛ لدلالتِهِ على أَنَّ اللّهَ تعالى يُريدُ إلحاقَ الضَّررِ باليهودِ.

(1) العسكري، الفروق، ص: 130.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾

[المجادلة: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيانُ عاقبةِ المُنافقينَ بعدَ بيانِ حالِهم

لمّا أخبرَ ﷺ عن حالِ المنافقينَ الَّذينَ تولَّوا اليهودَ، ويَحلِفونَ على الكذبِ أتبَعَهُ الإخبارَ عن مَآلِهم في الآخرةِ، وما يَلقَونَ فيها مِنَ النَّكالِ والوَبالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعَدَّ﴾: (عدد) أصلٌ يدلُّ على تهيئةِ الشَّيءِ[2]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أعدَدْتُ هذا لكَ؛ أي: جعلتُه بحيثُ تَتَناولُهُ بحسبِ حاجتِك إليهِ[3]. ومعنى ﴿أَعَدَّ﴾ في الآية: هيَّأ وأرصَدَ[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

سوءُ عاقبةِ مَنْ يُوالي اليهودَ ويَمكُرُ بأهلِ الإسلامِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ في بيانِ عاقبةِ المُنافقينَ الموالينَ لليهودِ: هيَّأَ اللهُ لهؤلاءِ المُنافقينَ الَّذينَ تولَّوا اليهودَ عذابًا في الآخرةِ شديدًا؛ إنَّهم ساءَ ما كانوا يعملونَ في الدُّنيا، بغِشِّهمُ المسلمينَ، ونُصحِهم لأعدائِهم مِنَ اليهودِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الأفعالُ الشَّنيعةُ عاقِبَتُها وخيمة

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ، جيءَ بهِ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو بيانُ عقوبةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عدد).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 23.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 253، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52.

المنافقينَ الَّذينَ تولَّوا اليهودَ، ويَحلِفونَ على الكذبِ. ويُحتمَلُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِنْ ذكرِ ما سبقَ مِنْ قَبائحِهم، كأنَّهُ قيلَ: فما جزاؤُهم بسببِ هذهِ الأعمالِ الشَّنيعةِ؟ فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَعَدَّ﴾:

العاقلُ يَتَجنَّبُ الهَلاكَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إعدادَ العذابِ الشَّديدِ لهم أمرٌ قد مَضَى وفُرِغَ منهُ[1]، أو أنَّه لِتَحَقُّقِهِ يومَ القيامةِ بلا ريبٍ كان بمنزلةِ ما قد مَضَى وفُرِغَ منه. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّهويلِ والتَّخويفِ، والعاقلُ يَتَجنَّبُ ما فيهِ هلاكٌ مُحَقَّقٌ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلَفْظِ الإعدادِ دونَ الإعتادِ:

عـذابُ المنافقينَ مـهـيَّأٌ لـهـم من غيرِ قيدِ الحضورِ أو القربِ

الإعدادُ: ادِّخارُ الشَّيءِ وجعلُه بحيثُ تتناولُهُ بحسبِ حاجتِكَ إليهِ[2]. أمّا الإعتادُ: فهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليهِ[3]، وقد غلبَ في القرآنِ الكريمِ استعمالُ (أَعْتَدَ) في تهيئةِ النّارِ والعذابِ، ولم يُستعمَلْ في غيرِ ذلكَ إلّا قليلًا، وأمّا (أعدَّ) فاستُعمِلَ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ والرِّزقِ والأجرِ والمغفرةِ والعُدَّةِ وآلةِ الحربِ[4]. والإعتادُ فيهِ حُضورٌ وقُرْبٌ، فالعَتيدُ: هو الحاضرُ، أمّا الإعدادُ فهو التَّهيئةُ، وليسَ بالضَّرورةِ الحُضورُ[5]. وقد عُبِّرَ بالإعدادِ هنا؛ لأنَّهُ ليسَ المقصودُ التَّنبيهَ على الحضورِ والقُربِ.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ:

عـذابُ العظيمِ القديرِ عظيم

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِهِ ﷻ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387.
(2) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (عدد).
(3) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (عتد).
(4) محمد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 338.
(5) فاضل السّامرائي، لمسات بيانية في نصوصٍ من التّنزيل، ص: 315.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ والكمالِ، ومنها القدرةُ الباهرةُ، وأنَّهُ لا كُفْءَ له[1]، فيكونُ أنسبَ بمَقامِ التَّهويلِ والوعيدِ.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

المُنافقونَ مُستحِقّونَ للعذابِ الشَّديدِ

اللّامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ للاستحقاقِ مع لَحْظِ معنى التَّعليلِ فيها، فتُفيدُ أنَّهم يَستَحِقّونَ العذابَ الشَّديدَ، وأنَّه أُعِدَّ لأجْلِهم، وفيها أيضًا تهكُّمٌ بهم[2]؛ إذ اللّامُ عادةً تُستعمَلُ فيما فيه منفعةٌ، فتفيدُ أنَّ العذابَ الشَّديدَ قد نُزِّلَ منزلةَ الشَّيءِ النّافعِ تَهَكُّمًا.

نكتةُ تقديمِ ﴿لَهُمۡ﴾:

مَساءَةُ المُنافقينَ بالعذابِ الشَّديدِ مُعجَّلَةٌ

قُدِّمَ القيدُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعولِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾؛ لتعجيلِ المَساءَةِ للمُنافقينَ عندَ سماعِ هذا الكلامِ ببيانِ أنَّ المَساءَةَ لهم، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو العذابُ الشَّديدُ، فيَتَمكَّنُ عندَ وُرودِهِ على النَّفسِ فضلَ تَمَكُّنٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالعذابِ:

عذابُ المُنافقينَ قاطعٌ لكلِّ عُذوبة

عُبِّرَ بالعذابِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما أُعِدَّ لهم أمرٌ قاطعٌ لكلِّ عذوبةٍ[3]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ الوعيدِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿عَذَابٗا﴾:

عذابُ جهنَّمَ نوعٌ فظيعٌ مِنَ العذابِ

تنكيرُ ﴿عَذَابٗا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ أي: نوعًا مِنَ العذابِ شديدًا[4]، وهو عذابُ جهنَّمَ في الآخرةِ الَّذي لا عذابَ أشدُّ منهُ وأفظعُ[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 495، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 451، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 514، والزحيلي، التّفسير المنير: 28/ 50.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 281، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 304.

بلاغةُ وصفِ العذابِ بالشِّدّةِ:

وُصِفَ العذابُ بالشِّدَّةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾؛ لزيادةِ تفظيعِهِ وتهويلِهِ، ببيانِ أنَّهُ عظيمُ الشِّدَّةِ، يَعلَمُ مَنْ رآهُ ورآهم أنَّ ذواتَهم مُتداعيةٌ إليه، ضعيفةٌ عنهُ[1]؛ فإنَّ عذابَهم في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النّارِ، وعذابُهُ أشدُّ مِنْ عذابِ سائرِها[2].

المُنافقونَ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النّارِ

علّةُ فَصْلِ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تعليليٌّ لهُ[3]، والمعنى: أعدَّ اللّهُ لهم عذابًا شديدًا؛ لأنَّهم ساءَ ما كانوا يعملونَ.

العذابُ الشَّديدُ نتيجةُ أعمالِهِمُ السَّيِّئةِ

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِهِ، وتقريرِ استحقاقِهِم للعذابِ الشَّديدِ، وللتَّقبيحِ على مَنْ كانَ يَستَحسِنُ أفعالَهم[4].

المُنافقونَ يَستَحِقّونَ العذابَ الشَّديدَ بلا رَيْبٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿سَآءَ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿سَآءَ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما كانوا يعملونَهُ قد بلغَ الغايةَ في السّوءِ والقُبْحِ[5]، فلا جَرَمَ أنَّهم استحقّوا بمُقابلتِهِ هذا العذابَ الشَّديدَ.

والفعلُ ﴿سَآءَ﴾ هنا جامدٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، فهو كالفعل (بئس)، و﴿مَا﴾ فاعلُهُ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ؛ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، والتَّقديرُ: تَوَلّيهم قومًا غَضِبَ اللّهُ عليهم وحَلِفُهم على الكذبِ مع عِلْمِهم بكذبِهم.

أعمالُ المُنافقينَ في غايةِ السّوءِ والقُبْحِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 387.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 514.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388.

(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388.

ويجوزُ أن يكونَ الفعلُ ﴿سَآءَ﴾ مُتصرِّفًا لازمًا بمعنى (قَبُحَ)، وحينئذٍ ليس في الكلام أسلوبُ الذَّمِّ المعهود، أو أنْ يكونَ مُتصرِّفًا مُتعدّيًا بتقديرِ: إنَّهم ساءَهم ما كانوا يعملون، وذلك لِما يُعاينونه مِن العذاب الشَّديد.

إعرابُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

كُلُّ أعمالِ المُنافقينَ سيّئة

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إمّا اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم؛ للمبالغةِ في وصفِ جميعِ أعمالِهم بالسّوء، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ تقبيحِ شأنِهم، وبيانِ انهماكِهم في الشَّرِّ والفسادِ، بحيثُ لا يكادُ يوقَفُ لهم على عملٍ صالحٍ، وجملةُ ﴿كَانُواْ﴾ صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب. وإمّا نكرةٌ موصوفةٌ بمعنى (شيء)، والمعنى: ساءَ شيءٌ كانوا يعملونه، وجملةُ ﴿كَانُواْ﴾ نعتٌ لـ﴿مَا﴾ في محلِّ رفعٍ، ويُرادُ بـ﴿مَا﴾ هنا التَّشنيعُ عليهم بتحقيرِ أعمالِهم.

سرُّ إدخالِ فعلِ الكونِ الماضي على المُضارع:

عَمَلُ السّوءِ عادةُ المُنافقينَ المُستمِرَّة

إدخالُ فعلِ الكونِ الماضي على المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم كانوا في الزَّمانِ الماضي المُتطاولِ على سوءِ العملِ مُصرّينَ عليه[1]، مُجدِّدينَ له[2]، وذلكَ أنَّ (كانَ) في مِثلِ هذا التَّركيبِ تفيدُ التَّكرارَ، وأنَّ العملَ مُعتادٌ لهم[3]، وكأنَّهُ صارَ طبيعةً لهم وسجيَّةً، وهذا يدلُّ على أنَّهم يموتونَ على الحالةِ المذكورةِ، فهم قومٌ مخصوصونَ حُكِمَ عليهم بأنَّهم يموتونَ كذلكَ، أو الكلامُ عامٌّ خُصَّ فيهِ بعضُهم[4].

بَراعةُ الجِناسِ بينَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

التَّناغُمُ اللَّفظيُّ بينَ هذهِ الآيةِ وسابِقَتِها

بينَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، وبينَ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 495، والبيضاوي: 5/ 196.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 172.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 514 - 515، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 514.

في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ الجناسُ المقلوبُ قَلْبَ بعضٍ[1]، بقَلْبِ بعضِ حُروف الكلمتَينِ اللَّتَينِ جَرَى فيهما الجناسُ، وذلكَ لونٌ مِنْ ألوانِ المُحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ الَّتي تَزيدُ التَّناغُمَ بينَ ألفاظِ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وتُعَمِّقُ دلالةَ إصرارِهم على سوءِ العَمَلِ على الرَّغْمِ مِن العِلْمِ بقُبحِ هذه الأعمالِ وفسادِها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(بئسَ) و(ساءَ):

قُبحُ أعمالِ المُنافقينَ

(بِئْسَ) و(ساءَ) كِلاهما أسلوبٌ إنشائيٌّ للذَّمِّ، والبأسُ: شدَّةُ الحالِ، والمَشَقَّةُ، والبَلاءُ، والسّوءُ: المكروهُ، والقُبحُ، وهو خلافُ الحُسنِ[2]. وقد عُبِّرَ بـ﴿سَآءَ﴾ هنا للتَّنبيهِ على قُبحِ ما كان يعملُهُ المُنافقونَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 262 - 263.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾ [المجادلة: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مُداوَمَةُ المُنافقينَ علـى الأعـمـالِ السَّيِّئةِ مُؤكَّدةٌ

لمّا دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على سوءِ أعمالِ المنافقينَ ومُداوَمَتِهم عليها أكّدَ سبحانَهُ ذلكَ بقولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾: اليمينُ في الأصلِ: اليدُ الجارحةُ(2) الَّتي تقابلُ الشِّمالَ، واليمينُ في الحَلِفِ مستعارٌ منها، اعتبارًا بما يفعلُه المُعاهِدُ والمُحالِفُ(3). والأيمانُ هنا: جمعُ يمينٍ بمعنى القَسَمِ(4).

2) ﴿جُنَّةٗ﴾: (جنن) أصلٌ يدلُّ على سَتْرِ الشَّيءِ(5)، ومن ذلكَ: الجَنَّةُ، وهي ما يصيرُ إليهِ المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجَنَّةُ: البستانُ؛ لأنَّ الشَّجرَ بوَرَقِه يَسْتُرُ، والجِنَّةُ: الجنونُ؛ لأنَّه يُغطّي العقلَ، وجَنانُ اللَّيلِ: سوادُهُ وسَتْرُهُ الأشياءَ، والجِنُّ سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم مُستتِّرونَ عن أعيُنِ الخَلْقِ(6)، والمِجَنُّ والمِجَنَّةُ: التُّرسُ الَّذي يُجِنُّ صاحِبَهُ؛ أي: يَسترُهُ(7)، والجَنانُ: القلبُ؛ لاستتارِهِ بالصَّدْرِ(8). والمرادُ بالجُنَّةِ هنا: الوِقايةُ دونَ دمائِهم وأموالِهم(9).

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).
(3) الرّاغب، المفردات: (يمن).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 281، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 172.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنن).
(6) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(7) الرّاغب، المفردات: (جنن).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جنن).
(9) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 451.

3) ﴿فَصَدُّواْ﴾: (صدد) أصلٌ يدلُّ على إعراضٍ وعدولٍ[1]، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عنِ الشَّيءِ وامتناعًا، وقد يكونُ صَرْفًا ومَنْعًا[2]، وهو مُحتمِلٌ للمعنيَين هنا، فيكونُ المرادُ امتناعَهم بأنفسِهم أو مَنْعَهم لغيرِهم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأيْمانُ الكاذِبةُ تَقي في الدُّنيا لا في الآخِرة

يُخبِرُ سبحانَهُ عن حالٍ آخَرَ للمنافقينَ، فيقولُ: جَعَلوا حَلِفَهم وأيمانَهم وِقايةً مِنَ القتلِ، يَدفَعونَ بها عن أنفُسِهم وأموالِهم وذَراريهم، وذلكَ أنَّهم إذا اطُّلِعَ منهم على النِّفاقِ حَلَفوا للمؤمنينَ باللّهِ إنَّهم لَمِنْهم، فصدّوهم عن قتلِهم، أو عن الدّينِ بالتَّثبيطِ وإلصاقِ التُّهَمِ والنَّقائصِ بالدّينِ، أو فامتَنَعوا بأنفُسِهم عن اتِّباعِ الحقِّ، فلهم عذابٌ مُذِلٌّ لهم في النّارِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

حَلِفُ المُنافقينَ على الكَذِبِ لوِقايةِ أنفُسِهم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا عن جملة ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ ذلكَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ أنْ يقولَ: ما الَّذي ألجَأهم إلى الحَلِفِ على الكذبِ؟ فأُجيبَ بأنَّ ذلكَ لقضاءِ مَآرِبِهم وزيادةِ مَكْرِهم[5].

اتِّخاذُ المُنافقينَ أيمانَهم جُنَّةً مِنْ أسبابِ إعدادِ العذابِ الشَّديدِ لهم

ويجوزُ أنْ تُجعَلَ الجملةُ خبرًا ثانيًا لـ(إنَّ) في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وتكونَ داخلةً في تعليلِ إعدادِ العذابِ الشَّديدِ لهم[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدد).
(2) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 281، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 304، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 50.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 254، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 515، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

اتِّخاذُ أيْمانِهم جُنَّةً أمرٌ مُتَحَقِّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّخاذَهم أيمانَهم جُنَّةً أمرٌ قد مَضَى، وتحقَّقَ صدورُهُ منهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ دلالةً وصيغةً:

الحَلِفُ الكاذِبُ عُدَّةُ المُنافقين

الاتِّخاذُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ عبارةٌ عن إعدادِهم لأيمانِهمُ الكاذبةِ وتهيئتِهم لها إلى وقتِ الحاجةِ؛ ليحلفوا بها ويتخلَّصوا مِنَ المؤاخذةِ[1]، أو عبارةٌ عن تصييرِهم لها وِقايةً[2]، بأنْ حلفوا بالفعلِ.

المنافقون محبّون للأذى

وعُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم متكلِّفونَ بهذا الاتِّخاذِ، وبالغونَ فيهِ جهدَهم، وأنَّ لهم عراقةً في اعوِجاجِ الطَّبعِ والمحبَّةِ للأذى[3].

نكتةُ جمعِ الأيمان:

تعدُّدُ الأيمانِ بتعدُّدِ المُنافقين

جُمِعَتِ الأيمانُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾؛ لأنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسمةَ آحادًا[4]، والكلامُ هنا على جماعةٍ مِنَ المنافقينَ، فلا شكَّ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم يمينًا أو أكثرَ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

الأيمانُ الكاذبةُ شأنُ المُنافقين

إضافةُ الأيمانِ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها أيمانُهمُ الكاذبةُ الَّتي حلفوا بها[5]، ففي هذهِ الإضافةِ تقبيحٌ لشأنِ هذهِ الأيمانِ واستهجانٌ لها.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 227.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 515.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 515.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 515.

نكتةُ تنكيرِ ﴿جُنَّةٗ﴾:

شَأْنُ المُنافقينَ التَّستُّرُ خَلْفَ أيمانِهم

الجُنَّة: الوقايةُ والسُّترة، والمعنى: وقايةً من شُعورِ المسلمين بهم؛ ليتمكَّنوا مِن صَدِّ كثيرٍ ممَّن يُريدُ الدُّخولَ في الإسلام عن الدُّخولِ فيه(1).

وتنكيرُ ﴿جُنَّةٗ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ للنَّوعيَّة؛ أي: نوعًا مِنْ أنواعِ الجُنَن، وهو نوعٌ مجازيٌّ يَقون به أنفُسَهم وأموالَهم وذراريَهُم.

بلاغةُ الاستِعارةِ والتَّشبيهِ في جُملة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾:

يَستَتِرُ المُنافقون بالأيمانِ كما يَستَتِرُ المُحارِبُ بدِرْعِه

شُبّهتِ الأيْمانُ بالدِّرْعِ في أنَّها يُستَتَرُ بها ويُحتَمَى بها مِن أذى الآخَرينَ، كما يَحتَمي المُحارِبُ بالدِّرع وقايةً له، على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّة، حُذِفَ فيها المشبَّهُ به - وهو الدِّرعُ - وذُكِرَ شيءٌ مِن لَوازِمِه، وهو الجُنَّة؛ أي: الوقاية.

أو يقال: في الكلام تشبيهٌ بليغٌ حُذِفَتْ منه الأداةُ ووجهُ الشَّبَه، حيث شُبِّهَتِ الأيْمانُ بالجُنَّة، وبناءً عليه كان في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ لجَرَيانِها في الفعل، حيث شُبِّهَ حَلِفُهم باتِّخاذِهمُ الجُنَّة؛ أي: استعمالِها(2).

معنى الفاءِ في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

اغتِرارُ المُنافقينَ بقَبولِ ادِّعاءِ الإيمانِ منهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ للتَّفريع، فتفيدُ أنَّ الصَّدَّ عن سبيلِ اللهِ مُسبَّبٌ عن اتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً، وذلكَ أنَّ عِلْمَهم بأنَّهُ يُرضَى منهم بالإيمان الظّاهر، وتُصدَّقُ أيْمانُهم جَرَّأهم على العظائم، فكانوا يُرغِّبونَ النّاسَ في النِّفاقِ بعاجلِ الشَّهوات، ويُثَبِّطونَهم عن الدّينِ بما فيهِ مِنْ عاجلِ الكُلَفِ وآجلِ الثَّوابِ(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 49.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 236.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 388 - 389.

بلاغةُ صيغةِ الماضي في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

صَدُّ المُنافقينَ عن سبيلِ اللهِ واقعٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ صَدَّهم عن سبيلِ اللّهِ قد مَضَى وتحقَّقَ ووقَعَ، وفي ذلكَ تسجيلٌ عليهم، وإلزامٌ لهم بالحُجَّةِ، ومزيدُ تقبيحٍ لصنيعِهم.

دلالةُ ﴿فَصَدُّواْ﴾ بينَ التَّعدّي واللُّزوم:

المنافقونَ حريصونَ على صرفِ النّاسِ عن الدّين

(صدّوا) في قولِه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مُتعدّيًا حُذِفَ مفعولُهُ لظهورِهِ؛ أي: فصَدّوا النّاسَ عن الإسلامِ بالتَّثبيطِ وإلصاقِ التُّهَمِ والنَّقائصِ بالدّين، أو فصدّوا المسلمينَ عن قتلِهم.

المُنافقونَ ظالِمونَ لأنفُسِهم

ويجوزُ أنْ يكونَ الفعلُ لازمًا؛ أي: فصَدّوا هم عن سبيلِ اللّهِ[1]، وفي ذلكَ ظُلْمٌ لأنفُسِهم لو كانوا يعقلونَ.

دلالةُ ﴿عَن﴾:

غايةُ المُنافقينَ الإبعادُ عن الدّين

﴿عَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ للمُجاوزةِ مجازًا، فتفيدُ أنَّ غايةَ المنافقينَ الانصرافُ عن دينِ اللّهِ، أو صَرْفُ غيرِهم عنهُ وتجاوُزُهُ.

غرضُ الإضافةِ وسرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

دينُ اللهِ عظيمُ الشَّأن

إضافةُ السَّبيلِ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ السَّبيلِ بإضافتِها إلى العظيمِ سبحانَهُ، والمرادُ بها دينُ اللّهِ، وهو الإسلامُ[2].

سَفاهةُ رَأْيِ المُعرِضِ عن طريقِ السَّعادةِ والرِّضوان

وأوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِهِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ؛ أي: فصدّوا عن دينِ المَلِكِ الأعلى الَّذي هو الطَّريقُ إلى رضوانِه، وهو سببُ الفوزِ الأعظمِ[3]. وفي ذلكَ تنبيهٌ على سفاهةِ رَأْيِهم بتركِ طريقِ السَّعادةِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 281، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 50.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 304.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.

معنى الفاءِ في جُملةِ الفاصِلة:

الفاءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ للسَّببيَّةِ، فتُفيدُ تسبُّبَ العذابِ المُهينِ عن كُفرِهم وصَدِّهم عن سبيلِ اللّهِ[1].

الصَّدُّ عن سبيل اللهِ طريقُ العذاب

دلالةُ اللّامِ في ﴿فَلَهُمۡ﴾:

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ للاستحقاقِ، فتفيدُ أنَّ العذابَ المُهينَ مُستحَقٌّ لهم، وفي التَّعبيرِ بها تهكُّمٌ؛ لأنَّها تكونُ في المحبوبِ[2]، وقد استُعمِلَتْ هنا في مكروهٍ نُزِّلَ منزلةَ المحبوبِ.

المُنافقونَ مُستحِقّونَ للعذابِ المُهين

غرضُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ ﴿فَلَهُمۡ﴾:

قُدِّمَ القيدُ ﴿فَلَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لتعجيلِ مَساءَةِ المُنافقينَ حينَ يسمعونَ الكلامَ، ويعلمونَ أنَّ العذابَ المُهينَ لهم، وللتَّشويقِ لمعرفةِ المُؤَخَّرِ، وهو العذابُ المُهين.

العذابُ المُهينُ مَساءَةٌ مُعجَّلةٌ للمُنافقين

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٞ﴾:

تنكيرُ ﴿عَذَابٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ؛ أي: عذابٌ عظيمٌ هائلٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

فَظاعةُ عذابِ المُنافقينَ لا توصَف

بلاغةُ وصْفِ العذابِ بالمُهينِ بعدَ وصْفِهِ بالشَّديد:

وُصِفَ عذابُ المنافقينَ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ بالشِّدَّةِ، وهو الَّذي يُجازَونَ بِهِ على تَوَلِّيهم قومًا غَضِبَ اللّهُ عليهم، وحَلِفِهم على الكذبِ. ووُصِفَ عذابُهم في قولِهِ هنا: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بالإهانةِ - أي: الإذلالِ لهم - لأنَّهُ جزاءٌ على صَدِّهم عن سبيلِ اللّهِ، وعلى طلبِهم إعزازَ أنفُسِهم وإهانةَ أهلِ الإسلامِ، فكانَ وصفُ العذابِ مُناسِبًا للمَقصِدينَ في كفرِهم، وهو عذابٌ واحدٌ فيهِ الوصفانِ، وكُرِّرَ ذكرُهُ مُبالَغةً في الإنذارِ والوعيدِ؛ فإنَّهُ مَقامُ تكريرٍ مع تحسينِهِ باختلافِ الوصفَينِ[3].

مَنْ أرادَ ذُلَّ الإسلامِ فعاقِبَتُهُ الإذلالُ

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 452، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 50.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُنَّةُ والسُّتْرة:

أيمانُ المُنافقينَ كسُتْرةِ المُقاتِل

السُّترةُ أعَمُّ مِنَ الجُنَّةِ، وذلكَ أنَّ الجُنَّةَ: كلُّ ما يُستَترُ بهِ مِنَ السِّلاحِ[1]، والسُّترةَ: كلُّ ما يُستَترُ بهِ[2] مِنَ السِّلاحِ وغيرِه.

وقد عُبِّرَ بالجُنَّةِ هنا؛ لأنَّهم لمّا اتَّخذوا أيْمانَهم وقايةً لهم مِنَ القتلِ جُعِلَتْ هذهِ الأيْمانُ بمنزلةِ ما يَقي بهِ المُقاتِلُ نفسَهُ في الحربِ[3].

السَّبيلُ والطَّريقُ والصِّراط:

صَدُّ المُنافقينَ عن طريقِ الحقِّ والخير

الصِّراطُ هو الطَّريقُ السَّهْلُ. والطَّريقُ لا يقتضي السُّهولةَ. والسَّبيلُ يُطلَقُ على ما يُطلَقُ عليهِ الطَّريقُ، وعلى ما لا يُطلَقُ عليهِ الطَّريقُ، تقولُ: سبيلُ اللهِ، وطريقُ اللهِ، وتقولُ: سبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أنْ تفعلَ كذا. والسَّبيلُ أغلبُ وقوعًا في الخيرِ، ولا يكادُ الطَّريقُ يُرادُ بهِ الخيرُ إلّا مُقترِنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تُخصِّصُهُ لذلكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]. والطَّريقُ قد يكونُ مُعتادَ السُّلوكِ، وقد يكونُ غيرَ مُعتادٍ، والسَّبيلُ: ما يكونُ مُعتادًا[5].

وقد عُبِّرَ بالسَّبيلِ هنا؛ لدلالتِهِ على طريقِ الخيرِ، وهو طريقُ الحقِّ والإيمانِ الَّذي تَرَكَهُ المنافقونَ، وأعرَضوا عنهُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(2) الرّاغب، المفردات: (ستر).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 229.
(4) العسكري، الفروق، ص: 313.
(5) حقي، الفروق، ص: 143.

﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [المجادلة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المُستَتِرُ بغيرِ طاعةِ اللهِ عُرْيانٌ

لمّا كانَ للمنافقينَ أموالٌ وأولادٌ يتعزَّزونَ بها بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ مَن استترَ بغيرِ طاعةِ اللّهِ فلا يَقيهِ شيءٌ[1]. وأيضًا كما لم تَقِهم أيمانُهم الكاذبةُ لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شيئًا يومَ القيامةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِيَ﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكفايةِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الغِنى، وهو يقالُ على أنواعٍ: أحدُها: عدمُ الحاجاتِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّهِ تعالى. والثّاني: قلّةُ الحاجاتِ. والثّالثُ: كثرةُ القُنْياتِ. ويقالُ: غَنيتُ بكذا، واستغنيتُ وتغنَّيتُ، وتغانيتُ. ويقالُ: أغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا، إذا كفاني[4]. والمرادُ بعدمِ إغناءِ أموالِهم وأولادِهم هنا: أنَّها لن تدفعَ عنهم بأسًا إذا جاءَهم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُنافِقونَ في عذابٍ مقيمٍ لا دافعَ له

يقولُ تعالى ذكرُهُ في بيانِ أنَّ عذابَهُ لا رادَّ لَهُ: لن تدفعَ عن هؤلاءِ المنافقينَ يومَ القيامةِ أموالُهم، فيفتدوا بها مِنْ عذابِ اللّهِ المُهينِ لهم، ولا أولادُهم فينصروهم مِنَ اللّهِ إذا عاقبَهم؛ لأنَّهم أهلُ النّارِ، هم فيها ماكثونَ إلى غيرِ نهايةٍ[6].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 50.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(4) الرّاغب، المفردات: (غني).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 254.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

لا عاصمَ للمُنافقينَ مِنَ عذابِ الله

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو بيانُ أنَّ عذابَ اللهِ تعالى لا يردُّهُ عن المنافقينَ شيءٌ[1]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الجملةُ خبرًا ثالثًا، أو خبرًا ثانيًا عن (إنَّ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2]، وأيًّا ما كانَ فكلُّ ذلكَ مِنْ مواضعِ الفصلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنْفيِّ بـ﴿لَّن﴾:

يأسُ المُنافقينَ مِنَ النَّجاةِ مِنَ العذاب

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ بـ﴿لَّن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لأنَّ ﴿لَّن﴾ لنفيِ الحالِ والاستقبالِ، فتفيدُ دوامَ النَّفيِ، والمعنى: لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ بالافتداءِ ولا بغيرِهِ[3]. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّيئيسِ.

معنى (عن) في القيد ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

نَفْعُ الأموالِ والأولادِ لن يَصِلَ للمُنافقين

(عن) في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ للمجاوزةِ مجازًا، والمعنى: أنَّ إغناءَ الأموالِ والأولادِ لن يتجاوزَ إلى المنافقينَ، ولن يصلَ إليهم.

غرضُ تقديمِ القيدِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

تَجاوُبُ أطرافِ النَّظْمِ في الآية

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، ولأنَّ في الفاعلِ وما عُطِفَ عليهِ طولًا[4]، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 51.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 389.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 37.

أموالُهم وأولادُهم لا تُغني عنهم وإنْ كَثُرَتْ

نكتةُ جَمْعِ الأموالِ والأولادِ:

جُمِعَتِ الأموالُ والأولادُ في قولِه تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ المُنافقينَ، وللإشارةِ إلى أنَّها لا تُغنيَ عنهم مِنَ اللهِ شيئًا وإنْ كَثُرَتْ. وقد كانَ المنافقونَ مِنْ أهلِ الثَّراءِ بالمدينةِ، وكانَ ثراؤُهم مِنْ أسبابِ إعراضِهم عن قبولِ الإسلامِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ سيادةٍ، فلم يَرضَوا أنْ يصيروا في طبقةِ عمومِ النّاسِ، فكانوا يفخرونَ على المسلمينَ بوَفْرةِ الأموالِ وكثرةِ العشائرِ، وذلكَ في السَّنةِ الأولى مِنَ الهجرةِ[1].

طريقُ نَجاةِ المُنافقينَ في الآخرةِ مَسدود

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

أُضيفَتِ الأموالُ والأولادُ إلى الضَّميرِ العائدِ على المنافقينَ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها أموالٌ وأولادٌ معهودةٌ، وهي أموالُهم وعشائرُهم الكثيرةُ الَّتي كانوا يَفخَرونَ بها على المسلمينَ، وجَعلَتْهم يُعرِضونَ عن الإسلامِ، وإذا كانَتْ أموالُهم وأولادُهم لا تُغني عنهم مِنَ اللهِ شيئًا فأموالُ غيرِهم وأولادُهم مِنْ بابِ أولى، وفي ذلكَ قطعٌ لحبالِ النَّجاةِ الَّتي يَتَمسَّكونَ بها، ويظنّونَ أنَّها تنفعُهم.

المالُ أوّلُ عُدَّةٍ لدَفْعِ النَّوائِب

سرُّ تقديمِ الأموالِ على الأولادِ:

قُدِّمَتِ الأموالُ على الأولادِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾؛ لأنَّها أوَّلُ عُدَّةٍ لدفعِ النَّوائبِ[2]، وعادةُ النّاسِ جاريةٌ على تقديمِها قبلَ تقديمِ الأولادِ والأنصارِ والعشائرِ.

المُنافقونَ مَحكومٌ عليهم بالهَلاكِ قَطْعًا

دلالةُ (لا) في ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

جيءَ بـ(لا) في المعطوفِ في قولِه تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 50 - 51.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 37.

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لتأكيدِ النَّفي المستفادِ مِنْ ﴿لَّن﴾ بإعادةِ النّافي؛ للتَّنصيصِ على كلٍّ مِنَ المُتعاطفَين، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ تقريرِ دفعِ الإغناءِ[1]، وفيهِ حكمٌ قاطعٌ على المُنافقينَ بالهلاكِ إنْ ماتوا على نفاقِهم، ولم يتوبوا ويُخلِصوا دينَهم للّهِ.

سرُّ تخصيصِ الأموالِ والأولادِ بالذِّكرِ:

عَـدَمُ إغـنـاءِ الـقـريـبِ يـدلُّ على عدمِ إغناءِ البعيد

خُصَّتِ الأموالُ والأولادُ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لأنَّ الغَناءَ يكونُ بالفداءِ بالمالِ كدفعِ الدّياتِ والغراماتِ، ويكونُ بالنَّصرِ والقتالِ، وأولى مَنْ يُدافِعُ عن الرَّجلِ مِنْ عشيرتِهِ أبناؤُهُ، وعن القبيلةِ أبناؤُها[2]، وإذا لم تُغْنِ هذهِ الوسائلُ عن أصحابِها مع غايةِ اختصاصِها بهم فعدمُ إغناءِ غيرِها مِنْ بابِ أولى.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

عذابُ اللهِ لا يُرَدُّ ورحمةُ اللهِ خيرٌ

﴿لَّن تُغۡنِيَ﴾ فعلٌ قاصرٌ يتعدَّى إلى المفعولِ بـ(عن)، ولدلالتِهِ على الإجزاءِ والدَّفعِ كانَ مُؤْذِنًا بأنَّ هناكَ شيئًا يُدفَعُ ضرُّهُ، فلذلكَ قد يَذكُرونَ مع هذا الفعلِ مُتعلَّقًا ثانيًا، ويُعَدّونَ الفعلَ إليهِ بالحرفِ (مِنْ)، كما في قولِهِ تعالى هنا: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾، فتكونُ ﴿مِّنَ﴾ للبدلِ والعِوَضِ، أو للابتداءِ. وفي الكلامِ محذوفٌ تقديرُهُ: مِنْ رحمةِ اللّهِ، أو مِنْ طاعتِهِ، إذا كانَتْ ﴿مِّنَ﴾ للبدلِ، أو مِنْ بأسِ اللّهِ، أو مِنْ عذابِهِ، إذا كانَتْ ﴿مِّنَ﴾ للابتداءِ[3].

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

العظيمُ لا دافعَ لعقابِهِ

جيءَ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ؛

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 3/ 173.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 51، 3/ 172.

أي: مِنَ المَلِكِ الأعلى الَّذي لا كُفْءَ لهُ، ولا ندَّ لهُ[1]، وفي ذلكَ مزيدُ تقريرٍ لعدمِ الإغناءِ، ومزيدُ تهويلٍ وتهديدٍ.

غرضُ تقديمِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

عقابُ اللهِ نافذٌ

قُدِّمَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، ولأنَّهُ لو أُخِّرَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لربَّما تُوهِّمَ أنَّهُ صفةٌ لـ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

أمـوالُـهـم وأولادُهـم ليسَ لـهـا شيءٌ مِـنَ الإغناءِ

تنكيرُ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ للتَّقليلِ؛ أي: قليلًا مِنَ الإغناءِ[2]؛ فإنَّ أمرَ اللهِ تعالى ماضٍ ونافذٌ، لا يَدفَعُهُ شيءٌ[3]. أو للتَّحقيرِ؛ أي: إغناءً ضعيفًا، بَلْهَ الإغناءِ المُهِمِّ. وأيًّا ما كانَ فـ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ منصوبٌ على النّيابةِ عن المفعولِ المطلقِ[4].

علَّةُ فَصْلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

مَـنْ حَـقَّ عليهِ الـعـذابُ فلن يُغنيَ عنهُ شيءٌ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تعليليٌّ لجملةِ ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ أي: لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنَ اللّهِ شيئًا؛ لأنَّهم أصحابُ النّارِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

الحُكمُ بالنّارِ على المُنافقينَ أمرٌ ثابِتٌ

أوثِرَتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَ المُنافقينَ أصحابَ النّارِ حقيقةٌ ثابتةٌ، وفي ذلكَ تحريكٌ لِسِلْسلةِ الهَيْبةِ في نُفوسِهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 495، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 230.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 173.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 51.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ للمُنافقينَ الموصوفينَ بما سبَقَ مِنَ الصِّفاتِ القبيحةِ[1]. وأوثِرَ اسمُ الإشارةِ للبعيدِ تنبيهًا على أنَّهم بُعَداءُ مِنْ كلِّ خيرٍ[2]، وعلى أنَّهم صاروا جديرينَ بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِنْ أجلِ الأخبارِ الَّتي أُخبِرَ بها عنهم قبلَ اسمِ الإشارةِ[3].

المُنافقونَ جَديرونَ بكونِهم أصحابَ النّارِ

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

الإضافةُ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ لاميَّةٌ؛ أي: أصحابٌ للنّارِ، وفي هذهِ الإضافةِ تقبيحٌ لشأنِ المضافِ؛ إذ كانوا قُرَناءَ لدارِ الوَيْلِ والثُّبورِ.

قُبْحُ شأنِ مَنْ صَحِبَ دارَ الوَيْلِ والثُّبورِ

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِۖ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِۖ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارٌ مخصوصةٌ معهودةٌ، وهي نارُ الآخرةِ.

نارُ الآخرةِ مآلُ المُنافقين

علَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ، وذلكَ أنَّهُ لمّا فُهِمَ مِنْ ذكرِ الصُّحبةِ في الجملةِ السّابقةِ المُلازَمةُ أُكِّدَتْ بهذهِ الجملةِ المُصرِّحةِ بالخلودِ[4].

مُصاحَبةُ النّارِ تُفضي إلى الخُلودِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خلودَ المُنافقينَ في النّارِ أمرٌ ثابتٌ، لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ.

خُلودُ المُنافقينَ في النّارِ ثابتٌ يقينًا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 51 - 52.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.

دلالةُ (في) مِن القيدِ ﴿فِيهَا﴾:

النّارُ مُقامُ المُنافقين

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على أنَّ النّارَ هي موضعُ إقامةِ المُنافقينَ وخُلودِهم.

غرضُ تقديمِ القيدِ ﴿فِيهَا﴾:

المُنافقونَ في أسوأِ مقامٍ في النّار

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿خَٰلِدُونَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ؛ أي: هم فيها خاصَّةً دونَ شيءٍ يَقصُرُ عنها خالدونَ[1]، وفي ذلكَ مِنَ التَّهويلِ ما لا تحيطُ بِه العبارةُ؛ إذ لا مَطمَعَ لهم في الخروجِ أو الانتقالِ إلى ما هو أخفُّ، لا سيَّما وقد ثَبَتَ أنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النّارِ. يُزاد على ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ مِنْ رعايةِ تلاؤُمِ الفواصلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

رُسوخُ المُنافقينَ في مُلازَمةِ النّار

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّهم راسخونَ في الخلودِ، حتَّى كأنَّهُ صفةٌ مِنْ صفاتِهِمُ الجِبِلِّيَّةِ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصّاحبُ والصَّديق:

أهلُ النِّفاقِ مُلازِمون للنّار

الصّاحبُ أخصُّ مِنَ الصَّديقِ؛ لأنَّ الصّاحبَ يقالُ في العُرْفِ لِمَنْ كَثُرَتْ مُلازَمتُه ومُقارَنَتُهُ[2]. وقد عُبِّرَ بلفظِ الأصحابِ هنا للدَّلالةِ على مُلازَمةِ المُنافقينَ للنّارِ ومُقارنتِهم لها[3]، فيكونُ أنسبَ بذكرِ الخلودِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 651.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تصديقُ حَلِفِ المُنافقينَ في الدُّنيا فقط

لَمّا كانَ الأمرُ بقبولِ حَلِفِ المنافقينَ على نفيِ إفسادِهم غائظًا موجِعًا للمؤمنينَ، وكانَ ربَّما تَوَهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّهُ تعالى كما أمَرَنا بقبولِ ما ظَهَرَ منهم في الدُّنيا يأمُرُنا بقبولِ ذلكَ في الآخرةِ نفى سبحانَهُ ذلكَ في هذهِ الآيةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾: (حسب) أصلٌ يدلُّ على العَدِّ[2]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حسَبتُ الشَّيءَ أحسُبُهُ حِسابًا وحُسبانًا، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرَّحمن: 5][3]، والحِسابُ: استعمالُ العددِ، والحساب: الجزاء، قال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحاقة: 20]، والحسيبُ والمُحاسِبُ: مَنْ يُحاسِبُكَ، و(حَسِبَ) يُستعمَلُ في معنى الكفايةِ[4]، قال تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النَّبأ: 36]؛ أي: كثيرًا كافيًا[5]، ويُستعمَلُ في معنى الظَّنِّ[6]، وهو المرادُ هنا[7].

المَعنى الإجماليُّ:

لا يَنفَعُ عندَ اللهِ إلّا الإيمانُ الصّادق

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالٍ مِنْ أحوالِ المنافقينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: يومَ يَحشُرُهم اللّهُ يومَ القيامةِ عن آخِرِهم، فلا يُغادِرُ منهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 390 - 391.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسب).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسب).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حسب).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 52.

أحدًا، فيَحلِفونَ لهُ إنَّهم كانوا على الهدى والاستقامةِ، كما كانوا يَحلِفونَ للنّاسِ في الدُّنيا، ويظنّونَ أنَّ ذلكَ يَنفَعُهم عندَ اللّهِ كما كانَ يَنفَعُهم عندَ النّاسِ، فيُجْرونَ عليهم الأحكامَ الظّاهرةَ، والواقعُ أنَّهم كاذبونَ في هذا الحَلِفِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ مَوقِعِ ﴿يَوۡمَ﴾ مِنْ حيثُ الإعراب:

العـذابُ المُهينُ يـكـونُ يـومَ القيامة

يُحتمَلُ أنْ يكونَ ﴿يَوۡمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿مُّهِينٞ﴾ في قولِه: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ أي: فلهم عذابٌ مُهينٌ يومَ يبعثُهم[2]، وما بينَهما اعتراضٌ[3].

صُحبةُ النّارِ تـكـونُ يـومَ القيامة

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾[4]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ مُلازَمتَهم للنّارِ تَظهَرُ وتكونُ في يوم البعثِ.

يومُ البعثِ حَريٌّ بالتَّذكيرِ به

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (اذكُرْ)[5] على أنَّهُ مفعولٌ بهِ لا ظرفٌ لهُ؛ أي: اذكُرْ يومَ يَبعَثُهم اللّهُ جميعًا إلخ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لليومِ وتهويلٌ لهُ، لِما في تقديرِ (اذكُرْ) مِنْ تأكيدِ استقلالِ الجملة، والحثِّ على تذكُّرِ ما يَجري في هذا اليومِ الهائلِ العظيمِ؛ لأنَّ تَذكُّرَ اليومِ يَستَدعي تَذَكُّرَ ما فيهِ.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يَبۡعَثُهُمۡ﴾ و﴿فَيَحۡلِفُونَ﴾:

البَعْثُ والحَلِفُ مَـشـهَـدانِ عـظيـمانِ يـومَ القيامة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ بَعْثَهم وحَلِفَهم أمرانِ مُستقبَلانِ يكونانِ يومَ القيامةِ[6]، ولتصويرِ حَدَثَي البعثِ والحَلِفِ العظيمينِ الهائلينِ لتربيةِ المهابةِ في النُّفوسِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 305.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 516.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 381، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 391.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 516، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 230.
(6) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

يومُ القيامةِ يومُ تجلّي ذي العظمةِ والجَلال

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرِه مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها القدرةُ على إحيائِهم مِنَ الموتِ ورَدِّهم إلى ما كانوا قبلَهُ[1]، فيُناسِبُ مقامَ التَّهويلِ والتَّخويفِ وذكرِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿جَمِيعٗا﴾:

كلُّ الخلائقِ مَحشورونَ يومَ القيامة

عُبِّرَ بـ﴿جَمِيعٗا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ البعثَ شاملٌ لهم ولغيرِهم، وأنَّهُ تعالى يَحشُرُهم يومَ القيامةِ عن آخرِهم، فلا يُغادِرُ منهم أحدًا[2]، وفي ذلكَ إظهارٌ لاقتدارِهِ تعالى عليهم، وأنَّهم لا يُعجِزونَهُ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَيَحۡلِفُونَ﴾:

الحَلِفُ يكونُ بعدَ البَعْث

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ والسَّببيَّةِ، فتفيدُ تَسَبُّبَ الحَلِفِ عن ظهورِ القدرةِ التَّامَّةِ لهم، ومُعاينةِ ما كانوا يكفرونَ بِهِ مِنَ البعثِ والنَّارِ[3].

الحَلِفُ يكونُ بعدَ تَيَقُّنِ العذاب

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الفاءُ فصيحةً جوابًا لشرطٍ محذوفٍ؛ أي: فإذا تَيَقَّنوا العذابَ فإنَّهم يَحلِفونَ؛ زَعْمًا منهم أنَّهم يَدفَعونَ بذلكَ العذابَ عن أنفسِهم، أو لكمالِ دهشتِهم وفَرْطِ حَيْرتِهم يُقسِمونَ - مع علمِهم بأنَّ القَسَمَ لا ينفعُ - للّهِ، ويقولونَ: واللّهِ كنّا مسلمينَ مُخلِصينَ[4].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ و﴿لَكُمۡ﴾:

غايةُ الحالِفِ التَّلبيسُ على المحلوفِ له

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ للتَّعليلِ؛ إذ غايةُ الحالفِ خِداعُ المحلوفِ لهُ وجعلُهُ يُصدِّقُ الحَلِفَ، وهؤلاءِ المنافقونَ يَظُنّونَ أنَّهم قادرونَ على التَّلبيسِ على اللّهِ تعالى كما كانوا

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 391.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 391.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 391.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 516.

يَقدِرونَ على التَّلبيسِ على المؤمنينَ في الدُّنيا. ويجوزُ أنْ تكونَ في المَوضِعَينِ للاختصاصِ مُتعلِّقةً بـ(يحلفون)[1].

جَهْلُ مَنْ يَظُنُّ أنَّـهُ يَخدَعُ الخالقَ كما يَخدَعُ المخلوقَ

بلاغةُ التَّشبيهِ في ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ﴾:

الكافُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ للتَّشبيهِ؛ أي: فيَحلِفونَ لهُ حَلِفًا مِثلَ حَلِفِهم لكم، والتَّشبيهُ في صفةِ الحَلِفِ - وهي قولُهم: إنَّهم غيرُ مشركينَ - وفي كونِهِ حَلِفًا على الكذبِ[2]. ويدلُّ التَّشبيهُ أيضًا على أنَّهم لشدَّةِ تَوَغُّلِهم في النِّفاقِ ظنّوا أنَّهُ يُمكنُهم يومَ القيامةِ ترويجُ كذبِهم بالأيْمانِ الكاذبةِ على علّامِ الغيوبِ[3]، ويدلُّ التَّشبيهُ أيضًا على أنَّهم مقيمونَ على الكذبِ، قد تعوَّدوهُ، حتَّى كانَ على ألسنتِهم في الآخرةِ كما كانَ في الدُّنيا[4].

حَلِفُ المُنافقينَ للهِ مِثلُ حَلِفِهِم للمؤمنينَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ﴾:

(ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنى: فيحلفونَ لهُ حَلِفًا مِثلَ حَلِفِهم لكم. وعُدِلَ عن التَّعبيرِ بالمصدرِ المُجرَّدِ إلى التَّعبيرِ بالمصدرِ المُنسَبِكِ من (ما) المصدريَّةِ والمضارعِ بعدَها ليُفيدَ أنَّ حَلِفَهم مُستمِرٌّ ومُتجدِّدٌ ومُتكرِّرُ الحُدوثِ، فالحَلِفُ الكاذبُ دَيْدَنُ المنافقينَ؛ فقد كانوا يُكثِرونَ منهُ في الدُّنيا، ويقولونَ للمؤمنينَ: إنَّهم مِنهم، وإنَّهم غيرُ مشركينَ[5].

المُنافِقونَ جامِعونَ بينَ الحَلِفِ الكاذِبِ وبينَ الظَّنِّ الفاسِدِ

دلالةُ الواوِ في ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾، والمعنى: ويَحسَبونَ بأيمانِهم الكاذبةِ يومَ القيامةِ أنَّهم على شيءٍ[6]. وفي ذلكَ

(1) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 1927.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 52.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 498.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 130.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.

تنبيهٌ على جَمْعِهم بينَ الحَلِفِ الكاذبِ وبينَ الظَّنِّ الفاسدِ. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾؛ أي: والحالُ أنَّهم يَحسَبونَ في الآخرةِ أنَّ حَلِفَهم فيها يُجديهم مِنْ عذابِها[1].

بلاغةُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾:

قُبْحُ ظَنِّ الكافرينَ أنَّ حَلِفَهم الكاذبَ يَنفَعُهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ لتصويرِ هذا الظَّنِّ الفاسدِ الَّذي داوَمَ عليه المنافقونَ؛ لِما لهُ مِنَ الصّورةِ القبيحةِ العجيبةِ الَّتي تَستَدعي الإنكارَ عليهم.

غرضُ التَّوكيدِ في قولِهِ: ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾:

المُنافقونَ مُنْغَمِسونَ في الجَهْلِ وقلَّةِ العَقْلِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بـ(أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المنافقينَ في غايةِ الجهلِ وقلَّةِ العقلِ؛ إذ يَظُنّون أنَّ ما يَتوهَّمونَه حقيقةٌ ثابتةٌ.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾:

شِدَّةُ تَلَبُّسِ المُنافقينَ بكونِهم على شيءٍ

﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وهو شِدَّةُ التَّلبُّسِ بالوصفِ[2]، فيُفيدُ شدَّةَ تَلَبُّسِهم بكونِهم على شيءٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيْءٍ﴾:

اغترارُ المُنافقينَ بأيْمانِهِمُ الكاذبةِ في الآخرة

تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ أي: على شيءٍ عظيمٍ[3] مِنْ جَلْبِ منفعةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، كما كانوا عليهِ في الدُّنيا، حيثُ كانوا يَدفَعونَ بها عن أرواحِهم وأموالِهم، ويَستَجِرّونَ بها فوائدَ دنيويَّةً[4].

نكتةُ الإيجازِ في ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾:

ظَنُّ المُنافقينَ بأيْمانِهم الكاذبةِ أنَّهم على شيءٍ نافعٍ لهم

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، حيثُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 52.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 52.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.

حُذِفَتْ صفةُ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ لظُهورِ معناها مِنَ المَقامِ؛ أي: على شيءٍ نافعٍ لهم[1].

علّةُ فَصْلِ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

خَيبةُ ظَنِّ المُنافقينَ مُتيقَّنةٌ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ لتقريرِ ما أفهَمَهُ الكلامُ السّابقُ مِنْ أنَّ ظَنَّهم لا حقيقةَ لهُ[2]، وفيهِ أيضًا رَدٌّ عليهم وتوبيخٌ لهم[3]، وهو تذييلٌ جامعٌ لحالِ كَذِبِهم الَّذي ذكرَهُ اللهُ بقولِه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾[4].

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

تَمَكُّنُ صفةِ الكَذِبِ مِنَ المُنافقين

أُكِّدَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ بجملةٍ مِنَ المُؤكِّداتِ، منها أداةُ الاستفتاحِ ﴿أَلَآ﴾ المُقتضيةُ استِمالةَ السَّمعِ لخَبَرِهم؛ لتحقيقِ تَمَكُّنِ صفةِ الكذبِ منهم، حتَّى إنَّها تُلازِمُهم يومَ البعثِ، ومنها (إنَّ) الدّالَّةُ على توكيدِ نسبةِ الكذبِ إليهم[5]، ومنها اسميَّةُ الجملةِ. وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّسجيلِ عليهم والتَّشهيرِ بهم.

بلاغةُ الحَصْرِ في ﴿إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

إفراطُ المُنافقينَ في الكَذِبِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ قصرٌ لصفةِ الكذبِ على المُنافقينَ، مستفادٌ مِنْ تعريفِ الطَّرفينِ وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالغةِ؛ لعدمِ الاعتِدادِ بكذبِ غيرِهم، والمرادُ التَّنبيهُ على أنَّ كَذِبَهم لا يُماثِلُه كَذِبٌ[6]، وأنَّهم المُبالِغونَ في الكذبِ إلى غايةٍ لا مَطمَحَ وراءَها، حيثُ تجاسروا على الكذبِ بينَ يدَيْ علّامِ الغيوبِ، وزعموا أنَّ أيمانَهم الفاجرةَ تُروِّجُ الكذبَ لديهِ كما تُروِّجُهُ عندَ النّاسِ[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 52.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 52، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 24.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 53.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 53.
(6) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 516، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 53.
(7) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 222.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

المُنافقون كامِلونَ في الكَذِب

تعريفُ ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ للجنسِ المحمولِ على الفردِ الكاملِ[1] مبالغةً، كما يَقتَضيهِ مَقامُ قَصرِ الكذبِ عليهِمُ ادِّعاءً.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

عَراقةُ المُنافقينَ في الكَذِب

جيءَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على عَراقتِهم في وصفِ الكذبِ، حيثُ لا يَستَحيونَ مِنَ الكذبِ عندَ اللّهِ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البَعْثُ والإحياءُ والنُّشور:

البَـعْـثُ مِـنْ أهـوالِ يـومِ القيامة

البَعْثُ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُهُ، ويَختلفُ بحسبِ اختلافِ ما عُلِّقَ بهِ؛ فبعثُ البعيرِ: إثارتُهُ وتسييرُهُ، وبعثُ الموتى: إخراجُهم مِنْ قبورِهم وتسييرُهم إلى القيامةِ، أمّا الإحياءُ فهو جَعْلُ الحياةِ تَدِبُّ في الشَّيءِ[3]. وبناءً على ذلكَ يكونُ البَعْثُ أعمَّ مِنَ الإحياءِ؛ لأنَّهُ يُستعمَلُ في إحياءِ الموتى وإخراجِهم للقيامةِ، ويُستعمَلُ في غيرِه، كإثارةِ البعيرِ وتسييرِه. وأمّا النُّشورُ فيكونُ بعدَ البعثِ؛ لأنَّهُ جَعْلُ الموتى يَنتَشِرونَ في الأرضِ بعدَ بَعْثِهم، ويَتَفرَّقونَ فيها حتَّى يَجمَعَهم موقفُ الحشرِ[4].

وقد عُبِّرَ بالبعثِ هنا؛ لأنَّهُ أنسبُ بمَقامِ تهويلِ يومِ القيامةِ، فهو يشيرُ إلى الإحياءِ والإخراجِ مِنَ القبورِ، والتَّسييرِ إلى القيامةِ.

الحُسْبانُ والظَّنُّ:

شِـدَّةُ اغـتِرارِ المُـنـافـقـينَ بـأيـمـانِـهـمُ الكاذِبة

الحُسْبانُ: أنْ يَحكُمَ الإنسانُ لأحدِ النَّقيضينِ مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 516.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 286.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 288.

الآخَرَ ببالِهِ، والظَّنُّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضينِ ببالِهِ، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[1]. وقد اختيرَ الحُسْبانُ هنا؛ للدَّلالةِ على فَرْطِ وُثوقِ المنافقينَ بأيْمانِهمُ الكاذبةِ؛ لأنَّ تمكُّنَ النِّفاقِ في نُفوسِهم جَعَلَهم بحيثُ يُخيَّلُ إليهم في الآخرةِ أنَّ الأيْمانَ الكاذبةَ تُرَوِّجُ الكذبَ على اللّٰهِ كما تُروِّجُهُ على المؤمنينَ في الدُّنيا[2]، ولم يُخطِروا في بالِهم عدمَ ترويجِها.

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استِحواذُ الشَّيطانِ على المُنافقينَ يَحمِلُهم على المواظَبةِ على الحَلِفِ الكاذِبِ

لمّا أخبرَ تعالى شأنُهُ عن انهماكِ المُنافقينَ في الحَلِفِ الكاذبِ الَّذي لا يُغني عنهم شيئًا، وكانَ ذلكَ في غايةِ العَجَبِ أخبرَ عن الحاملِ لهم على ذلكَ، وهو استِحواذُ الشَّيطانِ عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾: (حوذ) أصلٌ يدلُّ على الخِفَّةِ والسُّرعةِ وانكماشٍ في الأمرِ، ومِنْ ذلكَ: الإحواذُ، وهو السَّيرُ السَّريعُ، والأَحْوذيُّ: الخفيفُ في الأمورِ، الَّذي أتقنَ الأشياءَ[2]. واستحوَذَ عليهم الشَّيطانُ معناهُ: غَلَبَهم واستَعلى بوَسْوَسَتِهِ، أو أحاطَ بهم[3]، أو ساقَهم مُستوليًا عليهم[4].

2) ﴿حِزۡبُ﴾: (حزب) أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: تَحَزَّبوا؛ أي: تَجَمَّعوا[6]، والحزبُ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ[7]، والطّائفةُ مِنْ كلِّ شيءٍ حزبٌ، يقالُ مثلًا: قرأ حِزْبَهُ مِنَ القرآنِ[8]. والمرادُ بحزبِ الشَّيطانِ: جُنْدُهُ وأتباعُهُ وجماعتُهُ[9].

3) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلُّ على نَقْصِ الشَّيءِ بذهابِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حوذ).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 255، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 498، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 305.
(4) الرّاغب، المفردات: (حوذ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(6) الجوهري، الصّحاح: (حزب).
(7) الرّاغب، المفردات: (حزب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 255، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 452.

أجزاءٍ منهُ[1]، ومِنْ ذلك يقالُ: خَسَرْتُه وأخسَرْتُه، إذا نقصتَهُ[2]، والخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاصُ رأسِ المالِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في المُقْتَنَياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاهِ، وفي المُقْتَنَياتِ النَّفسيَّةِ، كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثَّوابِ، وهو الَّذي جعلَهُ اللّٰهُ تعالى الخُسْرانَ المُبينَ[3]. والمرادُ بالخاسرينَ هنا: الهالِكونَ المَغبونونَ في صفقتِهم[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَــنْ والَــى الشَّيطانَ فهو مِنَ الهالكينَ

يُخبِرُ تعالى عن علَّةِ حَلِفِ المنافقينَ كذبًا، فيقولُ: غَلَبَ عليهم الشَّيطانُ، فجَعَلَهم يتركونَ الإيمانَ والطّاعةَ، أولئكَ جندُ الشَّيطانِ وأتباعُهُ وجماعتُهُ، ومَنْ كانَ مِنْ جماعةِ الشَّيطانِ فهو مِنَ الهالكينَ المَغبونينَ في صفقتِهم؛ لأنَّهم فوَّتوا على أنفُسِهم النَّعيمَ المُقيمَ، وأخذوا بدلَهُ العذابَ الأليمَ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

قيادُ المُنافقينَ بيدِ الشَّيطانِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ لعلَّةِ انهماكِ المُنافقينَ في الحَلِفِ الكاذبِ الَّذي لا يَنفعُهم[6]، أو لأنَّ ما سبَقَ مِنْ وصفِهم بانحصارِ صفةِ الكذبِ فيهم يُثيرُ سؤالَ السّامعِ أنْ يَطلُبَ السَّببَ الَّذي بلغَ بهم إلى هذا الحالِ الفظيعِ، فيجابُ بأنَّهُ استحواذُ الشَّيطانِ عليهم، وامتِلاكُهُ زِمامَ أنفُسِهم، يُصَرِّفُها كيفَ يريدُ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خسر).
(2) الجوهري، الصّحاح، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 256.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 255 - 256.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 54.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾:

استيلاءُ الشَّيطانِ على المُنافقينَ استيلاءً مُحقَّقًا

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ استحواذَ الشَّيطانِ عليهم قد تَحقَّقَ ووقَعَ، وفي ذلك مزيدُ ذمٍّ لهم بأنَّ الشَّيطانَ قد ضرَبَ بجِرانِهِ في قلوبِهم وعقولِهم، واستولَى عليها استيلاءً تامًّا.

بلاغةُ صيغةِ (استفعَلَ) في ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾:

قوَّةُ غلَبةِ الشَّيطانِ للمُنافقين

جيءَ بصيغةِ (استفعَلَ) في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ للدَّلالةِ على مُبالغةِ الشَّيطانِ في غَلَبِهم، وأنَّهُ يَطلُبُ ذلك طلبًا حثيثًا[1].

معنى (على) في القَيْدِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

إحاطةُ الشَّيطانِ بالمُنافقين

(على) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للتَّعديةِ، وما فيها مِنْ معنى الاستعلاءِ المجازيِّ يُشيرُ إلى أنَّ غلبةَ الشَّيطانِ قد أحاطَتْ بالمنافقينَ مِنْ كلِّ جانبٍ.

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

كَوْنُ الاستِحواذِ مُتعلِّقًا بالمُنافقينَ هو مَحطُّ الاهتِمام

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وتعجيلِ مَساءَةِ المنافقينَ حينَ يسمعونَ هذا الكلامَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالشَّيطانِ:

اتِّباعُ المُنافقينَ المُحترِقَ المَطرودَ عن رحمةِ الله

عُبِّرَ بالشَّيطانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ للتَّنبيهِ على احتراقِهِ إنْ كانَ مُشتقًّا مِنْ (شاطَ) بمعنى (احترقَ)، وعلى طردِهِ من رحمةِ اللّهِ تعالى إنْ كانَ مُشتقًّا مِنْ (شَطَنَ) بمعنى (بَعُدَ)[2]. وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِ المنافقينَ باتِّباعهم مَنْ هو في غايةِ البُعدِ عن رحمةِ اللّهِ، وفي نهايةِ الهَلاكِ والثُّبورِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 228، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 54.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 392.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للجنسِ، فالاستحواذُ على المنافقينَ غايتُهم جميعًا، ولكلِّ منافقٍ شياطينُ يوَسوِسونَ لهُ.

الوسوسةُ وحُبُّ الاستِحواذِ شأنُ جميعِ الشَّياطين

أو هي للعهدِ الذِّهنيِّ، والمرادُ بهِ إبليسُ، فهو أصلُ الشَّياطينِ وآمِرُهم، فكلُّ ما ينشأُ مِنْ وسوسةِ الشَّياطينِ واستحواذِهم راجعٌ إليه.

إبليسُ آمِرُ الشَّياطينِ وقائدُهم

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾:

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيبِ والسَّببيَّةِ، فتفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن استحواذِهِ عليهم أنَّه أنساهم[1].

استِحواذُ الشَّيطانِ سببُ نِسيانِ المُنافقينَ ذكرَ الله

نُكتةُ المجازِ في ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾:

إسنادُ الإنساءِ إلى الشَّيطانِ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ للسَّببيَّةِ[2]؛ فالمُنْسي حقيقةً هو اللّهُ تعالى.

المُنْسي حقيقةً هو الله

نُكتةُ التَّعبيرِ بفِعْلِ النِّسيانِ ماضيًا:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إنساءَ الشَّيطانِ لهم ذكرَ اللّهِ قد تحقَّقَ ومضَى، وأنَّهم تاهوا في أوديةِ الضَّلالِ منذُ زمنٍ.

المُنافقونَ يَتيهونَ في أوْدِيةِ الضَّلالِ منذُ زَمَنٍ

والمرادُ بالنِّسيانِ في الجُملةِ لازِمُهُ، وهو الإضاعةُ وتركُ المَنْسيِّ[3]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ المنافقينَ الَّذينَ أضاعوا الدّينَ والإيمانَ، وفرَّطوا فيهما، واتَّبَعوا خُطواتِ الشَّيطانِ.

تَفْريطُ المُنافقينَ بالدّينِ والإيمانِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالذِّكرِ:

يُطلَقُ الذِّكرُ على نُطقِ اللِّسانِ باسمٍ أو كلامٍ، ويُطلَقُ على التَّذكُّرِ بالعقلِ، وهو في قولِه تعالى هنا ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ مُستعمَلٌ في

المُنافقونَ لم يَتوجَّهوا إلى اللهِ بالتَّوحيدِ والعبادة

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 393.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 517.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

صريحِهِ وكنايتِهِ؛ أي: لازمِهِ، وهو العبادةُ والطّاعةُ؛ لأنَّ المعنى: أنَّهُ أنساهم توحيدَ اللّهِ بكلمةِ الشَّهادةِ والتَّوجُّهِ إليهِ بالعبادةِ[1].

غرضُ الإضافةِ في ﴿ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾:

تَـرْكُ المُنافقينَ التَّشرُّفَ بذِكْرِ الحقِّ سبحانه

إضافةُ الذِّكرِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتشريفِ الذِّكرِ وتعظيمِهِ؛ لأنَّهُ ذكرُ أجَلِّ مذكورٍ، وفي ذلكَ زيادةُ تنفيرٍ مِنَ المنافقينَ الَّذينَ تركوا هذا الذِّكرَ على عِظَمِ منزلتِهِ، وأبَوا أنْ يَتَشرَّفوا بأنْ يكونوا مِنْ أهلِهِ، ومَنْ يُعرِضْ عن ذكرِ اللّهِ فإنَّ لهُ معيشةً ضَنْكًا وعذابًا أليمًا.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾:

سَفَهُ رأيِ مَنْ تَرَكَ ذكرَ العظيمِ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِهِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالتِهِ على الَّذي لهُ الأسماءُ الحُسنى والصِّفاتُ العُلا، فيكونُ أنسبَ بذمِّهم على تركِ ذكرِهِ بعدَ أنْ كانَ ذكرُهُ مركوزًا في فِطَرِهم الأولى، فصاروا لا يَذكُرونَهُ أصلًا بقلبٍ ولا لسانٍ[2].

علَّةُ فَصْلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

مَن تَرَكَ ذِكْرَ اللهِ صارَ مِن أتْباعِ الشَّيطان

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ بمنزلةِ النَّتيجةِ عن نسيانِ المُنافقينَ ذكرَ اللّهِ[3].

مَنِ استَحوَذَ عليهِ الشَّيطانُ صيَّرَهُ مِن جَماعتِهِ

أو هو بمنزلةِ النَّتيجةِ لقولِهِ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ فإنَّ الاستحواذَ يَقتَضي أنَّ الشَّيطانَ صيَّرَهم مِنْ أتباعِهِ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة:

مَنْ أصَرَّ على تَرْكِ الإيمانِ بَقِيَ تابعًا للشَّيطان

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَهم حزبَ الشَّيطانِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، حتَّى يُؤمِنوا ويُذعِنوا لطاعةِ اللّهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 393.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 393.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

المُنافقون حِزْبُ الشَّيطانِ بلا شكٍّ

الإشارةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ للَّذينَ استحوَذَ عليهم الشَّيطانُ فأنساهم ذكرَ اللّهِ[1]. والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ للتَّنبيهِ على أنَّهم قد أحَلّوا أنفُسَهم أبعدَ منزلٍ[2]، ولزيادةِ تمييزِهم؛ لئلّا يُتردَّدَ في أنَّهم حزبُ الشَّيطانِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحِزْب:

أهلُ النِّفاقِ أعوانٌ للشَّيطان

عُبِّرَ بلفظِ الحزبِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الكلمةِ على الجماعةِ الَّذينَ يَجمَعُهم رأيٌ واحدٌ أو نحوُ ذلكَ، فتفيدُ في هذا السّياقِ أنَّ المنافقينَ جندٌ للشَّيطانِ وأنصارٌ وأعوانٌ له، يَتَّبِعونَهُ ويأْتَمِرونَ بأمرِهِ.

علَّةُ الإضافةِ في ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

خِسَّةُ شأنِ مَنْ يَقِفُ في صَفِّ الشَّيطان

إضافةُ الحزبِ إلى الشَّيطانِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ للإشعارِ بقُربِهم منهُ، وأنَّهم جماعتُهُ المُخْتَصّونَ بهِ، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تحقيرٌ لهم؛ إذ لا أخسَّ مِنْ كونِ الإنسانِ في صفِّ الشَّيطانِ، ومَنْ صَحِبَ الملعونَ المطرودَ عن رحمةِ اللّهِ كانَ على شاكِلَتِهِ.

وَجهُ إظهارِ الشَّيطانِ في ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

تبعيَّةُ المُنافقينَ للشَّيطانِ مُنَفِّرة

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (أولئكَ حزبُهُ)، ولكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ لِما في التَّصريحِ بلفظِ الشَّيطانِ مِنْ زيادةِ التَّنفيرِ مِنْ تبعيَّةِ المنافقينَ لهُ.

علَّةُ فَصْلِ جُملةِ الفاصِلة:

صُحبةُ الشَّيطانِ تُفضي إلى الهلاكِ والخُسران

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ بمنزلةِ النَّتيجةِ لِما سبقَ مِنْ قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 230.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 393.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[1]؛ فإنَّ صحبةَ الشَّيطانِ تُفضي إلى الهلاكِ والخُسرانِ دونَ ريبٍ.

سِرُّ تَوالي المُؤَكِّداتِ في جُملةِ الفاصِلة:

لا يَشُكُّ عاقلٌ في خَسارةِ الشَّيطانِ وحِزْبِه

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بأداةِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أهمِّيَّةِ مضمونِه، وأنَّهُ مِمّا يَجِبُ العنايةُ باستحضارِهِ في الأذهانِ؛ مبالغةً في التَّحذيرِ مِنَ الاندماجِ فيهم، والتَّلبُّسِ بمِثلِ أحوالِهم المذكورةِ آنفًا[2]، وللإشارةِ إلى أنَّ مضمونَ الجملةِ مُحقَّقٌ لا محالةَ[3]؛ إذ لا يَشُكُّ عاقلٌ في خسارةِ الشَّيطانِ وحزبِه. وفي التَّأكيدِ أيضًا دفعٌ لظنِّ المنافقينَ الرِّبحَ بما لهم في الدُّنيا مِنَ الكثرةِ والبَسْطِ والسَّعةِ[4].

سِرُّ إظهارِ ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ وتكرارِه:

خَسارةُ حِزْبِ الشَّيطانِ مشهورةٌ سائرةٌ كالأمثالِ

إظهارُ ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ وتكرارُهُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (ألا إنَّهم هم الخاسرونَ) للتَّسجيلِ على قُبْحِه، وللإشارةِ إلى علَّةِ الحُكمِ، وهو الخُسرانُ[5]، ولزيادةِ التَّصريحِ، ولتكونَ الجملةُ صالحةً للتَّمثُّلِ بها مُستقلَّةً بدلالتِها[6].

بلاغةُ القَصْرِ في جُملةِ الفاصِلة:

خُسرانُ حِزْبِ الشَّيطانِ فوقَ كلِّ خُسرانٍ

في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قصرُ صفةِ الخُسرانِ على حزبِ الشَّيطانِ، وهو مُستفادٌ مِنْ تعريفِ الطَّرفينِ وضميرِ الفصلِ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغةِ في مقدارِ خُسرانِهم، وأنَّهُ لا خُسرانَ أشدُّ منهُ، فكأنَّ كلَّ خُسْرانٍ غيرَهُ عدمٌ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 393، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

فيُدَّعى أنَّ وصفَ الخاسرِ مقصورٌ عليهم[1]؛ لأنَّهم باعوا الجنَّةَ والهدى بالضَّلالةِ، وكذبوا على اللّهِ وعلى نبيِّهِ، وحلفوا الأيمانَ الفاجرةَ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

بلاغةُ الاستِعارةِ في لفظِ الخُسْرانِ:

المُنافِقونَ فاقِدونَ للرِّبحِ ومُهدِرونَ لرأسِ المالِ

في التَّعبيرِ بالخُسرانِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ استعارةٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم فاقِدو الأصلِ الَّذي هو رأسُ المالِ، وهو العقلُ الكاملُ، وذلكَ أنَّهم لمّا أصَرّوا على النِّفاقِ بَطَلَ استعدادُهم، واختلَّتْ عقولُهم، ولم يبقَ لهم رأسُ مالٍ، فبَقوا آيسينَ مِن الرِّبحِ، فاقدينَ للأصلِ، وهذا خُسْرانٌ ليسَ فوقَهُ خُسْرانٌ[3].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

المُنافقونَ كامِلونَ في الخُسْرانِ

تعريفُ الخاسرينَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للجنسِ المُنصرفِ إلى الفردِ الكاملِ، كما يَقتَضيهِ مَقامُ القصرِ المذكورِ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

لا يَظفَرُ المُنافقونَ بغيرِ الطَّرْدِ والهَلاكِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على عَراقةِ المُنافقينَ في هذا الوصفِ؛ لأنَّهم لم يَظفَروا بغيرِ الطَّردِ والاحتراقِ والهلاكِ.

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الاستِحواذُ والغَلَبة:

اصطِيادُ الشَّيطانِ للمُنافقينَ بحَبائِلِهِ ووَسائِلِه

الاستِحواذُ: الاستيلاءُ والغَلَبةُ بتدبيرٍ ومُعالَجةٍ، ولذلكَ لا يقالُ إلّا في استيلاءِ العاقلِ؛ لأنَّهُ يَتطلَّبُ وسائلَ استيلاءٍ[4]. ففي التَّعبيرِ به هنا إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ قد اصطادَ المنافقينَ بحبائلِهِ ووسائلِهِ، واستولَى عليهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 55.

(2) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 230.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 54.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠﴾ [المجادلة: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَنْ عـادَى اللهَ ورسولَهُ فهو مِنَ الخاسِرين

لمّا بيَّنَ تعالى ما أوصَلَهم إليهِ نسيانُ الذِّكرِ مِنَ الخُسرانِ بيَّنَ أنَّهُ أوقَعَهم في العداوةِ[1]، فالآيةُ تعليلٌ لِما قبلَها مِنْ خُسرانِ حزبِ الشَّيطانِ[2].

والآيةُ لبيانِ شيءٍ مِنْ خُسران المنافقينَ الَّذينَ هم في مقدِّمةِ حزبِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الخُسرانَ يكونُ في الدُّنيا والآخرةِ، وخُسرانُ الدُّنيا أنواعٌ، أشدُّها على النّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَآدُّونَ﴾: (حدد) أصلٌ يدلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ[4]، ومن ذلك: الحدُّ، وهو الحاجزُ بينَ الشَّيئينِ؛ لئلّا يَختلِط أحدُهما بالآخرِ، أو لئلّا يتعدَّى أحدُهما على الآخرِ، ويقالُ: حَدَّ الشّيءَ مِنْ غيرِهِ يحُدُّهُ حدًّا وحدَّدَهُ: ميَّزَهُ، وحدُّ كلِّ شيءٍ: مُنتهاهُ؛ لأنَّهُ يردُّهُ عن التَّمادي[5]، وحدودُ اللّهِ: الأشياءُ الَّتي بيَّنَها، وأمرَ ألّا يُتعدَّى فيها[6]، وحادَّهُ: غاضبَهُ، وكأنَّ اشتقاقَهُ من الحدِّ الَّذي هو الحيِّزُ والنّاحية، كأنَّهُ صار في الشِّقِّ الَّذي فيه عدوُّهُ[7]. والمرادُ بمُحادَّةِ اللّهِ ورسولِهِ: مُخالَفَتُهما ومُعاداتُهما[8].

2) ﴿ٱلْأَذَلِّينَ﴾: (ذلل) أصلٌ يدلُّ على الخضوعِ والاستكانةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (حدد).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حدد).
(6) الخليل، العين: (حدد).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حدد).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 256.

واللّين[1]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: ذَلَّتِ الدّابَّةُ تَذِلُّ ذِلًّا فهي ذَلولٌ[2]، و الذُّلُّ: ضدُّ العِزِّ[3]. والمرادُ بكونِهم في الأذَلّينَ: أنَّهم مِنْ جُملتِهم[4] صَغارًا، وضَعَةً، وهَوانًا، وقَهْرًا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالٍ مِنْ أحوالِ المنافقينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذينَ يخالفونَ اللّهَ ورسولَهُ ويعادونَهما مِنْ أهلِ الذِّلَّةِ؛ لأنَّ الغلبةَ للّهِ ورسولِهِ[5].

عَدوُّ اللهِ ورسولِهِ مُهانٌ مَغلوبٌ ذَليل

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتعليلِ ما قبلَهُ مِنْ خُسْرانِ حزبِ الشَّيطانِ[6]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ، وبينَ الجُملتينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ. ويُحتمَلُ أنْ يكونَ مُتَّصِلًا بما قبلَهُ اتِّصالًا تامًّا مُتَّحِدًا معه من حيث المعنى، فيه بيانٌ لشيءٍ مِنَ الخُسرانِ الَّذي حُكِمَ به على حزبِ الشَّيطانِ، وبهذا تكتسبُ هذهِ الجملةُ معنى بدلِ البعضِ مِنْ مضمونِ جملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فيكونُ بينَ الجملتينِ كمالُ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الخُسرانَ يكونُ في الدُّنيا والآخرةِ، وخُسرانُ الدُّنيا أنواعٌ، أشدُّها على النّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ، والمعنى: أنَّ حزبَ الشَّيطانِ في الأذَلّينَ والمغلوبينَ[7].

عَداوةُ الحَقِّ مَجْلَبَةٌ للخُسرانِ والذُّلّ

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ

إذلالُ المُنافقينَ واقعٌ لا مَحالَة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).
(2) الخليل، العين: (ذلل).
(3) الجوهري، الصّحاح: (ذلل).
(4) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 178.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 256.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.

الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِه، وتكذيبًا لنافيه[1]، وللتَّنبيهِ على أنَّ إذلالَهم واقعٌ لا محالةَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَقامِ الإضمارِ:

مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ذَلّ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ - مع أنَّ مُقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّهم في الأذَلّين) - للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّهم أعداءٌ للهِ تعالى ورسولِه ﷺ، وللإشعارِ بعلَّةِ الحكم[2]، وهو كونُهم في الأذَلّينَ، كأنَّهُ قيلَ: أولئكَ في الأذَلّينَ؛ لأنَّهم يُحادّونَ اللهَ ورسولَهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُحَآدُّونَ﴾ دَلالةً وصيغةً:

شِدَّةُ عَداوةِ المُنافقينَ للهِ ورسولِه

المُحادَّةُ: المُشاقَّةُ والمُعاداةُ، وقد أوثِرَ هذا الفعلُ في قولِه ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ لوقوعِ الكلامِ عقبَ بيانِ مُخالفتِهم للهِ والرَّسولِ، فإنَّ المُحادَّةَ مُشتقَّةٌ من الحدِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المُتعاديَينِ كأنَّه في حَدٍّ مُخالفٍ لحدِّ الآخرِ[3]. ففي الفعلِ دلالةٌ على مُعاداتِهم للهِ ورسولِه بحيثُ يكونونَ في حدٍّ غيرِ حدِّهما، وطَرَفٍ غيرِ طَرَفِهما، وفي ذلكَ تنبيهٌ على فَرْطِ العَداوةِ والمُخالفةِ.

استمرارُ المُنافقينَ على مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه

وعُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ؛ أي: مُجدِّدينَ ذلك مُستمرّينَ عليه بأيِّ مُحادَّةٍ كانت - ولو خفيَّةً - بما أشارَ إليه الإدغامُ[4]، وفي ذلكَ مِنْ تقبيحِ حالِهم ما لا يخفَى.

وجهُ إيقاعِ المُحادَّةِ على اللهِ:

مَنزلةُ الرَّسولِ مِنَ اللهِ ﷻ

المرادُ بالمُحادَّةِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ مُحادَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ المُرسَلِ بدينِ اللهِ، فمُحادَّتُه مُحادَّةٌ للهِ، وذكرُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 23.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 355، و394.

لفظِ الجلالةِ تمهيدٌ لذكرِ الرَّسولِ ﷺ، والمقصودُ التَّنبيهُ على منزلةِ الرَّسولِ مِنَ اللّهِ ﷻ.

نكتةُ إيثارِ اسمِ الجلالةِ دونَ غيرِه:

عَدوُّ القادرِ العظيمِ لا يكونُ عزيزًا

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِه مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِه ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ لدلالتِه على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي توجِبُ عدمَ مُعاداتِه ومُخالفتِه[1]، فإقدامُ المنافقينَ على مُعاداتِه سَفَهٌ؛ لأنَّهم أعداءُ اللّهِ القادرِ على كلِّ شيءٍ، وعدوُّه لا يكونُ عزيزًا[2].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

عَظَمةُ الرَّسولِ مِن عَظَمةِ المُرسِل

إضافةُ الرَّسولِ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لتشريفِ الرَّسولِ وتعظيمِه[3]، وزيادةِ التَّشنيعِ على مَنْ يُخالِفُه ويُعاديه.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

عَدوُّ اللهِ ورسولِه مُستحِقٌّ للإذلال

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ للَّذين يحادّونَ اللّهَ ورسولَه لاستحضارِهم بهذا الوصفِ القبيحِ[4]. والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ؛ للإشارةِ إلى بُعدِهم في الشَّرِّ والفسادِ[5]، وللإيماءِ إلى أنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بما بعدَ اسمِ الإشارةِ مِنَ الحُكمِ بسببِ الوصفِ الَّذي قبلَ اسمِ الإشارةِ[6]، وهو المُحادَّةُ.

دلالةُ ﴿فِى﴾ من قولِه: ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾:

المُنافقونَ مُنخرِطونَ في كلِّ جماعةٍ مِنَ الأذلّين

يفيدُ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أنَّهم في زُمرةِ القومِ الموصوفينَ بأنَّهم أذلّونَ، ليَتَصوَّرَهم السّامعُ في كلِّ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 230.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.

جماعةٍ شديدةِ الذُّلِّ، فيكونُ هذا النَّظمُ أبلغَ مِنْ أنْ يُقالَ: أولئكَ هم الأذَلّونَ[1].

سوءُ حالِ مَن أُذِلَّ بمُعاداةِ الحقّ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾:

تعريفُ الأذَلّينَ في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لجميعِ أفرادِهِ، فيَشمَلُ كلَّ مَنْ عُرِفَ بأنَّهُ مِنْ أذَلِّ الخلقِ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على سوءِ حالِهم وتحقيرٌ لشأنِهم جميعًا.

لا أحدَ أذلُّ مِمَّن أعلَنَ المُحادَّةَ للهِ ورسولِه

نكتةُ صيغةِ التَّفضيلِ في ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾:

عُبِّرَ بـ(أفعل) التَّفضيلِ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مِنْ جملةِ مَنْ هو أذَلُّ خَلْقِ اللّهِ تعالى، لا ترى أحدًا أذلَّ منهم[3]؛ لأنَّهم أُخِذوا وأُهلِكوا[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذُّلُّ والصَّغارُ والدُّخور:

المُنافقونَ في خُضوعٍ واستِكانةٍ ولِينٍ يومَ القيامة

الذُّلُّ: الخُضوعُ والاستِكانةُ واللّينُ. والصَّغارُ: القلَّةُ والحَقارةُ، والرِّضا بالذُّلِّ. والدُّخورُ: أنْ يفعلَ الإنسانُ ما يُؤمَرُ بِهِ شاءَ أم أبَى. وقد اختيرَ الذُّلُّ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُنافقينَ في حالٍ مِنَ الخضوعِ والاستِكانةِ واللّينِ؛ لأنَّهم يَخافونَ بإظهارِ كُفرِهم أنْ تُقطَعَ رِقابُهم.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 173، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394 - 395.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 130.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

سُنَّةُ اللهِ نصرُ المؤمنينَ وإذلالُ أعدائِهم

لمّا شرَحَ ﷻ ذُلَّ الَّذينَ يُحادّونَه ورسولَهُ بيَّنَ عِزَّ المؤمنينَ[1]. ولمّا أنزلَ ﷻ المُحادّينَ بالحَضيضِ الأسفلِ مِنَ الذُّلِّ ذكَرَ عِلَّة ذلكَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وقهْرٍ وشدَّةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الغلَبَةُ؛ أي: القَهْرُ، ويقالُ: غلبَ عليهِ كذا؛ أي: استولَى[4]، واستغلَبَ عليهِ الضَّحِكُ: اشتَدَّ، وغلَبَهُ على نفسِهِ، إذا أكرَهَهُ[5]. والمرادُ بالغَلَبةِ هنا: الغَلَبَةُ بالقوَّةِ أو بالحُجَّةِ[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

عاقِبةُ مَن خالَفَ اللهَ ورسولَهُ الهزيمةُ والهَوان

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ سُنَّتَهُ نَصرُ المؤمنينَ، فيقولُ: قضَى اللهُ أو خَطَّ في اللَّوحِ المحفوظِ: لأغلِبَنَّ أنا ورُسُلي مَنْ خالَفَني وعاداني، إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤُهُ ذو قدرةٍ على كلِّ مَنْ خالَفَهُ وخالَفَ رُسُلَهُ، ذو عِزَّةٍ، فلا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَنتصِرَ منهُ لوليِّهِ إذا هو أهلَكَهُ أو عاقَبَهُ، أو أصابَهُ في نفسِهِ بسوءٍ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ قولِهِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾:

أعداءُ اللهِ أذِلّاءُ؛ لأنَّ الغَلَبةَ للحقِّ وأهلِهِ مكتوبةٌ منذُ الأزَلِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 498.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 395.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(4) الرّاغب، المفردات: (غلب).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (غلب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 57.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 256 - 257.

بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ واردٌ لتعليلِ كونِ المُحادّينَ في الأذلّينَ[1]؛ أي: لأنَّ اللّه أرادَ أنْ يكونَ رسولُهُ ﷺ غالبًا لأعدائِهِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَتَبَ﴾ دَلالةً وصيغةً:

ما أرادَهُ اللهُ مُحقَّقُ الوقوعِ مَقْضيٌّ في الأزَلِ

يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يكونَ على ظاهرِهِ، والمرادُ الكتابةُ في اللَّوحِ المحفوظِ[3]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مُستعارًا لمعنى: قضَى اللّهُ ذلكَ، وأرادَ وقوعَهُ في الوقتِ الَّذي عَلِمَهُ وأرادَهُ، فهو مُحقَّقُ الوقوعِ لا يَتَخلَّفُ، كالأمرِ الَّذي يُرادُ ضبطُهُ وعدمُ الإخلالِ بهِ، فإنَّهُ يُكتَبُ كي لا يُنسَى، ولا يُنقَصَ منهُ شيءٌ، ولا يُجحَدَ التَّراضي عليهِ، فجملةُ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾ مَصوغةٌ صيغةَ القولِ؛ ترشيحًا لاستعارةِ ﴿كَتَبَ﴾ إلى معنى: قضَى وقدَّرَ، والمعنى: قضَى مدلولَ هذهِ الجملةِ؛ أي: قضَى بالغَلَبةِ للّهِ ورسولِهِ ﷺ، فكأنَّ هذهِ الجملةَ هي المكتوبةُ مِنَ اللّهِ[4].

وصيَغَ الفعلُ ماضيًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكتابةَ قد مَضَتْ وتَحَقَّقَتْ، وفي ذلكَ مِنَ العظمةِ والكِبْرياءِ ما لا يخفَى.

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾:

مَنِ اتَّصَفَ بصفاتِ العَظَمةِ والجلالِ فالغَلَبةُ له

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ[5]، ومنها القدرةُ التّامَّةُ والإرادةُ النّافذةُ، فيكونُ أنسبَ بمقامِ تقريرِ الغلَبةِ وتأكيدِها.

بلاغةُ توكيدِ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾:

غَلَبةُ اللهِ تعالى ورُسُلِهِ مُتيَقَّنة

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، وذلكَ بإجراءِ (كتبَ) مُجرَى القَسَمِ، أو بتقديرِ قَسَمٍ[6]، وفائدتُها مع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 56 - 57.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 395.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 395.
(6) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 274.

نونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ توكيدُ وقوعِ الغلبةِ مِنَ اللّهِ تعالى ورُسُلِه؛ لئلّا يَظُنَّ المُحادّونَ أنَّهم غالبونَ بما لهم مِنَ الكثرةِ والقوَّةِ[1].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾:

العاقِبةُ للمُتَّقين

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الغلبةِ وتجدُّدِها، وأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ، وإنْ كانَ للباطلِ جَوْلةٌ فللحقِّ جَوْلاتٌ، واللّهُ غالبٌ على أمرِه.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾:

حِزْبُ الشَّيطانِ مغلوبٌ مَدحور

في قولِه تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ، والتَّقديرُ: لأغلبَنَّ أنا ورُسُلي حزبَ الشَّيطانِ المُحادّينَ[2]. ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الفعلُ قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ مبالغةً.

فائدةُ التَّعبيرِ بضميرِ الفَصْلِ ﴿أَنَا۠﴾:

لا غَلَبةَ حقيقيّةً إلّا للهِ ولرُسُلِه

التَّعبيرُ بضميرِ الفَصْلِ ﴿أَنَا۠﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ يُفيدُ التّوكيدَ، والغرضُ منه تقويةُ الكلامِ وتخصيصُهُ وزيادةُ تأكيدِه، وإزالةُ أيِّ احتمالٍ للتَّأويلِ بأنَّ الغَلَبةَ قد تكونُ للمُحادّينَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ، بل هي للّهِ ولرُسُلِه جميعًا؛ لأنَّ اللّهَ سبحانه قويٌّ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

عِلَّةُ جَمْعِ الرُّسُل:

كلُّ الرُّسُلِ مَنصورونَ مِنَ الله

جُمِعَ الرُّسُلُ في قولِه تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾؛ للإشارةِ إلى تَعَدُّدِهم وكثرتِهم، وللتَّنصيصِ على أنَّهم جميعًا غالبونَ، فمَنْ بُعِثَ منهم بالحربِ فإنَّهُ غالبٌ بالحربِ، ومَنْ بُعِثَ منهم بالحُجَّةِ فإنَّهُ غالبٌ بالحُجَّةِ[3].

غرضُ الإضافةِ في ﴿وَرُسُلِيٓۚ﴾:

رُسُلُ العظيمِ سبحانَهُ غالِبون

إضافةُ الرُّسُلِ إلى ضميرِ الحقِّ ﷻ في قولِه: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ لتشريفِ الرُّسُلِ وتعظيمِهم بقُربِهم مِنَ اللّهِ، ولذلكَ كانوا الغالبينَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 395.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 178.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 306.

مُغالِبُ الغالِبِ سبحانَهُ مَغلوب

علَّةُ الفَصلِ في جُملةِ الفاصِلة:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ لجملةِ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُغالِبُ الغالِبَ ﷻ مغلوبٌ مهزومٌ[1].

إمهالُ اللهِ تعالى لا يَعني عَجْزَهُ سبحانَه

بلاغةُ توكيدِ جُملةِ الفاصِلة:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِه، وللرَّدِّ على المُحادّينَ؛ فإنَّ أفعالَهم مع أولياءِ اللّهِ تعالى ورُسُلِهِ أفعالُ مَنْ يَظُنُّ ضعفَهُ وعَجْزَهُ[2]، ﷻ.

قوَّةُ اللهِ تعالى وعِزَّتُهُ جاريتانِ مَجْرَى الأمثال

بلاغةُ الالتِفاتِ في جُملةِ الفاصِلة:

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (إنّي قويٌّ عزيزٌ) ليوافِقَ سياقَ التَّكلُّمِ قبلَهُ، وإنَّما التُفِتَ إلى الغَيْبةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ لِما في إظهارِ اسمِ الجلالةِ مِنَ الدَّلالةِ على ذي العَظَمةِ والجَلالِ الَّذي لهُ الأمرُ كلُّهُ[3]، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ بجَرَيانِ الجُملةِ مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

اللهُ تعالى غالِبٌ على الدَّوام

سرُّ الجَمْعِ بينَ القويِّ والعزيز:

أُتبِعَ القويُّ بالعزيزِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ احتِراسًا؛ لأنَّ القويَّ مِنَ المخلوقاتِ قد يكونُ غيرُهُ أقوى منهُ ولو في وقتٍ، فنُفِيَ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالبٌ غَلَبَةً لا يَجِدُ معَها المغلوبُ نوعَ مُدافَعةٍ وانفِلاتٍ، ثابتٌ لهُ هذا الوصفُ دائمًا[4].

كمالُ قوَّةِ اللهِ تعالى وعِزَّتِه

نكتةُ صيغةِ (فَعيل) في ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ للمُبالغةِ في اتِّصافِه تعالى بالقوَّةِ والعِزَّةِ، فهو سبحانَهُ قويٌّ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريدُ، عزيزٌ غالبٌ غيرُ مغلوبٍ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 57.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 395.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 395.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 396.

(5) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 452.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مُوالاةُ أعداءِ اللهِ خَطَرٌ عظيم

لمّا ظهَرَ مِمّا سبَقَ أنَّ مَنْ والاهُ سبحانَهُ كانَ فائزًا، ومَنْ عاداهُ كانَ خاسرًا كانَتْ نتيجةُ ذلكَ التَّحذيرَ مِنْ موالاةِ أعداءِ اللّهِ[1]، فتكونُ هذهِ الآيةُ في معنى الذَّمِّ للمُنافقينَ الموالينَ لليهودِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوَآدُّونَ﴾: (ودد) أصلٌ يدلُّ على المحبَّةِ[3]، ومِنْ ذلكَ يقال: ودِدْتُ الرَّجلَ أَوَدُّه وُدًّا؛ أي: أحببتُهُ[4]، والوَدودُ: المُحِبُّ، والوُدُّ يكونُ في جميعِ مَداخلِ الخيرِ[5]، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: 23]، والوُدُّ أيضًا: تَمَنّي كونِ الشَّيءِ[6]، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ [آل عمران: 69][7].

ومعنى ﴿يُوَآدُّونَ﴾ هنا: يكونُ بينَهما لطفٌ[8] ومحبَّةٌ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 396.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 282، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ودد).
(6) الراغب، المفردات: (ودد).
(7) الراغب، المفردات: (ودد).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 282.

2) ﴿عَشِيرَتَهُمْ﴾: (عشر) أصلٌ يدلُّ على مُداخَلةٍ ومُخالَطةٍ[1]، وعشيرُكَ: الَّذي يُعاشِرُكَ؛ أمرُكما واحدٌ، وإنَّما سُمّيَتْ عشيرةَ الرَّجل؛ لمعاشرة بعضِهم بعضًا[2]، والزَّوجُ عشيرُ امرأتِه؛ لأنَّهُ يُعاشِرُها وتُعاشِرُهُ[3]، والعشيرُ: المُعاشِرُ، كالصَّديق والمُصادِق. وبه فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾ [الحجّ: 13][4]، والمَعْشَر: كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، نحو: معشر المسلمين، والإنسُ مَعْشَرٌ، والجنُّ مَعْشَر[5]. والمراد بالعشيرة هنا: الأقارِبُ والجماعة الَّذين أمرُهم واحدٌ.

3) ﴿وَأَيَّدَهُم﴾: (أيد) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والحفظِ[6]، ومِنْ ذلكَ: الأيْدُ، وهو القوَّةُ الشَّديدةُ[7]، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذّاريات: 47]؛ أي: بقوَّةٍ، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: 17]؛ أي: ذا القوَّة، والتَّأييدُ: التَّقويةُ، يقال: أيَّده الله؛ أي: قوّاهُ[8]، وكلُّ شيءٍ كانَ واقيًا لشيءٍ وحافظًا لهُ فهو إيادُهُ[9]. والمرادُ بالتَّأييدِ هنا: التَّقويةُ والنَّصرُ[10].

4) ﴿بِرُوحٍ﴾: (روح) أصلٌ يدلُّ على سَعَةٍ وفُسْحةٍ واطِّرادٍ، وأصلُ ذلك كلِّه الرّيحُ، وأصل الياء في الرّيح الواو، وإنما قُلبتْ ياءً لكسرِ ما قبلها[11]، والرَّوحُ: بَرْدُ نسيمِ الرّيح، قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: 89]؛ أي: فاستراحةٌ وبردٌ[12]، وراحَ الشَّجرُ: وجدَ الرّيحَ وأحسَّها[13]، والرّوح: النَّفسُ الَّتي يحيا بها البدنُ، يقال: خرجَتْ روحُهُ؛ أي: نفسُهُ[14]. والمراد بالرّوح هنا: النّور والهدى والتَّوفيق[15].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشر).
(2) الخليل، العين: (عشر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عشر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عشر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عشر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيد).
(7) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (أيد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيد).
(9) الخليل، العين: (أيد).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 308، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 224.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (روح).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(14) الخليل، العين: (روح).
(15) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 257 - 258.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ كانَ ولاؤُهُ للهِ نالَ في الدُّنيا والآخرةِ مُناه

ينهَى اللّهُ تعالى عن موادَّةِ أعدائِه، فيقولُ: لا تجدُ - يا محمَّدُ، أو أيُّها المخاطَبُ - قومًا يُصدِّقونَ اللّهَ، ويُقِرّونَ باليومِ الآخرِ يوادّونَ مَنْ خالَفَ اللّهَ ورسولَهُ، ولو كانَ هؤلاءِ المُحادّونَ أقربَ النّاسِ إليهم كآبائِهم وأبنائِهم وإخوانِهم وعشيرتِهم. هؤلاءِ الَّذينَ لا يوادّونَ مَنْ خالفَ اللّهَ ورسولَهُ ثبَّتَ اللّهُ في قلوبِهم الإيمانَ، وقوّاهم بنورٍ منهُ وهدًى وتوفيقٍ، ونصرَهم على أعدائِهم، ويُدخِلُهم يومَ القيامةِ بساتينَ تجري مِنْ تحتِ أشجارِها الأنهارُ ماكثينَ فيها أبدًا، قَبِلَ اللّهُ أعمالَهم، ورضيَ عنهم، وفرحوا بما آتاهم. أولئكَ الَّذينَ هذهِ صفتُهم جندُ اللّهِ وأولياؤُهُ، ألا إنَّ جندَ اللّهِ وأولياءَهُ هم الفائزونَ بخيري الدُّنيا والآخرة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ مَطْلَعِ الآيةِ ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا﴾:

التَّحذيرُ مِن سُلوكِ سبيلِ المُنافقينَ في موالاةِ أعداءِ الله

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بهِ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو التَّحذيرُ مِنْ موالاةِ أعداءِ اللّهِ الَّتي كانَ يَفعَلُها المنافقونَ.

تعيينُ المُخاطَبِ في ﴿لَّا تَجِدُ﴾:

النَّبيُّ ﷺ هو المُكلَّفُ بالإبلاغِ

الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ للنَّبيِّ عليهِ ﷺ[2]، والمقصودُ منهُ أمرُهُ بإبلاغِ المسلمينَ مضمونَ هذهِ الآيةِ[3].

الخِطابُ لكلِّ أحَد

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ أحدٍ[4]، كأنَّهُ قيلَ: أيُّها المخاطَبُ،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 257 - 258.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 231، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 59.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 231، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 228.

إنَّكَ إذا تَقَصَّيتَ في الدُّنيا قومًا قومًا فلا تجدُ قومًا يجمعونَ بينَ الإيمانِ باللهِ وبينَ موادَّةِ أعدائِه(1).

سِرُّ افتتاحِ الآيةِ بـ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾:

حالُ مَنْ يوادُّ المُحادّينَ عَجيب

افتتاحُ الكلامِ بـ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية، يُثيرُ تشويقًا إلى معرفةِ حالِ هؤلاءِ القومِ، وما سيُساقُ في شأنِهم مِنْ حُكمٍ(2).

حقُّ موالاةِ المُحادّينَ أنْ يَمتَنِعَ وُجودها

والجملةُ مِنْ بابِ تنزيلِ الموجودِ الكائنِ منزلةَ المعدومِ، وذلكَ بتخييلِ أنَّ مِنَ الممتنعِ المُحالِ أنْ تجدَ قومًا مؤمنينَ يوالونَ المُشركينَ. والغرضُ أنَّهُ لا ينبغي أنْ يكونَ ذلكَ، وحقُّهُ أنْ يَمتَنِعَ ولا يوجَدَ بحالٍ، مُبالَغةً في النَّهيِ عنهُ والزَّجرِ عن مُلابَستِهِ، والتَّوصيةِ بالتَّصلُّبِ في مُجانَبةِ أعداءِ اللهِ، والاحتراسِ مِنْ مُخالطتِهم ومُعاشرتِهم(3).

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ: لا يَنبغي أنْ يوادّوهم(4)، فيكونُ الكلامُ كنايةً؛ لأنَّهُ لا معنى لنفيِ ثُبوتِ الوِجْدانِ مع وجودِ الموادَّةِ في الواقعِ، فيُرادُ بهِ لازِمُهُ كنايةً؛ لكونِها أبلغَ مِنَ التَّصريحِ(5).

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ: لا تَجِدُ قومًا كامِلي الإيمانِ على هذهِ الحالِ، فالنَّفيُ باقٍ على حقيقتِهِ(6).

بلاغةُ صيغةِ المُضارعِ المَنفيِّ في ﴿لَّا تَجِدُ﴾:

عدمُ وِجْدانِ المُوادّينَ للمُحادّينَ مُستمِرٌّ مُتجدِّد

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المَنْفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ الوِجْدانِ المذكورَ أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في التَّحذيرِ مِنْ موالاةِ المُحادّينَ.

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 296 - 297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 58.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 497، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 296 - 297.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 196 - 197.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518 - 519، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 58.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518 - 519، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 229.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

المؤمنُ لا يَجمَعُ بينَ الإيمانِ باللهِ وبينَ موادَّةِ أعدائِه

تنكيرُ ﴿قَوۡمٗا﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا﴾ للعموم؛ لأنَّهُ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، كأنَّهُ قيلَ: إذا تَقَصَّيْتَ في الدُّنيا قومًا قومًا فلا تَجِدُ قومًا يَجمَعونَ بينَ الإيمانِ باللّهِ وبينَ موادَّةِ أعدائِه[1]. ولإفادةِ ذلكَ اختيرَ الإطنابُ المُناسِبُ للمَقامِ، فلم يُقَلْ: (لا تَجِدُ المُؤمنينَ يوادّونَ إلخ)[2].

سِرُّ وصْفِ القومِ بالإيمان:

المؤمنُ يوادُّ المؤمنينَ لا المُحادّينَ للهِ ورسولِه

وُصِفَ القومُ بالإيمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لزيادةِ الإنكارِ على مَنْ يوادُّ مَنْ حادَّ اللّهَ ورسولَهُ، والمعنى: أنَّهُ لا يَجتمِعُ الإيمانُ مع موادَّةِ أعداءِ اللّهِ، وذلكَ لأنَّ مَنْ أحبَّ أحدًا امتنَعَ أنْ يُحِبَّ مع ذلكَ عدوَّهُ[3].

دلالةُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

شَأنُ المؤمنِ مُلازمةُ الإيمانِ والطّاعة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجَدُّدِ الإيمانِ واستمرارِهِ ودوامِهِ[4].

معنى الباءِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الإيمانُ مُتعلِّقٌ باللهِ واليومِ الآخِرِ

الباءُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ للتَّعديةِ، فتُفيدُ أنَّ إيمانَهم يَتَعلَّقُ باللّهِ تعالى واليومِ الآخرِ.

سِرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

ذو العَظَمةِ والجَلالِ يَستَحِقُّ الإفرادَ بالإيمان

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لدَلالتِهِ على الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا[5] الَّتي تَستوجِبُ إخلاصَ الإيمانِ لهُ، وإفرادَهُ بهِ.

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 296 - 297.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 519.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 499.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 396.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 396.

سِرُّ الاقتِصارِ على اسمِ الجلالةِ واليومِ الآخِر:

العاقِلُ لا يُعَرِّضُ نفسَهُ للعِقاب

اقتُصِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على ركنينِ فقط مِن أركانِ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ باللّهِ تعالى هو رأسُ أركانِ الإيمانِ، أمّا اليومُ الآخِرُ فذكرُهُ هنا للتَّذكيرِ بما يَقَعُ فيه مِنَ الحسابِ والجزاءِ، والعاقلُ لا يَلقى اللّهَ في ذلكَ اليومِ والحالُ أنَّهُ قد كانَ يوادُّ المُحادّينَ للحقِّ ﷻ.

بلاغةُ موقعِ جُملةِ ﴿يُوَآدُّونَ﴾ من حيثُ الإعراب:

قُبحُ اقترانِ الإيمانِ بموادَّةِ أعداءِ اللهِ ورسولِه

الفعلُ ﴿تَجِدُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إمّا مُتَعدٍّ إلى اثنينِ، فقولُهُ تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعولُهُ الثّاني، أو إلى واحدٍ، فهو حالٌ مِنْ مفعولِهِ لتخصُّصِهِ بالصِّفةِ، أو صفةٌ أخرى لهُ؛ أي: قومًا جامعينَ بينَ الإيمانِ باللّهِ واليومِ الآخرِ وبينَ موادَّةِ أعداءِ اللّهِ ورسولِهِ[1]. وأيًّا ما كانَ ففي الكلامِ ما لا يخفَى مِنْ تقبيحِ الجمعِ بينَ الإيمانِ وموادَّةِ أعداءِ الحقِّ.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُوَآدُّونَ﴾:

استِمرارُ الموادّينَ المذكورينَ على فِعلِهِمُ الشَّنيع

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ للتَّحذيرِ من إنشاءِ الموادَّةِ واستمرارِها وتَجَدُّدِها، وفي ذلكَ زيادةُ تشنيعٍ لحالِ الموادّينَ؛ لأنَّهم لو وادّوهم مرَّةً واحدةً لاستُنكِرَ ذلكَ، فكيفَ وهم مُستمِرّونَ على هذا الفعلِ؟!.

صورةُ موادَّةِ أعداءِ الحقِّ قبيحة

ويُحتمَلُ أنْ تكونَ صيغةُ المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[2] واستحضارِها؛ للتَّعجيبِ منها واستهجانِها.

بلاغةُ صيغةِ المُفَاعَلةِ في ﴿يُوَآدُّونَ﴾:

الوُدُّ يَجلِبُ الوُدّ

أصلُ الموادَّةِ: حُصولُها مِن جانبَينِ، والنَّهيُ في قولِهِ تعالى هنا:

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 274، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 223.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 229.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إنَّما هو عن مَوَدَّةِ المؤمنِ الكافرينَ، لا عن مقابلةِ الكافرِ المؤمنينَ بالمودَّةِ، وإنَّما جيءَ بصيغةِ المفاعلةِ هنا اعتبارًا بأنَّ شأنَ الوُدِّ أنْ يَجلِبَ وُدًّا مِنَ المودودِ للوادِّ.

حِرْصُ الموادّينَ على صدقِ المَوَدَّة

وإمّا أنْ تكونَ المُفاعَلةُ كنايةً عن كونِ الوُدِّ صادقًا؛ لأنَّ الوادَّ الصّادقَ يُقابِلُه المودودُ بمِثلِه، ويُعرَفُ ذلكَ بشواهدِ المُعامَلة[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَنۡ﴾:

مَن حادَّ اللهَ ورسولَهُ حَريٌّ بالعَداوةِ لا بالموادَّة

جيءَ بالموصولِ ﴿مَنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو المُحادَّةُ - على عِلَّةِ استهجانِ هذهِ الموادَّةِ، ولتقبيحِ حالِ المُحادّينَ.

وجهُ التَّعبيرِ بالمُحادَّةِ دلالةً وصيغةً:

فَرْطُ عَداوةِ المُحادّينَ للهِ ورسولِه

عُبِّرَ بالمُحادَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مِنَ المُخالفةِ والمُعاداة[2]، وكأنَّ المُحادَّ يكونُ في حدٍّ غيرِ حدِّ اللّهِ ورسولِه، وفي جانبٍ غيرِ جانبِهما، وفي ذلكَ تنبيهٌ على فَرْطِ العَداوةِ والمُخالَفة.

موادَّةُ المُحادّينَ للهِ ورسولِهِ مُتَحقِّقة

وعُبِّرَ بصيغةِ الماضي ﴿حَآدَّ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُحادَّةَ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ، كما كانَ يَفعَلُ المنافقونَ في موالاتِهم لليهودِ، وذلكَ يَزيدُ استِهجانَ فعلِ الموادّينَ.

بلاغةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿حَآدَّ ٱللَّهَ﴾:

حَقُّ العظيمِ أنْ يُوالَى لا أنْ يُعادَى

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (حادَّهُ ورسولَهُ)، ولكنْ أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي توجِبُ عظيمَ جُرْمِ مَنْ يُقدِمُ على مُحادَّتِه[3]، وتُقرِّرُ سفاهةَ رأيِهِ؛ إذ حقُّهُ أنْ يواليَهُ لا أنْ يُعاديَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 58.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 453، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 178.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 397.

غرضُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

مَن حادَّ المُرسَلَ فقد حادَّ المُرسِل

أُضيفَ الرَّسولُ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لتعظيمِ الرَّسولِ وبيانِ منزلتِه عندَ اللّهِ تعالى؛ فإنَّ مَنْ حادَّهُ فقد حادَّ الَّذي أرسلَهُ[1].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾:

موالاةُ أعداءِ اللهِ مَمنوعةٌ في جميعِ الأحوال

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ حاليَّةٌ[2]، والجملةُ حالٌ لتأكيدِ الزَّجرِ عن موالاةِ أعداءِ اللّهِ[3] والمبالغةِ في ذلكَ، بذكرِ الأحوالِ الَّتي قد يُقدِمُ فيها المرءُ على التَّرخُّصِ فيما نُهيَ عنهُ بعلَّةِ قُرْبِ القرابةِ[4]. والمرادُ أنَّ المَيْلَ إلى هؤلاءِ أعظمُ أنواعِ المَيْلِ، ومع هذا فيجبُ أنْ يكونَ هذا المَيْلُ مغلوبًا مطروحًا بسببِ الدّينِ[5].

سرُّ اختيارِ (لو) في الآية:

تأكيدُ المَنْعِ مِن موالاةِ المُحادّينَ للهِ ورسولِه

(لو) في قولِه ﷻ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ للشَّرطِ، وحُذِفَ جوابُهُ لدلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، ومِثلُ هذا الاستعمالِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وهو من بديعِ تراكيبِ العربيَّة. أو (لو) في مثلِهِ مُجَرَّدةٌ عن معنى الشَّرطِ، لا يُقصَدُ بها إلّا المبالغةُ، وتُلقَّبُ بالوَصليَّةِ؛ أي: أنَّها لمُجرَّدِ الوَصلِ والرَّبطِ في مَقامِ التَّأكيدِ[6].

وجهُ استعمالِ ضميرِ الجماعةِ في ﴿كَانُوٓاْ﴾:

مُراعاةُ معنى (مَنْ) بعدَ مُراعاةِ لفظِها

ضميرُ الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ﴾ راجعٌ إلى ﴿مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، والجمعُ باعتبارِ معنى ﴿مَنۡ﴾، كما أنَّ الإفرادَ فيما قبلَهُ باعتبارِ لفظِها[7].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 397.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 274.
(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 453.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 59.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 499.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 59، 3/ 306.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 179.

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في الجُملةِ الحاليَّة:

القرابةُ أيًّا كانَتْ درجتُها لا تُجيزُ موالاةَ أعداءِ الحَقّ

﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ للتَّنويعِ والتَّقسيم، فتفيدُ أنَّ القرابةَ لا تُجيزُ موالاةَ المُحادّينَ للّهِ ورسولِهِ أيًّا كانَتۡ درجةُ هذهِ القرابةِ.

غرضُ الإضافةِ في الجُملةِ الحاليَّة:

الإنسانُ يَقطَعُ رجاءَهُ مِنۡ غيرِ الله

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ لاميَّةٌ، فتفيدُ اختصاصَهم بهم وقُربَهم منهم، ومع ذلكَ يجبُ عدمُ موالاتِهم. ومدارُ ذلكَ على أنَّ الإنسانَ يَقطَعُ رجاءَهُ مِنۡ غيرِ اللّهِ، وإنۡ لم يكنۡ كذلكَ لم يكنۡ مُخلِصًا في إيمانِهِ[1].

سِرُّ التَّخصيصِ والتَّرتيبِ في الجُملةِ الحاليَّة:

النَّهيُ شاملٌ لجميعِ القَراباتِ والوَسائِلِ

معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾: ولو كانَ المُحادّونَ أقربَ النّاسِ إليهم مطلقًا، فيتناولُ الأمَّهاتِ والزَّوجاتِ والأعمامَ والعمّاتِ وغيرَ ذلكَ. ووجهُ تخصيصِ هؤلاءِ بالذِّكر: أنَّ الأبَ واجبُ الإطاعةِ، والابنَ أشدُّ محبَّةً بهم، والإخوانَ ناصروهم، والعشيرةَ يَفتَخِرونَ بها، ويَستعينونَ بها في المُلمّاتِ، وللتَّنبيهِ على ذلكَ اختيرَ الإطنابُ، فلم يُقَلۡ: (ولو كانوا أولي قُربَى)؛ لأنَّ المقامَ يَقتضي بسطًا في الكلامِ[2]؛ لاقتلاعِ محبَّةِ أعداءِ اللّهِ تعالى ورسولِهِ مِنَ النُّفوسِ.

قوَّةُ القَرابةِ لا تُجيزُ موالاةَ أعداءِ الله

ورُتِّبَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ بتقديمِ الآباءِ أوَّلًا؛ لأنَّهم تجبُ طاعتُهم على أبنائِهم، ثمَّ ثُنّيَ بالأبناءِ؛ لأنَّهم أعلَقُ بالقلوبِ، وهم حبّاتُها، ثمَّ ثُلِّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّهم هم النّاصرونَ؛ ثمَّ رُبِّعَ بالعشيرةِ؛ لأنَّها بها يُستَغاثُ، وعليها

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 397 - 398.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 519.

يُعتمَدُ[1]، فتكونُ أصنافُ القرابةِ في هذهِ الآيةِ قد رُتِّبَتْ على طريقةِ التَّدَلّي مِنَ الأقوى إلى مَنْ دونَهُ؛ لئلّا يُتوهَّمَ أنَّ النَّهيَ خاصٌّ بمَنْ تقوَى فيهِ ظِنَّةُ النَّصيحةِ لهُ والائتمارِ بأمرِهِ[2].

علَّةُ فَصْلِ جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾:

صَريحُ الإيمانِ حامِلٌ على البَراءةِ مِنَ المُحادّين

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًا؛ لأنَّ الأوصافَ السّابقةَ ووقوعَها عَقِبَ ما وُصِفَ بهِ المنافقونَ مِنْ مُحادَّةِ اللّهِ ورسولِهِ ﷺ، وما توعَّدَهُمُ اللّهُ بهِ مِمّا يَستَشرِفُ بعدَهُ السّامعُ إلى ما سيُخبَرُ بهِ عن المُتَّصفينَ بضدِّ ذلكَ، وهم المؤمنونَ الَّذينَ لا يوادّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ ورسولَهُ ﷺ[3]، فيكونُ في الكلامِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا يَحمِلُ على البراءةِ مِنَ المحادّينَ إلّا صريحُ الإيمانِ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة:

رُسوخُ الإيمانِ في قُلوبِ مَن لا يوادُّ المُحادّينَ للهِ ورسولِه

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ عَزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ كَتْبَ الإيمانِ في قلوبِهم حقيقةٌ ثابتةٌ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على رُسوخِهم في الإيمانِ، وأنَّهم هم المؤمنونَ حقًّا، وأنَّ الموادّينَ ليسوا راسِخينَ في الإيمانِ.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عُلوُّ دَرَجةِ مَن لا يوالي أعداءَ اللهِ ورسولِه

الإشارةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى الَّذينَ لا يوادّونَ أعداءَ الحقِّ وإنْ كانوا أقربَ النّاسِ إليهم[5]. وما في اسمِ الإشارةِ مِنْ معنى البُعدِ لتعظيمِ شأنِهم، وبيانِ رفعةِ درجتِهم في الفَضْلِ[6].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 131، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 60 - 61.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 398.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 197، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 398، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَتَبَ﴾ دلالةً وصيغةً:

إثباتُ اللهِ تعالى الإيمانَ في قُلوبِ مَن لا يوالي أعداءَ الحَقّ

في التَّعبيرِ بالكَتْبِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّ الكَتْبَ في الأصلِ: ضمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطةِ، وضمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخَطِّ، والأصلُ في الكتابةِ النَّظمُ بالخَطِّ، وفي المَقالِ النَّظمُ باللَّفظِ، ويُعبَّرُ بالكتابةِ عن الإثباتِ والتَّقديرِ والإيجابِ والفرْضِ. ووجهُ ذلكَ: أنَّ الشَّيءَ يُرادُ ثمَّ يُقالُ ثمَّ يُكتَبُ، فالإرادةُ مُبتدَأٌ، والكتابةُ منتهًى، ثمَّ يُعبَّرُ عن المرادِ الَّذي هو المبتدأُ إذا أُريدَ بهِ توكيدُهُ بالكتابةِ الَّتي هي المُنتهَى[1]، فيكونُ المعنى هنا: أثْبَتَ وخَلَقَ في قلوبِهم الإيمانَ[2].

نِعمةُ اللهِ بالإيمانِ سابِقة

وجيءَ بالفعلِ ماضيًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كَتْبَ الإيمانِ في قلوبِهم أمرٌ قد تحقَّقَ ومَضَى، وفي ذلكَ مُلاءَمةٌ لمَقامِ مدحِهم والثَّناءِ عليهم، وتعدادِ نِعَمِ اللّهِ عليهم.

دلالةُ ﴿فِي﴾ مِن القيدِ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾:

القُلوبُ أوعيةُ الإيمان

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ على أنَّ قلوبَهم قد جُعِلَتْ أوعيةً للإيمانِ، فأثمَرَ ذلكَ نورَ الباطنِ، واستقامةَ الأعمالِ في الظّاهرِ[3].

سِرُّ تخصيصِ القُلوبِ بالذِّكر:

القُلوبُ مَنابِتُ الإيمان

خُصَّتِ القلوبُ بالذِّكرِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ لأنَّها مواضعُ الإيمانِ[4]، وإذا رسَخَ الإيمانُ فيها انعَكَسَ على باقي الجَوارحِ والأركانِ.

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 298، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 229 - 230.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 499، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 308، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 28.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 399.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 308.

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿قُلُوبِهِمُ﴾:

عِظَمُ المِنَّةِ على مَن أكرَمَهُ اللهُ تعالى بالإيمان

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ لاميَّةٌ، فتفيدُ أنَّ كَتْبَ الإيمانِ في قلوبٍ مختصَّةٍ بهم لا في قلوبِ غيرِهم، وهذا أعظمُ في المِنَّةِ.

غرضُ تقديمِ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾:

بُشرَى المؤمنِ الصّادقِ مُعجَّلة

قُدِّمَ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ على ﴿ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وتعجيلِ المَسَرَّةِ للمؤمنينَ الَّذينَ لا يوادّونَ المُحادّينَ عندَ سماعِ هذا الكلامِ.

دلالةُ تعريفِ الإيمانِ:

المؤمنونَ الصّادقونَ يُؤمنونَ بكلِّ أركانِ الإيمان

تعريفُ الإيمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بِهِ الإيمانُ باللّٰهِ تعالى وباقي أركانِ الإيمانِ.

نكتةُ عَطْفِ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾:

عَدَمُ موالاةِ أعداءِ اللهِ يكونُ بتأييدٍ مِنَ الله

عُطِفَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ على قولِهِ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ لذكرِ نعمةٍ ثانيةٍ منهُ ﷻ على عبادِهِ المؤمنينَ الَّذينَ لا يوادّونَ مَنْ حادَّ اللّٰهَ ورسولَهُ[1].

بلاغةُ صيغةِ الماضي في ﴿وَأَيَّدَهُم﴾:

تأييدُ اللهِ للمؤمنينَ الصّادقينَ مُتحقِّقٌ دائم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تأييدَ اللّٰهِ إيّاهم قد حصَلَ وتقرَّرَ، وفيهِ أيضًا دلالةٌ على الدَّوامِ، فهو مُستعمَلٌ في معنييهِ[2].

معنى الباءِ في ﴿بِرُوحٖ﴾:

تأييدُ اللهِ للمؤمنينَ مَصحوبٌ بروحٍ مِنه

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ للمُصاحبةِ، فتفيدُ أنَّ تأييدَ اللّٰهِ تعالى للمؤمنينَ مصحوبٌ بروحٍ منهُ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 500.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 61.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ الرّوحِ:

تأييدُ اللهِ المؤمنينَ بالهُدى والنّورِ والتَّوفيقِ وبنصرِهم على عدوِّهم

في التَّعبيرِ بالرّوحِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّ المرادَ: وأيَّدَهم بهُدًى ولُطْفٍ ونورٍ وتوفيقٍ مِنْ عندِهِ، حَيِيَتْ بِهِ قلوبُهم[1]، وتسميتُهُ روحًا مَجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنَّهُ سببٌ للحياةِ الطَّيِّبةِ الأبديَّةِ، أو استعارةٌ[2]، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ، فيكونَ المعنى: وأيَّدَهم بنصرٍ منه كالرّوحِ على عدوِّهم، والقرينةُ هي قولُهُ: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾، وشُبِّهتْ تلك النُّصرةُ بالرّوحِ؛ لأنَّ بها حياةَ أمرِهم[3].

غرضُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿بِرُوحٖ﴾:

هِباتُ اللهِ تعالى عظيمةُ الشَّأْنِ

تنكيرُ الرّوحِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ للتَّعظيمِ؛ أي: بروحٍ عظيمِ الشَّأنِ شريفٍ[4]، وأيُّ شيءٍ أشرفُ وأعظمُ مِنَ النّورِ والهدى والتَّوفيقِ والنَّصرِ؟!

دلالةُ (مِنْ) في القيدِ ﴿مِّنۡهُۖ﴾ وبيانُ مَرجِعِ الضَّميرِ:

ما كانَ مِنَ العظيمِ فهو عظيم

معنى قولِهِ تعالى: ﴿مِّنۡهُۖ﴾: مِنْ عندِهِ ﷻ، على أنَّ (مِنْ) ابتدائيَّةٌ والضَّميرُ راجعٌ إلى اللهِ سبحانه، والمرادُ بالرّوحِ: نورُ القلبِ أو نحوُهُ مِمّا تقدَّمَ، ولا يخفَى ما في ذلكَ مِنَ المبالغةِ؛ لأنَّ ما يكونُ منهُ ﷻ عظيمُ الشَّأنِ. أو الضَّميرُ راجع إلى الإيمانِ، والمعنى: مِنَ الإيمانِ، والمرادُ بالرّوحِ الإيمانُ أيضًا، والكلامُ مِنْ قبيلِ التَّجريدِ، فـ (مِنْ) بيانيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ على الخلافِ المشهورِ فيها[5].

نكتةُ عطفِ ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾:

المؤمنُ مُكرَّمٌ في الدُّنيا والآخرة

قولُهُ تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 497، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 282.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 500.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 399.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.

﴿فِيهَاۚ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، ونكتةُ العطفِ: أنَّ هذهِ الجملةَ بيانٌ لآثارِ رحمتِه تعالى الأخرويَّةِ إثرَ بيانِ ألطافِهِ الدُّنيويَّةِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ﴾:

إدخالُ المؤمنينَ الجنَّةَ يكونُ في الآخِرة

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ لأنَّهُ الأصلُ في الاستقبالِ، وإدخالُهم الجنَّةَ يكونُ في الآخرةِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجنّات:

الاستِظلالُ بالأشجارِ مِن ألوانِ النَّعيم

عُبِّرَ بالجنّاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ لدلالةِ اللَّفظِ على البساتينِ الَّتي تَستُرُ داخِلَها مِنْ كثرةِ أشجارِها[3]، وذلكَ إيماءٌ إلى لونٍ عظيمٍ مِنْ ألوانِ النَّعيم.

دلالةُ جَمْعِ الجَنّات:

كَثْرةُ مَنازِلِ الجَنّاتِ وتنوُّعُها

جمعُ الجَنّاتِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ للدَّلالةِ على تنوُّعِها وتعدُّدِها؛ فالجَنّاتُ مَنازِلُ ومَراتِبُ ودرجاتٌ كثيرةٌ.

غرضُ تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

شأنُ الجنّاتِ عظيمٌ

تنكيرُ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لتعظيمِ شأنِ هذهِ الجَنّاتِ وتفخيمِها.

سِرُّ وصْفِ الأنهارِ بالجُملةِ الفعليَّة:

الأنهارُ الجاريةُ مِن ألوانِ النَّعيم

وُصِفَتِ الجَنّاتُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بجَرَيانِ الأنهارِ مِنْ تحتِها؛ لأنَّ ريَّ أشجارِ الجَنّاتِ يَزيدُ في نَضارتِها، ولأنَّ النَّظرَ إلى مياهِ الأنهارِ مِنْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 521، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 61.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 399 - 400.

ألوانِ النَّعيم، ولأنَّ جريانَ الأنهارِ في مَجاريها المُعتادةِ يُسبِّبُ كثرةَ الرّياضِ والأشجارِ، والسّاحاتِ والدّيارِ[1].

وصُدِّرَتْ جملةُ الوصفِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾؛ تنبيهًا على استمرارِ الجَرَيانِ وتجدُّدِه، وذلكَ يَزيدُ النَّعيمَ والبهجةَ في نفوسِ أهلِ الجنَّةِ، وتعريفًا بدَوامِ تنوُّعِها وزَهرتِها وعظيمِ بَهْجتِها[2].

جَرَيانُ الأنهارِ مُستمِرٌّ مُتَجدِّد

بلاغةُ المَجازِ في إسنادِ الجَرَيان إلى الأنهارِ:

في إسنادِ الجَرَيانِ إلى الأنهارِ في قولِه ﷻ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه المَكانيَّةُ؛ لأنَّ الجَرَيانَ في الحقيقةِ للمياهِ، والأنهارُ مكانُ جَريانِها.

الجَرَيانُ حقيقةٌ لمياهِ الأنهارِ

بلاغةُ ذِكْرِ القيدِ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، ومعنى ﴿مِن﴾ فيه:

لمّا كانتِ المياهُ لو عمَّتِ الأرضَ لا تَترُكُ فيها مُستقَرًّا؛ ولو استَغرَقَتِ المكانَ أفسدَتْ أُثْبِتَ القيدُ فقيلَ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[3]. و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ المكانيَّة، وتدلُّ على أنَّ ماءَها غيرُ مَجلوبٍ، بل كلُّ مكانٍ مِنها مُتَهيِّئٌ لأنْ يَنبُعَ منه ماءٌ يَجري؛ لأنَّ أرضَها معدنُ المياهِ، فهي لا تزالُ يانعةً غَضَّةً، وفي ذلك ثباتٌ لبَهْجتِها، ودوامٌ لزَهرتِها ونَضارتِها[4].

المياهُ لا تَعُمُّ الأرض

غرضُ تقديمِ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

قُدِّمَ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لتعجيلِ المَسَرَّةِ للمؤمنينَ عندَ سماعِ هذا الكلامِ، وللاهتمامِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ.

تعجيلُ المَسَرَّةِ بكونِ الجَرَيانِ مِن تحتِ الجنّاتِ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وجمعِها:

جُمِعَتِ الأنهارُ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ

أنهارُ الجنَّةِ كثيرةٌ مُتنوِّعةٌ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/ 165.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 4/ 277، 5/ 214.

على كثرةِ أنهارِ الجنّاتِ وتنوُّعِها، كما دَلَّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمَّد: 15].

في الجنّاتِ أنهارٌ مَخصوصة

وتعريفُ الأنهارِ في قولِهِ ﷻ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها أنهارٌ مخصوصةٌ، وهي أنهارُ الجنَّةِ.

بلاغةُ الحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

النَّعيمُ لا يَكمُلُ إلّا بدَوامِه

جيءَ بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ لأنَّ النَّعيمَ لا يَكمُلُ ولا يَلَذُّ إلّا بالدَّوام[1]؛ فإنَّ انقطاعَهُ - ولو بعدَ زمنٍ طويلٍ - مِمّا يُعكِّرُ صفوَ المُنَعَّمِ. و"في معنى لفظِ الخُلودِ إعلامٌ بسكونِ الأنفُسِ إليها؛ لِما فيها مِن موافقتِها"[2].

نكتةُ صَوْغِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ مجموعًا:

مُنادَمةُ الإخوانِ مِن أعلى نعيمِ الجِنان

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على رُسوخِ أهلِ الجنَّةِ في الخُلودِ. و"جَمَعَ الفائزين بدخولِ الجنَّةِ في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ تبشيرًا بكثرةِ الواقفِ عندَ هذه الحُدودِ، ولأنَّ مُنادَمةَ الإخوانِ مِن أعلى نعيمِ الجِنانِ"[3].

سِرُّ تَرْكِ تقييدِ الخُلودِ بالتَّأبيدِ:

مَـنْ رضيَ اللهُ عنه رَزَقَهُ الخُلودَ المُؤَبَّد

تُرِكَ تقييدُ الخلودِ بالتَّأبيدِ بالقولِ: (أبدًا) في قولِهِ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ لأنَّهُ "قد عُلِمَ مِنَ الرِّضا من الجانبَينِ والحِزْبيَّةِ والإفلاحِ عدمُ الانفِكاكِ عن السَّعادةِ، فأغنى ذلك عن تقييدِ الخُلودِ بالتَّأبيد"[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 4/ 278.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/ 214.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 401.

دلالةُ (في) مِن قولِه: ﴿فِيهَاۚ﴾:

الجَنّاتُ مَوضِعُ خُلودِ المؤمنين

يَدُلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ على أنَّ الجنّاتِ هي مكانُ خلودِ المؤمنينَ، وما أعظمَ الخلودَ في منازلِ النَّعيم!

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ الرِّضا:

رِضا اللهِ تعالى سببُ النَّعيمِ، وهو أعظمُ مِنهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ جارٍ مَجرَى التَّعليلِ لِما أفاضَ عليهم ربُّهم مِنْ آثارِ رحمتِهِ العاجلةِ والآجلة[1]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ تلكَ الآثارَ لا تَتِمُّ إلّا برِضا مالكِها تعالى[2]، وأنَّ رِضاهُ تعالى أكبرُ مِنْ سائرِ النِّعَم[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرِّضا:

قَبولُ اللهِ أعمالَ المؤمنينَ وفَرَحُهم بعَطاءِ الله

عُبِّرَ بالرِّضا في قولِهِ تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهُ تعالى قَبِلَ أعمالَهم، وأنَّهم فَرِحوا بما أعطاهم[4]؛ لأنَّهُ أعطاهم فوقَ ما يُؤَمِّلونَ[5].

نُكتةُ صَوْغِ الفعلَينِ ﴿رَضِيَ﴾ و﴿وَرَضُواْ﴾ ماضيَين:

تَحَقُّقُ الرِّضا بثَباتِهم على الدّينِ ومُعاداةِ أعدائِه

جيءَ بفعلَيِ الرِّضا ماضيَينِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رِضا اللّهِ تعالى عنهم حاصلٌ مِنَ الماضي ومُحَقَّقُ الدَّوام، ورِضاهم عن ربِّهم كذلكَ مُحَقَّقٌ في الدُّنيا بثَباتِهم على الدّينِ ومُعاداةِ أعدائِهِ، وفي المستقبلِ بنَوالِ رِضا اللّهِ عنهم، ونَوالِ نعيمِ الخُلودِ[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 28.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 521.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 309.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 61.

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾:

مَن رَضِيَ عنهُ اللهُ فلا يأبهُ بسَخَطِ سِواه

أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ مع أنَّ مقتضَى الظّاهرِ الإضمارُ؛ للدَّلالةِ على المَلِكِ الأعظمِ الّذي لهُ الأمرُ كلُّهُ، فلا التفاتَ إلى غيرِهِ[1]، ولا يَطمَحُ العبدُ لرِضا غيرِهِ، ولا يأبهُ بسَخَطِ سواهُ، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ باستقلالِ الجملةِ.

معنى (عن) في القيدَين ﴿عَنۡهُمۡ﴾ و﴿عَنۡهُۚ﴾:

الرِّضا مُتعلِّقٌ باللهِ تعالى وبالمؤمنين

(عن) في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ للتَّعديةِ، فالرِّضا في الجملةِ الأولى مُتعلِّقٌ بهم، وفي الجملةِ الثّانيةِ مُتعلِّقٌ به تعالى.

نكتةُ عطفِ ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

رِضا المؤمنينَ كمالُ سُرورِهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ بيانٌ لابتهاجِهم بما أوتوهُ عاجلًا وآجلًا[2]؛ لأنَّهُ لا يَكمُلُ السُّرورُ إلّا بالرِّضا[3].

عِلَّةُ فَصلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾:

كَونُ المؤمنينَ حزبَ اللهِ نعمةٌ تَستحِقُّ المَدحَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ لبيانِ نعمةٍ جديدةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم الّتي توجِبُ تركَ الموادَّةِ مع أعداءِ اللهِ[4]، ولأنَّهُ لمّا أخبرَ عنهم بما يَسُرُّ كلَّ سامعٍ، فيَشتاقُ إلى مُصاحَبتِهم ومُعاشَرتِهم ومُرافَقتِهم ومُقارَبتِهم مَدَحَهم بأنَّهم حزبُ اللهِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة:

المؤمنونَ حِزبُ اللهِ على الدَّوامِ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَهم حزبَ اللهِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 500.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَن قَصَرَ وُدَّهُ على اللهِ عَظُمَتْ رُتبتُه

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المؤمنينَ في الدَّرجةِ العُليا مِنَ العَظَمةِ؛ لأنَّهم قَصَروا وُدَّهم على اللّهِ؛ عِلمًا مِنهم بأنَّهُ ليسَ النَّفعُ والضَّرُّ إلّا بيدِهِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالحِزْبِ:

المؤمنونَ جُندُ اللهِ وأنصارُ دينِهِ

عُبِّرَ بالحزبِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الكلمةِ على الجماعةِ الَّذينَ يَجمَعُهم مذهبٌ واحدٌ[2]، فتُفيدُ في هذا السِّياقِ أنَّ المؤمنينَ جندُ اللّهِ وأنصارُ دينِهِ[3]. و"القومِ الَّذين يَجمَعُهم على ما يُرضي المَلِكَ الأعلى ما حَزَبَهم؛ أي: اشتَدَّ عليهم فيه"[4].

براعةُ الإضافةِ في ﴿حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾:

مَنِ انتَسَبَ إلى اللهِ شَرُفَ

إضافةُ الحزبِ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ للإشعارِ بقُربِهم منهُ، وأنَّهم جماعتُهُ المُختَصّونَ بهِ[5]، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لهم عظيمٌ، وتكريمٌ فخيمٌ[6]؛ فهم "جندُ المَلِكِ الأعلى الَّذي أحاطَ بجميعِ صفاتِ الكمالِ وأولياؤُهُ؛ فإنَّهم هم يَغضَبون له ولا يَخافون فيه لومةَ لائمٍ"[7].

سِرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِۚ﴾:

زيادةُ تعظيمِ المؤمنينَ بالانتِسابِ إلى ذي العَظَمةِ والجَلالِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أولئكَ حِزْبُهُ)، وإنَّما عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدَلالةِ اسمِ الجلالةِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، وذلكَ يَزيدُ الإضافةَ تشريفًا وفخامةً[8]، ويُناسِبُ استقلالَ الجملةِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 282.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 197.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 6/ 194.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.
(6) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 231.
(7) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(8) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.

بلاغةُ الفَصْلِ في جُملةِ الفاصِلة:

اختصاصُ المؤمنِينَ بِسَعادةِ الدّارَين

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ لبيانِ اختصاصِ المؤمنينَ بالفوزِ بسعادةِ الدّارينِ[1]. ثمَّ إنَّه لمّا تبيَّنَ مِمّا أعَدَّ لهم وأعَدَّ لأضدادِهم أنَّهم المُختَصّون بكلِّ خيرٍ فَصَلَ على طريقِ ذكرِ النَّتيجةِ ممّا مَضى، مُؤكِّدًا لما لأضدادِهم مِنَ الأنكادِ، بما في جُملةِ الفاصِلة مِنَ المُؤكِّداتِ[2].

سِرُّ إظهارِ ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾:

كَونُهم حَزْبَ اللهِ سببُ فَلاحِهِم وتشريفِهِم

إظهارُ ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ وتكرارُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (ألا إنَّهم هم المفلحونَ) لزيادةِ تشريفِهم بالإضافةِ إلى المَلِكِ الأعلى سبحانَهُ[3]، وللإشارةِ إلى أنَّ كونَهم حزبَ اللّهِ هو سببُ فلاحِهم[4]، ولتكونَ الجملةُ صالحةً للتَّمثُّلِ بها، مُستقِلَّةً بدَلالتِها.

بلاغةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في جُملةِ الفاصِلة:

فَضْلُ اللهِ على المؤمنِينَ حَرِيٌّ بالتَّنويهِ والاهتِمامِ بِهِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بأداةِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾ وبـ﴿إِنَّ﴾ وباسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ مضمونِهِ، وتنبيهِ المسلمينَ إلى فضلِهم، وتنبيهِ مَن يَسمَعُ ذلكَ مِنَ المنافقينَ على ما حَبا اللّهُ بهِ المسلمينَ مِنَ الخيرِ، لعلَّ المنافقينَ يَغبِطونَهم فيُخلِصوا الإسلامَ[5].

بلاغةُ القَصْرِ في جُملةِ الفاصِلة:

المؤمنونَ ظافِرونَ بالفَلاحِ وحْدَهُم

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قصرٌ مُستفادٌ مِنْ تعريفِ الطَّرفينِ وضميرِ الفصلِ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغةِ في فَلاحِهم، والإشارةِ إلى أنَّهم الكاملونَ في الفلاحِ، الَّذينَ صارَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 224، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 230.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 400 - 401.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 518.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 61.

فلاحُهم هو الفردَ الكاملَ، حتَّى كأنَّ فلاحَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى فلاحِهم كلا فلاحٍ[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

فَلاحُ المؤمنينَ هو الفَلاحُ الكامِل

تعريفُ المفلحينَ في قولِه ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للجنسِ المُنصرِفِ إلى الفردِ الكاملِ[2] مُبالَغةً، كما يَقتَضيه مَقامُ القصرِ المذكور. و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هم "الَّذين حازوا الظَّفَرَ بكلِّ ما يُؤَمِّلون في الدّارَينِ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

رُسوخُ المؤمنينَ في الفَلاح

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ المؤمنينَ في هذا الوصفِ؛ لأنَّهم ظَفِروا بخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ.

بلاغةُ المُقابَلةِ بينَ حِزْبِ الشَّيطانِ وحِزْبِ اللهِ:

شتّانَ بينَ المؤمنينَ والمنافقينَ

بينَ قولِه تعالى هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقولِه فيما سبَقَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة: 19] مُقابَلةٌ، بذكرِ عاقبةِ المُنافقينَ وبيانِ أنَّهم حزبُ الشَّيطانِ، وذكرِ عاقبةِ المؤمنينَ وبيانِ أنَّهم حزبُ اللهِ، والغرضُ مِنْ ذلكَ تأكيدُ النَّهيِ عن موالاةِ أعداءِ اللهِ[4]، والحثُّ على تَرْكِ صفِّهم والانضمامِ لصفِّ المؤمنينَ، بإظهارِ حُسْنِ عاقبةِ المؤمنينَ وقُبْحِ عاقبةِ المنافقينَ.

بَراعَةُ مُناسَبةِ آخِرِ السّورةِ لأوَّلِها:

وخصَّ اللهُ تعالى المؤمنين بصفةِ الفَلاحِ، وجَعَلَهم مِن حزبِه؛ لأنَّ له العزَّةَ والقوَّةَ والعلمَ والحكمةَ، فلذلك عَلِمَ أمرَ المُجادِلةِ ورَحِمَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 231.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 231.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 401.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 497.

حِزْبُ اللهِ همُ المُنقادون لأوامرِه، وحِزْبُ الشَّيطانِ همُ المُتعَدّون لحُدودِه المُعاوِدون أحوالَ الجاهليَّة

شَكْواها؛ لأنَّها مِن حزبِه، وسَمِعَ لها، ومَن سَمِعَ اللهُ تعالى له فهو مَرْضيٌّ عنه، وحَرَّمَ الظِّهارَ بسببِ شَكْواها إكرامًا لها بحِكمتِه؛ لأنَّ الظِّهارَ مُنابِذٌ للحِكمةِ، وفيه امتِهانٌ للأُمِّ - الَّتي لها في دينِه غايةُ الإكرام - بالتَّسويةِ بالزَّوجةِ الَّتي هي مَحَلُّ الافتِراشِ، وخَتَمَ آيَها بأنَّ مَنْ تَعَدّى حدودَهُ فعاوَدَ أحوالَ الجاهليَّةِ فهو مُجادِلُهُ سبحانه؛ فهو مِن حزبِ الشَّيطانِ، فقد عادَ آخِرُها إلى أوَّلِها بأدَلِّ دليلٍ، على أحسنِ سبيلٍ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوُدُّ والحُبّ:

لا حِكمةَ في موادَّةِ أعداءِ الله

الحبُّ يكونُ فيما يوجِبُهُ مَيْلُ الطِّباعِ والحِكمةُ جميعًا، والوُدُّ: مَيْلُ الطِّباعِ فقط، تقولُ: أُحِبُّ فلانًا وأَوَدُّهُ، وتقولُ: أُحِبُّ الصَّلاةَ، ولا تقولُ: أَوَدُّ الصَّلاةَ[2]. والوُدُّ: هو الحُبُّ المَشوبُ بالتَّمنّي[3]. وقد عُبِّرَ بالوُدِّ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ موادَّتَهم لأعداءِ اللهِ ورسولِه أمرٌ أقدَموا عليهِ بموجَبِ الطِّباعِ، ولا تَقتَضيهِ الحكمةُ، بل هو غايةُ السَّفَهِ.

القُلوبُ والأفئِدة:

ثَباتُ إيمانِ المؤمنين

الفُؤادُ أليَنُ مِنَ القلبِ، ولذلكَ يكونُ مَحَلًّا للعواطفِ ولِما خفَّ شأنُهُ، ويكونُ القلبُ مَحَلًّا لِما عَظُمَ شأنُهُ مِنَ العَزْمِ والتَّمكُّنِ والاعتقادِ[4]. ولذلكَ عُبِّرَ بهِ هنا؛ لأنَّ الإيمانَ الَّذي كتبَهُ اللهُ ﷻ في قلوبِهم فيهِ عَزْمٌ وتمكُّنٌ وثَباتٌ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 401.
(2) العسكري، الفروق، ص: 122.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 458.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 665 - 675.

سُورَةُ الحَشْرِ

سُورَةُ الحَشْرِ

❁ التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّيّ والمدنيّ وعدُّ الآي:

سورة الحشر مدنيَّة بإجماع المفسِّرين، وقد نصَّ على ذلك ابن عطيَّة[1]، والسُّيوطيُّ[2]، ولم يخالف أحدٌ من المفسّرين في ذلك، وأمّا عدد آياتها؛ فهي أربع وعشرون باتّفاق أهل العَدّ[3].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

توسّطت الحشر في نزولِها بين آل عمران والجمعة

هي السّورة التّاسعة والخمسون في التّرتيب المصحفيِّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي المجادلة والممتحنة، "والمرجّح أنّها نزلت دفعة واحدة، أو متتابعة حسب ما جاءت في المصحف"[4].

وَأمّا ترتيبها النّزوليّ؛ فقد اختلفوا فيه، فقيل: هيَ السّورَةُ الخامسة والتّسعون في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ آل عمران وقَبْلَ سورَةِ الجمعة[5]، وقيل: هي الثّامنة والتّسعون، نزلت بعد سورة البيّنة وقبل سورة النّصر[6].

فضائل السّورة:

من قرأ آخر ثلاث آيات من سورة الحشر، فموكّل بملائكةٍ تَحْميهِ؛ إنْ داوم عليها

هذه السّورة الكريمة من طوال المفصّل الّذي قال فيه الحبيب ﷺ، فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 283.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 243.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 7/ 302.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 7/ 302.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 63.

المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1]، وهي من السّور المسبّحات الّتي ورد في فضلها على وجه العموم ما أخرجه التّرمذيُّ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أبي بِلالٍ، عَنْ عِرْباضِ بْنِ سارِيَةَ، أنَّهُ حَدَّثَهُ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقْرَأُ المُسَبِّحاتِ قَبْلَ أنْ يَرْقُدَ، ويَقولُ: إنَّ فيهِنَّ آيَةً خَيْرٌ مِنْ ألْفِ آيَةٍ»، ثمّ عقّب عليه التّرمذيُّ بقوله: هَذا حَديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ[2].

وقد ورد في فضلها على وجه الخصوص ما رواه معقلُ بنُ يَسارٍ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «مَنْ قالَ حينَ يُصْبِحُ ثَلاثَ مَرّاتٍ: أعوذُ بِاللّهِ السَّميعِ العَليمِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ وقَرَأَ ثَلاثَ آياتٍ مِنْ آخِرِ سورَةِ الحَشْرِ، وكَّلَ اللّهُ بِهِ سَبْعينَ ألْفَ مَلَكٍ يُصَلّونَ عليه حَتَّى يُمْسيَ، وإنْ ماتَ في ذَلِكَ اليَوْمِ؛ ماتَ شَهيدًا، ومَنْ قالَها حينَ يُمْسي؛ كانَ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ»، وقال التّرمذيُّ عن هذا الحديث: هَذا حَديثٌ غَريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلّا مِنْ هَذا الوَجْهِ[3].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

وردت تسمية السّورة بسورةِ (الحشر) عند البخاريّ[4] والتّرمذيّ[5]، وبه جاءت تسميتها في جميع المصاحف وكتب التّفسير.

وقد ذكروا أنّ تسميتها بهذا الاسم لوروده فيها، يقول ابن عاشور: "فأمّا وجهُ تسميَتِها (الحَشْرَ)؛ فَلِوُقوعِ لفظ الحَشْرِ فيها، ولِكَوْنِها ذُكِرَ فيها حَشْرُ بَني النَّضيرِ مِن ديارِهِم، أي: مِنْ قَرْيَتِهِمُ" المُسَمّاةِ الزُّهْرَةِ قَريبًا مِنَ المَدينَةِ، فَخَرَجوا إلَى بِلادِ الشّامِ إلَى أريحا وأذْرُعاتٍ، وبَعضُ بُيوتِهِم خَرَجوا إلَى خَيبَر، وبعضُ بُيوتهم خرجوا إلى الحيوة"[6].

وجاءت تسميتها أيضًا بسورة (النضير)، فقد ورد في صحيح البخاريّ عَن سَعيد بن جُبَيرٍ، قالَ: قُلْتُ لابنِ عَبّاسٍ: سورة الحشر، قال: "قل سورة النّضير"[7]، ونقل ابن حجر عن الدّاوديّ كأنَّ ابن عبّاسٍ كَرِه تَسميَتَها سورَةَ الحَشرِ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ المُرادَ بِالحَشرِ يومَ القيامَةِ[8].

---

(1) أخرجه أحمد في المسند برقم: (16982)، والطّبراني في المعجم: 22/ 76، برقم: (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2415)، (352).

(2) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، أبواب فضائل القرآن، باب، حديث رقم: (2921).

(3) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، حديث رقم: (2922).

(4) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة الحشر: 4/ 1852.

(5) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، بابٌ وَمِنْ سُورَةِ الحشر: 5/ 408.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 63.

(7) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حديث رقم: (4883).

(8) ابن حجر، فتح الباري: 7/ 332.

سورةُ الحشر اشتهرت بهذا الاسم وباسم (سورة بني النَّضير)

ولا شكَّ أنّ تسميتها بسورة بني النّضير؛ لأنّ السّورة فصّلت قصّتهم.

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين أسمائها ومقصودها خير ربطٍ، فقال: "ومقصودها: بيان ما دلَّ عليه آخر المجادلة من التَّنزُّه عن شوائب النَّقص، بإثبات القدرة الشّاملة؛ لأنَّه ﷻ قويٌّ عزيزٌ، المستلزمة للعلم التّام، المستلزم للحكمة البالغة، المستلزمة للحشر، المظهر لفلاح المفلح، وخسارة الخاسر، على وجه الثّبات، الكاشف أتمَّ كشف لجميع صفات الكمال.

وأدلُّ ما فيها على ذلك: تأمُّل قصة بني النّضير، المعلم بأوّل الحشر، المؤذن بالحشر الحقيقيّ، بالقدرة على الحشر الأوّل، بعد إطباق الوليّ والعدوّ على ظنّ أنّه لا يكون؛ فلذا سمّيت بالحشر، وببني النّضير؛ لأنّه سبحانه حشرهم بقدرته من المدينة الشّريفة إلى خيبر، ثمّ حشرهم - وغيرهم من اليهود - الحشر الثّاني من خيبر إلى الشّام الّذي هو آية الحشر الأعظم إلى أرض المحشر؛ لقهر هذا النّبيّ الكريم أهل الكتاب المدّعين؛ لأنّهم أفضل النّاس، وأنّهم مؤيّدون بما لهم من الدّين القويم، فثبت بظهور دينه على كلّ دين - على حدٍّ سواء، كما وعده به ربّه سبحانه"[1].

والحقّ أنّ ما قاله هذا العالم الألمعيّ له وجاهته، فمحور هذه السّورة مرتبطٌ بأسمائها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ محورها يقوم على تقرير أنَّ الله تعالى هو النّاصر الحقيقيّ للمؤمنين إن هم أخذوا بعوامل النّصر ومقوّماته، فكانت تسميتها بالحشر أو ببني النّضير إشارة إلى نصرة الله تعالى المطلقة للمؤمنين على قومٍ ظنّوا أنّ حصونهم وقوّتهم مانعتهم من الله، فأتتهم الهزيمة من حيث ظنّوا، وأورث الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم للمؤمنين.

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 72 - 73.

المحور العامّ للسّورة:

إذا كان المحور العامُّ الّذي نظم آيات سورة المجادلة يقوم على بيان أنَّ التَّمكين والغلبة لا يقوم إلّا على تحقيق المفاصلة بين الحقِّ والباطل، وأن يكون الولاءُ والبراء للّه وفي اللّه، ولا يتحقَّق ذلك كلُّه إلّا باتّباع منهج اللّه، فإنَّ محور سورة الحشر إنّما جاء متمِّمًا لهذا المحور؛ لأنَّها قامت على تقرير حقيقة أنّ اللّه تعالى هو النّاصر الحقيقيّ للمؤمنين؛ إن تحقَّقت بهم أسباب النّصر ومقوّماته، ولا أدلَّ على ذلك من هزيمة بني النَّضير، الّذين ظنّوا أنَّ حصونهم وقواهم تحميهم من بأس اللّه تعالى.

وقد ظهر هذا المحور جليًّا واضحًا في أكثر من موضع بالسورة، وهي كما يأتي:

أولًا: اقتضاها هذا المحور أن تبيِّن للمؤمنين صفاته ﷻ، الَّتي إن هم آمنوا بها وبآثارها تحقَّق لهم النّصر، فاقتضاها الأمر أن تُكثر من ذكر أسماء اللّه الحسنى، وأن تُذيَّل الآية الأولى والأخيرة منها بصفتي العزَّة والحكمة؛ إذ عليهما يدور أمر السّورة ومحورها، فقد اقتضتْ حكمته تعالى إجلاء بني النَّضير، وكشْفَ خذلان المنافقين، واقتضت عزّته نصرة المؤمنين وتمكينهم من فيء بني النّضير، ومن قهر حصونهم وعتادهم.

ثانيًا: واقتضاها الأمر أن تبيّن لهم بعض عوامل النّصر، وذلك بأن توصيهم بطاعة رسوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، وأن تأمرهم بالتَّقوى أكثر من مرّة؛ لأنَّها العامل الأساس لتحقيق النّصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

ثالثًا: واقتضاها الأمر أن تعرض الأنموذج الأعظم الّذي قام عليه جسم السّورة في عرض قصّة بني النّضير وإجلائهم وفضح مواقف المنافقين، وكلّ ذلك لإبراز قدرة اللّه تعالى على هذا الأنموذج البشريّ الّذي يعتقد دائمًا أنَّ القوَّة والغلبة هي حكرٌ على من ملك أسباب القوى المادّيَّة دون غيرها، فقال فيهم: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

رابعًا: واقتضاها هذا المحور أن تبيِّن لهم أنَّ العامل الأساس في تحقيق النّصر بعد

تأييدُ الله تعالى للمؤمنين وتحقيق نصرتهم

الإيمان باللّه وتقواه، وطاعة رسوله إنَّما يكمن في تحقيق التَّكافل والتّعاون بين أفراد المجتمع المسلم.

خامسًا: واقتضاها هذا المحور من أن تحذِّرهم من إطاعة الشّيطان؛ لأنَّه المعوّق الأساس من معوّقات النَّصر: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

سادسًا: واقتضاها هذا المحور أخيرًا من أن تعقد الموازنة بين حالي المتَّبعين لمنهج اللّه، والخارجين عنه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

موضوعات السّورة وخصائصها:

تأييد الله ونصرته للمؤمنين

أغراض هذه السّورة وموضوعاتها تتحدَّد في الأمورِ الآتية:

أولًا: سورَةُ الحشرِ نَزَلَتْ في شَأنِ حُكْمِ أمْوالِ بَني النَّضيرِ بَعْدَ الانتِصارِ عَلَيهِم.

ثانيًا: اشتَمَلَت السورةُ على أنَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرض دالٌّ عَلى تَنزيه اللّه، وكَون ما في السَّماوات والأرض مُلكه، وأنَّه الغالِب المُدبِّر.

ثالثًا: ذِكْرُ نِعْمَةِ اللّهِ على ما يَسَّرَ مِن إجْلاءِ بَني النَّضيرِ مَعَ ما كانوا عَلَيهِ مِنَ المَنَعَةِ والحُصونِ والعُدَّة، وتِلْكَ آيَةٌ من آيات تأْييد رَسول اللّه ﷺ وغَلَبَتِه على أعدائِه.

رابعًا: ذِكْرُ ما أجراهُ المُسلِمونَ مِن إتلافِ أموالِ بَني النَّضيرِ وأحْكامِ ذَلِكَ في أموالِهِم وتَعْيينِ مُسْتَحِقّيهِ مِنَ المُسْلِمينَ.

خامسًا: بَيانُ عَظَمَةِ القُرْآنِ وجَلالَتِه واقتِضائِه خُشوعَ أهْلِه.

سادسًا: خُتِمَت السّورةُ بِصِفاتٍ عَظيمَةٍ مِنَ الصِّفاتِ الإلَهيَّةِ،

وأنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرضِ؛ تَزْكِيَةً لِحالِ المُؤْمنينَ وتعريضًا بالكافرين[1].

الخصائص الموضوعيَّة للسورة:

تميَّزت سورة الحشر بموضوعات أفردتها عن غيرها من السّور

أولًا: حظيت السّورة الكريمة دون أخواتها من المسبِّحات، بأكبر عدد من أسماء الله الحسنى، فقد ذُيِّلت عشر آيات منها بأسماء الله الحسنى[2]، والآيات الثّلاثة الأخيرة جمعت نحو ستة عشر اسمًا من أسمائه ﷻ، فاختصَّت بهذا القدر المبارك من الأسماء.

ثانيًا: تناولت السّورة الكريمة موضوعَ غزوة بني النَّضير دون غيرها من السّور، وتناولت حديثًا عن المنافقين ومواقفهم في هذه الغزوة ممّا لم يأتِ في سورة أخرى، وكذلك تميَّزت بحديثها عن تصدُّع الجبال في حال إنزال القرآن عليها.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بتعانق مطلعها وخاتمتها، فقد ابتدأت بالتَّسبيح وبوصفي العزَّة والحكمة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وخُتِمت بما بُدِئت به: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

الخصائص الأسلوبيَّة للسورة:

الخصائص الأسلوبية المميِّزة لسورة الحشر

أوّلًا: حوت السّورة الكريمة حقولًا دلاليَّة لم تأتِ في غيرها من السّور، فقد ذكرت الإخراج والجلاء والحشر، وبينها تقارب دلاليّ، وذكرت الحصون، والحشر، وجدر، وجبل، والحصون من الأمكنة.

ثانيًا: حوت السّورة قاموسًا للألفاظ الدّالّة على الأحوال، وعلى المشاعر الإنسانيّة المختلفة مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 63 - 64.

(2) الآيات: 1، 4، 6، 7، 10، 16، 18، 22، 23، 24.

يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾.

ثالثًا: انفردت السّورة الكريمة بأنماط تركيبيَّة لم ترد في غيرها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، من مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

رابعًا: حوت السّورة أبنية صرفيَّة لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾، و﴿حُصُونُهُم﴾، و﴿يُخْرِبُونَ﴾، و﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾، و﴿ٱلْجَلَآءَ﴾، و﴿لِّينَةٍ﴾، و﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، و﴿رِكَابٍ﴾، و﴿دُولَةً﴾، و﴿خَصَاصَةٌ﴾، و﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾، و﴿جُدُرٍ﴾، و﴿رَهْبَةً﴾، و﴿مُّتَصَدِّعًا﴾، و﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

الارتباط الموضوعي والأسلوبي بين الحشر والمجادلة

مناسبة السورة لما قبلها:

تظهر العلاقة بين سورة الحشر وسورة المجادلة قبلها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: لمّا خُتِمت المجادلة بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21]؛ فإنَّ سورة الحشر بيَّنت مظهرًا من مظاهر هذه الغلبة والنُّصرة على بني النّضير.

ثانيًا: كلتا السّورتَيْن قد تناولتا حال المحادّين والمشاقّين، من المنافقين والكافرين.

ثالثًا: ارتبطت السّورتان ربطًا عجيبًا في تناولهما لموضوع المنافقين، فقد أكَّدت سورة الحشر أوصافهم الّتي تقدّمت، ودلّلت عليها تدليلًا عمليًّا.

رابعًا: شاركت سورة الحشر سورتي المجادلة والحديد في الحديث عن الإنفاق والصّدقات.

خامسًا: شاركت سورة الحشر أختها المجادلة في تناولها لأسماء اللّه الحسنى، وفي الأمر بتقوى اللّه وفي الحديث عن الشّيطان وإنسائه للمؤمنين(1).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 115.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: 1 - 2]

مُناسَبَةُ مَطْلَعِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من وعدِ المؤمنين بالفلاح إلى تعليل ذلك ببيان الصِّفات الحسنى

لمّا خُتِمت سورةُ المجادلة بأنَّ اللّه معزٌّ أهلَ طاعتِه، ومذلٌّ أهلَ معصيتِه ومحادّته؛ ناسب أن يبدأ هذه السّورة بتنزيهه ﷻ عن النّقائص؛ تأييدًا للوعد بنصرهم[1]، فإنَّ اللّه ناصرٌ المؤمنين بإيمانِهم وعملهم لدينه، كما أنَّه لمّا ذكر حالَ المنافقين واليهود وتولّي بعضِهم بعضًا؛ ذَكر بعده ما حلَّ باليهود من غضب اللّه تعالى عليهم وإجلائه لهم، وإمكان رسوله ﷺ ممن حادَّ اللّه ورسوله، ورام الغدر بالرَّسول ﵇، وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش[2]، ذلك أنَّه لمّا قال في خاتمة المجادلة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21]؛ ناسب أن يبيّن ذلك، ويؤكّده في مطلع الحشر، فقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخْرَجَ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيْءِ، يقال: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا: برز من مقرِّه أو حاله، سواء أكان مقرُّه دارًا، أم بلدًا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 403.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 137.
(3) مجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 10/ 1346.

أم ثوبًا، وسواء أكان حاله حالة في نفسه، أم في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، والإخراجُ: أكثر ما يقال في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35][1].

2) ﴿ٱلۡحَشۡرِۚ﴾: (حشر) معناه: الجَمْعُ مَعَ السَّوْقِ، وهو: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوها، ويقال في الإنسان وغيره، ومنه: حَشَرَتِ السنة مالَ بني فلان، أي: أزالته عنهم، ولا يُقال الحشر إلّا في الجماعة، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]، وقال: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ [ص: 19]، وقال: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾[2].

3) ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾: (منع) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ خِلافُ الإِعْطاءِ، يقال: مَنَعْتُهُ الشَّيْءَ مَنْعًا، والمَنْعُ: أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُهُ، وهوَ خلافُ الإِعْطاءِ، ويُقالُ: هوَ: تحجيرُ الشَّيْءِ، ويقال في الحماية، ومنه: فلان ذو مَنَعَة، أي: عزيز ممتنع على مَنْ يرومُه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء: 141][3].

4) ﴿حُصُونُهُم﴾: (حصن) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ: الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعْروفٌ، والجَمْعُ حُصونٌ، قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾ [الحشر: 14]، أي: مجعولة بالإحكام كالحصون، وقال: ﴿مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4]، وهي الأبنية الَّتي يتَّخذها النّاس؛ لمنع العدوانِ من الخارج بالجدُر العالية، والبناء الشَّديد المتماسك.

5) ﴿وَقَذَفَ﴾: (قذف) يَدُلُّ على الرَّمْيِ والطَّرْحِ، يُقالُ: قَذَفَ الشَّيْءَ يَقْذِفُهُ قَذْفًا؛ إذا رَمَى بِهِ بعيدًا، ولاعتبار البُعد فيه قيل: منزل قَذَفٌ وقذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، قال تعالى: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39]، أي: اطرحيه فيه، وقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: 26][5]، أي: ألقى.

6) ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾: (رعب) يدلُّ على امتلاءٍ وخَوْفٍ وانقِطاعٍ، يقال: رَعَبْتُهُ رَعْبًا، والاسْمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (منع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (حصن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (قذف).

الرُّعْبُ، وفاعِلُهُ راعِبٌ ورَعّابٌ، ورَعَبَ الحَوْضَ يَرْعَبُه رَعْباً: مَلأَه. ورَعَبَ السَّيْلُ الوادِيَ يَرْعَبُه: مَلأَه، وهُو مِنْهُ. وسَيْلٌ راعِبٌ: يَمْلأُ الوادِيَ؛ وسَنامٌ رَعِيبٌ أَي مُمْتَلِئٌ سَمينٌ[1]، ويُقال للشّيءِ المُقَطَّعِ: مُرَعَّبٌ. ويُقال للقِطعَةِ من السَّنَامِ: رُعْبُوبَةٌ[2]، ومعناه في الآية: الانقطاع من امتلاء الخوف[3].

7) ﴿يُخْرِبُونَ﴾: (خرب) يَدُلُّ على التَّثَلُّمِ والتَّثَقُّبِ، فالخُرْبَةُ: الثُّقْبَةُ، ومنه يُؤخذ معنى الخَراب، يقال: خَرِبَ المكانُ خَرابًا فهُو خَرِبٌ، وهو ضدُّ العمارة، والتخريب: نقضُ البناء وهَدْمُه[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

من مظاهر عِزَّة الله للمؤمنين وحكمته في معاملة أعدائهم قلعهم من الأرض الطّاهرة

افتُتِحت سورةُ الحشر بالثَّناء على الله تعالى وتنزيهِهِ عن كلِّ ما لا يليق بذاته الجليلة، فأخبرت الآيةُ الأولى أنَّ جميع ما في السَّماوات وجميع ما في الأرض من كائنات ومخلوقات قد سبَّح الله تعالى ونزَّهه عن كل ما لا يليق به، وكيف لا يكون ذلك وهو العزيزُ الجناب الحكيمُ الفعّال؟ وبيَّنت الآيةُ الثّانيةُ أنَّ من مظاهر قدرته وحكمته إجلاءه الّذين كفروا من أهل الكتاب - وهم يهود بني النّضير - عن المدينة؛ لأنَّهم عادوا الرَّسول والمؤمنين، ونقضوا العهود الَّتي أبرموها معهم؛ أخرجهم الله تعالى منها على الرَّغم من كثرة عَددهم، ووفرة عددهم، وقُرب بني قريظة وأهل خيبر منهم، وعَرْضِ المنافقين مساعدتَهم، وهو ما جعل المسلمين يظنّون أنَّهم لن يخرجوا، في الوقت الَّذي اعتقد اليهودُ أنَّ حصونهم ستمنعهم من بأس الله؛ إذا جاءهم، فما أغنى عنهم شيء من ذلك، وجاءهم من الله تعالى ما لم يكن ببالهم؛ إذ قذف في قلوبهم الرُّعب، فطلبوا

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رعب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رعب).
(3) الراغب، المفردات: (رعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خرب).

التَّصالح مع المسلمين على أن يخرجوا من ديارهم، ويأخذوا معهم ما خفَّ حِمْلُه، وغلا ثمنُه، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهو ما يدعو أولي الأبصار إلى التفكُّر والاعتبار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستفتاح بالتَّسبيح:

تسبيح الكون يؤذن بتذكير المؤمنين

افتتاح السّورة بالإخبار عن تسبيح ما في السَّماوات والأرض للّه تعالى فيه تذكيرٌ للمؤمنين بتسبيحهم للّه تسبيحَ شكرٍ على ما أنالهم من فتح بلاد بني النَّضير، فكأنَّه قال: سبِّحوا اللّه، كما سبَّح له ما في السّماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بأولئك الّذين نزلت السّورةُ فيهم، وتلميحٌ إلى أنّهم ما أصيبوا بما أصابهم إلا لتكبُّرهم عن تسبيح اللّه حقَّ تسبيحه، بتصديق رسوله ﷺ؛ إذ أعرضوا عن النَّظر في دلائل رسالتِه، وكابَروا في معرفتها[2].

نكتةُ التَّعبير بالماضي: ﴿سَبَّحَ﴾:

الكون سبَّح لله شكرًا على نصر المؤمنين

أوثر التَّعبير بفعل التَّسبيح ماضيًا، فقيل: ﴿سَبَّحَ﴾؛ لأنَّ المُخبَر عنه تسبيحُ شكرٍ عن نعمة مضت قبل نزول السّورة، وهي: نعمة إخراج بني النّضير من ديارهم[3]، فهو إيماءٌ إلى حدثٍ واقع، لا عن أمر سيَقَعُ، فالتَّعبير بصيغة الماضي يتَّسق مع موضوع السّورة، ويدلُّ التَّسبيح على انسجام الكونِ مع الأحداث الّتي لها علاقةٌ بنصر المؤمنين، والخلاص من الكافرين.

لطيفة تنوُّع صيغ التَّسبيح في القرآن الكريم:

صيغ التَّسبيح متَّسقةٌ مع السّياق الواردة فيه

ورد التَّسبيحُ للّه في القرآن الكريم بالصّيغ الثّلاث الدّالّة على أزمنة الحدث، فجاء بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 283، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 643، 644.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 64.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وجاء بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الجمعة: 1]، وجاء بصيغة الأمر في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: 1]، وورد بصيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، وفي هذا التَّنوُّع نلحظ أنَّ الفعل مرتبط بزمن وبفاعل حتى يكون فعلًا، والمصدر هو الحدث المجرَّد الّذي ليس له زمن ولا فاعل، ما يعني: أنَّ التَّنزيه استغرق الزّمن الماضي (سَبَّحَ)، والحال والمستقبل (يُسَبِّحُ)، والأمر بالتَّسبيح ومداومته (سَبِّحْ) و(سُبْحانَ)، وفي ذلك إيذان بتحقُّقه في جميع الأوقات، وتنبيه على أنَّ حقَّ مَن شأنُه التَّسبيحُ الاختياريُّ أنْ يسبِّح اللّه تعالى في جميع أوقاته، كما عليه الملأ الأعلى؛ إذ يسبِّحون اللَّيل والنّهار لا يفترون[1]، وثمّ دلالة أخرى على أنَّ تنزيه اللّه تعالى وتسبيحه استغرق جميع الأزمنة، وقبل الأزمنة وبعد الأزمنة، واستغرق الخلق وما قبل الخلق وما بعد الخلق[2]، وهذا على مستوى القرآن، أمّا على مستوى سياق السّورة، وسياق الآية؛ فإنَّ الصّيغة ملتئمةٌ مع السّياق الواردة فيه.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

التَّسبيح الحقُّ لا يكون إلّا للإله الحقّ

اللّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للتّبيين، وفائدتُها: زيادة بيان ارتباط المعمول بعامله؛ لأنَّ فعل التَّسبيح مُتَعَدٍّ بنفسه لا يحتاج إلى التَّعدية بحرف[3]، وفيها معنى: اختصاص اللّه بالتَّسبيح والتَّعظيم من كلّ الكائنات الموجودة في السَّماء والأرض اعترافًا بربوبيّته، وإقرارًا بنعمه وعطاياه الّتي لا تُحْصى، ولا تُعَدُّ، ويمكن أن تكون اللّامُ للتَّعليل الدالّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203.
(2) السّامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.

على ضرورة قرن التَّسبيح بالإخلاص، والمعنى: سَبَّحَ للّه مخلِصًا في تسبيحه، وهذا هو الفرق بين (سَبَّحَ اللّهَ) الدّال على حصول التَّسبيح فقط، وبين ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الدّال على حصوله مقرونًا بالإخلاص[1].

غرض تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ على المسند إليه:

الأفعالُ منوطةٌ بمقاصدِها محفوفةٌ بغاياتها

جيء باسم الجلالةِ المسبوق باللّام مُقَدَّمًا على المسند إليه في جملة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾؛ لإفادة قصر ما في السّماوات وما في الأرض تسبيحَهم وعبادتَهم على اللّه تعالى، لا يتجاوزه ذلك إلى أحد آخر، قصرَ صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا، يُذكِّر المُتَلَقّي بألّا يشذَّ عن كونِ اللّهِ الفسيحِ، وألّا يختلفَ كلامُه عن كلام كلِّ المخلوقات الَّتي لا تتوقَّف عن تنزيهِ اللّه تعالى وتعظيمِه، فوقع ﴿لِلَّهِ﴾ ما بين الفعل والفاعل؛ للتَّنبيه على أنَّ الأفعال منوطةٌ بمقاصدها، ومحفوفةٌ بغاياتها.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ مسندًا إليه:

عموم التَّسبيح وشمول الخضوع لله في الكون كلِّه

عبَّر البيانُ عمّا أُسنِد إليه فعلُ التّسبيح باسم الموصول العامّ، فقال: ﴿مَا﴾؛ ليشمل المعنى جميعَ ما في السّماوات من الكواكب والنُّجوم، الّتي عبدها الكفّارُ من بني آدم كالشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب المبثوثة في السّماوات كلِّها، وكذا الملائكة الّتي لا يقتصر وجودُها على سماءٍ بعينها؛ ليعلم المخاطَبون أنَّ كلَّ ما في السَّماوات مِن كائناتٍ ومخلوقاتٍ - أيًّا كانت ومهما كانت - عبيدٌ للّه ﷻ[2].

فائدةُ التَّعبير بحرف الظرفيَّة:

استغراقُ جميعِ المخلوقات الظّاهرة والخفيّة في عبادةِ التّسبيح

كما عبّر البيانُ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بحرف الجرِّ المفيد؛ للظرفيَّة للدَّلالة على أنَّ كلّ الكائنات والمخلوقات الّتي تقع داخل أقطار السّماوات، وتحيط بها إحاطة الظّرف بالمظروف سبحت للّه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203، والسّامرائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 118.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 403، 404.

وتسبِّح له بلا فتور ولا انقطاع، سواءٌ عَلِمَها النّاس، أو لم يعلموها، وسواء أكان تسبيحُها اختيارًا أم اضطرارًا، فالمقصودُ بالظَّرفيَّة هو الشمولُ والاستيعاب، ولمّا كان الغائب الّذي يجهله الإنسان أكثر من المشاهد الّذي يعلمه؛ عبَّر بحرف الظّرفيَّة؛ ليدخل جميعُ المخلوقات.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

السّماواتُ دليلُ العظمةِ والأرض الشّاهد الدّال على الغائب

درج البيانُ في مقام تنزيه اللّه تعالى، وفي كثير من المواضع على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ الجمعَ يتناسب مع التَّنزيه والتَّمجيد، لما يدلُّ عليه من سعة الكون المُسَبِّح وعظمته، ولأسرار أخرى منها: أنَّ السّماوات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التَّفخيم من الواحد، ومنها: أنّ أوامرَ اللّه تعالى إلى الأرض تخترق جميعَ السّماوات السّبع، وهو ما يزيد شرفها وأفضليّتها، ومنها أنّ السّماواتِ طباقٌ، بعضُها فوق بعض[1]، وفي كل طبقة منها ملائكة ومخلوقات وكواكب تسبِّح اللّه تعالى، وتمجِّده، والملحوظ بصفة عامّة أنّ البيان الكريم يجمع السّماوات في كلّ مقام يُراد فيه إبراز جلال اللّه، وعظمة قدرته، وسعة ملكه؛ ليكون في ذلك الإبراز ما يدعو إلى التأمُّل وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الّذي يعيش فيه مَن لا يمدون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم[2]، ولمّا كانت السّماوات كثيرةً، ومعظمها مجهولٌ للإنسان على التَّحقيق؛ عبَّر عنها بالجمعِ؛ لتكون شاهدًا على العظمة، ولمّا كانت الأرض مشاهدةً؛ أفردها، وجعلها شاهدًا على الغائب في العظمة والمكنة والاقتدار.

لطيفة تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

أهل السّماء أسبق وجودًا وأعرق تسبيحًا من أهل الأرض

قَدَّمت الآيةُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما في الأرض)؛ لأنَّ أهل السّماوات أسبقُ وجودًا من أهل الأرض، كما أنَّهم أسبقُ تسبيحًا

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، والنّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 4/ 3.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/ 119.

قبل خلق آدم ﷺ، ولأنَّهم كذلك أكثرُ تسبيحًا، وأكثرُ مداومةً على التَّنزيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: 19 - 20](1)، كما أنَّ السَّماوات - وهي سقف الأرض - لها حقُّ التَّقديم لمكانتها في الخلق، ولمّا كانت طباقًا مجموعًا؛ ناسب كذلك تقديمها، ولذلك كلّه فإنَّ السّماوات أشرفُ بهذه الاعتبارات.

بلاغة العطف بالواو:

تسبيح ما في الأرض فرعٌ تابعٌ لتسبيح ما في السّماء

جاء قولُه: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو الّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ الكون كله بسمائه وأرضه، بما فيه ومَنْ فيه يسبِّح للّه تعالى، وينزِّهه، ويعترف بفضله وألوهيّته، ولو اقتصر البيان على (ما في السّماوات)؛ لسبق إلى الوهم أنَّ التَّسبيح والتَّنزيه لم يصدر من الأرض وما فيها، وأنّه مقصور على السّماء وما بها، وهو ما يخالف الحقيقة والواقع، ويمنح الجاحدين العذر لكفرهم وجحودهم.

توجيه المتشابه اللّفظي بين مطلعي سورة الحشر وسورة الحديد:

مقامُ العموم يقتضي الإجمال ومقام الخصوص يقتضي التَّفصيل

في مطلع سورة الحديد قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 1]، وقال هنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بتكرار (ما في)؛ وذلك لأنَّ فاتحة الحديد تضمَّنت الاستدلال على عظمة اللّه وصفاته وانفراده بخلق السّماوات والأرض، فكان دليلُه مجموعَ ما احتوت عليه السّماوات والأرض من أصناف الموجودات، فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ﴿مَا﴾ [الحديد: 1] الموصولة الّتي صلتها قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 1]، أمّا فاتحة الحشر؛ فقد سيقت للتَّذكير بمنَّة اللّه تعالى على المسلمين في حادثة أرضيَّة، هي خذلان بني النّضير، فناسب فيها أن يَخُصَّ

(1) السّامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 123.

أهلَ الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي (ما) الموصولة الثّانية، الّتي صلتها: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

بلاغة الطّباق الخفيّ:

التَّسبيح دَيْدَن السّماوات والأرض الجامع لما بينهما

في الآية الكريمة نوعٌ من الطّباق يُسمّى الطّباق الخفيّ، لأنَّ التَّضاد فيه ليس بين اللّفظين مباشرةً، لكنّه حاصلٌ بين لازم كل طرف منهما، فالسّماوات تطابق الأرض باعتبار أنّ الأولى تدلُّ على جهة الأعلى والثّانية على جهة الأسفل، وأيًّا كان نوع الطّباق فالجمع بين: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في قرن واحد يدلُّ على أنّ الكون كلّه لا يفتر عن تسبيح اللّه وعبادته وتمجيده، ما يعني: أنّ التّسبيح هو ديدن السّماوات والأرض الّذي لا يتوقّف، ولا ينقطع، وأنَّ الّذي لا يسبح شاذٌّ عن الكون وما فيه.

نكتة إفراد ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

إفراد الأرض في البيان القرآنيّ لبيان وحدة الخلق والمقام

درج البيانُ القرآني على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في كثير من المواضع، درج أيضًا على إفراد ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الأرض وإن كانت سبعًا؛ فليس بعضها فوق بعض، بل بعضُها موالٍ لبعض[2]، وقيل: إنَّ الأرض طبقاتٌ، بين كل منها والأخرى مسافةٌ عظيمةٌ، والنُّكتةُ في إفراد القرآن لها: أنَّ جمعها ثقيل، وهو مخالف للقياس كأرضون، ولذا لما أراد اللّه تعالى ذلك قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]، ولم يجمعها، وربَّ مفردٍ لم يقع في القرآن جمعُه لثقله وخفة المفرد، وجمع لم يقعْ في الذِّكْر مفردُه كالألباب[3]، وفي إفراد الأرض إيماءٌ إلى أنَّ على النّاس أن يعلموا أنَّهم جميعًا أبناء أرض واحدة، لا اختلاف بينهم ولا تمايز إلّا بالأعمال.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 65.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489.

(3) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 2/ 261.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليَّة تدلُّ على أنّ العزّة والحكمة هي حال للّه تعالى لا تتبدّل، ولا تتغيَّر، وأنَّ تسبيح الكون بما فيه ومن فيه وتنزيهه له ما حصل إلّا لكونه عزيزًا، لا يُغلب، حكيمًا لا يَزِلُّ، كما أنَّ تسبيحَ الكون أو عدم تسبيحه، أو امتناع أحدٍ فيه عن التَّسبيح لن يُنقِص من عزَّته، ولن يُؤَثّر في حكمتِه أو ربوبيتِه، فدلَّت جملةُ الحالِ على أنَّ اللّه عزيزٌ عن الاحتياج لتسبيح أحدٍ، حكيم في رعاية المخلوقات، فليس بحاجةٍ لتسبيحهم، ولم يمنحهم الرِّعاية والعناية؛ ليُسبِّحوه، بل ذلك بمقتضى ربوبيّته؛ فدلَّت الجملة على الاحتراس عن توهُّمِ أنَّ اللّه تعالى بحاجةٍ إلى تسبيح خلقه، بل هو العزيز الحكيم.

الاحــتراس عن أوهـام الأفـهام بترسيخ صفات الملك العلّام

نكتة التّعبير بالضّمير:

عبَّرت الجملة الحاليّة عن المسند إليه بالضّمير العائد إلى اسم الجلالة (هوَ)؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الّذي سبق ذكره قريبًا بالضّمير؛ لِما يفيده من تعيين المتحدَّث عنه تعيينًا يحول دون صرف الكلام عنه إلى أحد غيره، والمعنى: إن اللّه الّذي يسبّح له ما في السّماوات وما في الأرض هو العزيز الحكيم.

الـجَـري على الـظّـاهـر هـو الأصلُ في نظم الكلام

بلاغة القصر في الجملة الحاليّة:

في جملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قَصَر النّظمُ صفتي العزّة والحكمة على كونهما ثابتتين للّه تعالى، بعد نفيهما عن أيِّ أحدٍ آخر، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا، بطريق تعريف الطَّرفين، بقصد التَّأكيد على كونه تعالى مستحقًّا للتَّسبيح وفي الوقت نفسه مستغنيًا عنه، لا يضيره تفريطُ أحد فيه أو جحودُ أحد له؛ لأنَّ الخلق هم المحتاجون إليه، وليس العكس.

لا ينتفعُ الله تعالى بتسبيح مسبِّح، ولا يضرُّه جحود جاحد

تنوُّعُ عللِ فصلِ الجملِ عن الجملِ راجعٌ إلى تفسيرِ المعاني وتوجيه المقاصد

سرُّ الفصل:

جاءت جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لكمال الاتصال، الّذي تنزل فيه الجملة المفصولة ممّا قبلها منزلة التّابع من المتبوع؛ إذ من الجائز أن تكون مبيِّنةً لجملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ هذا التَّسخير العظيم والإخراج العجيب من آثار عزَّة اللّه تعالى وحكمته، ويمكن أن تكون مفصولة لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملة الثّانية عن سؤال تثيره الآية السّابقة في أذهان المتلقّين حول علَّة تذكير المؤمنين بالتّسبيح، وسبب التَّعريض بالغافلين عنه، فتجيب عن ذلك الآية التّالية، وتُفصَل عن السّابقة عليها، كما يُفصَل الجواب عن السُّؤال، ويمكن أن تكون الآيةُ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا لقصد إجراء هذا التَّمجيد على اسم الجلالة لما يتضمَّنه من باهر تقديره، ولِما يؤذن به ذلك من التَّعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

وعلى كل الوجوه فهو تذكيرٌ بنعمة اللّه على المسلمين، وإيماءٌ إلى أن يشكروا اللّه على ذلك، وتمهيدٌ للمقصود من السّورة، وهو قسمة أموال بني النَّضير[1].

تأكيد ما في إبعاد بني النَّضير عن المدينة من حكمةٍ باهرةٍ

بلاغةُ تَكرار ذكر ضمير الفَصْل:

أعاد البيانُ ذكر الضّمير العائد إلى اسم الجلالة العَلَم، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلم يقل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليكون الاسم الموصول وصفًا، وذلك لتأكيد استحقاقه تعالى التّسبيح والتّمجيد على عظيم نِعَمِه بصفة عامّة، ونعمة إخراج اليهود بصفة خاصّة، ولتأكيد اتِّصافه بالعزَّة والحكمة، بناء على كمال ظهور اتِّصافه بهما، مع مساعدة تامَّة من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 65.

المقام، كأنّه قيل: ذلك المنعوت بالعزّة والحكمة هو الّذي أخرج، ففيه إشعار بأنَّ في الإخراج حكمةً باهرةً(1).

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾؛ لتفخيم شأن المسند إليه - ضمير الفصل - وتعظيم أمره، وليتوصَّل بجملة الصِّلة إلى برهان كونه عزيزًا حكيمًا مستحِقًّا للتَّسبيح والشُّكر والتَّمجيد.

نكتةُ تعريف ركني جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾:

إخراجُ يهود بني النَّضير فعلُ الله وحـدَه وعمل المؤمنين أخذٌ بالسّنن

تعريف ركني جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ بالضّمير والاسم الموصول يفيد قصرَ صفة إخراج الّذين كفروا من ديارهم على اللّه تعالى، قصرًا ادعائيًّا لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج ومعالجتهم بعض أسبابه، كتخريب ديار بني النّضير وغيره، ما يعني أنّ "السّبب الحقيقيّ في إخراجهم من ديارهم، هو ما قذفه اللّهُ في قلوبهم من الرّعب، أما محاصرة المؤمنين لهم؛ فهي أسباب فرعيّة، قد تؤدّي إلى إخراجهم، وقد لا تؤدّي، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ كلَّ شيء إنّما هو بقضاء اللّه وقدره"(2)، كما أنَّ القصرَ يُعطي تشريعًا في إخراج اليهود من جزيرة العرب، فالّذي أخرجهم اللّه تعالى وحده، فعلًا وإرادةً، وإرادته ﷻ نافذةٌ، فليس لأحدٍ أن ينازع اللّه في إرادته، أو أن يعترض على أمرِه سبحانه، وهو قصرٌ يستدعي مزيدًا من شكر اللّه والثّناء عليه، ويدعو لالتزام أمره في قسمة غنائم هذه المعركة، الّتي تَوَلَّى سبحانه فيها إخراجَ اليهود بنفسه من غير حرب ولا قتال.

وجه التَّعبير بفعل الإخراج ماضيًا مسندًا إلى الضّمير:

إخــراج بني النّضير قلعٌ للجذورِ وتطهيرٌ من الوجود

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الإخراج، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ﴾ دون (أجْلَى) أو (أذْهَبَ)، ونحو ذلك مما يفيد هذا المعنى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 225.

(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 283، 284.

لما يدلُّ عليه الإخراج - بمعناه وجرسه - من صعوبة الحدث وشدَّته، وأنّه ما كان ليحدث؛ لولا حكمة اللّه تعالى وقدرته، الّتي تمثّلت في أن أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرّعب، تلك الصعوبة لا يصوّرها فعل آخر غير ﴿أَخۡرَجَ﴾، وجيء به ماضيًا مسندًا إلى ضمير اسم الجلالة العَلَم؛ للإشارة إلى عظمة الإخراج، وأنّه كان على وجهٍ بالغ في القهر والإذلال[1]، ومقتضى مفردة الإخراج الإيماء إلى خلع جذورِ اليهود من جزيرة العرب، فالإخراج يدلُّ على إخراج شيءٍ من باطن، فإخراج بني النّضير كان بعد تمكّنهم، ومدِّ جذورِهم، وهذا لا يكون إلّا بإرادة اللّه تعالى، وهو ما يُقَوّي القصرَ المُعَبَّر به في أول الآية.

نكتةُ التّعبير عن المفعول بالاسم الموصول:

الإيماء إلى عللِ الأفعال وأنَّ الكفرَ هو الباعث على الغدر والخيانة

التَّعبير عن مفعول الإخراج بالاسم الموصول بالفعل الماضي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، دون (اليهود) تشنيع بفعلهم، وتقبيح لصنيعهم، وتسجيل لاتِّصافهم بهذا الوصف الذّميم؛ للإيماء إلى أن تغلغل الكفر في نفوسهم هو الباعث الرَّئيس على خيانتهم وغدرهم، وعدم التزامهم بالعهود الّتي قطعوها مع المسلمين على أنفسهم، فهو تعليل لأفعالهم الشّنيعة، ولبيان سبب الإخراج.

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانيَّة بأنَّ الكفّار الّذين أخرجهم اللّه تعالى من أهل الكتاب، فالمعنى محصور في اليهود، وليس مُحْتَمِلًا لغيرهم[2].

فائدة إيثار التّعبير بتركيب ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بتركيب ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لزيادة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 67.

عـقـوبـةُ أهـل الـكـتـاب وتوبيخهم ليس كعقوبةِ الجهلة مـن الـوثـنـيّين عند الاستواء في العدوان

تقبيح صنيع اليهود وتوبيخهم، وتأكيد استحقاقهم الإخراج من مدينة رسول اللّه؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ المأمول فيهم أن يعملوا بالكتاب الّذي أنزل إليهم، ويلتزموا بتعاليمه الّتي دعتهم إلى الإيمان برسول اللّه ومؤازرته ونصرته، لكن الحاصل أنَّهم خالفوا كتابهم، واتَّبعوا أهواءهم، ونطقت أفعالهم ببالغ حقدهم، ما ترتّب عليه إخراجُهم، "فوصفهم بالكفر، وبأنَّهم من أهل الكتاب لبيان أنّهم جمعوا بين رذيلتين: رذيلة الكفر بالحقِّ، ورذيلة عدم العمل بكتابهم الّذي أمَر باتّباع الرّسول ﷺ الّذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل، والّذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر"[1]. ولو قيل: (هو الّذي أخرج الّذين كفروا من ديارهم)؛ لانصرف الذّهن إلى كفّار مكّة وأمثالهم في المدينة، ولو قيل: (هو الّذي أخرج أهل الكتاب من ديارهم)؛ لما فُهم أنّهم كفروا بما أُنزل إليهم، وخالفوا كتابهم، واتّبعوا أهواءهم، وأنَّ إخراجَهم كان بلا سبب واضح، وهو ما يخالف الحقيقة والواقع، وينافي العزّة والحكمة الّتي وصَفَ بهما ربُّنا نفسَه في مطلع السّورة.

معنى التَّركيب الإضافيّ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

مـصـطـلـح (أهـل الـكـتـاب) جـرى مـجـرى الأعلام للتَّمييز والتَّعريف

عبَّر البيان عن اليهود بلفظ ﴿أَهۡلِ﴾ الموضوع للأقارب الأدْنَيْن من جهة النَّسب ومن جهة الاختصاص[2]، مع إضافته إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المراد به التّوراة الَّتي أنزلها اللّهُ تعالى لهم على نبيِّهم موسى عليه السلام، لا باعتبار استحقاقهم أن يكونوا أهلَ كتابٍ، فليست الإضافة بمعنى لام الاختصاص، وإنَّما هو من باب التّركيب الإضافيّ الّذي أصبح عَلَمًا شائعًا، فتُنوسي المعنى التَّركيبيُّ، وأخذ المعنى العَلَميّ المقتضي للتّعريف والبيان، فإذا أُطلقَ أهل الكتاب؛ فهم المرادون.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 284.
(2) الرّاغب، مفردات اللّغة: (آل)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 281.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

قولُه تعالى: ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلّق بفعل الإخراج، و﴿مِن﴾ فيه ابتدائيَّة[1]، وهي تؤكّد شدَّة الإخراج على أنفسهم وصعوبته على قلوبهم؛ لأنَّ حبَّ الدّيار وارتباطَهم بها جعل الإخراج منها كأنَّه نوعٌ من الانتزاع، "فلمّا كان الوطنُ عديلَ الرّوح؛ لأنَّه للبدن كالبدن للرّوح، كان الخروجُ منه في غاية العسر، دلَّ على مزيد قهرهم به بأن قال: ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾"[2]، وهو ما يتَّسق مع مفردةِ الإخراجِ السّابق بيان نُكْتتِها، فلا مرجع لهم من حيث أخرجهم اللّه تعالى.

التَّزع من الدّيارِ نـــزعٌ لـــلـــرّوحِ وموتٌ للبدنِ

بلاغة التَّعبير بـ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ مضافًا إلى الضّمير:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ وذلك لإبرازِ شدَّة حبِّهم لها، وبيان مدى تعلُّقِهم بها، فهو المكان الَّذي يعودون إليه مهما طال الغياب، ويرجعون إليه مهما تباعد بهم اللفُّ والدَّوَرُ[3]، بخلاف (البيوت) الدّال على مكان المبيت والمأوى[4]، وهو ما يمكن تحقُّقه في أيِّ مكان، وجيء به مضافًا إلى ضمير ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لتقوية الارتباط بينهم وبين الدّور الّتي قاموا ببنائها وإنشائها، وللدَّلالة على أنَّ هذا شعورُ جميعِ مَن أُخرِجوا بلا استثناء.

الـــدّيـــارُ هي مكانُ الاستقرارِ والـعَـوْدِ مهما طال الغيابُ

بلاغة التَّعبيرِ بالجمع ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ دون (دورهم)؛ وذلك لتفجيع الأمرِ، وتهويل المصاب، فإنَّ الدّور تختصُّ بالدّار الّتي هو موضع الإقامة الخاصَّة بكلِّ فردٍ وعائلة، أمّا الدّيار؛ فتشمل الأحياء والدّورَ والعرصات والشّوارع والطرق الموصلة وكلّ ما يتعلق بالممتلكات العامة لقبيلة أو تجمع سكّاني، فلمّا ذكر الدّيار؛ أراد

الـدّيـار تشمل الـمـمـتـلـكـات العامَّة والخاصّة والـدّور تقتصر على البيوت

(1) الحلبيّ، الدرّ المصون: 10/ 277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 406.
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (بيت).

المتلكات العامة الّتي يشترك فيها الجميع، والدّور الخاصّة، وهذا أشدُّ في تصويرِ آلامهم، وتقريع آمالهم.

نوع اللّام ودلالتها:

الإيمـاءُ إلى إخـراج بني النّضير جميعهم عند أوّل الحشر

اللّام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ هي لامُ التّوقيت الّتي تدخل على أوّل الزّمان المجعول ظرفًا للعمل، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: 24]، وهي بمعنى (عند)، والمعنى: أخرجهم عند مبدأ الحشر المقدَّر لهم، وهذا إيماء إلى أنَّ اللّه تعالى قدَّر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب[1].

وجه التَّعبير بقوله: (أوَّل):

الأوليّة تُشير إلى أوليّة تاريخيّة في الإخراج وآخريّة ستُكمل الأولى

جاء ذكر (أوَّلِ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذه أول مرَّة يُحشَر فيها أهلُ الكتاب؛ ليُخرجوا من جزيرة العرب، فلم يصبهم هذا الذلُّ قبل ذلك؛ إذ كانوا أهل منعةٍ وعزٍّ، وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ حشرَهم سيتعاقب حتّى يكملَ إخراجُ جميع اليهود خارج الجزيرة العربيَّة[2]، فجمع هذا اللَّفظ (أوّل) دلالتين، دلالة تاريخيَّة بأنَّ هذا أول إخراجٍ لهم، والأخرى أنَّ لهذه البداية نهاية، فلفظ (أوّل) يُشير إلى آخر، فلكلِّ بداية نهاية، وما كان اليوم أوّلًا؛ فسيكون غدًا آخرًا.

وجه التَّعبير عن الإخراج بـ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾:

جمع لفظُ الحشر الهوان والذُّلَّ والقهر

آثر النَّظم الكريم تسمية إجلاء اليهود وإخراجهم حشرًا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾؛ لأنَّه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة؛ إذ وقع عن قهر، ولم يقع عن رغبة منهم، ثم إنَّه كان إجلاءً عامًّا، لم يدع أحدًا منهم، كما لن يدعَ حشرُ يوم القيامة أحدًا ممَّن في القبور، ثم إنَّه من جهة ثالثة كان جماعيًّا فوريًّا، وليس جماعة جماعة، وزمنًا بعد زمن[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 68.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 850.

دلالة النَّفي بأداة ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ حرف نفي، أوثر التَّعبير به؛ لأنَّه يدلُّ على نفي اعتقاد المؤمنين خروجَ اليهودِ من ديارهم نفيًا قاطعًا؛ لما كانوا يتمتَّعون به من كثرة عَدد وقوَّةِ عُدَدٍ.

وجه التَّعبير بفعل الظنِّ دون الحسبان:

ظَنُّ المؤمنين بعدم خروج اليهود للعَدَد والعُدد

آثر النظمُ التّعبيرَ بفعل الظنِّ المنفي دون فعل الحسبان، فقال: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾، ولم يقل: (ما حسبتم)؛ لأنَّ الظنَّ نوعٌ من الاعتقاد، فهو تصويرٌ لطبيعة ما ظنَّه المؤمنون في شأنِ اليهود، بخلاف الحسبان الّذي ينتج عن حسابات وتوقّعات، قد تصيب، وقد لا تصيب[1]، ما يعني: أنّ انتفاء خروج اليهود من ديارهم بلغ عند المؤمنين درجة اليقين أو قاربها، فلم يَدُرْ بخلد أحدهم - بناء على منعة اليهود وقوَّتهم - أن يروهم خارجين من ديارهم، لعظم أمرهم، ووثاقة حصونهم، وكثرة عَددهم وعُددهم، ولكثرة مؤازريهم من اليهود والمنافقين[2].

دلالة التّعبير بفعل الظّن ماضيًا:

لم يكن الظّن بعدم خروج اليهود من ديارهم احتمالًا طارئًا

التّعبير بفعل الظّن ماضيًا في قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾ يشير إلى أنّ الظّن بعدم خروج اليهود من ديارهم قد استقرَّ في نفوس المسلمين قبل وقوع الحدث، أي: إنَّ هذا الظّن لم يكن مجرّد احتمال طارئ، بل كان اعتقادًا راسخًا لديهم في ذلك الوقت، وهو ما يعكس دهشة المسلمين من قبول اليهود فكرة الخروج، وسرعة حصولها.

مرجع الضّمير ودلالته في قوله: ﴿ظَنَنتُمۡ﴾:

يحسُنُ التّنبيه عند توهُّم الخطأ

الضّمير في قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾ يعود إلى المسلمين، والمعنى: ما ظننتم - أيّها المسلمون - أنَّ بني النّضير سيخرجون من ديارهم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 99.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 137.

لقوتهم ومنعتهم ومؤازرة كثيرين لهم[1]، وفي انتقال البيان إلى خطاب المسلمين تذكيرٌ بعظيم نعمة اللّه، وإبرازٌ لسابغ فضله عليهم في إتمام ذلك الإخراج، وتحقيق نعمة النّصر، "فإنَّ النِّعمة إذا وردت على المرء - والظّن بخلافه - تكون أعظم، فالمسلمون ما ظنّوا أنَّهم يصلون إلى مرادهم في خروج اليهود، فيتخلّصون من ضرر مكايدهم، فلمّا تيسّر لهم ذلك؛ كان وقوع هذه النّعمة أعظم"[2].

موقع ﴿أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ الإعرابيّ ودلالته:

التّعبير بالمصدر المؤوّل يفيد تصوُّر استبعاد الخروج

جملة: ﴿أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ سدَّت مسدَّ مفعولي: ﴿ظَنَنتُمۡ﴾، وقد آثر البيانُ الكريم التّعبير بالمصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ والمضارع؛ لما يُفيده من تسليط الظّن المنفيِّ على الفعل نفسه، أي: إنَّ ظنَّ المؤمنين في خروجِ اليهود كان أمرًا مستبعدَ الحصول مستصعب الوقوع، كما أنَّ التّعبير يومئ إلى أنَّ الظّنَّ واقعٌ على حدث الخروج المتصوّر في الأذهان، فهم يتصوّرون خروجَ اليهود من ديارِهم، ثم يستبعدونه، بخلاف ما لو قيل: (ما ظننتم خروجهم) فهو يدلُّ على أنَّ الخروجَ غير مجزوم به، وهو ما يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والمعنى: ما ظننتم أن يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم؛ لِما كان لكم من الضّعف، ولهم من القوّة؛ لكثرتهم وشدة بأسهم وشكيمتهم وقرب بني قريظة منهم، فكانوا بصدد مظاهرتهم، وأهل خيبر غير بعيدين عنهم، وكلّهم أهل ملّتهم، والمنافقون من أنصارهم وأُسَرَتِهم[3].

نوع الواو في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

تــوارد ظنــون الأعداء على أمرٍ واحدٍ يدلُّ على قوّة المظنون فيه

الواو في جملة: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾، أوثر عطفهما بالواو الّتي تفيد المشاركة؛ للدّلالة على أنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 225، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 233.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 408.

الظّنّين كانا متصاحبين أو متواردين[1]، ففي الوقت الّذي ظنّ فيه المسلمون أنّ اليهود لن يخرجوا ظنَّ اليهود أنَّ حصونهم ستمنعهم من أيِّ محاولة للإخراج، وهو ما يؤكّد أنَّ الإخراج كان نعمة عظمى ومنّة كبرى تستحقّ مزيدًا من الشّكر والتّسبيح؛ لحصوله وتمامه على الرغم من وجود كثير من الأسباب والاعتقادات الّتي كانت تحول دون وقوعه.

بلاغة الطّباق بين فعلي الظّنّ:

استبعاد الخروج كان راسخًا عند الفريقين

بين قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ ما يُعرف بطباق السّلب؛ إذ اجتمع فعلان من مصدر واحد، أوّلهما منفيٌّ والآخر مثبت، وفي الجمع بينهما إبراز لما رسخ في عقول المسلمين وفي عقول بني النّضير من استبعاد أمر الإخراج واستحالة وقوعه، وأنَّه مع ذلك الاستبعاد الّذي وصل إلى حدّ اليقين تمَّ، ووقع، بما يؤكِّد حكمة اللّه الّتي لا يحيط بها أحدٌ، وقدرته الّتي لا يعجزها شيء، وبما يفيد أنّه "إذا أراد اللّهُ نصر عبدٍ؛ استأسد أرنبُه، وإذا أراد قهر عدو؛ استنوق أسدُه"[2].

بلاغة التّوكيد في جملة: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ﴾:

إذا استولى الغرور على النَّفس؛ أوردها المهالك

قولُه: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سدَّ مسدَّ مفعولي: (ظنّوا) جاء مؤكَّدًا بأنَّ والجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على قوَّة ظنّهم وثباته، ولبيان أنّه كان ظنًّا عميقًا ثابتًا في نفوسهم راسخًا في عقولهم، بالقدر الّذي يجعلهم واثقين من أنّ حصونهم ستحول بينهم وبين أيِّ محاولة للإخراج، أيًّا كان القائمون بها.

دلالة تقديم الضّمير:

الاغترارُ بالحصونِ تابعٌ للاغترار بالنّفس والاعتزاز بالمكنة

آثر البيان الكريم التّعبير بضمير أهل الكتاب مُقدَّمًا، فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم﴾، ولم يقل: (وظنّوا أنّ حصونَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 408.

ستمنعُهم)؛ ليكون الابتداء بضميرهم؛ لأنه سيعقبه إسناد مانعتهم إليه فيكون الابتداء بضميرهم مشيرًا إلى اغترارهم بأنفسهم أنّهم في عزّة ومنعة، وأن منعة حصونهم هي من شؤون عزّتهم[1]، فلا يبالون معها بأحد يتعرّض لهم، أو يطمع في منازعتهم، وهذا المعنى لا يتحقَّق؛ إذا جاء التّركيب على غير هذه الطّريقة[2].

أوجه إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم﴾ ودلالتها:

أوجه الإعراب تتنوَّع وتلتقي في دلالةٍ بيانيَّة متقاربة

يحتمل إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾ خبرًا مقدَّمًا، و﴿حُصُونُهُم﴾ مبتدأ مؤخرًا، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾، وتقديم الخبر على المبتدأ فيها دالٌّ على فرط وثوقهم بحصانة حصونهم، ومنعها إيّاهم من أن يصل إليهم أيُّ أحدٍ، أو يخرجهم منها أيُّ جيش مهما كانت قوَّته وعدَّته[3]، ويحتمل إعراب ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾ خبرًا لـ ﴿أَنَّهُم﴾، و﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا له.

نكتة التّعبير باسم الفاعل دون الفعل ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾:

حصون بني النّضير بلغت في الرُّسوخ والضَّخامة مبلغًا لا نظير له

التّعبير باسم الفاعل ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾ دالٌّ بمعناه ومبناه على بلوغ هذه الحصون في المتانة والضخامة والرّسوخ وجميع وسائل التّأمين والحماية والمَنْع مبلغًا لا نظير له، ولا يوجد في غيرها من الحصون، وهذا المعنى لا يتحقَّق؛ إذا عُبِّر بالفعل، فقيل: (تمنعهم)، أمّا كون الحصون فاعلًا للمنع؛ ففيه إبرازٌ لدورها في حياة اليهود، وبيان لمدى اعتمادهم عليها وارتكانهم إليها، وأنَّها عندهم ليست مجرد هياكل أو مبانٍ لا دور لها، وإنَّما هي قوّة دفاعيّة فعّالة تمنع دخول الأعداء إلى ديار اليهود، وتزوّدهم عن بيوتهم، وتحميهم من أيِّ معتدٍ يريد أن يُغير عليهم.

بلاغة الاستعارة المكنيّة في لفظ ﴿حُصُونُهُم﴾:

على إعراب ﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا لقوله: ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾ يكون التّركيب

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 499، وصدّيق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 39.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502، وصدّيق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 39.

الاستعارة تصويرٌ لما يدور في مخيّلة بني النّضير وبيانٌ لقوّة ثقتهم بأنفسهم

من باب الاستعارة المكنيّة الّتي شُبِّهت فيها الحصونُ بالجنود الأشدّاء الأقوياء، الّذين يرقبون المعتدين، ويصدونهم، ويمنعونهم من إيذاء مَنْ يلوذون بهم، ويستترون فيهم، ثم حُذِف المشبَّه به، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو المنع على سبيل الاستعارة المكنيَّة، الّتي تخلع على هذه الحصون لونًا من ألوان الحراسةِ العاقلةِ الواعيةِ الّتي ترقُبُ المخاطرَ، وتمنعُها.

وجه التّعبير بمفردة ﴿حُصُونُهُم﴾:

الحصونُ تغني عن الدّور وتحلّ محلّها وقت الغزو

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة ﴿حُصُونُهُم﴾ دون (ديارهم)؛ لأنَّ اليهودَ كانوا يتركون الدّور، ويأوون إلى الحصون عندما يحيط بهم الخطرُ، أو يأتيهم الغزاةُ(1)، ما يعني: أنَّ الحصون كانت تقوم مقام الدّور في تلك الحالة، وهو ما يستدعي التّعبير بها؛ لكونها أغنتْهم عن الدّيار، ونزلت منهم منزلتَها، وصار اعتمادُهم عليها والتجاؤُهم إليها.

دلالة إضافة الحصون إلى الضّمير:

حصونُ بني النّضير معروفةٌ بقوّة بنائها ومتانة تشييدها

إضافة الحصون إلى ضمير اليهود في قوله تعالى: ﴿حُصُونُهُم﴾ بمعنى اللّام، أي: الحصون الخاصَّة بهم، المعروفة في قوّة التّشييد، وبراعة البناء، ففيها إيماءٌ لإبراز وثاقة العلاقة، وبيان قوة الارتباط الحاصل بينهم وبين حصونهم في جميع الأوقات بصفة عامة، وفي أوقات الغزو بصفة خاصّة.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع المجرور جارٌّ ومجرور متعلِّق بـ: ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾، و﴿مِّنَ﴾ بيانيَّة توضِّح مَن تمنعهم الحصونُ مِن خطره أو ممّا يريده بهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 69.

غرض ذكر اسم الجلالة وتعيين المراد منه:

توبيخ يهود بني النّضير على سوء اعتقادهم وقبح مسلكهم

آثر النّظم الكريم ذكر الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقد ذكر المفسِّرون أنَّ المعنى مِنْ رسول اللّه ﷺ وجيشه الرّاغب في معاقبتهم على الخيانة والغدر[1]، ونكتة ذكرِ اسم الجلالةِ هو بيان المعتقد الفاسد الّذي يُسيطر على اليهود، فهم يظنّون أنَّ هذه الحصون تمنعهم في الحقيقة من اللّه تعالى، فكان ذكرُ الاسم الجليل لا لتقدير المحذوف فحسب، بل للتّصريح بالمعتقد الفاسد، فهم يعلمون أنّ رسول اللّه ﷺ هو رسولٌ حقًّا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]، فمن عرف المرسِل، وعصى رسولَه؛ فقد عصاه على التّحقيق، فنكتة ذكر الاسم الجليل توبيخ يهود بني النّضير، وتقريعهم على اعتقادهم الباطل.

نوع الفاء ودلالتها:

عقاب الله تعالى ينزل بالظّانين ظنَّ السَّوءِ على وجهٍ بالغ السّرعة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لتفريع ما بعدها على جملة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم﴾، وهي تفيد بجانب التّفريع معنى التّعقيب والإسراع، ما يعني: أنَّ أمْرَ اللّه وقضاءَه فيهم نزل بهم على وجه بالغٍ في الإسراع، بحيث لم ينتظروا وقتًا طويلًا حتى يخرجوا من الدّيار الّتي ظنّوا أنّه لا يستطيع أحدٌ إخراجَهم منها، وحتّى يتركوا الحصونَ الّتي اعتقدوا أنّها ستمنعُ أيَّ أحدٍ يحاول إجلاءَهم عنها.

دلالة التّعبير بفعل الإتيان دون المجيء:

التّعبير بفعل الإتيان الموضوع للمجيء بسهولة[2] دالٌّ على أنَّ إخراجَ اليهود بلغ الغاية في السُّهولة واليسر على اللّه، الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 500، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 502.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (أتى).

بلاغة إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

تبكيتُ الغافلين عــلــى ســوءِ الاعـتـقـاد بالله ربِّ العالمين

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فأتاهم من حيث لم يحتسبوا) بإسناد فعل الإتيان إلى الضّمير المستتر العائد على اسم الجلالة، لكنَّ النّظمَ عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ لأنَّ ما أخرجهم اللّهُ به من قَذْف الرّعب في قلوبهم لا يفعلُه غيرُه، ولا يستطيعُه أحدٌ سواه، بَلَهَ أن يخطر على بال أحدٍ من البشر أصلًا، كما أنَّ الإظهارَ فيه تأكيدٌ لما سبق الامتنانُ به من قصر إخراج اليهود على اللّه تعالى، والمعنى: جاءهم الملكُ الأعظمُ بالّذي لا يحتملون مجيئَه، بما صوَّر لهم من حقارة أنفسهم الّتي اضطرّتهم إلى الجلاء[1]، ولما ظنّوا أنَّهم مانعتهم حصونهم من اللّه، كان إظهارُ الاسم الجليل الّذي ظّنَّ فيه الباطل هو الأنسب لتبكيتهم بما ظنّوا، كأنَّه قيل: الّذي ظننتم أنّكم قادرون على الاحتماء منه هو اللّه الّذي أتاكم من حيث لم تحتسبوا، فهو ليس مجرّد سردٍ لحدث، بل فيه من معاني التّبكيت والتّوبيخ والتّقريع على الاعتقاد الباطل، والصّنيع الهابط.

نكتة ذكرِ ضمير اليهود مقدَّمًا دون ذكرِ حصونهم:

تدميرُ الحصونِ تابعٌ للمقصود الأبــلــغ وهــو عقاب النّفوس المريضة

قُدِّم ذكر الضّمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو عائدٌ على اليهود، دون أن يقول: (فأتى اللّه حصونَهم)، وهو المتحقِّق في الواقع؛ لبيانِ أنّهم المقصودون بالإتيان، وأنَّ الحصون ما هي إلّا مظاهر زائفة، والعبرة باعتقاد نفعهم المانع من قدرة اللّه تعالى، فهو المستحقّ للتّدمير، وهو المقصود بالتّشتيت، والمعنى: فأتى اليهودَ المُتحصِّنين عقابُ اللّه من حيث لم يحتسبوا؛ فأوثر تقديمُ الضّمير؛ للاهتمام ولفت الأنظار إلى مصير هؤلاء الّذين ظنوا أنَّ حصونهم ستمنعهم من أمر اللّه، واعتقدوا أنه لن يستطيع أحدٌ إخراجَهم منها بأيِّ شكل من الأشكال، ولا بأيِّ قوة من القوى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 409.

نوع ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾ بيانيّة توضّح المكان الّذي أخرج اليهود من ديارهم، وجعلهم يخرّبون بيوتهم بأيديهم، والّذي لم يحسبوا حسابه، ولم يعدّوا له العدّة، ولم يُدخلوا إليه الجنود والتّجهيزات.

وجه التّعبير بالظّرف ﴿حَيۡثُ﴾:

(حيث) تستعمل في الظرفيّة المجازيّة

آثر النّظم الكريم استعمال الظّرف ﴿حَيۡثُ﴾؛ فقال: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾، ولم يقل: (من مكان) للتّفريق بين الظرفيّة الحقيقيَّة الّتي يُستعمَل لها لفظ (مكان)، والظرفيّة المجازيّة الّتي استعمل لها النّظمُ هنا لفظ ﴿حَيۡثُ﴾ الدّال على أنَّ الوسائل والطّرائق الّتي يَهزِمُ اللّه تعالى بها أعداءه يمكن أن تكون طرائقَ غيرَ تقليديَّة، ووسائلَ لم تخطرْ على البال، ولا تأتي في الحسبان، ولو قيل: (مكان)؛ لدلَّ ذلك على أنَّ الوسيلة الّتي أُخِذوا بها كانت معهودة متوقَّعة، وهو ما ينافي الواقع والحقيقة.

دلالة التّعبير بفعل الاحتساب منفيًّا:

حسبان يهود بني النّضير قاصرٌ عن الإحاطة دالٌّ على الخذلان

آثر النّظم الكريم استعمال فعل الاحتساب المنفيّ، في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ دون: (لم يظنوا)؛ للدّلالة على أنَّ الإتيانَ كان من جهة غير واردة في الحسبان، ولم تخطر على البال، ولم يجّر لها ذكرٌ في الكلام، ولم توضع كأحد الاحتمالات، وهو ما يفيده نفي الاحتساب، الدالّ على المبالغة في الحسبان، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ القومَ قد حسبوا الأمر من جميعِ جوانبه وجهاته، وبالغوا في ذلك، لكنَّهم لم يحسبوا الجهة الّتي أتاهم اللّه منها، ولو قيل: (من حيث لم يظنّوا)؛ لكان معناه: أنَّه خطر على بالهم، ولكنّهم استبعدوا الإتيان منه، ولو أثْبَتَ لهم الغفلة، فقال: (فأتاهم من حيث غفلوا)؛ لكان المعنى: أنَّه كان في الحسبان، ولكنّهم غفلوا عنه، وهذا غير صحيح أيضًا، والصّواب: "أنَّه أتاهم من مكان لم يظنّوه؛ لأنَّهم

قَصَروا استعدادَهم على التحصُّن والمنعة، ولم يعلموا أنّ قوَّةَ اللّه فوق قوّتهم"[1].

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة:

تمثيلُ حال اليهود بحال مَنْ جاءه غريمُه مِنْ جهةٍ لم يُعَيِّنْ فيها حراسةً

في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ استعارة تمثيليّة، مُثِّلَ فيها شأنُ اللّهِ حين يسَّر أسبابَ استسْلامِهم بعد أن صمَّموا على الدّفاع، وكانوا أهْلَ عِدَّةٍ وعُدّة، ولم يَطُلْ حصارُهم بحال من أخذ حذره من عدوه، وأحكم حراسته من جهاته، فأتاه عدوُّه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها، وهذا يشبه التّمثيل الّذي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النّور: 39][2].

نوع العطف ودلالته:

قذفُ الرُّعبِ في قلوب اليهود سلاحٌ ربّانيٌّ يهزم الله به أعداءَ الإسلام

الواو في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ لِعَطف ما بعدها على جملة: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، عطفَ الخاصِّ على العامّ؛ لأنَّ قذفَ الرّعب في قلوبهم من أحوال إتيان اللّه إيّاهم من حيث لم يحتسبوا، وخُصِّصَ بالذّكر للتّعجيب من صنع اللّه بهم، وللاهتمام[3]، والتّأكيد على أنّ ذلك الإخراج كان من اللّه تعالى، ولم يكن من أحدٍ غيره؛ لأنَّ قذفَ الرّعبِ في القلوبِ لا يكون إلّا من اللّه تعالى.

دلالة التّعبير بفعل القذف:

قذفُ الرُّعب أحْدَث في قلوب اليهود صدمةً عنيفةً دفعتهم على الفور إلى طلب الجلاء

آثر النّظم الكريم استعمال فعل القذف الموضوع للرّمي بقوّة في جملة: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾؛ للدّلالة على الحصول العاجل، أيْ: حصول الرّعب في قلوب اليهود دفعةً دون سابق إنذار ولا وجود سبب ظاهر، والمعنى: جعل اللّهُ الرّعبَ في قلوبهم، فأسرعوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.

بالاستسلام[1]، بخلاف فعل الإلقاء المُعَبَّر به في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 151]، والدّال على أنَّ الرُّعب سيوضع في قلوب الكفّار وضعًا تدريجيًّا، وربّما يأخذ أثرُه بعض الوقت حتّى يظهر، ما يعني: أنَّ خروجهم قد يتأخّر، وهو ما يخالف الواقع الّذي حصل، والّذي يناسبه التّعبير بفعل القذف، الّذي أحدث في قلوب اليهود أثرًا قويًّا وصدمة عنيفة، دفعتهم على الفور إلى طلب المصالحة مقابل الجلاء والخروج.

غرض التَّعبير بفعل القذف ماضيًا مسندًا إلى ضمير اسم الجلالة:

قذفُ الرُّعبِ في القلوبِ تحقّق في الواقع وثبت في أثره

جيء بفعل القذف ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق حصوله، وتأكّد وقوعه، ومشاهدة الجميع ما ترتّب عليه من جلاء اليهود، ومشاركة المسلمين لهم في تخريب بيوتهم، وأُسنِد إلى ضمير الجلالة دون إعادة الاسم الأعظم جريًا على الظّاهر في التّعبير عن الاسم الّذي سبق ذكرُه بالضّمير؛ لما يفيده من تعيين المسند إليه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: وقذف اللّهُ في قلوبهم الرّعب.

بلاغة حرف الظرفيّة:

التّعبير بحرف الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ دالٌّ على أنّ الرّعبَ الّذي قذفه اللّهُ في قلوب اليهود قد سكنها، وملأها، وعَبَرَ منها إلى جميع قواهم، فاجْتَثَّها من أصلها[2].

براعة ذكر القلوب:

القـلـوب بيت الظّـنـون وفيها مهبط الرّعب

آثر البيانُ القرآنيّ التّعبيرَ بالقلوب دون الصّدور، فقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾، ولم يقل: (وقذف في صدورهم)؛ لما للقلوب من تأثير عظيم على كل أعضاء البدن؛ إذ هي المتحكّمة في أفعال البشر، والباعثة لمشاعرهم والمحرّكة لأحاسيسهم، ولمّا كانت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 70.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 410.

القلوبُ بيتَ الاعتقاد والظّنون؛ ناسب أن يكون الرُّعبُ مقذوفًا فيها، متمكِّنًا في أرجائها؛ ليكون الجزاءُ على الظّنون الباطلة في مكمنها وبيتها، وهي القلوب.

دلالة إضافة القلوب إلى الضّمير:

مَنْ يحتمي بغير الله لا يجني إلّا الفزعَ والرّعبَ

الضّمير المجرور في لفظ ﴿قُلُوبِهِمُ﴾ يعود إلى بني النّضير الّذين تحصّنوا في حصونهم، وفي إضافة القلوب إليه تأكيد لما أصابهم من الخوف والرّعب على وجه من المبالغة والإسراع، بعد أن كانوا في غاية من الثّقة والاطمئنان إلى الامتناع؛ بسبب قوّة الحصون وضخامتها، ولا يخفى ما فيه من تلويح إلى أنَّ مَنْ يحتمي بغير اللّه، ويلجأ إلى سواه لا يجني إلّا الفزع والرّعب.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾:

الأنسب بالسّياقِ استعمال مفردة الرُّعبِ لما فيها من بيان قوّة الأثر

عبَّر النّظمُ بـ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾ الّذي يعني: شدّة الخوف والفزع، وأصلُه: الامتلاء، تقول: رعبت الحوض؛ إذا ملأته[1]؛ للدّلالة على أنّ الرعبَ الّذي قذفه اللّهُ في قلوب اليهود ملأها بالجزع والفزع، فاستسلموا؛ بسبب ذلك لما حَكَم به الرّسولُ عليهم[2]، ولو عبَّر بالخوف الدّال على مجرَّد انزعاج القلب بتوقّع مكروه عاجل[3]؛ لَما ناسب الواقع الّذي صاروا إليه من طلبِ الجلاء والاستسلام؛ إذ وجود الخوفِ وحدَه لا يجعل صاحبَه يستسلم.

بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾:

تصوير قوّة الرّعب في القلوبِ وشدّتها في النّفوس

في مفردة الرّعب في قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ استعارة مكنيّة، شُبِّه فيه الرّعبُ الّذي هو أمر معنويّ، بالشّيء الحسيّ الّذي تقبض عليه الأيدي بإحكام، وتلقيه إلقاءً شديدًا

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (رعب).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 285.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.

في قلوب اليهود، فيصدعها، ويملؤها خوفًا وفزعًا يتسبّب عنه أن يطلبوا الصّلح والأمان مقابل الخروج من الدّيار، بشرط ألّا يأخذوا معهم إلّا ما حملت دوابُّهم، فكانوا يأخذون ما استطاعوا، ويجتهدون في إتلاف الباقي حتّى لا ينتفع به المسلمون.

دلالة جملة الحال:

جاءت جملة ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾؛ لأنَّها في محلِّ نصب حال من الضّمير المجرور في ﴿قُلُوبِهِمُ﴾، جيء بها لتوضيح الفعلِ الّذي دفعهم إليه الرّعبُ الّذي قذفه اللّهُ في قلوبهم.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُخۡرِبُونَ﴾:

تخريب البيوت دليل اليقين بالزّوال الماحق

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿يُخۡرِبُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هؤلاء اليهود بلغ من سوء نيَّتهم، واضطراب أمرهم، أنَّهم عندما أجمعوا أمرهم على الرّحيل عن المدينة؛ أخذوا يخرِّبون بيوتهم عن طريق إسقاط بنائها، وهدم السّليم منها، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب وغيرها، حتّى لا ينتفع المسلمون من بعدهم بها[1]، وهو ما يدلُّ على قلوبِهم الخبيثة، الّتي استسهلت الخرابَ بعد العمار، فأرادوا لها الخراب لعلمهم بعدمِ العودة لها، واستيقانهم بالزّوال الماحق، ويدلُّ كذلك على الشّخصية التّخريبيّة الّتي تُخالف وظيفة الإنسان في الأرض، وهو العمارة، وهو ما يدلُّ على أنَّ اليهود لم يتركوا شيئًا خلفهم إلّا كان خرابًا، فحسنت المقابلة بين التّخريب المذكور، والعمارة الملحوظة في معناها.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُخۡرِبُونَ﴾:

اليهود لا يتركون بعدهم عمارًا ولو كانت ديارهم

جيء بفعل ﴿يُخۡرِبُونَ﴾ مضارعًا؛ لما يمتاز به من استحضار الصّورة الماضية، كأنَّها شاهدةٌ ماثلةٌ أمامَ الأعين، يظهر فيها اليهود وهم يُخربون بيوتَهم، فتعمل الصورةُ المستحضرةُ عملَها

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 285.

في تذكير المسلمين بفضل اللّه في هذا النصر العظيم، وتدفعهم إلى اختصاصه سبحانه بمزيد من التَّسبيح والشُّكر والتَّمجيد، ولم يقل: (خرّبوا بيوتهم)؛ لأنَّه لم يُرد مجرَّد الإخبار عن التّخريب، بل تصوير صورتهم، وتبشيع مسيرتهم، فهُم لا يتركون عمارًا بعدهم، ولو كانت ديارهم.

توجيه القراءات المتواترة:

القراءتان تبرزان حال اليهود وهم بين النّدم والألم

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ﴾، فقرأ أبو عمرو بالتّشديد: ﴿يُخَرِّبُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتّخفيف: ﴿يُخۡرِبُونَ﴾[1]، وقراءة التّشديد تبرز ما سيطر على اليهود من حنق وغيظ ومبالغة في إفساد بيوتهم[2]، حتّى لا يسكنها المسلمون من بعدهم، أو ينتفعوا بشيء منها، وقراءة التّخفيف تبرز حالة الألم والحزن الّتي كانت تغشاهم أثناء قيامِهم بالإخراب، "وقيل: في الفرق بينهما وجهان: **أحدهما:** مَن قرأ بالتَّشديد؛ أراد إخرابها بأفعالهم، ومن قرأ بالتّخفيف؛ أراد إخرابها بفعل غيرهم، **الثّاني**: أنّ من قرأ بالتّشديد؛ أراد إخرابها بهدمهم لها، وبالتّخفيف أراد فراغها بخروجهم عنها"[3].

سرُّ التعبير بـ ﴿بُيُوتَهُم﴾:

تخريبُ اليهودِ لكلِّ البيوت بدون استثناءٍ لها

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ: ﴿بُيُوتَهُم﴾ بعد أن ذكر فيما سبق لفظَ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾، والمرادُ بالبيوت بيوتهم وحصونهم؛ فلمّا كانت سكناهم في الحصونِ ومبيتهم فيها؛ أطلق عليها اسمَ البيوت؛ لتشمل البيوت المعهودة والحصون، ولأنَّ "هذه الحصون الّتي كانت بمكان الإعزاز والإعجاب من نفوسهم قد هانت عليهم، وخفَّت موازينُها في أعينهم بعد أن رأوا - بما امتلأت به قلوبهم من رعب - أنّها لا تردُّ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 386.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 410.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 500.

عنهم عدوًّا، ولا تدفع مُغيرًا، فأخذوا يخرّبونها بأيديهم، ويفتحون معاقلها للمسلمين، كما تركوا للمسلمين أن يدخلوها عليهم، وأن يفتحوا مغالقها، ويطلعوا على مسالكها... وهذا هو معنى خرابها، الّذي يبدو في تعطيلها، وتعطيل وظيفتها الّتي أُعدَّتْ لها"[1].

البيوت هي المساكن الخاصّة، والدّيار هي المساكن وعموم الأحياء

ولبيان أنَّ التّخريب نال بيوتهم الخاصّة، فالفرق بين البيوت والدّيار، هو أنَّ البيت المسكن الخاص لكلِّ عائلة، أمّا الدّيار؛ فهي تشمل البيوت والأحياء والعرصات، فذكر البيوت؛ ليُبيِّن أنّ كلًّا منهم خرَّب بيته الخاص به، وأنّ التّخريب سلوك عامٌّ فيهم، فوقع التّخريب على البيوت بيتًا بيتًا، ومن صنع ذلك في بيته؛ فإنّه صانعه في حيِّه، ولو قال: (يخرّبون ديارهم)؛ لفُهم التَّخريب بالجملةِ، أي: إنَّ التّخريب وقع على جملة الدّيار، وعليه فتسلم بعض البيوت، لكن لّما قال: ﴿بُيُوتَهُم﴾؛ علمنا أنَّ التّخريبَ نال البيوت كلّها بدون استثناء.

دلالة إضافة البيوت إلى الضمير:

أُضيف لفظ البيوت إلى الضّمير؛ لتصوير الفجاءة والدّهشة من صنيعهم، فإنَّ الإنسان يعزُّ عليه تدمير بيته، لكنّهم سارعوا إلى خرابها، فالإضافة بمعنى اللّام الّتي هي للاختصاص.

نوع الباء ودلالتها:

قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ جارّ ومجرور متعلّق بـ ﴿يُخْرِبُونَ﴾، والباء فيه للاستعانة والآلة، ما يعني: أنّ خراب بيوتهم كان بالاستعانةِ بأيديهم وأيدي المسلمين.

بلاغة المجاز في استعمال لفظ الأيدي:

الأيدي الّتي بَنَتْ هي الّتي هدمت، فعادت من حيث ابتدأت

إيثار استعمال لفظ الأيدي في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ مجاز مرسل علاقتُه الجزئيَّة؛ إذ الحقيقة الّتي يستند إليها أنّ الأيدي والأرجل والأعين والعقل كلها أعضاء شاركت في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 851.

تخريب البيوت وأدَّت دورًا مهمًا في ذلك، لكن البيان اختصَّ الأيدي بالفعل لِما لها من أثر كبير ودور رئيس في عملية التّخريب والهدم والإفساد والتّعطيل، وغير ذلك ممّا يحول بين المسلمين وبين الانتفاع بالبيوت، ولتوريثهم النّدم؛ إذ كانت اليد البانية هي الهادمة، والرّافعة هي الخافضة، فجمعت بين متناقضين مختلفين.

بلاغة العطف بالواو:

تسبَّب اليهودُ في أن يشاركهم المسلمون في هدم بيوتهم وتخريبها

جاء قولُه تعالى: ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو الّتي تُفيد المشاركة في الحكم؛ للدّلالة على أنَّ اليهود تسبَّبوا في أن يشاركهم المؤمنون في تخريب بيوتهم، وجعلها غيرَ صالحة لأحدٍ بعدهم؛ إذ "كان المؤمنون يخرِّبونها إزالةً لُتَحَصِّن اليهود ومتمنّعِهم، وتوسيعًا لمجال القتال ونكاية لهم، وأُسنِد هذا إلى اليهود؛ لأنَّهم السّببُ فيه، فكأنّهم كلّفوا المسلمين إيّاه، وأمروهم به"[1].

دلالة المجاز الإسناديّ:

حُمْقُ اليهود ونَزَقهم أعانَ المؤمنين على تخريب بيوتهم

إسنادُ فعل التّخريب إلى أيدي اليهود إسنادٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّهم فعلوا ذلك، وحرصوا على القيام به في الواقع، و"أمّا تخريبُهم بيوتَهم بأيدي المؤمنين؛ فهو مجاز عقليٌّ في إسناد التّخريب الّذي خربه المؤمنون إلى بني النّضير، باعتبار أنَّهم سبَّبوا تخريب المؤمنين لما تركه بنو النّضير"[2]، وفيه ما يدلُّ على حمق اليهود ونزقهم.

بلاغة الالتفات في الآية:

الإيماء إلى أنَّ تخريب بيوت اليهود سيكون على أيدي المؤمنين مستمرًّا إلى يوم الدّين

كان مقتضى الظّاهر أن يُقالَ: (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيديكم)؛ جريًا على ما سبق بيانُه بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾، لكنَّ النّظمَ الكريمَ التفت عن التّعبير بضمير الخطاب إلى التّعبير بأسلوب الغيبة؛ لما يفيده الالتفاتُ من تنشيط

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 226، بتصرّف.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 72.

المتلقّي وتطريته، وإثارته إلى إدراك مقاصد الكلام وفهم مراميه، ولما يفيده الذكرُ بوصف الإيمان من إشعارٍ بأنَّ إخراج بني النّضير من ديارهم؛ كان مكافأةً من الله تعالى للمسلمين على إيمان عميق تغلغل في نفوسهم، فحملهم إلى الإسراع في الاستجابة لنداء الرّسول بتأديب الغادرين وإجلاء المتآمرين، فكفاهم اللّهُ شرَّ القتالِ، وحقّق لهم النّصرَ من غير خيلٍ ولا ركابٍ، ولتكون الغيبةُ ناطقةً بوعدٍ إلهيٍّ مستمرٍّ إلى يوم الدّين بأنَّ تخريب بيوت اليهود سيكون بأيدي المؤمنين، ولو جاء على الخطاب؛ لكان نصًّا في خصوص المخاطَبين، لكنّه جاء عامًّا؛ ليشمل كلَّ مؤمنٍ، وفي كلِّ عصر وآنٍ.

نوع الفاء ودلالتها:

إتيان الغادرين مـن حـيـث لـم يحتسبوا ليس مـقـصـورًا على اليهود وحدهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ لتفريع الأمر بالاعتبار على ما مضى من إخراج اليهود وقيامهم بتخريب بيوتهم، ما يعني: أنَّ ما حدث لهم يمكن أن يحدث لكل مَنْ كان على شاكلتهم في الكفر بالله والغدر برسوله؛ لأنَّ إتيان الغادرين من حيث لم يحتسبوا ليس خاصًّا باليهود وحدهم، وليس حِكْرًا عليهم دون غيرهم، والمعنى: فتأمَّلوا فيما نزل بهؤلاء، والسّبب الّذي استحقّوا به ذلك، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتُعاقَبوا بمثل عقوبتهم[1].

بلاغة استعمال مفردة الاعتبار دون الاتِّعاظ:

على ذوي البصائر أن يـنـظـروا إلى إجلاء بني النّضير نظرة فكر وتأمُّل واستخلاص

عبَّر البيانُ الكريم بقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ المشتقّ من العبور، الّذي يعني: التوصُّل من الحالة المشاهدة إلى ما ليس بمشاهَد[2]؛ للدَّلالة على: أنّ المطلوب من المُخاطبين ذوي البصر والبصيرة أن ينظروا إلى أحداث بني النّضير نظرة تأمّلٍ وفكرٍ لا تقف عند حدِّ الاتّعاظ، وإنّما تتجاوزه إلى استخلاص الدّروس واستنباط القواعد والأسس

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 456.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عبر).

الّتي وضعها اللّه للتّعامل مع الكافرين بدينه، المتآمرين على رسوله، وهذا المعنى لا ينهض به فعلٌ مثل: اتَّعظوا؛ لدلالته على مجرَّد الزَّجر المقرون بالتَّخويف[1].

غرض الأمر في قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾:

إرشادُ المتلقّين وتحذيرُهم من الوقوعِ فيما وقع فيه اليهودُ

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾: توجيه النَّصيحة إلى المخاطَبين بصفة عامَّة، وإلى ذوي البصيرة منهم بصفة خاصّة، وإرشادُهم إلى أخذ ما حدث لليهود من إخراج وتخريب بعين الفكر والاعتبار، والحذر من الوقوع فيما كان سببًا في عقابهم بهذا الأمر الّذي لم يكن في حسبانِهم، ولا في حسبانِ أحدٍ غيرِهم، والمعنى: فاتَّعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، واتَّقوا مباشرةَ ما أدّاهم إليه من الكفر والمعاصي، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير اللّه تعالى - الصّائرة سببًا لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم مكرهين - إلى حال أنفسكم، فلا تعوِّلوا على تعاضد الأسباب، وتعتمدوا على غيره ، بل توكَّلوا عليه سبحانه[2].

غرض النِّداء ودلالته:

في إخراج بني النّضير دلالاتٌ لا يراها إلّا أصحابُ البصائرِ النافذةِ

النّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ غرضُه تنبيهُ المخاطَبين ولفتُ أنظارهم إلى تأمُّل هذا الحدث، وفَهْمُ ما فيه من دلالات على قدرة اللّه، وعلى تدبيره المحكم الّذي لا يُغالب، وأنَّ هذا لا يراه إلّا أصحابُ الأبصار النّافذة إلى حقائق الأمور، وإلى مواقعِ العبرة والعظة منها[3].

تعيين مرجع النّداء:

الخطاب في: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ موجَّه إلى غير معيَّن، ونداء

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (وعظ).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 235.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 851.

العبرة بحال بني النَّضير واضحةٌ مكشوفةٌ لكلِّ ذي بَصَرٍ وبصيرة

(أولي الأبصارِ) بهذه الصِّلة يشير إلى أنَّ العبرة بحال بني النّضير واضحةٌ مكشوفةٌ لكلِّ ذي بصر ممَّن شاهد ذلك، ولكل ذي بَصَرٍ يرى مواقع ديارهم بعدهم، فتكون له عبرة في قدرة اللّه على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال، وفي انتصار الحقِّ على الباطل، وانتصار أهل اليقين على الكفّار المذبذبين[1].

سِرُّ إضافة المنادى إلى ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾:

الأبصار لفظٌ جامع بين البصر والبصيرة

إضافة المنادى إلى ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ دون العقول أو غيرها من حواسِّ الإنسان فيه دعوةٌ إلى اليقظة والانتباه والنّظر إلى كلِّ ما يُشاهَد نظرة تأمُّل واعتبار، وألّا تكون رؤيةُ ديار بني النّضير وآثارهم بصفة خاصّة، ورؤية آثار غيرهم بصفة عامَّة رؤيةً سطحيةً لا تفكُّر فيها ولا قياس للأحوال عليها، وأوثرت ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ دون غيرها بالتَّعبير؛ لأنَّ الرُّؤية والمشاهدة هي الخطوة الأولى للإدراك والفهم، فَما يُرى بالعين ينتقل إلى العقل والقلب للتأمّل والتدبُّر على وجهٍ بالغ في التّذكير؛ لأنَّ الموعظة المدعومة بالصّورة أقوى أثرًا، وأنجع في الاعتبار من الموعظة الخالية منها، لكون الصّورة أبقى في الذّاكرة من مجرّد الإخبار الّذي لا تصحبُه مَشاهِدُ مرئيّةٌ، فجمع لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بين البصر والبصيرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّار والبيت:

التّعبيرُ بالدّيار دالٌّ على شدّة التمسّك والبيت مرتبط بالمبيت

(الدّارَ): تُطلق على المنزل اعتبارًا بدورانها الّذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، وتسمّى البلدةُ دارًا، والقبيلةُ دارًا، والصّقعُ دارًا، والدّنيا دارًا، والدّار الدُّنيا، والدّار الآخرة، إشارة إلى المقرّين في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى[2]، ما يعني أنَّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 72.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).

تُطلَق على كلّ ما يحمل معنى الاستقرار وعدم الارتحال، أمّا البيت؛ فيطلق على: مأوى الإنسان باللّيل؛ لأنَّه يقال: باتَ: أقام باللّيل، ويقال للمسكن: بيت من غير اعتبار اللّيل فيه، وجمعه أبْيات وبُيوت، لكنّ البيوت بالمسكن أخصّ[1]، ولما كان البيان متحدِّثًا عمّا في إخراج بني النّضير من نعمة كبرى ومنّة عظمى على المسلمين؛ ناسب التّعبير بلفظ ﴿دِيَٰرِهِمْ﴾ الدّال على رسوخ قدمهم فيها، وشدّة تمسّكهم بها، وعظمة ما تمثّله لهم من قيمة وتاريخ، وهذا لا يحقّقه التّعبير بـ(البيوت) الدّال على كونها مجرّد أماكن للمبيت، وأنَّ إخراجَهم منها لم يكن فيه شيءٌ من الصّعوبة.

القذف والإلقاء:

القذف إلقاءٌ بقوَّة، والإلقاء أعمُّ من ذلك

القذف يعني: الرّمي بعيدًا[2]، ما يعني أنّ عنصر القوّة والشدّة متحقّق فيه، أمّا الإلقاء؛ فهو طرح الشّيء حيث تلقاه[3]، ما يعني: أنّ عنصر الشّدة ليس شرطًا فيه، ولما كان الحديث عن الرّعب الّذي ترك في قلوب اليهود صدمة عنيفة دفعتهم إلى طلب التّصالح مقابل الجلاء عن البيوت والدّيار؛ ناسب التّعبير بمفردة (القذف)؛ لدلالته على الرّمي بالقوّة الّتي تتناسب مع الرّعب، بخلاف مفردة (الإلقاء) الخالية من معنى القوّة، الّتي يحتاج إليها الرّعبُ حتّى يحدث الأثر المأمول.

الرُّعب والخوف:

الرُّعب خوفٌ يدفع إلى الاستسلام، والخوف فزعٌ يُلحق بصاحبه الاضطراب

الرُّعبُ يُطلَق على: الانقطاع من امتلاء الخوف، يقال: رعبته فرعب رعبًا، فهو رعب[4]، أمّا الخوف؛ فهو توقُّع مكروه عن أمارة

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بيت).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (قذف).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 441.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (رعب).

مظنونة أو معلومة[1]، ولمّا كان الحديث عمّا أحدث هزَّة عنيفة في قلوب اليهود؛ ناسب التّعبير بمفردة ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾؛ لدلالتها على امتلاء القلوب خوفًا وفزعًا دفعها إلى الجلاء، بخلاف مفردة (الخوف) الدّال على: مجرّد انزعاج القلب بتوقّع مكروه قد يتحقّق، وقد لا يتحقَّق، ومن ثمَّ فمن الممكن أن يخافَ المرءُ، لكنّه لا يستسلم، كما سبق بيانه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 576.

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: 3 - 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من بيان الجلاءِ إلى بيانِ سببه ورحمة الله بعباده

بعد أن بيَّنت الآيتان السّابقتان أنَّ إخراجَ اليهود من ديارهم لأوّل الحشر نعمةٌ كبرى ومِنَّةٌ عظمى، تستوجب اختصاص اللّه تعالى بمزيد من التَّسبيح والتَّمجيد؛ لأنَّه هو الّذي أخرجهم وأجلاهم؛ ناسب أن تبيّن هاتان الآيتان جانبًا من حكمة اللّه في إخراجهم(1)، وأن توضِّحا السَّبب الّذي كان وراء إجلائهم، وأن تذكرا كذلك أنّ ما حصل لهم يمكن أن يحصل لكلّ من نهج نهجهم، وسار على دربهم، وأن تُبيِّن نعمةَ الإجلاءِ على اليهود الّتي حالت دون نزول العذابِ عليهم في الدّنيا، وأنَّ ما وقع عليهم كان بسبب مشاقَّتهم اللّه ورسوله، وشأنُ المُشاقّ أن يُصيبه عقاب شديد.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾: (جلو) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ: انكِشافُ الشَّيْءِ وبُروزُهُ، يُقالُ: جَلَوْتُ العَروسَ جَلْوَةً وجَلاءً، وجَلَوْتُ السَّيْفَ جَلاءً، ومِنَ البابِ: أَجْلَيْتُ القوم عن منازلهم، فَجَلَوا عنها، أي: أبرزتهم عنها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(2).

2) ﴿شَآقُّواْ﴾: (شقق) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على: انصِداعٍ في الشَّيْءِ، تَقولُ: شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا؛ إذا صَدَعْتَهُ، ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ، وهوَ الخِلافُ، وذَلِكَ إذا انْصَدَعَتِ الجَماعَةُ، وتَفَرَّقَتْ،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلو)، والرّاغب، مفردات القرآن: (جلو).

يُقالُ: شَقّوا عَصا المُسْلِمينَ، وقَدِ انشَقَّتْ عَصا القَوْمِ بَعْدَ التِئامِها؛ إذا تَفَرَّقَ أَمْرُهُمْ[1]، والشِّقاقُ: المخالفة، وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النّساء: 35]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]، أي: مخالفة، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، معناه: صار في شقٍّ غير شقِّ أوليائه[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

استبدال الجلاءِ بالعقابِ في الدُّنيا لا يُلغي عقابَ الآخرة

تُبيِّن الآيةُ الأولى أنَّ إخراجَ بني النَّضير من ديارهم على الوجه الّذي أراده اللّهُ تعالى، وقضى به عليهم هو عقابٌ يختلف عن عقاب القتل والسَّبي الَّذي أُخِذَ به إخوانُهم من بني قريظة وغيرهم، وسواء أكان العقاب قتلًا أم إخراجًا، فإنَّه لن يكون بديلًا عن عذاب اللّه لهم في الآخرة[3]، وتُبيِّن الآيةُ الثّانيةُ أنَّ ذلك كلَّه بسبب أنَّهم شاقّوا اللّه تعالى، وعادَوا رسولَه ﷺ، وأرادوا قتله، وأطلقوا عليه ألسنتهم وأيديهم بالسّوء، وأنَّ من قضاء اللّه تعالى وسُنَّتِه أن يُعاقب مَنْ يشاقّ اللّه ورسوله بأشدِّ أنواع العذاب[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

عذابُ الدّنيا لا يُغني عن عذاب الآخرة

تحتمل أن تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ استئنافيَّة، جيء بها للتَّنبيه إلى أنَّ ما حصل لليهود في الدّنيا من عذاب أو إخراج لن يعفيهم من العذاب المُعَدِّ لهم في الآخرة؛ بسبب مشاقَّتهم للّه تعالى، وتحدّيهم لرسوله ﷺ، وتحتمل أن تكون الواو للاعتراض والجملة بعدها معترضة بين فعل الإخراج وسببه، والمعنى: أخرجهم اللّه تعالى من ديارهم عقابًا لهم على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (شق).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 234.
(4) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 644.

كفرهم به سبحانه وتكذيبهم لرسوله ﷺ، وأنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعاقبهم بالقتل والأسر؛ لأنَّهم يستحقّون ذلك، فلو لم يقذف في قلوبهم الرّعب حتى استسلموا؛ لعاقبهم بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة، فَعُذِّبوا قتلًا وأسرًا[1].

دلالة التّعبير بـ (لَوْلا):

في عقاب اليهود بالإخراج نصر للمسلمين وغنائم من دون أن تراق دماء من الفريقين

(لَوْلا) حرف امتناع لوجود، أي: امتناع حصول الجواب لوجود الشّرط، وفي التّعبير به دلالة على أنَّ جلاء بني النّضير عن ديارهم كان سببًا في عدم معاقبتهم بالقتل والسَّبي، كما حدث لإخوانهم، فلولا الإخراج؛ لعذَّبهم اللّه تعالى في الدّنيا عذابًا شديدًا استأصل به شأفتهم، ولكنَّه تعالى كتب عليهم الجلاء دون القتل والسّبي لمصلحة اقتضتها حكمته، لعلَّ من مظاهرها أن يغنم المسلمون ديارهم وأموالهم، دون أن تُراق دماء من الفريقين، ودون أن يُعَرِّض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال[2].

نكتة التَّعبير بأنْ والفعل الماضي دون المصدر:

التّعبير بالمصدر المؤوَّل يبين زمن الكتابة وفاعلها

جاء التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ بالمصدر المكوَّن من أنْ والفعل الماضي: ﴿أَن كَتَبَ﴾ دون (كتابة)؛ لما يفيده التَّعبير بالفعل من بيان زمن الكتابة، وتأكيد أنَّها من فعل اللّه تعالى، وليست من فعل أحد غيره كما سيأتي بيانه، وأنَّ تلك الكتابة كانت لمصلحة أكيدة تعود على المسلمين بالدَّرجة الأولى، ولو عبَّر بالمصدر الصَّريح؛ لما عُرِف زمنُ الكتابةِ، ولما عُرِف فاعلُها ومُقَدِّرُها.

دلالة ذكر فعل الكتابة:

آثر النَّظم الكريم أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾، دون أن يقولَ: (ولولا أن أجلاهم اللّه)، فجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 73.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 73، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 286.

التَّعبير بفعل: ﴿كَتَبَ﴾؛ للدَّلالة على "أنَّ إجلاءَ اليهود عن المدينة أمرٌ قدَّره اللّه تعالى عليهم تقديرًا يُشبه الكتابة في تحقُّق مضمونه، وكان مظهرُ ذلك التّقدير الإلهيّ ما تلاحق بهم من النّكبات من جلاء بني النَّضير، ثم فتح بني قريظة، ثم فتح خيبر"[1]، وجيء به ماضيًا؛ للإشارة إلى أنَّه ممّا قدَّره اللّهُ تعالى في الأزل على بني إسرائيل بصفة عامّة، وعلى بني النّضير بصفة خاصّة[2].

إجلاء اليهود مما قدَّره الله تعالى تقديرًا مكتوبًا

غرض إظهار اسم الجلالة:

آثر النّظم الكريم إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾؛ لتأكيد أنَّ كلَّ ما حدث في هذه الغزوة راجعٌ إلى تدبير اللّه تعالى، وأنَّه أثر من آثار حكمته، وليس لأحد فيه أدنى تدبير أو ترتيب، وهو ما يؤكِّد ضرورة اختصاصه بمزيد من التّسبيح والتّمجيد، ولتقريع اليهود بأنَّ الجلاء الّذي كان عليهم هو بما كتبه اللّه عليهم، وليعلموا أنَّ ما نالوه إنَّما هو أمر اللّه وإرادته، وبيانُ هذا المعنى بالإضمار حاصلٌ، لكنّه ليس كإظهار الفاعل، فغرض الإظهار هو تأكيد الفعل، وتوبيخ اليهود وتقريعهم وتبكيتهم.

ما كتبه الله على بني النّضير؛ بسبب أعمالهم

بلاغة حرف الاستعلاء:

تعدية فعل الكتابة إلى ضمير بني النَّضير بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، دلالة على أنَّ اللّه كتب ذلك الإجلاء إذلالًا وإخزاءً[3]، ولكونه أشدَّ عليهم من التَّقتيل وأشقَّ من السّبي؛ لعِلْمِ اللّه بما يوجع كلَّ قبيل منهم، فاختار لهم الإجلاء، واختار لغيرهم القتل والسّبي في الدُّنيا، بجانب ما ينتظرهم من عذاب النّار في الآخرة، فهو إجلاء ثابتٌ ذلُّه عليهم إلى يوم الدّين، وهو من الذّل والمسكنة المضروبة على بني إسرائيل.

إذلالُ الجلاء لازمٌ لبني النضير إلى يومِ الدّين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 73.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 413.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 413.

نكتة تقديمِ الجار والمجرور على المفعول:

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعول: ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾؛ للدَّلالة على اختصاص يهود بني النّضير من بين بني إسرائيل بالإجلاء والإخراج؛ إذ عوقبوا هم بذلك، وعوقب إخوانهم من بني قريظة بالعذاب دون الجلاء، بقتل المقاتِلة وسبي الذّرية، فإنّه تعالى قد قضى قضاءً حتمًا أن يُطهِّر المدينة بلدَ الوحي منهم[1].

اختصَّ الله تعالى يهودَ بني النضير دون غيرهِم بالإخراج

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾ دون (الإخراج)؛ للإشارة إلى أنَّه كان خروجًا أبديًّا ليس بعده عودٌ، كما أنَّه كان جلاء كاملًا شاملًا جميعَ الأهل والذريَّة، "فالفرق بين الجلاء والإخراج من وجهين: **أحدهما:** أنَّ الجلاءَ ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد، **الثّاني:** أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد"[2]، فدلَّ الجلاء على أنّ بني النَّضير جميعهم قد أُخرج من المدينة، ولم يبق أحدٌ منهم، وهو شاهدٌ على مشاقتهم للّه ولرسوله، وأنَّ السَّبب في إخراجهم.

كان إخراج بني النَّضير شاملًا الأهل والذرّيَّة بدون عود

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡجَلَآءَ﴾ لتعريف العهد، ما يعني أنَّ المراد به: الإخراج الَّذي يعرفه النّاسُ، وشاهدوه بأعينهم، أو سمعوا عن كيفيَّته وطريقته سماعًا يقترب من الرُّؤية بالعين، والّذي سبق وصف السّورة له بدءًا من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

إجلاء بني النّضير معهودٌ لدى النّاس معروف لدى من سمعه به

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله: ﴿لَعَذَّبَهُمۡ﴾ هي الواقعة في جواب (لَوۡلَا)، وهي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 413.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 501.

الإجلاء لون من ألوان العقاب الشَّديد على النُّفوس

تفيد التَّأكيد الدّال على أنَّ تعذيب اليهود بالقتل والسّبي كان أمرًا محقَّقًا؛ إذا لم يبادروا إلى طلب الجلاء، ويفعلوه، تحقيقًا لقدر اللّٰه الأزليّ فيهم، وليس معناه: أنّ الإجلاء كان أهونَ عليهم من الموت، ولكنّ اللّٰه تعالى "كتب عليهم الجلاء، واقتضته حكمتُه، والّذي دعاه إلى اختياره أنَّه أشقُّ عليهم من الموت"[1].

بلاغة التَّعبير بالفعل: ﴿لَعَذَّبَهُمۡ﴾:

العذابُ أشدُّ من العقاب لما فيه من إبراز الألم وتحصيل النَّدم

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ بفعل التَّعذيب، فقال: ﴿لَعَذَّبَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنّ العقاب الّذي أعدَّه اللّٰهُ لليهود - حال رفضهم الجلاء ومكابرتهم ما قذفه اللّٰه من الرّعب في قلوبهم - سيكون على وجهٍ بالغٍ في الشّدة والألم، وسيجتمع فيه القتل مع السّبي، كما حدث لإخوانهم، فيعذبون عذابًا نفسيًّا وآخر حسيًّا، يُزاد عليه ما أُعِدَّ لهم من العذاب في الآخرة، ولو قيل: (لعاقبهم)؛ لما أوحى فعل العقاب بالشدَّة والألم الذي دلَّ عليه فعل التَّعذيب، المُعَبَّر به عن عقاب الآخرة - كما سيأتي بيانه - إذ التَّعذيبُ نظرٌ إلى نزولِ الألم، والعقاب نظرٌ إلى المجازاة، فكان التَّعذيب أشدَّ من العقاب.

بلاغة حرف الظرفية:

التّعبير بحرف الظّرفية في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ لمقابلة زمان الآخرة، فهما زمانان متقابلان، ولكلِّ زمان عذابه الّذي يختصُّ به، فالظّرفيَّة منبِّهةٌ على طبيعة العذابِ ضمن زمانه ومكانه.

نكتة حذف الموصوف (الحياة):

عـذابُ اليهود الدّنيويُّ خالٍ من معنى الحياة الّتي يحرصون عليها

﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: (الحياة الدّنيا)، ووجه حذف الموصوف والاكتفاء بالصِّفة دون الموصوف، هو الإلماح إلى ما فيها من شقاء وزوال، وليس إلى ما فيها من حياة ونعيم، ولتسليط الضّوء على الدّنيا باعتبارها زمانًا ممتدًّا لا باعتبارها

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 500.

حياةً ينغمس فيها النّاس بطلب معيشتهم، ولمّا كان اليهود أحرصَ النّاس على حياةٍ؛ كان حذف لفظ الحياة هو الأولى بالمقام؛ للتّنبيه على أنَّ الحياة ستكون معدومةً بالنِّسبة إليهم، ولبيان التّقابل بين الدُّنيا والآخرة باعتبار ما فيهما من عذابٍ، لا باعتبار ما فيهما من حياةٍ، فهما زمانان متقابلان يجري فيهما العذابُ.

نوع الواو في قوله: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الاحــتراسُ عن مظنَّة تحقيق البدل في عذاب الدُّنيا عن الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تحتمل أن تكون استئنافيّة، والجملة بعدها مستأنفة؛ لبيان ما أعدَّه اللّه تعالى لليهود من عذاب في الآخرة، بالإضافة إلى ما عُذِّبوا به من إجلاءٍ أو تقتيلٍ في الدّنيا، وتحتمل أن تكون الواو لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ﴾، أو على جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بقصد الاحتراس من توهُّم أنَّ الجلاءَ بدلٌ من عذاب الدّنيا ومن عذاب الآخرة[1]، فكان الخبر الّذي تضمّنته الجملة حاملًا معنًى تنبيهيًّا على أنَّ لهم فوق هذا الّذي عُذِّبوه في الدُّنيا عذابٌ آخر في الآخرة.

دلالة تقديم الخبر على المبتدأ:

الاهتمام بعذاب الآخـرة توكيدٌ لوقعه وتحقيقٌ لواقعه

قوله: (لَهُمۡ) جار ومجرور في محلِّ رفع خبر مقدّم، والضَّمير فيه يعود إلى اليهود الّذين عُذِّبوا بالقتل أو الإخراج في الدّنيا، وتقديم الخبر على المبتدأ ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ للاهتمام بعذاب النّار في الآخرة، بجانب العذاب الّذي خُصّوا به في الدّنيا، أو لتخصيص عذاب الآخرة بهم على وجه المبالغة، فكأنَّ عذاب الآخرةِ لم يكن إلّا لهم لسوء ظنّهم باللّه تعالى ومبادرتهم بالكفرِ، فقد كانوا أوّل من كفر به ممّن وجب عليه أن يكون أوّل من آمن به.

دلالة استعمال حرف الظرفية:

التّعبير بحرف الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 74.

﴿ٱلنَّارِ﴾ دالٌّ على أنّ بني النّضير ومَنْ على شاكلتهم من اليهود والكفّار سيعذّبون في الآخرة عذابًا أبديًّا شاملًا للآخرة كلِّها، وأنَّ انغماسَهم في النّار سيدوم دوامًا لا مجال فيه للفرار، ولا أمل معه في الخروج بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ولتحسّن المقابلة بين زماني العذاب، فأحدهما في الدّنيا والآخر في الآخرة، ولن يُغني أحدهما عن الآخر، ولن يتّصل أحدهما بالآخر، فهما ظرفان زمانيّان مكانيّان في كلٍّ منهما عذابُه الّذي كتبه اللّه عليهم.

عذاب الآخرة زمانٌ ومكانٌ مستقلٌّ بذاته وصفاته عن عذاب الدّنيا

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

طابق النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ بين اسمين هما: ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وجَمَعَ بينهما في قَرْنٍ واحدٍ لإيضاح أنَّ عقاب اليهود على الكفر باللّه تعالى ومعاداة رسوله ﷺ لن يقتصر على العذاب الدُّنيويِّ بالقتل أو الإجلاء فقط، ولكنه سيمتدُّ؛ ليشمل تعذيبهم بالنّار الّتي لا يعرف حقيقة عذابها إلا اللّهُ ﷻ في الآخرة، وذِكْرُ مفردة (العذاب) معهما دالٌّ على أنَّ كلا العذابين بالغٌ الغايةَ في الشدَّة والألم، وكافٍ في ردعِ مَنْ يجترئ على الكفر باللّه تعالى ومعاداة رسوله ﷺ وزجرِه.

التّقابل بين الأضداد في جهةٍ جامعةٍ يزيد من هولِ الموقف وشديد العذاب

نكتة اختيار ﴿عَذَابُ﴾:

آثر البيانُ التّعبيرَ بمفردة العذاب دون (العقاب) في قوله: ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ للدَّلالة على أنّ العقاب بالنّار بالغٌ الغايةَ الّتي لا مزيد عليها في الشّدة والألم كما سبق بيانه.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ للعهد الذهنيّ، أي: النّار الّتي ذُكِرت في كتاب اللّه في مواطنَ عديدة، وسُمّيت بأسماء كثيرةٍ، فإذا ذكرت انصرف الذّهنُ إليها، ونارُ الدّنيا لا تساوي بجانبها شيئًا.

مِنْ خصائص النّار التّعذيب والإيلام لكلّ من ألقي فيها

عذابُ النّار عذابٌ خاصٌ لم يعرف النّاس له مثيلًا

دلالة إضافة ﴿عَذَابُ﴾ إلى ﴿ٱلنَّارِ﴾:

في إضافة ﴿عَذَابُ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دلالة على أنَّ من خصائصها التَّعذيب والإيلام لكلِّ مَنْ أُلْقيَ فيها، على الوجه الّذي يكافئُ ما ارتكب من آثام، وما اقترف من خطايا، فالإضافة بمعنى (في)، أي: عذابٌ في النار، أو بمعنى (اللّام)، أي: عذابٌ خاصٌّ بالنّار، واجتماع المعنيين هو الظّاهر، فالعذاب سيكون خاصًّا بها وفيها في آن، ومِنْ ثمَّ يكونُ للتَّرهيب بها والتَّخويف من عذابها أثرُه في صرف النّاس عن موجباته، الّتي يأتي على رأسها الكفرُ باللهِ والغدرُ برسوله ﷺ.

تعليلُ الأفعال الإلهيَّة رحمةً بالعبادِ لردعهم عن أسباب العذاب

علّة فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ﴾:

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ﴾ مفصولة عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الّذي تجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثاره الكلامُ السّابقُ في نفس المتلقّي، عن السَّبب في اختصاص اليهود بعذابٍ في الدُّنيا وعذابِ النّار في الآخرة، ومن ثمَّ تُفصل عمّا قبلها كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال، كما أنَّ فيها معنى التّعليل المكتسب من الفصل.

عذاب الله عظيمٌ في ذاته وفي آثاره يورِّث سماعُه الخوف والنَّدم

مرجع اسم الإشارة وبلاغة التَّعبير به:

اسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يشمل كلَّ ما ذُكِر من إخراج الّذين كفروا من ديارهم، وقذْفِ الرّعب في قلوبهم، وتخريبِ بيوتهم، وإعدادِ العذاب في الآخرة لهم[1]، وأوثر التَّعبير بالبعيد دون القريب مع كون المشار إليه قريبًا تعظيمًا لما نزل بهم وتفخيمًا لشأنه، بإنزال ما فيه مِنْ بُعدٍ معنويٍّ منزلة البُعد الحِسيِّ، والمعنى: ذلك الأمر العظيم الّذي فعله اللهُ بهم من الجلاء ومقدّماته في الدّنيا، ويفعله بهم في الآخرة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 74.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 414.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد السببيّة، والمعنى: ذلك لأنَّهم شاقّوا اللّه ورسوله، ووجه التّعبير بالباء الّتي تفيد الإلصاق في الأصل[1]، دون لام التَّعليل الدّلالة على أنَّهم ضالعون في معاداة اللّه ورسوله، راسخون فيها، كأنَّها ملتصقة بهم، وتجري في عروقهم، وكأنَّهم مُتَشبِّعون بها، لا ينفكّون عنها.

اليهود راسخون في مشاقَّة اللهِ ورسوله متشبِّعون بها

بلاغة التّوكيد:

آثر النّظم الكريم التّعبير بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ﴾، ولم يقل: (بمشاقّتهم)؛ ليتوصَّل بـ (أنَّ) إلى تأكيد سببِ التّعذيب، وهو اتِّخاذُ اليهود شِقًّا غير شقِّ اللّه وشقِّ رسولِه، وفعلهم ذلك على وجه التّأكيد، وفي التّعبير عن المسند إليه بالضّمير العائد إلى اليهود مُقدَّمًا على الخبر الفعليِّ في جملة: ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ﴾ زيادة تأكيد بقيام اليهود بمشاقَّة اللّه تعالى، ومعاداة رسوله ﷺ، وتقوية لحصول ذلك منهم، وإن حاولوا إخفاءه أو الإسرارَ به.

اليهود ضالعون في المشاقة، وإن حاولوا إخفاء ذلك

نكتة استعمال مفردة المشاقّة دون العداوة:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿شَآقُّواْ﴾ الموضوع للانصداع؛ للدّلالة على إيغال اليهود في العداوة وإبلاغهم في الكيد والإيذاء، وذلك لأنَّهم اتّخذوا شقًّا غيرَ شقِّ اللّه تعالى وشقِّ رسوله، ووقفوا في جانبٍ مغايرٍ لجانبهما تمامًا، بخلاف فعل العداوة الدّالِّ على مجرَّد التَّجاوز القلبيّ من غير إيذاءٍ أو انضواءٍ تحت لواء فريق آخر[2]، وهو ما يخالف واقع اليهود وحقيقتهم؛ فالمشاقّة دالَّةٌ على العداوةِ بطريق اللّزوم، مع تصويرِ مشهد المشاقّة؛ فالعداوة حقيقة والمشاقّة دليلٌ.

العداوة حقيقة والمشاقَّة دليلٌ

---

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 36.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدا)، والرّاغب، مفردات القرآن: (عدا).

لا كفرَ أشنع من الاجتراء على الله تعالى

فائدة ذكر اسم الجلالة:

أوثر ذكر اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا عليه؛ إذ شاقّوا، وغالَبوا مَنْ لا سبيل إلى مغالبته أصلًا، وللإشعار بعلَّة الحكم في جملة الجواب[1].

التّشنيع بصنيع اليهود وتشريف مقام الرّسول

فائدة تعدية الفعل إلى ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

آثر النّظم الكريم ذِكر اللّه تعالى وعطف الرّسول عليه، مع أنّه "كان يكفي ذكر الرَّسول أو ذكر ربِّه؛ للإشارة إلى أنّ محاربة الرّسول محاربةٌ للّه، وأنّ طاعة الرّسول طاعةٌ للّه، وأنّ عصيانَ الرّسول محادةٌ للّه ومعاداةٌ له ﷺ"[2]، مع ما في ذلك من تشريف رسول اللّه ﷺ، ورفع شأنه في مواجهة يهود الّذين حسدوا العرب أن يُرسل فيهم رسول.

عداء اليهود كان للمُرسِل سبحانه والرَّسول والرِّسالة

فائدة تعدية الفعل إلى ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

سبق القول بأنّ تعدية الفعل: ﴿شَآقُّواْ﴾ إلى ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فيه تقبيح لصنيع اليهود وتشنيع بفعلهم واجترائهم، وفيه كذلك دلالة على استحقاقهم العذاب الدّنيويّ الّذي أنزله اللّه تعالى بهم، والعذاب الأخرويّ الّذي أعدّه لهم، ولو عُدّيَ الفعل إلى (المؤمنين) لما بلغ صنيعُهم حدَّ الشّناعةِ والقُبحِ الّذي أفاده التّركيبُ القرآنيّ، وعدم ذكر المؤمنين لبيان العموم، فكلُّ من يُعادي اللّه تعالى، ويُعادي رسولَه، فقد عادى أولياءهما لزومًا، ولتوجيه الأنظار إلى أنَّ المشاقّة هي في حقيقتها للعقيدة المتمثّلة بالمرسل سبحانه والرّسول والرّسالة.

نكتة التّعبير بعنوان الرّسول:

التّعبير بوصف الرّسالة دون وصف النبوّة دالٌّ على أنّ عداوة اليهود

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 11.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/ 3081.

لرسول اللّه ناتجة عن اصطفاء نبيّ عربيّ للرّسالة الخاتِمة دونهم، وإشارة إلى أنّ حرمانهم من هذا الشّرف العظيم هو الباعث الرّئيس على تلك المشاقّة، وفيه أيضًا دلالة على استهانتهم بالوحي النّازل من عند اللّه تعالى على رسوله وتكذيبهم له، ولو ذكر وصفَ النبيّ؛ لذهبت الإشارةُ إلى العلّة الّتي لأجلها كانت العداوة، وهي أنَّ اللّه تعالى أرسل رسولًا برسالةٍ ناسخةٍ لشريعة موسى، وهذا من أعظم ما ابتُلي به اليهود على مرِّ التّاريخ، فإرسال عيسى عليه السلام لم يكن البلاء الأعظم لعلمه بأنّه ليس الخاتم، فانتظروا، فما ظفروا إلّا بالذمِّ والهوان.

عداوتهم للنبيّ ناتجةٌ عن اصطفائه للرّسالةِ الخاتِمة

نوع الواو في قوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ استئنافيّة، والجملة بعدها تذييل يفيد عموم الشِّدَّة في العقاب، والإبلاغ في العذاب لكلِّ مَنْ يعادي اللّهَ تعالى، ويجترئ على رسوله ﷺ[1]، وتحتمل أن تكون الواو عاطفةً ما بعدها على جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ "تكملةً لما قبلها وتقريرًا لمضمونه، وتحقيقًا للسّببيّة بالطريق البرهانيّ، كأنَّه قيل: ذلك العقابُ الشّديدُ بسبب مشاقّتهم للّه تعالى ورسوله، وكلُّ مَن يشاقق اللّه ورسوله - كائنًا مَن كان - فله بسبب ذلك عقابٌ شديدٌ"[2].

احتمال الاستئناف والعطف يقتضي توكيد ما قبله وتقريره

دلالة التّعبير بالمضارع: ﴿يُشَآقِّ﴾:

عبّر البيان بفعل المشاقّة الدّال على المخاصمة والعداوة - كما سبق بيانه - مضارعًا لما يفيده التّعبير بالمضارع من التّحذير الشّديد، والتّهديد والوعيد لمن تتجدَّد عداواته للّه تعالى ولرسوله ﷺ في المستقبل، ويبقى مُصِرًّا على تجاوز حدِّ الطّاعة والاتّباع بعد معرفته ما حدث لبني النّضير بسبب فعلهم ذلك، من إجلاءٍ وشتاتٍ في الحياة الدّنيا، ووعيدٍ بعذاب أليم في الدّار الآخرة.

التّهديد والوعيد لمن تتجدَّد عداوته لله ورسوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 74.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 266.

بلاغة الاقتصار على اسم الجلالة في الجملة الثّانية:

مشاقَّةُ الرّسول مشاقَّةٌ لله من غير مثنوية

لم يكرّر البيان القرآنيّ ذِكْرَ رسول اللّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾؛ تربيةً للمهابة، وتفخيمًا للرّسول ﷺ، ورفعةً لشأنه؛ بإفهام أنَّ مشاقَّتَهُ مشاقَّةٌ للّه من غير مثنويّة أصلًا، وإشارة أخرى إلى أنَّهم بالغوا في إخفاء مشاقّتهم له، فلم يظهر عليها غيرُ اللّه؛ إذ لم يحصل منهم مفاعلة بينهم وبين الرّسول؛ إذ لم يمكر بهم، وإنَّما جاهرهم حين أعلمه اللّهُ بمكرهم[1].

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

مشاقَّةُ الله تعالى ومعاداةُ رسوله سببٌ في غضب اللهِ وعقابه

قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ سَدَّ مسدَّ جواب الشّرط أو دليلٌ عليه، والفاء فيه للتسبُّب الدّال على أن الاجتراء على مشاقّة اللّه تعالى، والإصرار على معاداة رسوله ﷺ، سببٌ في غضب اللّهِ المعروفِ بالرّحمة، وباعثٌ إلى عدم إمهاله مَنْ يفعل ذلك، وسببٌ في معاقبته بأشدِّ أنواعِ العقابِ وأقساها.

فائدة إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار:

تربية المهابة وتشديدٌ في الزّجر لمن آثر المشاقّة على الطّاعة

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فإنَّه شديد العقاب)، لكن النّظمَ الكريمَ عدل عن الإضمار إلى إظهار الاسم الجليل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ تربيةً للمهابة، وتشديدًا في الزَّجر والإرعاب؛ لما فيه من التّنبيه إلى أنَّ الّذي سيتولّى إنزالَ العقاب بمن تجاوز حدود الأدب في حقه جلّ شأنه، وفي حقِّ الرّسول الّذي أمره بالبلاغ عنه هو اللّه تعالى، بما له من الإحاطة والعظمة والاقتدار.

وجه التّعبير بالشدّة في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

شديدُ العداوة يستحقّ شديدَ العقاب

قولُه: ﴿شَدِيدُ﴾ خبر للحرف النّاسخ، وقد أوثر التّعبيرُ به دون (قويّ) أو (كبير) أو غير ذلك؛ لما يدلُّ عليه من القوّة مع الصَّلابة[2]،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 414.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 107.

ما يعني: أنه لا تهاون ولا شفقة مع من يتحدَّى اللّه تعالى، ويُعادي رسولَه ﷺ؛ إذ يعاقبه اللّه بأعلى أنواع العذاب وأشدِّها، وبما لا يصل إليه في الإيلام والشدّة نوعٌ آخر، سواء في الدّنيا أم في الآخرة، وفيه تأكيدٌ لشناعة فعل اليهود بصفة خاصّة، وقبح من ينهج نهجهم، ويسير على دربهم بصفة عامّة، وفيه أيضًا تقوية لاستحقاقهم هذا النّوع من العذاب من غير ظلمٍ ولا جَوْرٍ، وفيه تعريضٌ بهم، فلمّا كانت مشاقّتهم شديدةً على الإسلام والمسلمين، ناسب أن يُعاقبهم من جنس مشاقّتهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُشاقَّة والمفارقة:

المــفـــارقـــة لا تقتضي العداوة، والمشاقّة نصٌّ في ذلك

الشقاق يَدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيْءِ، ومنه: الخِلافُ والمخالفة وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، أمّا الفِراقُ والمُفارَقَةُ؛ فضدُّ الوصال، وتكون بالأبدان أكثر، قال تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ [الكهف: 78]، وقال أيضًا: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة: 28][1]، ولما كان واقع اليهود مع رسول اللّه ﷺ هو الغدر والخيانة والتَّآمر؛ ناسب التّعبير بمفردة (الشّقاق) الدّالة على أنَّهم اتّخذوا شِقًّا غيرَ شقِّ الرّسول، وفارقوه بأبدانهم وقلوبهم، وصاروا يمثّلون فريقًا مناوئًا له ولدعوته، وانضووا تحت لواءٍ غيرَ لوائه، بخلاف مفردة (الفراق) الّتي يُفهم منها أنَّهم فارقوه فراقًا يمكن بعده العودةُ والتَّقاربُ، وهو ما لا ينطبق مع المقصود، بالإضافة إلى أنَّ الفراق لا يقتضي العداوة، بخلاف المشاقّة فهي نصٌّ في العداوة.

العذاب والعقاب:

الــعــذاب نـظـرٌ باعتبار الألـم، والـعـقـاب نـظـرٌ باعتبار الـجـزاء بالعدل

العذاب يعني: الألم المستمرَّ الّذي لا انقطاع له[2]، والعقاب ينبئ

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (فرق)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 186.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 239.

عَن استِحْقاق، وسمّي بذلك لأنَّ الفاعِل يسْتَحقُّهُ عقيب فعله، ويجوز أن يكون العَذاب مُسْتَحقًّا وغير مُستَحَقٍّ، وأصل العقاب التُّلوُّ، وهوَ تأدية الأوَّل إلَى الثّاني، يُقال: عقب الثّاني الأوّلَ؛ إذا تلاه، وعقب اللَّيلَ نَهارٌ، واللَّيلُ النَّهارَ، فهما عقيبان(1)، ولما كان السّياق؛ لبيان ما يستحقُّه بنو النّضير جزاء غدرهم برسول الله وتآمرهم مع الأعداء عليه؛ ناسب التّعبير عن عقابهم بمفردة (العذاب)، في قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عقابهم بالغٌ الغايَة في الشدَّة والألم بسبب خيانتهم، ولمّا كان القصد بيان أنَّ نزول هذا العذاب سيكون فوريًّا، ولن يُمهلوا، أو يُهملوا؛ ناسب التّعبير بمفردة (العقاب) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 240.

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الحشر: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من العذابِ الحسيِّ إلى العذاب المعنوي

بعد أن بيَّنت الآيتان السّابقتان أنَّ جلاء بني النّضير عن ديارهم كان عقابًا مستحقًّا؛ بسبب عداوتهم لرسول اللّه ﷺ واتِّخاذهم شِقًّا غير شقِّ اللّه تعالى وشِقِّ رسوله ﷺ؛ ناسب أن تُطَمْئِنَ هذه الآية المسلمين الّذين شاركوا في تقطيع نخيلهم، وساعدوا في تخريب ديارهم إلى أنَّ ما قاموا به من أعمال في ذلك كان بأمر من اللّه تعالى لرسوله ﷺ، من أجل إخزاء اليهود، وزيادة حسرتهم، واشتداد ألمهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَطَعۡتُم﴾: (قطع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على صَرْمٍ وإبانَةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا[2]، والقَطْعُ يعني: فصل الشّيء مدركًا بالبصر كالأجسام، أو مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، وقيل: فصل بعض الجرم الممتدِّ الملتحم عَنْ بعضه شَقًّا، كقطع الغصن واليد، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، وقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124][3].

2) ﴿لِّينَةٍ﴾: (لين) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ اللّينُ: ضِدُّ الخُشُونَةِ، ويُستعمَل في الأجسام، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، أي: نخلة ناعمة، ومخرجه مخرج فعلة، نحو: حنطة، ولا يختصُّ بنوع منه دون نوع[4].

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (قطع)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قطع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لين)، والرّاغب، مفردات القرآن: (لين).

3) ﴿قَآئِمَةً﴾: (قوم) يَدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزْم، يقال: قامَ يَقومُ قيامًا، فهو قائِمٌ، وجمعه: قيامٌ[1]، والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشّيء إلى أعلى ثابتًا، كقامة الإنسان وقيامه، قال تعالى: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ [هود: 100]، وقال أيضًا: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾[2].

4) ﴿أُصُولِهَا﴾: (أصل) يدلُّ على أساسِ الشَّيْءِ وأصْلِه[3]، وأصْلُ الشَّيء: قاعدته، ومعناه المحوريُّ: امتداد في العمق يقوم عليه الشّيء، ويمتدّ منه إلى الأعلى كقاعدتي الجبل والحائط لهما، وجذرِ الشّجرة لها، قال تعالى: ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]، وقال: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قطع النَّخيل وتركه فائدةٌ تعود على المسلمين

قيل: إنَّ الصّحابة نهى بعضُهم بعضًا عن قطع النّخيل، وقالوا: إنّما هي مغانم المسلمين، فنزلت هذه الآية لتصديق مَنْ نهى عن القطع، وتحليل مَنْ قطع مِن الإثم، والمعنى: لا تختلفوا - أيُّها المؤمنون - في شأن ما فعلتموه بنخيل بني النّضير، فمن قطع شيئًا من هذه النّخيل؛ فلا إثم عليه، ومن لم يقطع؛ فلا إثم عليه أيضًا؛ لأنَّ كلا الأمرين بإذن اللّه تعالى ورضاه، وفي كليهما مصلحة لكم؛ لأنَّ القطع يغيظ العدوّ، ويذلُّه، ويحمله على الاستسلام والخضوع لأمركم، والتَّرك يعود بالخير عليكم؛ لأنَّ تلك النّخيلَ الباقيةَ منفعتُها ستؤول إليكم[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم)، والرّاغب، مفردات القرآن: (قوم).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (أصل)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 288.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾ عما قبلها:

التّمهيد لبيان كيفيَّة توزيع الفيء الّذي غنمه المسلمون في هذه المعركة

جملة: ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، "أفضى به إلى المقصد من السّورة عن أحكام أموال بني النَّضير، وإشارة الآية إلى ما حدث في حصار بني النّضير"[1]؛ لبيان حكم قطع بعض المسلمين لنخيل بني النّضير، بقصد التّوسيع للجيش، وإدخال الرّعب في نفوس اليهود الّذين تحصَّنوا في حوائطهم، وليمهّد البيان به للحديث عن المقصود من السّورة، وهو كيفيّة توزيع الفيء الّذي غنمه المسلمون في هذه المعركة من غير خيل ولا ركاب.

نوع ﴿مَا﴾ ونكتة التّعبير به:

الإثارة والتّهييج إلى معرفة حكم تقطيع النّخيل

﴿مَا﴾ اسم شرط جازم مبني على السّكون في محل نصب مفعول به لفعل شرطه؛ إذ التّقدير: أيَّ شيءٍ قطعتُم؛ فبإذن اللّه[2]، وفي التّعبير به نوع من الإثارة والتّهييج إلى معرفة الحكم الإلهيّ فيما قام به المسلمون من تقطيع النّخيل أو تركه، حتى إذا ورد؛ استقرَّ في النّفوس وثبت في العقول، واطمأنَّ المسلمون إلى أنَّ كلا الأمرين مرضيٌّ عند اللّه تعالى، ولا شيءَ على مَنْ فعل أيَّ واحدٍ منهما.

علَّة تقديم ﴿مَا﴾ على ﴿قَطَعۡتُم﴾:

قدَّم البيان اسم الشرط ﴿مَا﴾ على فعله ﴿قَطَعۡتُم﴾؛ لأنَّ الشَّرط له الصّدارة، ولتحقيق الإثارة الّتي سبقت الإشارة إليها، وليَعُمَّ الفعلُ كلَّ النّخيل الّذي حصل فيه القطع أو التّرك، والمعنى: كل ما قطعتموه، أو تركتموه[3].

دلالة استعمال فعل القطع دون غيره:

توصيف الفعل كما هو تصويرٌ للمشهد وبيان للواقع

جاء التّعبير عن إزالة أشجار النّخيل من مكانها بفعل ﴿قَطَعۡتُم﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 75.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 500.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 416.

دون (اجتثثتم) أو (أزلتم)؛ وذلك لأنَّ القطع هو الّذي قام المسلمون في إزالة النّخيل؛ فلم يكن هناك اجتثاث كامل ولا إزالة من الجذور، وإنّما هو قطع مع إبقاء أصل النّخلة، ففعل القطع يدلُّ على ما حصل؛ إذ هو توصيفٌ للواقعِ كما قام به المسلمون، فالّذي حصل هو القطع.

نكتة إسناد فعل القطع إلى ضمير الجماعة:

تخفيف الوطء عن القاطعين بإسناد الفعل للمجموع

آثر البيانُ إسنادَ فعل القطع إلى ضمير الجماعة، فقال: ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾؛ لأنَّ القلق من القطع والحرص على معرفة حكمه؛ كان يعتمل في نفوس كلِّ المسلمين، لا سيما بعد أن نهى بعضُهم بعضًا عنه، وبعد أن أنكر عليهم اليهودُ القطعَ والإتلافَ، وتحدَّثوا في شأنه، وهذا على إسناد الفعل إلى الجميع على الحقيقة، أما إذا كان الإسناد بإطلاق الكلِّ وإرادة البعض؛ فهو إسناد مجازيٌّ، ونكتته تخفيف الوطء عن القاطعين، كي لا يكثر الكلام من بعض المؤمنين غير القاطعين على القاطعين.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

قوله: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من اسم الشّرط، و﴿مِّن﴾ بيانيّة موضّحة لما قام المسلمون بقطعه، والمعنى: ما قطعتموه حال كونه لينة أو غيرها؛ فبإذن اللّه تعالى.

نكتة التّعبير بـ ﴿لِّينَةٍ﴾ نكرة:

زيادة غيظ اليهود بقطع ما أحبّوه وتضييع ما تمنّوه

اللّينة هي: النّخلة ما لم تكن عجوة أو برنية، وأصل لينة: لونة، فذهبت الواو لكسرة اللّام، وجمعها ألوان، وهي: النّخل كله سوى البرني والعجوة، وقال بعضهم: اللّينة النّخلة الكريمة، كأنّهم اشتقّوها من اللّين وجمعها لينٌ، فإن قيل: لم خُصَّت اللّينةُ بالقطع؟ قيل: إن كانت من الألوان؛ فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النَّخل، فليكون غيظ اليهود أشدَّ[1]، وأوثر التّعبير بها

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 501، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 505.

دون (نخلة) جريًا على عادة أهل المدينة في تسمية واحدة ما خلا العجوة من التَّمر الألوان لَوْن ولينة[1]، ولأنَّه أخفُّ؛ إذ لم يَرِد لفظ (نخلة) مفردًا في القرآن، وإنَّما ورد النَّخل اسم جمع[2]، وجيء بها نكرة؛ ليعم التَّعبير بها في سياق الشّرط كلَّ ما قُطع وكلَّ ما تُرك.

نوع ﴿أَوْ﴾ ودلالتها:

المــؤاخــذة في أحوال الحرب لا تستقيم كما في أحوال السّلم

﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ حرفُ عطفٍ يفيد مشاركة ما بعده لما قبله في المعنى والإعراب[3]، وهو هنا لإفادة التّقسيم، وفي التّعبير به دلالة على أنَّ التّركَ مشاركٌ للقطع في الإباحة وعدم المؤاخذة؛ لأنَّ كليهما تمَّ بأمر اللّه تعالى وإذنه، ولما فيهما من مصلحة تعود على المسلمين بالدّرجة الأولى، وهو ما يدلُّ على أنَّ القطع والتَّرك في مقام الحرب يتقاربان، ويؤخذ منه أنّ المؤاخذة لا تستقيم في الحال الطّارئ.

بلاغة الطّباق بين فعلي القطع والتّرك:

اســتــواء الـقـاطـعـين وتاركي القطع في نتيجة الفعل

طابق البيانُ الكريمُ في الجملة الشّرطية بين فعل القطع وفعل التّرك، وعطف الثّاني منهما على الأوّل بـ ﴿أَوْ﴾ التّي للتّقسيم؛ للدّلالة على أنَّ كلا الأمرين لا مؤاخذةَ فيهما، وأنّ القطعَ والتّركَ سواءٌ في الإباحة والإذن، فالّذين قاموا بالقطع على صواب، والّذين أمسكوا عنه على صواب، ومن ثمَّ تطمئنُّ النُّفوسُ، وتهدأ القلوبُ، وتقبل عطاءَ اللّه تعالى، وترضى بقَسْمِه في أمر الفيء الّذي هو غرضُ الآياتِ الرّئيسُ.

وجه التّعبير بالضّمير مؤنَّثًا في ﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾:

نفي الملل والبعد عــن الـركـاكـة وتعيين المتروك

الضّميرُ المنصوب (ها) في ﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾ يعود إلى ما فُسِّر به اسمُ الشّرط، وهو (اللينة)، ومن ثم جيء به مؤنَّثًا، وأوثر التّعبير به؛ جريًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 417.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77.

(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 227، 228.

على الظّاهر في التّعبير عن الاسم الّذي سبق ذكره بالضّمير؛ لأنَّه أدعى لنفي الملل والبعد عن الرّكاكة النّاتجة من تكرار كلمة أكثر من مرة في جمل متقاربة، ولما يفيده التّعبير بالضّمير من تعيين المتروك تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى أمر آخر، والمعنى: ما قطعتم من لينة، وما تركتم من لينة قائمة على أصولها؛ فبإذن الله.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿قَآئِمَةً﴾:

القيامُ دالٌّ على الرُّسوخِ والثَّباتِ وتحقيقِ النَّخل الفوائدَ المرجوَّةَ منه

قوله: ﴿قَآئِمَةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿تَرَكۡتُمُوهَا﴾، وقيل: حال من الضّمير المنصوب فيه، وقد أوثر التّعبير به دون (واقفة)؛ لأنَّ في القيام دلالةً على الرّسوخ والثّبات وأداء النّخل لكلِّ المنافع المنوطة به أو المرجوّة منه[1]، بخلاف (الوقوف) الّذي قد يكون مجرد انتصاب من جلوسٍ أو قعودٍ، أو تَوَقُّفًا بعد حركة[2]، وليس شرطًا أن يكون علامة على الرّسوخ والثّبات، وبالتّالي الإنتاج والنّفع.

دلالة قيد فعل التّرك بـ: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾:

تـصويـر هيئة النّخيل وبيان حسنها

لو قال: (أو تركتموها فبإذن الله)؛ لفُهم المراد، ولكنَّ النّظم الكريمَ عَمَدَ إلى تقييد فعل التّرك بقوله: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ لتصوير هيئتها، وإبراز حسنها، وإثبات أنَّ فروعَها قد بقيت قائمةً على أصولها، الّتي هي جذورها وجذوعها، وللإيماء إلى أنَّ ترك القطع أولى[3].

وجه التَّعبير بحرف الاستعلاء:

استعمال حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ دالٌّ على التَّمكُّن والرّسوخ المفضي إلى الثّبات، وبقاء المنافع، وأداء جميع الوظائف.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 238.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 288.

نكتة ذكر ﴿أُصُولِهَا﴾:

إطلاقُ الأصولِ إمّا على جذور النّخلة وإمّا على النخلةِ نفسِها

المراد بالأصول في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: سوقُ النَّخيل وجذورُها، ووجه ذكرها مع إمكان أن يُقال: (أو تركتموها قائمة فبإذن اللّه)، هو الدّلالة على أنَّ المسلمين تركوا بعضها باقية كما كانت، ولم يتعرَّضوا لها بشيء في أيِّ جزء منها[1]، وثم دلالة أخرى على أنَّ أصولَ النَّخلة بَعْضٌ منها، والمعنى: قائمةٌ فروعُها على أصولِها[2]، ففيه تنبيهٌ على عراقةِ النّخلِ، وأنَّ تركها بدون قطعٍ محافظةٌ على الأصول العريقة، ففيه تنبيهٌ على المحافظةِ على أصول النّخل ببقاء فروعها، أو بقائها هي قائمة، فيكون إطلاقُ الأصول إطلاقًا على النَّخلةِ ذاتِها، كأنَّه قيل: أو حافظتم عليها ببقاء أصلها، وهو الأقرب من الصّواب، والأدنى من دلالة الإيماء.

دلالة جمع الأصول، ومرجع الضّمير فيه:

الدّلالةُ على قلّة ما قُطِعَ من النّخيل وكثرة ما تُرِك

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ بالأصول جمعًا، فقال: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ للدّلالة على كثرة ما تُرك من النّخيل؛ إذ كان عددُ ما قُطِع ما بين اثنتين إلى ستِّ نخلاتٍ فقط، ومن ثمَّ فإنَّ الضّمير فيه يرجع إلى اسم الشّرط: ﴿مَا﴾ وليس إلى: ﴿لِّينَةٍ﴾؛ لأنَّ اللّينة ليس لها عِدَّةُ أصولٍ، بل لكلّ لينةٍ أصلٌ واحدٌ[3].

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

قطع النّخيل أو تركه بإذنٍ من اللّه تعالى لا بتدبير أحد

الفاء في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ هي الرّابطة بين جوابِ الشّرط وفعلِه، وهي هنا تدلُّ على أنَّ قطع نخيل بني النّضير أو تركه كان بإذن من اللّه سبحانه، والمعنى: فقطع ما قطعتم من النّخل، وترك ما تركتم؛ لأنَّ اللّه تعالى أذن للمسلمين به[4]، أي: إن قطعتم، أو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 237، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 234.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77.

تركتم؛ فذلك بإذن اللّه تعالى، لا بإرادتكم أو رغبتكم أو تدبيركم أو بأي شيءٍ آخر.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ حرف جرّ يفيد الاستعانة، وفي استعماله دلالة على أنَّ القطع والتّرك؛ بسبب عون اللّه تعالى وإذنه، ولولا إذنه ﷻ؛ لما كان القطع أو التّرك؛ فلا لوم ولا ندم.

وجه الإخبار بتعليق الأفعال ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

المسلمون أصحاب سجايا الصّدق وأخلاق النُّبل، فلا يأتون إلّا الصّالح من الأعمال

جاء تقييدُ أفعال القطع والتَّرك بقوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، مع أنَّ كلَّ شيء بإذنه، ولا يخرج عن إرادته؛ وذلك تبشيرًا للمسلمين، وإزالة لما عَلِقَ في نفوسهم؛ بسبب قطع بعض النّخيل، وإبطالًا لمزاعم اليهود بأنَّ ذلك إفساد في الأرض، والمعنى: فليس ذلك بفساد، ولكنّه صلاح أذن لكم فيه؛ ليُشفي به صدورَ المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم[1]، وفيه طمأنةٌ لنفوس المؤمنين أن يكونوا ارتكبوا أمرًا مخالفًا للشّرع، وهو ما يُنبئ عن سلامة الصّدور، وحكمة العقول في النّظر للإفساد في الأرض، بخلاف اليهود الّذين سعوا في الأرض خرابًا وإفسادًا؛ بسبب سوء طويَّتهم وخبث سجيّتهم.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلِيُخۡزِيَ﴾:

بيان علّة الإذن بقطع النَّخل أو تركه

الواو في جملة: ﴿وَلِيُخۡزِيَ﴾؛ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ عطفَ العلَّةِ على السّبب، أي: فقطْعُ ما قطعتم من النّخل وتركُ ما تركتم؛ لأنَّ اللّه أذن للمسلمين به لصلاح لهم فيه، وليخزي الفاسقين، بمعنى: وليذلَّ اليهود ويغيظهم؛ لأنّهم إذا رأوا المؤمنين يتحكَّمون في أموالهم كيفما أحبّوا، ويتصرَّفون فيها حسبما شاؤوا مِن القطع أو التّرك، ازدادوا غيظًا، وتضاعفوا حسرة، وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 418.

عزَّة للمؤمنين وخزي للكافرين[1]، وقيل: الواو عاطفة على محذوف تقديره: أذن في قطعها؛ ليَسُرَّ المؤمنين، ويُعِزَّهُم، ويُخْزيَ اليهودَ الفاسقين، ويذلّهم[2].

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِيُخۡزِيَ﴾، هي لام التّعليل الدالّة على أنّ الغايةَ الأساس والهدف الرّئيس من الإذن بقطع النّخيل أو تركه هو إخزاءُ اليهود الفاسقين وإذلالُهم؛ عقابًا لمشاقَّتهم الحقَّ.

نكتة استعمال مفردة الخزي:

الخزي تشهير بالفضيحة الجامعة بين العذاب المادّيّ والنفسيّ

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الخزي دون الإهانة، في بيان الغرض الرّئيس من الإذن بقطع النَّخيل وتركه بفعل الخزي؛ لدلالته على الذلّ والافتضاح[3]، فالخزي لفظٌ دالٌّ على كشف ستر المخزيِّ على الملأ، بحيث يُصاحبه ما حيي، ويُعرف به إلى أن يندثر ذكره، فجمع لهم عذابًا ماديًّا ونفسيًّا، فالعذاب الماديّ تمثّل في الخسارة الماليّة، والعذاب النفسيّ تمثّل في الذلّ وشيوع ما حدث لهم بين العرب، واطِّلاع النّاس على غدرهم وخيانتهم.

نكتة التّعبير عن اليهود بـ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

الفسق في الخروج عن مقتضيات الشّرع هو سبب إخزاء اليهود وتحسيرهم

آثر النّظم الكريم وسمَ اليهود بالفاسقين، ولم يُشر إليهم بالضّمير، فلم يقل: (وليخزيهم)، وذلك إشعارًا بعلّة الحكم[4]، أي: إنَّ إيغال بني النّضير في الفسق وثباتهم عليه هو السّبب الرّئيس في أمر اللّه تعالى بإخزائهم وزيادة حسرتهم، باستيلاء المسلمين على نخيلهم الّذي هو أعزُّ عليهم من أولادهم وبناتهم، وتصرفهم فيه كيفما يشاؤون قطعًا وإبقاءً، والفسق هنا ليس المراد به المعصية في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 227، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 77.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 37.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 237.

الأفعال، بل الخروج عن الدّين، فدلالة الفسق اللّغوي حاضرةٌ ومرادة، فهم فاسقون؛ لأنّهم خرجوا عن معالم الدّين، ومقتضيات الشّرع.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

الّذين ينهجون نـهـج الـيـهـود مُعرَّضون لِمِثلِ ما نَزَل بهم

في إيثار التّعبير عن اليهود بـ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المشتقّ من مادة (فَسَقَ) الّتي تعني: الخروج عن الطّاعة[1]، مُعَرَّفًا بـ (أل) الّتي للجنس، تهديدٌ لكلٍّ مَنْ ينهج نهجهم، ويسير على دربهم - من إخوانهم اليهود أو المنافقين أو الكافرين - بتعرُّضهم لمثل ما نزل ببني النّضير من الإخزاء في الدّنيا، بجانب ما ينتظرهم مِن عذاب النّار في الآخرة، فذِكر الفاسقين دالٌّ على اليهود أصالةً، وكل من سار على دربهم لزومًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحشر: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذكر خزي اليهود إلى ذكر كرامة الرّسول

بعد أن بيَّنت السّورةُ ما حلّ باليهود من العذاب العاجل، وما ينتظرهم من العقاب الآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم من التّخريب والقطع وأسباب ذلك؛ ناسب أن تشرع في الحديث عن الفيء الّذي أفاءه اللّهُ على المسلمين من أموال بني النّضير، فبدأت ببيان أنه أُخذ من غير حرب؛ تمهيدًا لتقسيمه بطريقة مغايرة للطّريقة الّتي تُقَسَّم بها الغنائم الّتي أُخِذت بعد حرب؛ إذ الأخيرة تُخَمَّس، وتلك لا تُخَمَّس[1]، فهو انتقالٌ من الحديث عن خزي اليهود بإجلائهم من ديارهم، إلى إكرام الرّسول ببيان ما له من غنائم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَآءَ﴾: (فيأ)، كَلِماتٌ تَدُلُّ على الرُّجوعِ، يُقالُ: فاءَ الفَيءُ؛ إذا رَجَعَ الظِّلُّ مِنْ جانِبِ المَغْرِبِ إِلَى جانِبِ المَشْرِقِ، وكُلُّ رُجوعٍ فَيْءٌ، قالَ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: 9]، أي: تَرْجِعَ[2]، وقيل للغنيمة الّتي لا يلحق فيها مشقّة: فَيْءٌ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ [الأحزاب: 50]، سمّي بالفَيءِ الّذي هو الظّلّ؛ تنبيهًا إلى أنّ أشرفَ أعراضِ الدّنيا يجري مجرى ظلٍّ زائلٍ[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 227.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأّ).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (فيأ).

2) ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾: الوَجيفُ: سرعةُ السّير، يقال: أوجفتُ البعير: أسرعتُه، ومعناه المحوريُّ: خفة حركة الشَّيء ومباعدته مقره بسبب خفَّة ما يحتويه، كارتفاع اللّسان عن مَقَرِّه بالذكْر بخفَّة، وارتفاع الفرس وغيره عن الأرض عند الإسراع، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾، أي: ما أعملتم، وما أجهدتم خيلًا ولا ركابًا من أجل تحصيله، فيكون لكم سهمٌ فيه[1].

3) ﴿رِكَابٖ﴾: (ركب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ عُلوُّ شَيْءٍ شَيْئًا، يُقالُ: رَكِبَ رُكوبًا يَرْكَبُ[2]، والرُّكوبُ في الأصل: كون الإنسان على ظهر حيوان، واختصَّ الرِّكابُ بالمَرْكوب، قال تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [النحل: 8]، وقال أيضًا: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65] ومنه: الإبل الّتي يُسار عليها، واحدتها راحلة، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾[3].

4) ﴿يُسَلِّطُ﴾: (سلط) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ القوَّةُ والقَهْرُ، مِنْ ذَلِكَ: السَّلاطةُ مِنَ التَّسَلُّطِ، وهو التَّمكُّن من القهر، يقال: سَلَّطْتُهُ فَتَسَلَّطَ، ولِذَلِكَ سُمّيَ السُّلطانُ سُلْطانًا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ﴾ [النساء: 90]، وقال أيضًا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمـوالُ الفيء منحةٌ تفضَّل اللهُ تعالى بها على رسوله

تبيِّن الآية الكريمة أنَّ ما أعطاه اللّهُ تعالى لرسوله ﷺ من أموال بني النَّضير الّتي صالحوه عليها، هي فضلٌ تفضَّل اللّهُ به على نبيِّه بلا قتال يذكر، ومن ثمّ فليس للمؤمنين الحقُّ فيها؛ لأنَّهم لم يظفروا بها عن طريق قتال قاموا به، ولكنَّ اللّه تعالى هو الّذي سَلَّط رسولَه

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (وجف)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وجف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركب).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (ركب)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ركب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط)، والرّاغب، مفردات القرآن: (سلط).

على اليهود وعلى ما في أيديهم، كما كان يُسَلِّط رسله على مَنْ يشاء مِن أعدائهم، واللهُ تعالى قديرٌ على كلِّ شيء[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

احتمال العطف على الجملة أو القصَّة واحتمال الاستئناف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يجوز أن تكون لعطف ما بعدها على جملة: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، فتكون امتنانًا وتكملة لمصارف أموال بني النَّضير، ويجوز أن تكون للعطف على مجموع ما تقدَّم، عطفَ القصّة على القصّة، والغرض على الغرض؛ للانتقال إلى التَّعريف بمصير أموال بني النَّضير؛ لئلّا يختلف رجال المسلمين في قسمته، ولبيان أنَّ ما فعله الرّسول ﷺ في قسمة أموال بني النّضير هو العدل؛ إن كانت الآيةُ نزلت بعد القسمة[2]، ويمكن أن تكون الواو استئنافيّة، عبَّر بها للتّنبيه إلى حال ما أخذه المسلمون من أموال اليهود[3].

نوع (ما) ودلالتها في جملة: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾:

كلُّ ما غنمه المسلمون مِن أموال بني النضير فيءٌ

(ما) في جملة: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، جاء التَّعبير به لإفادة العموم، وليتوصَّل بما فيه من الصِّلة إلى التَّوصيف الصّحيح للأموالِ التي حصل عليها المسلمون - أرضًا ونخلًا ونقضًا وحطبًا - بعد جلاء بني النَّضير وخروجهم، وفيه معنى الشَّرط.

بلاغة استعمال مفردة الإفاءة:

ما غنمه المسلمون من بني النَّضير عطاءٌ ردَّه اللهُ على رسولِه بيسرٍ

جاء التّعبير في جملة الصّلة بفعل ﴿أَفَآءَ﴾ الدّال على العطاء والرّجوع كما سبق بيانه؛ للإشارة إلى أنّ الأموال الّتي حصل عليها

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 291، بتصرّف.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 78.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 37، 38.

المسلمون بعد جلاء اليهود - على اختلاف أنواعها وقيمتها - هي عطاءٌ "ردَّه اللّهُ تعالى على رسوله ردًّا غايةً في السّهولة واليسر، بعد أن كان فيما يظهر غايةً في الصّعوبة والعسر"[1]، وفيه بيان أنَّ الحقَّ في الغنيمة هو حقٌّ أصيل يرجع إلى صاحبِ الحقِّ، وما يُؤكِّد ذلك إسنادُ الفعلِ للّه تعالى.

وجه إسناد فعل الفيء ماضيًا إلى اسم الجلالة:

أفعال اللّه تعالى شرعٌ وحجَّة لا تقبل الجدال

إسنادُ فعل ﴿أَفَآءَ﴾ إلى اسم الجلالة العلم، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالة على أنّ هذا العطاءَ مِن اللّه تعالى وحده، وليس لأحد فيه فضل ولا شركة، حتّى يكون له فيه سهمٌ، وجيء به ماضيًا لتأكيد تحقُّقه، بما له من عظيم القوى والقُدَر، والمعنى: ردَّ الملكُ الّذي له الأمرُ كلُّه[2]، ولا سيَّما إذا كانت أفعال اللّه تعالى مرتبطةً بالحقوق الماليّة، والعلاقات الإنسانيّة.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

الفيء إنزالٌ تشريعيٌّ يعيد الحقوق إلى مواضعها

الأصل في الفعل: (فاء) أن يتعدّى بـ (إلى)، يقال: فاء الظلُّ، أي: رجع إلى جانب المشرق[3]، لكن البيان عدّاه بحرف الاستعلاء فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ للإشارة إلى أنّ هذا الفيء صار ملكًا خاصًّا برسول اللّه لا يشاركه فيه غيره، كما لا يشارك أحدٌ أحدًا في الثّياب الّذي أُلقي عليه، أو الدّرع الّذي أُعطي له كي يلتفَّ به، ويتحصَّن فيه، فهكذا كانت أموال الفيء بالنّسبة لرسول اللّه وآله، قال عمر بن الخطّاب: كانت أموال بني النّضير لرسول اللّه خاصّة، ينفق منها على أهله نفقة سنته، ثم يجعل ما بقي في السّلاح والكراع عدّة في سبيل اللّه تعالى[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأَّ).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 140.

وأيضًا فإنَّ في استعمال حرف الاستعلاء تضمينَ فعلِ ﴿أَفَآءَ﴾ معنى الإنزال، أي: أنزل اللّه تعالى على رسوله آيات القرآن لتشريع ما له من الفيء، باستحقاق مطلق لا يقبل الجدال.

توجيه تخصيص الرّسول بالذّكر:

تشريعُ أموالِ الفيء وبيان مصدريَّة التَّقسيم

خصَّتِ الآية رسول اللّه ﷺ دون غيره بالفيء، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ لبيانِ أنَّ التصرُّفَ في هذه الأموال بالإعطاء والمنع راجعٌ إلى رسول اللّه، ولبيان أنَّ أموالَ بني النّضير لا ينطبق عليها ما ينطبق على أموال الغنائم الّتي بيَّن القرآنُ كيفيّة تقسيمها في قولِه تعالى: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: 41]، ولو قيل: (وما أفاء اللّه على المؤمنين)؛ لفُهِم أنَّها تُقَسَّم بينهم، كما يُقسَّم غيرُها من أموال الغنائم.

نوع (مِنْ) ومرجع الضمير في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾:

مرجع الضّمائر يُعيِّنه السّياق، ويبيِّنه حسنُ النّظر

قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال، و(مِنْ) فيه هي البيانيّة الّتي توضِّح ما أُبهم في اسم الموصول (ما)، والضّمير فيه يعود إلى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الواقع في أول السّورة، وهم بنو النّضير[1]، والمعنى: وما خَصّ اللّهُ به رسولَه من أموال بني النّضير الّذين أُخرجوا من ديارهم، وعبّر عنهم بالضّمير دون الاسم الظّاهر؛ جريًا على الأصل في التّعبير به عن الاسم الّذي سبق بيانه، لا سيّما إذا لم يكُ لبسٌ، وكان المعنى ظاهرًا واضحًا، كما هنا.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمَآ﴾:

قولُه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ خبر عن (ما) الموصولة قُرِن بالفاء؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 78، والدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 596.

الفيءُ مطمعٌ للمؤمنين وابتلاءٌ لصبرهم

لأنَّ الموصولَ كالشّرط لتضمُّنه معنى التسبُّب[1]، والتّعبير بالفاء هنا تعليل لكون هذه الأموال فيئًا أفاءه اللّه تعالى على رسوله ﷺ، والمعنى: أفاءه اللّهُ على رسوله دونكم؛ لأنَّكم ما أوجفتم عليها من خيل ولا ركاب[2]، ومقتضى الغنم العمل، ولمّا كان فيئًا محضًا؛ كان ذلك لرسولِ اللّه ﷺ تكريمًا وتشريفًا، وهو ابتلاء للمؤمنين الّذين رأوا الفيء، وأرادوا نصيبًا منه.

نوع (ما) ودلالتها:

نفي المشقَّة والجهد في السّير إلى بني النّضير

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ حرف نفي، أوثر التَّعبير به؛ لأنَّه يدلُّ على انتفاء أن يكون المسلمون قد مارسوا في سيرهم إلى بني النّضير أيَّ قدر من الإسراع نفيًا قاطعًا؛ إذ الحاصل أنَّهم مشوا إليها مشيًا لا إسراع فيه، ولم يقاسوا فيها شيئًا من شدائد الحروب[3]، والمعنى: لم يكن ذلك بإيجاف خيل أو ركاب منكم، أي: فما أوجفتم على تحصيله وتغنيمه خيلًا ولا ركابًا، ولا تعبتم في القتال عليه، وإنَّما مشيتُم إليه على أرجلكم؛ لأنَّه على ميلين من المدينة، ولم يكن أحد راكبًا سوى رسول اللّه ﷺ[4].

بلاغة التَّعبير بفعل الإيجاف دون غيره:

الإيجاف سيرٌ سريعٌ مرتبط بالمشقّة والجهد

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾، والإيجاف هو السّير السّريع، أي: ما أسرعتم في السّير، دون فعل الإسراع الأكثر استعمالًا؛ لدلالته على الجمع بين الإسراع والمشقّة، وهو ما لا يتحقّق إذا جاء التّعبير بالفعل: (أسرعتم)؛ إذ ليس كلُّ إسراع مصحوبًا بالجهد والمشقّة، ما يعني: أنّ السّير إلى بني النّضير كان سيرًا خاليًا من المشقّة والتّعب الّذي يكون في الحروب، والّذي تُقَسَّمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 79.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 235.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 457.

الغنائمُ على المحاربين بسببه؛ ففي اختيارِ هذه المفردة الغريبة في الاستعمال، علَّة تشريعيَّة في شأن الفيء، وأنَّ التّشريع الإسلاميّ مرتبطٌ بأسبابٍ وعلل يكون من ورائها العمل.

بلاغة التّعبير بحرف الاستعلاء:

تحصيل الفيء خلا من الجهد والمشقّة فهو محضُ منَّة

آثر النّظم الكريم استعمال حرف الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ دون (أوجفتم إليه) بحرف الانتهاء، أو: (فما أوجفتم من خيل ولا ركاب) بدون تقييد، فيكون على أصله، أي: لإبراز معنى الغلبة والتَّسارع والكدِّ الّذي يحصل عند سَوْقِ الغنائم بعد الفوز في المعارك[1]، ما يعني: أنَّ تحصيل الفيء وسوقَه كان خاليًا من المغالبة والتَّكالب والتَّعب الَّذي يكون عند أخذ الغنائم، فدلَّ حرفُ الاستعلاء المنفيَّة دلالته على أنَّ الجهد غير موجود، والمشقَّة مرفوعة.

وقيل: إنَّ (عَلى) للتعليل، وليس لتعدية ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ معنى الإيجاف لا يتعدّى إلى الفيء بحرف الجرِّ، وقيل: إنَّ حرف الاستعلاء مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ هو مصدر ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾، أيْ: إيجافًا لأجله[2].

تعيين مرجع الضّمير:

قولُه: ﴿عَلَيۡهِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾، والضّمير فيه يرجع إلى (الفيء)، أي: فما حصل سير سريع ولا مشقَّة للحصول على الفيء.

دلالة ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾:

أخذُ فيء بني النَّضير كان بدون خيلٍ ولا ركابٍ

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾ حرف جرٍّ يفيد استغراقَ النّفي وشمولَه كلَّ مركوبٍ، يُركب أثناء حصار بني النّضير من الخيل والإبل، وأوثر التّعبير به مع إمكان أن يُقال: (فما أوجفتم عليه خيلًا ولا ركابًا)؛ لتقوية النّفي وتأكيده[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 140، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 79.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.

نكتة تنكير ﴿خَيۡلٖ﴾:

لـم يوجـف المسلمون خيلًا مطلقًا من أجل بني النّضير

جيء بـ ﴿خَيۡلٖ﴾ نكرة؛ لما يفيده تنكير الاسم الواقع في سياق النّفي من عموم المعنى وشمولِه كلَّ أنواع الخيل الّتي يمكن امتطاؤها في الحرب، والمعنى: لم توجِفوا أيَّ خيلٍ على الإطلاق، أيًّا كان نوعها، ومهما كان عددها، ولو جيء به معرفةً؛ لفُهِم أنّ النّفي يشمل نوعًا مُحدَّدًا، بينما أوجِف غيره من الأنواع، وهذا غير مراد.

فائدة استعمال حرف (لا):

تـوكـيـد نـفي المـتـشـابـهـات لدفع توهُّم غير المراد

أعاد النّظمُ الكريمُ استعمال حرف النّفي (لا) بعد نفي إيجاف الخيل بـ (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾؛ لتأكيد نفي إيجاف الرّكاب أيضًا، فلو قيل: (ما أوجفتم عليه من خيل أو ركاب)؛ لسبق إلى الوهم أنَّه أوجِف بواحد منهما، وهذا غير مراد، وفي نفي إيجاف الخيل وتأكيد نفي إيجاف الرّكاب تأكيدٌ لما سبق من أنَّ هذا النَّصرَ مِنَ اللّه وحده، وتأكيدٌ لكونه فيئًا أفاءه على رسولِه خاصة[1].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿رِكَابٖ﴾:

لا يـشـارك في الحرب من الإبل إلّا الرِّكابُ

الـ ﴿رِكَابٖ﴾ ما يُركب من الإبل، واحدتُها: راحلة، ولا واحد لها من لفظها، والعرب لا يطلقون لفظ الرّاكب إلّا على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارسًا[2]، وأوثر التّعبير بلفظ ﴿رِكَابٖ﴾ دون (إبل) جريًا على عادة العرب في التّعبير به عن الإبل الّتي لها دورٌ في نقل الجنود والمتاع والعتاد والكرِّ والفرِّ أثناء الحرب؛ إذ لا يصطحبون معهم غيرها، بينما أنواع الإبل الأخرى لا تخرج إلى الحرب أصلًا؛ لأنّها تكون عبئًا عليهم، وعرضة للقتل والهلاك والسّلب؛ إذا خسروا معركتهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 420.
(2) الرّازي، فتوح الغيب: 29/ 506.

نوع الواو ودلالتها في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ تحتمل الاستئناف جيء بها؛ للتّنبيه على أنّ اللّه تعالى قد سلَّط رسولَه على بني النَّضير؛ فاستسلموا دون حرب أو قتال، وتحتمل الحاليَّة، والمعنى: والحال أنَّ سنّة اللّه تعالى جاريةٌ على أن يسلّط رسله على مَن يشاء مِن أعدائهم تسليطًا خاصًّا، وقد سلّط النبيّ ﷺ على هؤلاء تسليطًا غير معتاد، من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب، وتُقاسوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم[1].

تنبيه المؤمنين إلى نصرةِ ربِّ العالمين في جميعِ الميادين

فائدة حرف الاستدراك ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

(لَكِنَّ) حرف استدراك، معناه: أن تنسب حكمًا لاسمها، يخالف المحكوم عليه قبلها[2]، وجاء الاستدراك؛ ليؤكّد نفي أن تكون قوّةُ المسلمين وقتالُهم سببَ الحصول على أموال بني النّضير وديارهم، ويوضّح أنَّ السّبب الحقيقيّ في حصول ذلك هو أنّ اللّه سَلَّطَ رسوله عليهم، كما هي عادته وسنَّته في تسليط رسله على أعدائهم، فيغلبون، ويظهرون بقتال أو من غير قتال، والمعنى: ما كان هذا التّسليط بكم، ولكنّه كان من اللّه جلَّ في علاه[3] وحده، فقام الاستدراك مقام التَّعليل لما تقدَّم، ولدفعِ خَلَجاتِ النّفوس عن الطّمع في خيرات بني النّضير.

تعليل ما تقدَّم، وتثبيت سنّة الله تعالى في نصرة رسله

براعة إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار:

كان مقتضى الظّاهر إضمار اسم الجلالة بأن يُقال: (ولكنَّه يسلِّط رُسُلَه)، لكنَّ النّظم القرآنيَّ عدل عن الضّمير إلى إظهار اسم الجلالة، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ جريًا على أسلوب السّورة في إظهار الاسم الجليل، زيادةً في تقرير أنَّ كلَّ شيء حصل في

توريث المهابة في صدور المؤمنين والعلم في قلوبهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 227.
(2) المراديّ، الجنى الدانيّ، ص: 615.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 421.

هذا الفتح المبين وتأكيده، وذلك الإخراج العجيب، وتلك الأموال الّتي فاءت على رسول اللّه إنَّما هو من فعل اللّه وتدبيره، وراجع إلى حكمته وتقديره، وليكون اسم الجلالةِ حاضرًا في قلوب المخاطَبين، فيورث المهابة في النّفوس.

بلاغة تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ:

تسليط الله رسله على أعدائهم سنّة إلهيّة

قُدِّم ذكر المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ﴾؛ لِما يفيده ذلك من تقوية المعنى وتأكيد أنَّ هذا التّسليط كان بإرادةِ اللّه تعالى وقدرته، فهو الّذي قذف الرّعبَ في قلوبِ أهلِ الكتاب، وسلَّط رسولَه عليهم، كما سلَّط كلَّ أنبيائه ورسله على مَن شاء مِن أعدائهم فيما سبق[1]، مع ما فيه من معنى الاختصاص، فإنَّ ذلك لا يكون إلّا للّه تعالى.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُسَلِّطُ﴾:

سلطان الرُّسل يجمع بين الحكم على الأعداء وقهرهم

دلَّ فعل ﴿يُسَلِّطُ﴾ على أنَّ اللّه تعالى يجعل لرسله سلطانًا على النّاس بصفة عامَّة، وعلى أعدائه بصفة خاصَّة، وقد آثر النّظم الكريم استعمال دون مرادفاته لدلالته على الغلبة والقهر، أي: إنَّ انتصارَ رسل اللّه الكرام على أعدائهم يكون مصحوبًا بالإذلال والتمكُّن منهم، والحكم فيهم بأمر اللّه تعالى وقضائه، فالتّسليط يشمل القهر والإلزام، والحكم على الأعداء دون منازعة الرّسل فيما يريدون، وهو ما يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى إن أراد أمرًا؛ أنفذه فيما لا يحتسب النّاس.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُسَلِّطُ﴾:

أوثر التّعبير بفعل التّسليط مضارعًا؛ للدّلالة على أنَّه يشمل الماضي والحاضر، ويتجدّد حصولُه في المستقبل، ففيه تنبيهٌ على أنَّ المذكور سنّة ماضيةٌ في أتباع الرّسل إلى يوم الدّين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 80.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

بيان سننيّة التّسليط بالتّشبيه الضمنيّ

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ لأنَّ التَّقدير: ولكنَّ اللّهَ سَلَّطَ رسولَه ﷺ عليهم، واللّهُ تعالى يسلِّط رُسُلَه على مَن يشاء، وكان هذا بمنزلة التّذييل لعمومه، وهو دالٌّ على المُقَدَّر[1]، ففيها معنى التّشبيه، كأنّه قيل: ولكنّ اللّه سلّط رسوله على بني النّضير كما سلّط رسله على من يشاء، وهذا هو معنى السننيّة المرادة في الآية.

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء:

تمكينُ الرّسل مِن أعدائهم مقرون بالغلبة والقهر

تعديةُ فعلِ التّسليط إلى مفعوله بحرف الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾، دالٌّ على أنَّ اللّهَ تعالى يمكِّن رُسُلَه من أعدائهم تمكُّن الفارس من حصانه، أو الرّاكب من مركوبه، ما يعني: أنَّه تمكين إعزاز وتشريف لرسل اللّه وأنبيائه، وتمكين قهر وغلبة وإذلال لكل مَن يتآمر عليهم، ويكون في شقٍّ غير شقِّهم، ودلَّ حرف الاستعلاء على تمكُّن الرّسل ممّن شاء اللّه تعالى أن يُسلّطهم عليهم، وهو معنى الغلبة والقهر.

دلالة التّعبير باسم الموصول:

عبّر البيان الكريم عن المفعول باسم الموصول في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾؛ ليعمَّ المعنى كلَّ أعداء اللّه وكلَّ أعداء رسله، سواء أكانوا مقاتلين أم غير مقاتلين[2]، في جميع الأزمنة والأمكنة.

نوع الواو ودلالتها في جملة الفاصلة:

القدرةُ على كلِّ شيء هي حال اللّه الّتي لا تتبدّل، ولا تتغيّر

الواو في جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ استئنافيّة، والجملة بعدها مستأنفة؛ لتأكيد قدرة اللّه على تسليط رسله على من يشاء بصفة عامّة، وتسليط رسوله ﷺ على يهود بني النّضير بصفة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 80.

خاصّة، ويمكن أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها حاليّة دالّة على أنّ القدرةَ على كل شيء هي حالُ اللّهِ الثّابتةُ الّتي لا تتبدّل، ولا تتغيّر.

غرض تقديم الجار والمجرور على الخبر:

العناية بالعموم والتعريض بيهود بني النضير

جيء بالجار والمجرور: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ مُقَدَّمًا على الخبر: ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتقوية المعنى، وتأكيد قدرة اللّه على الأشياء كلِّها بلا استثناء، ولو قيل: (واللّهُ قديرٌ على كل شيء)؛ لكان المعنى صحيحًا، لكنَّه لن يؤكد شمول القدرة بالقوّة الّتي جاء بها البيان القرآنيّ، فأفاد التّقديم العناية بالعموم والاهتمام به؛ تنبيهًا على أنّه لا استثناء من ذلك العموم، تعريضًا بما ظنّه يهود بني النّضير بأنّه لن يلحقهم أذى المؤمنين.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

كلُّ عظيم أمام قدرة الله صغير حقير، وكلُّ صعب عنده سهل يسير

جيء بالاسم المجرور الدّال على العموم: ﴿كُلِّ﴾ مضافًا إلى: ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ ليعمّ المعنى كلَّ الأمور أيًّا كانت، ومهما كانت، وكيف كانت، فاللّه تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، وكلُّ شيء - مهما عَظُم - يبدو أمام قدرته صغيرًا حقيرًا، وكل أمر - مهما صَعُب - يبدو عنده سهلًا يسيرًا، وهكذا كان إخراجُ بني النّضير الّذي ظنَّ المؤمنون عدمَ حصوله، وظنَّ اليهودُ أنَّ حصونهم تحول دون وقوعه، وهكذا كان اختصاصُ الرّسول بالتَّصرُّف في أموالهم بيُسرٍ وسهولةٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفيء والغنيمة:

الغنيمة اسمٌ لما أُخذ بقوّة، والفيء اسمٌ لما أُخذ بغير قتال

الفيء: ما أُخذ من أموال المشركين بدون قتال، أما الغنيمة؛ فهي اسمٌ لما أُخِذ من أموالهم بقتال[1]، وبعبارة أخرى: الغنيمة هي: ما

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 170.

أتعب المسلمون أنفسهم في تحصيله، وأوجفوا عليه الخيل والرّكاب، بخلاف الفيء الّذي ما تحمَّلوا في تحصيله تعبًا[1]، ولما كان السّياق للامتنان بإخراج بني النّضير من ديارهم، واختصاص الرّسول بالتصرّف في أموالهم؛ ناسب التّعبير بالفعل: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لدلالته على أنَّ هذه الأموال عادت إلى رسول الله عودًا سهلًا بلا حرب ولا مشقّة، كما يعود الظلّ إلى جهة الشّرق بيسر وسهولة، ولو قيل: (ما غنم الرّسول)؛ لما استقام الكلام مع ما جاء بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

الإيجاف والسّير:

الإيجاف: السّير السّريع المستصحب للتّعب، والسّير أعمُّ من ذلك

الإيجاف: هو السّير السّريع المصحوب بالجهد والتّعب، أمّا السّير؛ فهو المُضيُّ في الأرض، يقال: رجلٌ سائِر وسيّار، والسيّارة: الجماعة[2]، ولمّا كان الحديث قاصدًا إلى بيان عدم استحقاق المسلمين شيئًا من أموال بني النّضير، وردِّ الأمر في توزيعها إلى رسول الله؛ ناسب التّعبير بفعل (الإيجاف) المنفيِّ لتأكيد خُلوِّ تحصيلها من أيِّ تعبٍ أو مشقَّةٍ موجبةٍ إشراكَهم فيها.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 506.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (سار).

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حكم فيء أهل القرى بعد بيان حكم فيء بني النَّضير

لمّا بينتِ الآيةُ السابقةُ حالَ أموال بني النّضير، وأنّها فَيْءٌ خَصَّ اللّه تعالى رسوله به من غير مشقَّة ولا جهد، وأنَّ التصرُّف فيها بالإعطاء والمنع راجع إلى الرّسول ﷺ؛ ناسب أن تبيّن هذه الآية حكمَ ما أفاءه اللّه تعالى على رسوله من قرى الكفّار على العموم بعد بيان حكم ما أفاءه من بني النّضير[1]، فهو انتقال من خصوص الفيء إلى العموم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُولَةً﴾: (دول) يَدُلُّ على تَحَوُّلِ شَيْءٍ مِن مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقال: اندالَ القَوْمُ؛ إذا تَحَوَّلوا مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، ومنه: تَداوَلَ القَوْمُ الشَّيءَ بَيْنَهُم؛ إذا صارَ مِن بَعْضِهِم إلَى بَعْضٍ، والدَّوْلَةُ والدّولَةُ لُغَتانِ، ويُقالُ: الدّولَةُ في المالِ والدَّوْلَةُ في الحَرْبِ، وإنَّما سُمّيا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أمْرٌ يَتَداوَلونَهُ، فَيَتَحَوَّلُ مِن هَذا إلَى ذاكَ[2]، وقيل: الدّولَة: اسم الشّيء الّذي يتداول بعينه، والدَّوْلَة المصدر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، وقال: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، أي: يملكه هذا ثمَّ هذا من الأغنياء وحدهم[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 239.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دول).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (دول)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دول).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مال الفيء وسيلة لتحقيق التّوازن الاقتصاديّ في المجتمع المسلم

تُبيِّن الآية الكريمة ما يصنع رسول ﷺ فيما أفاء اللّه عليه من أهل القرى؛ إذ أمره أن يضعه؛ إذ يضع الخمس من الغنائم مقسومًا على الأقسام الخمسة، وبيَّن له أنَّ الحكمة من وراء ذلك ألّا يبقى المالُ متداولًا بين أغنياء المسلمين فقط، أو حتى لا يكون بينهم دولةٌ جاهليَّةٌ يزداد فيها الغنيُّ غنًى، والفقيرُ فقرًا، كما أمرت الآيةُ المؤمنين أن يلتزموا أوامرَ رسولِهم، ويجتنبوا نواهيَه، وأن يداوموا على تقوى اللّهِ تعالى؛ حتّى لا يتعرَّضوا لعقابِه الشَّديدِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علة فصل جملة: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

الجملةُ بيانٌ لحكم الفيءِ الوارد إجماله في الآية السّابقة

اختلف العلماء في سبب فصل قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ عمّا قبله، فذهب جمهور العلماء إلى أنَّ هذه الآية ابتداء كلام، أي: على الاستئناف الابتدائيِّ، وأنَّها قصد منها حكم غير الحكم الّذي تضمَّنته الآية الّتي قبلها، ومن هؤلاء مالك، وهو قول الحنفيَّة، فجعلوا مضمون الآية الّتي قبلها أموال بني النّضير خاصّة، وجعلوا الآية الثّانية هذه إخبارًا عن حكم الأفياء الّتي حصلت عند فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النّضير[2].

ومن العلماء من جعل هذه الآية تكملةً وبيانًا للآية الّتي قبلها، أي: بيانًا للإجمال الواقع في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ﴾؛ لأنَّ الآية الّتي قبلها اقتصرت على الإعلام بأنَّ أهل الجيش لا حقَّ لهم فيه، ولم تبين مستحقَّه، وأشعر قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾، أنَّه مال للّه تعالى يضعه حيث شاء على يد رسوله ﷺ، فقد بيَّن اللّه له مستحقيه من غير أهل الجيش، فموقع هذه الآية من الّتي قبلها موقع عطف البيان، ولذلك فصلت.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 502، 503، بتصرّف.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 81.

ويمكن أن يكون الفصل لشبه كمال الاتّصال، الّذي تُجيب فيه الجملة المفصولة عن سؤال أثاره الكلامُ السّابق تقديرُه: هل يعمُّ هذا الحكمُ كلَّ فيء يكون بعد بني النّضير؟ أو ما حكم ما أفاء اللّه به من غير بني النّضير؟[1] فجاءت هذه الآيةُ؛ لتُجيب عن السّؤال، وفُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال.

دلالة استعمال ﴿مَّآ﴾:

الإيمـاء إلـى عموم حكم الفيء والتّشويق إلى طريقة تقسيمه

﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، وهو متضمِّنٌ معنى الشّرط، عبَّر به النَّظمُ؛ لإفادة عموم الحكم وشموله كلَّ ما حُصِّل من أموال أهل القرى بدون إيجاف خيل ولا ركاب، وأوثر استعماله دون (الّذي)؛ لما فيه من إثارة المتلقّي وتشويقه إلى الخبر أو إلى الجواب؛ بسبب شديد إبهامه حتّى إذا ورد ثبت في العقل، واستقرَّ في النّفس أنَّ للفيء طريقةً في التّقسيم تخالف الغنائم، مع الإشارة إلى عموم الفيء، أي: كلّ الفيء بدون استثناء.

دلالة تكرار الفعل: ﴿أَفَآءَ﴾:

تقرير اختلاف تحصيل الفيء عن تحصيل الغنائم

أعاد البيانُ في جملة الصِّلة التّعبير بالفعل: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لزيادة التّقرير[2]، والتّأكيد على أنَّ هذه الأموال الّتي حُصّلت بيسر وسهولة؛ إذ لم يكن فيها إيجاف خيل ولا ركاب، فهي تختلف عن أموال الغنائم الّتي لا يحصل عليها المسلمون إلا بعد حرب وقتال ومن ثمَّ فإنَّ توزيعها يختلف عن توزيع الغنائم، ولمّا كان السّياقُ تشريعيًّا ومتعلّقًا بالأموال؛ كان ذكر الألفاظ تقييدًا أكيدًا للمقصود.

فائدة إسناد فعل ﴿أَفَآءَ﴾ إلى اسم الجلالة:

للفيء نزولان نزول المشاهدة ونزول العلم

أُسنِد فعلُ ﴿أَفَآءَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 427، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 240.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 227.

﴿ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أيَّ مالٍ يجيء من غير حرب هو محضُ نعمةٍ مِن اللّه وحده، وليس لأحدٍ فيه فضلٌ أو شركةٌ.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

للفيء نزولان نزول المشاهدة ونزول العلم

سبق القولُ بأنَّ الأصلَ في الفعل: (فاء) أن يتعدّى بـ (إلى)، يُقال: فاء الظلُّ، أي: رجع إلى جانب المشرق، لكن البيانَ القرآنيَّ عدّاه هنا وفيما سبق بحرف الاستعلاء فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الفيءَ صار ملكًا خاصًّا برسول اللّه لا يشاركه فيه غيرُه، كما لا يشارك أحدٌ أحدًا في الثّياب الّذي أُلقي عليه أو الدّرع الّذي أُعطي له؛ كي يلتفَّ به، ويتحصَّن فيه، وفيه دلالة تمام المنَّة الإلهيَّة، فإنَّ الفيء نزل على رسول اللّه ﷺ كما نزلت أحكامه في القرآن الكريم، فللفيء نزولان، نزول المشاهدة في الواقع، ونزول العلم بالعمل به.

وجه تعدية فعل الإفاءة إلى الرّسول مضافًا:

إكرامُ رسولِ اللّه وصونُه وآله هو سبب تيسير الحصول على أموال الفيء

آثر البيانُ هنا أيضًا تعدية فعل الإفاءة إلى رسول اللّه مضافًا إلى ضمير الجلالة، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ اللّهَ تعالى أنعم على المسلمين بتحصيل هذه الأموال من غير حربٍ ولا ركاب؛ إكرامًا لرسوله ﷺ وتشريفًا، وصونًا له ولآله، ومن ثمَّ فإنَّ التصرُّف فيها بالإعطاء والمنع راجعٌ إليه، ما يؤكد أنَّها لا تُقَسَّم كما تُقسَّم أموالُ الغنائم، ولو قيل: (ما أفاء اللّه على رسوله وعلى المؤمنين)، أو (ما أفاء اللّه على المؤمنين)؛ لفُهم أنَّ للمسلمين نصيبًا فيها، وأنّها تُقَسَّم بينهم كما يُقَسَّم غيرُها من أموال الغنائم، والفرق واضح بين التَّركيب هنا وبين قوله تعالى في شأن الغنيمة: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ [الأنفال: 41].

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

قولُه: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال،

و﴿مِنۡ﴾ بيانيَّة توضِّح ما أُبهِم في اسم الموصول ﴿مَّآ﴾، والمعنى: ما خَصَّ اللّهُ به رسولَه من أموال أهل القرى، الّتي تمَّ تحصيلُها من غير حربٍ تُذْكَر، ولا مطايا تُرْكَب.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾:

حكمُ الفيءِ عامٌّ في جميع القرى المشابهة لبني النَّضير

(أل) في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ لتعريف العهد، وهي: قرى معروفة عُدَّتْ، منها: قريظة، وفدك، وقرى عرينة، والينبع، ووادي القرى، والصّفراء، فُتِحت كلُّها في عهد النبيّ ﷺ[1]، أو أن تكون استغراقيّة لكلِّ قرى الكفّار الّذين يكونون كبني النَّضير، فتفيد شمول الحكم كلَّ مَنْ كان على شاكلة بني النّضير من القرى المجاورة لمدينة رسول اللّه، ويدخل فيه أموالهم وعقاراتهم أيضًا[2].

دلالة الإضافة في: ﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾:

أهل القرى يُبادرون إلى إعطاءِ المالِ من غير حربٍ ولا ركابٍ

أُضيف لفظ ﴿أَهۡلِ﴾ إلى ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المراد سكان القرى الّذين حدث منهم مثلُ ما حدث من بني النّضير، وطلبوا الصُّلح من رسول اللّه من غير حرب ولا ركاب، فالمال الَّذي أفاءه اللّه على رسوله منهم يقسم بالطَّريقة المذكورة، وبيَّنت الحكمةَ من ورائها.

بلاغة المجازِ بالحذف:

العبرة في أموال الفيء أنَّها تحصيلٌ تصالحيٌّ من أهل القرى

آثر النَّظم الكريم استعمال ﴿أَهۡلِ﴾، والمراد تحصيل الأموال من أهل القرى فلم يقل: (مال القرى)؛ لتأكيد أنَّ هذه الأموال إنَّما بادر في إعطائها أهل القرى، من غير حرب ولا قتال، وتقييد الفيء بفيء ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ جرى على الغالب؛ لأنَّ الغالب ألّا تُفتح إلّا القرى؛ لأنَّ أهلها يُحاصرون، فيستسلمون، ويعطون بأيديهم؛ إذا اشتد عليهم الحصار، فأمّا النّازلون بالبوادي؛ فلا يُغلبون إلّا بعد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 82.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 227، 228، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 242.

إيجاف وقتال[1]، فدلَّ ذلك على المجاز بالحذف، أي: (من مال أهل القرى)؛ وذلك لأنَّ العبرة بمن يؤخذ منه المال، فهو موضع الحكم بأنَّه فيءٌ أو غنيمة، فكان ذكر أهل دون مال للتَّنبيه على ذلك.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾:

توزيع فيء القرى بالطّريقة المذكورة مُسَبَّبٌ عن تحصيله من غير حرب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ﴾ سَدَّت مسدَّ جواب الشَّرط أو دليلٌ عليه، والفاء في أوَّله تدلُّ على ترتُّب ما بعدها على ما قبلها ترتُّب الجواب على الشّرط، أو ترتُّب المسبَّب على السَّبب، وهي تعني: أنَّ تحصيل الأموال من أهل القرى بدون حرب ولا قتال سبب في أن توضع في المواضع الّتي ذكرتها الآية الكريمة، وليست في مواضع الغنيمة.

معنى اللّام في اسم الجلالة، ولطيفة البدء به:

أموال الفيء مقصورة على المصارف المذكورة دون غيرها

اللّام في قوله (لِلَّهِ) حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاص، ومعنى ذلك: أنَّ الأموال الّتي أفاءها اللّه تعالى على رسوله من أهل القرى مقصورة على المصارف المذكورة، لا يأخذ منها أحد غيرهم، وبُدِئت هذه المصارف بـ (اللّه) تعالى للتيمُّن والتبرُّك، فإنّ للّه ما في السّماوات وما في الأرض، وهو الملك الأعظم الّذي بيده الأمرُ كلُّه[2].

نكتة التّثنية بالرّسول:

التَّوجُّه النَّبويُّ في صرف الأموال نحو مقاصد الخير

ثنَّى البيانُ الكريمُ بالرّسول، فقال: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ عاطفًا على اسم الجلالة بالواو؛ لأنَّه أعظم خلقه، وأحقُّ النّاس بالفيءِ، وما كان للّه تعالى؛ يُقسَّم على المؤمنين، وما كان لرسول اللّه تعالى؛ فإنّه يوزِّعه على المؤمنين بمحض إرادته، وهذان يتراءى أنّهما قسمان، وليسا كذلك، فهما قسم واحد، لكنَّ اللّه ذكر نفسه المقدّس تبرُّكًا، وتعظيمًا لرسوله ﷺ، وإعلامًا بأنَّه لا هوى له أصلًا في شيء من الدُّنيا، وإنّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 82.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 428، مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1355.

رضاه رضا مولاه، وسهمه يصرف بعده لمصالح المسلمين، كالسّلاح والثّغور والعلماء والقضاة والأئمَّة(1).

نكتة العطف بالواو، ووجه إعادة اللّام:

إكــرام أقــارب الــرّســول من إكرامه فرتبتهم بعد رتبته

عطف البيانُ أصحابَ السّهم الثّاني، وهم ذوو قرابة الرَّسول على (الرَّسولِ) بالواو الّتي تُفيد المصاحبة: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ لأنَّ رتبتهم من بعد رتبته، وهم الّذين يلونه في المكانة والمنزلة بين سائر الناس، وأعاد إدخال حرف الجرِّ معهم؛ تنبيهًا إلى أنَّ إكرامهم من إكرامه وتعظيمهم يدخل في تعظيمه ﷺ؛ إذ "لمّا أبان قوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ عمّا لرسول اللّه من الفضل والعظمة ممّا لا يدخل تحت الوصف؛ أتبعه تعظيمًا آخر بتعظيم أقاربه لأجله، ولذلك أعاد حرف الجرِّ"(2).

نكتة التَّعبير بـ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

الإشعار بشدَّة الـقـرابـة من الـرّسـول وهم الأحـقّـاء بما شُرِع لهم

جاء التّعبير الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دون (الأقارب)؛ للدَّلالة على دُنوِّ قرابتهم من الرّسول ﷺ، وشدّة ارتباطهم به، ونصرتهم له، فالتّعبير بذي القربى يوحي بشدّة القرب، وأنَّهم الأحقّاء بهذا الوصف من غيرهم، فالعلاقة بينه وبينهم ليست مجرد قرابة قد تكون بعيدة، وإنّما هي قرابة قويّة ونصرة حقيقيّة، وهم: بنو هاشم وبنو عبد المطّلب دون مَنْ عداهم، سواء في ذلك غنيُّهم وفقيرُهم؛ لأنَّ أخذهم من الفيء راجع إلى شدّة قرابتهم، وليس إلى حاجتهم، لقوله ﷺ: «إنَّما بَنو هاشِمٍ وبَنو المُطَّلِبِ شَيْءٌ واحِدٌ»(3)، وشبَّك بين أصابعه، ويقول فيهم: لم يفارقوني في جاهليَّة ولا إسلام(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 428.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 428.
(3) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حديث رقم: (3311).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 428.

نكتة التَّرتيب في باقي مصارف الفيء:

أحقُّ النّاس بالعناية ذو القرابة وضعفاء المؤمنين

لمّا ذكر البيانُ أهل الشَّرف أتبعهم أهل الضّعف جبرًا لوهَنِهم؛ فقال مقدِّمًا أضعفهم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، أي: الّذين هم أحقُّ النّاس بالعطف؛ لأنَّ مبنى الدّين على التخلُّق بأخلاق اللّه الّتي من أجلِّها تقوية الضَّعيف وجبر الكسير، وعطف عليهم (المَساكينِ)؛ لأنَّهم في الضَّعف على أثرهم، ودخل فيهم الفقراء، فإنَّه إذا انفرد لفظ الفقير أو المسكين دخل كلٌّ منهما في الآخر، وإنَّما يفترقان إذا جُمع بينهما، وختم بـ ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهم الغرباء، وألحقهم بأهل الضَّعف لانقطاعهم عن أوطانهم وعشائرهم[1].

علَّة فصل جملة: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾:

تعليلُ الجملِ يستوجب الفصل

جاءت جملة: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لأنَّها تعليل لها، ففصلت عنها كما يُفصَل السَّبب عن المسبَّب، والمعنى: جعلناه مقسومًا على هؤلاء لأجل ألّا يكون الفيء دولَةً بين الأغنياء من المسلمين، أي: لئلّا يتداولَه الأغنياء، فلا ينال أهلَ الحاجة نصيبًا منه[2].

سِرُّ المجيء بالجملة التَّعليليّة:

أنعم اللّه على الضُّعفاءِ بالفيءِ ليعلم الأغنياء أنَّ مقتضى القوَّة نفع الضّعفاء

﴿كَيۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ حرف تعليل ونصب، أوثر التَّعبير به؛ لبيان الحكمة من حصر الفيء في الأصناف السّابق ذكرها، وجيء بهذه الجملة التَّعليليَّة؛ جريًا على عادة البيان القرآنيِّ في التَّعليل لما يأمر به، أو ينهى عنه؛ ليكون ذلك أعون على امتثاله، لا سيَّما إذا كان مخالفًا للعادات والأعراف الّتي درج عليها النّاس؛ إذ "لمّا حكم سبحانه في الفيء هذا الحكم المخالف لما كانوا عليه في الجاهليَّة من اختصاص الأغنياء به؛ بيَّن علّته المُظهرة لعظمته

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 428، 429.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 84.

تعالى وحسن تدبيره ورحمته، فقال: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾، أي: الفيء الَّذي سيَّره الله سبحانه بقوَّته، وما خصَّ به نبيّه من قذف الرّعب في قلوب أعدائه، ومن حقّه أن يُعطاه الفقراء"[1].

دلالة النّفي بـ ﴿لَا﴾:

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ حرف نفي يدلُّ على أنَّ الغاية من تقسيم الفيء على النّحو المذكور هي نفي أن يكون المال في الأمَّة المسلمة متداولًا بين أغنيائها.

تعيين مرجع الضّمير:

الضّمير في الفعل ﴿يَكُونَ﴾ عائد إلى الفيء، والمعنى: كي لا يكون الفيء الّذي حقُّه أنْ يكون للفقراء يعيشون به دولَةً بين الأغنياء[2]، ويحتمل أن يكون المال؛ إذ الفيء سبيل تحقيق المال.

فائدة التّعبير بفعل ﴿يَكُونَ﴾:

تشكُّلُ الطَّبقيَّة في المجتمعات بسبب حرص الأغنياء على منع غيرهم من امتلاك المال

آثر البيانُ القرآنيُّ تسليطَ النّفي على فعل الكينونة المسند إلى ضمير الفيء في قوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الغرض من التّقسيم بهذه الطَّريقة هو ألّا تتكوَّن الطّبقية الماليّة في المجتمع المسلم، وألا تتجذَّر فيه بطريقة يصعُب علاجها، وبعبارة أخرى: منع تكدُّس المال في أيدي الأغنياء، والحيلولة دون حرمان الفقراء منه، وفعل ﴿يَكُونَ﴾ يوحي بأنَّ الأغنياء حريصون على بقاء المال في أيديهم بحيث يصبح كينونةً لهم، فهي إشارةٌ إلى أولياء الأمور وإلى الأغنياء وأصحاب القوّة والسّلطة بأن ينفعوا الفقراء، وألّا يمنعوهم أن يكونوا من أصحاب المال، بحيث تتحرَّك قوة المال في النّاس جميعًا؛ كي لا يترسّخ في نفوسِ النّاس الكبر والبطر والتّرف على حساب آخرين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 432، 433.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قراءة التَّأنيث تنفي الحدثَ نفسه، وقراءة التَّذكير تنفي أسبابه

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿يَكُونَ﴾ فَقَرَأَ هشام بخلف وأبو جَعْفَرٍ بِالتَّأْنيثِ: ﴿تَكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتّذكير ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾[1]، وقراءةُ التّأنيث تنفي التّداول وتستبعد حصولَه؛ إذا قُسِّم بالطَّريقة المأمور بها، والمعنى: كي لا يقع، أو كي لا يحصل[2]، وقراءة التَّذكير تعني: أن ذلك التَّقسيمَ سببٌ رئيسٌ في منع تداول المال بين الأغنياء، ويمكن أن تكون القراءة بالتّاء الفوقيّة على أنّ الضّمير عائد على ﴿مَّآ﴾ باعتبار المعنى؛ إذ المراد: الأموال[3].

دلالة استعمال مفردة ﴿دُولَةَۢ﴾ نكرة:

الـدُّولـةُ هي تـداولُ المال بين طبقة الأغنياء؛ استئثارًا به ومنعًا لدخول غيرهم معهم

كلمة ﴿دُولَةَۢ﴾: اسم للشّيء يتداوله القومُ بينهم، يكون لهذا مرَّة، ولهذا مرَّة[4]، والتَّعبير بها دالٌّ على أنَّ منع تداول المال والحيلولة دون قصرِ انتقاله من الأغنياء إلى الأغنياء هو الهدف الرّئيس والغاية العظمى من وراء الأمر بتقسيم الفيء على النَّحو المذكور، والمجيء به نكرة دالٌّ على عموم المعنى وشموله نفي تداول المال بين الأغنياء بجميع الصّور والأشكال، فالدّولة هي تداول المال بين الأغنياء بمعنى التَّثمير والتَّوسعة وتحصيل الأرباح، والنَّفي تعليلٌ لعدم الاستئثار بالمالِ بين الأغنياء بمنع الفقراء من امتلاكه، والحرص على أن يكون في طبقة واحدة.

توجيه القراءات الواردة في: ﴿دُولَةَۢ﴾:

الفيء وسيلة لتحقيق التَّوازن الاقتصاديِّ في مجتمع المسلمين

اختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿دُولَةَۢ﴾؛ فَقَرَأَ هشام بخلف أبو جَعْفَرٍ بِالرَّفْعِ: ﴿دُولَةٌ﴾، وقرأ الباقون بالنّصب: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 386.
(2) الآلوسيّ، روح المعانيّ: 4/ 234.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 234.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 272.

دُولَةً﴾[1]، وقراءة الرّفع على أنّ ﴿تَكُونَ﴾ تامّةً، و﴿دُولَةٌ﴾ فاعل، والمعنى: (كي لا تقع دولةٌ)، أي: لا تحصل هيمنة واحتكار وتسلُّط على الأموال من جانب الأغنياء، ومن ثَمَّ يحدث خللٌ كبير في العدالة الاجتماعيَّة، وتوزيع الثّروات في مجتمع المسلمين، وقراءة النَّصب على أنَّ ﴿دُولَةً﴾ خبر للنّاسخ، والمعنى أنَّ الفيء لا ينبغي أن يتسبّب عنه تداولُ المال بين أغنياء المسلمين دون فقرائهم، بل الواجب أن يكون وسيلةً لتحقيق التَّوازن الاقتصاديّ في المجتمعِ المسلم.

أثر الظّرف ﴿بَيْنَ﴾ في بيان جملة التّعليل:

حرص الأغنياء على بقاء الأموال بينهم باجتهادٍ وإصرار منهم منهيٌّ عنه

قوله: ﴿بَيْنَ﴾ في جملة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ظرف مكان يدلُّ على أنَّ هذا التَّقسيم يحول دون انحصار الأموال في حيِّز ضيِّق، وبين مجموعة محدودة من المسلمين، هم طبقة الأغنياء لا غير، والمعنى: كيلا يكون الفَيْء شيئًا يتداولُه الأغنياء بينهم، ويتعاورونه، فلا يصيب الفقراء[2]، فالظَّرفية بيَّنت معنى الاستئثار والحرص على ألّا يخرج المال من بين أيدي الأغنياء، فأفاد الظَّرف حصرَ المالِ في حيِّزٍ منهيٍّ أن يبقى المال فيه عن قصدٍ واجتهاد.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾:

الدّلالة الإيمائيَّة المقاصديَّة تقود إلى حرمة كلِّ ما من شأنه منع النّاس من الاكتساب

(أل) في ﴿ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ لتعريف العهد، والمقصود بهم: الأغنياء المعروفون، وهم قادة الجيوش، ورؤساء القبائل وغيرهم ممَّن كانوا يأخذون النّصيب الأكبر من غنائم الحروب وفيئها في الجاهليَّة؛ إذ الغرض من هذه الجملة إبطالُ ما كان حاصلًا من استئثار هؤلاء بالكثير من المكاسب دون غيرهم، ممَّن اشتركوا معهم في الحروب[3]، وتحتمل أن تكون (أل) لاستغراق الجنس، أي: جميع

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 386.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 294.

الأغنياء، فيُؤخذ منها أنَّ النهي انصبَّ على بقيَّة الأغنياء لكن لا بطريق الفيء، بل بعموم طرق الكسب، وهي دلالة إيمائيَّة مقاصديَّة، وقصر التَّعليل على مال الفيء ممّا لا ينسجم مع تعميم المقاصد في آيات الأحكام الشرعيّة.

فائدة القيد بـ ﴿مِنكُمۡۚ﴾ ومرجع الضّمير فيه:

تميُّز المجتمع المسلم بالتَّشريعات الرَّبّانيَّة والمقاصد السّامية

ضمير الخطاب في قوله: ﴿مِنكُمۡۚ﴾ يعود إلى المسلمين؛ لأنَّهم الّذين خوطبوا في ابتداء السّورة بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾، ثم بقوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ وما بعده، والتّعبير به مجرورًا بـ (مِنْ) التّبعيضية يساعد في قبول الأمر القرآنيّ بتقسيم الفيء على النّحو المذكور؛ لدلالته على أنَّ ذلك التّقسيم سبب رئيس في اختلاف المجتمع المسلم عن المجتمع الجاهليّ، كما أنّه عاملٌ مهمٌّ في تطهير مجتمع المسلمين من الطبقيّة المقيتة وآثارها البغيضة.

نوع الواو ودلالتها:

احتمال العطف والاعتراض يلتقيان في بيان الواجب الفعليّ بعد ذكر التّقسيم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما قبلها؛ لأنَّه لّما كان التَّقدير: فافعلوا ما أمرتكم من قسمته لمن أمرت به، عطف عليه قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾[1] بغرض إلفات المؤمنين إلى ما ينبغي لهم من ولاء وطاعة للرّسول، وتقبُّل ورضا بكل ما يُقضى به في أمورهم، وبخاصَّة وهم في مواجهة هذه الفتنة المطلّة عليهم؛ بسبب المال الّذي وضعه اللّه في يد الرّسول، وإنّه لن يَعْصمَ المسلمَ منها إلّا الإيمانُ الوثيقُ والرّضا المطلقُ بكل ما يقضي به الرّسولُ[2]، ويمكن أن تكون الواو اعتراضيّة، والجملة بعدها اعتراض ذُيِّل به حكمُ الفيء؛ بقصد إزالة ما في بعض النّفوس مِن حزازة حرمانهم ممّا أفاء اللّه على رسوله من أرض النّضير[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 433.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 858.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 86.

شمول المعنى كلَّ ما يعطيه الرّسولُ من الفيء

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

(ما) في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ اسم موصول متضمِّن معنى الشّرط، أوثر التَّعبير به؛ لِما يفيده من عموم المعنى وشمولِه كلَّ ما يؤتيه النبيُّ ﷺ، أو يأمر به، ويرشد إلى ضرورة الالتزام به، والمعنى: ما أعطاكموه من الفيء[1].

دلالة استعمال مفردة: ﴿ءَاتَىٰكُمُ﴾:

الإيتـاءُ يغلب استعماله فيما فيه قسمة ومقادير

عبَّر البيان الكريم بالفعل ﴿ءَاتَىٰكُمُ﴾ الّذي يُستعمَل في العطاء الكثير والعظيم فقط[2]؛ لتعظيم ما يؤتيه الرّسول ﷺ لأتباعه من المال أو الفيء، وبيان أهمّيَّة ما يوجِّههم إليه من الأوامر الحكيمة والنّصائح الجليلة، كما أنَّ الإيتاء يُستعمَل في غالب الاستعمال القرآنيّ فيما فيه مقادير وأنصبة وقسمة، بخلاف الإعطاء فيُستعمَل فيما يكون بدون قسمة.

لفظ الإيتاء بين المجاز والحقيقة:

حمل الألفاظ على حقائقها وإلحاق معانيها المجازيّة بها هو الأولى

إذا كان الإيتاء بمعنى الأمر؛ ففي التَّعبير به استعارة تصريحيَّة، شُبّه فيها تبليغُ الأوامر للمسلمين بالإيتاء، ثم استعير الإيتاءُ؛ للتَّبليغ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة[3]، الّتي تحوَّلت معها الأوامر من أشياء معنويّة إلى أشياء حسيّة، يمدُّ الرسولُ يدَه بها إلى أصحابه وأتباعه كما يفعل المُهدون، وما عليهم إلّا أن يتلقَّفوها بالرِّضا والقبول، ويأخذوها فرحين مستبشرين، والأصل أن يبقى اللّفظ على حقيقته، وهو الأولى بمقام توزيع الفيء على أناس، ومنع آخرين منه، والأمر تابعٌ في معناه لذلك، لا أنَّه هو المقصود أصالة.

نوع الفاء في قوله: ﴿فَخُذُوهُ﴾:

أوامر النّبيّ على الفَوْر لا التّراخي

الفاء في قوله: ﴿فَخُذُوهُ﴾ هي الواقعة في جواب الشَّرط، وهي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (آتى).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 86.

تدلُّ على أنَّ ما بعدها مترتِّب على ما قبلها، وفيها بجانب التسبُّب معنى الإسراع والتّعقيب، والمعنى: إذا أمركم النبيُّ بأمر من الأمور، أو إذا أعطاكم شيئًا من الأشياء؛ فإنَّ الواجب عليكم أن تمتثلوه على وجه السّرعة، أو تأخذوه، بلا تردُّد فإنَّه حقُّكم، أو واجب عليكم[1].

دلالة استعمال مفردة الأخذ:

ما أمر به النبيُّ؛ فـيُـتَّـبـع، وما أعطاه؛ فيؤخذ

التَّعبير بفعل الأخذ الموضوع؛ لحوز الشَّيء وجبيه وجمعه[2]، في قوله: ﴿فَخُذُوهُ﴾ دالٌّ على توجيه المسلمين إلى ضرورة الجدِّ في تنفيذ أمْر النَّبيِّ ﷺ في شأن الفيء بصفة خاصة، وفي أيِّ شأنٍ غيره بصفة عامَّة، بمجرَّد أن يأمر به، وعدم التردُّد أو التعجُّب من أيِّ قدر أعطاه سواء من الفيء أم من غيره، فإنَّ ما أمر به النبيُّ لا ينبغي أن يُخالف، وما أعطاه، أو منحه؛ لا يصحُّ أن يُرفض.

مفردة الأخذ بين الحقيقة والمجاز:

أخذُ الشَّيء دالٌّ عـلى الـرِّضـا به والامتثال له

إذا كان المراد بالأخذ: امتثال أوامر النبيّ ﷺ؛ ففي التّعبير استعارة تصريحيَّة، شُبِّه فيها الامتثالُ بالأخذ، بجامع الحرص في كلٍّ، ثم استُعير الأخذُ لقبول الأمر والعمل به، استعارة تصريحيّة، بقرينة مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، وهو تتميم لنوعي التّشريع، وهذه الآية جامعة للأمر باتِّباع ما يصدر من النبيّ ﷺ من قول وفعل، فيندرج فيها جميع أدلَّة السّنة[3]، وإذا كان المراد بالأخذ تناول أموال الفيء، وهو الظّاهر، فاللَّفظ محمولٌ على حقيقته، ويتفرّع عن ذلك ضرورة امتثال أوامر اللّه تعالى.

بلاغة العطف بين الجمل المتقابلة:

أوامـر الـرَّسـول ونواهيه تُتَّبع على وجـهٍ واحـد دون مناقضةٍ بينها

في الآية الكريمة مقابلة بين أربعة معانٍ، اثنان في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، واثنان في قوله: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 86، 87.

﴿فَٱنتَهُواْۚ﴾، وهي مقابلة تبرز ما يجب على المسلمين تجاه أوامر النَّبيِّ ﷺ ونواهيه من قبول وامتثال، وجيء بجملتيها معطوفتين بالواو الّتي تفيد المشاركة والمصاحبة؛ للإشارة إلى ضرورة المجيء بالأمرين معًا، فلا يصحُّ من المسلم التزام الأوامر وإتيان النّواهي، كما لا يصحُّ منه مخالفة الأوامر واجتناب النّواهي، ما يعني: أنَّ حقَّ الرَّسول على أتباعه في شأن الفيء بصفة خاصّة، وفي جميع الأمور بصفة عامّة الامتثال والطّاعة من غير مراجعة، ولا توقُّف، أو ريبة(1).

دلالة التَّعبير بفعل النَّهي:

المنهيّات تستلزم الشِّدَّة والزَّجر لما فيها من أضرار

جاء التّعبير في جملة الشّرط بفعل النَّهي دون فعل المنع، فقال: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾، ولم يقل: (وما منعكم منه)؛ لدلالة النّهي على الشدَّة والزَّجر(2) اللّازمين لتجنُّب ما في المنهيات من أضرارٍ قد لا يحيط بها المخالفون، قال تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النّحل: 90]، وهو ما لا يتحقَّق إذا جاء التَّعبير بفعل المنع الدّال على خلاف العطاء(3)، والّذي يمكن أن يخلو من الشِّدَّة والحزم.

دلالة قيد فعل النّهي بـ ﴿عَنۡهُ﴾:

واجب المسلم نحو المنهيّات الابتعاد الكليُّ والمفاصلة التّامة

حرف (عَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ يفيد المجاوزة، وهو أشهر معانيه(4)، والتّعبير به دالٌّ على أنَّ الواجب على المسلم تجاه ما نهى اللّٰه تعالى ورسوله عنه هو الابتعاد الكليّ عنه والمفاصلة التّامة منه، والنّفور الشّديد من كلّ ما يؤدّي إليه، أو يُقرِّب منه، وليس مجرد التّرك وعدم الفعل، وفيه أيضًا تأكيدٌ لكون المنهيّات ذات مخاطر شديدة وأضرار بالغة، وهو ما ينسحب على المطالبة بتقسيم الفيء على خلاف ما أمر به اللّٰه تعالى، وفعله رسوله ﷺ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 859.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (نهى).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (منع).
(4) المراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 245.

نوع الفاء ودلالتها:

نهي الرَّسول صادرٌ عن الوحي الإلهيِّ، فهو خيرٌ محض

الفاء في قوله: ﴿فَٱنتَهُواْۚ﴾ هي الواقعة في جواب الشَّرط، وهي تدلُّ على أنَّ ما بعدها مترتِّب على ما قبلها، وفيها بجانب التسبُّب معنى الإسراع والتّعقيب، والمعنى: إذا نهاكم اللّه تعالى عن أمر، أو منعكم الرّسول من أخذ شيء من الفيء أو غيره، فما عليكم إلّا أن تنتهوا عمّا نهاكم عنه، وألّا تطلبوا ما منعكم منه، على وجه بالغ في الإسراع، ومن غير تردُّد أو تساؤل عن العلَّة، والمعنى: مهما نهاكم الرّسولُ عن أخذ أمر أو تعاطي شيء؛ فاجتنبوه؛ لأنَّه لا ينهى إلّا عن شرٍّ[1].

غرضُ الأمر المسند إلى ضمير الجماعة:

مَنْ شَذَّ عن الانتهاء؛ عرَّضَ نفسَه للجزاء

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَهُواْۚ﴾ أسلوب أمر غرضه توجيه المخاطَبين وإلزامهم بترك ما نهى عنه رسولُ اللّه ﷺ، وإن لم يعرفوا الحكمة الكامنة فيه؛ ثقةً في أنه لا يأمر إلّا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشَّرِّ، وجيء به مسندًا إلى ضمير الجماعة للإشارة إلى ضرورة أن يلتزم الجميعُ، وألا يشذَّ أحد؛ لأنَّ مَن شذَّ؛ سيعرِّض نفسَه للعقابِ، فالأمر واجبٌ اتّباعه من جميع المجتمع المسلم.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾:

التّقوى هي السّياج الحافظ للمجتمع المسلم

الواو في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما سبقها من أمر بالتزام الأوامر، واجتناب النّواهي، فتصير الأوامرُ في الجملة ثلاثة، الأمر بأخذ أوامر الرّسول، والأمر باجتناب نواهيه، والأمر بتقوى اللّه ﷻ، والأمران الأوّلان في إقامة الشّرع، والأمر الثّالث في المحافظة عليه، فلا تستقيم الشّريعة، وتستمرُّ في المجتمع ما لم يكن هناك تقوى للّه تعالى.

نوع عطف الأمر بالتقوى بعد الأمر بالأخذ والانتهاء:

عَطْفُ الأمر بالتَّقوى على ما سبقه من أمر بأخذ الأوامر،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 228.

التحلّي بالتّقوى يعين على التزام الأوامر واجتناب النّواهي

واجتناب النّواهي من باب عطف العامّ على الخاصّ؛ لأنَّ فعل الأوامر واجتناب النّواهي ممّا يدخل في حيّز التَّقوى، وينضوي تحتها، وعَطْفُ الأمر بها توكيدٌ للأمرين السّابقين؛ لدلالته على الأمر بهما مرَّتين: أولاهما على سبيل الخصوص، والأخرى على وجه العموم، يُزادُ على ذلك أنَّ الأمرَ بالتقوى يعين المسلمَ على امتثال ما سبق، ويساعده في فعلِه، "فإنّه لمّا كان الكفُّ عمّا ألفتْه النّفوسُ صعبًا، ولا سيّما ما كان مع كونه تمتُّعًا بمال على وجه الرّئاسة؛ رهَّب البيانُ من المخالفة فيه"[1]، وأرشد إلى ما يعين عليه.

فائدة التّعبير باسم الجلالة:

طاعة الرّسول طاعة لله، ومخالفة الرّسول معصية لله

جاء التّعبير باسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ بعد الأمر بأخذ أوامر الرّسول واجتناب نواهيه؛ للإشارة إلى أنَّ طاعةَ الرّسول طاعةٌ للّه، ومخالفتَه معصيةٌ لأوامر اللّه، ولِما في إبراز اسم الجلالة العلم من تربيةٍ للمهابة وتخويف وتحذير من الاجتراء على المخالفة والعصيان أو التَّفكير فيهما، والمعنى: "اجعلوا لكم بطاعة رسول اللّه وقايةً من عذاب الملك الأعظم المحيط علمًا وقُدرة"[2]، وإظهار اسم الجلالة أمتن في الأمر بالتَّقوى، فإنَّ معرفة المُتّقى تقوّي الطّاعة، وتُلزِم صاحبَها بالدَّوام.

علّة فصل جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

تعليل الأوامر والنّواهي رحمةٌ بالعبادِ وتحذير للغافلين

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لأنّها تعليل لما سبق، ما يعني أنّها فُصِلت عنها، كما يُفصل السّبب عن المسبّب فيما يعرف بشبه كمال الاتّصال، وجريًا على عادة البيان القرآنيِّ في اتباع جملة الأمر أو النّهي بما يعين على امتثالها، ويرهب النّفوس من مخالفتها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 434.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 434.

بلاغة التَّوكيد في الجملة التَّعليليَّة:

المبالغة في التَّحذير دليلُ خطورة المقام

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ مؤكَّدة بإنَّ والجملة الاسميّة وتقديم المسند إليه على الخبر المشتقّ؛ للمبالغة في تحذير المخاطَبين من المخالفة في أمر تقسيم أموال الفيء بصفة خاصَّة، وفي غيره من الأوامر والنَّواهي بصفة عامَّة، والمعنى: "إنَّ اللّه شديد العقاب لمن خالف رسولَه، والأجود أن يكون عامًّا في كلِّ ما آتى رسولُ اللّه ﷺ، ونهى عنه، وأمرُ الفيء داخلٌ في عمومه"[1].

بلاغةُ إظهار اسم الجلالة مع قُرب العهد به:

الإبلاغ في ترهيب المخاطَبين، ولتجري الجملة مجرى المثل السّائر

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (واتقوا اللّه إنَّه شديد العقاب)، لكنَّ البيانَ القرآني عدل إلى إظهار الاسم الجليل مع قُرب العهد به، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ زيادةً في تعظيم اللّه تعالى وتربيةً لمهابته في نفوس المخاطَبين، وإبلاغًا في ترهيبهم وتحذيرهم من التَّهاون في أخذ أوامر الرَّسول، والاجتراء على فعل نواهيه، ولتجري الجملة مجرى المثل السّائر.

مناسبة انتقاء لفظ ﴿شَدِيدُ﴾:

شدَّةُ الأغنياء على الفقراء تحتاج إلى ردعٍ شديد

قولُه تعالى: ﴿شَدِيدُ﴾ خبر للحرف النّاسخ، أوثر الإخبار به عن اللّه تعالى؛ للإشارة إلى أنَّ اللّه سبحانه سيتولّى بنفسه عقاب مَن يجترئ على مخالفة أمره بطاعة أوامر الرَّسول واجتناب نواهيه، وفي ذلك من التّرهيب ما تنخلع له القلوبُ، فتزهد في أموال الدّنيا، وتنصرف عن المطالبة بشيء من متاعها، فيئًا كان أو غيره، ولمّا كان الاستئثار بالأموال بين الأغنياء شديدًا على المسلمين؛ ناسب الإتيان بلفظ ﴿شَدِيدُ﴾.

دلالة المبالغة في ﴿شَدِيدُ﴾:

جيء بـ ﴿شَدِيدُ﴾ على وزن (فعيل) الّتي للمبالغة؛ للإشارة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 503.

عقابُ الله لا طاقة لأحد به، ولا قدرةَ للنّاس على احتماله

إلى أنَّ عقاب مَن يخالف توجيهات رسول الله في أمر الفيء أو في غيره، أو يضيق بها ليس عقابًا يسيرًا، إنَّما هو عقابٌ بالغٌ في الشدَّة والإيلام الدّرجةَ القصوى والغايةَ العظمى، الّتي لا طاقة لأحد بها، ولا قدرةَ للنّاس على احتمالها.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذكر الأصناف العامّة إلى ذكر من له خصوص

بعد أنْ بيَّنت الآيةُ السّابقةُ الأصنافَ الّتي يوزَّع عليها أموال الفيء، ورهَّبت من مخالفة الرّسول في توزيع الفيء، ورغبت في الطّاعة والتزام تقوى الله؛ ناسب أن ينتقل الكلام إلى ذكر الفئات الّتي تُعْطَى أموال الفيء، وتحدِّدَهم من بين الأصناف الّتي ذكرتها الآيةُ السّابقة، والّذين هُم أشدُّ احتياجًا إليه، وأكثر فاقة من غيرهم، مع بيان شيء من فضلهم ومآثرهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُخۡرِجُواْ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيْءِ، ومنه الخروج، يقال: خَرَجَ خُروجًا: برز من مقرّه أو حاله، سواء كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ﴾ [الأعراف: 13]، والإخراجُ أكثر ما يُقالُ في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]، ونحو: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: 5][2]، ومعنى ﴿أُخۡرِجُواْ﴾: أنَّ كفار مكّة أحوجوهم إلى الخروج[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فقراء المهاجرين هم الأولى بأموال الفيء لما تعرَّضوا له من شديد البؤس

بيّنت الآية الكريمة بعض الفئات الّتي توزَّع عليها أموال الفيء من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 434.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج)، والرّاغب، مفردات القرآن: (خرج).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 507.

بين ذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السَّبيل الّذين ذكرتهم الآية السّابقة، وهم: الفقراء المهاجرون الّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلًا من اللّه ورضوانًا، وينصرون اللّه ورسوله، فكأنَّ هذا الفيء الّذي أفاءه اللّه على الرّسول هو من أجل هؤلاء المهاجرين الفقراء؛ ليكون مواساةً لهم في الغربة الّتي اختاروها ابتغاءَ مرضاة اللّه، وآثروا بها دينَهم على أهليهم وأموالهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علة فصل جملة ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾:

بيانُ الصّنف الأحقّ بالعطاءِ بعد بيان عموم الأصناف

يحتمل أن تكون علّة فصل جملة: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ عمّا قبلها، لكمال الاتّصال الّذي تنزل فيه الجملةُ المفصولةُ ممّا قبلها منزلة التّابع من المتبوع، وتفصل عنها لفظيًّا، كما يفصل التّابع عن المتبوع، فهي بدل بعضٍ من كلّ، ممّا يصلح أن يكون بدلًا منه من أسماء الأصناف المتقدّمة الّتي دخلت عليها الكلام مباشرة(2).

ويحتمل أن يكون الفصل لشبه كمال الاتّصال، الّذي تُجيب فيه الجملة الثّانية عن سؤال تثيره الجملةُ السّابقة في خاطر النبيّ الكريم، بعد أن وضع اللّه سبحانه هذا الفيء بين يديه، وجعل ينظر فيمن حوله من الفقراء الّذين دعاه اللّه سبحانه إلى إعطائهم نصيبًا من هذا الفيء، فالفقراء كثيرون، فإلى مَن مِن هؤلاء الفقراء يمدُّ يده بالعطاء؟(3)

نوع اللّام في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ وعلَّة تكرارها:

العناية بالفقراء المهاجرين من بين سائر الأصناف منهجٌ في بناءِ فقه الأولويّات

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ حرف جرٍّ، يفيد اختصاص فقراء المهاجرين بالأموال الّتي أفاء اللّه بها على رسوله من أهل

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 859.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 87.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/ 587.

القرى، وأعيد اللّام مع البدل لربطه بالمبدل منه لانفصال ما بينهما بطول الكلام من تعليل وتذييل وتحذير ولإفادة التَّأكيد، والمعنى: ما أفاء اللّه على المسلمين من أهل القرى المعنيّة في الآية لا يجري قَسْمُهُ على ما جرى عليه قَسْمُ أموال بني النّضير، الّتي اقتصر في قسمها على المهاجرين وثلاثة من الأنصار ورابع منهم، فكأنّه قيل: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل، للفقراء منهم لا مطلقًا، يدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والّذين آمنوا بعدهم[1].

الموقع الإعرابيّ ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ودلالته:

البدل بيانٌ للسّابق والابتداء إضافة على السّابق

يحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ بدلًا من (ذي القُرۡبَى)، وما عُطِف عليه في الآية السّابقة، كأنّه قيل: أعني بأولئك الأربعة: الفقراءَ المهاجرين الّذين من صفتهم كذا وكذا[2]، وعليه لا يُعطى من مال الفيء من ذوي قرابة رسول اللّه ﷺ سوى الفقراء، كما ذهب إلى ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه، ويرى الشّافعيُّ أنَّهم يستحقّونه بالقرابة، وليس بالحاجة[3].

وتحتمل أن تكون جملة ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ابتدائيّةً على حذف المبتدأ، والتّقدير: ما أفاء اللّه على رسوله للمهاجرين الفقراء إلى آخر ما عطف عليه، فتكون هذه مصارف أخرى للفيء، ومنهم من جعلها معطوفة بحذف حرف العطف على طريقة التَّعداد، كأنَّه قيل: فلله وللرّسول إلى آخره، ثم قيل: للفقراء المهاجرين، فعلى هذين القولين ينتفي كونها قيدًا للجملة الّتي قبلها، وتنفتح طرائق أخرى في حمل المطلق على المقيَّد، والاختلاف في شروط الحمل، وهي طرائق واضحة للمتأمِّل[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 87.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 507.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 503، والإسكندريّ، الانتصاف من الكشّاف، بهامش الكشّاف: 4/ 503.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 89.

عدمُ إظهار الفقر مع شدَّة الاحتياج معيارٌ في الاستحقاق الشّرعي

نكتةُ إيثار وصف (الفُقَراءِ) بعد (المَساكينِ):

آثر النّظم الكريم وصف الفئة، الّتي تستحقُّ أموالَ الفيء بلفظ (الفُقَراءِ) بعد ذكرِ المساكين في الآية السّابقة، وذلك أنَّ هذين الوصفين إذا افترقا؛ اتَّفقا، وإذا اجتمعا؛ اختلفا، أي: إنَّ وصف (الفُقَراءِ) الّذي عبَّرت به الآية يشمل (المَساكينِ)؛ لأنَّهم أشدُّ حاجة، وأكثرُ إثارة للشَّفقة؛ إذ الفقير هو: الّذي لا يسأل النّاس، بينما المسكين هو الّذي يسأل[1]، ويمكن أن يكون التّعبيرُ هنا دالًّا على أنَّ (المَساكين) أعمُّ، و(الفُقَراء) أخصُّ، ما يعني: أنَّ الفقير أكثر احتياجًا من المسكين، ولذا خُصَّ بالذِّكر؛ لأنَّه دالٌّ على شدَّة الاحتياج الّتي كان فيها أولئك الفقراء مع عدم إظهار ذلك، فقد كان أحدُهم بعد الهجرة إلى المدينة وعند نزول الآية يعْصِب الحجر على بطنه من الجوع، ويتخذ الحفرة في الشِّتاء لتقيه البرد، ما له دثارٌ غيرها، بعد أن كان له من الأموال ما يسعه، ويفضل منه ما يصل به غيره[2].

التَّوازن الاقتصاديُّ في المجتمع المسلم من معايير العطاء والاستحقاق

نكتة تخصيص (الفُقَراءِ) بـ ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾:

خصَّ البيانُ ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ من (الفُقَراءِ) بأموال الفيء، فقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لأنَّهم أحقُّ بها من غيرهم؛ إذ كانوا في شظف شديد من العيش؛ بسبب أنَّهم تركوا كلَّ شيء وراء ظهورهم، تركوا ديارهم، وأموالهم، وتجارتهم، وأقاربهم، وجاؤوا إلى المدينة بلا مال ولا مأوى، وكانوا في حاجّة ماسَّة للمساعدة الماديّة حتّى يعيشوا، ويُقيموا أمر دينهم، ومن ثمّ كان اختصاصُهم بالفيء من بين عامّة الفقراء حلًّا عاجلًا لفقرهم وحاجتهم، ومُحقِّقًا للتّوازن الاقتصاديّ الّذي تعمل السّورة على ترسيخه في المجتمع المسلم.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 177.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 345.

فائدةُ التّركيب الوصفيّ ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾:

الـرّدُّ على من يزعم أنَّ إثابة أصحاب التّضحيات مقصورةٌ على الآخرة

دلَّ التّركيب الوصفيُّ ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ على شيءٍ معهودٍ في الذّهنِ؛ إذ كان فقراء المهاجرين معروفين بأسمائهم وأُسَرِهم وأحوالهم، وكان عددهم مِائة رَجُل، يعرفهم رسولُ اللّه وغيرُه من المسلمين المقيمين في المدينة[1]، وفي هذا التَّخصيص بيانٌ لمنهج الإسلام في التّعامل مع أصحاب التّضحيات السّابقة الّذين آثروا الآخرة على الدّنيا، فقد حفظ لهم مكانةً مذكورةً إلى يوم الدّين؛ ليكونوا لمن بعدهم مثلًا يُحتذى به في التّضحية للدّين، وفي مجازاة من ضحّى للّه تعالى، وفيه ردٌّ على من يزعم أنَّ الثّواب والتَّقدير والجزاء محصورٌ في الدّار الآخرة.

بلاغة الوصف بالاسم الموصول:

تعليل تفضيل أصحاب الفضل بذكر مناقبهم

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ نعتٌ ثانٍ لـ(الفُقَراءِ) أوثر وصفهم به؛ ليتوصَّل باسم الموصول وصلته إلى ما يوجب الإشفاق عليهم وإعطاءهم الفيء، وليُنَبِّه إلى أنَّ اختصاصهم به مُراعًى فيه جبر ما نُكبوا به من ضياع الأموال والدّيار، ومُراعًى فيه إخلاصُهم الإيمانَ، وإصرارُهم على نصر دين اللّه ورسوله[2].

بلاغة التَّعبير بفعل الإخراج مبنيًّا للمفعول:

الإخـراج من الدّيار يدلُّ على القهر والقسر بخلاف الخروج

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإخراج بصيغة المبنيِّ للمفعول ﴿أُخۡرِجُواْ﴾؛ لدلالته على أنَّهم قد نُزِعوا من ديارهم جبرًا وقسرًا، واضطرَّهم المشركون إليه قهرًا وعدوانًا، ومِنْ ثَمَّ لم يكونوا مستعدّين له بحمل مالهم ومتاعهم، وهذا المعنى لا يتحقَّق إذا جيء بالفعل مبنيًّا للمعلوم، فقيل: (خَرَجوا)، ذلك أنَّ الخروج الاختياريّ المحض، يعني أَخْذَ الممتلكات، والانتقال إلى دارٍ أخرى برغبةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 89.

واستشراف وطلب للموارد، فوجه بنائه للمفعول بالإضافة إلى ما سبق "أنَّ المنكئَ هو الإخراج، لا كونه من مُخْرِجٍ معينٍ"[1].

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ للابتداء، وهو دالٌّ على أنّهم كانوا مستقرّين في ديارهم، وأنَّ الكافرين هم الّذين ابتدَؤوا إخراجَهم منها، ومنعوهم من الإقامة فيها.

بلاغة استعمال الدّيار:

الدّيارُ تشمل البيوت ومصادر الرّزق والعلاقات

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا دون (بيوتهم)؛ لبيانِ أنَّ الإخراج لم يكن من أماكن مبيتهم فحسب، بل أُخرجوا من ديارهم كلِّها، الّتي تشتمل على مصادر الرّزق، والارتباطات الاجتماعيّة، والبيئة الّتي اعتادوها، فالدّيار شاملةٌ لكلِّ ما له علاقة بالحياة المستقرّة، بخلاف البيوت فهي دالّة على جزءٍ من الدّيار وهي البيوت الخاصّة، فذِكْرُ الدّيار أشدُّ في دلالته على القهر والظلم الذي تعرّض له المهاجرون، ويُقوّي المعنى اللغوي للدّيارِ، وصف المهاجرين بالفقر الّذي بُني عليه الوصف الثّاني، وهو الإخراج، فكان وصف الإخراج بيانًا بعد بيان.

دلالة إضافة لفظ الدّيار إلى الضّمير:

تعزيز الارتباط بين الفقراء والمساكن

جيء بلفظ الدّيار مضافًا إلى ضمير (الفقراء)؛ لتقوية الارتباط بينهم وبين الدّور الّتي قاموا بإنشائها وبنائها، وللدّلالة على أنَّ هذا شعورُ جميعِ مَنْ أُخرِجوا، وهاجروا إلى المدينة بلا استثناء.

فائدة عطف الأموال على الدّيار:

الأموال ظرف يستر صاحبَه، ويحميه، ويمنعه كالدّيار

عطفُ (الأموال) على (الدّيار) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ دالٌّ على أنَّ المال سترةٌ للإنسان، وأنّه ظرفٌ له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 435، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 860.

يحميه، ويمنعه كالدّيار تمامًا بتمام[1]، والتّعبير به دالٌّ أيضًا على أنّ الكفار منعوا المهاجرين، وحالوا بينهم وبين كلِّ ما يملكون من ديار وأموال وغيرها من المتاع الّذي يمكن أن يغنيهم، إذا أُجبروا على ترك مكّة والرّحيل عنها إلى بلد آخر، وهو دالٌّ على أنَّ المالَ عزيزٌ على النّفس، وأنَّ له قيمةً عظيمةً مشروعةً، والإخراج منه بلاءٌ لا يصبر عليه إلّا القليل من المؤمنين.

دلالة استعمال مفردة (الأموال) جمعًا:

مشروعيّة تعويض المتضرِّرين ولو بعد حين

جاء استعمال مفردة الأموال جمعًا ﴿وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ للإشارة إلى كثرتها وتنوُّعها وتعدُّد أصنافِها، ما يدلُّ على أنّهم كانوا أهل غنى ويسار، وأنَّهم ضحّوا بذلك كلِّه نصرةً لدين اللّه تعالى، واتِّباعًا لرسوله ﷺ، وهو ما يوجب إكرامَهم وتعويضَهم، لا سيّما وأنَّهم تعفَّفوا عن الطّلب، ولم يضعوا إخوانهم في حرج، وفي ذكر الأموال بعد توزيع أموال الفيء إيماءٌ إلى مشروعيَّة تعويض المتضرِّرين والمضحّين، ولو بعد حين بما يجبر الخواطر، ويُعين على الحقِّ.

موقع جملة: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾ ودلالتها:

الأحوال مقاصد الأفعال وأغراضها في مكامن سياقها

قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾ جملة حاليّة، تكشف عن الحال الّتي تلبَّس بها هؤلاء المهاجرون، حين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم، وأنَّهم حين أُخرِجوا كانوا على حال يبتغون بها فضل اللّه ورضوانه، وينصرون اللّه ورسوله، ولم يكن إخراجُهم عن حال أخرى تدعو قومهم إلى إخراجهم من بينهم[2]، ومقصد الجملة الحاليّة تشريف المهاجرين والثّناء عليهم، والاحتراس ممّا قد يُتوهَّم من أنّ الأمر بإعطائهم الفيء يُنقص من قدرهم، فقد وصفوا أوّلًا بما يدلُّ على استحقاقهم للفيء، وقيَّد ذلك ثانيًا بما يوجب تفخيمَ شأنهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 435.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 859، 860.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.

دلالة التّعبير بفعل الابتغاء مضارعًا:

ابتغاء الفضل تجدُّدٌ لا ينضب واستمرارٌ لا يأفل

التّعبير بفعل الابتغاء الموضوع للاجتهاد في الطَّلب[1]، في قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾ دالٌّ على شدَّة حرص المهاجرين على التقرُّب إلى ربِّهم، وعظيم أملهم في قبول عملهم، وسعة رجائهم في فضل اللّه وثوابه، والتّعبير به مضارعًا دالٌّ على تجدّد ذلك منهم بعد الهجرة، مع ما هم فيه من شظف العيش، وضيق الرّزق، وقلّة الأموال.

فائدة استعمال مفردة ﴿فَضۡلٗا﴾:

نظرُ المؤمنين إلى عمومِ الفضل الإلهيّ لا إلى خصوص الرّزق الربّانيّ

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿فَضۡلٗا﴾ دون (رزقًا)[2]؛ للإشارة إلى يقينهم بأنَّ ما يطلبونه من اللّه تعالى من رزق أو غيره ليس واجبًا عليه سبحانه، ولكنّه محض فضل يتفضَّل به عليهم[3]، وفيه ما يرفع شأنهم، ويُعلي قدرهم، ويدعو إلى مزيد الإحسان إليهم، فإنَّ الّذي ينظر إلى فضلِ اللّه تعالى يودِعه أسباب الفضل، ويمنعه الحرمان، ويقوده إلى جميل الإيمان.

غرض تنكير مفردة ﴿فَضۡلٗا﴾:

جاء التَّعبير عن الفضل بالنَّكرة ﴿فَضۡلٗا﴾؛ لبيان أنَّ ما يطلبونه من اللّه تعالى هو الفضل بمفهومه العامّ، دون تخصيصه بفضلٍ بعينه، وهو ما يتعلّق بتفويض ما ينفعهم إلى اللّه تعالى.

نوع حرف ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جارّ ومجرور متعلّق بالفعل ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، و﴿مِّنَ﴾ فيه بيانيّة توضِّح مصدر الفضل الّذي يبتغيه المهاجرون، أو الرزق الّذي يطمعون فيه، وأنَّه من اللّه تعالى لا من أحد غيره.

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بغى).

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 273.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 436.

بلاغة التّعبير باسم الجلالة:

جاء التّعبير بذكر اسم الجلالة العلم، في قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لما يدلّ عليه من تغلغل الإيمان بالله تعالى في قلوبهم، وشدّة تعظيمهم له، وحرصهم على الطّلب منه والطّمع فيه؛ لأنَّه وحده القادر على إغنائهم، ولأنّه حاضر في قلوبهم حضورًا يحول دون طلبهم من أحد غيره، ويمنع طمعهم في أحد سواه، والمعنى: من الملك الأعظم الّذي لا كفوء له؛ لأنَّه المختصّ بجميع صفات الكمال من الدّنيا والدّين والآخرة، فيغنيهم بفضله عمَّن سواه[1].

الله تعالى هو القادر وحده على الإعطاء والكفاية والإغناء

نكتة تقديم ﴿فَضۡلٗا﴾:

قُدِّم ذكرُ ﴿فَضۡلٗا﴾ وعطف (رِضْوانًا) عليه لتعلُّق الفضل بالأمور الدّنيوية، وتعلُّق الرّضوان بالأحوال الأخرويّة، والمعنى: طالبين من الله تعالى رزقًا في الدّنيا ومرضاة في الآخرة[2]، ويمكن أن يكون المراد بالفضل: ثواب الجنّة، وبالرّضوان: رضا الله تبارك وتعالى[3]، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]، ما يعني: أنّ التّرتيبَ بينهما ترتيبٌ تصاعديّ.

الفضلُ يتعلَّقُ بالأمورِ الدّنيويةِ، والرّضوانُ يتعلَّقُ بالآخرة

لطيفة عطف جملة: ﴿وَيَنصُرُونَ﴾ على ما قبلها:

عُطف فعل (يَنْصُرونَ) على ما قبله بالواو الّتي تُفيد المشاركة؛ لتأكيد اشتراك ظاهر المهاجرين مع باطنهم في التعلُّق بالله تعالى والقصد إليه؛ إذ "لمّا وصفهم الحقُّ بتعليق بواطنهم به سبحانه وقطعها بالرِّضا بالإخراج عمّا سواه، وصفهم ببذل ظواهرهم له، فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[4]، والمعنى: ويُضمرون في أنفسهم عزمًا أكيدًا بأن يبذلوا كلَّ مرتخص وغالٍ في سبيل نصرة دين الله[5].

ظاهر المهاجرين يشترك مع باطنهم في التّعلّق بالله والقصد إليه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 436.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 507.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 436.
(5) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1358.

بلاغة التّعبير بـ (يَنْصُرونَ) مضارعًا:

نصرةُ دين الله تعالى عقيدةٌ ثابتة لا عملٌ عابر

آثر النّظم الكريم استعمال فعل: (يَنْصُرونَ) مضارعًا؛ لما يدلُّ عليه من تجدُّد نصرتهم للّه تعالى، وحصولها في الماضي والحاضر واستعدادهم للقيام بها في المستقبل، والمعنى: ينصرون اللّه على سبيل التّجديد والاستمرار في كل وقت[1]، فإنّ نصرةَ دين اللّه تعالى لا تتوقَّف على زمانٍ دون آخر، بل هي مستمرّة على مدى الأيّام، متجدِّدةٌ لآخر الزّمان.

بلاغة المجازِ بالحذف ودلالته:

نصرةُ دين الله تعالى مشروعةٌ ولا تقبل المساومة أو الاتّهام

في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ مجازٌ بحذف المضاف، والتّقدير: وينصرون دين اللّه، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه؛ لتشريف المهاجرين وتكريم مكانتهم، ولتربية المهابة في النّفوس، وتشريع هذه النّصرة، وأنّها ما كانت إلّا لسببٍ عظيم، وهو اللّه تعالى، فهو من ذكر السّبب الّذي ضحّى لأجله المهاجرون، فتركوا الدّيار والأموال، وهو أرسخ حضورًا من أيِّ تعبيرٍ آخر، وللإشارة إلى أنّ نصرةَ دين اللّه نصرةٌ للّه، وأنَّ الثّبات على دين اللّه والدّفاع عنه برهانُ تعظيم المهاجرين لربِّهم، ودليلُ سعيِهم لنيل محبَّته ورضاه.

غرض عطف الرّسول على اسم الجلالة:

نصرةُ رسول الله أحدُ مقاصد نصرة الله تعالى

جيء بالرّسول ﷺ معطوفًا على اسم الجلالة، ومضافًا إلى ضميره؛ لبيان أنّهم يَعُدّون نصرةَ الرّسول نصرة للّه، فيبذلون لذلك أموالَهم وأنفسَهم راغبين راضين؛ لأنَّهم يوقِنون أنّ تعظيمَ الرّسول من تعظيم اللّه[2].

علّة فصل جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾:

جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تذييل يؤكِّد ما سبق وصف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 436.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 436.

الفقراء المهاجرين به من صفات تبيّن اتِّفاق باطنهم مع ظاهرهم، وظاهرهم مع باطنهم في الإيمان باللّه وحبِّ رسوله ونصرة دينه، ففصلُها عمّا قبلها؛ لكونها مؤكِّدة لها توكيدًا معنويًّا، فيما يُعرَف بكمال الاتّصال الّذي تنزل فيه الجملة الثّانية من الأولى منزلة التّابع من المتبوع، ومن ثمّ لا تعطف عليها، كما لا يُعطف التّابع على المتبوع.

التّذييلُ توكيدٌ للسّابق وبيانٌ لجملتِه

بلاغة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

أوثر التّعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ لتعظيم شأن فقراء المهاجرين، فهم في منزلةٍ سامقةٍ، ودرجةٍ عالية، والتّنبيه على أنَّهم استحقّوا وصفَ الصّادقين لأجل ما سبق اسم الإشارة من الصّفات، وهي: الإخراج من ديارهم وأموالهم، وابتغاؤهم فضلًا من اللّه ورضوانًا، ونصرهم اللّه ورسوله، فإنَّ الأعمال الخالصة فيما عُمِلت لأجله، يشهد للإخلاص فيها ما يلحق عاملها من مشاق وأذى، فيستطيع أن يخلص منها لو ترك ما عمله لأجلها، أو قصَّر فيه[1].

المهاجرون يستحقون وصف الصّادقين لبُعد منزلتهم وعلوِّ درجتهم

نوع القصر وبلاغته:

في قوله: ﴿هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ قصر صفة على موصوف، بطريق توسط ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ بين المسند والمسند إليه، وهو قصر ادعائيٌّ للمبالغة في وصفهم بالصّدق الكامل، كأنَّ صِدقَ غيرهم ليس صدقًا في جانب صدقهم[2]، لا سيّما بعد أن قدَّم النّظمُ الكريمُ البراهين الواقعيّة على اتِّصافهم به اتّصافًا لا مجال للشكِّ معه.

المبالغة في وصفِ المهاجرين بالصِّدق بضعهم في عنوانِ الصدّيقيَّة

بلاغة القصر بتعريف الجزأين:

سبق القول بأنّ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل أفاد توسُّطُه القصر، وعليه يكون ﴿ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ خبرًا لاسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وتعريف المبتدأ والخبر فيه تقوية وتأكيد لكون المهاجرين قد بلغوا في الصّدق مبلغًا

جزاءُ الصّادقين بصدقهم في الدّنيا قبل الآخرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 89.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 89.

لا نظير له، وكأنّ صدق غيرهم لا يعدُّ صدقًا بجانب صدقهم، رفعةً لشأنهم، وجبرًا لما قد يصيب نفوسَهم؛ بسبب قصر الفيء عليهم، والأمر بتخصيصه لهم دون غيرهم، فهي إشارةٌ لامحة ولامعة إلى أنَّ اللّه يُجازي الصّادقين بصدقهم في الدُّنيا قبل الآخرة.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ اسم فاعل:

المهاجرون عريقون في الصِّدق راسخون في الاستجابة

أوثر التّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ اسمًا دالًّا على الثّبوت والدّوام؛ للإشارة إلى أنَّ المهاجرين عريقون في هذا الوصف راسخون في التخلّق به؛ لأنَّ مهاجرتَهم لِما ذكر وتركهم لما وصف دالٌّ على كمال صدقهم فيما ادَّعوه من الإيمان باللّه ورسوله ﷺ؛ إذ نابذوا مَن عاداهم - وهو القريب الصّافي نسبًا ودارًا - وأوْلَوا أولياءهم أيًّا كانوا، وإن بعدت دارهم، وشطَّ مزارهم[1]، ما يؤكِّد أنَّ هجرتهم وجميع أعمالهم للّه ولرسوله، لا لابتغاء مغنمٍ من مغانم الدّنيا، أو متاعٍ من متاعها[2].

توجيه تخصيص المهاجرين بصفة ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾:

الصِّدقُ خلق العظماء الأثبات ومعيار ثبات الرِّجال

أوثر الإخبارُ عن اسم الإشارة العائد ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بوصف ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ دون غيره كأوصاف الفلاح أو الإيمان؛ للإشارة إلى أنَّ أصعب الأوصاف الأخلاقيَّة بعد الإيمان هو الثَّبات على الصّدق، والعمل في مظلّته بقصد الاستجابة لأمر اللّه تعالى، فهو المعوَّل عليه في قبول الأعمال، وفي العطاءِ الدّنيوي والثّواب الأخرويّ، "وهذا يدلُّ على أنَّ مبنى الدّين على إقامة البيّنات بالثّبات عن الابتلاءات، وأنّ العون يأتي على قدر البلاء؛ لأنَّ اللّه قد خصَّ المهاجرين ممّا أذن فيه من أموال بني النّضير"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 437.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 860.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 437.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفقير والمسكين:

السّـياق يـرجّـحُ أنّ الـفـقـيرَ أشـدُّ احـتـيـاجًـا من المسكين

الفَقير هو الَّذي لا يسْأل، والمسكين هو: الَّذي يسْأل، ما يعني أن المِسْكين أضعفُ حالًا، وأبلغ في جِهَة الفقر، ويدل عليهِ قَوله تَعالَى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، فوصَفَهم بالفقر، وأخْبر مَعَ ذَلِك عَنْهُم بالتعفُّف حَتَّى يَحْسبهُم الجاهل بحالهم أغْنياء من التعفُّف، ولا يَحْسبهُم أغْنياء إلّا ولَهُم ظاهر جميل، وعليهم برة حَسَنَة، وقيل لأعرابيٍّ: أفقير أنْت؟ فَقالَ: بل مِسْكين لا شَيْء لَهُ، أمّا قَوْله تَعالَى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79]؛ فَأَثْبت لَهُم ملك سفينة، وسَمّاهُمْ مَساكين؛ لما روِيَ أنَّهم كانوا أجراء فيها، ونسبها إلَيْهِم لتصرُّفهم فيها[1].

وقال الشّافعي رحمه اللّه تعالى عكس ذلك مستدلًا بآية الكهف على أنَّ حال الفقير في الضُّرِّ والحاجة أشدُّ من حال المسكين؛ لأنَّ اللّه سماهم مساكين مع أنَّهم كانوا يملكون تلك السفينة[2]، وسياقُ سورة الحشر وقصدُها يرجح الرّأي القائل بأنَّ المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ إذ ورد التّعبير بـ (المَساكينِ) عند بيان مصارف الفيء على وجه العموم، بينما ورد التّعبير بـ (الفُقَراءِ) عند التّحديد الدّقيق للفئة الّتي تستحقّه دون غيرها، ما يعني: أنَّ المسكين أعمُّ، والفقير أخصُّ، وأنَّ الأولَ أكثرُ احتياجًا، ومن ثم خُصَّ بالفيء عند التّحديد الدّقيق.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 177.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 490.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّتميمُ والتَّكميلُ من عناصر المعنى القرآنيّ المتكامل

لمّا مدح اللّهُ تعالى المهاجرين في الآية السّابقة، وأعطاهم فطابت نفوسُ الأنصار بذلك، وكان حالُ الأنصار مع رسول اللّه ﷺ كالميّت بين يدي الغاسل، مهما شاء فعل، ومهما أراد منهم صار إليه، ووصل؛ ناسب أن يُثني عليهم في هذه الآية، ويمدحَهم جبرًا لهم وشكرًا لصنيعهم[1]، فهو انتقالٌ من مديح المهاجرين، إلى مديح الأنصار؛ استتباعًا للأمر، واستكمالًا للمشهد، وتحقيقًا للحقّ، وتثبيتًا لأصحاب الحقّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَوَّءُو﴾: (بوأ) يدلُّ على الرُّجوع إِلَى الشَّيء، فالباءَةُ والمَباءَةُ، هيَ مَنْزِلَةُ القَوْم، حَيْثُ يتبوَّؤون في قُبُلِ وادٍ، أو سَنَدِ جَبَلٍ، ويُقالُ: قَدْ بَوَّأَهُمُ اللّهُ تَعالَى مَنْزِلَ صِدْقٍ[2]، والمعنى المحوريُّ: حيّز للاستقرار مهيَّأ ومسوَّى أو مناسب لما يستقرُّ فيه، قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: 74][3]، ومعنى ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾: اتَّخذوا المدينة والإيمان مباءَة، وتمكَّنوا فيهما أشدَّ تمكُّن[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بوأ).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 229.

2) ﴿ٱلدَّارَ﴾: (دور) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إحْداقِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مِن حَوالَيْه، يُقالُ: دارَ يَدورُ دَوَرانًا[1]، والدّارُ: المنزل اعتبارًا بدورانها الّذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، وتسمّى البلدةُ دارًا، والصّقعُ دارًا، والدّنيا دارًا، والدّارُ الدّنيا، والدّارُ الآخرة؛ إشارة إلى المقرّين في النّشأة الأولى والنّشأة الأخرى، والمراد بها في قوله تعالى: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: المدينة المنوَّرة[2].

3) ﴿حَاجَةً﴾: (حوج) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الاضطِرارُ إلَى الشَّيْءِ، فالحاجَةُ واحِدَةُ الحاجاتِ، والحَوْجاءُ: الحاجَةُ، ويُقالُ: أَحْوَجَ الرَّجُلُ: احتاجَ[3]، والحاجَة إلى الشّيء: الفقر إليه مع محبَّته، وجمعها: حاجٌ وحاجات وحوائج، وحاجَ يَحوجُ: احتاج، قال تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: 68]، وقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾، أي: لا يجدون مسَّ حاجةٍ مِن فَقدِ ما أوتوا، أي: لا يحسُد الأنصارُ المهاجرين على ما خُصّوا به من مال الفيء وغيره[4].

4) ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: (أثر) يدلُّ على تَقْديمِ الشَّيءِ[5]، ومنه آثَرَه عَلَيهِ: فَضَّلَهُ، وأثِرَ أن يَفْعَلَ كذا أَثَرًا، وأثِر وآثَرَ، كُلُّهُ: فَضَّل، وقَدَّم، وآثَرْتُ فُلانًا على نَفْسي: مِنَ الإيثار، وآثَرْتُك إيثارًا، أي: فَضَّلْتُك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91][6]، وقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، أي: يفضِّلون غيْرَهم بالمال على أنفسهم، ولو كانوا في غاية الاحتياج[7].

5) ﴿خَصَاصَةٌ﴾: (خصص) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ يَدُلُّ على الفُرْجَةِ والثُّلْمَةِ، والخَصاصَةُ: الإمْلاقُ، والثُّلْمَةُ في الحالِ[8]، وذوو الخَصاصة: ذَوو الخَلَّة والفَقْرِ، والخَصاصةُ: الخَلَل والثُّقْبُ الصَّغيرُ، ويُعبَّر عن الفقر الّذي لم يُسدَّ بالخصاصة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوج).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (حاج)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حوج).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أثر).
(7) السّيوطي، معترك الأقران: 2/ 166.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خص).

كما يُعبَّر عنه بالخلَّة، قال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾[1].

6) ﴿يُوقَ﴾: (وقي): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيءٍ عَن شَيْءٍ بغَيْرِهِ، ووَقَيْتُه أقيهِ وقْيًا، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيْءَ، ويَحْفَظُهُ ممّا يؤذيه، ويضرُّه، يُقالُ: وقَيْتُ الشيءَ أقيهِ وِقايَةً ووِقاءً، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، وقال: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدخان: 56]، وعبَّر به مع الشُّحِّ، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾؛ لأنَّ الشُّحَّ مِنَ الْمُهْلِكات[2].

7) ﴿شُحَّ﴾: (شحح)، الأَصْلُ فيهِ المَنْعُ، ثُمَّ يَكونُ مَنْعًا مَعَ حِرْصٍ، مِن ذَلِكَ الشُّحُّ، وهوَ البُخْلُ مَعَ حِرْصٍ، يُقالُ: تَشاحَّ الرَّجُلانِ على الأَمْرِ؛ إذا أرادَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما الفَوْزَ بِهِ، ومَنَعَهُ مِن صاحِبِهِ، قالَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأنصارُ ومَنْ على شاكلتِهم هم المفلحون الفائزون

تمدح الآيةُ الكريمةُ أهلَ المدينة المنوَّرة الّذين سكنوها قبل أن يُهاجر إليها المسلمون من مكَّة، والّذين أخلصوا إيمانَهم وعبادتَهم للّٰه تعالى، بأنَّ من صفاتهم: أنَّهم يحبّون إخوانهم الّذين هاجروا إليهم حبًّا شديدًا؛ لأنَّ الإيمانَ ربط قلوبهم برباط المودَّة والمحبَّة، وأنَّ نفوسَهم لا تتطلَّع إلى شيء ممّا أُعْطيَ المهاجرون من الفيء أو غيره؛ لأنَّ المحبَّة الّتي ربطت قلوب الأنصار بالمهاجرين، جعلت الأنصار يرتفعون عن التَّشوُّف إلى شيء ممّا أعطاه النبيُّ ﷺ المهاجرين وحدهم، كما تمدح الآيةُ الأنصار بأنَّهم يُقَدِّمون إخوانَهم المهاجرين

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (خص)، وابن منظور، لسان العرب: (خصص).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وقى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شحَّ).

في النَّفع على أنفسهم، ولو كانوا في حاجة ماسّة، وفقر واضح إلى ما يقدّمونه لهم، ثم بيَّنَتْ أنَّ مَنْ يحفظه اللّه تعالى مِن شحِّ نفسِه وحرصِها على الإمساك، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتَّقتير، فأولئك الّذين يخالفونها هم المفلحون الفائزون برضا اللّه ﷻ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

دلالة العطف والاستئناف تجتمعان في مدح الأنصار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ تحتمل أن تكون لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، عطفَ القصَّة على القصّة، فبعد أن مدح المهاجرين عطف عليه مدح الأنصار تطييبًا لخاطرهم، وتقديرًا لصنيعهم مع المهاجرين[2]، وتحتمل أن تكون استئنافيَّة، والكلام بعدها مستأنفٌ لمدحِ الأنصارِ بخصالٍ حميدةٍ، من جُملَتِها محبَّتُهُم للمهاجرينَ، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسنَ رِضًا وأكملَه[3].

لطيفة التَّعبير عن الأنصار بالاسم الموصول:

تعليل المدح إنَّما يكون بعمل الممدوح لا بنسبه أو مكانته

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الأنصار بالاسم الموصول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾، دون أن يقول: (الأنصار)، كما قال من قبل: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾؛ ليتوصَّل بجملة الصِّلة إلى بيان الحال الّتي كانوا عليها من التمكُّن في الدّيار، والتمكُّن في الإيمان قبل أن يُهاجر إليهم إخوانُهم من مكَّة؛ للإشارة إلى أنّ تلك الحالة الإيمانيّة الرّاسخة هي السّبب الرّئيس فيما امتازوا به من عظيم الأخلاق وجميل الصّفات، ولو قيل: (الأنصار)؛ لكان مجرّد إخبار بالنُّصرة الّتي لا تؤكِّد رسوخ الإيمان؛ إذ من الممكن أن ينصر الرَّجلُ الرجلَ عصبيَّةً وحميةً، لا إيمانًا وعبادةً.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 297، وما بعدها، بتصرّف.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 437، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 89.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 228، 229.

بلاغة تقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ:

إثارةُ المتلقّي إلى أنْ يكونَ مع إخوانِه المسلمين مثلَ الأنصارِ مع المهاجرينَ

في تقديم المسند إليه: (الَّذينَ) على الخبر الفعليِّ: ﴿يُحِبُّونَ﴾ تقويةٌ للمعنى، وتثبيت له في نفوس المتلقّين، من خلال التَّشويق إلى الخبر والإثارة إلى ترقُّبه، حتّى إذا ورد؛ ثبت في النُّفوس، واستقرَّ في العقول أنَّ الأنصار يتجدَّد حبُّهم وإيثارُهم لكل مَنْ هاجر إليهم، بدرجةٍ لا يُعَكِّر صفوَها فيءٌ ولا مالٌ مهما كثر، ومهما كانوا في أشدِّ الحاجة إليه، ومن ثمَّ يعملُ التّشويقُ عملَه في شحذ همَّة المتلقّي إلى أن يكون مع إخوانه المسلمين مثل الأنصار مع المهاجرين حبًّا وطيبَ نفسٍ وإيثارًا.

دلالة التَّعبير بفعل التَّبَوُّؤِ:

تبوُّؤُ الأنصار المدينة كان عن ثباتٍ ومحبَّة لا عن اضطرار

آثر النّظم الكريمُ التّعبير عن إقامة الأنصار في المدينة قبل هجرة مسلمي مكّة إليها بفعل ﴿تَبَوَّءُو﴾؛ لبيانِ أنَّ وجودَهم في المدينة هي وجود استقرارٍ لا وجود عبور، فالمدينة مرجعٌ لهم كلَّما أرادوا الخروج منها؛ رجعوا إليها، وللإشارة إلى ما يمتازون به على غيرِهم من فضل سكن المدينة والتمكُّن من الإقامة فيها بلا منازعة ولا مضايقةٍ من أحد؛ إذ اصطفاهم اللّه تعالى لسكن تلك الدّار الّتي أعدَّها، وهيَّأها؛ لتكون مهاجرًا لرسول اللّه والمؤمنين معه، كما أنَّهم أحبّوها، ولم يؤثروا عليها دارًا غيرها، وهذا المعنى لا يقوم به فعلٌ مثلُ: (أقاموا أو سكنوا)؛ لعدم دلالتِه على المعاني الّتي أفادها التّعبيرُ بالفعل: ﴿تَبَوَّءُو﴾.

نكتة التّعبير بصيغة الماضي:

جيء بفعل ﴿تَبَوَّءُو﴾ ماضيًا؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك التمكُّن كان سابقًا للهجرة، وكان من عوامل اطمئنان الرَّسول والمهاجرين إلى المدينة وحرصِهم على الهجرةِ إليها.

نوع (أل) ودلالتها في لفظ ﴿ٱلدَّارَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلدَّارَ﴾ للعهد، والمراد بها: يثرب الّتي هاجر إليها رسولُ اللّه ﷺ وأصحابه، والّتي سمّاها الرّسول فيما بعد المدينة المنوَّرة، والتّعريف فيها للتّنويه بشأنها.

نكتة إطلاق لفظ ﴿ٱلدَّارَ﴾ على المدينة:

المدينة دارٌ مغنيةٌ عن كلِّ دار

آثر النَّظم الكريم تسمية المدينة بلفظ ﴿ٱلدَّارَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّها الكاملة في الدّور، فهي الدّار الّتي تستحقُّ أن تُسمّى دارًا، وقد أعدَّها اللّه لهم؛ ليكون تبوّؤهم إيّاها مَدْحًا لهم[1]، وأنَّ اللّه تعالى أعدَّها في الأزل للهجرة، وهيَّأها للنُّصرة، وجعلها دائرةً على جميع البلدان محيطةً بها، غالبةً عليها، كما جعلها محلَّ إقامة الأنصار وملابستهم وصحبتهم وملازمتهم؛ لكونها أهلًا لأن يعود إليها مَن خرج منها؛ فلا يهجرها أصلًا، فهي محلُّ مناه، وليست موضعًا يُهاجر منه لبركتها وخيرها[2].

توجيه عطف ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ على ﴿ٱلدَّارَ﴾:

تَمَكُّن الأنصارُ من الإيمان تمكُّنَهم من المنزل والدّار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ لعطفها على ﴿ٱلدَّارَ﴾ المعمول لفعل التبوّؤ، وتعدية فعل التبوّؤ إلى ﴿ٱلدَّارَ﴾ ظاهر، أمّا عطف (الإيمان) على ﴿ٱلدَّارَ﴾، فإمّا أن يكون على تقدير عامل محذوف، معناه: تبوّؤوا الدّارَ، وأخلصوا الإيمان، من باب عطف الجملة على الجملة[3]، وإمّا أن يكون منصوبًا بـ ﴿تَبَوَّءُو﴾ بعد تضمينه معنى (لزموا)، كأنَّه قال: لزموا الدّار، ولزموا الإيمان[4]، وقيل: هو من عطف المفردات على أن يكون التجوُّز واقعًا في (الإيمانِ) على سبيل الاستعارة المكنيَّة، الّتي شُبِّه فيها الإيمانُ بالمنزل، ثم حُذِفَ المشبَّه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 245، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1359.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 437.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 504.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 504، 505، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 45.

به، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو التبوُّؤ، على سبيل الاستعارة المكنيَّة التخييليَّة[1]، الدّالة على أنَّ الأنصار تمكَّنوا من الإيمان، ورسخوا فيه مثل تمكُّنهم من المنزل والدّار تمامًا بتمام، وقيل: إنَّ (الإيمانَ) مفعول معه، أي: تبوّءوا الدّار مع الإيمان، وهو وجه قويٌّ بيانيًّا إلّا أنَّ جمهور النّحاة لا يرضونه صناعيًّا[2].

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

قولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الضّمير المرفوع في الفعل ﴿تَبَوَّءُو﴾، و﴿مِن﴾ فيه حرفُ جرٍّ يؤكِّد أنَّ الأنصارَ كانوا أهلَ المدينة وسكّانَها قبل هجرة المهاجرين إليها.

تعيينُ مرجع الضّمير في ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾:

الضّمير المجرور في: ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾ يعودُ إلى المفهوم من لفظِ ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، والتّقدير: من قبل هجرة المهاجرين؛ لأنَّ وصفهم بالهجرة لم يكن إلّا بعد وجودها.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُحِبُّونَ﴾:

ذكرُ العلَّة المُنادية على بقيّة الأفعال أبلغُ من ذكرِ ثمراتِها

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ في محل رفع خبر للاسم الموصول (الّذينَ)، وقد أوثر التّعبير بمفردة المحبّة دون (ينصرون) أو (يؤوون) وما شابه ذلك؛ لأنَّ تغلغلَ الحب في قلوب الأنصار سببٌ رئيسٌ في قيامهم بالنُّصرة والإيواء، وتقاسم المال والطّعام والإيثار بالفيء، وغير ذلك من الأفعال الجميلة الّتي تعدُّ برهانًا على شدَّة الحبِّ، ودليلًا على تجذُّره للمهاجرين في قلوبهم، وعبَّر به مضارعًا لما يُفيده من التجدُّد[3] الدّالِّ على حصولِه قبل أن يخصَّهم الرَّسولُ بأموال الفيء، وبقائه واستمراره بعد أن خصَّهم الرّسولُ بها، فذِكْرُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 439.

المحبَّة هو ذكرٌ للعلَّة الجامعة لبقيّة المعاني كالنُّصرة والإيواء، وفيه تنبيهٌ على أنَّ نصرة المهاجرين وإيواءهم لم يكن بسببٍ جبريٍّ قاهر، بل بسببٍ قلبيٍّ اختياريٍّ.

لطيفة إسناد فعل ﴿يُحِبُّونَ﴾ إلى ضمير الجماعة:

حبُّ المهاجرين إيمانٌ وكرههم نفاق

جاء الفعل المضارع: ﴿يُحِبُّونَ﴾ مسندًا إلى ضمير الجماعة العائد على الاسم الموصول؛ للدّلالة على أنَّ الشُّعورَ بالحبِّ المتجدِّد المتدفِّق نحو المهاجرين هو شعور الأنصار أجمعين، لا اختلاف فيه بين الرِّجال والنِّساء، والصّغار والكبار، والسّادة والعبيد، والأغنياء والفقراء، فقد ملأ حبُّ المهاجرين قلوبَ الجميع، واستقرَّ في نفوسهم، فهُم جميعًا يُحبّون المهاجرين، ولا يدخل في وصف الّذين تبوَّؤوا الدّار والإيمان إلّا الخلص من أهل المدينة، ويخرج بذلك المنافقون، وهو إسنادٌ مخرجٌ للمنافقين من المدح، فمَن كَرِه المهاجرين؛ فقد دخل في حيِّز النِّفاق.

نكتة التّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾:

حبُّ الأنصار شاملٌ كلَّ المهاجرين بلا استثناءٍ ولا تفريق

﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به للفعل: ﴿يُحِبُّونَ﴾، وقد أوثر التَّعبير به؛ لما يُفيده من العموم الدّالِّ على أنَّ حبَّ الأنصار شاملٌ كلَّ مَن هاجر إليهم بلا استثناء ولا تفريق، فهُم يحبّون الصَّغير والكبير، الغنيَّ والفقير، السيّد والخادم، كما يحبُّ الرِّجالُ الرِّجالَ، والنِّساءُ النِّساءَ، وهذا المعنى لا يتحقَّق بدقَّة؛ إذا جاء التَّعبير باسم موصول آخر كـ (الّذين)؛ لاحتمالِ أن يدلَّ على فئةٍ معيَّنةٍ من المهاجرين، وإرادة العموم مرادةٌ في السّياق.

فائدة التّعبير بالفعل: ﴿هَاجَرَ﴾ مادة وصيغة:

الهجرةُ انقطاعٌ عن الدّيار وإرادة ديارٍ جديدة

جاء التّعبير عن انتقال المسلمين من مكّة إلى المدينة بفعل ﴿هَاجَرَ﴾ دون (خرج)؛ لدلالته على أنَّهم تركوا مكّة، وانتقلوا إلى

المدينة انتقالًا ممزوجًا بالقطيعة[1]، مع كلِّ ما في مكّة مِن الأهل والدّيار والأموال، وليس مجرّد ترك مؤقّت ممزوج بالأمل في العودة، وهذا ما كان واضحًا للأنصار، ودافعًا لهم إلى شمول المهاجرين بالحبِّ والإيثار وطيب النّفس، وقيل: الكلام كنايةٌ عن مواساتهم المهاجرين وعدم الاستثقال والتبرُّم منهم؛ إذا احتاجوا إليهم[2]، والتّعبير به ماضيًا دالٌّ على حصول الحبِّ، وشعور المهاجِر به بمجرد قدومِه على الأنصار، وانتقاله إلى المدينة الّتي سكنوها قبل هجرة المهاجرين إليها.

بلاغة التّعبير بالجارّ والمجرور: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

القـصـد إلى الإنـسـان دليلٌ عـلى المحـبَّـة الموجـبـة عليه القيام بواجب الاستقبال

دلَّ حرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ على انتهاءِ هجرة المهاجرين إلى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ قصدَ المهاجرين إلى أهل المدينة كان حافزًا لمحبَّتهم، ودافعًا إلى إيثارهم؛ لأنَّ القصد إلى الإنسان يوجبُ حقَّه عليه؛ لأنَّه لولا كمال محبّته له ما خصَّه بالقصد إليه، والدَّليلُ الشّهوديُّ على ما أخبر اللّهُ سبحانه عنهم به من المحبَّة أنَّهم شاطروا المهاجرين في أموالهم، وعرضوا عليهم أن يشاطروهم الزّواجَ من نسائهم، على الرّغم من شدّة غيرتهم، فأبى المهاجرون المشاطرة في النّساء، وقبلوا منهم الأموال[3].

بلاغة الاحتراس بالعطف:

حـبُّ الأنـصـارِ لـلـمـهـاجـريـن خالٍ من الحرجِ والضّيق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿يُحِبُّونَ﴾، وفي عطفهما بالواو الّتي تفيد المشاركة دلالة على أنَّ حبَّ الأنصار للمهاجرين لم يكن حبًّا عاديًّا، بل كان حبًّا ممزوجًا بسلامة الصّدر، وعدم التطلُّع إلى ما خصَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هجر).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 246.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 439.

اللّهُ به المهاجرين من أموالِ الفيء أو غيرها، وتلك مزيّة امتاز بها الأنصار عن أهل زمانهم وعن أهل كلِّ زمان، فقد "كان شأن القبائل أن يتحرَّجوا من الّذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم ومشاركتهم"[1]، فكان عطف هذه الجملة مفيدًا الاحتراس من مظنّة وجود حرجٍ في الصّدور.

دلالة النّفي بـ (لا):

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ حرف نفي يدلُّ على انتفاء وجود أيِّ قدر من الضّيق أو الحاجة في صدور الأنصار؛ بسبب اختصاص المهاجرين بأموال الفيء.

بلاغة الكناية في نفي الحاجة:

نفي وجود الحاجة أقوى من نفي الحاجة

نفي وجدان الحاجة في الصّدور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ﴾ كنايةٌ عن انتفاء وجودها؛ لأنَّها لو كانت موجودة؛ لأدركوها في نفوسهم[2]، وأوثر التّعبير بنفي الوجدان؛ لأنَّ نفي الوجدان أقوى من نفي الحاجة؛ لأنَّ نفي الحاجة يعني وجود شيء التَّبرُّم أو الضّيق أو الاحتياج إلى ما أوتوا، أما نفي الوجدان؛ فهو يعني: عدم الوجود أصلًا[3]، وهو ما يتَّفق مع الحقيقة والواقع، ويتَّفق كذلك مع الحب المتجذِّر المتجدِّد في قلوب الأنصار للمهاجرين.

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

عبّر النَّظم عن الوجدان المنفيِّ بصيغة المضارع، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾؛ لما يفيده من انتفاء وجدان الحرج في الماضي، وانتفاء وجدانه في الحاضر، وتجدُّد انتفائه في المستقبل.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 91.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 92.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 439.

بلاغة التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة:

صدورُ الأنصارِ أوعيةُ النَّقاء الصّافي فلا تطلُّع ولا تشوُّف

أوثر التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾؛ للدَّلالة على انتفاء أن تكون صدورُ الأنصار أوعيةً للتطلُّع أو التشوُّف أو الحاجة أو حتّى مجرَّد السُّؤال عن سبب اختصاص المهاجرين بالفيء أو غيره، ففي التّعبير به مبالغةٌ في بيان انتفاء أدنى حاجةٍ قد توجد في صدور الأنصار، فهُم إن نظروا في صدورهم، وفتَّشوا فيها؛ فلن يجدوا شيئًا من شأنه التَّأثير على الأحكام المتعلِّقة بالمال.

بلاغة التَّعبير بالصُّدور دون القلوب والنُّفوس:

نفيُ الحاجة عن الصُّدور يلزم عنه نفيُ الحاجة عن النُّفوس والقلوب

آثر النظم الكريم التعبير بلفظ (الصدور) دون (القلوب) أو (النفوس)، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾؛ لما يدل عليه لفظ (الصّدور) من السَّعة والإحاطة؛ إذ الصُّدور هي مقرُّ القلوب، ومستودع أسرار النُّفوس، والتَّعبير بها أكثر إحاطة وإلمامًا، وأدلُّ على عدم وجدان الحاجة في أيِّ عضوٍ من أعضاء البدن، سواء أكان قلبًا أم نفسًا أم صدرًا، كما أنَّ الصُّدور هي محل الانشراح ومحل الضّيق والاعتمال، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: 1]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: 97]، فنَفْي كونها محلًّا للحاجة ممّا أوتي المهاجرون دليلٌ على نفي الحاجة عن القلب والنَّفس وغيرهما، والمعنى: ولا يجدون في صدورهم الّتي هي مساكن قلوبهم، فتصدر منها أوامر القلوب، فضلًا عن أن تنطق ألسنتهم[1].

غرض تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:

صدور الأنصار فارغةٌ من أدنى شيءٍ يتعلَّق بإخوانِهم المهاجرين

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ على المفعول: ﴿حَاجَةً﴾؛ للاهتمام والعناية بنفي اشتمال الصُّدور على أيِّ ضيقٍ أو تبرُّمٍ من

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 439.

اختصاص المهاجرين بالفيء، فتقديم الصُّدور يقتضي تسلُّط النَّفي عليها بصورة واضحة؛ إذ من الممكن أن تكون الحاجةُ موجودةً في الصّدر، ولكن لا يُفصح عنها، فتقديم الجار والمجرور يُؤكّد فراغ الصّدور من أي حسدٍ أو غيظٍ أو حزازةٍ.

دلالة استعمال مفردة ﴿حَاجَةً﴾:

نفوس الأنصار خاليةٌ من أيِّ شيءٍ يُحتاج إليه مما أوتي المهاجرون

الحاجة في الأصل: اسم مصدر الحوج، وهو الاحتياج، أي: الافتقار إلى شيء، وتُطلَق على الأمر المُحتاج إليه[1]، وأوثر التَّعبير بلفظ: ﴿حَاجَةً﴾ دون لفظ: (شيئًا)؛ لجمعه بين الشَّيء والاحتياج، بخلاف لفظ الشَّيء، الّذي يدلُّ على ما هو أعمُّ من ذلك، والمعنى: أنَّ نفوس الأنصار لم تتَّبع ما أُعطوا، ولم تطمح إلى شيءٍ منه يُحتاج إليه، ولو كان بهم خصاصة[2]، مع الإلماح إلى أنَّ لفظ ﴿حَاجَةً﴾ يُشير إلى الاحتياج المالي، وبنفيه يكون أبلغ من نفي الشّيء.

غرض تنكير لفظ ﴿حَاجَةً﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿حَاجَةً﴾؛ لما يفيده التنكير في سياق النفي من عموم المعنى وشموله كلَّ شيء يُحتاج إليه من الفيء، فكل ذلك منفي وجدانه في صدور الأنصار تجاه ما خُصَّ به المهاجرون من الفيء.

لفظ ﴿حَاجَةً﴾ بين الحقيقة والمجاز:

معنى الاحتياج الحقيقي وآثاره المجازية محتملة الدَّلالة

يجوز أن يحمل لفظ ﴿حَاجَةً﴾ على استعماله الحقيقي اسم مصدر الاحتياج، فإنَّ الحاجة بهذا المعنى يصحُّ وقوعُها في الصّدور؛ لأنَّها من الوجدانيّات والانفعالات، ومعنى نفي وجدان الاحتياج في صدورهم: أنَّهم لفرط حبِّهم للمهاجرين صاروا لا يخامر نفوسَهم أنَّهم مفتقرون إلى شيء ممّا يؤتاه المهاجرون، أي: فهم أغنياء عمّا يؤتاه المهاجرون، فلا تستشرف نفوسهم إلى شيء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 92.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 505.

ممّا أوتوه، بله أن يتطلبوه[1]، ويمكن أن يحمل لفظ ﴿حَاجَةً﴾ على الحزازة أو التطلُّع أو الغيظ، فيكون التَّعبير من باب المجاز المرسل لعلاقة السببيَّة؛ إذ عبَّر بالحاجة وأراد المسبَّب عنها، وفيه دلالة على انتفاء ما يمكن أن يترتَّب على اختصاص المهاجرين بالفيء من حقد أو حسد أو غيظ[2]، وهو يدلُّ على صفاء نفوس الأنصار، وشدَّة محبَّتهم لإخوانهم، ورقَّة قلوبهم نحوهم.

نوع (مِنْ) ودلالتها:

الابتداء والتَّعليل حاضران في المعنى

يحتمل حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أن يكون للتَّعليل، والمعنى: لا يجدون في صدورهم حاجة؛ بسبب ما أوتي المهاجرون، ويمكن أن تكون ابتدائيَّة، أي: لا يجدون حاجة ناشئة عمّا أوتي المهاجرون، ما يفيد انتفاء وجدان الحاجة في نفوسهم، وانتفاء أسباب ذلك الوجدان ومناشئه المعتادة في النّاس تبعًا للمنافسة والغبطة، وقد دلَّ انتفاء أسباب الحاجة على متعلِّق حاجة المحذوف؛ إذ التَّقدير: ولا يجدون في نفوسهم حاجة لشيء أوتيه المهاجرون[3].

بلاغة استعمال مفردة ﴿أُوتُواْ﴾:

أمـوالُ الفيءِ مقدَّرةٌ شرعًا، وهو سبب انقياد الأنصار

جاء التَّعبير بفعل: ﴿أُوتُواْ﴾ دون (أُعطوا)؛ لأنَّ الإيتاءَ هو عطاءٌ مقدَّر؛ كإيتاء الزكاة، وأموال الفيء، والصّدقات، بخلاف الإعطاء فهو مطلقٌ غير مقيَّد، فاستعمال اللَّفظ جاء دقيقًا في التَّعبير عن المال المقدَّر الّذي أوتيه المهاجرون، ولمّا كان توزيع الأموالِ مقدَّرًا بعدالةٍ تشريعيَّة، كان هو الكاشف عن رضا الأنصار بما أوتيه المهاجرون، فالرِّضا بتوزيع الأموال المقدَّرة هو رضًا شرعيٌّ، والمسلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 93.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 229.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 93.

مهما بلغ من الأخلاق العالية، فلا بدَّ أن يكون هناك ضابطٌ شرعيٌّ يُحافِظ عليها، ويزيدها رفعةً وعلوًّا.

نكتة بناء فعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول:

توجيه الأنظار إلى الأفعالِ هو المقصود والفاعل، فهو معلومٌ من السّياق

جيء بفعل الإيتاء مبنيًّا للمفعول، المعبَّر عنه بواو الجماعة العائد إلى المهاجرين؛ ليشمل المعنى ما أُعطي المهاجرون من الفيء وغيره، وليشمل كذلك ما أعطاه لهم الرَّسولُ، والمعنى: ممّا أوتي المهاجرون من الفيء وغيره من أموال بني النَّضير وغيرهم من أيِّ مؤتٍ كان، فكيف إذا كان المؤتي هو الله تعالى ورسوله ﷺ؟[1] ولتوجيه الأنظار إلى الفعل لا إلى فاعله، فالعبرة بحدوث الفعل، وما يتضمَّنه من معنًى، لا الفاعل، فهو معلومٌ من السّياق.

بلاغة التَّتميم بالعطف:

الاحتراس عن قصر مدح الأنصار على دفع الحرج

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾، ومقصود العطف تتميم المدح وتكميل الثَّناء، والاحتراس عن أن يكون المدح على الرِّضا فحسب، فعطف جملة إثبات إيثار غيرهم على أنفسهم على جملة نفي وجدان أدنى حرجٍ لتكميل مدح الأنصار، وبيان رفيع منزلتهم.

دلالة التَّعبير بـ ﴿وَيُؤۡثِرُونَ﴾ مادّة وصيغة:

تمامُ الفضل وكمالُه أن يكون الإنفاق عن حاجةٍ لا عن سعةٍ

أُسنِد فعل ﴿وَيُؤۡثِرُونَ﴾ إلى الضَّمير العائد على الأنصار؛ للدَّلالة على أنَّ من شيم مجموعهم إيثار غيرهم عليهم، ويفضّلون الآخرين على أنفسهم اختيارًا وتكرُّمًا منهم، وجيء به مضارعًا؛ للدَّلالة على تجدُّد إيثارهم للآخرين مهما بلغت بهم الفاقة، واشتدَّت بهم الحاجة، والمعنى: أنَّ هؤلاء الأنصار من طبيعتهم السّماحة والبذل، وإيثار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، والنُّزول لهم عن الطّيب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 440.

الأكثر ممّا في أيديهم، مع حاجتهم إليه، وهذا هو الفضل على تمامه وكماله؛ إذ يجيء عن حاجة، ولا يجيء عن غنًى وسعة[1].

علّة حذف مفعول ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾:

العبرةُ في مدح الأنصارِ على خُلُق الإيثار لا في خصوص إيثارهم المهاجرين

حُذِف مفعول ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، والتَّقدير: يفضلون المهاجرين على أنفسهم، ولتسليط الأنظار على معنى الإيثار، فالسّياق جاء لمدحهم والثّناء عليهم في كونهم يؤثرون على أنفسهم، بقطع النّظر عن ذكر المهاجرين، ولو ذُكِرَ المفعول؛ لظُنَّ أنَّ مدحهم كان باعتبار أنَّهم يؤثرون المهاجرين على أنفسهم، لا باعتبار تحلّيهم بهذا الخلق، ومنه يُفهم معنى اتِّساع المعنى، فيعمُّ المهاجرين وغيرهم ممَّن يلجؤون إليهم، ويطلبون مساعدتهم، وليشمل كذلك الإيثار بالمال والأراضي والدّيار وكلّ ما يدخل في أسباب المعاش، والتّقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم[2].

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

أعظم الإيثار الجامع بين الجانب المعنويِّ والماديِّ

جاء استعمالُ حرفِ الاستعلاء في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ تعظيمًا لفعلهم، وإشارةً إلى أنَّهم يقدِّمون غيرَهم، ويبالغون في تمكينهم من جميع الأشياء، كما يتمكَّن الإنسان من راحلته وحاجته، وذلك بقصر الفعل عليهم، فصار المعنى: يوقعون الأثرة، وهي اختيار الأشياء الحسنة لغيرهم تخصيصًا لهم بها[3]، ما يعني أنَّهم لا يُشعِرون أحدًا أبدًا بأنَّ نفوسَهم تتطلَّع، أو ترغبُ في شيء ممّا أُعْطِيَ، أو أُخِذَ، وفيه دليلٌ على أنَّهم اعتادوا الكرم والسّخاء حتّى صار ذلك جبلَّةً لهم وطبعًا في أنفسهم، وأيضًا فإنَّهم اعتادوا على التَّواضع في الإيثار، فلم يُلحِقوا إيثارهم منَّةً ولا استكثارًا؛ لأنَّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 861.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 508.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 440.

جعلوا المهاجرين فوقَ أنفسهم، وهذا في غاية التَّواضع، الجامع بين الإيثار المعنويِّ والماديِّ.

بلاغة استعمال مفردة الأنفس دون رديفاتها:

أعضل ما يقف في وجه المؤمنين النَّفس الرّاغبة في الحياة

جاء التَّعبير بلفظ الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، والمراد بالأنفسِ الذّوات، أي: يؤثرون المهاجرين على ذواتهم، وذكر النَّفس دون رديفاتها؛ لأنَّ الإنسان شديدُ الحرص على نفسِه، فهي الَّتي لأجلها يجمع النّاس الأموال والمتاع في الدُّنيا، فكان في ذكر النَّفس تلويحٌ بأنَّ هؤلاء الأنصار قد جاهدوا أنفسهم المتطلِّبة للدُّنيا، فجعلوها تتطلَّع إلى الآخرة، بإيثار غيرهم عليهم، فذكر الأنفس تنبيهٌ عالٍ على رفعة الأنصار، والدَّرجة الإيمانيَّة الَّتي بلغوها بتقديم غيرهم على أنفسهم.

فائدة واو الحال:

الكريم يُعطي عن غنى والمؤمن يُعطي عن إقتار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليَّة، جيء بها للتَّنبيه إلى أنَّ الأنصار لا يؤثرون غيرهم عن غنى، ولا حال اليسار فقط، ولكنَّهم يفعلونه أيضا حالَ اشتدَّت بهم الفاقةُ، وألَّمَّت بهم الخصاصةُ والحاجةُ[1]، وفائدة الجملة الحاليَّة الاحتراس من الظَّنِّ بأنَّ الأنصار يؤثرون غيرهم على أنفسهم في حال السَّعة، وأمّا في حال الشدَّة؛ فالأمر يختلف، فجاءت الجملة لدفعِ هذا التَّوهُّم بإنصاف الأنصار، وهو ما يدلُّ على أنَّ الإيمان هو الَّذي حرَّكهم للإيثارِ لا خلق الكرم فحسب، فالكريم يُعطي عن غنى، والمؤمن يعطي عن غنًى وإقتار.

نوع (لَوْ) ودلالتها:

إيـثـار الأنـصـار منـهـجُ حـيـاةٍ لا ظرف طارئ

(لَوْ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ شرطيَّة وصْليَّة، وهي الَّتي تدلُّ على مجرَّد تعليق جوابها بشرط يفيد حالة لا يُظَنُّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 508.

حصولُ الجواب عند حصولها، والتَّقدير: لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم، فيُعلم أنَّ إيثارَهم في الأحوال الّتي دون ذلك بالأحرى دون إفادة الامتناع[1].

تمكُّن الخصاصةِ من الأنصار لا يمنعهم من الإيثار

نكتة ذكر ﴿كَانَ﴾:

عبَّر النَّظمُ في جملة الشَّرط بفعل الكينونة ماضيًا، فقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾؛ للإشارة إلى تمكُّن الخصاصة من الأنصار تمكُّنًا كائنًا في غاية المُكْنَة[2]، وهو ما يدفع النّاس إلى الظنِّ بما عندهم في العادة، ولكن الأنصار يؤثرون على أنفسهم على الرَّغم من ذلك.

ما أجمل الجواز اللّغوي والبيان البلاغيّ إذا اجتمعا!.

نكتة تذكير فعل ﴿كَانَ﴾ مع تأنيث فاعله ﴿خَصَاصَةٞۚ﴾:

يلحظ أنَّ الفعل ﴿كَانَ﴾ جاء بصيغة المذكَّر، مع أنَّ فاعله ﴿خَصَاصَةٞۚ﴾ مؤنَّث مجازيٌّ، والقاعدة النَّحوية تجيز تذكير الفعل إذا كان فاعلُه مؤنَّثًا مجازيًّا وفُصِل بينهما[3]، ونكتة ذلك الإلماحُ إلى شدَّة الخصاصة وقوتها، وإحداثها في كيان الأنصار وبيوتهم عوزًا شديدًا، ومع ذلك هم لا يُفصحون عن حاجتهم لشيءٍ مما يُؤتاه أحدٌ من المهاجرين أو غيرهم.

استشعار الخصاصة غير مانعٍ مؤمني الأنصار عن الإيثار

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ﴾ حرف جرٍّ يفيد الملابسة[4]، الدّالة على لزوم الخصاصة ودوامها، وعدم الأمل في خلاصهم منها، أو انفراجها عنهم في القريب العاجل، وهذا المعنى لا يقوم به حرف الظَّرفية (في)؛ لدلالته على كونهم وعاء للخصاصة طيلة حياتهم، وهذا لا يحصل مع أحد أبدًا، فالإنسان يتقلَّب بين الغنى والفقر، والعسر واليسر، والأنصار ثابتون في الإيثار على أنفسهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 94.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 440.

(3) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: 2/ 89.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 94.

في غناهم وفقرهم، وفي يسرهم وعسرهم، وفائدة الباء هو بيان تلبُّس الخصاصة بهم، فحين الإيثار هم يستحضرونها، ويشعرون بواقعها وأثرها عليهم، لكنَّهم في الوقتِ نفسِه يتجاوزون هذه الآلام، ويؤثرون على أنفسهم.

بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿خَصَاصَةٌ﴾ مادة وصيغة:

الخصاصةُ هي: الفقر وشدَّة الاحتياج، وأصلُها من الخَصاصِ، وهي الفُرَجُ بين الأصابع، وكل خرق في مُنْخُل أو باب أو سحاب أو برقع فهو خصاص، الواحد خصاصة[1]، والخصاصة من الغريب الفرد في القرآن الكريم، وقد خصَّ القرآن الكريم الأنصار بهذه المفردة؛ لما اختصّوا به من الإيثار غير المسبوق، ولم يذكر السّياقُ الفقرَ؛ لبيان أنَّ ما يكون فيهم هو أشدُّ الفقر وأبلغه، فالخصاصةُ حالةٌ من أحوال الفقر الشَّديد، والتّعبير بها نكرة دالٌّ على أنَّ الخصاصة عظيمة وشديدة، فالتّنكير دالٌّ على بلوغ الخصاصة مبلغًا عظيمًا يدفع إلى التطلّع أو الأمل في القَسْم مما يُعطاه الآخرون، ومع ذلك لا يطلبون، ولا يُعلنون الحاجة، بل يتعفَّفون، ويُظهرون الغنى، بل إنَّهم يُؤثرون.

الخصاصة حالةٌ من أحوال الفقر الشَّديد الّتي لا يثبت فيها إلا خُلَّص المؤمنين

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها مستأنفة جيء بها؛ للتَّنبيه إلى أنَّ الأنصار ومن يحذو حذوهم في السَّماحة والبذل هم المفلحون الظّافرون بما أرادوا، وتحتمل أن تكون اعتراضيَّة، والجملة بعدها تذييل يؤكِّد أن تحلّيَ الأنصار بإيثار غيرهم على أنفسهم حتّى في حالة الخصاصة هو لسلامة أنفسهم من الشحِّ، الّذي يجب أن يقي الإنسان نفسه منه ليكون من المُفلِحين[2].

احتمال الاستئناف والاعتراض تنبيةٌ وتأكيدٌ على مكانةِ الأنصار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 508، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 94، بتصرّف.

الحثُّ والإثارة إلى إتيان الشَّرط لنيل الجزاء

نكتة التّعبير بـ (مَنْ) اسم شرط:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ مبتدأ متضمِّنٌ معنى الشَّرط، وفي التّعبير به نوعٌ من إثارة المتلقّي وتشويقه إلى ترقُّب جملتي الشّرط والجواب، حتّى إذا وردتا؛ ثبت في عقل المتلقّي، واستقرَّ في نفسه أنَّ مَن عَمِلَ عَمَلَ الأنصار في الإيثار، ووقى نفسه من الشحِّ كان من الفائزين المفلحين، فالتَّعبير بأسلوب الشَّرط فيه نوع من الحثِّ إلى إتيان الشّرط لنيل الجزاء.

علاج الشحِّ الّذي جُبلت عليه النّفس لا يُطاق إلّا بمعونةٍ من الله تعالى

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يُوقَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

عبَّر النَّظمُ في جملة الشَّرط بالفعل: ﴿يُوقَ﴾؛ للإشارة إلى خطورة الشُّحِّ على الإنسان، وضرورة أن يجعل بينه وبين نفسه حاجزًا يقيها، ويحفظها من الوقوع فيه، وكأنَّ "الشحَّ عدوٌّ راصدٌ، يتربَّص بالنّفس الإنسانيّة في أيّة لحظة يغفل فيها الإنسان عن حراسة نفسه منه، فإذا غفل الإنسان عن هذا العدوِّ؛ دخل على نفسه، واستولى عليها"[1]، وأوثر بناء الفعل للمفعول؛ لأنَّ علاج الرّذائل بصفة عامّة وعلاج الشحّ بصفة خاصّة صعبٌ جدًّا، لا يطيقُه الإنسانُ إلّا بمعونةٍ شديدةٍ من اللّه تعالى[2].

وقايةُ النفس المؤمنة من الشُّحِّ سبيلُ بلوغ درجة الفلاح

بلاغة التَّعبير بالـ ﴿شُحَّ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿شُحَّ﴾، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ﴾، ولم يقل: (بُخْل)؛ لأنَّ الشحَّ هو الباعث على الإمساك والبخل، فالشُّحُّ هو ما جُبِلَ عليه الإنسان من الحرص الشّديد على المال، وهو الّذي يحتاج صاحبه معه إلى الرّياضة الرّوحية والسّلوكيَّة للتخلُّص منه، والوصول إلى حالةِ الإنفاق والإيثار، واستعمال الشُّحِّ دالٌّ على أنَّ الأنصار اجتهدوا في التوقّي منه، فبلغوا درجة الفلاح.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 862.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 440، 441.

لطيفة إضافة الشُّحِّ إلى النَّفس:

إضافة الشُّحِّ إلى النّفس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ بمعنى حرف الظَّرفيَّة، أي: شحٌّ في النّفس، وهو دالٌّ على أنّه شحٌّ غريزيٌّ يُطلب من المؤمن التخلُّص منه بالإيمان والعمل الصّالح، وهو يُشير إلى أنَّه غريزة موجودة في النّفس، ولا تكاد تسلم منه نفس أحد[1]، وأنّه يفضي بالنّفوس إلى البخل والإمساك إذا تُركت بدون تهذيب أو وقاية تحول بينها وبين الاستجابة له، ففي الإضافة إشارةٌ إلى عموم الشُّحِّ في النَّفس البشريَّة، وأنّه على النّفس المؤمنة العمل للتخلّص منه في سبيل تحقيق الخير العظيم.

الشحُّ حاصلٌ في النّفس البشريّة وسبيل التّخلُّص منه الإيمان والعمل الصّالح

بلاغة ذكر النَّفس دون الصَّدر:

أوثر التّعبير بالنّفس دون الصّدر؛ لأنَّ الشحَّ حالة نفسانيّة[2]، لها ارتباط بنفس الإنسان، ويشترك في ترسيخها قلبُ الإنسان وعقلُه ونفسُه وجميعُ أعضاء بدنه، بخلاف الحرج الّذي محلُّه الصّدرُ.

أثر اختيار النّفس على تعميق المعنى النّفسي للفظ الشحّ

نوع الفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، هي الدّاخلة على جواب الشّرط، الرّابطة بين جملته وجملة الجواب برباط السببيّة، الدالّ على أنَّ الفلاحَ والفوزَ مترتِّبٌ على وقاية الإنسان نفسَه من الشحّ، وحفظها منه، والمعنى: مَنْ غلب ما أمرتْه به نفسُه من الشحّ، وخالف هواها بمعونة اللّه وتوفيقه؛ فأولئك هم الظّافرون بما أرادوا[3].

وقايةُ النّفس من الشحِّ سببٌ في الفلاح والفوز

غرض التّعبير باسم الإشارة:

أوثر التَّعبير باسم الإشارة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى:

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 505.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 508.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 505.

تعظيم شأن الأنصار وشأن مَن يفعل فعلهم

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الموضوع للبعيد؛ لتعظيم شأن الأنصار بصفة خاصّة، وشأن مَن يفعل مثلهم من النّاس بصفة عامّة، بإنزال البُعد المعنويِّ منزلة البعد الحسيّ؛ للدَّلالة على علوِّ شأنهم، وارتفاع مقدارهم عند اللّه تعالى؛ لأنَّهم نجحوا بمعونته في العبور بأنفسهم من مأزق الشحِّ إلى ساحة الإيثار، وقدَّموا غيرهم، فاستحقّوا الفوز بكلّ مطلوب، والنَّجاة من كلِّ مكروه[1].

لطيفة العدول عن الإفراد إلى الجمع:

عدد المتَّصفين بوقاية أنفسهم من الشُّحّ قليلٌ في الواقع

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (ومن يوق شحّ نفسه؛ فهو المفلح)، لكن النَّظم الكريم عدل عن الإفراد إلى الجمع: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ رعايةً للفظ (مَنْ) ومعناها، وإيماءً إلى قلة المتَّصفين بذلك في الواقع عددًا وكثرتهم معنى[2]، وذلك بجعلهم جماعة المفلحين المُشار إليه بنوعٍ من أنواع العمل الّذي لا يقوى عليه إلّا القليل من النّاس.

نوع القصر وبلاغته:

الفلاح مقصورٌ على مَن يقي نفسه مِن الشُّحِّ قصرًا ادِّعائيًّا

في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قصر صفة على موصوف، بطريق توسُّط ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، بين المسند والمسند إليه، وهو قصرٌ ادعائيٌّ للمبالغة في كثرة الفلاح الَّذي يترتب على وقاية النَّفس من الشحِّ، حتى كأنَّ جنسَ الفلاح مقصورٌ على ذلك المُوَقَّى[3]، لا يتعدّاه إلى أحد آخر، ولا يخفى ما فيه من إثارة المتلقّي إلى مجاهدة النّفس، وترويضها على ترك غريزة الشحِّ الموجودة فيها، المُستبِدَّة بها.

بلاغة تعريف الجزأين:

تعريف المبتدأ والخبر في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 441، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 247.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 95.

تقوية وتأكيد؛ لكون مَنْ يوق شحَّ نفسه من النّاس - ويدخل فيهم الأنصار دخولًا أوليًّا - هو المفلح الفائز بما يحبُّ، ويرجو، وكأنَّ وقايةَ النَّفس من الشحِّ مفتاحُ كلِّ خير وفوز، واتِّصافَها به ووقوعَها في براثنه مفتاحُ كلِّ نكوصٍ وخسارةٍ.

وقايةُ النَّفس من الشحِّ مفتاحُ كلِّ فوزٍ، واتِّصافُها به مفتاحُ كلِّ خسارةٍ

دلالة استعمال مفردة الفلاح:

أوثر التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ اسمًا دالًّا على الثُّبوت والدَّوام؛ للإشارة إلى أنَّ الأنصارَ ومَن ينهج نهجهم في كَبْحِ جماحِ النّفس عن شحِّها، ونقلِها من الأثرة إلى الإيثار هم الكاملون في الفوز بكل مراد، أو الفائزون فوزًا تامًّا لا نقصَ معه[1]، ما يعني: أنَّهم الموَفَّقون في كلِّ الأمور، النّاجحون في كلِّ اختبار، النّاجون مِن كلِّ مأزقٍ بإذن الله؛ فمن آثر على نفسِه؛ فُتِح له باب الخير، وسُدَّ عنه بابُ الشَّرِّ.

مَنْ كَبَحَ جماح نفسه عن شحِّها؛ كان أحرى بالفوز بالمراد كلِّه

توجيه تخصيص الفلاح بالذِّكر:

خصَّ النَّظم الكريم ذكر وصف ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دون (المؤمنون)؛ لأنَّهم قدَّموا البراهين على تغلغل الإيمان في قلوبهم؛ إذ كبحوا جماحَ نفوسهم عن الشحِّ، وتحَلّوا بإيثار الآخرين عليها، فكان التّعبير بالفلاح بيانًا لجزاء إيمانهم، وإيضاحًا لثمرة إيثارهم، وحثًّا للنّاس على الاقتداء بهم والسَّير على دربهم، ولو قيل: (هم المؤمنون)؛ لظُنَّ أنَّ الإيمان لا يتحقَّق إلّا بالإيثار، وهو ما يصعب على النَّفس البشريَّة، فإنَّ الكرم بما في الأيدي يصعب، فكيف بالإيثار مع وجود الخصاصة.

الفلاح جزاءُ الإيمان وثمرة الإيثار

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشُّحُّ والبخلُ:

اختُلِف في التّفريق بين الشحِّ والبخل، فقيل: الشُّحُّ هو الحرص على منع الخير، والبخل هو المنع والإمساك عن أداء الحقوق، وقيل:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 441، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 435.

الشُّحُّ وصفٌ للحالة الجبلّيّة لدى النّاس، والبخلُ وصفٌ للسُّلوك الأخلاقيّ

البخل هو المنع، والشحُّ هو الحالة النّفسانية الّتي تقتضي ذلك المنع[1]، وقيل: الشُّحُّ يأمر بالبخل، والبخلُ ثمرة الشح[2]، ولمّا كان السّياقُ في مدح الأنصار الّذين آثروا المهاجرين على أنفسهم، ولم يجدوا في صدورهم حاجة مما خُصّوا به من الفيء؛ ناسب التَّعبير بمفردة (الشُّحِّ)؛ للإشارة إلى أنَّهم اقتلعوه من نفوسهم، ولم يكن له فيها أيُّ أثر، فالبخل وصفٌ للسُّلوك الأخلاقيِّ الّذي يختاره الإنسان، والشحُّ وصف للحالة النَّفسيَّة الّتي جُبِل عليها النّاس، وهم إما متّقٍ له بإيمانه أو أخلاقه أو بهما معًا، وإمّا خاضع راضٍ غير آبهٍ بتغيير نفسِه، ولا ساعٍ لاكتساب الخيرات.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 176، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 508.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 227.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من الزَّمن الحاضر إلى المستقبل؛ لبيان قاعدة القدوة وأصول الاقتداء

لمّا تناولتِ الآياتُ السّابقة صفاتِ المهاجرين والأنصار، وأثنت عليهم بما هم أهلُه، فكان ذلك استغراقًا للزَّمن الّذي نزلت فيه الآيات وهو الزَّمن الحاضر؛ ناسب الانتقال إلى المستقبل لبيان حال الّذين ساروا على نهجِ المهاجرين والأنصار، فصار لهم حكمهم، فهو انتقالٌ من مدحِ القدوة إلى مدح المُقتدي؛ لبيان العلائق الرّاسخة، والصِّلات المشروعة، والمنهج القويم في طاعة الله تعالى، وأنَّ من أراد أن يكون مقبولًا عند الله تعالى بما يحبُّ، ويرضى؛ فعليه أن يعمل على درب السّابقين، الّذين يمثِّلون القاعدة الصُّلبة في القدوة والتأسّي.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَقُونَا﴾: (سبق) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على التَّقْديمِ، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا[1]، وأصل السَّبْقِ: التَّقدُّم في السَّير، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ [النّازعات: 4]، ثم يتجوَّز به في غيره من التَّقدُّم، قال الله تعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: 11]، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفضل والتَّبريز، وعلى ذلك قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصّالحة[2].

2) ﴿غِلّٗا﴾: (غلل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَخَلُّلِ شَيءٍ، وثَباتِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (سبق).

شَيءٍ، كالشَّيءِ يُغْرَزُ، مِن ذَلِكَ قَوْلُ العَرَبِ: غَلَلْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ؛ إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كَأنَّك غَرَزْتَهُ، ومِنَ البابِ الغِلُّ، وهوَ الضِّغْنُ يَنْغَلُّ في الصَّدْرِ[1]، أي: العداوة، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الاعتراف بفضل السّابقين والاقتداء بهم من سمات منهج أهل الحقِّ

تمدح الآيةُ الكريمةُ المؤمنين المتأخِّرين، بأنَّ مِن شأنهم وأخلاقهم أنَّهم يقدرون إخوانهم الَّذين سبقوهم إلى الإيمان بصفة عامَّة، وإخوانهم من المهاجرين والأنصار بصفة خاصَّة، ويُلحّون على ربّهم في الدّعاء لهم بالمغفرة والرّحمة، كما يبتهلون إلى اللّه تعالى ألّا يجعل في قلوبهم شيئًا من العداوة لأحد من المؤمنين في أيِّ زمان ومكان، وأن يشمل الجميع برحمته الواسعة، ومغفرته الّتي لا حدود لها[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

المؤمنون اللّاحقون لهم حكم السّابقين إنِ التزموا المنهج

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ لعطف ما بعدها على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، المعطوفِ على قولِه ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، أوثر العطف بالواو الّتي تفيد المشاركة؛ للدّلالة على أنَّ المؤمنين اللّاحقين يمكنهم أن يشاركوا إخوانهم السّابقين من المهاجرين والأنصار في الاتِّصاف بعميق الإيمان وعظيم الحبّ والإيثار؛ إذا دَعَوا للمؤمنين السّابقين، وتحرَّكت مشاعرهم حبًّا ورحمةً بالمؤمنين في كلّ زمان ومكان، فإنّ المؤمن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلَّ).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (غلَّ).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 509، بتصرّف.

بهذه المشاعر، وبهذا الدّعاء يكون قد بذل من ذاته شيئًا، وقدّم لإخوانه خيرًا، واقتسم معهم ما يدعو الله تعالى به من رحمة ومغفرة، وبهذا يكون أشبه بالأنصار الّذين آووا المهاجرين، واقتسموا معهم أموالهم وديارهم[1].

دلالة التَّعبير بالموصول:

الملتزمون بمنهج الصّحابة معهودون في كلِّ زمانٍ ومكان

آثر النَّظم الكريم التّعبير عن المؤمنين اللّاحقين، الّذين هاجروا بعد ما قَويَ الإسلام، أو التّابعين بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة بالاسم الموصول، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾؛ ليعمَّ الثناءُ والتّوجيهُ كلَّ مَنْ لحق بالمهاجرين والأنصار - وسار على دربهم، وتخلَّق بأخلاقهم في الحبّ والإيثار - من المؤمنين المتأخّرين في أيِّ زمان ومكان، ومن كلِّ الطوائف والأجناس، والأماكن والبلدان[2]، وهذا العموم المكانيُّ والزَّمانيُّ، يقترن بدلالةٍ خاصّة أخرى، وهي أنَّ المتّبعين هم أصحاب مواصفات إيمانيّة وروحيّة وأخلاقيّة معهودة، فهم معروفون بصفاتهم، معهودون بسلوكهم الملتزم بمنهج الصّحابة.

نوع المجاز وبلاغته في فعل المجيء:

مصيرُ الصَّحابة والمتّبعين لهم بإحسانٍ واحدٌ في المآل

استعمل النّظم الكريم فعل ﴿جَآءُو﴾ الموضوع للقدوم من مكان بعيد؛ للدَّلالة على المصير الّذي يجمع بين المهاجرين والأنصار ومن اتّبعهم، فهو استعارةٌ تصريحيّة، شُبِّه فيها المصيرُ إلى حالة تماثل حالة المهاجرين والأنصار، وهي حالة الإسلام بالمجيء، فكأنَّهم أتوا إلى مكان لإقامتهم[3]؛ للدَّلالة على أنَّهم حلّوا محلّ المهاجرين والأنصار، ومِن ثمَّ وجب عليهم أن يكونوا مثلهم، ونكتة الاستعارة

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 864.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 96.

بيان أنَّهم حريصون على المجيء اجتهادًا من أنفسِهم، فهُم الّذين يجيئون إلى الخير، ولا ينتظرون مجيئه إليهم.

بلاغة التّعبير بفعل المجيء مادّة وصيغة:

الحريصون على الخير هم الّذين يجيئونه، ولا ينتظرون مجيئه

جاء التّعبير بفعل المجيء الموضوع للإتيان بصعوبة[1]؛ للإشارةِ إلى أنَّ مجيئهم له شرفُه وواجباتُه الّتي يجبُ الالتزامُ بها والامتثالُ لها، وأوثر التّعبير به ماضيًا مع أنَّه يشمل الآتين من المسلمين إلى يوم القيامة تغليبًا؛ لأنَّ من العرب وغيرهم ممّن أسلموا بعد الهجرة مثل غفارة، ومزينة، وأسلم، ومثل عبد اللّه بن سلام، وسلمان الفارسيّ، فكأنّه قيل: الّذين جاؤوا، ويجيئون، بدلالة لحن الخطاب، والمقصود من هذا: زيادة دفع إيهام أن يختصَّ المهاجرون بما أفاء اللّه على رسوله ﷺ من أهل القرى كما اختصّهم النبيُّ ﷺ بفيء بني النَّضير[2].

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالة ذكرها:

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هي الابتدائيّة الدالّة على أنَّ البعديّة تبدأ من بعد الحالة الّتي عليها المهاجرون والأنصار، بحيث يُقال هذا منهج المتقدِّمين، وهذا نهجُ أتباعهم من بعدهم.

دلالة التَّعبير بالظّرف:

البعديَّة دالّةٌ على زمنٍ ممتدٍّ من جيل الصّحابة إلى القيامة

التَّعبير بظرف الزّمان المضاف إلى ضمير المهاجرين والأنصار في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، يدلُّ على اتِّساع المدى الزَّمنيِّ لهذا الصِّنف من المؤمنين؛ ليشمل الفترة من بعد انقطاع الهجرة بالفتح، وبعد إيمان الأنصار الّذين أسلموا بعد النبيِّ ﷺ إلى يوم القيامة[3]، فالبعديَّة تبدأ من لحظة تشكُّل جيل الصّحابة رضوان اللّه عليهم باعتبارِهم جيلًا يُقتدى به إلى يوم القيامة.

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (جاء).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 96.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.

بلاغة تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ:

العلامة الفارقة في صفات المتأخّرين هو ما يصدر عنهم من أقوالٍ تُنبئ عن إيمانِهم

جاء قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ مسندًا فعليًّا واقعًا في محل رفع خبر للمسند إليه (الَّذينَ)، وفي تقديم المسند إليه على المضارع تقويةٌ للمعنى، وتثبيتٌ له في نفوس المتلقّين، من خلال التّشويق إلى الخبر والإثارة إلى ترقّبه، حتّى إذا ورد ثبت في النّفوس، واستقرّ في العقول أنَّ من صفات المؤمنين - الّذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار - أنّهم يقولون قولًا جامعًا يُنبئ عن صفاتهم، فكان الخبرُ جامعًا للصِّفات المراد التّنبيه عليها؛ لتكون معيارًا في فهم اقتداء المتأخّرين بسلفهم الصّالح أن يُقتدى به، فما يقوله أولئك المقتدون هو العلامة الفارقة والجهة الجامعة في الحكم على صلاح المتأخّر في متابعة المتقدّم.

غرض التّعبير بصيغة الفعل المضارع:

الإيماءُ إلى الإعجاز الغيبيِّ بأنَّ المقتدين بصحابة رسول الله باقون إلى يوم الدّين

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وذلك لما يُفيده المضارع من استحضار الحالة المُتَحَدَّثِ عنها، كأنَّها ماثلة حاضرة يبدو فيها المؤمنون المتأخّرون رافعي أيديهم بالشّكر لربِّهم، والثّناء على إخوانهم، وطلب المغفرة والرّحمة لهم، فتعمل الصّورة عملَها في الإثارة إلى القيام بهذا العمل؛ لكونه محمودًا عند اللّه، ولكونه سببًا من أسباب الثّناء والرّضا على مَنْ يفعله.

يُزاد على ذلك ما يدلّ عليه المضارع من استمرار قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وتجدُّده بين الحين والحين، وعدم نسيانهم ذلك أو الفتور عنه[1]، مع ما فيه من الإنباء عن أخبارِ الغيب، فهم يقولون ذلك القول إلى يوم القيامة، ففيه دلالة واضحةٌ لمن تولّى اللّه رعايةَ فهمه وعلمه، بأنَّ هؤلاء المُقْتَدين بصحابةِ رسول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.

اللّه صلّى اللّه عليهم ماضون إلى يوم القيامة، لا يوقفهم جهل الجاهلين، ولا مغالطة المحرِّفين، فهُم على الجادّة مستمرّون.

نكتة التّعبير بمفردة ﴿يَقُولُونَ﴾:

القولُ إظهارٌ للدّعاءِ وتعليم للسّامع ودعوةٌ للجاهل

آثر النّظم الكريم استعمال فعل القول الموضوع لإبراز ما يُتَصَوَّر في النّفس[1]، دون (يدعون) الدالّ على السّؤال والاستغاثة[2]؛ للإشارة إلى أنّهم يضمرون ما يدعون اللّه به لهم في نفوسهم، ويريضوا أنفسهم عليه[3]، ولبيان أنَّ دعاءهم قولٌ يُسمَع، وقولٌ يُعلَّم، ولو أتى بفعل الدّعاء، فقال: (يدعون)؛ لاحتمل أن يكون الدُّعاءُ سرًّا، وأن يكون بين الدّاعي والمدعوِّ، والمراد إظهاره والدَّعوة إليه؛ ليكون منهجًا سائرًا بين النّاس، بأنَّ المقتدين اللّاحقين يحرصون على مضمون الدّعاء، ويدعون الآخرين لامتثاله.

غرض حذف حرف النّداء:

استحضار القرب الرَّبّانيِّ عند الدُّعاء وتعليم المؤمنين أدب الدُّعاء

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ جملة في محلِّ نصب مقول القول، بُدِئَت بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ بحذف حرف النّداء؛ للإشعار بقرب المنادَى سبحانه، وشدَّة احتياج الدّاعين إليه، وعظيم إقبالهم عليه، ويقينهم في اطِّلاعه على حبِّهم لإخوانهم الّذين سبقوهم، ورغبتهم في أن يلحقوا به، وثقتهم في أنَّ اللّه لن يخذلهم، وسوف يستجيب منهم، وقد شاع في القرآن حذف حرف النّداء؛ للإشارة إلى قرب الدّاعي من اللّه تعالى في يقينه في استجابة اللّه تعالى له، ولتعليم المؤمنين أنّ على المؤمن أن يعتني بتخليص نفسه عند الدُّعاء في استحضار القرب الربّاني، ويقينيَّة الاستجابة.

دلالة النِّداء بعنوان الرُّبوبيّة مضافًا إلى الضَّمير:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة المضاف إلى الضّمير

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (قول).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (دعا).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 97.

في لفظ ﴿رَبَّنَا﴾؛ استعطافًا وتمهيدًا لإجابة دعائهم؛ لما في الدُّعاء بالرّبوبيَّة من الإشعار بشدَّة الافتقار، وعظيم الاحتياج إلى تفضّله وامتنانه، وعدم استغنائهم عن نعمه وعطاياه الّتي يُسبِغُها عليهم في الدُّنيا والآخرة، وفيه أيضًا تأكيد لثقتهم فيه سبحانه، وحسن ظنِّهم به، ويقينهم بعدم خذلانه لهم، لما يشعُّ من اسم ﴿رَبَّنَا﴾ من معاني الرّعاية والحماية وقضاء الحاجات[1]؛ اعتبارًا بما كان لما سيكون، وتقويةً وتأكيدًا لما يُشعر به حذفُ حرف النّداء من القرب الشّديد، والاطّلاع المثير للإجابة.

الاعتبار بما كان لما سيكون استجلابٌ للطُّمأنينة وبرهانٌ على اليقين

غرض الأمر ودلالته:

غرض الدّعاء بصيغة ﴿ٱغۡفِرۡ﴾ التضرُّع إلى الله تعالى أن يتفضّل عليهم وعلى إخوانهم - الّذين سبقوهم إلى ركب الإيمان، وماتوا عليه - بالعفو والغفران، والصَّفح عن كلِّ ما صدر وكان.

لطيفة حذف معمول فعل الأمر:

حُذِف معمول فعل ﴿ٱغۡفِرۡ﴾؛ ليعمَّ رجاؤُهم وتوسُّلُهم جميعَ الذّنوب والخطايا الّتي لهم ولغيرِهم، فتعود صحائفُهم وصحائفُ مَنْ سبقوهم بيضاء ناصعة، والمعنى: أوقع السَّترَ على كلِّ النقائصِ: أعيانِها وآثارِها[2]، وهذا هو مقتضى الواقع، فإنَّهم لا يعلمون ذنوبَ غيرهم ولا خطاياهم، فلمّا أطلقوا الدُّعاء، ولم يجعلوه واقعًا على معنًى بعينه؛ ناسب ذلك الدّعاء للآخرين، وهذا دليلٌ على عظيمِ حبِّهم لإخوانهم، وفرطِ إشفاقِهم عليهم، وحرصهم على أن يُغفر لهم جميع ما عليهم، ففيه إشارةٌ إلى تقديم العناية بالدّعاء لإخوانِهم على العناية بالدّعاء لأنفسِهم، وهذا في غايةِ الوفاء وحفظ الودِّ لأصحاب السّبق من الصّحب الكريم.

تقديمُ العنايةِ بالدُّعاءِ للسّابقين على العناية بالدُّعاء للنَّفس غاية الوفاءِ وحفظ الودِّ

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (رب).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.

دلالة استعمال مفردة المغفرة:

جاء ذكر المغفرة ﴿ٱغۡفِرۡ﴾ دون التّوبة في دعاء المؤمنين؛ وذلك لما يدلُّ عليه طلبُ المغفرة من أملهم في إسقاط العقاب عنهم وعن إخوانهم، الَّذين عاشوا على الإيمان، وماتوا عليه، وإيجاب الثّواب لهم جميعًا بفضل اللّه وكرمه وواسع رحمته[1]، بخلاف الدّعاء بالتّوبة، فإنّه لا يكون إلّا للموجودين قيدَ الحياة؛ لأنَّها تعني: النّدم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة[2]، وهو ما يُؤكِّد ما جاء في النّكتة السّابقة من كونهم جامعين في دعائهم بين الدّعاء لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان، وهو ما يدلُّ على تمام العناية وكمال الرّعاية.

الدّعاء بالمغفرة يكون للأحياءِ والأموات والدّعاء بالتّوبة يكون للأحياء

معنى اللّام في: ﴿لَنَا﴾، وسرُّ تكرارها في: ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ حرف جرٍّ يفيد الاختصاص، ويؤكّد رغبة الدّاعين في أن تشملهم رحمةُ اللّه تعالى ومغفرتُه؛ لأنَّهم في غاية الافتقار إلى ذلك، ويعدون الحرمان منه خسرانًا كبيرًا لا طاقة لهم به، ولا سعادة لهم بدونه، وإعادة ذكر اللّام في المعطوف ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾؛ للتّأكيد والاهتمام بضرورة حصول المغفرة لإخوانهم مثل حصولها لهم تمامًا بتمام؛ لأنَّ سعادتَهم لن تكتمل، ونعيمَهم لن يتعاظم إلّا بحصول المغفرة لإخوانهم كما حصلت لهم، ومن دواعي الاستجابة التَّقرُّب إلى اللّه تعالى بالدُّعاء لأصحاب الفضل أصحاب السّبق.

الدُّعاء لأصحاب الفضل والسّبق سببُ الاستجابةِ للنّفسِ

لطيفة تقديم الدُّعاء للنَّفس على الدُّعاء للآخرين:

تقديم الدّعاء بطلب المغفرة للنّفس على طلب المغفرة للإخوان السّابقين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾، تأدُّبٌ في الدّعاء وتقدير لإخوانهم؛ إذ بدأوا بأنفسهم في مقام الخطأ والزّلل، وثنّوا

الأدبُ في الدُّعاء من أمارات الإيمان الصّادق والعمل الصّالح

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 235.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 235.

بإخوانهم من باب حسن الظنّ بهم، والاعتراف بأنّهم أصدقُ إيمانًا، وأكثر التزامًا، وإنَّما ذكروهم في دعائهم؛ "لأنَّهم كانوا السّبب في إيمانهم"(1)، فهو حفظٌ للودِّ واعترافٌ بالجميل.

فائدة وصف المؤمنين السّابقين بالإخوة:

العلاقة المعتبرة هي علاقة الإيمان الجامعة بين المؤمنين على أساسِ الأخوَّة

جاء التّعبير عن المؤمنين السّابقين بوصف الإخوة، فقالوا: ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العلاقةَ الّتي تربطُ بينهم وبين المهاجرين والأنصار ليست علاقة اللّاحق بالسّابق، ولكنّها علاقةُ الأخ بأخيه، فهم إخوةٌ جمع بينهم الدّينُ برباطه القويِّ المتين، وإن لم تجمع بينهم رابطةُ الرّحم والنّسب، ورباطُ الدّين أقوى وأعظم من أيِّ رابطٍ آخر(2)، وفي إضافة وصفهم إلى ضمير المتكلّمين في قولِهم: ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ ما يؤكّد قوَّةَ هذه الرّابطة ومتانتِها، فهم جميعًا كالجسد الواحد واللّفظ الواحد، الّذي لا يُفيد معنى؛ إذا انفصل عنه حرفٌ من حروفه، أو مُكَوِّنٌ من مكوّناته.

نكتة التَّعبير بالصّيغة:

عادةُ القرآن التَّعبير عن ذوي الأرحام بالإخوة، وعن غيرهم بالإخوان

آثر النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ: ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ دون: (إخوة)؛ جريًا على ما درج عليه البيانُ القرآنيُّ في أغلب المواضع من التّعبير عن ذوي الأرحام بلفظ: (إخوة) والتَّعبير عن غيرهم من الأصدقاء، أو مَنْ تجمعهم أُخوَّةُ الدّين العظيم بلفظ: ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾(3)، أمّا قولُه تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10]؛ ففيه إلماح إلى ضرورة أن تكون العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم كعلاقة الإخوة من النّسب؛ اتّساقًا مع غرض السّورة القاصدِ إلى تقويةِ أواصرِ المسلمين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.
(3) الزركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 18.

بلاغة الوصف بالاسم الموصول:

من جميلِ شيَمِ اللاحقين ذكرُ مآثر السّابقين

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل جرٍّ صفة لـ (إخوانِ)، آثر المبتهلون وصفَ إخوانهم به؛ ليتوصَّلوا من خلال جملة: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الواقعة صلة له إلى بيان العلَّة[1]، الّتي دفعتْهم إلى الدّعاء للسّابقين بالرّحمة والمغفرة، أي: لأنَّهم سبقوا بالإيمان، فأصبحوا إخوانًا يوثق بالاقتداء بهم.

نكتةُ تقييد فعل السّبق بالمفعول:

إظهار فضلِ السّابق مِن اللّاحقِ إيمانٌ سابق

تعدَّى فعل السّبق إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون أن يقول: (سبقوا)؛ إقرارًا بتقدُّمهم عليهم في الانضمام إلى ركب المؤمنين الّذين ساندوا رسولَ اللّه ﷺ، ونالوا شرف نصرته بالهجرة والإيواء والإيثار، وترفيعًا لشأنهم، واعترافًا بفضلهم، وزيادة في استعطاف الحقِّ ﷻ بقبول دعائهم، فيسعدوا سعادةً لا شقاءَ بعدها أبدًا.

نوع الباء ودلالتها:

الإيمانُ هو المعتبر في فضل السّباق إلى الخير

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ جار ومجرور متعلّق بفعل ﴿سَبَقُونَا﴾، والباء فيه حرف جر يفيد المصاحبة، والمعنى: سبقوا بالإيمان مع رسول اللّه، وظلّوا متمسّكين به، دائمين عليه إلى أن لقوا ربَّهم به، ويمكن أن تكون الباء بمعنى (إلى)، والمعنى: سبقونا إلى الإيمان برسول اللّه، واستقبلوا معه وحي اللّه، وصاحبوه، وعزَّروه، ونصروه، وتلك مزايا تدفع إلى الدّعاء لهم؛ طمعًا في اللّحاق بهم.

فائدة ذكر الإيمان دون الإسلام:

ذكر الإيمان دون (الإسلام)، في قوله تعالى: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، فلم يقل: (سبقونا بالإسلام)؛ وذلك لأنَّ الإيمان دالٌّ على الأعمال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 443.

الظّاهرة والباطنة، فالإيمان يشمل الإسلام دون العكس، فهم يثنون على السّابقين الثّناء العطر، ويُقدِّمون بين يدَيّ دعائهم أسباب القبول بأنّهم مؤمنون، ففيه وصفٌ مادح للذّات بالتَّبَع دون تزكية مباشرة، وهذا من بديع الأدب في الدّعاء.

الوصف المادح للذّات بطريق التَّبَع دليل الأدب في الدُّعاء

وللإشارة إلى أنّهم لم يكونوا مجرّد مسلمين، بل كانوا ممَّن تغلغل الإيمان في قلوبهم، وقدَّموا لأجله الغالي والنّفيسَ من الدّيار والأموال والأراضي، وآثروا إخوانهم من غير أن يجدوا في أنفسهم أدنى حاجة، وذلك لا يفعله إلّا من خالط الإيمان قلبه.

وجه العطف بالواو:

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الصِّنف من المؤمنين لا يُفَرِّقون في المحبَّة والتَّقدير بين السّابقين عليهم، والمعاضدين لهم، فبعد أن "لقَّنهم اللّه تعالى حسنَ الخلافة لَمن مهَّد لهم ما هم فيه، أتبعه تلقين ما يعاشرون به أعضادَهم الّذين هم معهم على وجه يعمُّ مَن كانوا قبلهم"[1].

اللّاحقون لا يفرِّقون في المحبَّة بين السّابقين عليهم والمعاضدين لهم

غرض النَّهي، ولطيفة التَّعبير بفعل الجعل:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ أسلوبُ نهي، غرضُه الدُّعاءُ والتوسُّلُ إلى اللّه تعالى بألّا يكون في قلوبهم شيءٌ من الغلِّ والحقد تجاه إخوانهم المؤمنين، سواء منهم السّابقون أواللّاحقون، وآثر الدّاعون تسليط النّهي على فعل الجعل الدالِّ على الإنشاء[2]؛ للإشارة إلى رغبتهم في تنقية قلوبهم من الغلِّ لإخوانهم، وعدم الإبقاء على أيِّ شيء يؤثر على أقوالهم وأفعالهم ومشاعرهم تجاههم، كما أنَّ فيه إيماءً إلى طلب دخول الجنّة، فهو الموضع الّذي يُنزَع فيه الغلُّ من قلوب المؤمنين بالمطلق.

الإيماءُ إلى طلب دخول الجنَّة بنزع الغلِّ المطلق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.

(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 159.

لطيفة إسناد فعل الجعل إلى ضمير المنادى:

التخلُّص من الغلِّ لا يكون إلّا بمعونةٍ إلهيَّة

أوثر إسناد فعل الجعل في قول المؤمنين: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾، إلى ضمير المُنادَى الّذي سبق ذكره في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾؛ للإعلام بأنَّ التخلُّص من الغلِّ وغيره من أخطار النّفس - الّتي هي أعدى الأعداء - لا يكون، ولا يحصل إلّا بمعونة اللّه تعالى وتوفيقه، وهو ما يوجِب الالتجاءَ إليه، والحرصَ على التذلُّل له[1].

بلاغة حرف الظرفيّة:

التَّخلُّص من الغلِّ الخفيِّ والظّاهر سواءٌ في دعاء الموفّقين

أوثر استعمال حرف الظرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدّلالة على رغبتهم في ألّا تكون قلوبُهم أوعيةً لشيء من الغلِّ تجاه إخوانهم المؤمنين، سواء أكانوا سابقين أم متأخِّرين، كما أنَّ الظرفيَّة دلَّت على طلب التخلُّص من جميع مكامن الغلِّ وخفاياه، بحيث لا يبقى منه شيءٌ في أي جانبٍ أو زاوية من زوايا القلب.

دلالة التّعبير بالقلوب:

رذائل النَّفس قلَّ أن تنفكَّ، والأفضل هو الدُّعاء بإخلاء القلوب منها

يُفهم من دعاء المؤمنين بعدم جعل شيء من الغلِّ في قلوبهم أنَّ "رذائل النّفس قلَّ أن تنفكَّ، وأنَّها إن كانت مع صحّة القلب أوشكَ ألّا تؤثر"[2]، لكنَّ الأفضل أن يمنَّ اللّهُ عليهم بإخلاء قلوبهم منه، لما هو معروف عن القلب من خاصيَّة التقلُّب، وهم لا يحبّون أن تتغيَّر مشاعرهم نحو إخوانهم مهما كانت الأسباب.

نكتة استعمال القلوب:

إذا خلا قلب المؤمن من الغلِّ صَفيت له بقيّة الأعضاء

آثر النّظم استعمال مفردة القلب دون رديفاته، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا﴾ دون: (ولا تجعل في أفئدتنا أو صدورنا) مُؤْثرين التَّعبيرَ بلفظ القلب لما له من سيطرة على البدن، وأثرٍ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.

توجيه مشاعر الإنسان وأقواله وأفعاله، ومن ثمَّ فإنَّ خُلوَّه من الغلِّ يدلُّ على تجاوب جميع أعضاء البدن وخضوعها له في ذلك، فلا يظهر الغلُّ في قول اللِّسان، ولا في نظرة العين، ولا في إنصات الأذن للوشاية، ولا في مشاعر الفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: 10]، فإذا كان الرَّبطُ على القلب سببَ ضبطِ مشاعرِ الفؤاد، فذِكر القلب دليلٌ على طلب صفاء أصل الإيمان، فإن صَفي؛ صفي ما بعده.

براعة جمع القلوب:

الدُّعاء الجامعُ يـصـدر عـن مجموع المؤمنين لا عن آحادهم

جُمع لفظ القلب في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا﴾؛ للدَّلالة على أنّ هذا الدّعاء صدر عن الجميع، ودلّ على حرص كلّ واحد منهم على تخليص قلبِه وقلوبِ إخوانِه أجمعين من الغلِّ بجميعِ صورِه وأشكالِه ومقاديرِه، ما يعني: أنّه لا يخفى عليهم جميعًا تنافي وجود شيء من الغلِّ - قلَّ أو كثر - في قلوب بعض المؤمنين مع الإيمان، وتضاد ذلك مع المحبَّة وتأثيره فيها، أي: إنَّهم فطنون لذلك، منتبهون لخطره، ومن ثمَّ يتضرّعون إلى الله تعالى برفْعِه من جميع القلوب بلا استثناء، وهو يدلُّ على أنَّ الخلاص من الغلّ في قلوب المجموع يقود إلى الصّفاء لدى الجميع.

دلالة التّعريف بإضافة القلوب للضّمير:

فـهْـمُ الـنَّـفـسِ مقدِّمةٌ للتّوفيق فـي الـدّعـاء وحسن الالتجاء

في إضافة لفظ القلوب إلى الضّمير، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا﴾، دليلٌ على وعيهم بقلوبهم وإحاطتهم بطبائعها وخوفهم الشَّديد من تقلُّبها، وعدم ادّعاء العصمة أوالملائكيّة، وبرهانٌ على تواضعهم وانكسارِهم لإخوانِهم، وهو ما يجعل دعاءهم حريًّا بالقبول، ويبرهن على محبّتهم الصّادقة للمؤمنين.

نكتة تقديم قيد ﴿فِي قُلُوبِنَا﴾ على المفعول:

قُدِّم ذكر الجارّ والمجرور: ﴿فِي قُلُوبِنَا﴾ على المفعول: ﴿غِلّٗا﴾؛

للدّلالة على اهتمامهم بتنقية قلوبهم وخلاصها من أمراضها، فتقديم القلوب باعتبارِها بيت الدّاء؛ فإن خلتْ من دائها؛ عرفت دواءها.

فائدة استعمال مفردة الغلّ دون مقارباتها:

الـغـلُّ سبب رئيس في أمراض الـقـلـوب وجـذرٌ راسخٌ في القلوب

آثر البيانُ التَّعبيرَ عن المفعول بوصف الغلِّ في قول المؤمنين: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾؛ لأنَّه يتغلغل في النّفوس خِفية، ويتسرَّب إليها من غير إدراك أو وعي، ولأنَّ غيره من أدواء القلوب وأمراضها كالحقد والحسد والضّغينة ناتج عنه؛ لما فيه من حرارة وغليان يوجب الانتقام[1]، ويدعو إليه، ما يؤكِّد أن تخليص القلب منه لا يكون إلّا بعون اللّه وتوفيقه، كما أنَّ الخلاص منه سببٌ رئيسٌ لبقاء حبِّ المؤمنين في القلوب، ودوام إيثارهم على النّفوس.

نكتة تنكير لفظ: ﴿غِلّٗا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿غِلّٗا﴾؛ لِما يفيده التَّنكيرُ من عموم المعنى وشموله الغلَّ بجميع صورِه وأشكالِه ومقاديرِه، والمعنى: لا تجعل في قلوبنا ضغنًا ولا حسدًا ولا حقدًا ولا غشًّا ولا بغضًا[2].

نوع اللّام ودلالتها:

اخــتــصــاص المؤمنين بصفاء القلوب وخُلوِّها من الغلّ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد اختصاص الّذين آمنوا بصفاء القلوب، وتخليصها من الغلِّ نحوهم بجميع صوره وأشكاله، ففي الدُّعاء تعليمٌ للمؤمنين بأنّ الغلَّ المطلوب دفعه هو ما يخصُّ الّذين آمنوا، وليس لعموم النّاس، ويمكن أن تكون اللّام للتّعدية، والمعنى: لا تجعلْ في قلوبِنا شيئًا من الغلِّ واصلًا لإخوانِنا المؤمنين.

غرض التّعبير بالاسم الموصول:

الاسم الموصول ودلالـــة طلب الاستغفار

آثر النّظم التّعبير بالاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليُنبِّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 509، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.

على علَّة طلب الاستغفار وهو الإقرار "بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته"[1].

سرُّ فصل جملة الفاصلة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

تعليلُ الدُّعاءِ أدب المعترفِ بصفات المدعوّ

جملة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ يؤكِّد قدرةَ اللّه تعالى على إجابة دعاء المبتهلين[2]، فهي مفصولةٌ عمّا قبلها لكمال الاتّصال الّذي تنزل فيه الجملة الثّانية من سابقتها منزلة التّابع من المتبوع، فتفصل عنها كما يُفصلان عن بعضهما، ويمكن أن تكون الجملةُ تعليلًا لِما طلبوه من اللّه تعالى مِن المغفرة لهم ولإخوانهم، ومِن إخلاء قلوبهم من الغلِّ للمؤمنين، فتُفصَل عن سابقتها كما يُفصَل السَّببُ عن المسبَّب، فكأنّه قيل: ربَّنا اغفر لنا؛ لأنَّك رؤوف رحيم.

نكتة تكرار النّداء بوصف الرّبوبيّة مضافًا إلى الضّمير:

إظهار لذّة الدُّعاءِ بذكر الاسم المقتضي للعنايةِ والرّعاية والتّربية

آثر النّظم الكريم إظهار عنوان الرّبوبيّة في جملة الدُّعاء، فلم يقل: (ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا إنك رؤوف رحيم)، فكرّر ذكر الرّبوبيّة؛ للإشعار بشدّة التجائهم للّه، وعظيم افتقارهم إليه، وهول رغبتهم فيه، وصدق التذلُّل والإثارة بالوصف الدّال على أنَّ تحقيقَ دعائهم فيه من الرّعاية لهم والعناية بهم وقضاء مصالحهم ما اللّه به عليم، مع الإيماء إلى لذّةِ الدُّعاء بذكر الاسم الدّال على العناية والرّعاية والتّربية.

بلاغة التّوكيد في جملة الفاصلة:

مع تمام الثِّقة بالإجابة بحسن التّوكيد

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ والجملة الاسميّة، وتقديم المسند إليه على الخبر المشتقّ؛ للإبلاغ في إعراب المؤمنين عن ثقتهم التّامة في قدرة اللّه على تحقيق مطالبهم، وإجابة دعائهم؛ لعهدهم به رؤوفًا رحيمًا، جديرًا بإجابة الدّعوات،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

حقيقًا بتحقيق المطالب، وقضاء الحاجات، وهو توكيدٌ للنّفس الدّاعية بغرض إثبات شديد الإيمان، وقوّة الالتجاء.

دلالة التّعبير بصيغة المبالغة في صفات الله:

عهد المؤمنين بالله أنّه مجيب للدّعوات قاضٍ للحاجات

آثر الدّاعون تذييلَ دعائِهم بالإخبار عن الله تعالى بوصفي الرّأفة والرّحمة بصيغتين من صيغ المُبالغة؛ أولاهما بزنة (فعول) ﴿رَءُوفٌ﴾، والأخرى بزنة (فعيل) ﴿رَّحِيمٌ﴾، والسِّرُّ في ذلك الإشارة إلى أنّهم ما ألحّوا في الدّعاء، وما قاموا بالتضرّع إلّا لثقتهم في رأفة ربّهم ورحمته، وعهدهم به مجيبًا للدّعوات قاضيًا للحاجات، رؤوفًا بالمقصّرين، رحيمًا بالعاصين، والمعنى: مبالغٌ في الرّأفة والرّحمة، حقيقٌ بأن تُجيب دعاءنا[1]؛ لأنَّك راحمٌ أشدَّ الرّحمة لمن كانت له بك وصلةٌ بفعل من أفعال الخير، رحيمٌ مُكرِمٌ غايةَ الإكرام لمن أردتَه، ولو لم يكن له وصلةٌ، فأنت جدير بأن تُجيبنا؛ لأنّا بين أن يكون لنا وصلةٌ؛ فنكون من أهل الرّأفة، أو لا؛ فنكون من أهل الرّحمة[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغِلُّ والبُغضُ:

الغِـلُّ ضغينةٌ تـتـغـلـغـل فـي الـقـلـب، والـبـغـض نفارٌ عن المبغوض

الغِلُّ: الضِّغْنُ والشَّحْناءُ والحِقْدُ الّذي يخالط القلبَ، ويُبقي فيه حدّةً تتخلّل إلى القلب، وتَبقى فيه[3]، والبُغْضُ هو: نفارُ النَّفس عن الشّيء الّذي ترغبُ عنه، وهو ضدُّ الحبّ، فإنّ الحبَّ انجذابُ النّفس إلى الشّيء، الّذي ترغب فيه، يقال: بَغُضَ الشّيء بُغْضًا وبَغَضْتُه بَغْضاء[4]، ولمّا كان السّياقُ للابتهال والتضرّع بدوام الحبّ في قلوب المتأخّرين للسّابقين والمعاضدين؛ أوثر تسليطُ الجعل المنهيِّ عنه على (الغلّ) لا على غيره؛ لكونه السّببَ المحرّك لجميع أدواء القلوب

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 444.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غل)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلو).

(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (بغض).

وأحقادها، ما يعني أنَّ السلامة منه أنجع للقلب وأشفى للصّدر وأضمن لدوام السّلامة والمحبَّة لجميع المؤمنين، بخلاف ما لو قيل: (ولا تجعل في قلوبنا بغضًا)؛ لدلالته على إزالة الكراهية مع بقاء أسبابها.

المحتويات

